ABDUL - QADIR

1

كتاب

تحفة الزائر

في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر

الجزء الاول

❊ سيرته السيفية ❊

قال ابو تمام

مِنَ النَّاسِ مَيْتٌ وَهْوَ حَيٌّ بِذِكْرِهِ * وَحَيٌّ سَلِيمٌ وَهْوَ فِي النَّاسِ مَيِّتُ

بالمطبعة التجارية ـ غرزوزي وجاويش ـ بالاسكندرية
سنة ١٩٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احاط بكل شيء علما . وانفذ في كل مخلوق قضاء ازليا وحكما . له الملك الذي ليس له ابتداء . ولا لمدده وأمده انقطاع وانتهاء . وله الخلق والامر وبيده النفع والضر . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الناهض باعباء الرسالة . ومالك ازمة المجد والجلالة قائد جيوش النبوّة . وعاقد لواء البسالة والفتوّة . وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه . وناضلوا من حاد عن سنته بالسيوف والاسنة . وبذلوا نفيس الانفس في محبته . ومن اقتفى آثارهم في نصرة دينه من امته . الى يوم الدين آمين . (اما بعد) فيقول الفقير الى مولاه الغنيّ . ✻ محمد ابن الامير عبد القادر الحسني ✻ . سدد الله عمله . وبلغه ما رامه واّمله . بينما شمس سماء سيادتنا في افق المغرب الأوسط طالعة . واشعة انوارها على رياض اقطاره ساطعة . وربوعنا باهل الفضل معمورة . وقصادنا بانواع المواهب مغمورة . اذ فاجأتنا طوارق الدهر . وجاءتنا جنود فرانسا من البحر كالذر . فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية . ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية . واتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة . ولعرى الحزم والعزم فاصمة . ثم كاثرونا بالخيل والرجل . وساورونا في الحزن والسهل . فقابلنا اعمالهم بالمثل . حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب . واستحكم الوهن فيها بتمكن الاسباب . ولقي ريحنا اعصارا . واشرب صفونا اكدارا .

وثم امور تشيب الوليد ✲ وترجع بالاشيب القهقرا

ومع ذلك لم نترك المدافعة الى انقضاء المدّة . واستكمال الامارة من ايامها العدّة . فاحاطت بنا جيوش تعدو وتناوش . من دولتي فرانسا ومراكش . ولله في خلقه علم الغيب . وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب . ومن شان الدوائر ان تدور . ولابد من اعتراء الخسف للبدور .

وفي السماء نجوم لا عداد لها ✲ وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما اراد الله تعالى ان لا نثبت في وجوههم . ولا نقوم بدفع صدماتهم وهجومهم . راينا التسليم

للاقدار اولى . وان النصر ليس الا بيد المولى . فالقينا السلاح للفرنساو بين بشروط مقرّرة . وعهود بيننا محرّرة . و بالقدر فارقنا البلاد . وارتحلنا عن محل الطارف والتلاد . فعبثت بها ايدي النوائب . و رشقتها المحن بالسهام الصوائب . وغودرت منازلها صماء عمياء . وصودرت معاقلها بداهية دهماء . وامست من كرام اهلها خالية . واصبحت عاطلة بعد ان كانت حالية . وانمحت رسوم ذلك القطر العزيز واندثرت . وانفصمت عقود ايامه وانتثرت . ولا غرو فان الدهر ذو غير . وكل شيء بقضاء وقدر .

هذا الذي سبق القضاء به * والدهر بين الناس ذو دول

فلبثنا في فرانسا خمسة اعوام . صابرين على القدر صبر الكرام . نستنجز من الحكومة سالف عهدها . ونترقب منها وفاء وعدها . الى ان سلك الله بنا للنجاة منهجا . وجعل لنا من امرنا فرجا ومخرجا . ومنّ علينا بالانطلاق من ذلك الاعتقال . والانتقال على مطايا الراحة مع الصحب والآل .

لا تيأسن من انفراج شديدة * قد تنجلي الغمرات وهي شدائد

ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر الى ان وصلنا اسلامبول المحمية . دار السعادة ومقر الخلافة الاسلامية . فمكثنا بها سبعة ايام . لا زالت منهلا للخاص والعام . وتشرف سيدي الوالد بمقابلة حضرة ساكن الجنان . مولانا (السلطان الغازي عبد المجيد خان) . فخلع عليه خلع اللطف والاحسان . ثم توجهنا الى بروسة بقصد الاقامة . فاقمنا بها عامين وستة اشهر في عز وكرامة . وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة . مست اهلها بمصائب جسيمة . فيممنا البلاد الشامية . ونزلنا بالديار الدمشقية . والقينا فيها عصا الترحال . وحللنا عقدة الرحال . فائزين بكمال التبجيل والاحترام . حائزين اعلا منزلة وارقى مقام . ملحوظين بانظار الدولة العلية . مشمولين بصنوف مواهبها السنية . لا يتقدم علينا احد في المحافل . ولا يرد وارد قبلنا للمناهل . منزلنا ملجأ للعموم . ومنجأ لكل مظلوم . فيه الري لكل صادى . سواء العاكف فيه والبادي . ومع ما انا فيه من السرور . وكمال العز والحبور . كان يغلب عليّ في اغلب الاحيان . تذكر الأهل والاوطان . فتتحرك مني السواكن . وتنبعث منها الاشواق الكوامن . سيما اذا مررت بمنظر يروق . واومضت من ناحية المغرب بروق

ذاك الزمان هو الزمان وغيره * لافرق بين فنائه ووجوده

وما عسى ان اذكر في اقليم وقع على فضله الاتفاق . وحاز قصب السبق على غيره بالاستحقاق . فهيهات ان تنقطع له مني المدائح . ولو قطعت تغريدها الحمائم الصوادح . فان شوقي اليه شوق البلبل الى الورد . وامرؤ القيس الى الابلق الفرد .

لا الجزع يسليني ولا وادي الغضا * عنها ولا نجد ولا الدهناء
لا رامة رومي ولاحزوى ولا * وادي النقا والخيف والخلصاء

كيف لا وهي كما قيل ·

بلاد بها ميطت عليّ تمائمي * واول ارض مس جلدي ترابها

وعن سيد ولد عدنان · حب الوطن من الايمان · وقالوا يحن اللبيب الى وطنه · كما يحن النجيب الى عطنه · وقيل لبعض الحكماء بم يعرف وفاء الرجل و زمام عهده قال بحنينه الى اوطانه · وتشوّقه الى اخوانه · وكانت ترد علينا بعض الوفود · فيذكروننا بسالف العهود · ثم نتجاذب أعنة الحديث · ونأخذ في القديم منها والحديث · فتؤدينا المناسبة الى ذكر احوال سيدي الوالد · الصافية موارد بره للصادر والوارد · ناصر الدين · امير الغزاة والمجاهدين

اذا قيل سميه اقول مكنيا * هو الغاية القصوى هو الآية الكبرى

فكنت اخبرهم عما وقع له من الوقائع الجسيمة · والحروب الهائلة العظيمة · التي عرف بين الناس قدرها · واشتهر على الالسنة ذكرها ·

وسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبت هبوب الريح في البر والبحر

وكثيرا ما كنت احدثهم عنها بما يستغرب ويستبدع · ويحفظ في خزانة النفوس ويستودع · مما يرقص الجماد منه طربا · ويقضي السامع من غرائبه عجبا · فيشنفون بذلك مسامعهم · ويعطرون به محافلهم ومجامعهم · يرتاحون اليه ارتياح الكريم الى الوفود · ويتعطشون اليه تعطش الصادي الى الورود · ويودون تدوينه في كتاب · ليبقى ثابتا مدى الازمان والاحقاب · يبلغه الشاهد للغائب · ويسير ذكره في المشارق والمغارب · فيتلقاه بحسن القبول من كان الادب مطمح نظره · ويرويه رواية الحديث الصحيح من رام ان يقبض قبضة من اثره · فيجعله لصحائف الشمائل عنوانا · ويرتب له في عجائب المآثر ديوانا · لانه من اهم ما تتعلق الهمم العلية بجمعه وتأليفه · وانفس ما تتعشق النفوس الزكية حسن تدوينه وتصنيفه · فحرضوني على القيام بهذا المندوب · والتصدي لامعان النظر فيه حسب المطلوب · وقالوا لا يخفى ان تحرير احوال الاكابر · وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر · لمن سنة الكرام التي مضى عليها عملهم · وطريقة اهل العرفان التي نيط بها املهم · لاسيما هذا الامير الشهير · والسيد الجليل الخطير · من تحلت بثنائه العاطر · ألسنة اعاظم الاكابر · وتشنفت اسماع الورى

في سائر الاطراف . بحسن سيرته وما حازه من بديع الاوصاف . وتهادت اخباره كافة الدول . تهادي لذيذ الكرى للمقل . حيث اشبه من السلف عمر بن عبدالعزيز في زهده ورشاده . ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده . وحكي الشيخ الاكبر فيما يؤثر عنه ويذكر . بل الاحرى ان يقال . كان لجده الكرّار مثال . في الجمع بين الاضداد . واحرز مناقب العلماء والامراء والابطال والعباد . وهو الجدير بان تنشر احاديثه وتحرر . وتتلى آياته مدى الدهر وتكرر . بل حريٌّ بان ترقم بالتبر جميع احواله واموره . وتضبط وقائع ايامه واعوامه وشهوره . فقلت لعمري قد اصبتم فيما ذكرتم . وحق ان تجابوا الى ما به اشرتم . ولكن اين الطرق والاسباب . الموصلة لفتح هذا الباب . فلم يقبلوا مني عذرًا . بل كرروا ذلك عليَّ المرة بعد الاخرى . وقالوا لا يعزب عنك شيء من ظاهر حاله وخافيه . فانك ابنه ومحل سره ورب البيت ادرى بما فيه . فقلت لقد حملتموني شيئًا ادًّا . وكلفتموني احصاء نجوم السماء عدًّا . فان حال هذا الامير لاتفي به عبارتي . ولا تحيط ببعض معانيه اشارتي .

وماذا عسى بالوصف يبلغ مقولي ☆ ولو مدت الاقلام من مدد البحر

ويكفيه ان الخصم الالدّ . تكلم فيه بلسان الخل الأودّ . بل صار كالمثل السائر . وخلد في بطون الصحف والدفاتر ☆ حكى مسيو اسكندر بالمار في تاريخه عن المارشال سوليت الفرنساوي انه قال لبعض اصحابه سنة الف وثمانمائة واربعين لايوجد الآن احد في العالم يستحق ان يلقب بالاكبر الا ثلاثة اشخاص كلهم مسلمون وهم الامير عبد القادر ومحمد علي باشا والشيخ شامل .

ومليحة شهدت لها ضراتها ☆ والفضل ما شهدت به الاعداء

وحيث لم اجد بدًّا عن اجابتهم . ولا مندوحة عن اطاعتهم . استخرت الله تعالى وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد . لجمع ما استعين به من المواد . فجلبت تواريخ وقائعه المدونة باللغة الافرنجية . وتكلفت ترجمتها الى العربية . وبعد مطالعتها وامعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد اصاب . والبعض اخطاء جادة الصواب . وحافظ فريق على انتصارات قومه . ونسي الآخر احوال امسه وذكر وقائع يومه . قال لوليس فاليوت كاتب اسرار المارشال بيجو في تاريخه المسمى الفرنساويين في الجزائر كانت قواد الجيش تحرر لوزارتها . خلاف ما كانت تحرره كتاب الجرائد لادارتها . فلذا

وضعت الاخبار في ميزان واحد . وجعلت الحكم العدل فيها شهادة سيدي الوالد . فانه رب تلك المشاهد . ولا يستوي الغائب والشاهد . وقد استخرجت من آثار مولاي خبرًا يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى . و يتعطر بعبير نشره العاطر كل مغنى . ولما رايت افاضل الوقت متشوقين الى اخبار بلاد الجزائر وما فيها . متشوفين الى من يدلهم على جلي احوالها وخافيها . ظهر لي ان اذكر في المقدمة جملة كافية من جغرافية المغرب لاسيما المغرب الاوسط الذي هو موطن اسلافي . ومألف آلافي . وابين ما اشتهر فيه من المدن والامصار . والجبال والانهار . ثم اذكر طرفًا من اخبار المبدا اساسًا لما اثبته . وتمهيدًا لتفصيل ما اجملته . واذكر ما سلف في اقسامه الثلاثة من الدول . ومن عمرها من الامم الاول . وما جرى فيها من عظائم الحروب . وتعاورها من غرائب النوائب والخطوب . واختصر ذلك على وجه يستحسنه السامع . ويبتهج به المطالع . ولما فرغت من ترتيبه . وامعنت النظر في تحريره وتهذيبه . حصرته في قسمين الاول في سيرته السيفية . والثاني في سيرته العلمية وسميته ﴿تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر﴾ فسطت عليه يد من لا بارك الله باصله ونسله . وسرقته عمدًا من حرز مثله . جزاه الله على ما ابداه من حسده . في نفسه وماله وولده . ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد . لجمع ما تفرّق من المواد . بعد ان فقد منها الاكثر . وبقي من المسودة ما لا يذكر . فجاء مطابقًا للاصل . وخاب من الحاسد والمنة لله الامل

﴿ المقدمة في ذكر جغرافية اقسام المغرب ﴾

قد تقرر عند علماء هذا الفن ان حدود قارة افريقية غربًا البحر المحيط الغربي وشرقًا بحر الهند وبرزخ باب المندب والبحر الاحمر و برزخ السويس وشمالاً البحر الابيض واما حدود افريقية الشمالية مع المغرب فغربًا البحر المحيط الغربي وشرقًا ارض النوبة و بلاد مصر ومن الجنوب صحراء نيسر وهي متصلة من المغرب الى المشرق ذات مفاوز يسلكها تجار المغرب الى السودان الغربي وفيها مجالات لقبائل الملثمين وعلى سمت هذه المفاوز شرقًا ارض فازان و بلي صحراء نيسر الى جهة الشمال منها العرق الممتد من اولها الى آخرها وفي جهة المشرق منه بلاد السودان الشرقي ويحدها شمالاً البحر الابيض وفي الجزء من حدها الغربي الى جهة الجنوب جبل دَرَنَ معترضًا في المغرب كله من غربيه عند البحر المحيط الى انتهائه شرقًا وفي القطعة الغربية التي بالقرب منه وعلى البحر المحيط رباط ماسا ويتصل به بلاد سوس وعلى سمتها شرقًا لجهة الجنوب بلاد درعة ثم بلاد سجلماسا ثم

قطعة من صحراء نيسر وفي آخرها مواطن زناتة ثم ان جبل درن من جهة الغرب مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها مدينة الرباط وسلا والعرايش وفي الجوف من بلاد مراكش بلاد فاس ومكناس وتازا وقصر كتامة وقد كانت في عرف اهلها تسمى بالمغرب الاقصى وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وتسمى الواسطة وتعرف الآن ببلاد الجزائر وقاعدتها قديمًا مدينة تلمسان واما الآن فمدينة الجزائر وفي سواحل هذه البلاد على البحر الرومي مدينة وهران ومستغانم وتنس وشرشال والشوبك والجزائر وفي شرقي بلاد الجزائر مدينة بجاية ثم قسنطينة في الشرق منها وفي الجنوب منها بلد مسيله ثم بلاد الزاب وقاعدتها قديمًا بسكره وهي تحت جبل اوراس المتصل بجبل درن الذاهب في افريقية الشمالية غربًا وشرقًا . وينقسم الى قطعتين جنوبية وجوفية فالقطعة الجنوبية غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلاد غدامس وفي سمتها شرقًا بلاد فازان واما القطعة الجوفية ففي غربيها تبسه وعلى ساحل البحر بونه وهي عنابه وفي سمت هذه البلاد شرقًا بلاد افريقية في عرف مؤرخي الاسلام فعلى الساحل مدينة تونس ثم سوسه ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن من جهة الشرق بلاد الجريد وتوزر وقفصه ونفزاوه وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القيروان وعلى سمت هذه البلاد كلها بلاد طرابلس على البحر وبازائها في الجنوب جبل دمر ومنازل قبائل هوّاره متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس في القطة الجنوبية بلدة صغيرة تعرف بسويقة ابن مشكور وفي جنوبها ارض فازّان ثم رمال وقفار و بين الجبل والبحر في الجهة الغربية بلداجدابية ثم برقة ثم منعطف الجبل ثم طلمسا وهي بلدة صغيرة على البحر واعلم ان المغرب في عرف قدماء الجغرافيين قطر واحد يحده غربًا البحر المحيط ويسميه المتاخرون الاقيانوس الاتلانتيكي وشمالاً البحر الرومى يخرج من خليج متضايق بين طنجة وطريف من بلاد الاندلس وجنوبًا جبال هائلة حاجزة بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند اهل البادية بالعرق وهو سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئًا من البحر المحيط ذاهبًا الى جهة الشرق على سمت واحد الى ان يعترضه النيل الهابط من الجنوب الى ارض مصر وبه ينقطع وللمغرب ايضًا سياج آخر من الجبال مما يلي التلول تعرف بالاطلس وهي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في المغرب الى بلاد برقة شرقا وهنالك ينقطع ويسمى مبدؤها من المغرب

جبال درن وفي غيره من المواطن تسمى باسماء متعددة عند ساكنيها وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق المذكور بسائط وقفار واما من جهة الشرق فالبحر الاحمر الى بلد السويس فيدخل اقليم مصر واقليم برقة في الحد وعليه فالمغرب جزيرة احاطت بها البحار من الجهات الثلاث . واما على اصطلاح المتاخرين الذين قسموا الارض الى قارات احداها قارة افريقية فجميعها جزيرة وقد تم ذلك باتصال البحرين بفتح خليج السويس وهذا آخر المغرب عندهم شرقًا والمعول عليه في هذا الزمان والعرف الجاري بين سكان اقسام المغرب الثلاثة لايدخل فيه اقليم مصر ولا برقة وانما يختص بطرابلس وما وراءها الى جهة المغرب اما المغرب الاقصى فهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق الى مدينة آسفي حاضرة البحر المحيط من سوس الاقصى غربًا ويحيط به البحر المحيط من غربيه والرومي من شماليه والجبال المتصاعدة المتكاثفة مثل درن من جهة الجنوب وجبال تازا من جهة الشرق وقاعدته لهذا العهد مدينة فاس واما المغرب الاوسط فهو ما بين وادي ملوية غربًا الى مدينة بجاية شرقًا وقاعدته تلمسان واما المغرب الادنى ويعرف بافريقية فهو من بجاية الى طرابلس شرقًا وكانت قاعدته الى اواسط المائة الخامسة من الهجرة مدينة القيروان ولما تغلبت العرب على افريقية احاط بها الخراب فصارت قاعدتها ودار ملكها الى هذا العهد بلدة تونس واما برقة فقد انقضى امرها ودرست امصارها وغدت منازلا للعرب بعد ان كانت دار ملك لواثه وهواره وغيرهم من البربر وكانت بها الامصار الواسعة مثل لبده وزويله وبرقه وقصر حسان وسرت واجدابيه وغيرها فعادت خالية بعد ان كانت آهلة والى الله ترجع الامور . واعلم ان عدد سكان المغرب باقسامه الثلاثة مجهول لعدم اعتناء ملوكه بضبط النفوس وقد ذكر بعض المؤرخين من اهل العصر ان المغرب يشتمل على عشرين مليونًا من النفوس وجل سكانه باقسامه لهذا العهد اسلام وقليل من الموسويين ولم يكن للمسيحيين والموسويين فيه قدم ما عدد يعتبر اما الآن فقد كثر عدد الافرنج منهم في المغرب الاوسط بعد استيلاء الفرنسيس عليه في مراسي المغرب الاقصى وافريقية ودخلوه الموسويون لما اخرجتهم اسبانيا والبورتغال من مملكتيهما فقصد منهم نحو مائة الف نفس الى المغرب الاقصى وخمسين الفًا لبقية بلاد المغرب ولذا يوجد عددهم في المغرب الاقصى اكثر منه في الاوسط والادنى

﴿ ذكر حدود بلاد الجزائر ومساحتها وما اشتهر فيها من المدن والجبال والانهار وصنوف نباتاتها واثمارها وصنائع اهلها وما يوجد فيها من الحيوانات والمعادن ﴾

اعلم ان حدود داخلية المغرب وبسيطة لم تنضبط في القديم ولم تثبت زمانًا يعتد به لتوالي الفتن فيها بين ملوكه فتارة تدخل كلها تحت سلطة دولة واحدة وتارة تنقسم الى دوائر وايالات متعددة فتتداخل مرة وتتميز اخرى ولم يزل الامر على ذلك قبل الاسلام وبعده الى ان استولى العلويون على المغرب الاقصى واستقرت دولتهم فيه الى هذا العهد واستولت الدولة العلية على الاوسط والادنى فاحدثوا حينئذ حدودا اصطلحوا عليها واستمرت معتبرة ثابتة الى الآن فاما حدود المغرب الاوسط والادنى من جهة الغرب فمن وادي عطية آخر بلاد مسيرده الحاجز بين ارضهم وارض بني خالد بطن من بني يزناسن ثم يميل الى جهة الشرق على مناصب كيس في اطراف ارض انكاد الى آخر جبل مديونه قبالة وجده ويحدها شرقًا ارض برقة كما تقدم ثم لما انفصلت مملكة الجزائر من مملكة تونس في هذين المغربين صار جبل القاله ونهر صراط بفتح الصاد وتشديد الراء تخوما للمملكتين وبهذا الاعتبار نقص من المغرب الاوسط من جهة الغرب من تخوم وجده الى وادي ملويه ومن بجاية الى جبل القاله واضيف ما نقص من الادنى الى ما بقي من المغرب الاوسط فصار مملكة مستقلة متميزة بحدود ثابتة معتبرة الى هذا العهد وسميت بالجزائر التي هي قاعدتها ومركزها كما العام الذي بيده زمام امورها ويحد هذه البلاد كلها من جهة الشمال بحر الروم المحيط بشطوطها من مصب وادي عجرود فيه من وراء بلاد مسيرده غربًا الى القاله شرقًا عند انتهائه في البحر ومن جهة الجنوب العرق المحيط بالتلول المتقدم ذكره وفيما بينه وبين التلول قصور كثيرة ومجالات لظواعن العرب والبربر الخاضعين لاحكام الدولة الدائنين بطاعتها من قرب قصور توات غربًا الى بلاد الجريد شرقًا ولم تزل هذه الحدود مقررة على هذا الوجه الى الآن واما مساحتها فقد ذكر بعض المؤرخين ممن ينتحل علم الجغرافية ان وضع بلاد الجزائر محصور بين ثمان درجات وثلاثين دقيقة طولاً شرقيًا ودرجة واحدة وثلاثين دقيقة طولاً غربيًا من معدل النهار على اصطلاحهم وقال بعض مؤرخي الفرنساويين ان وضعها محصور بين ثلاثة ونصف وسبعة وثلاثين للطول وستة للعرض الشرقي واربعة للعرض الغربي قياسًا على دائرة نصف النهار في باريس ثم قال فمن ثم تكون بلاد الجزائر مشتملة على خمس درجات من الشمال الى الجنوب وعلى عشر درجات من الشرق الى الغرب وقال غيره من الافرنج طولها من الغرب الى الشرق الفان وستمائة ميل وعرضها في بعض الاماكن

خمسمائة وخمسون ميلاً وفي بعضها مائة واربعون ميلاً وذكر بعضهم ان سطح
ارضها مقدار تسعة وثلاثين مليونًا وتسعين الف هكتار كل هكتار مائة متر مربع
وقال آخر ثلاثمائة الف وتسعون الف كيلو متر كل كيلو متر الف ذراع وكل ما
ذكر على سبيل التقريب والا فبلاد الجزائر واسعة . واقطارها شاسعة ومن مدنها
الشهيرة الجزائر وهي مدينة على ساحل البحر اختطها بلكين بضم الباء الموحدة واللام
وتشديد الكاف المكسورة وسكون الياء المثناة التحتية بعدها نون ابن زيري الصنهاجي بكسر
الزاي وسكون الياء المثناة التحتية وكسر الراء بعدها ياء تحتية وكان يتردد اليها من منازله
بالمسيلة ونزلها بنوه من بعده ثم اختصت ببني مزغنان بطن من صنهاجة وبهم اشتهرت
وفي القاموس جزائر بني مزغنان بلدة بالغرب ثم اطلق اسم الجزائر على سائر بلاد
المغرب الاوسط ولما عقد اسماعيل المنصور العبيدي لزيري ابن مناد الصنهاجي سنة
خمس وثلاثين وثلاثمائة على بلاد تاهرت وبلاد شلب عين ولده بلكين لولاية الجزائر
وغيرها فاستوطنها واهتم بشأنها واجتهد في عمرانها فاخذت في الحضارة والتمدن
حتى اشتهرت وطار ذكرها في الآفاق وتناغى الملوك بالاستيلاء عليها جيلاً بعد
جيل الى ان صارت قاعدة ملك البلاد وتنوسي امر تلمسان وبنو زيان واستولى عليها
الموحدون سنة ثمانين واربعمائة وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة دخلت في حوزة
بني حنص ملوك افريقية ثم صارت لبني زيان ولم تزل وطنًا لبني مزغنان خلفا
عن سلف الى ان استولى عليها الاسبانيول سنة ست عشرة وتسعمائة واشتدّت
وطأته على المسلمين وكان عروّج المعروف ببارب روس الاول قد استفحل امره
واخذ جيجل احدى مراسي تونس من يد اهل جنيوا من ايتاليا فبعث اليه سالم
ابن توبي الصنهاجي امير بني مزغنان صريخة في كشف بلواه فلباه ودخل الجزائر
من جهة البحر والحجر الاسبانيول في حصنهم المعروف ببرج الفنار وضيق عليهم
ثم اقتحم الحصن بجيوشه واستخدمهم عن اخرهم وتم استيلاؤه على الجزائر وقام فيها
يختبر احوالها ويتقرى مسالكها وظهر منه لسالم بن تومي وقومه ما لم يكن في حسابهم
فلحقهم الندم واظلم الجو بينهم وبين عروّج فقبض على سالم وقتله وتم له الامر وكان
هذا اول قدم للدولة العلية في المغرب الاوسط وتونس وسيأتي بيان ذلك ان
شاء الله تعالى ولسيدي الجد لوالدتي سيدي علي ابي طالب رحمه الله في وصفها
لما مر عليها قاصداً الحجاز قوله

عليك الجزائر عج نحوها * وداوي بطيب شذاها العلل
وشاهد قصورا شيدت بها * وامكنة نزهة للمقل
فكم من علوم منوعة * يضع نشرها بالدروس فسل
وكم مشكلات ازال الغطا * فحول بهم سار ضرب المثل
وكم فاضل قد حوته وكم * همام يصول وفرد وصل
وكم بدّدوا شمل جمع كنو * ربيض المواضي وسمر الاسل
وجيش كميّ وصخب الجيا * د وحزم وعزم يقد القلل
اضاقوا البلاد بجلب العدا * اساري وغص الفضا والجبل
وكم من حصون اعدت بها * لدفع عدوّ طغى فانجدل
فسر قاصدا بلدة قد ثوى * بها الفضل حقا ونيل الامل
تفاخر مصر وفاسا بها * وتونس ذات البها والحلل
فيارب صنها من المزعجات * ومن كل شر وضر نزل
وابق علوما وتقوى بها * لجيل فجيل الى المنتقل
بجاه النبي الرسول الى * الخلائق حتى الهداة الأُول
عليه صلاة من الله ما * تألق برق وودق هطل

ومنها تلمسان وهي مدينة قديمة اختطها ملوك بني يفرن من زناته واتخذوها دار ملكهم عند ما عمروا المغرب الاوسط واستولوا عليه ثم جاء الاسلام وهي دار ملكهم وهم الذين سموها تلمسان وهي بلغتهم مركبة من كلمتين تلم وسان ومعناهما تجمع اثنين اي البر والبحر ولم تزل على ما كانت عليه الى ان نازلها عبد المؤمن بن علي امير الموحدين سنة اربعين وستمائة فخربها بعد ان قتل جيشه عامة اهلها ثم ندب الناس الى عمرانها واصلاح ما انثلم من اسوارها ثم جعل ولايتها لاولاده فصرفوا همتهم في اعمارها واتخذوا الصروح والقصور بها واحتفلوا في مقاصد الملك ولوازمه وكان من اشدهم اهتماما بذلك واوسعهم فيه نظرا ابو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وامتدت ايام ولايته فيها فشيد بناءها ووسع خطتها ثم وليها من بعده ابن عمه ابو الحسن ابن ابي حفص ابن عبد المؤمن ولم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع الى ان نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم فاختطوا بها الربوع البديعة. والقصور المشيدة الرفيعة .وغرسوا فيها الرياض المونقة . واجروا خلالها الانهار المتدفقة .

فاصبحت من اعظم امصار المغرب الاوسط ورحلت اليها الناس من القاصية ونفقت فيها اسواق العلوم والبضائع ونشأ بها العلماء العظام . واشتهر فيها الافاضل الاعلام . وضاهت امصار الدول الاسلامية . والقواعد الملكية . ومدحها الشعراء . وافاضل العلماء و يغني عن الاسهاب في وصفها ما ذكره المقري في نفح الطيب ولله در عالمها الجليل الامام ابن مرزوق حيث يقول فيها .

بلد الجداو ما امر نواها * كلف الفؤاد بحبها وهواها
ياعاذلي كن عاذري في حبها * يكفيك منها ماؤها وهواها

ومرَّ ابن مرزوق على مصر في سفره الى الحج فسأله بعض من اجتمع عليه من علمائها عن بلدته قال له تلمسان فقال عجبت قال ابن مرزوق والله ما اكلته قط فتعجب العالم من علمه وذكائه وسرعة جوابه لان تلمسان مشهورة بكثرة الزيتون وجودته وهو يورث البلادة ومن مدنها القديمة وهران بفتح الواو وسكون الهاء وراء مهملة بعدها الف ونون وهي على ساحل البحر اختطها ملوك مغراوه قبل الاسلام وامتد بها العمران ولم تزل على ذلك الى ان ظهرت الشيعة وملك عبد الله الملقب بالمهدي مدينة تاهرت وولي عليها دوَّاس بن صولان الكتامي فاوعز الى البربر بحصارها فداخلوا اهلها من بني مسكين في ذلك فاجابوهم ونازلوها وفرَّ صاحبها من قبل بني أمية ملوك الاندلس محمد بن عون الى دوَّاس صاحب تاهرت فدخل البربر وهران واستباحوها ثم اضرموها نارا وفي السنة السابعة والتسعين اعاد بناءها دواس احسن ما كان واعاد اليها محمد بن عون وكانت امراء تلمسان لذلك العهد بنوا احمد بن محمد بن سليمان بن عبدالله الكامل الادريسي رضي الله عنه وانتدب الناس الى سكنى وهران فاتسعت خطتها وامتد عمرانها وصارت دار علم وتجارة ونشأ فيها العلماء والادباء والتجار وقصدها الناس من الجهات الشاسعة وفي القرن الرابع بنى جامعها الكبير ابو بلكين ابن زيري من ملوك صنهاجة ولم تزل على ذلك الى ان استولى عليها الاسبانيول سنة خمس عشرة وتسعمائة وانتزعوها من يد قلوس آخر بني زيان وسياتي بيان ذلك في محله ان شاء الله ومنها مدينة مستغانم وهي بلدة عظيمة على البحر بينها و بين وهران يوم للمجد ومنها لمدية بفتح اللام وسكون الميم وتعرف الآن بالمدية بزيادة همزة الوصل وسكون اللام اصلها لقبيلة من صنهاجة بلمدية اختطها ابو بلكين ابن زيري في القرن الرابع من الهجرة

وهي مدينة عظيمة مشهورة ومنها بجايه وهي لبني حماد اصحاب القلعة المعروفة بهم في جبل كتامه وهم من صنهاجة اختطها الناصر بن علناس بن حماد سنة احدي وستين وار بعمائة وسماها الناصريه ولم تشتهر بين الناس الا باسم بجايه وبعد ان اتم عمارتها واحتفل في لوازم الملك فيها انتقل اليها من القلعة دار ملك اسلافه وسكنها ونقل الناس اليها وبنى بها قصر اللؤلؤة ذكر المؤرخون انه كان من اعجب قصور الدنيا وفي ايامه استفحل ملك بني حماد وشنوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية فبنى المباني الوسيمة وشيد المدائن العظيمة ثم توفى سنة ثلاث وستين وار بعمائة وكانت ولايته في سنة اربع وخمسين وار بعمائة وتعرف قلعتهم لهذا العهد بقلعة بني عباس ومنها قسنطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون وكسر الطاء بعدها ياء ساكنة ونون مفتوحة وآخرها تاء التانيث اصلها لقبائل كتامة وقد دخلها الفنيقيون ملوك الشام من كولونيه لما خرجوا الى افريقية من صور سنة ثمانمائة وست وثمانين قبل المسيح عليه السلام واسمها في القديم سيرتا وكانت عاصمة ادربال النوميدي سنة اربعمائة وثمان وعشرين بعد المسيح عليه السلام واستولى عليها وعلى تلك النواحي الونديال من اسبانيا ولم يزل ملكهم فيها الى ان استولى عليها المسلمون ومنها شرشال وهي على ساحل البحر بناها جوبا الروماني وسماها سيزاره قيصرية وكانت عاصمته وبنى بها القصور الجميلة وآثارها تدل على انها كانت مدينة عظيمة الشان ومنها مليانه اختطها ابو بلكين بن زيري في القرن الرابع من الهجرة وكانت لملوك مغراوه من بطون زناته وبنو منديل منهم من الطبقة الثانية هم الذين اختطوا قرية مازونه وكانت مراسي تلك الناحية اعني شرشال وبرشك وتنس تابعة لهم بعد ان كانت لملوك صنهاجه وكانت دار ملكهم مدينة اشير في سفح جبل تيطرى المشهور وهي قاعدة بلاد شلب اختطها زيري بن مناد من الطبقة الاولى من البربر في حدود الاربعين وثلاثمائة بامر المنصور اسماعيل العبيدي واتسعت بعد ذلك خطتها وتتابع عمرانها ورحل اليها العلماء والتجار من القاصية ثم خربت ودرست ولم يبق لهذا العهد الا طلول ديارها ورسوم آثارها والبقاء لله تعالى ومنها تاهرت وهي في سفح جبل كزول على وادي مينا اختطها عبدالرحمن بن رستم الفارسي الاباضي سنة اربع واربعين ومائة واصله من ولد رستم امير الفرس بالقادسيه وكان من مسلمة الفتح قدم مع طلائع المسلمين ودان بدين الخارجية والاباضية منهم ثم لما بلغ المنصور العباسي خبر فتنة البربر واضطراب الخوارج منهم

بافريقية والمغرب سرح محمد بن الاشعث الخزاعي في العساكر الى افريقية فقدمها سنة اربع واربعين ومائة واثخن في الخوارج وقتل رئيسهم ابا الخطاب وطار الخبر الى عبد الرحمن بن رستم بمكان امارته في القيروان فاحتمل اهله ولحق باباضية المغرب الاوسط ونزل على لمايه من بطون البربر البتر لحلف قديم بينه وبينهم فبايعوه على الخلافة وشرعوا في بناء تاهرت فاسسها عبد الرحمن المذكور وتمدنت واتسعت خطتها الى ان هلك وولي ابنه عبد الوهاب من بعده ولم يزل الملك في بني رستم بتاهرت الى ان استولى عبدالله الشيعي على افريقية والمغرب سنة ست وسبعين ومائتين فغلبهم عليها وتتابعت عليها ولاة الشيعة فمن بعدهم ولم تزل آهلة معمورة بقبيلة لماية الى ان غلبهم عليها ابن غانية اللمتوني المرابطي وخربها في آخر سنة عشرين وستمائة وعفا رسمها وانقرض اهلها و بقيت فرق منهم متشتتين في القبائل ومنهم جربة وسميت بهم الجزيرة المشهورة تجاه ساحل قابس من اعمال تونس ولم يزالوا على الخارجية لهذا العهد ولم تزل تاهرت على خرابها الى ان بنى الفرنسيس محلها او قريباً منها بلدة سماها تيارت ومنها معسكر اصلها لبني زيان ملوك تلمسان اتخذوها لاقامة عسكرهم في تخوم بلادهم لوقايتها من اجلاب بني توجين ومغراوه اعدائهم خلفا عن سلف وكان بداؤها من اخصاص الى ان استولت الدولة العلية على مدينة الجزائر وتقدمت حكامها في داخلية البلاد غرباً وشرقاً حتى وصلوا الى هذه البلدة الاخصاصية واعجبهم محلهم شرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا خطتها وتانقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر واطلقوا عليها اسمها القديم الذي كانت تعرف به قبلهم وجعلوها مركزاً لحاكم تلك النواحي وكانوا يواصلون الغارات منها على سائر الجهات و ينتحون البلاد الى ان وصلوا الى بسيط انكاد قرب مدينة وجده ووضعوا الحدود هناك بينهم وبين ملوك المغرب الاقصى كما تقدم واعظمهم اهتماماً بعمران مدينة معسكر الباي محمد بن عثمان الكردي الايوبي وكانت ولايته على ايالتها عام ثلاث و تسعين ومائة والف فبنى فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمة واجرى اليها المياه وادار عليها السور المشهور بالاتقان والاحكام وقد خرب هذا السور الفرانسيس وفي ايام الباي المذكور اشتهرت هذه المدينة وارتحل اليها التجار والعلماء ونشأ بها طائفة من الافاضل ومن اشهر علمائها من اسلافنا الجد الرابع سيدي السيد احمد المختار وابن ابنه الجد الثاني سيدي السيد مصطفى ومن علمائها السيد محمد بن عبدالله الجلالي والسيد طاهر بن حوّا الكبير وولده السيد محمد والعلامة الشيخ المشرفي

وغيرهم وقد اتخذ سيدي الوالد هذه المدينة اولاً دار امارته ثم انتقل الى مليانه ثم اختط تاكدمت واصلها قرية لبني توجين قريبة من تاهرت قد خربت فبنى فيها دوراً ومعامل للسكوكات والسلاح وحشد الناس الى عمرانها ولم يلتفت الى تشييد القصور وتوسيع المنازل والدور لصرفه الهمة الى المدافعة عن وطنه وملته وتقويم الزائغين من رعيته واصطناع الابطال واصطفاء الرجال واتخاذ معامل السلاح ولوازم القراع والكفاح لا لذة له الا في اقتحام الكتائب واقتحام الملاحم بالقواضب ومنها بونه على ساحل البحر وتعرف لهذا العهد بعنابة لكثرة شجر العناب فيها وهي مدينة صغيرة مما اختطه البربر من المدن وكانت قديماً من اعمال افريقية وفي ايام خير الدين بارب روس ضمت الى اعمال الجزائر ولم تزل تابعة لقسنطينة من ابتداء دخول الدولة العلية الى هذا العهد ومنها بسكره وتعرف ببسكرة النخيل فيها وتبسه والمسيله بناها المهدي بن تومرت وسماها بالمحمديه ولم تزل معمورة الى الآن غير انها عارية عن احوال الحضارة والتمدن وكلها داخلة في حكم قسنطينة وقد احدث الفرانسيس في داخلية البلاد واطرافها وسواحلها مدناً وقرى كثيرة واما جبالها في الخط الجنوبي منها مما يلي الصحراء سلسلة وتعرف لهذا العهد بالاطلس وهي آخذة في طول البلاد من المغرب الى المشرق وابتداؤها من آخر بلاد سوس الاقصى عند البحر المحيط فانقسمت بها البلاد الى منطقتين شمالية وتسمى التل وجنوبية وتسمى الصحراء وزاد بعض الجغرافيين ثالثة سماها المنطقة البحرية يعني السواحل وعلى خطها جبال كثيرة متكاثفة لما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها وفي وسط التل جبال كثيرة يطول ذكرها اشهرها جبل بني سنوس غربي تلمسان لجهة الجنوب منها وجبلا زيدون وتاسالة في وطن بني عامر وجبل تنيرد مما يلي الصحراء وجبل اكبر شرقي وهران وجبل كرسوط غربي غريس وجبل او سيلاس فوق مدينه افكان شمالي غريس وهي خراب الآن وجبل المناور في شرقيه ونسمط ولاسلافنافيه مزارع كثيرة وفي الجهة القبلية من البلاد جبل كزول وجبل وانشريس وجبال الجهة الشرقية منها جبل العطاف وجبل مليانه وجبل تيطري وجبال زواوه واعلاه جبل جرجره وهذه الجبال تتصل عند انتهائها شرقاً وتصير سلسلة فتمر مشرقة على سيف البحر في سواحلها اساكل دلس وبجايه والقل وجبل و يشاوه شرقي سكيكده وتعرف عند الافرنج بتليبل ثم جبل اودغ وهو شامخ يطل من جهة الغرب على عنابه وجبل

بني صالح وفي الجنوب من هذه الجبال جبل اوراس وكل هذه الجبال منبتة تحتوي على احراش من الاشجار مختلفة الانواع والاجناس واما انهارها وجداولها فكثيرة لا يأتي عليها الحصر ومن اشهرها واكبرها في الجهة الغربية نهر تافنا يمر في شمال بلاد الغسل وفيما بين تراره وولهاصه ويصب في البحر الرومي في ساحلهم ونهر المقطع ونهر سيك في بلاد الغرابه ويصب قرب قرية بطيوه ونهر مكرّه وعليه مدينة بلعباس التي احدثها الفرنسيس ونهر وادي الحمام وعليه بلدتنا التي اختطها اسلافنا ولم تزل معمورة الى ان اضرمها الفرنسيس ناراً وخرب رسومها وفي الجهة الشرقية من البلاد السيبوس ينتهي الى البحر الرومي قرب عنابه ونهر بوجيمه ونهر بني ملكي ومصبهما في البحر ايضاً قرب سكيكده ونهر بوبرك ونهر الهرش ونهر تطرغان ونهر شلف وهو نهر كبير يمر في معظم ارض المغرب الأوسط منبعه من بلاد بني راشد في جنوبي وادي مزاب من الصحراء ويدخل الى المتل ثم يمر مغرباً ويجتمع فيه اودية كثيرة كوادي مينه ووادي ارهيو ووادي يلل بتشديد اللام الى ان ينصب في البحر بين كلمه ومستغانم واما بحيراتها فاشهرها بحيرة الحوت في ولاية قسنطينه وبحيرة الوطا في ولاية الجزائر وبحيرة السبخه في ولاية وهران ينعقد ماؤها ملحاً واغلبه يستهلك بتلك الولاية منها واشهر بحيرات الصحرا بحيرة زاعق في ارض اولاد نائل وبحيرة شوط وبحيرة شكا واما اشجارها وانواع فواكهها وحبوبها ونباتاتها فكثيرة جداً وبالجملة فبلاد الجزائر كريمة البقعة طيبة التربة تخصبة الجبال والبسائط منبجسة العيون والانهار متصلة مادة الخيرات وفيها من انواع الفواكه البورتقال والتفاح واللوز والجوز والموز والعنب والمشمش والانجاص والليمون بانواعه والزنبوع وهو الفرسكين والاترج والفستق والزيتون والعناب والخرنوب والبلوط الحلو المعروف بابى فروه والصنوبر البري الا انه صغير اسود يعرف في بلاد المغرب بالزنين بتفخيم الزاي وتشديدها والمزاح وهوالمشمله والتوت المعروف بالشامي وقصب السكر والنبج وحب الملوك وهو الكرز ويخرج في جبل هواره المعروف بجبل بني شقران التين الشقراني وقلّ ان يوجد له نظير يجلب منه كثير الى اقطار المغرب ونوع منه يسمى الباكور ينضج في آخر الربيع وفيها شجر البطم وهو شجر ضخم كبير وصمغه كحصى اللبان رائحة وطعماً وفيها الشجر الذي يستعمل منه الفلين وشجر الزرو وصمغه يشبه المصطكي لوناً وطعماً وريحاً وينزل المنّ من السماء على شجر البلوط فيجمعه الناس بعد انجماده و يصبغون به فيخرج منه اللون الاحمر الثابت الذي لا تفوقه حمرة ولا يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من ادوات الصبغ ويسمونه القرمز ويعرف في بلاد المشرق بالدوده

يجلبه اليها التجار من بلاد المغرب والاندلس وفي صحرائها انواع اثمار النخل فمنها الحرّ الذي لا يوجد لثمره نظير الا في بلاد الجريد من بلاد تونس وذلك لقوة حلاوته وحسن لونه وضخامته ومنها ما يقال له تينهود ولعزته لا يجلب الا لبلاد فاس وبلاد المغرب الاوسط. أخبرني والدي انه لم يرَ مثله في الحجاز ولا في العراق ولم يذق لذة فاكهة تشبهه طعماً ونكهةً منذ فارق الوطن ومن زروعها الحنطة والشعير والحمص والعدس والفول والارز والذره والدخن وانواع البقول والنباتات ذات الخواص لكثير من الامراض وعلى الاجمال محاسنها لا تستوفى بعبارة . فما راءٍ كمن سمعا . واما معادنها فالذهب والفضة والالماس والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والخيلدون وهو نوع من العقيق الجيد وحجر البلور هذا ما اكتشفه اصحاب الصنائع والاستخراجات من الافرنج واما صنائعها فاجود ما يتنافس فيه اهلها ويفتخرون به صناعة السلاح بانواعه على الشكل القديم ولهم اعتناء كبير باستخراج جوهر الحديد والفولاذ ومن نفيس مصنوعاتهم نسج اقمشة الحرير ومنسوجات الصوف كالبرانس والاكسية وغيرها من انواع الملبوسات والبسط والسجادات وغيرها من المفروشات و يساعدهم على ذلك نعومة الصوف ولطافته ولهم براعة في طرز المناطق والسروج المذهبة والمفضضة على وجه لا يهتدي اليه غيرهم وكذلك في صناعة الخزف الملون بانواع الادهان وفي صناعة السفن الصغيرة التي يستعملونها للتجارة والصيد والغزو واخشابها من احراش بلادهم ودباغة الجلد وقد برع اهل المسيله من اعمال الزاب في اتقان صنعة الدباغة على وجه اتعب غيرهم تقليده في حسن نعومة الجلد وجودة اتقانه وبالجملة فمصنوعات بلاد الجزائر ومنسوجاتها بلغت في الحسن والاحكام ما يبهر الرائي ويستحسنه السامع وناهيك بها ان تجارتها منحصرة في نتائج اراضيها وصنائعها فلا يحتاج الى جلب البضائع من الخارج الا ما قلّ وربما يستغنى عنه وفيها من جياد الخيل ما يروق منظراً ويبهر خصالاً ولكثير من اهل البادية معرفة تامة بشياتها وعيوبها وامراضها وعلاجاتها ويوجد عندهم من هذا العلم ما لا يوجد عند احذق البياطرة في الحاضرة وفيها البغال الفارهة واغلب مشايخ البلاد وعلمائها واهل وظائفها الدينية يركبونها دون الخيل لسرعة مشيها ولين ظهورها وفيها انواع الانعام والهجن المشهورة بسرعة السير والقوة وفيها من صنوف الصيد الغزال والارنب والكنينة وهو نوع اصغر من الارنب وفي صحرائها النعام والحمار والبقر وفيها من صنوف الحيوان المفترس الاسد والنمر والفهد والخنزير والذئب والضبع وفيها من الطيور الجوارح وغيرها ما يطول شرحه واهل الصحراء ومن قاربهم يعتنون كثيراً باقتناص الجوارح و تعليمها واستعمالها

واما اعتدال هوائها وحسن مزاجها فقد ذكر علماء الجغرافية قديمًا وحديثًا ان هذه البلاد معتدلة الهواء لا يزيد حرّها ولا بردها زيادة مضرة وفصولها في جميع السنين تأتي على قدر من الاعتدال ووسطة من الحال وعلى حسب اعتدالها اعتدلت امزجة اهلها وقلت امراضهم ودا آتهم ولذا لم يعتنوا بتحصيل علم الطبّ ولا باهله وقصارى امرهم فيما يعرض لهم من الامراض انهم يتطببون بادوية يستعملها غالبًا عجائزهم من الحشائش وغيرها ويسكن هذه البلاد قبائل كثيرة وشعوب وافرة من العرب والبربر ولاختلاطهم في الصهر والسكن عسر تمييزهم ويوجد بينهم في المدن وبعض القرى اتراك واولاد المماليك من بنات الوطن ويسمونهم كور اوغلان والسبب في ذلك ان السلطان يقول لاهل كلّ اوجاق من العسكر قوللرم يعني مماليكي فحرفها اهل الجزائر وقالوا كور اوغلان

ذكر ابتداء عمران المغرب
«وحوادث دول الاشراف والعرب والبربر فيه»

اعلم ان هذا الاقليم منذ دخل في حيز العمران مأوى الفتن . وعش الاهوال والمحن . ومنتزى الملوك والثوار . ومطمح نظر الكبار منهم والصغار . فما هدأت لاهله روعة ولاطابت لهم فيه هجعة . ولا خيم بساحته امن . ولا فارقه الروع والوهن . ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب . ومفاجاءة المصائب والنوائب . ومع هذا ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة . ومجالسه بالاذكار وانواع العلوم زاهرة . ذلك تقدير العزيز العلم وتدبير العلي العظيم . وقد اختلفت اقوال المؤرخين من الاسلام وغيرهم في اول من سكن المغرب وعمره من هذا النوع البشري لكني اقتصرت على ما نقله العلاّمة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه وذو الوزارتين ابن الخطيب في شرح منظومته المسماة رقم الحلل في نظم الدول لتقدمهما في مضمار هذا الفن واحرازهما قصب السبق فيه وسلوكهما مسالك التحقيق في النقل وملخصه ان الله سبحانه وتعالى لما اهبط آدم الى الارض عمرها به وبنسله فهو الاول للخليقة على الاطلاق وانبث بنوه في نواحي الارض و تناسلوا فيها جيلاً بعد جيل الى زمن نوح عليه السلام وكانت ولادته سنة اثنين واربعين وستمائة والف من هبوط آدم وكان في تلك الاجيال ملوك ودول كثيرة وملل ونحل متعددة وكان فيهم انبياء ورسل آخرهم نوح عليه السلام ارسله الله تعالى الى قومه وكانوا عبدة اوثان فلبث فيهم الف سنة الاّ خمسين عامًا يدعوهم الى عبادة الله كما اخبرنا الله تعالى ولما اعياه تعنتهم وتماديهم على

الكفر اوحى اليه انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارًا فاستجاب الله دعاءه لما سبق في علمه انه ليس فيهم ولا في اولادهم من يؤمن فارسل عليهم الطوفان فاخذهم وذهب بعمران الارض اجمع بحيث لم ينج من بني آدم ومن كافة انواع المخلوقات الا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام وكان ذلك بعد مضي الفين ومائتين واثنين واربعين سنة للهبوط باتفاق المفسرين والمؤرخين ثم مات المؤمنون الذين كانوا مع نوح عليه السلام في السفينة ولم يعقبوا فصار جميع اهل الارض من نسل نوح ٠ قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فكان عليه السلام ابًا ثانيًا للخليقة واتفق المفسرون والنسابون على اولاد نوح الذين تفرعت منهم الامم ثلاثة ٠ سام وحام ٠ ويافث ٠ وقد وقع ذكرهم في التوراة وروى الطبري في ذلك احاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم ٠ وعن ابن المسيب ووهب بن منبه ٠ مثل ذلك واتفقوا على ان سامًا ابو العرب والفرس والروم ٠ وحامًا ابو القبط والبربر والسودان ٠ ويافثًا ابو الترك والصقالبة وياجوج وماجوج ٠ ولما افترق بنو نوح عليه السلام صار لولد حام الجنوب مما يلي مصر على النيل ٠ وصار لولد سام الحجاز والعراق الى حدود الهند ٠ وصار لولد يافث نواحي بحر الخزر الى الصين ٠ وكانت شعوب هؤلاء الثلاثة عند تبلبل الالسنة اثنين وسبعين شعبًا ٠ واتفقوا على ان اول عمران المغرب كان بالجيل المعروف بالبربر اخوان السودان والقبط فهم الذين عمروه من البشر واستوطنوه ٠ قال الطبري وزعم هشام بن الكلبي ان الغل من الكنعانيين من اولاد عيصو بن اسحاق عليه السلام ٠ وبعد يوشع عليه السلام احتملهم افريقش بن قيس بن صيفي من سواحل الشام في غزاته الى المغرب وتركهم بافريقية ٠ فمنهم البربر وترك معهم صنهاجة وكتامة من قبائل حمير ٠ وقيل انه وجدهم فيها ٠ وانه لما سمع رطانتهم سماهم البربر ٠ وفي التورية من ذرية حام احدى عشر ولدًا منهم صيدون ٠ ولهم ناحية صيدا ٠ وكانوا بالشام وانتقلوا لما غلبهم يوشع الى افريقية والمغرب واقاموا بهما ٠ وقد مرّ آنفًا ان اولاد حام صار لهم الجنوب ولم تزل السودان منهم في اقطار الجنوب من مبدا بحر الهند شرقًا الى اقصى المغرب الى هذا العهد ٠ واخوانهم القبط في مصر وجهاتها الى الآن ٠ وهؤلاء البربر يجاورونهم ويقابلون السودان في ارياف المغرب وتلوله من حدود مصر مما يلي برقه الى اقصى المغرب حيث البحر المحيط فلا يبعد انهم كانوا مع السودان والقبط في مواطنهم الاولى ثم افترقوا فتوغل السودان في الجنوب وانحدر البربر الى برقه ونواحيها ثم توغلوا في بلاد المغرب الى اقصاه

وبقي القبط في منازلهم القديمة من مصر وبهذا تشهد القرائن والمواطن وذكر ابن سعيد في اخبار القبط ان شداد بن بداد بن هداد بن شداد بن عاد حارب القبط وغلب على اسافل مصر حيث الاسكندرية وبنى بها مدينة مذكورة في التوراة يقال لها ارن ثم هلك في حروبهم وجمع القبط اخوانهم من البربر والسودان واخرجوا العرب من ملك مصر ولما استولى افريقش على المغرب بنى فيه مدينة فسميت افريقية ثم غلب هذا الاسم على ذلك القطر بحدوده المعروفة قديماً وحديثاً

﴿ذكر البربر وشعائرهم﴾

اعلم ان النسابين قد اختلفوا في نسب البربر واطالوا البحث فيه والذي ذهب اليه المحققون كابن حزم وابن خلدون وغيرهما انهم من بني كنعان بن حام بن نوح عليه السلام واتفقوا على ان شعوبهم وبطونهم يجمعهم اصلان عظيمان وهما برنس وماد غيس ويلقب بالابتر فيقال لشعوبه البتر كما يقال لشعوب برنس البرانس وهما على الاصح اخوان لاب وهو بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام وشعوب البرانس يجمعهم سبعة اصول وهي ازداجه ومصموده واوربه وغجيسه وكتامه وصنهاجه وريغه ويجمع شعوب البتر اربعة اصول وهم اداسه ونفوسه وضريسه ولواء الاكبر والكلام على هذه الشعوب وما تناسل منها من الامم طويل الذيل قد افرده علماء هذا الفن بالتأليف وجميع ما ذكروه غاية ما وصل اليه علمهم واطلاعهم . واحصاء امم البربر واجيالهم غير ممكن لتطاول الاحقاب وتداول الازمنة ولم تزل بلاد المغرب من اقصى سوس الى الاسكندرية وما بين بحر الروم والسودان عامرة بهم منذ قرون لا يعلمها الا الله تعالى . واعلم ان دين البربر في القديم المجوسية وفي بعض الاحيان يدينون بدين من تغلب عليهم كالرومان واليونان وغيرهما وقد صبحهم الاسلام وهم على دين النصرانية وبعضهم في افريقية على دين اليهودية عند استفحال ملك بني اسرائيل وقربهم منهم واما شعائرهم فالاكثر منهم آخذون بشعائر العرب يسكنون الخيام ويتنازلون حلالاً ودوائر متفرقة ويظعنون لانتجاع المرعى ويتخذون الخيل للركوب والنتاج ويعتنون بالانعام للكسب يقومون عليها ويقتاتون من البانها ويتخذون البستهم واثاثهم وخيامهم من اصوافها واوبارها وشعورها ومنهم من يبتغي الرزق من الاقتناص والنهب والاختطاف من السابلة ومنهم اهل مدائن وقرى وامصار شانهم الفلاحة واغتراس الجنات المتنوعة والتجارة والحرف النافعة الى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها العمران

ولا يتمّ الاّ بها واكثر لباسهم من الصوف بانواعه وفي الغالب يكشفون رؤسهم ويحلقونها ولغتهم العجمية متميزة بنوعها عن سائر رطانة العجم ثم اختصت شعوب زناته وبطونها برطانة تخالف رطانة اخوانهم كما اختصوا بالعمائم ومن شاهد آثارهم وما شيدوه من الحصون والمعاقل والامصار وطالع اخبارهم وحروبهم وسيرهم علم انهم قوم لا يرامون بذلّ ولا ينالهم من استطال عليهم بسوء وقد اعتنى الفحول من العلماء والمؤرخين بذكر سيرهم وتدوين اخبارهم فملاؤا كتبهم بنقل ما كانوا عليه من الاخلاق الحميدة كعزّ الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وصدق القول والصبر على المكاره والثبات في الشدائد وجودة الملكة والاغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المساكين وتوقير اهل العلم وحمل الكلّ وكسب المعدوم وقرى الضيف والاعانة على النوائب وعلوّ الهمم واباءة الضيم والشقاق مع الدول ومقارعة الخطوب والتغلب على الملك وغيرها من الخلال التي اكسبتهم الثناء من الخلق وبُعد الصيت ومن مشاهيرهم بعد تمسكهم بالاسلام من الطبقة الاولى بلكين بالباء الموحدة التحتية ابن زيرى الصنهاجي عامل افريقية للعبيديين ومحمد بن خزر وعروبه بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبدالله الشيعي ويوسف بن تاشفين اللمتوني وعبد المؤمن ابن علي امير الموحدين ومن الطبقة الثانية يعقوب بن عبد الحق المريني ويغمراسن سلطان بني زيان ومحمد بن عبد القوى صاحب تاهرت ووزمار امير بني توجين وثابت بن منديل امير مغراوه وزَمار بن ابراهيم زعيم بني راشد فهؤلاء كانوا من ارسخهم في الخلال الحميدة قدماً واطولهم فيها يداً واكثرهم لها جمعاً وسنذكر طرفاً من اخبارهم على وجه الايجاز ان شاء الله تعالى

ذكر فتح المغرب وما جرى في ذلك من الوقائع بين المسلمين والبربر

اعلم ان قبائل البربر بافريقية والمغرب كانت قبل الاسلام تحت سلطة الروم وعلى دين النصرانية ولم تزل على ذلك الى ان فتحت مصر في خلافة امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسار عمرو بن العاص رضي الله عنه منها الى برقه سنة اثنتين وعشرين فصالحه اهلها على الجزية ثم سار منها الى طرابلس فحاصرها وفتحها عنوةً وولى عليها وعلى برقة حكاماً من قبله ورجع الى مصر وفي خلافة عثمان رضي الله عنه عُزل عمرو بن العاص وتولى عبدالله بن سعيد بن ابي سرح العامري عليها فامره عثمان رضي الله عنه بالتوجه الى افريقية فزحف اليها سنة تسع وعشرين فجمع لهم جرجير ملك افريقية وبلاد المغرب

من بامصارها من الروم وبضواحيها وقراها من البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجه ودار ملكه سبيطله ولقي بهم المسلمين فوقعت الهزيمة في جيشه وشدّ عليه عبدالله ابن الزبير رضى الله عنه فقتله واتبعهم المسلمون يقتلون ويسبون الى ان وصلوا الى سبيطله فتحوها ثم خربوها ولم تزل خرابًا وهي في تخوم تونس مما يلي ارض الجزائر معروفة لهذا العهد ونقل الله المسلمين اموال جرجير وجموعه وبناتهم واختصت ابنة جرجير بقاتله عبدالله ابن الزبير وكان هو الرسول بخبر الفتح الى الخليفة ثم انساح المسلمون في البسائط والضواحي بالغارات ووقع بينهم وبين البربر حروب انتصر المسلمون في جميعها واسروا من ملوكهم وُزمارْ بن صقلابْ جدّ بني خزَرْ وهو يومئذٍ امير مغراوه وسائر زناته ورفعوه الى عثمان رضى الله عنه فاسلم على يده ومنّ عليه واطلقه وعقد له على قومه وقيل انما وصله وافدًا ثم لاذ الروم بالسلم وشرطوا لابن ابى سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على ان يرحل عنهم ففعل ورجع المسلمون الى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الاسلامية ولما آل الامر الى معاوية بن ابي سفيان بعث ابن خديج الشكوني من مصر لافتتاح افريقية سنة خمس واربعين فسار اليها وكان في جيشه عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم وعبد الملك بن مروان فلما وصل الى افريقية ارسل عبد الملك بن مروان الى جَلولا ففتحها وارسل جيشًا في البحر في مائتي مركب الى جزيرة صَقليه ففتحوها وغنموا وارسل رُوَيفع بن ثابت الانصاري رضى الله عنه الى جِربه ففتحها وارسل ملك الروم اثناء ذلك من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم فتلقتهم المسلمون وردّوهم على اعقابهم ثم قفل ابن خديج راجعًا الى مصر وتولى بعده عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة سبع واربعين فاختطّ القيروان وافترق امر الرّوم فصاروا الى الحصون وبقي البربر بضواحيهم وفي سنة احدى وخمسين استعمل معاوية علي مصر وافريقية مسلمة بن مخلد فعزل عقبة عن افريقية وولّى مولاه ابا المهاجر دينارًا وفي ايامه فتحت جزيرة شريك على يد حنش بن عبدالله الصاغاني وكانت رئاسة البربر يومئذٍ في اوربه لكسيلة بن لَمْزَمْ رئيس البرانس ومرادفه سكرديدْ ابن رومى من اوُرْبه وكانا على دين النصرانية فاسلما لاوّل دخول الاسلام الى المغرب ثم ارتدّا قبل ولاية ابي المهاجر واجتمع اليهما البرانس وزحف اليهم ابو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيله فاسلم واستبقاه عنده واحسن اليه ثم جاء عقبة بن نافع في الولاية الثانية ايام يزيد بن معاوية سنة اثنين وستين فنكب كسيله واعتقله وتقدم اليه ابو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف الى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوى

فدوّخه واستفتح حصون الروم وبقية ملوك البربر بالزاب وتاهرت بجموعهم ففضهم جمعاً بعد جمع ودخل المغرب الاقصى واطاعته غماره ثم نازل المصادمه في جبل درن فقوى امرهم فنهضت اليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوه فاعتز بهم عقبة وقوى امره عليهم فاثخن فيهم وحملهم على الطاعة والاسلام ثم اجاز الى السوس الاقصى لقتال من بها من صنهاجة وكانوا على دين المجوسية فاثخن فيهم وقفل ظافراً وكسيله اثناء ذلك في اعتقاله ثم سرح عقبة العساكر الى القيروان وبقي في شرذمة منهم وتراسل كسيله وقومه فاجتمعوا اليه وانتهزوا الفرصة في عقبة رضي الله عنه فقتلوه ومن معه وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة رضي الله عنهم واستشهد في مصرع واحد جم غفير من التابعين فيهم ابو المهاجر وقد ابلى عقبة رضي الله عنه في ذلك اليوم بلاءً حسناً واشتهر قبره وعليه مسجد معروف باسمه واسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم ففداهم صاحب قفصه وكان زهير بن قيس قد رجع من المغرب الى القيروان فلما بلغه الخبر خرج هارباً وارتحل المسلمون معه ونزلوا برقة واقام بها ينتظر امر الخليفة فقارن ذلك اضطراب الخلاف بحروب ابن الزبير والضحاك بن قيس مع المروانيين واضطرم المغرب ناراً وفشت الردة في البربر واجتمعت كلمة البربر والروم على كسيله فنزل القيروان واعطى الامان لمن بقي بها من العرب وعظم سلطانه على البربر ومن معهم من الروم فملكهم خمس سنين ولما استقل عبد الملك ابن مروان بامر الخلافة بعث الى زهير بن قيس بالمدد وولاه حرب البرابره والاخذ بثار عقبة رضي الله عنه فزحف في آلاف من العرب سنة سبع وستين وجمع كسيله سائر البربر ولقيه في نواحي القيروان فاشتد القتال بينهم وانهزم البربر وقتل كسيله واتبع جيشه المسلمون الى نهر ملوية وتلاشى امر البربر وفنيت فرسانهم واضمحل حال الروم وضعفوا عن اغاثتهم واضطرمت افريقية والمغرب ناراً وامتلأت قلوب البربر من زهير رعباً فلجئوا الى الحصون ثم قفل زهير الى المشرق فاعترضه اسطول صاحب القسطنطينية في سواحل برقة فقاتل الروم حتى استشهد هناك وبعث عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان عامله على مصر ان يخرج الى افريقية وبعث اليه بالمدد فزحف اليها سنة تسع وسبعين ودخل افريقية واسترجع قرطاجنه من يد الروم والبربر ثم خربها فذهب من بقي بها من الروم والافرنج الى صقلية والاندلس والذي انشأ قرطاجنه ديدون ابن البشار من نسل عيصو بن اسحق عليه السلام ثم صار ملك افريقية الى

ملغار انيبال من ملوكهم فهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين واهل الاندلس ثم ولى بقرطاجنة فاجاز البحر الى بلاد الفرنجة وهم الجلالقة وزحف اليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم وبعث اخاه اسد ربال الى الاندلس فملكها وخالفه قواد الرّومانيين الى افريقية فملكوها وقتلوا غثول خليفة انيبال فيها وخرج قوّاد آخرون من رومة الى الاندلس فملكوها وقتلوا اسد ربال وفرّ اخوه انيبال وتبعه قواد رومة الذين اجازوا الى افريقيـة فحاصروه بقرطاجنة حتى صار الصلح بينهم ثم ظاهر بعد ذلك أنيبال صاحب افريقية ملوك السريانيين على حرب رومه وبعد ان تخاص اهل رومه من ذلك رجعوا الى الاندلس ثم اجازوا البحر الى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها انيبال وذلك لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة من بناء رومه ثم بعد ذلك اجتمع قواد رومه على بناء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها فعمرت واتصل بها لأهل رومه ملك والذان اختطا مدينة رومه روملش وراملش وذلك لعهد اربعة الآف وخمسمائة سنة من مبدا الخليقة ثم توجه حسان بجيوشه الى الكاهنة دهيا بنت ماريه ملكة البربر بمعقلها من جبل اوراس وقد انضم اليها بنو يفرن ومن كان بافريقية من زناتة وسائر البتر فلقيتهم بالسهل امام جبلها فانهزم المسلمون واسر خالد بن يزيد القيسي واتبعت آثار حسان وجيوشه بجموعها حتى اخرجتهم من افريقية وانتهى حسان الى اعمال طرابلس فاقام بها وبنى قصوره ولم تزل اطلالها موجودة لهذا العهد مشهورة به ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من اوراس واستفحل ملكها في افريقية واستمرت ملكة على البربر خمس سنين ثم بعث عبد الملك الى حسان بالمدد وامره بالرجوع الى افريقية فزحف اليها سنة اربع وثمانين وكانت الكاهنة عتت واشتدّ ظلمها وامرت بتخريب جميع المدن والضياع وقطع الاشجار بعد ان كان الراكب يسير من طرابلس الى طنجة في عمارة متصلة وظلٍ ممدود فشق ذلك على البربر وحصلت الوحشة بينهم وبين ملكتهم فلما وصل حسان الى افريقية زحفت اليه بجموعهم فخذلوها واختلّ نظامهم وشذّ معها قومها جراوه من البتر ففضّ جيوشهم وقتل الكاهنة ثم ان البربر استأمنوا اليه فامنهم على الاسلام والطاعة فاجابوا واسلموا وعقد الاكبر من اولاد الكاهنة على قومه جراوه وانصرف حسان الى القيروان ثم في سنة ثمان وثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك قدم موسى بن نصير واليًا على افريقية فدوخ المغرب واثخن في البربر حتى ادّت اليه الطاعة وولى على طنجه مولاه طارق بن زياد وانزل معه سبعة وعشرين الفًا من مسلمي العرب الاولين واثنى عشر الفًا من البربر وامرهم ان يعلدوا

البربر القرآن وامور الدين وسرت كلمة الاسلام في جميع احياء البربر وبطونهم ومن بقي منهم اسلم على يد اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر سنة احدى ومائة ونقل ابن خلدون عن ابي محمد بن زيد الامام المشهوران البربر ارتدّوا اثني عشر مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى اجاز موسى بن نصير الى الاندلس واجاز معه كثيرين من رجالات البربر برسم الجهاد ووقع فتح الاندلس فحينئذٍ استقر الاسلام في المغرب وازعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردّة واستوثقت الامور لموسى بن نصير في المغرب والاندلس وبلغ فيهما ما لم يبلغه غيره وحصل في يده من المغنم والسبي ما لم يحصل في يد سواه من الملوك قال الصفدي في تاريخه لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير وغنائمه فانه استصحب عند قدومه الى الوليد بن عبد الملك ثمانية وسبعين تاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت وكلها تيجان ملوك الاندلس من اليونان ومائة وثلاثين عجلة مشحونة بالذهب والفضة واللؤلؤ ومن ابنا الملوك وغيرهم من الاسرى ما يقرب من ثمانين الف اسير ومن الرقيق ثلاثون الف شخص واستخلف ولديه عبدالله على افريقية والمغرب وعبد العزيز على الاندلس وفي خلافة سليمان بن عبد الملك عزل عبدالله بن موسى بن نصير عن افريقية والمغرب وتولى محمد بن يزيد مولى قريش وذلك سنة ست وتسعين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز عزل عبدالله وتولى مكانه اسماعيل بن عبدالله ابن ابي المهاجر سنة سبع وتسعين ثم نبضت عروق الخارجية في رؤس كثير من البربر وسارت اليهم من سواد العراق فدانوا لها وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها فيهم من الاباضية والصفرية وفشت هذه البدعة في المغرب فوقع الاختلال في كل جهة منه وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولى يزيد بن ابي مسلم فقتله الخوارج لشهرٍ من ولايته فتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة وغزى جزيرة صقلية سنة تسع ومائة ومات في مرجعه عنها وتولى عبيدة ابن عبد الرحمن القيسي سنة عشر ومائة وعزل في خلافة هشام وتولى مكانه عبيدالله بن الحجاب مولى ابن سلول سنة اربع عشرة ومائة وبنى جامعاً بتونس ويعرف لهذا العهد بجامع الزيتونة واتخذ فيها دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية ووطيء بعسكره بلاد سوس واثخن في البربر فجمعوا امرهم وانتقضوا عليه وثار ميسرة المظفري بطنجة على عمرو بن عبد الله المرادي وكان والياً عليها لابن الحجاب فقتله

وبايع لعبد الاعلى بن جريج الافريقي الرومي الاصل ثم خلعه وبايع لنفسه ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربر ما جاء به وقتلوه وقدموا على انفسهم خالد بن حميد الزناتي فقام بامرهم وجمع كلمتهم وزحف بجموعه الى العرب وسرح اليهم عبدالله بن الحجاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن حبيب الفهري فالتقوا بوادي شلف فانهزم العرب وقتل خالد بن حبيب ومن معه وتسمى هذه الواقعة بواقعة الاشراف لكثرة من حضرها من وجوه قريش والانصار وانتقضت البلاد ومرج امر الناس وانتهى الخبر الى هشام بن عبد الملك نعزل ابن الحجاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين ومائة فخرج الى افريقية حتى بلغ وادي طنجة فزحف اليه خالد بن حميد الزناتي بمن معه من البربر ولقوا كلثوم بن عياض بعد ان هزموا مقدمته وعليها بلخ بن بشير القشيري فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وانهزم جيشه وتحيز اهل الشام الى سبتة مع بلخ بن بشير ومضى اهل مصر وافريقية الى القيروان وطار الخبر الى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة اربع وعشرين ومائة وهواره يومئذ خارجون عن طاعة الدولة ومنهم عكاشة بن ايوب وعبد الواحد بن يزيد فثارت هواره ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة في ظاهر القيروان بعد قتال شديد وقتل عبد الواحد واخذ عكاشة اسيرًا وكتب حنظلة بذلك الى هشام ولما سمعها الليث بن سعيد رضي الله عنه قال ما غزوة كنت احبُّ ان اشهدها بعد غزوة بدر احبَّ اليَّ من هذه الغزوة واجاز عبد الرحمن بن عقبة بن نافع لما مات ابوه الى الاندلس يحاول ملكها ولما يئس منها رجع الى تونس ودعا لنفسه سنة سبع وعشرين واستقلَّ بملك افريقية واقره مروان بن محمد عليها لما تولى الخلافة ولما آلت الخلافة الى بني العباس بعث عبد الرحمن بطاعته الى السفاح ثم الى ابي جعفر المنصور من بعده ولم يزل عبد الرحمن واليًا على افريقية الى ان قتله اخوته سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من امارته وانتهى خبر افريقية الى أبي جعفر المنصور فارسل محمد بن الاشعث الخزاعي واليًا عليها سنة اربع واربعين ومائة فلقيه ابو الخطاب الخارجي بجموعه بسرت فهزمه ابن الاشعث وقتل عامة اصحابه وافتتح طرابلس وقام بامر افريقية وضبطها ثم قفل الى المشرق فوليها بعده الاغلب بن سالم التميمي فخرج عليه ابوقرة اليغرني في جموع البربر فهرب ونقم عليه الجند وخلعوه ولحقوا بالحسن بن حرب

الكندي بكابس واقبل بهم الى القيروان فملكها ولحق الاغلب بكابس واستعد لقتال الحسن سنة خمسين فهزمه الى القيروان فكرّ عليه الحسن دونها واقتتلوا نقتل الاغلب ثم رجعت اصحاب الاغلب على الحسن نقتلوه في الموقف الذي قتل فيه الاغلب ولما بلغ المنصور قتل الاغلب بعث الى افريقية عمر بن حفص اخا المهلب ابن ابى صفرة نقدمها سنة احدى وخمسين ومائة فاستقام امره ثلاث سنين ثم ثار البربر عليه وحاصروه بطبنة فداخلهم وفرق كلمتهم بالمال ثم انتقضوا عليه وحاصروه بالقيروان ولما اجهده الحصار خرج مستميتاً الى قتالهم نقتل آخر سنة اربع وخمسين ومائة ثم تولى مكانه ابن عمه يزيد بن ابي حاتم بعثه المنصور في ستين الف مقاتل فهزم جموع البربر وقتل ابو حاتم احد رؤسائهم في ثلاثين الفاً من اصحابه وتتبع يزيد جموع البربر بالقتل بثار ابن عمه عمر بن حفص ثم دخل القيروان سنة خمس وخمسين ومائة ولم يزل والياً على افريقية والمغرب الى ان توفى سنة سبعين ومائة وكان روح بن ابي حاتم اخو يزيد على فلسطين فاستقدمه الخليفة هارون الرشيد وولاه على افريقية نقدمها ثم توفى سنة اربع وسبعين ومائة وولى مكانه ابنه الفضل فخرج عليه عبدالله بن الجارود واقتحم عليه القيروان واعتقله ووكل به وباهله من يوصلهم الى كابس ثم ردّه من الطريق وقتله فتولى بعده هرثمة بن اعين سنة سبع وسبعين ومائة فأمن الناس وسكنهم وبنى القصر الكبير بالمنستير وبنى السور على طرابلس ولما رأى كثرة الثوار بافريقية استعفى الرشيد من ولايتها فاعفاه وولى محمد بن مقاتل الكعبي من صنائعه نقدمها سنة احدى وثمانين ومائة وكان سيء السيرة فخلعه الجند وقدموا مخلد بن مرة الأسدى وبعد ان قتل مخلد ثار تمام بن تميم التميمي على محمد بن مقاتل واخرجه من القيروان فلحق بطرابلس وبلغ الخبر الى ابراهيم بن الاغلب بمكانه من الزاب فانتصر لمحمد وسار بجموعه الى القيروان وهرب تميم بين يديه الى تونس وملك افريقية واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس واعاده الى امارته ولما استقرّ الامر لمحمد ابن مقاتل كره اهل البلاد ولايته وداخلوا ابراهيم بن الاغلب في ان يطلب من الرشيد الولاية عليهم فكتب ابراهيم الى الرشيد بذلك فكتب له بالعهد سنة اربع وثمانين ومائة فقام بامر الولاية وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل اليها وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف الى سنة ست وتسعين ومائتين ثم خرج اهل افريقية

16

عن طاعتهم وقاموا بدعوة الشيعة وفر آخرهم واسمه زيادة الله قاتل ابيه الى المشرق وفي هذه المدّة كلها لم يتجاوز ملكهم افريقية لمكان الدولة الادريسية في المغرب وبانقراض دولة بني الأغلب من افريقية انقطعت دعوة بني العباس منها ومن المغرب . ولنذكر دول المغرب على الترتيب ووقائعها وما آل اليه امرها مبتدئين بدولة الادارسة لانها اول دولة ظهرت فيه حتى نتوصل الى ذكر ما كان في ايام سيدي الوالد من الوقائع الهائلة والايام المشهورة مع دولة فرانسا وما جرى بينه وبين دولة مراكش بوجه الاختصار على حسب الامكان وبالله المستعان

ذكر دولة الادارسة في المغرب الاقصى

لما آلت الخلافة العباسية للهادي خرج الحسين بن علي بن حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام الى المدينة المنوَّرة وبويع في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائة ثم سار منها الى مكة المكرمة وكتب الهادي الى محمد بن سليمان بن علي العباسي حين قدم حاجًا من البصرة فولاه حربه فاستعد محمد بن سليمان لقتاله وانضمّ اليه من حضر من شيعتهم ومواليهم وخرج لقتال الحسين فالتقى الفريقان بوجٍ موضع على ثلاثة اميال من مكة الى جهة الطائف واقتتلوا فوقعت الهزيمة في جيش الحسين وقتل هو في جماعة من اهل البيت وافترق الباقون وكان فيهم عمه ادريس بن عبدالله الكامل فافلت مع من افلت منهم ولحق بمصر نازعًا الى المغرب وعلى بريد مصر يومئذٍ واضح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع فعلم بشان ادريس وحمله على البريد الى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلي بجانب جبل زرهون سنة اثنين وسبعين وبها وقتئذٍ اسحاق بن محمد بن عبد الحميد امير اوربة من قبائل البربر فاجاره وجمع البربر على ادريس وبايعوه وقاموا بامره وخطب الناس يوم بويع فقال ايها الناس لا تمدّنَّ الاعناق الى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا ولما استوثق له الامر زحف الى البرابرة الذين كانوا بالمغرب واكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فاسلموا على يده وخرَّب حصونهم وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادْلاَ ثم زحف الى تلمسان سنة ثلاث وسبعين وامن اميرها محمد بن خزر المغراوي واقرَّه على امارته كما امن سائر زناته وبنى مسجد تلمسان وكتب اسمه على منبرها ثم رجع الى مدينة

وَلِيلى وقد طبق الآفاق ذكره واهتز له الرشيد ببغداد واهمه شانه واطلع على ما كان من واضح مولاهم من دسيسة التشيع واعمال الحيلة في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ومن ذلك العهد وقع الفشل لبني العباس بالمغرب وقصرت قوتهم عن ان تسمو اليه وقد استعمل الرشيد الحيلة على قتل ادريس فدسّ اليه الشماخ من مواليهم للتحيل على قتله فلحق به واظهر النفور من بني العباس مواليه فصدقه ادريس وقربه منه ثم انتهز الفرصة فيه في بعض خلواته فناوله سماً فقتله به سنة خمس وسبعين ومائة ودفن بوَليلى وفر الشماخ ولحقه راشد مولى ادريس بوادي ملويه فاختلفا بضربتين فقطع راشد يد الشماخ واجاز الوادي فاعجزه ونما خبر ادريس الى بني العباس ببغداد فوقع ذلك احسن موقع لما رجوه من قطع اسباب الدعوة الادريسية من المغرب وكانت ايام خلافة ادريس خمس سنين وستة اشهر وخلف جاريته كنزة حبلى فقام بامر الملك مولاه راشد بالاتفاق وبعد ستة اشهر من موته وضعت جاريته كنزة ولداً فاجتمع البربر وعرضه راشد عليهم فرأوه شبيهاً بابيه ففرحوا به وسموه ادريس الأصغر وكفله راشد الى ان قتله بعض البربر باغراء بني الاغلب امراء افريقية سنة ست وثمانين ومائة ثم قام بكفالة ادريس من بعده ابو خالد بن يزيد بن الياس العبدي الى ان بايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن احدى عشر سنة وقاموا بامره وجددوا لانفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وكان ادريس الاصغر اجمل الناس خلقاً وخلقا قال داوود بن القاسم البربري خرجت مع ادريس الاصغر الى قتال الخوارج من البربر فلقيهم وكانوا اكثر منا عدداً فاخذني العجب يومئذٍ من ثبات جاشه وشدة اقدامه على العدو مع صغر سنه فجعلت اطيل النظر فيه فكلمني في ذلك فقلت انما اطلت النظر اليك لخصال رايتها فيك منها انك تبصق بصاقاً مجتمعاً وانا اطلب قليلاً منه أبل به حلقي فلا اجده ومنها حركتك في سرجك فقال اما اجتماع بصاقي فلاجتماع قلبي واما ذهاب بصاقك فلذهاب قلبك واما حركتي فلاستشرافي الى القتال ثم قال

أليس ابونا هاشم شد ازره * واوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فقلت بلى انتم اهل لذلك . ولما استوثق له الملك استوزر مصعب بن عيسى الازدي ونزع اليه كثير من قبائل العرب والاندلس واجتمع اليه منهم عدد كثير

فاختصهم وكانوا له حاشية وبطانة وعظم سلطانه بهم وقوي ملكه واختط مدينة
فاس سنة اثنين وتسعين ومائة وبنى فيها مساكنه وانتقل اليها من وليلى واسس
جامع الشرفا واستقام له الامر وتوطد له الملك ثم خرج غازيًا المعامد سنة سبع
وتسعين ومائة فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ثم غزى تلمسان وجدد بناء مسجدها
واقام فيها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم
واستولى على المغربين من سوس الاقصى الى وادي شلف وضايق ابرهيم بن الاغلب
بافريقية ثم استراب ادريس بالبرابرة فصالح ابن الاغلب وسكن من غربه ثم
عجزت الاغالبة عن مدافعة الادارسة ودافعوا حلفاء بني العباس فتارة باحتقار
المغرب واهله وتارة بالارهاب بشان ادريس ثم رجع ادريس من تلمسان الى
عاصمة ملكه فاس وعزم على الجواز الى الاندلس فادركه الاجل وتوفي سنة ثلاث
عشرة ومائتين عن ثمان وثلاثين سنة وخلف اثني عشر ولدًا ذكرًا اكبرهم جدنا
محمد وهو ولي عهده فاشرك اخوته في ملكه باشارة جدته كنزة فقسم المغرب
بين الكبار منهم وابقى الباقين في كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم ولم يزل
امره جاريًا على احسن الوجوه واعدلها الى ان توفي في ربيع الاول سنة احدى
وعشرين ومائتين بعد ان عهد لابنه عليّ وهو ابن تسع سنين فقام بامره الحاشية
من العرب واوربة وسائر البربر وبايعوه غلامًا مترعرعًا وقاموا بامره وطاعته فكانت
ايامه خير ايام وتوفى في رجب سنة اربع وثلاثين ومائتين لثلاث عشرة سنة من
ولايته وعهد لاخيه يحيى بن محمد فقام بالامر واشتد سلطانه وحسنت سيرته واستجدت
فاس في العمران وبنيت الحمامات والفنادق للتجار ورحل اليها الناس من الآفاق
والقاصية وبنى في ايامه جامع القرويين اختطته امراة من القيروان من مالها
سنة خمس واربعين ومائتين وانتقلت اليه الخطبة من جامع الشرفا المعروف بجامع
مولاي ادريس ثم اوسع في خطة المنصور بن ابي عامر وبنو مرين ثم توفي يحيى
وبويع ولده يحيى بن يحيى فساءت سيرته وكثر عبثه وثارت به العامة فاخرجوه
من عدوة القرويين الى عدوة الاندلسيين فتوارى ليليتين ومات اسفًا وبلغ الخبر
الى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف فاستدعاه اهل الدولة من العرب والبربر
فجاء الى فاس وبايعوه واستولى على اعمال المغرب فثار عليه عبد الرزاق الخارجي
وزحف على فاس وغلب على عدوة الاندلس منها وامتنعت عليه عدوة القرويين

وفرّ علي الى اعماله من الريف° فاستحضر اهل فاس يحيى بن قاسم بن ادريس
فحضر اليها بجنوده وقتل عبد الرزاق وتم له الامر واستقل به الى ان اغتاله الربيع
ابن سليمان سنة اثنين وتسعين ومائتين وقام بالامر بعده احسن قيام يحيى بن
ادريس بن عمر بن ادريس صاحب الريف فملك جميع اعمال الادارسة وخطب
له على سائر منابر المغرب وكان اعلا بنى ادريس مكانًا واعظمهم سلطانًا واكثرهم
عدلاً وكرمًا ذا علمٍ وصلاح ولم يزل على ذلك الى ان عقد الشيعة اصحاب افريقية
لمصالة بن حبوس صاحب تاهرت على محاربة ملوك المغرب فزحف الى فاس في عساكر
مكناسة وكتامة وبرزاليه يحيى بن ادريس بجموعه والتقوا على مكناسة فكانت
الدائرة على يحيى ورجع الى فاس فحاصره بها ثم صالحه على مال يدفعه اليه وان
يبايع لعبدالله المهدي فقبل وخلع نفسه وانفذ بيعته الى عبدالله المهدي وعقد له
مصالة على فاس وعملها خاصة وعقد لموسى بن ابى العافية المكناسي على جميع
المغرب ورجع الى افريقية وفي سنة تسع وثلاثمائة عاد مصالة الى المغرب فدسّ
اليه ابن ابي العافية في يحيى فقبض عليه واستصفى امواله وغرّبه الى الريف وولى
على فاس ريحان الكتامي فثار عليه الحسن بن القاسم بن ادريس الملقب بالحجام
سنة عشرة وثلاثمائة واخرج ريحان منها وملكها عامين ثم زحف للقاء موسى بن
ابي العافية وكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها ابنه موسى وانجلت المعركة على
اكثر من الف قتيل وخلص الحسن الى فاس منهزمًا فغدر به حامد بن حمدان
البربري الاوربي واعتقله وبعث به الى موسى فوصل موسى الى فاس فملكها وطالب
حمدان باحضار الحسن ندائعه واطلق الحسن فخرج من معتقله متنكرًا وتدلى من
السور فسقط ومات وفرّ حامد بن حمدان الى المهدية بافريقية وتولى ابن ابي
العافية على جميع المغرب واجلى من بقي من الادارسة في فاس الى الريف واجتمعوا
الى اكبرهم ابرهيم بن محمد بن القاسم اخي الحسن المذكور وولوه عليهم واختط
لهم الحصن المعروف بحجرة النسر ثم اظلم الجوّ بين الشيعة واميرهم موسى بن ابي
العافية فمال ابن ابي العافية الى المروانيين اصحاب الاندلس وخطب موسى لهم
على منابر سائر اعماله وقطع خطبة العبديين فطار الخبر اليهم فجهزوا له جيشًا تحت
قيادة مولاهم ميسور الفتى وكتبوا الى الادارسة بالريف ان يكونوا في نصرته
حتى اذا فرغوا من موسى بن ابى العافية يرجع ميسور ويترك لهم ولاية المغرب

فكان من الادارسة في محاربة ابن ابي العافية عجائب ثم انحاز الى ملوية فلحقوا به وقتلوه بعد ان ملك المغرب ثمانية وعشرين سنة ورجع بنو ادريس الى بلادهم ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة وتولى القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الملقب بكنون ثم توفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وتولى مكانه ولده احمد بن القاسم وكان عالمًا فقيهًا يميل الى بني مروان نقطع دعوة الشيعة ودخل الاندلس بقصد الجهاد فمات هنالك سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة وخلفه اخوه الحسن بن كنون الى دخول جوهر الشيعي المغرب فبايع الحسن الشيعة ولما رجع جوهر نكث ورجع للروانيين الى ايام بلكين قائد الشيعة وقوي امرهم وضاق النطاق على الحسن حتى مات شريدًا ثم تغلب المروانيون على بلاد الريف واجازوا اكثر الادارسة المترشحين للملك الى الاندلس ثم اجازوهم الى الاسكندرية وبعث العزيز العبيدي صاحب مصر وافريقية من اختاره من بني كنون لطلب ملكهم بالمغرب فغلبهم عليه المنصور بن ابي عامر وقتلهم وكان انقراض دولة الادارسة من المغرب بعد ان ملكوه نحو مائتي سنة ثم تمكن بنو يفرن وزناتة وخطبوا فيها للمروانيين وبقيت في ايديهم يتوارثونها الى ان غلبهم عليها المرابطون والبقاء لله تعالى

ذكر بني الاغلب امراء تونس

وهم من اولاد الاغلب بن سالم قدم مع محمد بن الاشعث الخزاعي حين تولى على مصر وتونس سنة اربع واربعين ومائة فولاه على الزاب ولما رجع ابن الاشعث الى بغداد بعث الخليفة ابو جعفر المنصور الاغلب بن سالم واليًا على تونس فقدمها وسكن القيروان ثم خرج عليه ابومرة اليغرني في جموع من البربر وقتل الاغلب في حروبه وفي ايام هارون الرشيد عهد بالولاية لابراهيم بن الاغلب وكان الرشيد يغض بمكانة ادريس في المغرب فاحتال عليه ابرهيم حتى قتله واشار لذلك ابن الخطيب بقوله .

واستوثق الملك لآل الاغلب * بعد رجال من بني المهلب
فاولـــ الاقوام ابراهيم * وهو الهمام الملك العظيم
قلده هارون امر المغرب * وهولطيف الحدماذي المضرب
لم يدع في ارضه رئيسا * واعمل الحيلة في ادريسا

ودام ابراهيم في الولاية الى ان توفي . فوليها بعده ابنه العباس واستعمل الجور في رعيته فانتدب جماعة من الصالحين الى وعظه فلم يقبل واستمرّ على حاله فتوجهوا الى الله بان يريحهم منه فمات لخمسة ايام مطعونًا بعد ان اسودّ لونه وتغير جماله وحسنه فوليها اخوه زيادة الله المشهور بابن شكلة وكان اميرًا جليلًا وفيًّا في امارته للأمون وابراهيم من المهدي ومات سنة ثلاث وعشرين ومائتين فتولى مكانه اخوه عقال وسار سيرته في الخير الى ان مات فولى بعده ابو العباس بن محمد ابن الاغلب وكان جاهلًا وولي بعد وفاته ابن اخيه احمد بن العباس وكان حسن الاخلاق متجنبًا الظلم والاعتساف بنى المساجد في تونس والمآجل ببابها وتوفي سنة تسع واربعين ومائتين فوليها اخوه ابو محمد زيادة الله بن محمد بن الاغلب وكان عاقلًا حسن السيرة وكانت ولايته ستة اشهر ثم وليها ابن اخيه محمد بن احمد ابن محمد الملقب بابي الغرانيق لشغفه بصيدها وكان غايةً في الجود وايامه في اليمن يضرب بها المثل توفي سنة احدى وستين ومائتين وولى بعده اخوه ابو اسحاق ابراهيم ابن احمد وهو الذي نقل القصور الى ركادة وكان في ابتداء امره حسن السيرة ثم غلب عليه خلط سوداوي فتغير حاله واسرف في القتل وقتل اصحابه وحجابه وثمانية من اخوته صبرًا بين يديه وقتل بناته ثم اظهر النسك مات سنة تسع وثمانين ومائتين وولى بعده ابنه ابو العباس عبدالله على عهد المعتصم بالله فرد المظالم وتنسك ولبس الصوف وقتل بتدبير ابنه زيادة الله وكان في سجنه وبادر بقتل من شارك في دمه واظهر التبري من ذلك وفي ايام زيادة الله ظهر امر بني عبيد ولقيت جيوشه جيوش الشيعة فلم تقم لهم قائمة ففر الى المشرق وترك البلاد

ذكر دولة الادارسة بالاندلس

كان لبني محمد وبني عمر من ولد ادريس رئاسة على البربر في بلاد غمارة من الريف فلما قام سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدي محمد بن هشام في جنود البربر وزناتة كان عليُّ بن حمود بن ميمون بن احمد بن عليّ بن عبيدالله بن عمر بن ادريس واخوه القاسم في جملتهم واشتد امر البربر وزناتة انصار المستعين على اهل الاندلس وحاصروا المهديّ في قرطبة فخشي اهلها على انفسهم من اقتحام البربر عليهم فقتلوا المهديّ بن هشام واجتمعوا على تجديد البيعة لهشام المؤيد واستمرّ

البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم الى ان دخلوها عنوة سنة ثلاث واربعمائة وفتكوا بهشام المؤيد ثم لما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البربر علي الامر قام عليٌّ بن حمود واخوه القاسم ودعوا لانفسهم وتعصب لهم الكثير من البربر وملكوا قرطبة سنة سبع واربعمائة وقتلوا المستعين وتم الامر لعليّ وتمكن سلطانه واتصلت دولته عامين وتلقب بالمأمون ثم قتله صقالبته في الحمام سنة ثمان واربعمائة فولي مكانه اخوه القاسم والى ذلك يشير ابن الخطيب في منظومته بقوله

ثم سليمان الى الملك رجع * نبهه الدهر وما كان هجع
وكان شاعرًا ومن اهل اللسن * وقيض الله له أباالحسن
وهو ابن حمودٍ اتى من سبتة * وسبب العز له قد ثبته
صال عليه طالبًا دم هشام * وقلّ من ونى عن الثار ونام
فخذل الابن وثنى بالأب * بيده مبينـًا للسبب
واستوثق الامر قليلاً وانتظم * وانتصر الدهر به ممن ظلم
واغلظ الاحكام في بربره * وغالب الناس على سيره
واغتاله الصقلب في حمامه * فجرعوه الصرف من حمامه
وقام بالامر اخوه القاسم * فوضحت في ملكه المراسم

ثم بعد اربع سنين من سلطنة القاسم نازعه ابن اخيه يحيي بن علي بسبتة وكان اميرًا على تلك النواحي وولى عهد ابيه فزحف الى قرطبة فملكها سنة ثنتى عشرة واربعمائة وتلقب بالمعتلى وفرّ عمه المأمون الى اشبيلية وبايع له قاضيها ابن عباد واستجاش بعض البربر ورجع الى قرطبة سنة ثلاث عشرة ولحق المعتلى بمالقة وتغلب علي الجزيرة الخضراء وتغلب اخوه ادريس على طنجة ولم يزل امر المعتلي ينمو وسلطانه يعلو الى ان قتله محمد بن عبدالله البرزالي البربري بمداخلة ابن عباد ثم استدعي اهل مالقة اخاه ادريس بن علي من طنجة وبايعوه فتم امره واتسعت دولته ومات سنة احدى وثلاثين واربعمائة وبويع بعده لابن اخيه حسن بن يحيي المعتلي ولقب المستنصر ثم مات مسمومًا سنة ثمان وثلاثين وبويع لاخيه ادريس ابن يحيي ولقب العالي ثم ثار السودان عليه بدعوة ابن عمه محمد بن ادريس بن علي وتلقب المهدي واقام في ملكه بمالقة واطاعته غرناطة وجيان واعمالها الى ان مات سنة اربع واربعين ورجع العالي فبويع بمكانه بغمارة وكان فرّ اليها لما ثار

عليه السودان ثم مات سنة سبع واربعين وبويع محمد الاصغر ابن ادريس بن علي وتلقب المستعلي ثم قام عليه باديس فتغلب على مالقة وسار محمد المستعلي منها الى المرية مخلوعاً ثم استدعاه اهل مليلية وكلعية من وراء البحر وبايعوه سنة تسع وخمسين واربعمائة وهو آخر من ملك في الاندلس من الادارسة ثم اقتسمت ملوك الطوائف جزيرة الاندلس الى ان تغلب عليهم المرابطون بعد تغلبهم على المغرب كله والبقاء لله وحده . واعلم ان هذا القطر الاندلسي تسميه الافرنج اندلش بالشين المعجمة وكان يسكنه امم من افرنجة المغرب واكثرهم الجلالقة وكان الغوط قد تملكوه المئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب موصوفة مع السريانيين وذلك لعهد ابراهيم الخليل عليه السلام وحاربوا اللاتينيين وحاصروا رومة ثم عقدوا معهم السلم على ان ينصرف الغوط الى الاندلس فساروا اليها وملكوها وهؤلاء الغوط من الامم العظيمة وكانوا يعرفون في الزمن القديم باسبين نسبة الى الارض التي كانوا يعمرونها بالمشرق فيابين الفرس واليونان ولما اخذ الروم واليونان بالملة النصرانية حملوا عليها من ورائهم من المغرب من امم الفرنجة والغوط فدانوا بها وكانت دار ملوك الغوط طليطلة وملكهم لذلك العهد يسمى لزريف وهو سمة لملوكهم وكان ملك البرابرة بجبال غمارة يسمى بليان يدين بطاعتهم وملتهم وموسى بن نصير امير المغرب اذ ذاك عامل على افريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك واستنزل بليان بطاعة الاسلام وكان بليان ينقم على لزريف ملك الغوط فلحق بطارق بن زياد الليثي وهو يومئذٍ والي طنجة فانتهز طارق الفرصة واجاز البحر باذن اميره موسى بن نصير بثلاثمائة من العرب واحتشد معهم البربر وصيرهم عسكرين احدهما على نفسه ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وحصل لهما الفتوحات العظيمة

ذكر دولة العبيديين وهم الفاطميون

واصلهم من الشيعة المعروفين بالامامية وكان محمد بن حبيب والد عبيد الله المهدي منهم وهو من ولد اسماعيل الامام ومنازله بالسليمية من ارض حمص في الشام وكانت شيعتهم يتعهدونه بالزيارة فجاء محمد بن الفضل الشيعي العدني من اليمن لزيارته فبعث معه رستم بن الحسن بن الحوشب لاقامة دعوته باليمن فساروا واظهروا الدعوة واستولى

محمد بن الفضل الداعية على اكثر اليمن وفرّق الدعوة في اليامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب وكان ابو عبدالله المعروف بالمحتسب الشيعي من اهل صنعاء وقيل من الكوفة سمع بقدوم ابن حوشب وانه يدعو الناس الى المهدي فسار اليه واتصل به وكان ابن حوشب ارسل دعاة الى المغرب واجابتهم كتامة من البربر . فلما راى علم ابي عبدالله ودهاءه ارسله اليهم ثم جاء ابو عبدالله مكة واجتمع بجماعة منهم قدموا حجاجاً فراۤهم مجيبين الى مطلوبه فسار معهم الى بلادهم من افريقية سنة ثمانين ومائتين وانثال البربر عليه من كل جهة وعظم شانه وبلغ الامر الى بني الاغلب امراء افريقية فاستصغروه ثم مضى الى تاهرت واتته قبائل المغرب الاوسط واستمرّ يطاول بني الاغلب على مملكتهم الى ان تولى زيادة الله قاتل ابيه وكان منهمكاً في لذاته فضعف امره وانتقضت عليه كافة افريقية فهرب الى المشرق ونهب البربر قصوره واحتل ابو عبدالله ركّادة ومنها ذهب الى القيروان فدخلها ولما راۤى ابو عبدالله امره في الزيادة وامر بني الاغلب في النقصان بعث جماعة من كتامة الى عبيدالله المهدي بعد موت والده محمد الحبيب فوصلوا اليه وهو في السليمية واخبروه بما فتح الله عليهم وان الناس في انتظاره وشاع خبر عبيدالله المهدي في الشام والعراق ومصر واتصل الخبر بالخليفة المكتفي بالله العباسي فطلبه ففرّ الى العراق ثم لحق بمصر ومعه ابنه وخاصته فبلغه ما احدث بها محمد بن الفضل من بعد ابن حوشب وانه اساء السيرة فخرج من مصر بمن معه في زيّ التجار وسار حتى وصل قسنطينة ثم عدل الى طريق الصحراء الى سجلماسا وبها اليسع بن مدرار فاكرمه ثم حبسه وبقي في محبسه الى ان فرغ ابو عبدالله من امر افريقية واستمر على سيره حتى اتى سجلماسا فخرج اليسع لقتاله فانتقض معسكره وفرّ هو وخاصته ومن الغد خرج اهل البلد الى الشيعي وذهبوا معه الى محابس المهدي وابنه فاخرجهما وبايع للمهدي ومشى مع رؤساء القبائل بين يديه حتى انزلهم بالمخيم وبعث في طلب اليسع فادركوه وقتلوه ثم ارتحلوا الى افريقية ونزلوا بركّادة سنة سبع وتسعين فحضر اهل القيروان وبويع المهدي البيعة العامة واستقام امره وقسم الاموال في رجال كتامة واقطعهم الاعمال ودوّن الدواوين وجبى الاموال واستبدّ بامره والى ذلك اشار ابن الخطيب بقوله

وظهر الشيعي في كتامه * فاختار فيهم كونه واعتامه
وغرهم في رايه ومذهبه * ووعدهم ملك الورى بسببه
وصير الدعوة بعض قصصي * الى عبيد الله من آل الوصي

وهو الذي لقب بالمهدي * أي همام حازم ابيّ

واخر المهدي ابا عبد الله واخاه ابا العباس عن مباشرة الاحكام فاظلم الجو بينهما واظهر ابو عبد الله واخوه الطعن فيه وقالوا لهم ليس هذا هو المهدي الذي دعونا اليه فاسترابت كتامة واتفقوا على قتله ونمى الخبر الى المهدي فتلطف في امرهم وولى روءساء كتامة على البلاد وفرّق كلمتهم ثم امر عروبة بن يوسف بقتل ابي عبد الله واخيه فحمل على ابي عبد الله عند باب القصر فقال له لا تفعل فقال الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتلك ثم اجهز عليه وعلى اخيه ابي العباس وخلا الجو للمهدي فبنى المهدية وانتقل اليها من ركادة وزال بملكه ملك بني الاغلب وملك بنى مدرار اصحاب سجلماسا . وايامهم فيها مائة وثلاثون سنة وزال ملك بني رستم اصحاب تاهرت وايامهم فيها مائة وستون سنة ثم توفي المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية لاربع وعشرين سنة من ولايته وولى بعده ابنه ابو القاسم محمد ويقال له نزار ولقب بالقائم بامر الله فخرج عليه ابو يزيد الاعور ولم يزل مشتغلاً بحروبه مدة امارته وتوفي القائم محصورًا في سوسة بعد ان عهد لولده اسماعيل ولقبه المنصور سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة فكتم المنصور موت ابيه القائم حذرًا ان يطلع عليه ابو يزيد وهو بمكانه من حصار سوسة فلم يسمّ بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود الى ان مات ابو يزيد مأسورًا عنده سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فحينئذٍ اظهر موت ابيه وبويع بالخلافة وضبط الملك والبلاد ثم توفي سنة احدى واربعين وثلاثمائة لسبع سنين من خلافته وعهد الى ابنه معد ولقب بالمعز لدين الله فاستقام امره وعظم ملكه ولما بلغه اختلال احوال مصر بعد موت كافور الاخشيدي جهز اليها جوهرًا في جيوش البربر والعرب فهربت العساكر الاخشيدية قبل وصوله ودخل مصر في سابع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة واقيمت دعوة الفاطميين فيها وخطب باسم المعز ابو محمد عبد الله الشمشاطي في الجامع العتيق في شوال وفي جمادى الاولى دخل جوهر جامع ابن طولون وامر بزيادة حي على خير العمل في الاذان وجهر في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم وبعث الهدايا والاموال الى افريقية صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلمائها وانقرضت دولة الاخشيدية من بني طغج . ولما استقر جوهر بمصر شرع في

بناء القاهرة وسير جيشاً الى الشام مع جعفر بن فلاح . فجاز الى دمشق وافتتحها بعد قتال شديد ونهب بعضها وكف عن بعض واقام الخطبة فيها يوم الجمعة للمعز الفاطمي في المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ولما توالت البشائر على المعز بفتح مصر والشام عزم على المسير الى مصر وبدأ في تمهيد المغرب وقطع شواغله ثم استدعى بلكين بن زيري واستخلفه على افريقية والمغرب وانزله القيروان وسماه يوسف وكناه ابا الفتوح ثم سار باهله وعساكره الى مصر فتلقته اعيانها بالاسكندرية فاكرمهم وساروا معه الى مصر فدخلها خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وكانت منزله ومنزل الخلفاء من بنيه بعده الى انقراض دولتهم بموت العاضد ابي محمد عبد الله وكانت وفاته يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة وعلى وزارته يوسف صلاح الدين تقلدها بعد موت عمه شيركوه فتمكن صلاح الدين في مصر وحكم على القصر وكان قبل موت العاضد بايام وهو في شدة المرض قطع خطبته وخطب لبني العباس بامر نور الدين الشهيد محمود بن زنكي صاحب الشام وهو الذي بعث شيركوه وابن اخيه صلاح الدين الى مصر باستدعاء من العاضد وكانت ايام ملك الفاطميين مائتين وثمان سنين بمصر واثنتين وخمسين بالمغرب وافريقية وعدة خلفائهم اربعة عشر اولهم عبيد الله المهدي وآخرهم العاضد محمد بن عبد الله وبانقراض دولتهم انقرضت دولة العرب من مصر ومن المغرب وافريقية وانتقل ملك مصر الى يوسف صلاح الدين واهل بيته ثم الى الجراكسة ثم الى الدولة العلية وانتقل ملك افريقية والمغرب الى البربر يتداولونه طائفة بعد طائفة وجيلاً بعد جيل تارةً يدعون لبني امية بالاندلس وتارة لبني العباس واخرى لبني ادريس ثم استقلوا بالدعوة لانفسهم فقامت دولة صنهاجة بافريقية واولهم ابو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي استخلفه المعز على افريقية والمغرب عند مسيره الى مصر واستمرت امارة افريقية في ولده يتوارثونها خلفاً عن سلف الى ان انقرضت باستيلاء الافرنج على المهدية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وفرَّ الحسن بن يحيى بن تميم آخر امراء افريقية الى بجاية فاجاره صاحبها يحيى بن العزيز من بني حماد ثم لحق بالجزائر ونزل على سبع بن العزيز اخي يحيى فاكرم نزله وجاوره الى ان فتح الموحدون الجزائر سنة سبع واربعين وخمسمائة بعد استيلائهم على المغرب والاندلس فخرج الحسن الى عبد المؤمن امير الموحدين فاكرمه ولحق به وصحبه الى افريقية في غزوته

الاولى والثانية فنازل المهدية فافتتحها سنة خمس وخمسين واسكنها الحسن وعين له اقطاعاً في خارجها ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن في ولايته بعد ابيه عبد المومن فارتحل باهله قاصداً مراكش فمات بتامسنا والبقاء لله تعالى وحده

ذكر دولة المرابطين

وهم من الطبقة الثانية من صنهاجة ويقال لهم الملثمون وقد استوطنوا القفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب منذ دهور لا يعرف اولها ايثاراً للانفراد والبعد عن غلبة الملوك وتناسلوا في تلك البلاد فكثروا وتعددت قبائلهم . ذكر غير واحد من المؤرخين انهم كانوا لاول الاسلام سبعين قبيلة منها لمتونة ودكالة ومسوفة ولمطة ومزيلة . ومواطنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب الى غدامس من جنوب طرابلس وبرقه الى ريف الحبشة واتخذوا اللثام شعاراً ليلاً ونهاراً والسبب في ذلك ان طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدو لهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ انه العدو امروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح وتقدم المشايخ والصبيان امامهن واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو راى جمعاً عظيماً فقال هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي ان نسوق النعم ونمضي فان لحقونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي اذ اقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فاكثروا القتل من العدو وكان ممن قتله النساء اكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ومما قيل فيهم

قوم لهم درك العالي في الحمى * وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا ادراك كل فضيلة * غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكانوا على دين المجوسية ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم في المائة الثالثة وكانت الرئاسة فيهم للمتونة ولهم ملك ضخم في تلك الصحارى وجاهدوا جيرانهم من امم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به اكثرهم ومن بقي منهم على المجوسية اعطى الجزية ولم تزل كلمتهم مجموعة الى ان قتل صنهاجة اميرهم تميم بن بلنان فتفرق امرهم وصارت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص فكانت رئاسة لمتونة في بني ورتاطق ولما افضت رئاستهم الى يحيى بن ابراهيم خرج في جماعة الى الحج سنة اربعين واربعمائة فلقوا في

منصرفهم الامام ابا عمر الفاسي المالكي فطلبوا منه ان يرسل معهم من يعلمهم امر دينهم فبعث معهم الفقيه عبد الله بن يس الجزولي ولما مات الامير يحيى افترق امرهم وتركوا الاخذ عن عبد الله بن يس فاعرض عنهم وتنسك معه يحيى بن عمر واخوه ابو بكر بن عمر رؤساء لمتونة وانتبذوا عن الناس في جزيرة يحيط بها بحر النيل ولحق بهم من كان في قلبه ميل الى الاسلام ولما كمل معه الف رجل قال لهم عبد الله قد تعين علينا القيام بالحق والدعاء اليه ولن يغلب الف من قلة فخرجوا من الجزيرة وقاتلوا من استعصى عليهم حتى انابوا ورجعوا الى الحق وسماهم المرابطين وامر عليهم يحيى بن عمر فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسا فأدوا لهم الزكاة الشرعية ورجعوا ثم بلغهم ما نال المسلمين من ظلم بني وانودين امراء سجلماسا من مغراوة فخرجوا اليهم سنة خمس واربعين واربعمائة في عدد كبير من الفرسان وعمدوا الى درعة فنهض اليهم امير مغراوة وصاحب سجلماسا ودرعة فانهزمت جيوش مغراوة وقتل اميرهم واستلحم عسكره ودخلوا سجلماسا وقتلوا من كان بها من مغراوة وبعد اصلاح احوالها استعملوا عليها بعض رؤسائهم ورجعو الى مواطنهم ثم مات يحيى بن عمر سنة ثمان واربعين واربعمائة وولى اخوه ابو بكر بن عمر فغزى بلاد سوس ومات الفقيه عبد الله بن يس في بعض حروبهم مع برغوطة واستمر ابو بكر في جهادهم حتى استأصل شافتهم ثم بلغه ما وقع بين قومه من الخلاف فخشي افتراق الكلمة وارتحل راجعاً الى قومه بعد ان استعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ورفع ما كان بينهم من الخلاف وشغلهم في جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم واقبل يوسف على شأنه فدوخ اقطار المغرب واختط مدينة مراكش سنة اربع وخمسين واربعمائة ثم انتقضت عليه فاس وقبائل زناتة فنهض اليهم سنة اثنتين وستين ونازل فاس فافتتحها عنوةً واصلح شأنها وارتحل منها الى ملوية فافتتح حصونها وحصون غمارة وتازة وبلاد غياثة وفي سنة ثلاث وسبعين نهض الى الريف فافتتح سائر بلاده وافتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل اميرها العباس بن يختي واختط بها تاكروات وهو اسم للمحلة بالبربرية ثم افتتح وهران وتنس ومليانه والمديه وغيرها وانتهى الى الجزائر ثم رجع الى مراكش سنة خمس وسبعين واربعمائة وعظم امره واستفحل ملكه وتلقب امير المسلمين وكاتبه اهل الاندلس كافة من العلماء والخاصة وملوك الطوائف

مستنجزين وعده في صريخ الاسلام فاهتز للجهاد ثم اجاز البحر بعساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين واربعمائة وجمع ملك الجلالقة امماً لقتاله ولقيه بالزلاقة من نواحي بطليوس وكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة احدى وثمانين ثم رجع الى مراكش واجاز ثانية سنة ست وثمانين فلقيه ابن عباد بجيوشه فبطش بهم ورجع الى مراكش واجاز ثالثةً سنة تسعين فزحف اليه ملك الجلالقة فانهزمت جيوشه ثم رجع الى مراكش واجاز ابن ابنه الامير يحيى بن ابي بكر بن يوسف سنة ثلاث وتسعين واربعمائة وانضمت اليه جيوش المرابطين بالاندلس فتقوّى بهم واخذ عامة الاندلس من يد ملوك الطوائف واستولى على العدوتين ولم يبق منها الا سرقسطة في يد صاحبها ابن هود معتصماً بالافرنج وخاطب المستنصر العباسي الخليفة ببغداد وجاءه التقليد منه على ما لديه من الاقاليم وخاطبه الامام الغزالي يحضه على العدل والتمسك بالشريعة ثم اجاز رابعةً سنة سبع وتسعين واربعمائة وتوالت غزواته في بلاد الافرنج الى ان مات على رأس المائة الخامسة فقام بالامر بعده ابنه علي واجاز الى الاندلس فاثخن فيها قتلاً وسبياً ثم اجاز ثانيةً سنة ثلاث وخمسمائة ونازل طليطلة فعظم شانه وقسم شرقي الاندلس على اعيان المرابطين وعقد لابنه تاشفين على غربية سنة ست وعشرين وخمسمائة ورجع الى مراكش ولاربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الموحدين ثم مات سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقام بالامر ابنه تاشفين حين عظم امر الموحدين ثم اخذ امر المرابطين الضعف وغزى عبد المؤمن بن علي في جموع الموحدين غزواته الكبرى الى جبال المغرب فخرج تاشفين بعساكر المرابطين لمقابلته وبعث البعوث الى الجهات فرجعوا منهزمين وتوالت الوقائع عليه فاجمع الرحلة الى وهران وبعث ابنه وولي عهده ابراهيم الى مراكش وزحف عبد المؤمن الى وهران في جيوش الموحدين وضايقوا تاشفين في داخلها فخرج الى الجبل المطل عليها فتردى به فرسه في بعض شعابه فمات سنة احدى واربعين وخمسمائة ثم بويع لابنه ابراهيم بن تاشفين وخلع فبويع عمه اسحاق ابن علي بن يوسف ثم زحف الموحدون اليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب الاقصى والاوسط فخرج اليهم عسكر اسحاق فقتلهم الموحدون وفر اسحاق وخاصته الى القصبة ثم نزلوا على حكم الموحدين فاحضر اسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون وقتلوا خاصته ودخلوا مراكش وانقرضت دولة المرابطين بعد ان ملكوا المغرب الاقصى

23

والاوسط وعدوة الاندلس ثمانين سنة وخطب لهم على ازيد من الفي منبر وكانوا اهل ديانة وصيانة لم يجروا في اعمالهم مكساً ولا خراجاً ولا ما يخالف الشريعة المطهرة قال ابن الخطيب

قد طلعت بمغرب لمتونه * دولتها عزيزة ميمونه
تجمع ديناً وعفافاً وكرم * لم يدر قدرفضلهاحتى انصرم
فاذعنت لحربهاالطوائف * وظهرت من قومها خلائف

والملك لله وحده لا شريك له يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

ذكر دولة الموحدين

كان القائم بامر هذه الدولة محمد بن عبدالله تومرت الشهير بالمهدي واختلف النسابون فيه فقيل انه ينتمي الى الحسن السبط رضي الله عنه وانكر ابن مطروح ذلك في تاريخه وقال انما هو من هرغة من بطون المصامدة من البربر ارتحل في اول الخمسمائة الى المشرق لطلب العلم ولقي جماعة من مشاهير العلماء فاستفاد علماً واسعاً ثم انطلق راجعاً الى المغرب سنة خمس عشرة وخمسمائة واخذ بالانكار على الناس والزمهم اقامة الصلوات واجتناب المنكرات وكان على مذهب الاشعري في تأويل المتشابه من الآيات والاحاديث وانكر على اهل المغرب اخذهم بمذهب السلف في اقرار المتشابه كما جاء وكفرهم بذلك وكان يقول بعصمة الامام وينتحل القضايا الاستقبالية ويشير الى الحوادث الآتية وفي ايام اقامته بنواحي بجاية اتصل به عبد المؤمن الكومي التراري فاستصحبه الى المغرب الاقصى واستمر على ما هو عليه في زعمه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ودخل مراكش فكثرت اتباعه ولما اشتهر امره استحضره امير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين الى مجلسه وناظره الفقهاء بين يديه فغلبهم فاخرجه من مراكش فلحق بجبال المصامدة ونزل على هرغة وبنى رباطاً للعبادة واجتمع عليه خلق كثير فجعل يعلمهم التوحيد بلسانهم على مذهب الاشعري ثم دعاهم الى بيعته على التوحيد وقتال المرابطين وانه المهدي المنتظر فبايعوه على ذلك ثم كثرت جيوشه فارسل امير المسلمين علي بن يوسف جيشاً لقتاله فهزمهم وقويت نفوس اتباعه ووفدت اليه قبائل المصامدة وغيرهم من البربر يبايعونه وعظم امره وترددت اليه عساكر

المرابطين مرات ففضهم ثم ارتحل الى جبل تينملل واستوطنه وبنى فيه دارًا ومسجدًا وسمى عامة اصحابه الموحدين ولم يزل امره يعلو فلم تهزم له راية الى سنة اربع وعشرين وخمسمائة فجهز جيشًا لنظر صاحبيه الونشريسي وعبدالمؤمن وسيرهم الى مراكش فحصروا امير المسلمين فيها عشرين يومًا ثم خرج اليهم واقتتلوا فقتل الونشريسي وانهزم عبد المؤمن بجيشه الى الجبل . ولما بلغ المهدي خبر هزيمة عساكره وكان مريضًا اوصى اصحابه باتباع عبدالمؤمن وعرفهم انه هو الذي يفتح البلاد وسماه امير المؤمنين ولما توفي دفنه اصحابه في داخل مسجده وكتموا موته وعهده بالخلافة الى عبد المؤمن خوفًا من تفريق الكلمة واقاموا يدبرون الامور ثلاث سنين ثم تقدم الشيخ ابو حفص الهنتاتي رئيس قبيلته الى عبد المؤمن وقال له تقدّمك كما كان الامام يقدّمك واعلنوا بيعته وامضوا عهد الامام بخلافته وحملوا القبائل على طاعته فاقام عبد المؤمن في تينملل يؤلف القلوب ويأخذ في الاستعداد الى ان استكمل امره فخرج الى تادلة ودرعة فاستولى عليها وانتقض البربر وسائر المغرب على المرابطين وفي سنة اربع وثلاثين غزى ولم يرجع الى تينملل حتى استولى على المغربين الاوسط والاقصى واحتل مراكش سنة احدى واربعين وفي سنة ثلاث واربعين استولى على قُرطبة وقرمونة وجيان من الاندلس وفي سنة ست واربعين فتح افريقية باسرها وفتح مدينة المرية ووابرة وبياسة من الاندلس وفي سنة خمسين فتح غرناطة وفي سنة اربع وخمسين رجع الى افريقية واجلى جميع الثوار منها ونازل المهدية وكانت في يد الافرنج فاخرجهم منها سنة خمس وخمسين ووصلت جيوشه الى سرت وبرقة فيما وراء طرابلس ثم رجع الى المغرب وفي سنة سبع وخمسين خرج من مراكش الى سلا قاصدًا الجواز الى الاندلس فمرض بها ومات وكانت مدته ثلاثًا وثلاثين سنة وخمسة اشهر وثلاثة عشر يومًا وهو الذي جمع اهل المغرب كافة على مذهب الاشعري في الاصول وعلى مذهب الامام مالك في الفروع قال ابن الخطيب

ونجح المهدي وهو الداهيه * فاصبحت تلك المباني واهيه
لم يال فيها ان دعي لنفسه * وكان في الحزم فريد جنسه
وعنده سياسةٌ وعلم * وجراةٌ وكرمٌ وحلم
ووافقت دولته في الناس * لدولة المسترشد العباس

واوصى بالخلافة لولده يوسف فبويع ولقب بامير المؤمنين واستقامت له الامور لحسن تدبيره ومتانة دينه واجاز الى الاندلس مرات وكانت له فيها عدة غزوات استظهر في جميعها على الافرنج وافتتح امصاراً وحصوناً وفي سنة ثمانين وخمسمائة اجاز الى الاندلس اجازته الاخيرة فاحتل بجبل الفتح وسار الى اشبيلية فوافته فيها حشود الاندلس ووصل الى شنترين فحاصرها وخرج النصارى من الحصن فوجدوه في غبر اهبة فحملوا عليه فابلى هو ومن حضر معه ثم اصابه سهم فحمله ابنه يعقوب وانصرف الى اشبيلية فمات في الطريق وكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وبويع ولده يعقوب وتلقب بالمنصور ثم اجاز الى مراكش وباشر الاحكام واقام راية الجهاد وحصن الثغور والبلاد واحسن بالمرتبات على العلماء وبنى المساجد والمدارس في جميع ايالات المغرب وافريقية والاندلس وانشأ بها عدة مارستانات واوقع بالافرنج عدة وقعات منها وقعة الأرك في نواحي بطليوس وبالجملة فقد كان اجلّ ملوك الموحدين وابعدهم صيتاً واعلاهم همةً وكانت ايامه ايام خير وامن توفي سنة خمس وتسعين ودفن بداره في مراكش وقد كذب من قال انه ولع وساح ومات بالبقاع العزيز من اعمال دمشق الشام ودفن بقرية في راس الجبل وقد سميت القرية باسمه واكثر اهالي تلك البلاد يعتقدون بذلك ولذا اكثر حجاجهم يقصدون زيارته عند مرورهم على الشام وكانت مدته اربع عشرة سنة واحد عشر شهراً وولى بعده ابنه محمد وليّ عهده وتلقب بالناصر لدين الله وفي ايامه قوى امر ابن غانية اللمتوني في افريقية وتغلب على جميع اعمالها وخطب للخليفة العباسي فاتصل خبره بالناصر فنهض من مراكش سنة احدى وستمائة فشتت شمل ابن غانية واقام بافريقية الى سنة ثلاث وستمائة فاستتاب ابا محمد ابن الشيخ ابي حفص الهنتاتي عليها ورجع الى مراكش ثم اجاز الى الاندلس فكانت وقعة العقاب المشهورة التي كانت الدبرة فيها على المسلمين ثم رجع الى مراكش ومات سنة عشر وستمائة وبويع لولده يوسف وتلقب بالمستنصر فتغلب عليه ابن جامع وزير ابيه لصغر سنه وفي ايامه دخل الوهن على دولة الموحدين وانثالت الامور وظهر امر بني مرين وكان المستنصر مولعاً بالخيل والبقر فخرج في سنة عشرين وستمائة الى بستان، وجعل يمشي بين البقر فطعنته بقرة بقرنها فمات وبويع عم ابيه عبد الواحد عن كرهٍ منه في سن الشيخوخة ثم خلع وقتل لتسعة اشهر وبويع ابن اخيه عبدالله وتلقب بالعادل ثم خلع وقتل ونهب البربر قصره

واستباحو حريمه ثم بويع لاخيه ادريس بن يعقوب وتلقب بالمامون وهو يومئذٍ والٍ على اشبيلية فزاحمهُ يحيى بن الناصر وكان الموحدون بايعوه في مراكش يوم قتل العادل ثم اختلفت الكلمة على يحيى فلحق بالجبل واجاز المامون الى مراكش فدخلها ثم اشاع النكير على امامهم المهدي في العصمة ووضع العقائد والنداء في الصلاة بلسان البربر وتغيير رسوم الدعوة واصول الدولة واسقاط اسم المهدي من الخطبة والسكة واعلان لعنه وقتل من خالفه في ذلك من الموحدين فنكثوا بيعته وقطعوا خطبته واستبدَّ الامير ابو زكريا فيها وتلقب بالامير وفي ايام المامون استولى ابن هود على الاندلس واخرج سائر الموحدين وامر بقتلهم ثم انتقض على المامون اخوه ابو موسى ودعا لنفسه بسبتة فخرج اليه وكان يحيى بن الناصر بالمرصاد فخالفه الى مراكش فافتتحها بجيوش العرب وعاث فيها واقلع المامون عن سبتة يريد مراكش فمات في طريقه سنة ثلاثين وبويع ولده عبد الواحد ولقب بالرشيد وفي سنة احدى وثلاثين خرج من مراكش الى الجبل واوقع بيحيى بن الناصر وجموعه ولحق يحيى بسجلماسا وانكفَّ الرشيد راجعاً الى حضرته واستامن له كثير من الموحدين فامنهم ثم اساء الظن فيهم فقتلهم وبذلك فسدت قلوب الرعايا عليه واخذ اكثرهم بطاعة يحيى واحضروه من الصحراء وزحفوا به لمراكش فخرج الرشيد الى جبال المصامده وسار منها الي سجلماسا فملكها ودخل يحيى وجموعه الى مراكش وفي سنة ثلاث وثلاثين خرج الرشيد من سجلماسا الى مراكش فبرز اليه يحيى بجموعه فانهزمت جموع يحيى ودخل الرشيد الى مراكش وانتقض الخلط على يحيى فنكثوا بيعته ولحق يحيى بعرب المعقل بنواحي تازا فاجاروه ثم غدروا به وفي سنة خمس وثلاثين بايع اهل اشبيلية الرشيد ونكثوا بيعة ابن هود وفي سنة ست وثلاثين وصلت اليه بيعة ابن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وفي سنة سبع وثلاثين اشتدت الفتنة بالمغرب وانتشر بنو مرين في بسائطه وزحف اليهم الرشيد فهزموه ثلاث مرات ثم رجع الى مراكش واشتد عدوانهم في نواحي مكناسه وفي سنة اربعين توفى الرشيد بمراكش غريقاً في بعض صهاريج القصر وقام بالامر بعده اخوه ابو الحسن السعيد واستخلص لنفسه رؤساء العرب وانتقض عليه اهل سبتة واشبيلية وسجلماسا وعقد المهادنة مع بني مرين وفي سنة خمس واربعين خرج من مراكش قاصداً تلمسان فتعرض له بنو مرين بجموعه في طريقهم فامتلأت ايديهم من اموالهم وقتل عبدالله بن

السعيد فيمن قتل منهم ولحق الفل بمراكش فبايعوا ابا حفص عمر بن اسحاق اخا المنصور وتلقب بالمرتضى وفي سنة سبع واربعين استولى ابو يحيى بن عبد الحق وقومه بنو مرين على تازة وفاس وسياتي تفصيل اخبارهم انشاء الله تعالى وسار في سبتة ابو القاسم العزفي وفي سوس علي بن يدر وتفاقم امر بني مرين وتلاشى امر الموحدين وضعف المرتضى عن الدفاع وفي سنة اثنتين وستين اقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين اياماً وقتل فيها عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق فبعث المرتضى الى ابيه يعزيه ويلاطفه وارتحل عنهم ثم فرّ ادريس ابو دبوس ابن عم المرتضى ولحق بيعقوب بن عبد الحق صريخاً به واشترط له المقاسمة في العمل والذخيرة فامده بالمال واوعز الى الخلط بمظاهرته وزحف ابو دبوس الى مراكش ووفد عليه جماعة من بني عمه في جيش من الموحدين والنصارى فدخلها على حين غفلة وفر المرتضى الى جبال هنتاتة فبلغه انهم بعثوا يبعتهم الى ابي دبوس فعدل عنهم الى ازمور وكان صهره ابن عطوش والياً عليها من قبله فقبض عليه وطير الخبر الى ابي دبوس فاستلمه منه وقتله وفي سنة خمس وستين بلغ ابا دبوس خبر انتقاض بني مرين فارسل الى عدوهم يغمراسن صاحب تلمسان يستعين به عليهم فلما اتصل الخبر يعقوب بن عبد الحق جمع جيوشه ونهض الى تلمسان فاوقع ببني زيان وقعة تلاع التي قتل فيها يغمراسن وشتت شمله ثم رجع الى فاس ونهض الى مراكش وخرج اليه ابو دبوس فكر عليه يعقوب بجموعه ففرّ فادركوه وقتلوه فدخل يعقوب مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وفرّ الموحدون منها الى جبالهم بعد ان كانوا بايعوا عبد الواحد بن ابي دبوس ولقبوه بالمعتصم مدة خمسة ايام وخرج في جملتهم وانقرض امر بني عبد المؤمن والموحدين والبقاء لله تعالى وحده

﴿ ذكر دولة بني مرين ﴾

وهم حي من زناتة في اطراف المغربين ينتجعون الصحارى ويعطون الدول حق الطاعة فلما رأوا اختلال المغرب الاقصى ايام المستنصر بن الناصر خامس خلفاء الموحدين وعلموا ان الدولة قد تلاشت وخلت الثغور من الحامية انتهزوا الفرصة فيه فدخلوه وتفرقوا في جهاته واوجفوا عليه بخيلهم ورجلهم واكتسحوا سائر بسائطه بالغارة والنهب فلجأ الناس الى الجبال والمعاقل وآذنوا الدولة بالحرب

وكان رئيسهم عبد الحق بن محيو بن ابي بكر بن حمامة ولم يزل على امارته ومطاولة الموحدين على الملك الى ان قتله عرب رياح من اولياء الموحدين في حرب جرت بينه وبينهم بمداخلة بني عمه اولاد عسكر سنة اربع عشرة وستمائة وقام بالامر بعده ولده عثمان فاثخن في عرب رياح لثار ابيه وتغلب على الضواحي ومد يده لاطراف البلاد يتعرى مسالكها ويفرض المغارم على اهلها حتى دخل اكثر القبائل في امره وبايعوه وفرّق فيهم العمال ثم فرض على امصار المغرب الاقصى ومدنه ضريبة يؤدونها على راس كل سنة ليكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ولم يزل على ذلك الى ان اغتاله علجة سنة سبع وثلاثين وستمائة فولى اخوه محمد بن عبد الحق واخذ الضريبة وجباية المغارم من سائر الرعايا وبقي عبد المؤمن في ضعف وقصور الى ان توفى الرشيد بن المأمون امير الموحدين وولى اخوه علي الملقب بالسعيد فجمع الجيوش ونهض سنة اثنتين واربعين وستمائة من مراكش وزحف اليه بنو مرين والتقوا بوادي ماش فقتل الامير محمد بن عبد الحق رئيس بني مرين وانكشف قومه ولحقوا بجبال غياثة فاعتصموا بها ثم خرجوا الى القفر وولوا عليهم ابايحيى بن عبد الحق فقام بامرهم ورجع الى المغرب وقسم البلاد بينهم وانزل كل بطن منهم في ناحية وبعثوا بيعتهم الى ابن زكريا الحفصي صاحب افريقية ثم جنح الامير ابو يحيى ابن عبد الحق الى الاستبداد فاتخذ آلة الحرب واستعمل شعائر الملك وبلغ خبره الى الخليفة السعيد فوجم لها وخطب على اعيان دولته فقال هذا ابن ابي حفص اقتطع افريقية ويغمراسن امير بني زيان اقتطع تلمسان والمغرب الاوسط وابن هود اقتطع الجانب الغربي من الاندلس وابن الاحمر اقتطع الجانب الشرقي منه وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب الاقصى ثم سموا الى تملك امصاره فاغتاظ قومه لذلك فجهز السعيد عسكره واحتشد عرب المغرب ونهض من مراكش ولما علم ابو يحيى انه لا طاقة له على محاربته افرج عن البلاد ولحقه بنو مرين واجتمعوا اليه بتاظوطا من بلاد الريف ثم انتقلوا الى جبل بني يزناسن ونزلوا بعين الصفا ولم يزل ابو يحيى على شأنه في فتح البلاد الى ان توفي بفاس سنة ست وخمسين وستمائة وتصدى للقيام بالامر بعده ابنه عمر واهل الحل والعقد مائلة الى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان يومئذ في تازه فبقي الامر في اضطراب الى ان اجتمعت الكلمة على يعقوب فدخل فاس وملكها

سنة سبع وخمسين واستجمع للاستيلاء على مراكش ولم يزل ينازلها الى ان تمكن من دخولها سنة ثمان وستين وستمائة واستقام له امر المغرب الاقصى كله وهو اول من تلقب بامير المسلمين من ملوك بني مرين ثم اشتغل بالجهاد فاجاز الى عدوة الاندلس مرات وكان له فيها الظفر العظيم ولما راى ملكه قد استوثق اختط المدينة الجديدة لصيق فاس بساحة الوادي المخترق وسطها من اعلاه وشرع في تاسيسها سنة اربع وسبعين وستمائة ولما كمل تشييدها نزلها ثم اوعز ببناء قصبة مدينة مكناسة ولم يزل قائماً بامر الجهاد واصلاح امر رعاياه الى ان مات سنة خمس وثمانين وستمائة وبويع ولي عهده ابو يعقوب يوسف ففرق الاموال وقبض ايدي العمال عن المظالم ورفع المكوس وصرف اعتناءه الى اصلاح السابلة واتبع سنن والده في الجهاد وقهر بني زيان وراسلته ملوك المشرق واوفدت عليه اعيانها وامتدت مملكته من سوس الاقصى الى بجاية في حدود افريقية من الجهة الغربية ولم يزل في عظمة سلطانه الى ان قتله خصي من خصيانه سنة ست وسبعمائة وهو محاصر لتلمسان وبالجملة فهذه الدولة من اعظم دول المغرب واقواها واحسنها سيرة ذكرها ابن الخطيب بقوله

واورث الله بلاد المغرب * للسادة الغر الكرام النجب
اولي الخيول والرماح والهمم * اقوى بني الدنيا واوفى بالذمم
وادرب الخلق بركض الخيل * وخوض احشاء الفلا والليل
قاموا وقد بان اختلال الطاعه * لمذهب السنة والجماعه
واستخلصوا المغرب بالسيوف * في خبر مستظرف معروف
فشمل الاقصى به والادنى * امرهم وقام منه المبنى

ولم يزل امرهم منذ دخلوا المغرب مستقيماً وحماهم منيعاً وكلمتهم متحدة الى ان مات سلطانهم ابو سالم ابراهيم بن علي بن عثمان بن عبد الحق سنة اثنتين وستين وسبعمائة وتولى تاشفين وتغلب الوزير عمر بن عبد الله على الامر فتفرقت الكلمة وانتزى الثوار من اعيانهم بقاصية الملك وانقسمت الدعوة بينهم في مراكش وسجلماسا وسبتة وانحصرت السلطة في فاس واعمالها وفي ايام ابي فاس ابن العباس سنة سبع وتسعين وسبعمائة اخذ الفشل يدب في اعضاء الدولة واستمروا على اخذ الناس باللين الى ان قام الامير السيد محمد بن علي بن عمران الادريسي على عبد الحق

ابن ابي سعيد بفاس فبايعه اهلها وتم له الامر وبانتهاء ايامه انقرضت دولة بني عبد الحق الاول بن تحيو بن ابي بكر مؤسس دولة بني مرين ولله الامر من قبل ومن بعد

﴿ ذكر دولة بني وطاس وهم فرقة من بني مرين ﴾

ولما اقتسم بنو مرين الاعمال كانت بلاد الريف لبني وطاس وكان بنو الوزير ابي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي يتشوفون الى الرئاسة والخروج على بني عبد الحق ويرون ان نسبهم دخيل في بني مرين لانهم من اعقاب يوسف بن تاشفين فلحقوا ببني وطاس وفر ابو عبدالله محمد الشيخ ابن الوزير الى الصحراء خوفاً من السلطان عبدالحق بن ابي سعيد حين قتل جماعة من عشيرته وبقي يتردد في الصحراء الى ان ملك اصيلا واستفحل امره بها فكاتبه اعيان فاس ورؤساؤها يدعونه للقدوم عليهم ويعدونه بالنصرة فنهض من اصيلا الى فاس وحاصرها وفر صاحبها الامير محمد بن علي الادريسي ودخلها محمد الشيخ فبايعه اهلها سنة ست وسبعين وثمانمائةوفي ايامه تم استيلاء الاسبانيول على عدوة الاندلس وغرناطة ولحق سلطانها ابو عبدالله ابن الاحمر بفاس واستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ فبالغ في احترامه وبقي بها الى ان توفى سنة اربعين وتسعمائة في حرب الوطاسيين مع السعديين ثم استولى البرتقال على اكثر سواحل المغرب وفي سنة عشر وتسعمائة توفي محمد الشيخ وبويع لابنه محمد المشهور بالبرتقالي ولما تم له الامر نهض الى مراكش وحاصر بها اباالعباس السعدي ولما بلغه ان بني عمه قد نبذوا طاعته ارتد الى فاس وعهد الى اخيه ابي حسون لمعروف بالبادسي فقام عليه ابن اخيه ابو العباس احمد بن احمد البرتقالي فخلع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وبويع ابو العباس احمد وجرت بينه وبين السعدي قرب مراكش حروب عظيمة دامت اياماً ثم تصالحا على ان للسعديين من تادلا الى سوس و للوطاسيين من تادلا الى المغرب الاوسط و بعده انعقد الصلح بينه و بين البرتقال وتحسنت الاحوال ثم ان السلطان محمد الشيخ السعدي نقض ما جرى من الصلح بين الوطاسيين والسعديين وقام على اخيه ابي العباس الاعرج واستولى على مراكش ونهض الى فاس وحاصرها سنة ثم استولى عليها سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبض على ابي العباس وارسله مع الوطاسيين مصفدين الى مراكش وفر ابو حسون الوطاسي الى الجزائر

مستصرخاً بالاتراك على من تغلب على ملكه وملك آبائه ووعدهم بالاموال الجزيلة ان نصروه عليه فاجابوه لذلك وشيعوا معه جيشاً كثيفاً تحت راية صالح باشا التركماني فانقلب بهم الى فاس ودخلها بعد حروب عظيمة وفر محمد الشيخ السعدي الى مراكش ولما استقر ابو حسون دفع للاتراك ما وقع عليه الاتفاق ورجعوا الى الجزائر وتخلف عنده منهم نفر يسير ولما وصل محمد الشيخ الى مراكش صرف عزمه للانتقام من ابي حسون فاستنفر القبائل ونهض بها الى فاس فخرج اليه ابو حسون وكانت الهزيمة عليه فانقلب الى فاس وتحصن بها وحاصره محمد الشيخ الى ان ظفر به وقتله واستولى على فاس سنة احدى وستين وتسعمائة وصفا له الامر وبهلاك ابي حسون انقرضت الدولة المرينية من ارض المغرب والملك لله الواحد القهار

﴿ ذكر دولة السعديين ﴾

واصلهم من اشراف ينبع النخل استوطن اسلافهم درعة ولما نشأ فيهم ابو عبد الله محمد القائم بامر الله على عفاف وصلاح بايعته اهل سوس حين احتاطت بهم جيوش البرتقال من كل جهة فنهض الى تاورنت واستولى عليها ثم زحف الى اكادير وقاتل البرتقال مدة لم ينجح بها فندب الناس لبيعة ولده الاكبر ابي العباس المعروف بالاعرج فبايعوه سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ولما تم له الامر ندب الناس الى جهاد البرتقال واخراجهم من ثغور المغرب فحصل له النصر والظفر واخرجهم من احواز آزمور واسفي وغيرها فبعد صيته وانتشر ذكره وكاتبه امراء هنتاتة ملوك مراكش للدخول في طاعته فاجابهم وانتقل الى مراكش واستقر بها ثم حدثت بينه وبين اخيه ووزيره ابي عبدالله محمد الشيخ نفرة ادت الى حروب استفحل بها امر محمد الشيخ فقبض على اخيه واولاده واودعهم السجن واصبح ملكاً بعد ان كان وزيراً ثم استولى على فاس وغرب الوطاسيين الى مراكش وقتل ابا حسون الوطاسي ولما تم له امر المغرب الاقصى تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط فنهض من فاس الى تلمسان ودخلها بعد ان حاصرها تسعة اشهر ونفى الاتراك منها واتسعت خطة مملكته ودانت له البلاد ثم كرت الاتراك عليه واخرجوه من تلمسان فعاد الى فاس ثم ارتد الى تلمسان وحاصرها اياماً واقلع عنها وفي سنة خمس وستين وتسعمائة اغتيل وقتل وكان اديباً متفنناً عالماً بالتفسير والحديث يخالف القضاة ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وكان

يحض على المشاورة لا سيما في حق الملوك ويقول ينبغي للملك أن يكون طويل الامل ولا يحسن ذلك الا منه لان رعيته تصلح بطول امله ومن مآثره اختطاط مرسى اكادير واجلاء البرتقال من نونتي ولما قتل كان ولده عبدالله الغالب بالله بفاس فبايعه اهلها ووافقهم عليها اهل مراكش وبادر خليفته بمراكش القائد ابو الحسن علي بقتل ابي العباس الاعرج المخلوع واولاده ولما استوثق الامر للغالب بالله وتمهد له ملك ابيه نهض حسن بن خيرالدين باشا صاحب تلمسان في جيش كثيف الى فاس فخرج اليه الغالب بجيوشه والتقيا بوادي اللبن من احواز فاس فانهزم حسن باشا ولما قفل الغالب بالله امر بقتل اخيه عثمان لامر نقمه عليه وارسل ابن اخيه الوزير اباعبد الله محمد بن عبد القادر لحصار مدينة شفشاون فاستولى عليها وخرج صاحبها الامير ابو عبدالله فيمن اليه من اهله واولاده الى ترعة وركب البحر الى المدينة المنورة واستقام بها الى ان توفي وبه انقرض امر بني راشد امراء شفشاون ثم جهز جيشاً كثيفاً عقد عليه لابنه محمد المعروف بالمسلوخ وارسله لحصار البريجة المسماة بالمدينة الجديدة التي بناها البرتقال فحاصرها ستين يوماً ولم يتيسر له فتحها وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة توفي الغالب بالله بمراكش ومن مآثره بناء جامع الاشراف بمراكش والمارستان واوقف عليهما اوقافاً عظيمة ولما توفي كان ولي عهده ولده محمد المتوكل على الله بفاس فارسلت البيعة له من مراكش واستمر امره منتظماً الى اواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وكان عمه عبد الملك واخوه احمد المنصور في سجلماسة ايام ابيهما ولما تولى الغالب بالله فرّا الى تلمسان واستنصرا بصاحبها حسن باشا ابن خير الدين وذهبا الى القسطنطينية وتوقعا على حضرة السلطان الغازي سليم خان بان ينجدهما بجيش يسترجعان به ما كان بيد ابيهما ثم توجه عبد الملك مع عمارة الدولة العلية الى تونس ورجع بعد فتحها الى القسطنطينية وطلب من حضرة السلطان سليم خان ما طلبه سابقاً فاجاب طلبه وكتب الى والي الجزائر ان يعينه بما يحتاج اليه فاصحبه الوالي بجيش من الاتراك ولما وصل لاحواز فاس خرج المتوكل على الله لملاقاته فبلغه وهو في القتال ان بعض جنده قد اصرّ على الغدر به فاوقد النار في خزائن البارود وفر من المعركة الى مراكش واستولى عبد الملك على فاس وطمحت نفسه الى اتباع ابن اخيه الى مراكش ولما عزم على المسير طلب الاتراك رجوعهم الى بلادهم فاعطاهم ما اتفق معهم عليه من المال وزادهم من التحف والطرف الغوال وودعهم بنفسه الى نهر سيبوا ثم نهض الى مراكش لمنازلة ابن اخيه ولما سمع المتوكل على الله بخروج عمه

اليه تهيأ لملاقاته والتقى الفريقان بخندق الريحان من احواز سلا فانهزم المتوكل وفر
الى سوس ودخل عبد الملك الى مراكش ولم يزل المتوكل على الله يجول في جبال سوس
الى ان اجتمعت عليه طائفة فجاء بها الى مراكش فخرج عبد الملك للقائه وخالفه المتوكل
في طريقه ودخل مراكش باتفاق اهلها فرجع عبد الملك وحاصره بها وكتب الى اخيه
احمد الخليفة بفاس ان ياتيه فاتاه بجيشه وفر المتوكل الى سوس فتبعه احمد المنصور
ووقعت بينهما مواقع توالت الهزائم فيها على المتوكل وفر الى باديس ومنها الى سبتة ثم
دخل طنجة مستصرخاً بحاكمها فاجابه بشرط ان تكون سائر السواحل للبرتقال وله ما وراء
ذلك ثم خرج قائد البرتقال بمائة وعشرين الف مقاتل وكان مع المتوكل ثلاثمائة من
اصحابه ولم يزالوا سائرين الى ان عبروا وادي المخازن فزحف عليهم السلطان عبد الملك
بجيوش المسلمين وامر بهدم القنطرة ليقطع عليهم خط الرجعة ولما التقى الجيشان واشتد الحرب
توفى السلطان عبد الملك عند الصدمة الاولى وكان مريضاً يقاد به في محفة ولم يطلع
على وفاته الا حاجبه وقائد المحفة فصاروا يقدمون المحفة امام الجيش ويقولون للجند ان
السلطان يامركم بالتقدم اليهم الى ان منح الله المسلمين النصر وركبوا على اكتاف
العدو يقتلون ويأسرون وقتل قائد البرتقال غريقاً في الوادي وبحث عن المتوكل فوجد
غريقاً ايضاً فاخرجوه وسلخ وحشى جلده تبناً وطيف به في مراكش وغيرها وهذه الوقعة
من اعظم الوقائع دامت خمسة واربعين ساعة وكانت سنة ست وثمانين وتسعمائة ثم بويع
لاخيه ابي العباس احمد المنصور بالله المعروف بالذهبي ولما تم له الامر كتب البشائر
الى حضرة السلطان مرادخان بما حباهم الله من النصر فوردت عليه الوفود والهدايا
من حضرة السلطان مرادخان ومن حاكم الجزائر وملك البرتقال والاسبانيول وعقد
العهد لابنه محمد الشيخ الملقب بالمأمون ثم سار عليه ابن اخيه داود بن عبد المؤمن
في جبل سكسيوه ودعا لنفسه فبعث اليه المنصور جيشاً فقاتله الى ان فر واستقر عند
عرب الودايا الى ان مات واستولى المنصور على صحراء توات والسودان وبايعه صاحب
برنو وفتح مدينة كاغو وقتل سلطانها اسحاق ثم سار الناصر بن الغالب بالله ببلاد الريف
فاقلق المنصور جنده وبعث اليه جيشاً وافراً فهزمه الناصر واستفحل امره فامر المنصور
ولي عهده المأمون بمنازلته فخرج اليه من فاس وكانت الدبرة على الناصر فقبض عليه
واحتز راسه وبعث به الى مراكش ثم ثار المأمون على ابيه بفاس فنصحه والده ولما
اصر ولم يقبل النصيحة خرج اليه والده من مراكش في اثني عشر الف مقاتل قاصداً

فاس ولما بلغ المامون ذلك فر الى فشتالة فقبض عليه وارسل الى المنصور فبعثه الى مكناسة وسجن بها وفي سنة اثنتى عشر والف توفي المنصور بالوباء في فاس ومن مآثره بناء القصر البديع بمراكش وحصن ثغر العرايش ومعامل السكر واعتنائه بالمولد النبوي والاعياد وكان حسن السياسة حازمًا مشاورًا في المهمات وكان يكاتب اولاده وعماله بكتابة مخصوصة وتعرف الآن بالشنره وكان موادعًا لسلاطين بني عثمان يهاديهم ويهادونه وكتب اليه حضرة السلطان مرادخان لك على العهد ان لا امدّ يدي اليك الا للمصافحة وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة وبعد دفنه بايع اهل فاس ولده ابا المعالي زيدان وبايع اهل مراكش اخاه ابا فارس ولما بلغ زيدان ذلك خرج من فاس لقتال اخيه فانتحل له اخوه مكيدة عادت عليه وهي اطلاق اخيه المامون من السجن وارساله في جيش كثيف لملاقاته ولما التقى الجيشان بجواته فر عن زيدان اكثر جيشه فارتد الى فاس وتحصن بها ولما وصلها المأمون فرح به اهلها وبايعوه وفر زيدان الى تلمسان مستصرخًا بحاكم الجزائر ولما استقل المأمون بفاس جهز جيشًا لقتال اخيه ابي فارس تحت راية ولده عبدالله ووقعت الهزيمة على ابي فارس فنجا بنفسه ودخل عبدالله مراكش واباحها واستقربها وساءت سيرته ولما قطع زيدان الامل من امداد حاكم الجزائر رجع الى سوس فكاتبه اهل مراكش ولما حضر اليها فر عبدالله الى ابيه في اسوء حال فجهز له ابوه جيشًا وارجعه الى مراكش والتقى الجمعان براس العين وكانت الهزيمة على زيدان ففر ودخل عبدالله مراكش ثم سار ابو حسون محمد بن عبد المؤمن من اولاد ابي العباس الاعرج وخرج من جبل جليز قاصدًا مراكش فخرج اليه عبدالله وكانت الهزيمة عليه ودخلها ابو حسون واستولى عليها ثم كتب اهل مراكش الى السلطان زيدان فنزل بجيشه خارج المدينة وخرج ابو حسون الى لقائه فكانت الدبرة عليه واستولى زيدان على مراكش وارسل قائد جيشه مصطفى باشا الى فاس فدخلت في طاعته وفر عبدالله الى القسطنطينية مستصرخًا ولما دخل زيدان الى فاس واستقام بها بلغه قيام بعض الثوار في ناحية مراكش فنهض اليها ثم بلغه قتل مصطفى باشا فرجع الى فاس واستولى الاسبانيول على العرايش بدسيسة عبدالله ثم فتك ابو الليف بعبدالله وقتله مع بعض اولاده ثم ثار الفقيه احمد بن عبدالله السجلماسي المعروف بابي محلّي واستولى على سجلماسا ودرعة ومراكش وكثرت جموعه ولما علم زيدان ضعفه عن مقاومته استغاث بالفقيه زكريا الحاجي صاحب جبل درن فلباه وخرج بجيوشه سنة اثنين وعشرين والف قاصدًا مراكش فبرز اليه ابو محلّي ولما

التحم القتال فقتل ابو محلّي وعلق راسه على سور مراكش ثم ارتحل زكريا الى بلاده مظهرًا العفة عن الملك بعد ان استقر بمراكش اياماً واتصلت بينه وبين زيدان المراسلات الى ان مات زيدان بمراكش سنة سبع وثلاثين والف وبويع لابنه عبد الملك فثار عليه اخوه الوليد واحمد ووقعت بينه وبينهما حروب انتجت هزيمتهما ودخل فاس بسمة السلطان وضرب السكة باسمه ثم عدا عليه ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغوده وقتله غدرًا وبويع لاخيه الوليد ولم يتجاوز سلطانه مراكش واعمالها على ما كان لاخيه وابيه وفي زمنه ظهر ابو عبد الله العياشي بسلى واستولى على فاس وسائر ثغور المغرب وظهر ابو حسون السملالي المعروف بابي دميعه بسوس واستولى على درعة وسجلماسا وكان الوليد يتظاهر بالديانة ولين الجانب غير انه كان يقتل الاشراف من اخوته وبني عمه وفي سنة خمس واربعين والف عدا عليه بعض جنده وقتله غدرًا وبويع لاخيه محمد الشيخ وكان في سجن الوليد فسار سيرة حميدة وثار عليه رجل من هشتوكة ولم يزل يناوشه القتال حتى فرق جمعه ثم ظهر اهل زاوية الدلاء بجبال تادلا وقويت شوكتهم ولما احس محمد الشيخ بالضعف من مقاومتهم ارسل الى قاضيه الفقيه محمد الزوار المراكشي ان يطلب منهم اجتماع الكلمة فلم يلتفتوا اليه فصرف عنانه عن مقاومتهم ومال الى مسالمتهم وبقي بمراكش الى ان قتل ثم بويع ابنه ابو العباس احمد فقام مقام ابيه في جميع ما كان بيده وقويت في ايامه شوكة اخواله وهم حي من الشبانات فوثبوا عليه وحاصروه بمراكش ولما رات والدته ان الامر لا يزداد الا شدة اشارت عليه بالذهاب الى اخواله وازالة ما في نفوسهم ولما وصل اليهم قتلوه غيلة ودخلوا مراكش وبايعوا فيها لاميرهم عبد الكريم بن ابي بكر سنة تسع وستين والف وبابي العباس ختمت دولة السعديين والبقاء لله وحده

ذكر امارة الشبانات من عرب المعقل

اولهم الرئيس عبد الكريم المعروف عند العامة بكروم الحاج ابن القائد ابي بكر الشباني بويع له بعد قتل ابي العباس السعدي وسار في الناس سيرة حميدة فانتظمت مملكة مراكش ونواحيها ثم انتقضت عليه اسفى واعمالها نغزاهم ورجع مغلولاً الى مراكش فسطا عليه بعض جنده وقتله وبويع لولده ابي بكر واستمرّ بها الى ان بويع المولى رشيد السجلماسي فاخذ منه مراكش وقبض عليه وتتبع عشيرته بالقتل حتى افناها واخرج عبد الكريم سنة تسع وسبعين والف واحرقه وانقرضت امارة الشبانات والملك لله وحده

ذكر دولة السجلماسيين

اصلهم من ينبع النخل دخل المغرب جدهم الاعلا حسن بن قاسم في القرن السابع واستوطن سجلماسا وتوفي عن ولده محمد وتوفي محمد عن حسن وتوفي حسن عن عبد الرحمن وعلي وتوفي علي عن خمسة اولاد منهم علي وتوفي علي عن ثلاثة اولاد منهم محمد وتوفي محمد عن علي الشريف وفي سنة خمسين والف هجرية بايع اهل سجلماسا محمد ابن علي الشريف المذكور في حياة والده وهو اول من بويع له منهم ولم يزل ملك المغرب الاقصى بايدي اعقابه يتوارثونه الى زمننا هذا والسلطان فيه سنة الف وثلاثمائة وخمسة عشر عبد العزيز

ذكر دولة بني زيان وهم بنو عبد الواد

ويجمعهم مع بني مرين اصل واحد ولم تزل الحرب بينهم قائمة على ساق منذ كانوا في القفر واستمروا على ذلك بعد دخولهم الى تلول المغرب وكان اميرهم لاول خروجهم عن طاعة الموحدين ابا عزه زكراز بن زيان بن ثابت ولما مات تولى بعده اخوه ابو يحيى يغمراسن فاستمر على ماكان عليه اخوه وقومه من الخروج عن الدولة ثم تغلب على تلمسان والمغرب الاوسط وانتزعها من يد بني عبد المؤمن وحسن السيرة واستمال عشيرته واخلافهم عن عرب زغبه بحسن السياسة والاصطناع واتخذ آلة الملك وجند الاجناد ومحى آثار الدولة المؤمنية ولم يترك من رسومها الا الدعاء على المنبر للسلطان بمراكش وتقليد العهد من يده وكانت له مع ملوك الموحدين ومن يليهم من آل حفص ملوك افريقية مواطن في التحرش به ومنازلة بلده وحروب دائمة وبالجملة فقد كان يغمراسن هذا صاحب سياسة عجيبة وقوة دهاء وهو اول ملوك بني زيان قال ابن الخطيب

اول ملاكٍ لهم يغمور * ليث الشرى والبطل المشهور
تثني عليه حومة الميدان * ما لامرئٍ بباسه يدان
لاقى الجيوش من بني مرين * كالليث يحمي جانب العرين

ولما تم له ملك المغرب الاوسط اثار ماكان بين قومه بني زيان وبين بني مرين من العداوة القديمة فاضرم نار الحرب وركب اخطارها واشد ما كان بينهم في ايام السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني واشهر وقائعه وقعة وادي تلاغ سنة ست وستين وستمائة ثم وقعة يسلي قرب وجده ثم وقعة خرزوزه ثم وقعة وادي تافنا وتاسولت

وكانت الدبرة في جميعها على يغمراسن ونازله يعقوب في دار ملكه تلمسان مرات فامتنع
عليه بالاسوار ثم قتل يغمراسن سنة احدى وثمانين وستمائة وبويع ولده عثمان ولي عهده
ثم توفى السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة خمس وثمانين وقام بالامر ابنه يوسف بن
يعقوب وطالب عثمان بن يغمراسن في ابن عطو فابى عثمان ان يسلمه فتحركت حفيظة
يوسف وعزم على غزوهم فارتحل من مراكش الى فاس ثم نهض منها حتى نزل تلمسان
فانحصر عثمان وقومه داخلها ولاذوا بالاسوار فاقلع عنها وسار في نواحيها يخرب العمران
ثم عاودها سنة سبع وتسعين واحاط بها ثم افرج عنها لثلاثة اشهر ومر في طريقه
بوجده وقد اخربها بنو زيان فامر بتجديد بنائها واستعمل اخاه ابا يحيى بن يعقوب
عليها ولحق بالمغرب الاقصى وجمع شأنه ثم عاود منازلة تلمسان سنة ثمان وتسعين
واحاط بها من جميع جهاتها واختط لنفسه الى جانب الاسوار بلدة سماها المنصورة
واقام سنين يغاديها ويراوحها بالقتال وسرح عسكره لافتتاح المغرب الاوسط فملك بلاد
مغراوه ونواحي شلف وتاهرت ثم خيم بمكانه محاصرًا لتلمسان ومات عثمان سلطان بني
زيان سنة ثلاث وسبعمائة وقام بالامر بعده ابنه ابو زيان محمد وبلغ الخبر الى يوسف
ابن يعقوب فتفجع له وعجب من صرامة بني زيان من بعده ومات ابو زيان اثناء الحصار
وقام بالامر بعده اخوه ابو حمو موسى بن عثمان واستمر حصاره اياهم ثمان سنين وثلاثة
اشهر ولحقهم فيها جهد شديد حتى اكلوا اشلاء الموتى وهلكت اموالهم وضاقت احوالهم
واستفحل ملك يوسف بن يعقوب حتى ادركه اجله على يد خصي من خصيانه وكان قتله
فرجًا عظيماً على ابي حمو ووقع الفشل في عسكر بني مرين لما قتل سلطانهم واختلفت
كلمتهم وافرجوا عن تلمسان راجعين الى المغرب الاقصى واقبل ابو حمو على لم شعثه وكان
يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم يقيم
مدعاة بشوره من تلمسان يحشر لها الاشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي
مبثوثة وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة وشمع كالاسطوانات ومباخر منصوبة كالقباب
يخالها الناظر تبرًا مذابًا واعيان الحضرة على مراتبهم وقد علت الجميع ابهة الوقار والاجلال
تطوف عليهم ولدان قد لبسوا اقبية الخز الملون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كل منها
بحظه وخزانات بها الساعات ذات تماثيل لجين محكمات الصنعة باعلاها ايكة تحمل طائرًا
فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها ارقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدًا وبصدرها
ابواب بعدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها قرب

راس الخزانة قمر تام يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ويسامت اول باب كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان في يد كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابوه وهناك يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء بيمناها ورقة فيها اسم ساعتها منظوماً ويسراها موضوعة على فيها والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دوراً والرياض نوراً اشتملت من انواع المطاعم على الوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين وتستلذ بسماع اسمائها الآذان وبسر مبصرها للقرب منها والتناول وان لم يكن جيعان والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه يرى ذلك ويسمعه الى ان يصلي صلاة الصبح هناك وعلى هذا تمضي ليلة المولد الشريف في جميع ايام دولته الى ان عدا عليه ابنه تاشفين فقتله واستقام له الامر وشيد القصور والمصانع والمنتزهات وساعده الوقت بمسالمة بني مرين ثم طمحت نفسه الى تملك افريقية فخرج اليها من تلمسان بجيوشه ودخل تونس فاستغاث اهلها بسلطان المغرب ابي حسن المريني فراسله في الاقلاع عنها فلم يرجع وتمادى على شأنه فاستشاط السلطان غيظاً وامر بجمع الجيوش وخرج من فاس قاصداً تلمسان فطار الخبر الى تاشفين وهو بتونس فاسرع السير الى دار ملكه وسار السلطان بعساكره الى ان وصل اليها واحاط بها فركب عليها المنجنيق من كل جهة واقام محاصراً لها ثلاث سنين واثر المنجنيق فيما حواه السور من القباب والقصور ثم دخلها عنوة وقتل تاشفين وولده بازاء القصر واستولى ابو الحسن على تلمسان بما اشتملت عليه وانتقض امر بني زيان وعقد لابنه ابي عنان على تلمسان واقبل على فتح البلاد فدخل افريقية وامعن في نواحيها وحاصره العرب في القيروان فلما بلغ ذلك ولده ارتحل من تلمسان الى فاس ودعا لنفسه فاستقام له الامر ورجع بنو زيان الى دار ملكهم تلمسان واقرهم السلطان ابو عنان على ذلك واتخذهم سداً بينه وبين ابيه ولما تخلص السلطان ابو الحسن ولحق بالجزائر ناهزوه القتال واوقعوا به في نواحي مليانه ففر الى جبال المصامده فتشاغل ابو عنان عنهم بما دهمه من جواز ابيه وبعد ان مات ابوه وخلص له الامر خرج اليهم بجيوشه فاوقعوا به ثم كانت الكرة عليهم فقتل اميرهم وتفرق عسكرهم واستولى ابو عنان على تلمسان وولى بعده ولده السعيد فاضطرب امر بني مرين وتراجع الزيانيون الى وطنهم وقام بامرهم

ابو حمو الثاني موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن فتحرك اليهم ابو سالم ابراهيم بن علي الذي آل اليه امر بني مرين من فاس بجيوشه فخرجوا من تلمسان واصحروا ولم يركنوا الى ما ركن اليه اسلافهم من الانحصار داخل السور فسار ابو سالم الى ان خيم بساحة تلمسان وعاث في نواحيها ثم انكفأ راجعاً الى المغرب ورجع ابو حمو بقومه الى كرسي مملكتهم وكفاهم الله امر بني مرين باختلاف الكلمة وانتزاء الثوار على الاعمال وفي سنة خمس عشرة وتسعمائة استولى الاسبانيول على وهران وعلى بجاية وذلك في ايام ابي محمد عبدالله وفي سنة ست عشرة وتسعمائة استولوا على الجزائر وبنوا فيها حصنهم المشهور ببرج الفنار وقوي امرهم على المسلمين واشتهر امر باربروس الاول واسمه عروج باسطوله في سواحل افريقية والجزائر واخذ امر بني زيان يتلاشى الى ان انقرضت دولتهم من المغرب الاوسط واستولت الدولة العثمانية على الضواحي والاسبانيول على السواحل وسنفصل ذلك في اخبار الدولة العثمانية انشاء الله تعالى والى الله عاقبة الامور

﴿ ذكر دولة الحفصيين امرآء تونس ﴾

اول من وليها منهم ابو محمد عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص ابن عمر بن يحيى الهنتاني احد اصحاب المهدي بن تومرت رئيس الموحدين وهنتاته وقد اوصل نسبه ابن نخيل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر ابن سابقة ابن سليمان نسابة البربر انه من ولد صنهاج بن عسال البربري وكنت ولايته على تونس من قبل محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة ثلاث وستمائة قال ابن الخطيب

اول هذا البيت عبد الواحد ☆ وفضله ليس له من جاحد
قدمه الناصر فيها آمرًا ☆ ثم علا وصار ملكاً قاهرًا
وكان حازماً شديد اليقظه ☆ لايهمل التافه الا لحظه
ونال ابكار المنى وعونه ☆ لكنــه لم يستبد دونه

ومات سنة ثمان عشرة وستمائة فتولى مكانه العلاء من بني عبد المؤمن وعادت بعد وفاته الى بني حفص وقويت شوكتهم في ايام ابي زكريا ابن ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص وهو الذي اسقط اسم عبد المؤمن من الخطبة وابقى اسم المهدي واستبد بملك افريقية وخطب لنفسه وتلقب بالامير المرتضى واتسع نطاق ملكه فتغلب على تلمسان

وكافة المغرب الاوسط وبلاد الجريد والزاب وانشأ في تونس الابنية العظيمة ثم توفي في ساحة بونة سنة سبع واربعين وستمائة وتولى ابنه ابو عبد الله محمد بن ابي زكريا فقام عليه عمه ابو ابراهيم اسحاق وسعى في خلعه وبايع لاخيه محمد اللحياني على كره منه فجمع ابو عبد الله محمد بن ابي زكريا اصحابه يوم خلعه وشد على عميه ابي ابراهيم ومحمد اللحياني وقتلهما واستقر في ملكه وتلقب بالمستنصر بالله امير المؤمنين وخطب لنفسه وفي سنة ثمان وستين وستمائة رحل الملك افرنسيس ملك فرنسا الى افريقية بجموعه فعاجله الموت وتفرقت جيوشه واستمرت دولة الحفصيين مع بني زيان وبني مرين والدولة العلية والافرنج تارة لها وتارة عليها ثم انقرضت دولة الحفصيين على عهد ابي محمد الحسن المتولي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وهو آخر ملوكهم وسياتي الكلام على بعض وقائعهم مع الاسبانيول والدولة العلية وما آل اليه امرهم والى الله ترجع الامور

ذكر الدولة العلية في المغرب الاوسط وافريقية

اول من اسس امر الدولة في الجزائر رجل من قرية آجي آباد انتقل الى جزيرة متلين المعروفة لهذا العهد بالمدلى واسمه عروج بن يعقوب ولقبه باربروس الاول اي صاحب اللحية الشقراء وبه اشتهر وكان ابوه فاخوريًا وفي ايام ساكن الجنان حضرة السلطان الغازي محمد خان الثاني صار جنديًا فنشا عروج نوتيًا في مراكب الجزيرة ثم اتخذ لنفسه قرصانًا واستكمل تعبيته واخذ يغزو ثغور الافرنج ويتوغل في سواحلهم ويرصد مراكبهم ويرجع بالغنائم فشاع ذكره واشتهر امره وفي بعض غزواته اخذ اسيرًا وقتل اخوه الياس ثم تفلت من اسره ولحق ببلاده ثم اتصل بخدمة قائد مراكب الدولة الامير نور قندا بن السلطان الغازي بايزيد خان فاستعمله مستشارًا له وكان ميمون النقيبة لا يؤم بلدة من بلاد العدو الا فتحها ولا صادف مركبًا الا غنمه او اتلفه ولما مات السلطان الغازي بايزيد خان وتولى ولده السلطان الغازي سليم ياووز خان سنة ثمان عشرة وتسعمائة سافر باربروس في قرصانه ولحق بجربة من سواحل افريقية فحط اثقاله فيها واقلع غازيًا سواحل الافرنج فغنم ورجع قاصدًا تونس وسلطانها يومئذ ابو عبدالله محمد بن الحسن الحفصي فاهداه باربروس جميع ما غنمه في غزوته واستاذنه في الاقامة ببلاده فاذن له على ان يدفع له خمس ما يقع في يده من المغانم فقبل ثم توجه الى جربه فوجد اخاه خير الدين فيها لاحقًا به فحمل اثقاله وقفل الى تونس واستمر على غزواته فبعد صيته

واشتدت على الافرنج سطوته وكان الاسبانيول مستوليًا على بجاية فغزاهم من تونس وغنم مركبين فارسلهما مع خير الدين الى تونس ونزل باربروس بجيشه الى البر وزحف بهم على المدينة فبرز اهلها لمدافعته واشتد القتال بينهم فتقهقر جيش باربروس وقفل الى تونس فاقام بها وبعث خير الدين في الاسطول الى الاندلس وكان ملك الاسبانيول قد اذن للمسلمين بالمهاجرة فاقام خير الدين فيها ثلاثة اشهر يحمل المهاجرين الى اسا كل المغرب ثم انكفا راجعًا الى تونس وكان عروج قد برىء من جراحه وانشا فيها عدة مراكب حربية واستكمل عدتها ثم اقلع من تونس وارسى على جيجل وكان اهل جينوا من ايتاليا قد استولوا عليها فاذاقهم نكال الحرب برًّا وبحرًا واستولى عليها ثم ان سالم بن تومي رئيس بني مزغنه اهل مدينة الجزائر كتب اليه يستنجده على الاسبانيول الواضعين يدهم على قلعة بتيون خارج المدينة فاجابه الى ذلك وجهز جيشًا من الاتراك والبربر واكمل عدتها وقبل ان يبارح جيجل ارسل الى اخيه خير الدين بتونس يخبره بعزمه ويامره بجمع كافة الاتراك المقيمين في تونس ويلحقه بهم الى الجزائر ثم اقلع من جيجل في المراكب وسار قاصدًا الجزائر فمال في طريقه الى اسكلة شرشال واستولى عليها ثم جاء الى الجزائر فتلقاه سالم بن تومي واعيان البلدة واقام نحو العشرين يومًا محاصرًا قلعة بتيون وبعد وصول خير الدين بجنده استولى على القلعة وتم له فتح الجزائر وبذلك اظلم الجوّ بينه وبين سالم بن تومي فقبض عليه وقتله وطير خبر الفتح الى حضرة السلطان الغازي سليم ياووزخان وكان وقتئذٍ في مصر فسر بذلك وبعث اليه بالخلعة ومنشور التولية على الجزائر وبلادها والتجا ابو حمو صاحب تلمسان الى اسبانيا فجهزوا الجنود وزحفوا الى عروج والتقى الفريقان بحسن داي اسم موضع قريب من الجزائر واشتعلت بينهما نار الحرب وكانت الدبرة على جيوش اسبانيا فانهزموا وتركوا في ميدان القتال ثلاثة آلاف قتيل فقوى عزم عروج ودانت له قبائل متيجه وجبال البربر القريبة من الجزائر بالطاعة ثم سار بجيشه من الجزائر قاصدًا تلمسان وفي طريقه استولى على اسكلة تنس وخيم في ساحة تلمسان فخرج اليه ابو حمو ودارت بينهما رحى الحرب فانكسر عسكر تلمسان وفر ابو حمو الى ملك اسبانيا يستغيث به واما عروج فانه ولى على تلمسان ابازيان مسعودا اخا ابي حمو واقام يتنقل في نواحي المغرب الاوسط ثم ان ملك اسبانيا انجد ابا حمو بالعساكر والذخائر وامر حاكم وهران المركيز غومارس بالمسير الى تلمسان واخراج عروج منها وطار الخبر الى عروج فقتل ابا زيان وبني عمه ودخل قلعة المشور وتحصن فيها فحاصره حاكم وهران

ستة وعشرين يوماً ثم تمكن عروج من الخروج من القلعة باموالهِ واتباعه فاتبعته الجيوش الى الوادي المالح قرب نهر شكف ووقع المصاف بينه وبينهم فقتلوه واستولوا على امواله واستأصلوا جميع ما كان معه من جنده ولما بلغ خبر عروج الى اخيه خير الدين في الجزائر انحلت عرى عزمه وازمع على ترك الجزائر والرجوع الى الغزو في القرصان وبينما هو يستعد لذلك اذ ورد على الجزائر جند من الانكشارية بعثهم السلطان الغازي سليم ياووز خان نجدة لعروج فلما رآهم خير الدين رجع عما عزم عليه واستعد للاخذ بثار اخيه من اعدائه ولما بلغ ملك اسبانيا انتصار جيشه وقتل عروج ومن معه طمع في الاستيلاء على الجزائر فجهز اساطيله وشحنها بالجيوش والذخائر وسيرها للجزائر تحت نظر الجنرال يسوادى مونغا وعند وصوله كتب الى خير الدين الملقب بباربا روس الثاني يتهدده ويذكره بما وقع باخويه ويدعوه الى تسليم البلد او الحرب فاجابه الى الحرب وبعد ايام نزل بجيوشه الى البر وخيم بالقرب من وادي الحرّاش على مسافة ساعة ونصف من البلد فخرج خير الدين بجنوده واوقع به واستولى المسلمون على المعسكر واستلخموه وحدث في البحر زوبعة شديدة فشتتت شمل المراكب وغرق اكثرها فاخذ خير الدين بثار اخويه وشفى نفسه من عدوه وطارت البشائر الى الدولة العلية بهذا الانتصار وجاءت التهاني الى خير الدين من لدن السلطان واعيان الدولة مع فرمان امارة الجزائر واستفحل امره في المغرب الاوسط واهتزت له اركان دولة بني زيان بتلمسان ودولة بني حفص في تونس فاوعز ابو عبدالله الحفصي الى صاحب تلمسان بالتظاهر على خير الدين وكان خير الدين لما تم له الاستيلاء على جبال زواوه وصنهاجة وسهول متيجه فوض امرها الى احمد ابن القاضي الصنهاجي لشهرته وقوة عصبته وسماه خليفة الشرق فرأى صاحب تونس انه لا يتم له ما اراده الا بمداخلة ابن القاضي فاتخذ الوسائل في استمالته اليه والخروج من طاعة خير الدين واشترط له المقاسمة في الجيش والذخيرة على حربه فارتاح ابن القاضي لذلك واسرها في نفسه واقام يترصد الفرصة واقبل صاحب تلمسان بحشوده الى الجزائر فتلقاه خير الدين بجنوده واتصلت الحرب بينهما اياماً ثم كانت الدبرة فيها على صاحب تلمسان فانهزمت جموعه وتاخر صاحب وهران عن اغاثة حليفه ثم توغلت جيوش خير الدين في الجهة الغربية وزحف اليها ابو محمد الزياني مرتين فانهزم واشتدت شوكة خير الدين وتلاشى امر بني زيان وكان ابو محمد اشخص اخاه مسعوداً الى المغرب الاقصى ثم بدا له في رجوعه واستدعاه فعدل مسعود عن تلمسان ولحق بالجزائر صريخاً بخير الدين واشترط

له الطاعة ومالاً يحمله اليه كل سنة والخطبة للسلطان الغازي سليم ياووزخان فاجابه الى ذلك وامدّه بالجيش والذخيرة وأوعز الى رؤساء البربر في تلك الجهة بمظاهرته فزحف مسعود بعساكره الى تلمسان فدخلها وفر اخوه الى وهران واستقر الامر لمسعود في تلمسان ورجع جيش خير الدين الى الجزائر ثم ان مسعوداً خرج عن طاعة خير الدين فبعث اليه خير الدين يدعوه الى الوفاء فاستنكف واساء الخطاب فتجهز اليه خير الدين براً وبحراً وسار في مراكبه الى مستغانم فدخلها من غير مقاومة وجاءه ابو محمد من وهران نازعاً اليه معتذراً عما سلف منه في حادثة عروج وجنده فعفا عنه واذن له في الاقامة عنده ورحلت العساكر البرية الى قلعة بني راشد وفيها حامية لمسعود ففرّت منها ودخلتها العساكر الجزائرية ثم ان ابا محمد طلب الرجوع واشترط لخير الدين ما اشترطه مسعود فاجابه خير الدين وسيره في العساكر الى تلمسان فلقيهم مسعود بجموعه فوقعت الهزيمة في جيشه وسار ابو محمد في اثرهم حتى شارف تلمسان ودسّ لاشياعه فيها ففتحوا له الابواب ودخلها وفرّ مسعود منها واستقر ابو محمد في دار ملكه وكان ابن القاضي الصنهاجي انتهز الفرصة في غيبة خير الدين ودعا الناس لبيعته فقام بنصرته قومه من صنهاجة وغيرهم من البربر وزناتة فاطلق فيهم الاموال وخاطب صاحب تونس الحفصي في انجاز وعده فامده بالرجال والاموال وقفل خير الدين الى الجزائر وقد قوى امر ابن القاضي فسير الجيوش لحربه فانتصر ابن القاضي عليها وردّها على اعقابها ثم آل الامر الى المصالحة ورجع ابن القاضي الى ما كان عليه من الطاعة والولاية اربعة اشهر ثم نقض العهد واشهر الحرب فعقد خير الدين لقائد جيشه قره حسن على حربه فنهض اليه من الحضرة ووقع الرعب في قلوب البربر ولاذوا بالطاعة وانفرد ابن القاضي في قومه ثم خاطب قره حسن في الخروج عن طاعة خير الدين واشترط له المقاسمة في العمل والرعية فمال اليه قره حسن والتحم معه وعززهما الحفصي صاحب تونس بجيشه ودسوا الى اهل الجزائر في القبض على خير الدين وضمنوا لهم جميل النظر فاجابوهم الى ذلك واتصل الخبر بخير الدين فوجم لها وقبض على الاعيان وقتل من ثبتت مداخلته وثار مسعود على اخيه صاحب تلمسان فاستغاث بخير الدين فامده في الجيش والذخيرة وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود ولما رأى خير الدين اختلال الاحوال وكثرة الثوار داخل الجزائر وخارجها اجمع على الرحيل منها والعود الى الغزو على ثغور الافرنج فاستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر وما يليها وفوض اليه امورها ثم سار باهله واتباعه ومن اختاره من الجنود البحرية الى جيجل فانزل

بها اهله واقبل على الغزو فتزلزلت اقطار الافرنج منه وتناذروا به من عوائمهم وزحف ابن القاضي الى الجزائر بجنوده فدخلها وتمكن من الاستيلاء عليها ولحق حسن آغا بخير الدين ثم انتقض صاحب تلمسان ونبذ الطاعة وخطب لنفسه واستمر خير الدين على غزواته ثلاث سنين واتفق انه اغزى بعض قواده في القرصان الى الثغور الافرنجية فالجأته الرياح الى الجزائر فمنعه ابن القاضي من دخول المرفأ فرجع الى خير الدين واطلعه على ما كان من ابن القاضي فعظم عليه ذلك وحركه الى العود الى دار امارته واستدعى انصاره من كل ناحية وسيرهم في البروسار في مراكبه بحرًا واستعد ابن القاضي لحربه واقتتلوا برًا وبحرًا وفي اثناء الحصار عدا على ابن القاضي بعض اتباعه فقتله وتقدم خير الدين الى الجزائر فدخلها واعظم النكاية في اتباع ابن القاضي وكان قره حسن عندما استولى ابن القاضي على الجزائر عدل عنه الى شرشال ودعا لنفسه فنهض اليه خير الدين بعد فراغه من ابن القاضي ففرق جموعه ثم قبض عليه وقتله وسكنت عواصف ابن القاضي وبقي اولاده في الجزائر على اسوء حال وله عقب فيها لهذا العهد ولما تمهدت البلاد لخير الدين اقبلت عليه الوفود من آفاق المغرب الاوسط ونواحيه يطلبون العفو فعفا عنهم واذعن له صاحب تلمسان فعفا عنه واقره على ما كان عليه من المشارطة ثم سار في المغرب الاوسط يتقرى مسالكه وشعوبه ويضع المغارم على اهله وفرق فيهم العمال من قومه وشن الغارات على ظواعن زناتة والعرب واثخن فيهم حتى اذعنوا له وكان للاسبانيول حصن على جزيرة صغيرة تجاه الجزائر فلما فرغ من شواغل الداخلية اعتزم على تخريبه واتفق ان بعث ملك اسبانيا ثمانية مراكب مشحونة بالجنود والذخيرة مددًا للحامية فلما دنت من الحصن وتراءت لاهل الجزائر سار اليها قائد البحر وحال بينها وبين الحصن ثم ظفر بها وساقها بما فيها الى المرفأ وكان ذلك اليوم يومًا مشهورًا وبعد ايام نهض خير الدين الى ذلك الحصن واقتحمه بجيشه واثخن حاميته قتلاً واسرًا واستولى على مهماته وخرّبه وبنى باحجاره جسر باب الجزيرة احد ابواب الجزائر واتصل خبر الحصن والمراكب بكارلوس ملك اسبانيا فجهز اساطيله وجنوده لنظر القائد اندريه المشهور وامده ملك فرانسا بعشرين مركبًا وطار الخبر الى خير الدين فجهز لرفقته وسار في البحر مترصدًا لاندريه في طريقه فلم يصادفه واستمر غازيًا على الثغور فاثخن فيها وخرب حصونًا كثيرة وامتلأت مراكبه وايدي جنوده من المغانم وانقلب راجعًا فبلغه ان اندريه محاصرًا لاسكلة شرشال فسار اليه على هيئته

فوجده اقلع عنها وبعد ان اراح بشرشال خرج منها غازياً على ثغور اسبانيا فظفر بعدة
مراكب لهم ولدولة فرنسا وقفل الى الجزائر واستمر يغزو بلاد الافرنج ويعظم النكاية فيها
الى ان استحضره السلطان الغازي سليم خان الى دار الخلافة فاستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر
المرة الثانية وتوجه في اربعين مركباً ومرّ على سواحل ايطاليا وسردينيا وجينوا فعاث
فيها واستمر في مروره يخرب الحصون ويستلب الاموال والانفس الى ان دخل العاصمة
فاكرم السلطان نزله واكبر شانه وقلده وزارة البحر وكان وقتئذٍ اندريا دوريا الجينوي
رئيساً على عمارة اسبانيا وكثيراً ما يجول في بحر الارخبيل فاخذ خير الدين يترصده
ويذيقه نكال الحرب الى ان اعجزه ولحق بثغور اسبانيا وخلا البحر لخير الدين فقصد
جزائر الموره ففتحها ورتب امورها ثم سار الى افريقية فارسى على بنزرت واستولى عليها ثم
مد عينه لاخذ تونس فسار منها الى حلق الواد فامتلأت قلوب اهل الحضرة رعباً منه
وفر صاحبها ابو محمد الحسن ولحق بالقيروان وندب الناس الى نصرته فخذلوه وبعث
صريخه الى ملك اسبانيا فبادر الملك الى نصرته وجمع قوته وصدرت اوامر البابا من
روميه الى كافة دول الافرنج يحثهم على اعانة ملك اسبانيا على شانه فامدوه بالمراكب
والجنود والمهمات ثم سار الجمع في عمارة اسبانيا الى تونس وحاصروها اياماً ثم خرجوا الى
البرّ وزحفوا اليها فلقيهم خير الدين بجنوده في خربة الكلخ خارج البلد واقتتلوا وكان في
قلعة تونس ما يزيد على خمسة وعشرين الف اسير من الافرنج فانتهزوا الفرصة حين القتال
وخرجوا من القلعة وحملوا على خير الدين من خلفه فاختل مصافه وانهزمت جيوشه
ولحق خير الدين ببونه ثم بالجزائر واستولت جيوش الافرنج على تونس نبا فيها واستباحوها
ثلاثاً وقتلوا نحو ستين الف نفس صبراً وشفوا نفوسهم من المسلمين وجاء الحفصي
من القيروان راجعاً الى دار ملكه تحت حماية دولة اسبانيا وفرضت عليه ضرائب
متنوعة يؤديها اليها على رأس كل سنة واشترطت عليه اباحة السكنى للافرنج في
تونس والتملك بها واتخاذ الكنائس والاديرة ثم رجعت الجيوش الى اوطانها وتمكن
ابو محمد الحسن الحفصي من امره واقام على ذلك الى ان ثارت العامة ونقموا عليه وطيروا
الخبر الى ولده ابي العباس احمد وكان والياً لابيه على بونه فاسرع السير الى تونس وفر
والده الى القيروان فقبض عليه ابو الهول شيخ العرب فسمل عينيه واشخصه الى القيروان
فاعتقل فيها الى ان مات واستقل ابنه احمد في الملك ولما رجع خير الدين الى الجزائر
عقب انهزامه من تونس اخذ يتاهب لغزو اسبانيا فاعد المراكب واستكمل تعبئتها وانتقى

العساكر وسار غازياً ثغور اسبانيا صادف في طريقه عدة مراكب للافرنج فاستولى عليها واستاقها الى الجزائر ثم غزى بلد ماهوب من بلاد اسبانيا فدمر اهلها واضرمها ناراً وانكفأ راجعاً ولم يزل يتابع غزو الثغور الافرنجية الى ان استدعاه السلطان الغازي سليمان خان الاول فاستخلف على الجزائر مستشاره حسن آغا المرة الثالثة وسار باهله الى الاستانة فاكرم السلطان وفادته وقلده وزارة البحر فجرى خير الدين على عادته في غزو ثغور العدو من الاستانة والرجوع اليها بالغنائم الكثيرة الى ان مات في قصره بظاهرها سنة خمس وخمسين وتسعمائة وقبره قرب مرسى بشكطاش مشهور واقر السلطان الغازي سليمان خان حسن آغا مستشار خير الدين على امارة الجزائر وارسل اليه الفرمان والخلعة وعلى قيادة البحر في الجزائر حسن بن خير الدين فاقتفى اثر والده في الشدة والحزم والاجلاب على الثغور الافرنجية وضايقهم حتى استخفوا امر والده وغزا جبل طارق واستباحه واستاق امواله ومراكبه ورجع الى الجزائر فتزلزلت بلاد اروبا وامتلات القلوب منه رعباً وايقنوا بخراب ثغورهم وجزائرهم فارسلوا صريخهم الى ملك اسبانيا كارلوس الخامس وكانت دول اروبا ترجع اليه في ازمانها فجهز كارلوس نحو خمسمائة مركب وشحنها بالعساكر والمهمات وسار بها الى الجزائر وعدل عن مرفاها الى فرضة وادي الحراش وانزل جيوشه الى البر وابقى في المراكب معه من يقوم بها وعسكرت جنوده في القرب من محل سيدي يعقوب وكتب الى حسن باشا انا ملك اسبانيا الذي استولى على تونس واخرج منها خير الدين باربروس الثاني وتونس اعظم من الجزائر وخيرالدين اعظم منك فاجابه حسن باشا ان اسبانيا غرت الجزائر في مدة عروج باربروس الاول مرة وفي مدة خير الدين مرة ولم تحصل على طائل بل انتهبت اموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك ان شاء الله وفي اليوم الثاني من هذه المراسلة حدث نوء شديد براً وبحراً فلعبت الرياح بالمراكب والقت منها ما يزيد على مائة مركب الى البر فانقضت عليها حشود العرب والبربر وانتهبوا ما فيها واستاصلوا من لم يدركه الغرق وانتهز الفرصة والي الجزائر فخرج بجيشه وحمل على المعسكر فانهزم الافرنج وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى اتوا على آخرهم ولحق كارلوس في عدد قليل من مراكبه ببلاده ورمى بتاجه الى الارض واقسم ان لا يضعه على راسه الا بعد استيلائه على الجزائر فلم يساعده القدر الالهي على ذلك وفي اثناء هذه الفتن انتقض اكثر قبائل البربر ونبذوا الطاعة ولما فرغ حسن باشا مما دهمه من امر اسبانيا وانتصر

على جيوشها وجه وجهته الى تدويخ البلاد وقطع شافة الثوار منها فتأهب لذلك ولم يزل يجول في الانحاء ويبث السرايا في الجهات الى ان دان الناس لطاعته واسترد مستغانم من يد صاحب تلمسان ووصلت جيوشه في الجهة الشرقية الى ما وراء بسكره والزيبان ثم رجع الى الجزائر وتوفي بها وتولى حسن بك ابن خير الدين وكان بنو وطاس بطن من بني مرين استولوا على المغرب الاقصى بعد بني عمهم عبد الحق واستفحل امرهم فيه فدعتهم نفوسهم الى الاستيلاء على تلمسان دار ملك بني زيان فنهضوا اليها من فاس في جموعهم سنة ثمان وستين وتسعمائة واستولوا عليها في فترة موت حسن باشا فلما افضى الامر الى حسن باشا ابن خير الدين استفرغ لقتالهم ونهض من الجزائر واتصل الخبر ببني وطاس فخرجوا من تلمسان وانقلبوا راجعين الى فاس واستمر حسن باشا سائرًا الى ان دخل تلمسان فاصلح شانها وولى عليها رجلاً من بني زيان اسمه حسن وقفل الى الجزائر ثم عزل وتولى اخوه صالح باشا ابن خير الدين فارتاح الناس الى توليته وكانت اسبانيا استولت على بجايه فابتدر صالح باشا اليها ونازلها برًا وبحرًا ثم اقتحمها بجيوشه واستاصلها ثم سار الى قسطنطينة فاستولى عليها واقتطعها ثم انقلب الى تلمسان وطرد منها حسن الزياني مع بقايا بني عمه فتفرقوا اوزاعًا في الجهات والبقاء لله تعالى وانتظم المغرب الاوسط كله لصالح باشا من حدود وجده من بلاد المغرب الاقصى الى الكف من بلاد افريقية وبعد ان رجع الى الجزائر ترفي وتولى اخوه حسن باشا ابن خير الدين مرة ثانية وفي ايامه خرج حاكم وهران بجنوده الى مستغانم وكان حسن باشا في تلك النواحي فتعرض له وانتشب الحرب بين الفريقين فانهزم جيش اسبانيا وقتل حاكمهم ثم ان الدولة العلية حملت اهل الجزائر على العمل بقوانينها ونهيا تعين عليها حاكمًا من قبلها وتمده بما يلزمه من الجنود والذخائر وعزلت حسن باشا ابن خير الدين وبعثت محمد باشا كرداوغلي ثم عزل محمد باشا وتولى علي باشا وكان اهل تونس سئموا من ملكهم ابي العباس احمد الحفصي ولحقهم الضجر من ظلمه فدس وزيره ابو الطيب الخضار الى علي باشا في النهوض الى تونس ووعده بتمهيد الطرق الموصلة الى الاستيلاء عليها فجهز علي باشا جيوشه واحتشد قبائل العرب والبربر من القاصية ونهض من الجزائر سنة سبع وسبعين وتسعمائة فالتقى الجمعان بباجه ووفى الخضار بوعده فخذل صاحبه والتقى الرعب في قلوب عساكره فتفرقوا اشتاتًا وفر ابو العباس الى تونس ثم خرج باهله وامواله ولحق بالقيروان وتقدم علي باشا بجموعه الى

الحضرة فدخلها وقتل ابن الخضار وولى حيدر باشا على تونس وانقلب راجعاً الى الجزائر واستجاش ابو العباس بملك اسبانيا فاجابه واشترط عليه مقاسمة الملك فامتنع ابوالعباس من قبول هذا الشرط فركب البحر الى صقلية ولم يزل بها الى ان مات ثم قام اخوه محمد بن الحسن واثار الفتنة على حيدر باشا وبعث الى ملك اسبانيا بقبول ما اشترطه على اخيه فانجده الملك بعساكره وعند وصولها في المراكب الى حلق الواد فرّ حيدر باشا وحاميته من الاتراك ولحقوا بالقيروان ونقدم محمد بن الحسن الى عساكر اسبانيا فدخل بها الى تونس وعاثوا فيها واهانوا المساجد والمدارس واتخذوا جامع الزيتونة اصطبلاً لدوابهم وقاسمهم محمد بن الحسن البلاد والجباية وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة تولى رمضان باشا على الجزائر وفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة جهزت الدولة الوزير المشهور سنان باشا فسار في جيش كثيف لانقاذ تونس من يد اسبانيا واوعزت الى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب بظاهرته فاستعد كل واحد منهما وسار من ولايته وخرج حيدر باشا من القيروان بحاميته ومن انقاد اليه من العرب والبربر وتكاملت الجيوش في خارج تونس واحاطوا بها من كل جانب فدخلها المسلمون عنوة واستأصلوا عساكر اسبانيا واسروا محمد بن الحسن ثم اشخصه سنان باشا الى الاستانة فاعتقل فيها الى ان مات وتم استيلاء الدولة العلية على افريقية وانقرضت دولة بني حفص منها بعد ان ملكوها ثلاثمائة ونيفاً واربعين سنة والبقاء لله تعالى وحده وثبتت قدم سنان باشا في تونس واستفحل امره وقطع دعوة بني حفص فيها واستحكم الثوار ومن عهده صارت الولاة تختلف على تونس من قبل السلطنة السنية كاختلافهم على الجزائر ثم وقع النزاع بين حكومة الجزائر وحكومة تونس بعد استيلاء سنان باشا عليها في الحدود واستمر الى ان تولى حسن باشا على الجزائر سنة اثنتين وعشرين والف فاتفق مع يوسف داى والي تونس على تعيين نهر سراط حداً بين الحكومتين وفي سنة ثلاث وثلاثين والف تولى خسرو باشا على الجزائر ونازعه يوسف داي في الحدود ثم رجعا لما وقع عليه الاتفاق اولاً بين الامارتين في الاحكام والجباية وفي سنة اربع وخمسين والف انتقضت جزيرة كريت على الدولة واستبدوا بامرهم فاوعزت الى محمد باشا ابي ريشة والى الجزائر بغزوها فسار اليها في اسطوله وفتحها وقفل الى الجزائر وكان الملك فرنسيس الاول عقد الصلح مع السلطان الغازي سليمان خان سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة هجرية وخمس وعشرين وخمسمائة والف ميلادية واباح له السلطان حرية مراكب فرانسا في البحر الابيض تسافر فيه حيث شاءت

واذن له في تعاطي التجارة في الجزائر وغيرها ثم ان حكومة الجزائر اخذت مراكبها تغزو ثغور فرانسا وتخرب حصونها الى ان آل امر فرانسا الى الملك لويس الرابع عشر فجهز نحو ستة آلاف جندي في ستة عشر مركبًا لنظر القائد الدوك دي بوفور فاقلع من طولون في مراكبه سنة اربع وسبعين والف من الهجرة مترصدًا مراكب الجزائر فلم يصادف نجاحًا وفي سنة ست وسبعين وقع الصلح ولما تولى بابا حسن على الجزائر سنة اثنتين وتسعين والف اغزى مراكبه الى الثغور الفرنساوية وفي سنة اربع وتسعين خرج الاميرال تورفيل من طولون في عمارة فرنسا وسار الى الجزائر واناخ عليها ثلاثة اشهر يغاديها القتال ويراوحها ثم سئم الاقامة من غير طائل واقلع عنها وفي سنة خمس وتسعين عاد اليها في قوة اكثر من الاولى ولما علم بابا حسن انه عاجز عن مدافعته مال الى السلم وبعث الى رئيس العمارة في ذلك فاجابه اليه واشترط عليه امورًا انف اهل الجزائر من قبولها وعارضوا حاكمهم في اجازتها ثم عدوا عليه فقتلوه وولوا عليهم الحاج حسن آغا من مشاهير القواد فاشهر الحرب على المراكب الفرنساوية ورماها بالقنابل فاستشاط تورفيل غضبًا وارسل على البلد صواعق المدافع فعمد اهل الجزائر الى اسارى الافرنج يوثقونهم ويضعونهم في افواه المدافع ثم يرسلونها فتتطاير اشلاؤهم مع القنابل في الهواء وارتكبوا في ذلك ما لا يسوغ شرعًا ولا مروءة ثم لما طال الامر على الاميرال تورفيل اقلع عن الجزائر الى بلاده وفي سنة ست وتسعين عاد اليها فدعاه اهلها الى الصلح فبادر الى ذلك وانعقد الصلح الى ان تولى خوجه ابراهيم باشا فاغرى ثغور فرانسا ورجع بالغنائم وفي سنة مائة والف جمعت دولة فرنسا قوتها واكثرت من الحشود الافرنجية وبعثها لنظر المارشال دي ستري فنازل الجزائر والح عليها برمي القنابل واقام على ذلك خمسة عشر يومًا حتى دكت اطراف البلد ثم جنح خوجه ابراهيم باشا الى السلم فانعقد الصلح وفي سنة اربع ومائة والف تولى على الجزائر خوجه شعبان باشا فنهض الى تونس بجيوشه فدخلها بمداخلة ابن شكر وزير محمد باي واليها وفر محمد باي الى داخلية افريقية وتم الامر لشعبان باشا ثم فوض امر تونس الى ابن شكر باي وقفل الى الجزائر وكان شعبان المذكور يبغض العرب ولما رجع من تونس امر جنده بقتل كافة العرب القاطنين في مدينة الجزائر فقتلوا خلقًا كثيرًا وكثر تعسفه واشتدت وطأته فقبض عليه الجند وقتلوه خنقًا وتولى الجه احمد باشا ثم عزل وتولى عمر باشا وكان محمد باي انتصر على ابن شكر باي وعاد الى تونس ولحق ابن شكر بالمغرب الاقصى

ثم توفى محمد باي والي تونس وتولى اخوه رمضان باي فثار عليه مراد باي بن علي باي وتداول تونس من يده واستفحل امره فيها واجمع على غزو قسنطينة ثم الجزائر ونهض من تونس على طريق الكاف فلقيه علي خوجه باي حاكم قسنطينة بالقرب منها وناجزه الحرب فكانت الدبرة على علي خوجه باي واتصل الخبر بعمر باشا فخرج من الجزائر وزحف الى مراد باي وهو محاصر لقسنطينة وانتشب الحرب بينهما فانهزم مراد باي ولحقه عمر باشا الى الحدود ثم انكفا راجعاً الى الجزائر وبقي مراد باي في مرض من الايام الى ان ثار الشريف ابراهيم وقتله واستولى على تونس ثم لما تولى مصطفى باشا على الجزائر جهز جيشاً وبعثه لقتال الشريف ابراهيم المتغلب على تونس ونهض الشريف من الحضرة فالتقوا بالقرب من الكاف واقتتلوا اياماً ثم وقع الخلل في عسكر الشريف فانهزم وقبض على الشريف وسارت عساكر الجزائر الى تونس فدخلوها ثم رُفع الى مصطفى باشا في رئيس ديوان التحريرات الجزائرية الخوجه محمد بكداشي امر نقمه عليه فعزله ونفاه الى قاصية البلاد فاقام بكداشي مكانه يترصد الفرص الى ان تمكن منها فتلطف في رجوعه الى الجزائر ثم دخل على مصطفى باشا في منزله ليلاً وقتله وتولى مكانه سنة ثمان عشرة ومائة والف ثم قبض على الاخوين العالمين السيد احمد والسيد علال ولدى العلامة المؤلف الشهير الشيخ سعيد قدوره وكان الاول مفتياً للمالكيـة والثاني قاضياً ثم نقتلهما في محبسهما خنقاً وقد انتقم الله منه بمثل فعله فسلط عليه ابراهيم آغة العرب فدخل عليه وخنقه وتولى مكانه ثم تولى بعده علي باشا ثم محمد باشا ثم عبدي باشا وكانت اسبانيا استولت على وهران سنة خمس عشرة وتسعمائة اخذتها من يد ابي كمون آخر ملوك بني زيان ولم تزل حكومة الجزائر تبعث بالجيوش اليها وتنازلها براً وبحراً فلم تات بطائل الى ان تولى محمد بكداشي على الجزائر وكان شديد الرغبة في استرجاعها فجهز جيشاً عظيماً وبعثه اليها واوعز الى حاكم معسكر مصطفي باي ابي الشلاغم بمظاهرة الجيش والنظر في امره فنازلوها اول يوم من ربيع الاول سنة تسع عشرة ومائة وضيقوا على حاميتها واحجروهم في داخلها وفي سادس شوال من تلك السنة فتحوا البلد عنوةً وفر اهلها الى برج المرسى وتحصنوا فيه فلحقهم المسلمون وفي ثالث عشر المحرم سنة عشرين اقتحموا الحصن واستاصلوا اهله واستقر ابو الشلاغم والياً عليها ولم يزل يدافع جيوش اسبانيا عنها مرة بعد اخرى الى ان تغلبوا عليها واخذوها من يده سنة ثلاث واربعين ومائة والف وخرج منها

ابو الشلاغم باهله ومن كان فيها من المسلمين الى معسكر ونواحيها وكان والي الجزائر عبدي باشا فجهز ولده محمدا في عدة مراكب وبعثه الى وهران فنازلها ثم توفي عبدي باشا واقلع ولده محمد راجعاً الى الجزائر وكان حسن بن علي والي تونس ظاهر جيوش اسبانيا على اخذ وهران وامدّهم بالذخيرة لحفظها له ابراهيم الخزناجي مستشار عبدي باشا ولما افضى امر الجزائر اليه اخرج يونس ابن اخي حسين بن علي وكان معتقلاً في الجزائر وامده بالجيش والمهمات واوعز الى حاكم قسنطينة بمظاهرته فنهض يونس من الجزائر واجتمع بحاكم قسنطينة وانضم اليهما ابو عزيز شيخ الحنانشة وابو رنان شيخ عرب البنيان ومحمد ابن ابي الضياف شيخ جبل اوراس بجموعهم واتصل الخبر الى حسين بن علي فزحف اليهم والتقى الفريقان على نهر سراط وانتشبت الحرب فكانت الدبرة على حسين بن علي فانهزمت جيوشه ولحق هو واولاده بالقيروان واستولى يونس على الحضرة وانقلبت الجيوش راجعة الى مراكزها ثم نهض يونس باي الى قتال عمه وهو بالقيروان فخام عمه عن اللقاء واقام يونس محاصراً للقيروان احد عشر شهراً ثم خرج منها حسين بن علي واولاده ولحقوا بقسنطينة متنصلين مما وقع منهم وتوجه محمد بن حسين بن علي الى الجزائر وقدم الطاعة للخزناجي باشا نيابة عن والده فتقبل طاعتهم ووعدهم بالعود الى دار ملكهم ثم بعد وصول محمد الى الجزائر توفي والده بقسنطينة ولحق محمود وعلي باخيهما محمد واقاموا ينتظرون انجاز الوعد الى ان مات الخزناجي باشا وتولى خوجه ابراهيم باشا وكان الخزناجي عهد اليه عند موته بمساعدتهم فلما تمكن من امره سيرهم في الجيوش الجزائرية وامر حاكم قسنطينة بمظاهرتهم وقبل وصولهم الى حدود تونس حصل الخلل في العسكر وتفرقت الكلمة بين حاكم قسنطينة واحمد آغا رئيس العسكر الجزائري فانقلبوا راجعين الى قسنطينة ثم توفي علي بن حسين ابن علي واقام اخواه محمود ومحمد بقسنطينة وفي سنة ستين ومائة والف توفي الخوجه ابراهيم باشا وتولى محمد باشا المعروف بالاعور وفي سنة ثمان وستين ومائة والف عدا عليه جندي فقتله وتولى علي باشا ابو اصبع وكان حسن باي المعروف بازرق العينين ابن اخت علي باشا المذكور والياً على قسنطينة فاتفق رايه مع خاله على اخذ تونس من يد يونس باي وردها الى اولاد عمه حسين بن علي ثم ان ازرق العينين عمل الحيلة على يونس باي واظهر له المودة فركن اليه والقى اليه بمقاليد اموره ولم يزل ينصب له المكائد الى ان تمكن منه وقبض عليه واستصفى امواله وبنى عليه حائطاً من خشب

فبقي في عذابه الى ان مات ورجع امر تونس الى اولاد حسين بن علي يتوارثونه خلفًا عن سلف لهذا العهد وفي سنة تسع وسبعين ومائة والف توفي علي باشا وتولى محمد باشا المعروف بالمجاهد وكان صالحًا زاهدًا حسن السيرة محبًا للجهاد منصور الراية شيد عدة ابراج وحصون في الجزائر منها برج سردينيا والبرج الجديد وبرج راس العين واصلح قناة الحامة واجرى ماءها الى سقايات اتخذها على ابواب المساجد والابراج والحصون وخوابي من رخام في شوارع البلد واوقف اوقافًا جارية وانشأ جملة مراكب بحرية للغزو وهو اول من اتخذ الغجون في الجزائر وهو مركب صغير وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة والف انتقض الصلح بين الدولة العلية ودولة روسيا فجهز مراكبه واكمل استعدادها لنظر القبطان ابن يونس وبعثه اجابة لأمر الدولة وتكرر منه هذا عند ما تدعوه الدولة لاعانتها وكان قوم من اليونان يقال لهم الزنبطوط اتخذوا قرصانًا وانقطعوا فيه في البحر يترصدون المراكب فلا يصادفهم مركب الا اخذوه بما فيه وقتلوا اهله وكانت الدولة العلية تامر حكامها في الجزائر بقطع عاديهم فجهز محمد باشا المجاهد القبطان الحاج سليمان وارسله اليهم فاستولى عليهم وساقهم في مراكبهم الى الجزائر وقد قسموا بلاد المغرب الاوسط الى اربع ولايات ولاية الجزائر وولاية تيطرى بكسر التاء وسكون الطاء المهملة وولاية قسنطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون وولاية وهران بفتح فسكون ولكل ولاية حاكم يسمى باي اي بك الا حاكم الجزائر فيسمى باشا وهؤلاء البايات متساوون في الرتبة والعمل ويرجعون في امورهم الى والي الجزائر ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب اهل الشورى رفع الى حضرة السلطان احمد عريضة تنبيء بان وجود واليين في الجزائر موجب للفساد مستلزم للنزاع فقبل ذلك وامر بان يكون انتخاب الولاة وعزلهم الى مجلس الشورى وان يكون التصديق على ذلك من السلطنة وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف امرها من سمو المنزلة وباهر السطوة وكانت الدول الافرنجية على كثرتها تدفع لها اموالاً مضروبة عليها كل سنة لدفع عاديتها عن ثغورهم ماعدا دولة اسبانيا فانها كانت تتلون فتارة تدفع ضريبتها وتمتنع اخرى والحكومة الجزائرية تعاملها على حسب تلونها ولما تولى محمد باشا المجاهد اكثر من غزو ثغورها حتى الجأ اهلها الى الجلاء عنها والفرار الى الداخلية وقد اجتمع في الجزائر منهم عشرة الآف اسير فجمع ملك اسبانيا قوته واستجاش بقية الدول وجهز خمسمائة مركب مشحونة بالعساكر والذخائر وبعثها الى الجزائر سنة تسع وثمانين ومائة والف فنزلت

الجيوش الى البر وخيمت بوادي الحراش وكان محمد باشا المجاهد مستعدًّا لمدافعتهم واستنهض حاكم قسنطينة وحاكم معسكر بجموعهم الى حضرته فاجتمعت الجيوش الاسلامية وكانت مراكب اسبانيا سبقتهم الى الجزائر فخيم صاحب قسنطينة في جهة الجنوب من معسكر العدو وخيم صاحب معسكر في الجهة الغربية وخرج محمد باشا بجنوده ودارت الجيوش بالمعسكر ثم هجمت عليه دفعة واحدة فاشتعلت نار الحرب من كل جهة وجاس المسلمون خلال الخيام واستحوذوا المعسكر بتمامه واستولوا على ذخائره ومهماته ولما راى من بقي في المراكب من الجيش ما وقع باخوانهم رفعوا الرايات السود على صواري المركب اعلانًا بالحزن واقلعوا على تلك الحال راجعين الى بلادهم وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة والف توفي ابرهيم باي حاكم معسكر وتولى مكانه الشهم الهمام محمد باي بن عثمان الكردي وفي سنة ثمان وتسعين عادت عمارة اسبانيا لمنازلة الجزائر واناخوا عليها اربعة ايام يرسلون عليها القنابل فرجعوا من غير طائل ثم نازلوها في السنة التي بعدها وانقلبوا خائبين وقد احسوا من انفسهم بالعجز وراوا ان جنودهم قد فنيت وثغورهم خربت فجنحوا للسلم وضرعوا الى محمد باشا المجاهد في كف عاديته عنهم ثم اوفدوا عليه رئيس العمارة يطلب الصلح فرده خائبًا ثم اعادوه اليه على ان يشترط عليهم ما شاء فاجابهم الى مرغوبهم وانعقد الصلح بينهم على شروط منها ان تدفع دولة اسبانيا لحكومة الجزائر مليونًا ونصف مليون فرنك في كل سنة وان تصير المبادلة في الاسارى راسًا براس والذي يبقى الف ريال شينكو عن كل راس وان وهران خارجة عما انعقد عليه الصلح وتم الامر على هذا سنة مائتين والف

ذكر فتح مدينة وهران

قد امتدت العمارة الاسلامية بمدينة وهران الى سنة خمس عشرة وتسعمائة ثم استولت عليها دولة اسبانيا من يد ابي كادون الزياني ثم لما تولى محمد باشا المجاهد على الجزائر كان يميل الى محمد باي الكردي حاكم معسكر لمتانة دينه واستقامة احواله كتب اليه في الجهاد وحرضه على منازلة وهران فكان محمد باي ينازلها وياخذ بخنقها واستمر على ذلك من سنة ثلاث وتسعين ومائة والف الى سنة خمس ومائتين فجاءه الامر في ملازمتها والاقامة عليها فشمر الباي عن ساعد الجد وجمع الآلة والمهمات الحربية وجمع اوزاعًا من القبائل وانزلهم على السبل المؤدية اليها ليقطعوا مواصلة بني عامر وغيرهم

من المتنصرين للاسبانيول ثم انتقى طلبة العلم من المدارس وانزلهم في جبل المائدة المطل على البلد ليمنعوا اهلها من الاعتصام به واخذ في حفر الخنادق واللغوم وبناء الاستحكامات ولما بلغ ملكهم الخبر ارسل المدد الى حاميتها وقد استشهد سيدي الجد السيد محمد المجاهد في معركة حرب بساحتها فحمل منها الى غريس مع بعد المسافة ودفن في مقبرة اسلافه ثم وقعت زلزلة عامة في جميع المغرب الاوسط واشتدت في وهران فسقط اكثر دورها على اهلها وهلاك الحاكم وعائلته وتوالت المصائب عليها فرفعوا امرهم الى ملكهم فبعث الى والي الجزائر في الهدنة مدة شهر لينظر في امره فاجابه الوالي الى ذلك وجاء الامر لمحمد باي بتوقيف الحرب فتاخر في معسكر وضرب الاجل لحاكم وهران ثلاثين يومًا وقبل تمامها غدروا بالمسلمين ورفعوا رايات الحرب وطار الخبر الى محمد باي فسار واناخ على وهران وجاءه المدد من الجزائر فاعظم النكاية في الاسبانيول واحجرهم في منازلهم وزحف الى السور ووضع المدافع والهوا‌وين في الاستحكامات وعكف الرماة يرسلون عليها القنابل حتى اندكت اكثر ابراجها ودورها واشتد الامر على اهلها وعجزوا عن الذب عنها ثم توفي محمد باشا المجاهد وتولى مكانه مستشاره بابا حسن فطير الخبر الى محمد باي في مكانه من حصار وهران وبعث اليه بالامر الموءذن بتجديد امر الولاية له ثم ان ملك اسبانيا لما علم ان محمود باي قوي العزيمة عظيم الرغبة في فتح وهران كتب الى بابا حسن باشا والي الجزائر في تسليمها واشترط ان يسلمها على ما كانت عليه حين دخلتها جيوشهم وان يخربوا جميع ما احدثوه فيها من الابراج والقلاع فاجابه الوالي الى ذلك على ان يدفع مصاريف الحرب نقبل الملك وبعث الوالي الى محمد باي يامره بالافراج عن البلد فارتحل الباي وجيوشه واخذ الاسبانيول ينتقلون منها الى ان فرغت وخربوا ما وقع الاتفاق على تخريبه فتقدم الباي الى ساحتها وارسل في المدائن والضواحي للحضور في دخولها فهرع الناس اليه ودخلها واخذ في ترميم ما تثلم من سورها واما كنها وفي اقرب مدة عمرت دورها واسواقها ومساجدها وانتقل الباي اليها من معسكر باهله واعيان حكومته وأرّخ فتحها العلامة السيد الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دح بقوله

بشرى لنا قد بلغنا غاية الارب ✲ بفتح وهران ذات العجب والعجب
ارخت للقوم ذاك العام مبتدرًا ✲ قالوا فما الشهر منه يا اخا العرب
نقلت في نظم ما راموا اوأرخه ✲ وهران طار لنا الاسلام في رجب

ثم توجه الباي الى الجزائر لتأدية التهنئة للباشا بفتح هذه المدينة التي طالما اهتمت الحكومة بشانها واجتهدت في فتحها فابى الله الا ان يكون على يديه وفي ايامه فاكرم الباشا نزله واكبر وفادته ثم قفل من الحضرة شاكيًا وبوادي مينة اشتد وجعه ومات فحمل ودفن بوهران فارتج المغرب الاوسط لفقده وعم الحزن اقطاره وكان يحب العلماء والصالحين ويعظمهم واخذ الطريقة القادرية عن العلامة الجد سيدى السيد مصطفى ولم يزل قائمًا بخدمته ساعيًا في مرضاته الى ان توفى وتولى على وهران ابنه عثمان باي .

ذكر غير ذلك

وفي سنة سبع ومائتين والف تاخر اداء الضريبة المفروضة على دولة امريكا للحكومة الجزائرية نغضب الباشا واخرج قناصلها من الجزائر وسائر الولايات وجهز القبطان الشهير الحاج محمد في اسطوله ليترصد مراكبهم نغنم نحو العشرين مركبًا واغزاه مرة اخرى فظفر بغيرها ثم ان دولة امريكا جنحت للسلم فاجابها الباشا على ان تؤدي له مليونين ونصف مليون من الريال الشينكو نادت له ذلك ورجعت قناصلها الى الجزائر وفي سنة اثنتى عشرة توفى الباشا بابا حسن وتولى مكانه ابن اخته مصطفى الخزناجي وفي سنة ثلاث عشرة كانت حادثة نابليون الاول في مصر واوعزت الدولة العلية الى مصطفى باشا باشهار الحرب عليها ليشغلها عن مصر فاحضر الباشا قنصل فرنسا الجنرال واظهر له شدة حنقه على فرنسا لسوء معاملتها مع الدولة العلية ثم اوثقه في الحديد واسلمه الى دائرة الاشغال الشاقة ونعل ذلك ببقية قناصل فرانسا في الولايات وجهز قائد البحر في الاسطول واغزاه الى ثغور فرانسا فاثخن فيها قتلاً واسرا وغنم عدة مراكب لهم وفي سنة سبع عشرة عزل عثمان باي ابن محمد باي فاتح وهران عن ولايتها وتولى مصطفى باي من اخصاء الباشا

ذكر اخبار محمد ابن الشريف الثائر على ولاية وهران

اصله من الكسانة قبيلة من البربر بوادي العبد قبلة غريس اخذ العلم في صغره عن سيدي الجد السيد محي الدين في مدرسة بالقيطنة ثم رحل الى المغرب الاقصى فاخذ من علماء فاس ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته وقفل الى وطنه وجاء الى حضرة سيدي الجد زائرًا وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه

شرعاً فادبه سيدي الجد بالسياط واستتابه ثم رجع الى وطنه ولحق بقبائل حميان وشافع
ودعا لنفسه سنة سبع عشرة ومائتين والف وادعى انه المهدي المنتظر فصدقه الناس
وقاموا بنصرته فاخذ يستلب الانفس والاموال ويخرب العمران واتصل الخبر بباي
وهران فنهض اليه بجيوشه والتقي الفريقان بغريس فانهزم الباي وتفرقت جيوشه
ولحقت بوهران واستولى ابن الشريف على اثقاله ثم سار في جموعه حتى وقف بساحة
وهران فاناخ عليها وطار الخبر الى الجزائر فجهز الباشا مستشاره علي آغا وبعثه على
طريق البرتغال ابن الشريف فتعرض له البربر في نواحي وادي شلف وصدوه عن
المرور في بلادهم ومنعوه ورود الماء حتى كاد يهلك مع جيوشه عطشاً فلاذ بشيخ العطاف
واستجار به فمشى له في القبائل على ان يدفعوا عاديتهم عنه فابوا عليه الا بمال يؤديه
اليهم فادى لهم ما طلبوه وانقلب راجعاً الى الجزائر واستمر ابن الشريف في مكانه من
حصار وهران وضيق على اهلها حتى نفذت اقواتهم وتمت له الطاعة من تلمسان
الى المدية ثم افرج عن وهران وسار ينتقل في النواحي الى سنة ست وعشرين ومائتين
والف فبعث الباشا من الجزائر معتمده محمد باي المعروف بالمقلس في عسكر وقلده
ولاية وهران فركب في الاسطول من شرشال وبوصوله الى وهران قبض على حاكمها
مصطفى باي واشخصه الى الجزائر وكتب الى الآفاق بقدومه وتلطف في جمع الكلمة
فاجابه اكثر القبائل وركنوا الى طاعته وامرهم بالمعسكر معه فهرعوا اليه من كل
جانب وفرق فيهم الاموال ونهض من وهران بجموعه يريد ابن الشريف وتزاحفا في
غريس ولما تولى النهار انكشف ابن الشريف بجموعه وانتصر الباي عليهم وفر ابن
الشريف باهله واولاده الى نواحي تلمسان ثم لحق بجبل بني يزناسن من اعمال المغرب
الاقصى ولا زال مقيماً فيه الى ان مات فرجع اهله واولاده ونزلوا في حمى سيدي الجد
بالقيطنة لائذين به فعفا عنهم الباي حفظاً لذمته ورعايةً لمقامه واذعن الناس
للحكومة وتسابقوا للدخول في طاعتها وذهب ابن الشريف وطوى بساطه ثم خرج الباي
من معسكر لتمهيد البلاد فاخذ ضرائبها وجبى اموالها وقفل الى وهران وثبتت قدمه في
ولايته سمعت سيدي الوالد يقول انما لم ينجح ابن الشريف في امره لكونه كان ممقوتاً
عند سيدي الجد فمقته الناس وبعد رجوع الباي الى وهران توجه اليه سيدي الجد
ليهنئه بانتصاره فاكرم نزله واعظم وفادته ولما انطلق من عنده قال الباي الى جلسائه
نحن لا نخشى من ابن الشريف وامثاله وانما نخشى من صولة هذا يشير الى سيدي

الجد رحمه الله تعالى .

ذكر اخبار ابن الاحرش

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين والف ثار ابن الاحرش في نواحي قسنطينة وهو من عرب المغرب الاقصى رحل من بلاده للحج ولما اجلب نابوليون الاول على مصر جمع ابن الاحرش جيشاً من اعراب المغربين وافريقية وانضم الى الجنود المصرية لقتال نابليون وابلى في تلك الحروب بلاء حسناً فاكتسب الشهرة ولما انقلب نابليون الى فرنسا قفل ابن الاحرش راجعاً الى المغرب واحتل بتونس ولقيه صاحبها حموده باي واكرم نزله وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر ووعده بالمظاهرة بالمال والرجال فاستكان لها ابن الاحرش وخرج من تونس الى نواحي قسنطينة ودعا لنفسه واشتدت شوكته في تلك الجهات وزحف الى قسنطينة بجموعه فخرج اليه حاكمها بجيشه ووقعت بينهما حروب انهزم في آخرها حاكم قسنطينة وترك ذخائره فتقوى بها ابن الاحرش وعظم الخوف عند الباي ففر الى تونس باهله واولاده واتصل الخبر بمصطفى باشا والي الجزائر فاحضر عثمان باي ابن محمد باي وبعثه حاكماً على قسنطينة وفوض اليه في مدافعة ابن الاحرش وبوصوله اليها كتب الى رؤساء القبائل الدائنين بطاعة ابن الاحرش يهددهم ويخوفهم عاقبة امرهم واخذ يتهيأ للحرب وخيم خارج البلد في سطح المنصورة واستجاش بمن بقي من القبائل متمسكاً بطاعتهم وارتحل نحو ابن الاحرش وعسكر في سهل وادي الزهور فامر ابن الاحرش بالنهر فسد ثم اطلق على المعسكر اول الليل فما طلع الفجر الا والماء قد عم السهل كله وهجم عليهم ابن الاحرش بجموعه فاستلحمهم وقتل الباي وكان الباي لما خرج من قسنطينة استصحب معه جميع ما في الخزائن من الاموال والذخائر فاستولى عليها ابن الاحرش وامتلأت ايدي جيوشه من المغانم ثم ان باشا الجزائر فوض الامر الى قائد الخشنة وولاه على قسنطينة وكان هذا القائد له مصاهرة مع العرب فاستجاش باصهاره وعبى كتائبه وبرز من قسنطينة لمدافعة ابن الاحرش فانهزمت جيوش ابن الاحرش وتفرقت وفر بنفسه ولحق بابن الشريف في الجهة الغربية وبقي في معيشه الى ان دس له من قتله من اصحابه

ذكر غير ذلك

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين دخل يحيى آغا على رئيس اليهود في الجزائر وقتله

في منزله ولما رأى الناس اهمال الحكومة للامور وتغافلها تداعوا في ثاني يوم الى استئصال اليهود ونهب اموالهم فاجتمعوا ودخلوا الى محلة اليهود فاثخنوهم قتلاً واكتسحوا اموالهم وجمعوا اشلاءهم خارج البلد واضرموها نارًا ثم امر الباشا بالقبض على كل من ثبت حضوره في هذه الفعلة فامتلأت السجون بهم وامر ان يُصلب منهم كل يوم عشرة انفس فصلبوا عن آخرهم وفي سنة عشرين ومائتين ثار العسكر على الباشا ونقموا عليه سوء معاملته لهم وقتلوه في الزقاق وتولى احمد خوجه فاطلق ايدي العسكر في الرعايا فكثر الفساد وكان في قلبه شيء على عبدالله باي حاكم قسنطينة فقتله واستصفى امواله ومدّ يده الى الخزينة فباع جميع ما فيها من النفائس وحمله الى دار سكناة وبعث الى حموده باي حاكم تونس في دفع الضريبة المفروضة على حكومة تونس لحكومة الجزائر فاستنكف ونقض العهد فجهز اليه القبطان حميدُ وفي الاسطول فغنم ثلاثة مراكب تونسية بما فيها ثم اغزى جيوشه الى تونس على طريق البر فلقيهم حموده باي بجموعه فاوقعوا به واستولوا على معسكره وفي سنة ثلاث وعشرين تزاحف الفريقان واقتتلوا بنهر سراط فكانت الهزيمة على حموده باي ايضًا وبعد رجوع العسكر الى الجزائر اظلم الجو بينهم وبين احمد باشا فثاروا عليه وقتلوه وسحبوه في ازقة الجزائر اهانة له ثم تولى ابو الجوالق فامر بنفي القبطان حميدو الى الشام وفي سنة اربع وعشرين ومائتين والف تغلب علي باشا على ابي الجوالق وقتله خنقًا وتولى مكانه واعاد القبطان حميدو من الشام فاكرمه ورفع رتبته وفوض اليه امر البحر ثم اغزاه الى جبل طارق فلقي مراكب البورتغال فغنم منها مركبًا واغزاه الى صقلية فامتلأت مراكبه بالغنائم وفي سنة خمس وعشرين اغزاه الى جربة من اعمال تونس فاستولى عليها وطار الخبر الى حموده باي فجهز ثلاثة عشر مركبًا وبعثها الى جربة لقتال حميدو فلقيهم بالقرب من جزيرة قرقنه وانتشبت الحرب بينهم فكانت الدبرة على مراكب تونس وفي سنة ست وعشرين اغزاه الى تونس واحتل بحلق الواد وتاخر حموده باي عن اللقاء وانحجر داخل الحضرة فاقام حميدو اياماً ثم اقلع راجعًا الى الجزائر وفي سنة سبع وعشرين اخذ الباشا يتأهب لمنازلة تونس وبعث الى حكام الولايات في جمع الجيوش والنهوض بها الى حضرته فتغافل حاكم وهران واظهر الاستبداد فوجه لها الباشا وسير عمر آغا في جيش على طريق البحر الى وهران وكان اعيانها قد انحرفوا عن حاكمهم ونقموا

عليه ما اظهره من الاستبداد وكان اعيان الدوائر والزمالة اوقعوه في هذا الامر وزينوه له ووعدوه بمظاهرة الرعية وهو يومئذٍ مخيم بهبره فلما انقلب الى وهران قام عليه الجند واعيان البلد وقبضوا عليه وبوصول عمر آغا الى وهران سلموه اليه فذبح اولاده على صدره وهو ينظر اليهم ثم سلخه وحشى جلده قطناً وارسله الى الجزائر نعلق على باب الجديد منها واستصفى امواله ثم اخذ يتأهب لحرب حاكم تونس فجمع الجيوش وسار بهم وكانت جموع تيطرى وقسنطينة تنتظره بالقرب من التخوم لان الباشا فوض اليه امر الحرب فنهض بالجموع الى تونس ولما تجاوز حدودها اتصل به ان الاسطول الجزائري بعد ان ارسى في حلق الواد اياماً انقلب راجعاً من غير طائل وفي سنة ثمان وعشرين خرج القبطان حميدو غازياً على الثغور الافرنجية فصادف في طريقه مراكب كثيرة للدانمارك فاستولى عليها وفي هذه السنة انعقدت المدنة بين حكومة الجزائر ودولة البورتغال على ان تؤدي دولة البورتغال للحكومة مليونين ونصف مليون فرنك وان تنقدها فدية اسراها وفيها سار القبطان حميدو غازياً الى ثغور اليونان فاثخن فيها بالقتل والاسر وغنم عدة مراكب لهم وانقلب راجعاً فرفع ملك اليونان امره الى السلطنة السنية فبعثت الى باشا الجزائر توبخه على ذلك وامرته برد جميع ما اخذه لليونان وفي سنة تسع وعشرين اتصل به ان اليهود لبسوا نساءهم الثياب الخضر فقبض على اعيانهم وقتلهم واحرقهم وكان هؤلاء الاعيان اكلوا اموال الناس بانواع الحيل والدعاوي الباطلة فالزم الباشا اقاربهم بدفع جميع ما ثبت عليهم وفي سنة ثلاثين ومائتين اتفق عمر آغا وكان عزل عن وهران مع عبدالله وكيل الخرج على قتل الباشا فدخلوا عليه وهو في الحمام فذبحوه وتولى محمد الخزناجي وهو في سن التسعين وكان محبوباً عند اهل الجزائر وفي اليوم السابع عشر من ولايته دخل عليه عمر آغا في محله فقتله وتولى مكانه فاغزى القبطان حميدو الى جبل طارق فصادف مراكباً لدولة امريكا فصادقوه القتال وكانت الدبرة عليه فقتل هو وجماعته وغنم الامريكانيون مراكبه ثم آل الامر بعد ذلك الى انعقاد الصلح بين الفريقين وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين جهز الانكليز وهولانده عمارة مختلطة بينهم لنظر اللورد اكسمون وبعثوه الى الجزائر ولما وصل اليها كتب الى عمر باشا انا اللورد اكسمون قائد العمارة الانكليزية الهولاندية اعلن لك انني لا ارغب في سفك الدماء ولا ارضى بخراب البلاد ولكن اطلب معاهدة مربوطة بشروط اولها اطلاق الاسارى عموماً من غير استثناء ثانيها ارجاع ما دفعته

لكم سردينيا ونابولي في السابق عن اسراهم ثالثها ابطال عادة الاسر بالكلية رابعها ان تكون هذه الشروط بعينها جارية بين حكومة الجزائر وباقي الدول فاجابه عمر باشا بقوله لا جواب عندي الا الضرب بالمدافع وفي الحال امر باطلاق القنابل على العمارة وانتشب الحرب بين الفريقين الى المساء وفي صبيحة اليوم الذي يليه شبت النار في المراكب الهولاندية ولاتصال بعضها ببعض مع شدة الهواء احترقت عن آخرها واتصلت النار ببعض مراكب الانكليز وهاج البحر وتلاطمت امواجه فاقلع اكسمون بما سلم من عمارته وتوغل في البحر ولما سكن رجع الى الجزائر وخاطب الباشا بخطابه الاول فقبل شروطهم وانعقد الصلح بين الباشا واكسمون ولما شاع هذا الخبر في الجزائر ثار الجند على عمر باشا ونقموا عليه قبول الشروط الانكليزية فقبضوا عليه وقتلوه خنقاً وولوا مكانه علي خوجه سنة اثنتين وثلاثين ومائتين والف فاشاع النكير على اعيان الحكومة واكثر من قتل الاتراك وجعل بطانته من العرب واخذ الناس بالارهاب والسطوة واظهر الميل الى العمل بالشريعة المطهرة والقيام بوظائفها واعلن بالمحافظة على الصلوات في اوقاتها ومن وجد في دكانه بعد الاذان يجلد واشتدت وطاته على المتحرفين عن الشريعة حتى توفي بالطاعون ثم ولي حسين كاتب الخيل واستقر له الامر وفي سنة اربع وثلاثين وقع الصلح بينه وبين صاحب تونس بامر الدولة العلية وفيها عزل حاكم وهران محمد باي ابن محمد باي ابن عثمان الكردي فاتح وهران وتولى مكانه حسين باي

ذكر قيام السيد محمد التجيني

اصله من بني توجين امراء تاهرت وكان والده السيد احمد زاهداً عابداً صاحب طريق وله مريدون واتباع ولما شاع امره في وطنه وخاف من غوائل الحكومة انتقل باهله واولاده الى فاس في ايام سلطانها مولاي سليمان العلوي واقام بها الى ان توفي فقام بامر الطريق بعده ابنه السيد محمد ورجع الى بلدهم عين ماضي وهي في الجنوب الشرقي من اعمال وهران وكانت حكومة الجزائر ترهب سطوته وتتوقع خروجه عن طاعتها وفي سنة اربعين ومائتين رحل من بلاده للحجاز براً واتصل الخبر بحسين باشا فبعث الى حاكم قسنطينة في القبض عليه فافلت منه وبعد رجوعه الى وطنه دعا الناس الى طاعته والخروج عن دعوة الحكومة فوافقته اهل تلك النواحي ونهض من بلده الى

نواحي معسكر فلاذ الحشم ومن اليهم بطاعته وخرج حسين باي حاكم وهران في جيوشه وتزاحف الفريقان خارج معسكر من جهة غريس وعند المصاف تقهقر الحشم ومن وافقهم وانفرد التجيني في ثلاثمائة مقاتل من قبيلة الاربعاء فعقلوا انفسهم كما تعقل الابل وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم و بعث الباي براس التجيني الى الجزائر فعلقت على بابها وارسل سيفه الى السلطان الغازي محمود خان وفي هذه السنة عزل حاكم قسنطينة وولى احمد بن احمد الشريف وهو اول من تولى من العرب على ولاية في الجزائر واطلق عليه لقب باي

﴿ ذكر ما كانت تؤديه الافرنج لحكومة الجزائر من الهدايا والاموال ﴾

اعلم ان حكومة الجزائر وان كانت قليلة العدد والعدد فقد كانت لها اليد الطولى في البحر الرومي وكانت بعوثها وغوازيها كثيرًا ما تسم الثغور الافرنجية بالخسف والدمار ولذا لاذ اكثر ملوكهم بمسالمتها واذعنوا لما تفرضه عليهم دفعاً لعاديتها فكانت دولة انكلترا تؤدي لها ستمائة ليرة انكليزية في كل سنة ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حربية قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو وهدايا نفيسة ودولة هولاندا ستمائة ليرة فرنساوية ومملكة سيسيليا اربعة وعشرين الف ريال شينكو وهدايا قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو ومملكة سردينيا ستة آلاف ليرة فرنساوية والولايات المتحدة باميريكا آلات ومهمات حربية قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو وعشرة الاف ريال نقدية وهدايا تحضرها قناصلها معها والبورتغال هدايا بهية واسوج ونروج الات حربية وذخائر بحرية تساوي قيمة وافرة وهنوفر وبرام من المانيا ستمائة ليرة انكليزية واسبانيا هدايا نفيسة وربما حاول بعضهم في بعض الاحيان مقاومتها وتحرك الانتقام منها فلا يصادف نجاحاً فيضطر الى مسالمتها

﴿ ذكر تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر ﴾

ان الفتن في اوروبا منذ زمان لم تخمد لها نار واشدها اضطراماً ما كان منها في ايام نابليون الاول ولما سكنت بانعقاد الصلح بين الملوك وكان الفرنسيس يغصون بهذه الحكومة ويتربصون بها الدوائر حتى اتفق لقونصلهم مع حسين باشا الحصام الذي ادى لاهانة القونصل حين عقدوا معاهدة تجارية في اصناف الحبوب

مع الحكومة فتقرر لها في ذمتهم اموال طائلة وقارن ذلك حدوث الاضطراب في فرنسا وقيام الامة على ملكهم فتأخر اداء تلك الاموال نحو العشرين سنة ولما خمدت الفتنة جددوا المعاهدة مع الحكومة سنة خمس وثلاثين ومائتين والف هجرية وتسع عشرة وثمانمائة والف ميلادية ومن فصولها ان دولة فرنسا تؤدي للحكومة الجزائرية سبعة ملايين فرنك على يد وكيليها يعقوب كوهين بكري وميخائيل ابي زناك اليهوديين والاداء يكون منجماً اول سنة ست وثلاثين ومائتين والف هجرية وعشرين وثمانمائة والف ميلادية وكان لتجار فرنسا من اهل مرسيليا على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة الف فرنك فرفعوا امرهم الى دولتهم وطلبوا منها ان تنقد لهم اموالهم من اصل السبعة ملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر فادت دولة فرنسا للحكومة اربعة ملايين ونصف مليون وابقت ما ادعى به تجارها في صندوق الامانة وامرت ان تجري دعوى تجارها مع غرمائهم من اهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز فغضب الباشا لذلك وطلب اداء الاموال المحكوم له بها كلها وان تكون مرافعة التجار والغرماء في مجلس الجزائر وادعى ان الحق له في ذلك بموجب العهود التجارية بين الحكومة وسائر الدول وطال النزاع واستمرت فرنسا مصرة على امرها والباشا يطلب الجواب من قنصل فرنسا الجنرال دوفال فيحاوله بالمواعيد وفي اول يوم من شوال سنة ثلاث واربعين ومائتين والف دخل القنصل دوفال على الباشا لاداء التهنئة بعيد الفطر فشكا له الباشا عدم رد الجواب من ملك فرنسا على كتاب قدمه له فقال له ليس من العادة ان يجاوب الملك من هو دونه بدون واسطة ففهم الباشا من ذلك ان مراد القنصل ان الملك لا يعتني بمجاوبة مثله فاشتد غضبه ولطم القنصل على وجهه بمروحة كانت في يده فعظم ذلك عند القنصل وطير الخبر الى ملكه فجاءه الامر بمبارحة الجزائر فبارحها بمن معه من الفرنساويين المقيمين في الجزائر ثم ان الباشا عدا على من تأخر في البلد من ضعفائهم فاستاصلهم وخرب قلعة دي لاكار وكل بناء للفرنسيس في الجزائر و بونه و بوصول القنصل الى باريز جهزت دولة فرنسا اساطيلها و بعثتها الى الجزائر لنظر الاميرال كوليت فنازلها يغاديها القتال و يراوحها واستمر محاصراً لها نحو ثلاث سنين حتى لانت قوته ونفدت ذخائره وانقرض معظم جيشه وتكسرت اكثر مراكبه وكانت خاتمة امره بقتله ذكر بعض المؤرخين ان النفقة على هذه الحملة كانت اكثر من عشرين مليون فرنك واما حكومة الجزائر فلم يلحقها كبير ضرر ولما علم حسين باشا ان دولة فرنسا لا ترفع يدها عن الجزائر وانها تراجع

منازلتها لا محالة اخذ في تثقيف البلد وتحصين حوزتها ثم انتقل باهله وحاشيته الى القصبة وفي سنة خمس واربعين ومائتين والف هجرية وتسع وعشرين وثمانمائة والف ميلادية بعثت دولة فرنسا معتمدها دي لابر الى الجزائر يطلب الترضية من الباشا فلم يلتفت اليه ورده وبعد اقلاعه اطلقت عليه القنابل من برج المرسى واتصل الخبر بملك فرنسا، ففاوض اهل دولته فوسطوا محمد علي باشا خديوي مصر ان ينصحه فارسل له كتاباً ينصحه ويحذره ويعلمه به بان العاقبة وخيمة فلما قرأه حسين باشا قال للرسول بلغه سلامي وقل له يا كل الفول ولما وصل هذا الجواب الى الخديوي عرف الحكومة الفرنسوية بعدم تاثير نصيحته له فاجمعوا على حرب الحكومة الجزائرية ومناجزتها فجمعوا جنودهم وكانوا اربعة وثلاثين الفاً مع مائة واثنى عشر مدفعاً واستاجروا اربعمائة مركب وسيرتها من طولون الي الجزائر لنظر الاميرال دوبري في احدى وعشرين ذي الحجة سنة خمس واربعين ومائتين والف هجرية والتاسع عشر من يونيه سنة ثلاثين وثمانمائة والف ميلادية نعدل بها عن مرسى الجزائر الى مرسى سيدي فرج القريبة من الجزائر وكانت خالية من العمران الا شرذمة قليلة من العسكر كانت في برج هناك فلما اطلت عليهم مراكب فرنسا تفرقوا وبوصول العمارة الى المرسى اخذت الجنود تنزل الى البر بمهماتها ورفعوا رايتهم على البرج واتصل الخبر بباشا الجزائر فارسل في المدائن والضواحي ينادي بالجهاد وعقد لصهره يحيى آغا على قتال العدو فنهض من الجزائر في الحشود والعساكر والتحم القتال بين الفريقين فكانت الدبرة على الاغا وجموعه ثم تلاحقت الجيوش من وهران وقسنطينة وتيطرى وزحف بهم الاغا في السابع والعشرين من ذي الحجة على معسكر الفرنساو بين وحملوا عليه حملة رجل واحد واستمروا حتى ادخلوه الخيام ووضعوا راياتهم على الاستحكامات فبهت الفرنسيس من تلك الحملة وتراجعوا وعززتهم فرقة الطوبجية وردوا الكرة على الجيوش الجزائرية فاخرجوهم من المعسكر وهزموهم وتبعهم العدو الى ان ادخلهم معسكرهم في استاوالي ثم اخرجهم منه واستولى عليه بما فيه من الذخائر والمهمات وعرف ذلك اليوم بيوم استاوالى واجتمع في الجزائر حشود العرب والبربر للنهب والسلب بدعوى الجهاد وفي الثالث من محرم سنة ست واربعين ومائتين والف الموافق للخامس والعشرين من يونيه سنة ثمانمائة وثلاثين نهض يحيى اغا من الجزائر بتلك الحشود وانتشب الحرب بينه وبين الفرنساو بين فانهزم يحيى اغا وحشوده فتعقبهم العدو الى ان تجاوز استحكامات ابي جارية واستولى عليها بما فيها من المدافع والمهمات

وخيموا عندها وقوى طمعهم في الاستيلاء على الجزائر وفي صبيحة ثامن المحرم ارتحلوا من ابى جارية وضربوا معسكرهم في اطراف البساتين وفي عاشر المحرم اطلوا على البلد وسلطوا عليها المدافع واخذوا يعقرون الاشجار و يعفون الآثار واخذت النار في برج مولاي حسن وكانت فيه خزينة البارود فاحترقت وتطايرت حجارة البرج على البلد فدمرت المنازل ومات خلق كثير تحت الردم وعظم الكرب في مدينة الجزائر واستولى القلق على اهلها وتنبه حاكمها من غفلته ولما علم انه قد فاته التدارك استأمن لنفسه واهله وجميع الاهالي فامنه قائد الجنود الفرنساوية المارشال على شروط وقع الاتفاق عليها

ذكر المعاهدة الواقعة بين قائد العسكر الفرنساوي بورمون
وبين حسين باشا في الثالث عشر من المحرم سنة
ست واربعين ومائتين والف هجرية والخامس
من يوليه سنة ثلاثين وثمانمائة والف ميلادية

اولاً كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائر وابواب المدينة تسلم للعساكر الفرنساوية في صباح السادس من يوليه الساعة العاشرة ثانياً يتعهد القائد العمومي الفرنساوي ان يترك للباشا امواله المختصة به ثالثاً ان يكون لحضرة الباشا الحرية بان يتوجه مع عائلته وامواله الى المحل الذي يرغبه وفي مدة اقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي وان الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص رابعاً ان القائد العمومي يمنح هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية خامساً تعطى الحرية الديانة المحمدية وللمكاتب الاهلية ولديانتهم ولاملاكهم ولتجارتهم واصنائعهم وان لا يعارضوا في ذلك وان نساءهم محفوظات معتبرات سادساً ان مبادلة هذه المعاهدة تكون غداً الساعة العاشرة صباحاً وتدخل العساكر قلعة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشطوط البحرية وفي الغد صباح اليوم السادس من يوليه والثالث عشر من المحرم سنة ست واربعين ومائتين والف في الساعة التي وقع عليها الاتفاق دخلت جنود فرنسا من الباب الجديد في اعلا المدينة وانزلت رايات الدولة العثمانية من القصبة والابراج وارتفعت رايات فرنسا عليها وتفرقت الجنود الفرنساوية في البلد وتم استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر و بلغوا امنيتهم التي

كانوا يتمنون الحصول عليها منذ سنين عديدة غير مبالين بوفاء المعاهدة ولا ملتفتين للقيام باعباء المعاقدة وانقرضت الحكومة الجزائرية وانتثر سلكها وكانت مدتها فيها ثلاثمائة وخمساً وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً تقريباً ولله عاقبة الامور وبعد استقرار العساكر الفرنساوية في المدينة انتقل الباشا وارباب الحكومة الى خارج البلد وخلفهم فيها رؤساء الجنود الفرنساوية وشاع امر الجزائر فاهتزت له المشارق والمغارب وعد عند المسلمين من اعظم النوائب ولو كانت حكومة الجزائر مستعدة لحماية حوزة بلادها آخذة بالحذر من مباغتة العدو لها وكانت جنودها كاملة الاستعداد متمرنة على الحروب عالمة بطرقها ما وصل عدوها الى مرغوبه منها في اقرب مدة وعلى ايسر وجه ولكن استيلاء الكبر والعجب والتعاظم علي رجالها مع ما بلغوه من البذخ والترف اداهم الى اهمال الامور وعدم الاكتراث بها كما وقع بالاندلس ليقضي الله امراً كان مفعولا

ذكر اخبار الفرنسيس بعد استيلائهم على الجزائر

اول ما ابتدأ به قائد الجنود الفرنساوية في الجزائر رتب مجلساً من رؤساء الجنود لضبط خزائنها من الاموال والجواهر والمهمات الحربية والذخائر فتحصل من من ضبطهم على ما قيل من الذهب والفضة وقيمة الجواهر ثمانية واربعون مليوناً وستمائة الف وثمانون الفاً وخمسمائة وسبعة وعشرون فرنكاً ومن الصوف والحنطة والشعير وغيرها ما يبلغ قيمة ثلاثة ملايين من الفرنك ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب مع ثمن الاملاك الاميرية داخل البلد وخارجها ما قيمته خمسون مليوناً من الفرنك ثم حمل الباشا مع اهله واتباعه الى نابولي بطلب منه فاقام فيها مدة ثم انتقل منها الى الكورنه ثم الى الاسكندرية ولما وصلها احتفل به محمد علي باشا واطلعه على المهمات الحربية وغيرها وصنع له مأدبة حضرها الاعيان واكابر البلدة وفي اثناء الطعام اثنى حسين باشا على الخديوي ومدح اعماله وهمته في اعمار مصر وترقيها فاجابه الخديوي بقوله يا حضرة الباشا ان جميع ما رايته واستحسنته كان منشؤه من اكل الفول وكان ذلك منه تذكاراً له فيما سلف من الجواب عند قراءة الكتاب فتغصص حسين باشا وتوجه لمحله متالماً وبعد ايام قليلة توفي سنة اربع وخمسين ومائتين والف هجرية ولما كثر الهرج بين الانكشارية والجيش الجزائري جمعهم القائد العمومي وحمل اكثرهم الي نواحي ازمير ورخص للاغنياء منهم في الاقامة بالجزائر ريثما يبيعون

عقاراتهم وامتعتهم وبعد فراغهم من اشغالهم حملهم الى جهات مختلفة ودوّن الدواوين وجند من اهل المدينة جندًا بلديًا وبنى قواعد حكومتهم في الجزائر على اظهار الهيبة ومراعاة امور الشريعة الاسلاميـة واحترام المساجد وتعظيم العلماء وحرية العوائد وتلطف ما شاء في امالة القلوب اليهم وبذل الاموال ترغيبًا حتى يلين اليهم القويّ ويدخل في طاعتهم الابيّ وظن ان سياسته هذه كافية في الاستيلاء على سائر المغرب الاوسط ولم يعلم ان دون ما اراد خرط القتاد وقد ظهر لهم بعدحين ان في عين اليقين حروبًا يشيب لها الوليد ويضعف لديها القوي الشديد الى ان نالوا غاية مطلوبهم وحصلوا على نهاية مرغوبهم وذلك تقدير العزيز العليم

﴿ ذكر خروج الماريشال بورمون الى البليدة ورجوعه مهزومًا ﴾
﴿ وما جرى بعد ذلك من الحوادث ﴾

بعد ان اتمّ القائد العمومي اشغاله الابتدائية في الجزائر خرج منها ثالث صفر سنة ست واربعين ومائتين والف الموافق للخامس والعشرين من يوليه في طائفة من الجند الى البليدة فتلقاه اهلها وادوا طاعتهم ودخل البلد وكان ابو مرزاك التركي حاكم تيطرى قد دعاه اليها ووعده بطاعة اهل تلك النواحي ولما شاع الخبر تداعى الناس الى الجهاد ونادوا به في جبال متيجة القريبة من البليدة فهرعوا اليها وصمدوا للمهاجمة وفي غلس اليوم الثالث من دخول القائد العمومي اقتحموا البلد واستاصلوا اكثر الجند الفرنساوي وفرّ القائد فيمن افلت من الجند الى الجزائر فدخلها على اسوأ حال وشاع خبر هذه الواقعة فاكبرها الناس واستخفوا امر الفرنسيس وفسدت قلوب اهل الجزائر عليهم وضعف ما كان عندهم من الهيبة لهم وانحط قدر القائد بينهم وقارن ذلك الاضطراب الواقع في الجزائر بين الجنود البرية والبحرية في دعوى التغلب على الجزائر فكل فريق ادعى ذلك واتصل بهم ان الامة في فرنسا ثاروا على الملك وخلعوه وابدلت الدولة الملكية بالدولة الجمهورية وكان القائد من حزب الملكية فايقن بالعزل وبعد ايام حضر الامر بعزله وتعيين الجنرال كلوزيل حاكمًا على الجزائر وبحضوره باشر الاحكام وسافر الماريشال بورمون الى مالقة من بلاد الاندلس مستصحبًا قلب ولده المقتول في معركة سيدي خلف بالجزائر ثم ان الجنرال كلوزيل طمحت عينه الى الاستيلاء على امصار القطر فبعث الى حاكم وهران وحاكم قسنطينة يدعوهما لطاعة دولته فاجابه صاحب وهران الى

ذلك واخذ اهلها في الخروج منها الى تلمسان ومعسكر وغيرهما ولم يتخلف فيها الا الحاكم حسين باي وجنده وطير خبره بالاجابة على ان يؤمنه الجنرال كلوزيل على نفسه واهله ومن معه فاسعفه الجنرال بذلك وسير ولده الاكبر في عدة مراكب حربية اليه فدخل وهران واستلم زمامها من يد حسين باي في تاسع رجب سنة ست واربعين ومائتين الموافق خمسة وعشرين دسمبر سنة ثلاثين وثمانماية والف ميلادية وذلك بعد ستة اشهر من دخول الجزائر ثم لحق حسين باي ومن معه بالجزائر وعومل بما عومل به حسين باشا ولما بلغ احمد باي حاكم بسكره امر الجزائر جمع الجيوش وزحف الى قسنطينة حاضرة الولاية فخرج اليه حاكمها محمود باي ابن جاقر باي فدافعه عنها الى ان وقع الخلل في جيشه وتفرق عنه ودخل احمد باي الى الحاضرة وفر محمود الى جبال البربر فاغتاله بعضهم وساق رأسه الى احمد باي ثم وصله رسول الجنرال بكتابه يدعوه الى طاعة فرنسا فقتله ومزق الكتاب فاستشاط الجنرال غيظًا وارسل الكونت دي مريمون في الاسطول الى بونة وكان عاملها من قبل احمد باي قد نفرت من ظلمه قلوب اهلها فلما اطل عليهم اسطول فرنسا اظهروا له اشارة السلم وفر العامل ومن كان معه من الحامية ولحق الجميع بقسنطينة وتقدم دي مريمون الى البلد فاستولى عليها وقبل الاستيلاء على وهران وبونة انتقض ابو مزراك والي تيطرى ونكث طاعة فرنسا وجاهر بالحرب فخرج اليه كلوزيل من الجزائر في ثامن عشر نوفمبر سنة ثلاثين وثمانمائة والف واقام اياماً في البليدة ثم سار قاصداً المدية حاضرة ولاية تيطرى وزحف اليه ابو مزراك في جموع العرب والبربر فالتقى الجمعان بثنية موازيه واشتد القتال فانهزم ابو مزراك وجموعه واستمر كلوزيل سائرًا الى الحاضرة فدخلها في الثالث والعشرين منه وتلقاه اهلها مطيعين فولى عليهم مصطفى بن عمر وفي اثناء اقامته في المدية استامنه ابو مزراك على نفسه فامنه ولما حضر عنده اعتقله وكر راجعاً به الى الجزائر ومر في طريقه بالبليدة فوجد القبائل المجاورة لها قد دخلوها واستاصلوا الحامية الفرنساوية ونهبوا الذخيرة فاستمر سائرًا الى وجهه الى الجزائر موقنًا بانه لا طاقة له على اذعان القبائل والشعوب الجزائرية وان جيوشه غير كافية في حملهم على الطاعة مع ما عليه فرنسا من الارتباك واختلاف الكلمة بين الاحزاب الملكية والجمهورية فاستجلب دي مريمون وجنده من بونة لما علم انه لا يجلب الناس الى طاعة فرنسا الا امراء منهم او من الاتراك فولى مصطفى بن عمر

على مدينة المدية وبعث الى صاحب تونس حسين باشا من اولاد حسين بن علي يطلب منه بعض المترشحين للولاية من عائلتهم فبعث اليه من اختاره من اقاربه فولاه على مدينة وهران في اوائل فبراير سنة احدى وثلاثين بعد ان اشهد على نفسه انه فرنساوي وادّى يمين الامانة على ذلك ثم اخذ يدس الى الاتراك القاطنين في مدن الداخلية كتلمسان ومعسكر ان الفرنسيس اجمعوا على ان يجعلوا في الجزائر حكومة تركية تكون تحت حمايتها وبعد تأسيس امورها يتخلون عنها ويسلمون امورها اليهم وجعل توليته على وهران دليلاً على صدق خبره فركنوا الى قوله وبعثوا اليه بطاعتهم سرًّا ثم فشا خبرهم وانتشر ذكره فقامت عليهم الاهالي في كل جهة واستاصلوا الكثير منهم واعتصم اتراك تلمسان بقلعة المشور ثم عزل كلوزيل عن سخط من دولته ولحق بفرنسا وتولى الجنرال تريزين وتعين الجنرال بويه حاكماً على وهران وبوصوله اليها رجع التونسي الى اهله فعلم العرب ان اشاعة التونسي محض سياسة من الفرنساو بين لتفريق الاتحاد فكفوا عن الاتراك وسالموهم ورجع الامر الى ما كان عليه من الاتحاد وجمع الكلمة على الجهاد وكان ابن ابي مزراك بلغه ان كلوزيل اشخص والده الى الاسكندرية منفياً فثار في محله من تيطري ودعا الناس الى الجهاد وجمع الجيوش ونازل المدية وضيق على اهلها فطار الخبر الى الجنرال برتزين فسير جيشاً لانقاذ عاملهم مصطفى بن عمر فتعرض لهم ابن ابي مزراك بالقرب من البلد وناوشهم القتال ثم تمكنوا من دخولها وانقلبوا بعاملهم وحاميتهم راجعين الى الجزائر ولما احتلوا بمضايق جبال موزايه احاطت بهم جموع القبائل تحت راية ابن ابي مزراك والتحم الفريقان واستمر القتال في حال سيرهم واقامتهم الى قرب الجزائر ووقع الفشل في عساكر فرنسا فقتل اكثرهم وانتهبت اثقالهم ولم يصل الى الجزائر الا القليل منهم ثم ارتدّ ابن ابي مزراك بجموعه الى المدية فاستولى عليها واستمر فيها الى ان استولى عليها سيدي الوالد رحمه الله وكانت هذه الواقعة نزلاً للجنرال تريزين في داخلية الجزائر وفي تلك الايام ظهر الحاج علي بن السعدي في جبال زواوه ودعاهم الى الجهاد واجتمعت كلمتهم عليه وكان الجنرال برتزين بعد واقعة المدية جمع اعيان الجزائر وامرهم ان يختاروا منهم من يصلح للولاية على العرب والبربر في داخلية البلاد ويكون واسطة في ميلهم الى طاعة فرنسا فوقع اختيارهم على السيد محي الدين بن السيد علي مبارك لشهرته في تلك النواحي فولاه الجنرال ولقبه آغة العرب على اصطلاح الحكومة الجزائرية

فخرج الى قريته القليعة على مسافة قريبة من الجزائر وبث رسله في القبائل يدعوهم الى الطاعة وبينما هو كذلك اذ عصفت ريح ابن السعدي وشاع انحداره من جبال زواوه الى سهل متيجه فاضطرب امر الآغا ولم يسعه الا اتباع السعدي فتوجه اليه بمن معه من القبائل واتخذها يدًا عنده فاكرم نزله ثم زحف ابن السعدي بجموعه الى الجزائر وخيم بوادي الكرمه على مسافة ساعتين منها وعاث جيشه في اطرافها واضطرب الجنرال برتزين ثم خرج بجنوده اليهم فاوقع بهم اولاً ثم رجعت الكرة عليه فانهزمت جيوشه وارتدوا على ادبارهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى ان دخلوا الى المدينة وامتلأت ايدي الناس بالاسلاب والمهمات ورجعوا الى وادي الكرمة ثم زحفوا على المدينة ووصلوا الى باب عزون احد ابوابها فخام الجنرال عن اللقاء فانقلبوا راجعين الى اوطانهم تحت راية ابن السعدي ثم اخذ الجنرال تريزين يتلطف في استمالة القبائل بما امكنه واظهر الاغضاء عما وقع منهم فجنحوا للمهادنة معه وقدموا الآغا السيد محي الدين ابن السيد علي مبارك في عقدها فدخل الجزائر وعقدها مع الجنرال ثم رجع الى القليعة وانفتحت ابواب الجزائر للوارد والصادر من القبائل المجاورة لها ثم عزل الجنرال تريزين سنة سبع واربعين ومائتين والف هجرية واثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية وتولى الجنرال الدوك دي روفيغو واحضر معه ستة عشر الف جندي لردع القبائل وحملهم على الطاعة ولما علم ان هذه السياسة لا تجديه نفعًا عدل عن التعسف الى التلطف واقام مدة على ذلك ثم ان فرحات شيخ بلد بسكره وما يليها من ايالة قسنطينية اظلم الجو بينه وبين صاحبها الحاج احمد باي فنزع الى الفرنسيس واوفد جماعة من اقاربه الى الجنرال الدوك دوفيغو فتلقاهم بالاكرام وتقبل طاعة شيخهم ثم انقلبوا الى شيخهم بانواع الهدايا الثمينة ولما وصلوا الى طرف سهل متيجة انقض عليهم جيش من قبائل الجبل فاستفوا ما معهم وارتد الوفد راجعًا الى الجزائر فعظم ذلك عند الجنرال وبعد ان وقف على من فعل ذلك في ايام المدنة حمله الغضب على الانتقام منهم فاغزاهم قائد جيوشه فصبحهم وقتل من لحق به منهم واخذ شيخهم اسيرًا الى الجزائر وبوصوله اشهروا قتله في السوق وشاع خبر هذه الواقعة فاستكبرها الناس وحسبوها نقضًا للهدنة من حاكم الجزائر فعادوا لما كانوا عليه من شن الغارات على ضواحي الجزائر والتعرض للوارد اليها والصادر وتحرك ابن السعدي بعد سكونه ونادى في تلك الجهات بالجهاد وقامت الحروب

بين جموع المسلمين وجيوش فرنسا ووقعت بينهم عدة وقائع كانت الحروب فيها سجالاً ولما استمر القتل في اهل متيجه دخل الكثير منهم في طاعة فرنسا وارتحلوا الى قرب الجزائر وترفع الباقون الى الجبال واخذ الناس حذرهم وعلموا ان الفرنسيس لا يكترثون بنقض العهود ولا يعبئون بالوفاء بها وهذه الحوادث كلها في ايالة الجزائر وايالة تيطري واما ايالة وهران فلم تنقطع الحروب فيها مع حاكمها منذ دخلها جيش فرنسا ثم ان آغة العرب لما رأى ان الامر تفاقم بين حاكم الجزائر والقبائل اهل داخليتها وعلم انه لا طاقة له بتلافي ذلك ارتحل من القليعة ولحق بجبال بني مناد ولم يزل مقيماً بين ظهرانيهم الى ان ظهر امر سيدي الوالد في ايالة وهران وتمشت له الطاعة الى ايالة تيطرى فبادر الى الدخول في طاعته واما السيد الحاج علي بن السعدي فانه لما احس من نفسه الكبر ولحقه الضعف والضجر ترك جبال زواوه ولحق سيدي الوالد في معسكر ولم يزل مشتغلاً بعبادة الله تعالى الى ان قضى نحبه وفي اثني عشر مايو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة عرض الجنرال الدوك دي روفينو مرض الجأه الى الرجوع الى فرنسا وخلفه الجنرال افيزار موقتاً وفي ايامه تشكل القلم العربي في دوائر اقلام الحكومة وتعين له الملازم لامورسير وكان يكتب الخط العربي ثم ترقى في المناصب الى ان صار جنرالاً واشتهر في وطن الجزائر بابي هراوة وفي اول ابريل عزل الجنرال افيزار وتولى الجنرال فوارول وتمكن من مهادنة القبائل في ايالة الجزائر واستولى الفرنسيس على بسائط متيجة وسهولها وتوسعوا في مسارحها وقد انتهى الكلام على الحوادث الاولية للفرنسيس في الجزائر

﴿ ذكر حوادث المغرب الاوسط بعد تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر ﴾

اعلم ان الجزائر لما دخلت في حوزة الدولة العلية وانتظمت في سلك ممالكها ايام السلطان الغازي ياووز سليم خان على يد عروج باربروس الاول واخيه خير الدين باربروس الثاني اقامت الحكومة فيها لحماية البلاد وحفظ حقوق العباد وجرى حكمها حكم ممالك الدولة العلية لعهد السلطان احمد خان الثالث وفيه احست الحكومة بالقوة فاستبدت في احكامها وقد كان نفوذها مع استبدادها قاصراً لا يتعدى المدن والقرى واما الجبال وظواعن العرب في البادية فان لم ادارة تخصهم موكول امرها الى زعائهم ولما كانت الحكومة غير قادرة على تنظيمهم في سلك الطاعة

القت بينهم دسائس العداوة والبغضاء فتفرقت كلتهم وضعفت شوكتهم و بهذا كان استحواذها عليهم وهذه السياسة من اكبر الوسائل التي تتوصل بها الامة القليلة الاجنبية الى الاستيلاء على الامة الكثيرة الوطنية كما قيل (فرق واحكم) ولما استولى الفرنسيس على مدينتي الجزائر ووهران وتمكن منهما تفرق الناس فرقاً وسلكوا من الخلاف طرقاً وفسدت السبل ولا غرو فان سكانها عرب و بربر تختلفو الطبع والمحتد ومن شان اهل البادية اثارة الفتن لينهبوا لم ما اعتادوا عليه من الغزو لتعيشهم فترى كل فريق يترصد فرصة الوثوب على مقابله لا سيما وقد كانت الحكومة الجزائرية احكمت عرى هذه الضغائن بينهم ولما آل الامر الى ما آل اليه ازداد هيجانهم وسرى داعي الانتقام في نفوس العامة وصار كل من له ثار يحاول الاخذ به فطوي لذلك بساط الامن ووقف دولاب التجارة وتعطلت الزراعة فانتهز العدو الفرصة واكثر من شدة الغارات على الضواحي ولما اشتد الامر وكثر القتل وعظم الكرب تداعى اهل العقد والحل من الاشراف والعلماء والاعيان للنظر في من اجتمعت فيه شروط الامارة ليبايعوه فيجمع كلتهم و يقوم بشؤونهم وحيث ان سيدي الجد كان ممن اجتمعت فيه الشروط على الوجه الاكمل وكان اعصف القوم ريحاً وابعدهم صيتاً وانفذهم كلمة اجتمع الناس اليه وراودوه على الامارة فاعتذر اليهم بكبر سنه فاوفدوا جماعة من اعيانهم الى صاحب المغرب الاقصى لاتصال بلادهم بلاده فاكرم وفادتهم وعقد لابن عمه علي بن سليمان على امارة المغرب الاوسط و بعثه معهم فلقيه الناس بالطاعة واذعنوا له وسارت خيله في البلاد الى مليانه شرقاً وبث العمال وجبى الاموال فلم يحل هذا الصنيع في نظر دولة فرنسا لمنافاته لمقصودها ولم تتغافل عنه و بعثت الى سفيرها بطنجة ان يقدم على الفور من قبلها التنبيهات المشددة الى سلطان المغرب و ينذره بعداوة دولته و يتهدده بالحرب ان لم يرفع ابن عمه عن البلاد فاخذ الرعب منه كل مأخذ واسترجع ابن عمه بعد ان اقام بتلمسان نحو الستة اشهر وترك احوال المغرب الاوسط على ما كانت عليه من الاضطراب وتسلط الغوغاء فاجتمع اعيانه ورفعوا شكايتهم الى سيدي الجد مرة ثانية والحوا عليه في قبول بيعتهم له على الامارة والجهاد فابى قبول الامارة وقبل القيام بامر الجهاد فرضي القوم بذلك لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد واخذت الحشود من ذلك اليوم ترد على حضرته في القيطنة فكان ينهض بهم الى وهران ينازلها و يأخذ بخنقها وجرت بينه و بين حاكمها الجنرال بو يه حروب ظهر فيها من

اقدام سيدي الوالد وشجاعته وحسن سياسته ما قيد الابصار عليه ورشحه للامارة وجعله حريًا بها واستمر سيدي الجد مواظبًا على الجهاد بعزم لا يرده راد ولا يصده عنه صاد وله فيه وقائع كثيرة اعظمها واقعتا خنق النطاح وواقعة برج راس العين

ذكر واقعة خنق النطاح الاولى

في اواخر ذي الحجة سنة سبع واربعين ومائتين والتاسع والعشرين من مايه سنة اثنتين وثلاثين جهز سيدي الجد سرية عقد عليها للسيد عبد القادر بن زيان الزياني وبعثه لاستكشاف احوال العدو بوهران فلما قرب منها ترآى له العدو معسكرًا في ساحتها بالموضع المعروف بخنق النطاح فاقام يراقب حركاته وطير الخبر الى سيدي الجد فنهض من القيطينة وخيم بوادي سيك وارسل في الجهات ينادي بالجهاد وبعد ان تلاحق الناس به سار بهم الى ساحة وهران وخيم بالقرب من العدو وبات المسلمون يوقدون النار على التلال المطلة على البلد وفي صبيحتها زحف كل من الفريقين الى الآخر ودارت بينهما رحى الحرب واشتد البأس وكثرت القتلى من الفريقين وكان سيدي الوالد بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات ويأمرهم بالتقدم فتحامل عليه احد فرسان العدو برمحه فمرت في خلو الابط الايسر فشد عليها بعضده وهوى بسيفه على الفارس فقده نصفين ولما تولى النهار وقعت الهزيمة في عسكر الفرنسيس فولوا مدبرين واتبعهم المسلمون الى الابواب وامتلأت الايدي من اسلابهم وذخائرهم وفي هذا اليوم طعن فرس سيدي الوالد وكان اشقر اللون ثمان طعنات بحربات العدو ثم رماه احدهم بالرصاص في راسه فوقع به ولم يبال بذلك بل استقل واقفًا وثبت في مركزه الى ان قدم اليه اتباعه غيره فركبه واستمر على القتال الى ان انتصر المسلمون على عدوهم وقد اشار لذلك سيدي الوالد في مقصورته بقوله

واشقر تحتي كلمته رماحهم * مرارًا ولم يشك الجوى بل وماالتوى

ونص المقصورة

توسد بمهد الامن قد مرت النوى * وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعرّ جيادًا جاد بالنفس كرهـا * وقد اشرفت مما دعاها الى النوى
وكم قد جرت طلقًا بنافي غياهب * وخاضت بحار الآل من شدة الجوى

وكم من مفازات يضل بها القطا * قطعت بها والذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسي ضوامرًا * وتلك سهام للعدى وقعها شوى
الى ان بدت نيران اعلامنا لها * وما ضوء نيران الكرام له انزوا
ولا سيما اهل السيادة مثلنا * بنو الشرف المحض المصون عن الهوى
فقالت ايا ابن الراشدي لك الهنا * كفى فاترك التسيار واحمدوجي النوى
الا يا ابن خلاد تطاولت للعلى * وباينت ماواك الكريم وما حوى
فمن اجل ذا قد شد في ربعنا لها * عقالاً وناديناً لك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه * فمن حل فيه مثل من حل في طوى
فانا اكاليل الهداية والعلى * ومن نشر علياهم ذوي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعا * ولا فخر الا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية * تسامت وعباسية مجدها احتوى
فان شئت علمًا تلقني خير عالم * وفي الروع اخباري غدت توهن القوى
انا سفن بحر الحديث به جرت * وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحي فعج على * مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وان شئت نحوًا فانحنا تلق ماله * غدا يذعن البصري زهدًا بما روى
وانا سقينا البيض في كل معرك * دماء العدى والسمر اسعرت الجوى
الم ترَ في خنق النطاح نطاحنا * غداة التقيناكم شجاع لها لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها * بحد حسامي والقنا طعنه شوى
واشقر تحتي كلمته رماحهم * مرارًا ولم يشكُ الجوى بل وما التوى
بيوم قضا نحبًا اخي فارتقى الى * جنان له فيها نبيُّ الرضى اوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه * الى ان اتاه الفوز يرغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى * وكم رمية كالنجم من افقه هوى
ويوم قضى تحتي جواد برمية * وبي احدقوا لولا اولو الباس والقوى
واسيافنا قد جردت من جفونها * وردت اليها بعد وردٍ لقد روى
ولما بدا قرني بيمناه حربة * وكفي بها نار بها الكبش يشتوى
فايقن اني قابض الروح فانكفا * يولى فوافاه حسامي مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية * وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
نزلت ببرج العين نزلة ضيغم * فزادوا بها حزنًا وعمهم الجوى

وما زلت ارميهم بكل مهند * وكل جواد همه الكرُّ لا الشوى
وذا دابنا فيه الحياة لديننا * وروح جهاد بعدما غصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت به * غريس لها فضل اتانا وما انزوى
فكم اضرموا نار الوغى بالظبي معي * وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوا
وانا بنو الحرب العوان بها لنا * سرور اذا قامت وشائننا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتي * كنجأة موسى بالنبوة في طوى
وقد علمتني خير كفوء لوصلها * وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرًا لديَّ تبرجت * ولي اذعنت والمعتدي بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية * واسقيت ظاميها الهداية فارتوى
واني لارجو ان اكون انا الذي * ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى
بجاه ختام المرسلين محمد * اجل نبي كل مكرمة حوى
عليه صلاة الله ثم سلامه * وآل وصحب ما سرى الركب للوى
وما قال بعد السير والجد منشد * توسد بمهد الامن قد مرت النوى

وفي اليوم الثاني قفل سيدي الجد بجيوشه الى وادي سيك واقام اياماً ثم ارتحل الى القيطنة واذن للناس في الرجوع الى اوطانهم ليستعدوا لمثلها

ذكر واقعة خنق النطاح الثانية

وبعد ان استراح الناس من الواقعة الاولى اصدر الامر بالنفير الى وهران وعقد سيدي الجد اللواء لسيدي الوالد وتخلف هو لانحراف صحته فنهض الوالد الى وادي سيك وتلاحقت الجموع به ثم ارتحل الى عين الكرمة على مسافة قريبة من وهران وكان الجنرال بويه جاءه المدد من فرنسا وبلغه خبر الوالد فضرب معسكره في خنق النطاح وقسم جنده ثلاث فرق فرقتين للكفاح وفرقة للحاماة واما الوالد فانه ارتحل من عين الكرمة وعسكر بازاء العدو وقسم جنوده خمس فرق فرقتين للقتال وفرقتين للدفاع وفرقة جعلها كميناً وراء العدو ثم زحف اليه فالتقى الفريقان واظلم الجو بدخان البارود وعثير النقع فلم تطل المدة حتى كانت الدبرة على العدو فانكسرت ميمنته ووقعت الهزيمة في القلب فولوا مدبرين يطلبون ابواب البلد فلقيهم الكمين واستلحم اكثرهم ودخل الجنرال بويه الى البلد مغلولاً في شرذمة قليلة من جنده وفي هذا اليوم استشهد السيد احمد ابن عمنا السيد محمد سعيد وهو ابن خمس عشرة سنة بعد

ان ظهر من اقدامه وتحامله على صفوف العدو ما اوقف العقول وادهشها وعندما وقع عن فرسه ميتاً بين الصفوف هجم الوالد في طائفة من وجوه الابطال جعلهم ردءاً له فخرق صفوف العدو واحتمل ابن اخيه من بينهم فعجب الاعداء لهذه الحملة واعتقدوا ان القتيل امير فجمعوا حولهم وقوتهم على ان يمنعوا عنه الهاجمين ففشلوا وكان هذا الولد الشهيد من اعز اقارب الوالد اليه لحسن هديه ونجابته واستشهد في هذه الصدمة من الاعيان نحو المائة ومن الغد قفل الوالد بجيوشه المظفرة الى حضرة سيدي الجد فاعطاهم الدستور الى اوطانهم

ذكر واقعة برج راس العين

ولما انهزم الجنرال بويه واستلحم اكثر جنده بعث صريخه الى حاكم الجزائر فامده بالجند والذخيرة ثم ضرب معسكره فيما بين البلد وبرج راس العين في الجهة الغربية من وهران وبلغ الخبر الى سيدي الجد فاخذ يتأهب للحرب وبعث اوامره الى النواحي من عرب وبربر يدعوهم الى الجهاد ويخبرهم ان العدو عسكر خارج وهران في غاية مما امكنه من الاستعداد فجاء الناس الى حضرته ارسالاً وانتهي اليه ان العدو عامل على مباغتته فبعث العيون يراقبون حركاته ثم خرج من حضرته القيطنة الى وادي سيك حسب عادته وارتحل منه وعقد اللواء لسيدي الوالد فواصل سيره الى ان اطل على وهران بجنوده وباتوا ليلتهم تلك يوقدون النيران في جميع انحاء البلد معلنين بالتهليل والتكبير فسقط في يد الجنرال بويه وفاته ما كان اضمره من اخذ المسلمين بغتة ومن الغد عبى الوالد كتائبه وجعل كل قبيلة على حدتها وعين عليها قائداً منها وامر الجيوش بالزحف الى العدو فتقدموا حتى انتهوا الى البرج فانزل المشاة الى الخندق المحيط به الممتد الى البلد ورتب طائفة من الفرسان لحماية المشاة من مهاجمة العدو وباقي الجموع حملت على معسكر الجنرال وانتشبت الحرب واضطرمت نارها واخذ العدو يرسل قنابله على جيوش المسلمين كالمطر فلا يزيدهم ذلك الا شدة وتقدماً واشتد القتال وجعل الوالد يتردد بين المشاة والفرسان وسائر صفوف المسلمين يحرضهم على الثبات والصبر في مجال الموت ويذكرهم بايام الله وبينما هو كذلك اذ عدا عليه احد فرسان العدو بسيفه فحاد عن سرجه فوقعت الضربة على الفرس فوقع ميتاً لحينه فركب غيره واستمر على ما كان عليه من التحريض وبلغه ان المشاة فرغت ايديهم من الفشك فاسرع اليهم بما يكفيهم منه يومهم ذلك ولم يبال في ذهابه وايابه بقنابل

العدو المتصلة وصواعقه المتتابعة من البرج والبلد وظهر من شجاعته في ذلك اليوم ما اشتهر في اقطار المغرب واتصل القتال بين الفريقين الى الليل فبات المسلمون في مراكزهم وانسل العدو ليلاً فدخل البلد وانحجر فيها واقام سيدي الوالد محاصراً له شهراً كاملاً ثم اقلع عنه لامور عرضت له

﴿ ذكر البيعة الاولى لسيدي الوالد ﴾

لما طال على اهل الوطن الامد وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار والهدو فتارة كانوا يدافعونه عن البلاد وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد وسطا القوي على الضعيف وتطاول اللئيم على الشريف اجتمع الاشراف والعلماء واعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجد والزموه ان يقبل بيعتهم على الامارة لنفسه اولولده سيدي الوالد وحاجوه في ذلك بما اعجزه عن الاعتذار فامعن النظر في هذا الامر فرأى ان الاهتمام به واجب وتعين عليه شرعاً ان يقوم به لانه مسموع الكلمة نافذ الامر غير انه لما كان عاجزاً عن القيام باعبائه ورأى ان ولده المنوه به قد بلغ اشدّه وارهف حده وترشح للامارة وتاهل لها واستكملت فيه شروطها من المدى وعلوّ الهمة وقوة الحواس وكمال الخلق وجمال الصورة وشرف النسب وعزة القوم والقوة والفتوة والعلم والحلم والحماسة والسماحة والعزم والحزم والتحفظ والتيقظ والانقاء والارتقاء الى غير ذلك من افراد الفواضل والفضائل ومكارم الاخلاق ومحاسنها

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت * تلك الفضائل في لحم ولاعصب

وعلم انه لامندوحة له عن الاجابة والقبول اما له او لولده فحينئذٍ استخار الله تعالى وقدم ولده للامارة ومدافعة اهل الشرك متوكلاً في نصره وتاييده على مالك الملك فذهبت البشائر بذلك في اقطار الوطن وعمت انحاءه واحياءه وقبل سيدي الوالد ما انشرح اليه صدر والده من امارته قائلاً انالها انالها فكان قبوله لها دليلاً على اقبالها وتلقيها بحول الله وقوته اصل استقبالها قد ادخرها الله له في الازل وهيأه لها ثم ابرزه للقيام بها عند حلول الاجل وتباشر الناس لذلك لما راوا من اقدامه للزحف واقتحامه الصف بعد الصف وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية فاجتمع اشرافهم وعلماؤهم واعيانهم وتداعي صغيرهم وكبيرهم وخيموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون اليها للشورى بينهم

وجاء سيدي الجد في بنيه واقاربه وذويه ولما تلاحق الناس الذين يعتد بحضورهم للبيعة وجلس سيدي الوالد تحت الشجرة قام والده فبايعه على السمع والطاعة ودعا له ثم لقبه ناصر الدين وقام عمه سيدي الجد لأمه السيد علي ابي طالب وبايعه وكذا الاخوة وسائر القرابة ثم الاشراف والعلماء والاعيان والرؤساء على حسب مراتبهم وطبقاتهم بايعوه على ما بايعه عليه والده ولا يخفى ما في وقوع هذه البيعة تحت الشجرة من الاتفاق الغريب وما فيه من الاشارة الى متابعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتفاء اثره في بيعة الرضوان التي نوه الله تعالى بذكرها وعظم قدرها في القرآن بقوله لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة قال المفسرون هي شجرة ام غيلان وكان صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية نازلاً تحتها يستظل بها فبايعه المؤمنون على الموت كما قاله سلمة بن الاكوع واول من بايعه على ذلك ابو سنان الاسدي رضي الله عنه وبايع الناس على بيعة ابي سنان روي ذلك الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهذه البيعة كانت سنة ست من الهجرة وبعد ان انتهت البيعة لسيدي الوالد ركب سيدي الجد الى مدينة معسكر حاضرة الامارة ولما ان دخلها وجد السرور والبشر قد عم عامة اهلها وقد طلع على اهل الصلاح فجراً صادقاً وعلى اهل البغي والفساد نجماً طارقاً فتهلل وجه الصالحين وايقنوا بصلاح الحال وتكدر عيش المفسدين وايقنوا بالوبال في الحال وفي المآل ثم اقبل الامير بعده في جموعه وكانت زهاء عشرة آلاف فارس فبرز اهل البلد احتفالاً به واستقبلوه في الموضع المعروف بخصيبيه على مسافة نصف ساعة منها مظهرين للطاعة وشعائرها فاقبل عليهم ببشره وابتسامه قبل كلامه وبعد ان تناول من طعامهم الذي كانوا اعدّوه لحضرتــه دعا لهم وحثهم على الطاعة والتزام الجماعة ثم ركب ليدخل البلد فاطلقت المدافع وغردت الموسيقات بما يطرب المسامع ونشرت الرايات والاعلام وبرزت المخدرات من القصور تثني على الايام فدخلها على احسن حال واتم منوال ونزل في دار الحكومة فجلس على كرسيه ودخل عليه اهل البلد ومن لم يشهد بيعة غريس افواجاً افواجاً لاداء البيعة ثم قام فدخل داره وخير والدتي فقال ان اردتِ ان تبقي معي من غير التفات الى طلب حق فلك ذلك وان ابيتِ الا ان تطلبي حقك فامركِ بيدك لاني قد تحملت ما يشغلني عنك ثم خرج الى المسجد الجامع فصلى الظهر بالناس ثم خطب عليهم خطبة مبتكرة طويلة تحتوي على وعظ ووعد ووعيد وامرٍ ونهيٍ وحث على الجهاد وبعد الانصراف منه انفرد افاضل العلماء

لتحرير صك البيعة فكتبه في مجلسهم العالم الجليل السيد محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة خال الامير ونصه بحروفه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لانبي بعده الحمد لله الذي جعل نصب الامام من مهمات الدين لتصان به النفوس والاموال وتجتمع كلمة المسلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله واصحابه اجمعين وبعد فقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ونضب فيه الجهل فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر له اثر حتى ان اعداء الله الكافرين ملكوا كثيراً من بلاد الاسلام وتشتت الكلمة واختل النظام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلاً ولا من يكون للجهاد دليلاً فلجئوا الى الله تعالى وسالوه ان ييسر لهم من يقوم بامر دينهم فما وجدوا من تتفق عليه كلمة اهل الحل والعقد سوى السيد محيي الدين ابن مصطفى بن المختار لكماله وكثرة ما عنده من الاعوان والانصار فطلبوا منه ان يبايعوه على السمع والطاعة فاعتذر اليهم بكبر سنه وبعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات ووقع الحاحهم تارات ورأى ان النظر في هذا الامر قد تعين عليه واتاه بعض علماء غريس وهو من الصالحين فقال له ان اولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصر دين الله ورأى ان ولده مستعد لهذا الامر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة صالحاً لتنفيذ الاحكام فاجتمع اهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه للامارة ولامتابعة للنفس الامارة بل بايعوه رغماً عليه وطلبوا والده بالله تعالى وتوسلوا اليه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على سنتين فوافقهم على بيعة ولده تطييباً لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف ودفعاً للفساد والتعنيف فحضر للبيعة جميع اهل غريس الحشم شرقي وغربي وعباسي وخالدي وابراهيمي وحساني وعوفي وجعفري وبرجي وشقراني وغيرهم كبني السيد دحو وبني السيد احمد بن علي والزلامطه ومغراوه وخلويه والمشارف وكافة اهل وادي الحمام واعلنوا جميعاً بطاعته ونصرته والرعاية له بحيث انهم يحمونه بما يحمون به انفسهم واموالهم وان ينصروه نصراً مؤزراً واتفق علماء الاقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم احد وهم في حال طوعهم واختيارهم وفرحوا به اشد الفرح نظراً لما كانوا عليه من الضيق والترح وكل من سمع به من اهل الآفاق يزداد فيه رغبة وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدة نجدته وصلاح رايه فعلى من بايع ان يبذل جهده في نصرته وعضده لقول الصادق الامين الدين النصيحة لله ولرسوله

ولائمة المسلمين ومن نكث نانما ينكث على نفسه حضر ما ذكر من العلماء والاشراف
السيد الاعرج والسيد محمد بن حوًّا بن يخلف واخوته والسيد محمد بن الثعالبي والسيد
عبد الرحمن بن حسن الدحاوي واخوته والسيد محمد بن عبدالله ابن الشيخ المشرفي
وقرابته وكافة اولاد السيد احمد بن علي حاصله جميع علماء غريس واشرافه حضروا
لهذه البيعة الميمونة ورضوا بها وحضرها كاتبه محمد بن عبد القادر عامله الله بلطفه
في الباطن والظاهر في الثالث من رجب الفرد سنة ثمان واربعين ومائتين والف
هجرية الموافق للسابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية
ثم كتب جماعة من اعيان العلماء المشاهير على هذا الصك ما يؤذن بحضورهم للبيعة
وشهادتهم بها على انفسهم وعلى سائر من حضرها فكتب العلامة سيدي الجد للام
عم الامير شقيق والده السيد علي ابي طالب بن مصطفى بن المختار ما نصه الحمد
لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله بعد انعقاد البيعة للامام المعظم والامير الجليل
المفخم ابن اخينا السيد عبد القادر بن محيي الدين احيا الله بهما الدين واعانهما
على القيام بامور اهله ودمر بهما الكفرة اولي العناد واهلك بسطوتهما اهل البغي
والفساد بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الامر ولو في ولد الواحد منا او نفسه وقدمنا نفسه على
انفسنا وحقه على حقوقنا واني اوصيه بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية والوقوف
عند الحدود الشرعية وردّ مسائل الشرع اليه وبتشميره عن ساعد الجد في قطع
شافة شياطين الانس اهل الاذاية كالمحاربين وقطاع السبل واهل الغيلة والسرقة
وغيرهم من هذا القبيل ليتم بذلك امره ويتضح به تاييده ونصره وتشرق شمس الحق
على القلوب وتطمئن بخدمته وطاعته الافكار ويسارع المؤمنون الى الانقياد والاذعان
لتكاليفه واوامره اللهم ايده وانصره نصرًا تعز به الدين والق التقوى في قلبه وقوة
اليقين بجاه سيد الاولين والآخرين واحي به ما دثر من احكام الخلفاء الراشدين
يامالك الدين والدنيا والآخرة وادم سرورنا وسرور جميع اهل محبته ومحبتنا واتم لنا المقصود
بما ينقطع به قلب الجحود آمين كتبه علي بن المصطفى وكتب العلامة السيد ابن
عبدالله بن الشيخ المشرفي ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم بعد انعقاد البيعة للعالم النبيه الصدر الوجيه الناظم الناثر ابي محمد السيد عبدالقادر
ابن عمدة الملة والدين شيخنا السيد محيي الدين ابن شمس الكمال شيخ مشائخنا واسلافنا
ابي عبدالله السيد مصطفى بن المختار من اهل الحل والعقد والامضاء والردّ ممن
ذكر اعلاه واطلاعنا على ما اتفق عليه السواد الاعظم وبه فاه لم يسعنا الا الموافقة

عليه والجنوح لما استمتدوا اليه فالله يلهمه رشده ولا يمنعه رفده وان ينصر به الدين الحنيفي ويظهر به من اموره كل خفي وان يصلح به وعلى يديه وان يجنبه راي المفسد والسفيه واوصيه بتقوى الله في علانيته وسره ونجواه ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله قاله بفمه ورقمه بقلمه كتبه عن عجل وانقلب في وجل ابن عبد الله ابن الشيخ المشرفي الحسني عفا الله عنه وكتب العلامة السيد احمد بن التهامي ما نصه الحمد لله لما فتح الله للمسلمين ابوابه ويسر للخير اسبابه باجابة الولي الصالح والقطب السالك الناجح شيخ اهل الفضل والدين مولانا السيد محيي الدين لما طلبه منه المسلمون من تقديم ابنه الناسك الانجد العلامة الاسعد على الايالة الغربية وما انضاف اليها من الايالات فاجتمع من له اتصاف بالحل والعقد على نصرة السيد المذكور ومبايعته مذعنين متلقين تلك البيعة بالفرح والسرور نعقد له البيعة جميع من له دخول في تدبير الامور من عالم ومقري وشريف ورئيس من اي ناحية من اهل الراشدية وغيرها فبذلك ثبتت له البيعة الملكية على الخاص والعام يامر وينهى فلا يسقط من امره ونهيه ادنى شيء فعليه بتقوى الله فيما تولاه وهو ناصره ومعينه على ما اولاه وكان من جملة مبايعيه الفقير كاتبه احمد بن التهامي الحسني وكتب العلامة الاوحد السيد محمد بن حوا الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ولما فسد الزمان وضاقت بالمساكين الاركان من كثرة النهب وقلة الامان ولم يجدوا من يصلح بامور المسلمين من الاعيان سوى من ذكر فاتفقت كلمة المعتبرين من اهل الوطن على البيعة للسيد المذكور بالاعلا وانا عبدالله من جملة من اتفق معهم على ذلك فنسال الله الغني الكريم الوهاب ان يسدده في جميع افعاله وان يمهد له البلاد ويصلح به الفساد ويهدي لطاعته العباد كتبه محمد ابن حوا وكتب العلامة السيد بالمختار بن عبد الرحمن بن روكش ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وعلى ما تضمنته رسوم العلماء في بيعة الامام المذكور وافق الموافقة التامة كاتبه بالمختار ابن عبد الرحمن بن روكش وبعد ان تم امر البيعة امر الامير مجلس العلماء ان يكاتبوا رؤساء القبائل في اطراف البلاد بامر البيعة وما وقع عليه الاتفاق وان يلحوا عليهم في الحضور لاداء بيعتهم كما اداها غيرهم فكتبوا ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم اما بعد فاعلموا معاشر العرب والبربر ان الامارة الاسلامية والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل امرها الآن الى ناصر الدين السيد عبد القادر بن محيي الدين وجرت مبايعته

على ذلك من العلماء والاشراف والاعيان في معسكر وصار اميرًا لنا ومتكفلاً باقامة الحدود الشرعية وهو لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة على الحاجة كما كان الغير يفعله ولا يكلف الرعية شيئًا لم تامر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئًا الا بوجه الحق وقد نشر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجد لنفع العباد وعمران البلاد فمن سمع النداء فعليه بالسعي لتقديم الطاعة واداء البيعة لامام منكم فاعلموا ذلك وبادروا لامتثاله ولا تشقوا العصا ويذهب بكم الخلاف الى ما لا خير لكم فيه دنيا واخرى حرر في معسكر من مجلس العلماء في الثالث من رجب سنة ثمان واربعين ومائتين والف * وعلى نحو هذا صدرت اوامر الامير الى سائر القبائل العربية والبربرية ونصها الحمد لله الى قبيلة كذا خصوصًا اشرافها وعلمائها واعيانها وفقكم الله وسدد اموركم وبعد فان اهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد اجمعوا على مبايعتي وبايعوني على ان اكون اميرًا عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل انفسهم واولادهم واموالهم في اعلاء كلمة الله وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما انني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي اليه موءملاً ان يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام من بينهم وتامين السبل ومنع الاعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو واجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم اتحدوا وتتفقوا جميعًا واعلموا ان غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الاحمدية وعلى الله الاتكالي في ذلك كله فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتوءدوا بيعتكم وفقكم الله وارشدكم حرر عن امر ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين من معسكر في الثالث من رجب سنة ثمان واربعين ومائتين والف وفي السابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية

﴿ ذكر البيعة الثانية العامة ﴾

لما شاع امر البيعة الاولى وذاع اقبلت الوفود تترى من القاصية الى الحضرة العلية رغبة في الطاعة وامتثالاً للاوامر السامية المطاعة فاجتمع الطم والرم من جميع الآفاق ثم انعقد مجلس عام حضره الجمهور من الاشراف والعلماء والرؤساء من كل قبيل وفريق وجرى فيه عقد البيعة الثانية العامة بمحل العموم من قصر الامارة وهذا نص ما حرره العلامة الحجة الفهامة السيد محمود بن حوا المجاهري في ذلك اليوم وقراه على روءس

الاشهاد بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الطيب الكريم وعلي آله واصحابه ذوي الفضل العظيم حمداً لمن فضل امة محمد عليه السلام وخصها بمزايا لم يعطها احداً من الانام وجعلها خير امة اخرجت للناس يامرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والارجاس هداهم به الى مهيع الرشاد وطهرهم من عبادة الاوثان والانداد والاضداد وجعلهم الشهداء على من سواهم من الانام فشرف بذلك امرهم ورفع قدرهم وجعل اجماعهم حجة وسبيلهم اقوم محجة واوجب عليهم نصب امام عدل وفرض عليهم اتباعه في القول والفعل ليكف الظالم وينصر المظلوم ويجمع شملهم بالخصوص والعموم ويكافح بهم عدو الدين لتكون العليا كلمة المسلمين وصلاة وسلاماً علي من صدع بالحق ودعا الخلق الى القول بالصدق وجاهد في الله حق جهاده حتى استقام المعوج وآب عن فساده سيدنا ومولانا محمد اشرف رسول واكرم شافع مقبول صاحب المقام المحمود والحوض المورود وعلى آله واصحابه اهل وداده وسيوف جلاده الذين بذلوا انفسهم واموالهم في طاعته ونصرته واوضحوا شريعته وبينوا طريقته فحازوا بذلك اسنى المراتب ونالوا الدرجات العلى والمناصب فهم نجوم الاهتدا ومصابيح الاقتدا هذا ولما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الاوسط واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران اعادهما الله دار ايمان واسلام بجاه النبي عليه السلام وطمحت نفسه العاتية الى الاستيلاء على السهول والجبال والفدافد والتلال وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص لا ناهي عن منكر ولا من يعظ ويزجر قام من وفقهم الله للهداية وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب امام يبايعونه على الكتاب والسنة يسمعون لامره ونهيه ويتابعونه في جميع احواله وجالوا في ميدان افكارهم فيمن هو لذلك اهل من ذوي الكمال والفضل فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل الا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر راس الملة والدين قامع اعداء الله الكافرين ابا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا السيد محيي الدين ايد الله به الاسلام والمسلمين واحيى به ما اندرس من معالم الدين فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود فبايعه اولهم وآخرهم شريفهم ومشروفهم كبيرهم وصغيرهم بيعة تامة كاملة عامة بيعة سمع وطاعة افراداً وجمعة بيعة عز وتعظيم وتبجيل وتكريم بيعة يعز الله بها الاسلام ويخذل بها الفجار اللئام يمنعون عنه السوء بما يمنعون به انفسهم واولادهم واموالهم ويبذلون في مرضاته ارواحهم واكبادهم ان امرهم سمعوا وان نهاهم خشعوا وخضعوا يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء وينصرونه في

السراء والضراء فمن وفى ببيعته نال مسرته واتقى مضرته ولاقى مبرته ومن نكث فانما ينكث على نفسه وخسر في يومه وامسه والله المسئول في هداية الخلق الى طريق الحق والرأفة والرفق ولما ازدهت هذه البيعة بكمالها وطرزت بجلالها وجمالها كمل سرورها وتمت بدورها بوزارة ابي المحاسن السيد محمد بن السيد العربي اقام الله به امر هذه الدولة السنية والامامة البهية وممن حضر هذه البيعة وبايع وسمع لها وتابع من القبائل الشرقية والاحياء الغربية الوزير المذكور وبنو عمه وسائر العلماء والاعيان من معسكر وقلعة هوارة واحوازها كبني شقران وبني غدوا وسجراره وقبائل غريس واحيائه وغمائره وعشائره واعيان القبائل الشرقية كالعطاف وسنجاس وبني القصير ومرابطي مجاجه وصبيح وبني خويدم وبني العباس وعكرمة والمحال وفليته والمكاحلية واحلافهم واعيان مجاهر والبرجيه والدوائر والزمالة والغرابه وكافة قبائل اليعقوبية من الجعافرة والحساسنه وبني خالد وبني ابراهيم ثم القبائل القبلية كاولاد شريف واولاد الاكرد وصدامة وخلافة وغيرهم ممن يطول ذكرهم من قبائل المغرب الاوسط وعمائره سهله ووعره ثم الكل بايعوا عن انفسهم وعن قبائلهم بالاذن العام من الخواص والعوام وقعت هذه البيعة العامة في ثلاثة عشر رمضان سنة ثمان واربعين ومائتين والف وفي الرابع من فبراير سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة كتبها خادم الشريعة السمحاء محمد الشهير بابن حوا ثم بعد الفراغ من كتابة صك هذه البيعة وقراءته على العموم جلس الامير للوفود واقبل عليهم ونظر بعين الرضى والقبول اليهم وقبل منهم ما قدموه لاعتابه السامية من عتاق الخيل والسروج المثقلة والاسلحة الفاخرة وغيرها من انواع الهدايا النفيسة جريًا على عوائدهم مع الملوك قبله وخطب عليهم بما انشرحت له صدورهم وتضاعف به سرورهم ثم خلع عليهم وفرق فيهم الاموال وبالغ في اكرام كرمائهم واستمال قلوب لؤمائهم واظهر لهم من انواع اللطف ولين الجانب ما اخذ باسماعهم وابصارهم ثم صرفهم الى اوطانهم فرحين بما آتاهم الله من فضله

ذكر تنظيم هيئة الدولة ورسوم الملك

لما تمت بيعة الامير واستقام له الامر اتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة فاستوزر محمد ابن العربي واستكتب ابن عمه السيد احمد بن علي ابى طالب والسيد الحاج مصطفى بن التهامي والسيد الحاج محمد الخروبي وعين لحجابته محمد بن علي الرحاوي وولى الحاج الجيلانى ابن فريحة ناظر خزينة المملكة ومحمد ابن فاخة

ناظر الخزينة الخاصة والحاج الطاهر ابو زيد ناظرًا على الاوقاف والسيد الحاج الجيلاني العلوي مأمورًا على الاعشار والزكاة بانواعها وعين لنظارة الامور الخارجية الحاج الميلود بن عراش ونظم الحاشية واقام كل فرد منها في مقام يخصه ورسم له اثرًا يقصه وبث العمال والقضاة في سائر الجهات ورتب مجلسًا للشورى يشتمل على احد عشر عضوًا من اجلة العلماء وجعل رآسته للعلامة قاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي ودوّن الدواوين وطفق يرد على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من انواع المظالم والتعديات ايام الفتنة ويهدم ما كانت الحكومة الجزائرية اسسته من المغارم والضرائب والعوائد فطار بذلك ذكره وانتشر في المغرب الاوسط امره واختار الامير مدينة معسكر لاقامته تأنيسًا لاهل غريس وتطييبًا لنفوسهم لانهم كانوا دعاة هذه الامارة وكانت منها حركته ونهضته وفيها اولاً قراره وبانجادها كمل امره واينع اسه وعراره

﴿ ذكر خروج الامير لتمهيد البلاد وما جرى بعد ذلك من الحوادث ﴾

بعد ان فرغ الامير من شؤنه ورسوم ملكه نهض من حضرته معسكر في شوال سنة مائتين وثمانية واربعين وفي فبراير سنة الف وثمانمائة واثنين وثلاثين ليختبر الاحوال ويتنقد الاعمال ويجمع شمل الاقوال بالافعال ويقيم من تخلف عن البيعة على الطاعة ويحمله على سلوك سبيل الجماعة والوطن اذ ذاك قريب العهد باختلال الحال فشمر الامير عن ساعد جده واشهر سيف الحق وانتضاه من غمده ودوّخ بلاد البربر وزناته وجال في مواطنهم وضبط الامور رجبى الاموال وعفا وعاقب وشاور وكاتب ثم انفتل راجعًا على الساحل يتوخى الثغور فانتهى الى مرفأ ارزيو وكان قاضيها احمد بن طاهر يراجع حاكم وهران ويدعوه الى الاستيلاء على المرسى المذكورة فقبض عليه الامير واشخصه الى معسكر فاعتقله بها واقبل على شانه من ضبط الثغور وتثقيفها فرتب الحامية وقرّر ذخائرها ثم ارتحل الى الحضرة

﴿ ذكر غزوة فليته وما اتصل بها من الحوادث ﴾

ان قبيلة فليته تشتمل على بطون وعشائر عديدة من دابهم سلب النفوس والاموال وقطع السابلة من عهد الحكومة الجزائرية وبعد انقراضها اشتد عدوانهم

واتصل عيثهم ولما آل الامر الى الامير رفع الناس امرهم الى اعتابه وطلبوا منه
ان يقطع شافة فسادهم فاجابهم الى ذلك ونهض من الحضرة غب رجوعه من
ارزيو ونزل بالبطحاء المعروفة الآن بهبرة ومنها اغزا السير اليهم يحدوه فصبحهم
واكتسح اموالهم وشتت شملهم وجعلهم عبرة لغيرهم وبعد الفراغ من امرهم بلغه
انتقاض قبائل عكرمة وبني مديان فسار اليهم وراسلهم فى الرجوع الى الطاعة
فلم يمتثلوا واظهروا الشقاق فاغار عليهم واستولى على جميع موجوداتهم واعظم النكاية
فيهم ثم استامنوا له فامنهم ورد عليهم اموالهم وولى عليهم عمالاً وثق بهم وقفل
راجعاً وغب دخوله الى الحضرة بلغه ان حاكم وهران اغار على قرية الدبه وهي
في جنوب قلعة هواره واوقع باهلها واخذ عالمها السيد قدور الدبي اسيراً في اهله
وولده فنهض من فوره وكان العدو الى وهران مسرعاً فادركه الامير في الدار
البيضاء قرب البلد وحمل عليه وكان قد قدم الاسرى والاثقال وضعفاء الجند
الى ناحية البلد واستمر يدافع عنهم الى ان دخلوها وفات الامير تدارك الامر
واستشهد يومئذٍ من اعيان المسلمين علي بن الحبيب الرحاوي والميلود المغراوي في
آخرين واما العدو فكان يحمل قتلاه فلم يعلم عددهم وهذه اول غزوة للعدو على
داخلية بلاد وهران فعظم ذلك على المسلمين واخذوا حذرهم منه وعين الامير قبيلة
الغرابة لمراقبته وسد الطرق عنه ومنع مواصلة اوغاد الناس له وبعد ان بث
العيون ممن يوثق بدينهم رجع الى معسكر ثم جهز جيشاً من الحشم والدوائر
واغزاهم الى وهران فعاثوا في نواحيها واثخنوا وسبوا وغنموا وفي اثناء ذلك وقع
تهارش بين قبائل البربر في نواحي نهر مينه افضى بهم الى القتال فطار الخبر الى
الامير فعجل بالسير اليهم واصلح شأنهم وجمع كلمتهم وبالغ في عقوبة من اثار الفتنة
واسعرها وكتب على عقد الصلح بينهم ما نصه قد امضينا بحول الله وقوته الصلح
المبرم بين بني فلان وبني فلان بعد ما امرنا به ومحونا اثر ما كان بينهم من
بقايا حمية الجاهلية والزمنا كل فريق منهم ان يقف عند حده وان يرفعوا جميع
ما يعرض لهم من الدعاوى والقضايا الى من ولينا امرهم حسبما حرر ذلك في
الاصل واوجبنا العمل بمقتضاه ورتبنا العقوبة الشديدة على من يتعداه فمن سعى
في نقضه او تعرض لافساد كله او بعضه فقد عرض نفسه لسخط الله تعالى وغضبه
وتلزمه المجازاة العنيفة من جانبنا العالي بالله وعلى هذا النص اجرى الصلح بين
اولاد الاكرد واولاد شريف وبني نسل وغيرهم وارتفع النزاع بين سائر القبائل

الشرقية ثم بلغه انتقاض ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان فسار اليه من حينه حتى انتهى الى البلد وبعث اليه يعظه ويأمره بالرجوع الى الطاعة ويعده بالعفو فابى وتمادى على شأنه ثم جمع قوته وخرج لقتال الامير وقام الكول اوغلان وهم الطائفة الثانية من اهل تلمسان وقائدهم ابن عودة في داخلها مستمرين على الطاعة فلما خرج ابن نونة وطائفته الحضر من البلد للقتال انتهزوا الفرصة فيهم للعداوة القديمة بينهم فظاهروا الامير عليهم ووقع القتال داخل البلدة وخارجها ثم كانت الدبرة على ابن نونة وفرقته واستمر القتل فيهم ونهبت اموالهم وعاث الكول اوغلان في منازلهم وفر ابن نونة الى ضريح الغوث سيدي ابي مدين رضي الله عنه في قرية العباد بتشديد الباء الموحدة ثم دخل الامير الى تلمسان ومن الغد توجه الى زيارة الغوث ووجد ابن نونة متعلقاً باستار الضريح لائذاً به فامنه وعفا عنه وتقبل فيئته واقره على قيادة طائفته ولم يزل الامير في تلمسان ونواحيها الى ان اصلح خللها وابرم الصلح بين الحضر والكول اوغلان وجمع كلمتهم ثم رجع الى معسكر وفي اثناء الطريق بلغه خبر موت والده سيدي الجد رحمه الله في ثالث ربيع الاول سنة تسع واربعين ومائتين والف وعشرين من يوليه سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة والف وكان الفرنسيس ابتنوا حصناً على البحر في ساحل بلاد تجاهر وشحنوه بالحامية والذخيرة وزعانف تلك الناحية يواصلون اهله ويعاملونهم بالبيع والشراء فلما آب الامير من تلمسان اجمع على النهوض الى تلك الناحية فجمع شانه واغذى السير اليها الى ان قرب من الحصن وكان اهله يخرجون كل يوم بماشيتهم يطلبون المرعى مستعدين الدفاع فلما خرجوا تربص عليهم حتى اوغلوا في الطلب ثم غار عليهم فثبتوا ودافعوا عن انفسهم وهم راجعون الى الحصن ولم ينج منهم الا من دخله وغنم المسلمون جميع ما كان معهم وكان في المرسى عدة مراكب مشحونة بالذخائر فخاض الجيش اليها وغنموا ما فيها واقام الامير اياماً يرتب العيون على الحصن ويأمرهم بالتضييق على اهله وذعر من كان يواصلهم من اهل تلك النواحي ثم رجع الى معسكر وطار خبر هذه الوقائع الى حاكم الجزائر فوجم لها وبعث الصريخ الى دولته فجهزوا الجيوش وارسلوا معها ذخائر ومهمات كثيرة وفوضوا امر الحرب اليه وعزلوا الجنرال بويه حاكم وهران وولوا مكانه الجنرال دي ميشيل فجاءها في رابع ذي الحجة سنة تسع واربعين ومائتين والف والخامس عشر من شهر ابريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف ووجد وهران تحت الحصار مغلقة الابواب وجيوش المسلمين تجول في انحائها لا

ينفرون عن مهاجمتها فضاق صدره لذلك وطفق يلقي الدسائس في قلوب ضعفاء اهل الايمان كالدوائر والزمالة ويعدهم ويمنيهم فاثر ذلك فيهم وفتحوا له طرق المواصلة من جهتهم ثم ان الامير بعد رجوعه من واقعة الحصن الى معسكر اخذ بها اهبة الحرب واستكمل استعدادها وارتحل يريد وهران وكان العدو ابتنى في القرب منها حصناً يعرف بغنمور فلما وصل الامير خرج الجنرال دي ميشيل في العساكر وكان القائد عليها يومئذٍ الجنرال بوبريص وتزاحف الفريقان نقسم الامير جيوشه الى فرقتين فرقة تقاتل بوبريص والفرقة الثانية جعلها تحت قيادته وزحف بها على حصن غنمور ولما قرب منه ترجل ومشى في مقدمة الجيش وحمل على الحصن مرتين فامتنع عليه وانقلب الى مظاهرة الفرقة المعينة لقتال بوبريص نقوى عزمهم وثبت قلوبهم وحمل بالجميع عليه فهزمه وشتت شمله وولت عساكر فرنسا على ادبارها يطلبون البلد ولحقهم المسلمون واثخنوا فيهم قتلاً واسراً الى ان امتنعوا عليهم باسوارها وبعد انصراف الامير من القتال بلغه ان اهل ارزيو ركنوا الى الفرنسيس بدسائس قاضيهم المعتقل في معسكر واقار به وانهم احضروا شرذمة من عسكر وهران لحمايتهم ثم دس اليه رجل منها اسمه طوبال انه يخرج كل يوم مع ضباط العسكر في طلب الصيد وعين له المحل الذي يبغونه فيه فركب الامير في الحال وخلف جموع الغرابة ومن يليهم على حصار وهران وبعث الاسرى الى معسكر واغذى السير الى ارزيو وكمن في القرب من الموضع الذي عينه طوبال فلما خرج الضباط واتباعهم في معية طوبال فاجأهم الامير بخيله وحال بينهم وبين البلد فدافعوا عن انفسهم واتهموا طوبال في امرهم فعدا عليه احدهم بسيفه وقتله ثم اظهروا علامة التسليم والقوا السلاح فامنهم الامير وجعلهم تحت الحفظ وتقدم الى البلد ففرت حاميتها الى المراكب واقلعت بهم الى وهران ودخل الامير فقبض على من توجهت عليه التهمة في مواطاة حاكم وهران في هذه القضية واصلح شان البلدة وثقف اطرافها وانزل فيها حامية كافية وانفتل راجعاً الى الحضرة فانزل الضباط في دار الضيافة وامر باكرامهم والقيام بشؤونهم وعقد للقاضي احمد بن الطاهر البطيوي مجلساً خاصاً من العلماء فامعنوا النظر في امره وقامت البينة عليه فحكم المجلس بقتله فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ووضع في حفرة في ساحة الصرابة الى ان مات بعد ثلاثة ايام

﴿ ذكر استيلاء الفرنسيس على مستغانم وخروج الامير الى قتالهم وغير ذلك من الحوادث ﴾

لما رأى الفرنسيس ان الامير قد استقام امره وقويت شوكته وظهر لهم منه ما لم يكن في حسابهم تقلقلت افكارهم واضطربت آراؤهم فمنهم من يقول ترك البلاد اولى ومنهم من يقول الثبات فيها اليق بالمقام بين الدول ثم قرّ راي الاكثر منهم على مداومة الحرب وبذل الجهد في الاستيلاء على داخلية البلاد وكان حاكم الجزائر يرفع الى وزارة الحرب ما يحدث من الوقائع في وهران وما هي عليه من الحصار وضيق المجال مع قلة الجند والذخيرة فيبعثوا اليه بالمدد فقوي عزمه ودعته نفسه الى الاستيلاء على مستغانم فتوجه اليها في فرقة من الجند واستولى عليها وفر اكثر اهلها الى الداخلية وطار الخبر الى الامير فوجم لها وفاوض رجال دولته ومن حضره من اعيان القبائل وذكر لهم تكالب العدو على الوطن واراهم كيف مدّ يده اليه واستولى على سواحله وقال يوشك ان تغافلنا عنه ان يختل امر المسلمين فامتعضوا لذلك وتداعوا الى الجهاد والذب عن الدين والوطن فجمع الامير الجيوش واحتشد عرب المغرب الاوسط وبرابرة ونهض من حضرته الى مستغانم ونازلها وكان العدو عند دخوله اليها جمع الايدي على ترميم سورها وتثقيف اطرافها وابتنى حصنًا خارجها ليستعين به على الدفاع ووضع المدافع في السور والحصن وبالغ في تحصينها ولاول نزول الامير عليها بعث الى اهلها في الخروج منها فخرج الجم الغفير ولحقوا بالحضرة وتلمسان وغيرها من مدن الداخلية وقراها ولم يبق فيها الا من اختار مجاورة العدو من الكول اوغلان ثم ان الامير لما راى امتناع البلد وتحصينها امر باحضار المعاول والفوس وغيرها من آلة الهدم والعدو لما راى الجيوش الاسلامية ملات انحاء البلد حام عن اللقاء وانحجر داخلها ورتب عساكره داخل السور يقاتلون منه فامر الامير بالهجوم فثار الغبار وتزلزلت الارض برعود البارود وتوالت كلل العدو وقنابله على المسلمين فلم يثنهم ذلك واستمروا على هجومهم والامير امامهم الى ان انتهوا الى السور واخذوا في هدمه بالمعاول والفوس فلم تعمل فيه ولما انجزم الامر ولم يتمكنوا من عدوهم امرهم بالرجوع الى مخيمهم وحفر نفق في الارض من المعسكر الى السور وجمع الايدي عليه ثم ملئوه بارودًا واضرموه نارًا ثم امرهم بالهجوم على السور ولما انتهوا اليه وجدوه قد انفتحت فيه كوة غير كافية لما قصد به من نقب السور او تزعزعه

فعدلوا الى المراكب في المرسى وسبحوا في البحر اليها واضعين اسلحتهم على رؤسهم فالحت عليهم بالقنابل وظاهرتها حامية الحصن فارتدوا عنها ولما علم الامير ان العدو لا يخرج من البلد ليناجزه الحرب ارتحل الى ارزيو واخلاها من الحامية الاسلامية وعرض الهجرة على اهلها وانقلب راجعاً الى حضرته وخرج حاكم وهران من مستغانم من بعده الى ارزيو واستولى عليها ووضع فيها حامية وذخيرة واستمر ذاهباً الى وهران وكان بين دي ميشيل وقبيلتي الدوائر والزمالة مواصلة خفية فعمل الحيلة ومد يده اليهم وهم في منازلهم من سهل اغبال فاخذ منهم رجالاً ونساء في صورة اسرى ثم ارسلوه في فك اسراهم فاشترط عليهم الخضوع لدولة فرنسا والسكنى في مسركين من ضواحي وهران فاجابوه الى ما اشترطه ورد عليهم اسراهم وظهر ما كان كامناً في صدورهم واتخذوا امر الاسرى عذراً فيما قصدوه ثم اتصل الخبر بالامير فعظم عنده ذلك ورأى ان لا سبيل الى تدارك امرهم الا بالسياسة الفعالة فبعث اليهم من خاصته من يثقون به ويقبلون نصيحته فوعظهم وحذرهم من مكائد العدو وغوائله واوقفهم على ما القوا به انفسهم من مكر الله تعالى وغضبه والخروج عن الدين الاسلامي الذي قام بنصرته وتأييده آباؤهم وافنوا فيه انفسهم واموالهم فاثر ذلك فيهم واذعنوا له واعتذروا بانهم لم يجنحوا الى العدو رغبة عن دين الاسلام ولكن للتوصل الى المعيشة والراحة مما لحقهم من معاناة الحروب ومقاساة الخطوب الى غير ذلك مما لم يجعله الرسول عذراً لهم فيما ارتكبوه واستمر يراودهم ويعظهم الى ان اجابوه وادلجوا في مسركين ورجعوا الى بلادهم وارتاح الامير الى فئتهم الى الاسلام وبقيت وهران على ما هي عليه من الحصار وقطع الطرق عنها واستمر الامير يبث السرايا والغوازي في نواحي الساحل فيسمونها خسفاً ودماراً ويثخنون فيمن يصادفونه من انصار العدو واشياعه بالقتل والسبي وتارة يشن الغارات بنفسه على الخوارج عليه من قبائل البربر وغيرهم من ظواعن العرب وزناتة ويثخن فيهم حتى يذعنوا الى الطاعة ثم يعطف بعد ذلك الى السواحل ويعظم النكاية في العدو ويرصد من يتردد اليه من اوغاد الناس الذين لادين لهم وجعل ذلك دابه وديدنه الى ان ضاق الحال على الفرنسيس في تلك النواحي وتاخر عنهم اسعاف دولتهم لما كانت عليه من الارتباك الداخلي فجنح الجنرال دي ميشيل الى السلم وطفق ينظر فيما يوصله الى مطلوبه من غير ان يلحقه انحطاط في منزلته عند دولته فاتفق ان محافظي الغور في جهة مستغانم صادفوا رجلاً من منتصري البرجيه راجعاً من ارزيو ومعه نفر من حاميتها

يحرسونه الى ان يبلغ مأمنه فحملوا عليهم وقتلوا بعضهم واستاقوا الآخرين الى معسكر فارتاح لها دي ميشيل واتخذها ذريعة لمخاطبة الامير وفي السابع عشر من جمادى الاولى سنة تسع واربعين ومائتين والف وفي اول سبتمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة والف خاطبه بتحرير يقول فيه . الى سمو الامير عبد القادر اني لا اتأخر عن كوني اخاطب سموكم بشيء تجتني عليه بواعث الانسانية وان لم تدعني اليه وظيفتي وهو اطلاق سبيل النفر الذين بينما هم يحرسون رجلاً عربياً اذ خرج عليهم كمين من جيوشكم فاخذوهم اسرى ولا اظن ان قوة شهامتكم تابى هذا وتقع امام طلبي شروطاً لانني كنت من قبل اخذت بعض اسرى من عرب الغرابة والزمالة في ميدان الحرب ثم اطلقتهم من غير شروط وبناء عليه اتأمل ان سمو الامير اذا كان يرغب ان ياخذ من الاعتبار قدراً عظيماً ان لا يطيل المراجعات وان ينعم باطلاق الاسرى * فاجابه الامير ان ما وقع من الاسر وسفك الدماء ويتم الاولاد وتايم النساء وسائر ما حصل من المصائب والنوائب العمومية والخصوصية لا مسؤلية علينا فيه وانما المسؤلية والعهدة على القائد الفرنساوي فوجم الجنرال وقواد العسكر لهذا الجواب وعجبوا من شدة الامير وجزالة جوابه قال شرشل الانكليزي في تاريخه عند ذكر هذه القضية ان حضرة الامير عبد القادر اجاب الجنرال دي ميشيل بتحرير يظهر منه دقة افكاره وحسن سياسته حيث انه جعل العهدة على القائد الفرنساوي حتى ان الجنرال وان يكن تأثر بذلك الجواب فانه قال بعد ان امعن النظر فيه شتان ما بين السياسة الفرنسوية والافكار العربية ثم ان الجنرال كتب للامير كتاباً ثانياً ونصه من الجنرال دي ميشيل الى الامير عبد القادر بن محيي الدين لي امل بان تطلق الحرية للاربعة الاسرى التعيسي الحظ المحبوسين في قلعة معسكر وما كنت اتردد عن السعي لديكم فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه حيث تدفعني الانسانية اليه ولعلمي ان البشر الراقين الى الدرجات العليا عليهم ان يمتازوا باعمال كريمة دالة على التفاوت الذي وضعه الله بينهم فارجو الافساح عن الفرنسويين الذين وقعوا في شر مكيدة وهم في الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام ابناء جنسهم ولا اظن انكم تضعون في طريق ذلك بعض العقبات لانكم اذا رغبتم ان تعدوا من كبار اهل الارض لا تتأخرون عن اظهار كرم اخلاقكم واذا دواعي الحرب اوقعت بين يديّ بعض اتباعكم فانا اعدكم بارجاعهم بدون عوض ثم كرر الطلب ثالثة بما نصه الى الامير عبد القادر بن محيي الدين بما انني ما اخذت جواب

كتابي الذي ارسلته اليكم منذ شهر فاحب اليَّ القول بانه لم يصلكم من انكم لم تلتفتوا الى قبول مطالبي وعليه جئت لثالث مرة اكرر طلب فك الاسرى الفرنساويين الموجودين عندكم لانهم لم يؤخذوا في ساحة الحرب بل سقطوا باقبح خدعة في اقبح مكيدة وعليَّ ان اذكركم ان فرنسا هي اقوى دولة في الدنيا فليس من الحكمة ان تدوموا على خطة المقاومة فاذا كان اليوم في امكاني ان انتصر عليكم قبل وصول النجدات التي استنظرها فماذا تكون حالكم اذا فرغ صبر فرانسا نحو العرب وارسلت ما تهيئه لي نعندها تهجم عليكم عساكرنا فتفرقكم كما يبعثر الهوى الرمال فاذا رغبتم ان تبقوا في مركزكم السامي فما عليكم الا اجابة دعوتي حتى اذا اجرينا المعاهدات تبادر القبائل الى زرع حقولهم الخصبة غانمين ما يقدمه الشعب العظيم اليهم فجاوبه الامير من عبد القادر بن محيي الدين الى الجنرال دي ميشيل اما بعد فقد وصلنا كتابكم المتضمن افضل النصائح فقدرناها قدرها وعلمنا انكم تحثونا في كتبكم الثلاث على الافساح عن الاسرى وتندبون حظهم مع اننا نعتني بشانهم غاية الاعتناء والافساح عنهم ليس له اهمية لدينا غير ان الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا ان نردهم بدون ندية فاذا رغبتم في الاتفاق اقبل تسليم الاسرى اليكم عند المعاهدة بيننا على ان ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا وان الثقة التي منحتمونا اياها في تحاريركم حملتنا على ان نبداكم بالمخابرة وان المفاوضة التي تطلبونها يقتضي ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتموني شروطكم وما تطلبونه مني وانا اعرفكم بمثلها والله المعين وكيف تفاخروني بقوة فرنسا ولا تقدرون القوة الاسلامية مع ان القرون الماضية اعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراتهم على اعدائهم ونحن وان كنا ضعفاء على زعمكم فقوتنا بالله الذي لا آله الا هو ولاشريك له ولا ندعي بان الظفر مكتوب لنا دائمًا بل نعلم ان الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا غير ان الموت مسر لنا وليس لنا ثقة الا بالله وحده لا شريك له لا بعدد وعدد وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لآذاننا من الصوت الرخيم فاذا صممتم على عقد صلات ودادية دائمة بيننا وبينكم فافيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا ماذونين بالمفاوضة معكم وحينئذٍ تتم امانيكم بمعونة الله ولا تظنوا باننا ناسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد لاننا نعلم يقينًا ان الارض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده وقد سلمنا وراثتها فحيث ما كنا نجد امتنا وقد ظهر لنا من مضمون

كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال ومسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان واذا فتحتم التواريخ تروا ما اجروه في آسيا وجهات الشام من الجراءة والثبات والاقدام والفتوحات التي اظهرها الله على ايديهم واني اعتذر لعدم جوابي علي كتابكم السابق باني كنت مشغولاً في الوقت الذى استلمته وعندما كتبت الجواب كان رسولكم ترك معسكر وتوجه لطرفكم وهذه المراجعات اوقفت الجنرال وقواد العسكر في ميدان علموا منه انهم يخاطبون اماماً عادلاً وتعلقت آمالهم بالوصول الى مامولهم وقال بعضهم عند ذكر تحرير الجنرال ما ملخصه هذا المكتوب لم يكن لتحريره محل في مجال السياسة لان الحرب بين الامير عبد القادر والفرنساوية ما برحت قائمة على قدم وساق وبحسب اصول الحرب يحق لهذا الامير ان يحاصر المدن والقلاع الموجودة بايديهم وان يرصد سائر طرقاتهم ويمنع المواصلات التجارية وغيرها وان يجري القصاص على من يتعرض لها ثم قال فانظر الى هذا الجنرال الذي يدعي الفطنة والمعرفة بالنظامات الحربية كيف كبا به جواده في ميدان سطور تحريره المذكور الذي لا يمكن تحريره الا في حال السلم ولذلك اجابه حضرة الامير اخيراً . بعد التحية وصلني كتابك الذي اظهرت فيه رغبتك في الحصول على اطلاق الاسرى الذين اوقعتهم الاقدار الربانية بين يدي وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب ومن المعلوم عندكم ان جميع الاسرى الذين اوقعوا في ايدي عسكركم في ميادين الحرب لم اتعرض لكم ولا لمن كان قبلكم في اطلاقهم ولا اتعبت افكاركم بمراسلة قط لان حكمهم عندي حكم الاموات وموتهم اعتبرها حياة لهم غير اني كنت اتالم عليهم شفقة ورحمةً وقولكم ان هؤلاء الاسرى الذين تطلبون اطلاق سراحهم ما كان خروجهم لامر يتعلق بكم بل كانوا يحمون عريناً من انتقام ابناء وطنه نهذا لا اعتبره وسيلة لاطلاقهم فان المحافظ والمحافظ عليه كلاهما اعداء لنا وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودي وسائر العرب الذين عندكم اوغاد واراذل يجهلون واجباتهم الدينية هذا واني رايتك تفتخر بانك اطلقت الاسرى من الغرابة والزمالة من غير شروط مع انك لو راجعت افكارك لوجدت ان رحمتك انما كانت لاناس استظلوا بظلكم واتوا بحمامكم يملئون اسواقكم ذخائر ويكونون عيوناً لكم على المسلمين ويخدمونكم بكمال الصدق ومع ذلك فان عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه فلو كان هذا المعروف الذي تحججتم به مع غير هؤلاء كالحشم أو بني عامر مثلاً لكان يحق لكم الافتخار

وكنتم تستحقون الشكر وعلى كل حال فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم او يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر منا . قال المؤرخ الانكليزي لو كان هذا الجواب الكبريائي في غير تلك الايام لاهاج في صدر الجنرال الفرنساوي نيران الحماسة وحرك منه سواكن الاحن وربما صاح باعلا صوته وقال اين العربي المبارز والبطل المناجز ولكن الوقت لم يساعده وكان دي ميشيل لما ارتحل الدوائر والزمالة من جواره ورجعوا الى بلادهم حفظها لهم فعند ما خسرت صفقته من مخاطبة الامير ولم يحصل منها على طائل غزاهم واخذهم على غرة وطار الخبر الى الامير فاغذ السير وواصله وقطع مسافة خمسين ميلاً في ثلاث ساعات وكان العدو لكثرة ما في يده من المسلوبات والاسرى رجع الى وهران على مهله فادركه الامير قبل وصوله اليها وحمل عليه حملة شتت بها شمله واوهى بها قوته ولم يسعه الا الفرار فاتخذه وسيلة النجاة وترك جميع ما استولى عليه من المسلوبات والاسرى في ايدي المسلمين كما انه ترك قتلاه في محل المعركة ولحق فله بوهران ثم ان الامير ردّ على الدوائر والزمالة مسلوباتهم واسراهم وامرهم بالرحيل الى تموزغت في نواحي تلمسان فارتحلوا في العشرين من رجب سنة تسع واربعين والرابع من دسمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وبعد هذه الواقعة انسد باب المخابرة بين الامير وحاكم وهران فيما كان بصدده

﴿ ذكر رجوع الجنرال دي ميشيل الى المخابرة ﴾
﴿ مع الامير واظهار رغبته في السلم ﴾

كان الجنرال دي ميشيل معروفاً عند دولته بانه من رجال الحرب وابطال الطعن والضرب نعزلوا الجنرال بوية وولوه مكنه وبوصوله اضرم نار الحروب وفتح باب الشدائد والخطوب فكانت الدبرة فيها عليه ودام ويلها يصابحه ويماسيه ولم يزل على ذلك الى ان يئس من نجاحه في امره وعجز عن درك ما كان يؤمله من فوزه فرجع القهقرا واخذ يدبر فيما يخلصه من ورطته ويكون وسيلة للوصول الى رضاء دولته فلم يرَ اوفق من وضع اوزار الحرب والتملص من شرك الشدة والخطب ففتح لذلك بمراسلة الامير باباً وهيأ لها اسباباً فحيل بينه وبين مراده وعاد الى مقارعته وجلاده ثم رأى ان دون فوزه خرط القتاد فعاد الى ما عول عليه اولاً من قرع الباب ومعاطاة الاسباب قال المؤرخ الانكليزي لما استعظم دي ميشيل جراءة عدوه

الاسد الكاسر وسرعة حركته في النواحي فكانه في كل ناحية حاضر تبين له ان تدبيراته لم تنتج له الظفر بالآمال وتأسيسات افكاره قد اعتراها التلاشي والاضمحلال وان سور الحصار قد حال بينه وبين الزاد وبلاء المجاعة ما برح في شدة وازدياد وعجز عن المدافعة بعد بذل الجد والاجتهاد فلم ير احسن من الصلح او تخلية البلاد ثم فكر في امره واوفد على الامير مردخاي الموسوي في طلب الصلح واصحبه برسالة يقول فيها . الى سمو الامير عبد القادر حيث لا تجدني ايها الامير غافلاً ابداً عن كل فعل حسن فاذا كان سموكم تريد ان تخابر في امر المعاهدة فانا مستعد لذلك مع الامل انه يمكن الحصول على معاهدة موافقة يتوقف بها سفك دماء امتين اقتضت الارادة الآلهية ان لا تكونا تحت سلطة واحدة حرر في رجب سنة تسع واربعين وفي دسمبر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية . قال بعضهم فهذا الكتاب حقق لحضرة الامير عبد القادر ما كان يتصوره وهو ان عدوه وقف موقف المستغيث ولذلك ضرب عن رد الجواب صفحاً وانما قال للرسول وهو مردخاي انه بحسب الوقت الحاضر لا يمكنني ردّ الجواب وان كان الجنرال يسمح بايضاح وتفصيل في هذا الامر فهو اولى فلما وصل اليهودي الى الجنرال وبلغه الرسالة الشفاهية عن لسان الامير عبد القادر تلقاها بالقبول وردّ مع اليهودي كتاباً آخر يقول فيه . الى سمو الامير عبد القادر حيث لم يصلني جواب من سموكم عن التحرير الذي قدمته وقع في فكري انه لم يصل اليكم لا انه وصلكم ولم تهتموا به حيث انكم لا تفعلون شيئاً اوفق لحفظ المقام الذي رفعتكم الظروف اليه من التسليم بطلبي لانه بواسطة المعاهدات المطلوبة التي نعقدها بيننا تتمكن الاهالي ان تلتفت الى فلاحتها وتتمتع بلذة حاصلات اراضيها وتذوق حلاوة السلم بدلاً عن مرارة الحرب . ثم انهى كتابه بعبارات اوضح من الاولى وابين في طلب الصلح .

ذكر ابرام المعاهدة وما جرى في ايامها من الحوادث الداخلية

لما اتصل مكتوب حاكم وهران بحضرة الامير جمع رجال دولته واعيانها واخبرهم بما وقع بينه وبين الجنرال من المخابرات في شان اسرى ارزيو اولاً ثم في امر المهدنة ثانياً واستشارهم في ذلك واستكشف ما عندهم فيه فرآهم جانحين الى السلم راغبين في عقد المهدنة لاسيما ان العدوّ هو الطالب لها والراغب فيها . قال شرشل الانكليزي ما حاصله قد تمكن هذا الامير المظفر الحديث السن من ان يطلع رجال دولته ورؤساء

رعيته على هذا المكتوب الذي هو في الحقيقة سند يشهد له بان العدو هو السابق في التماس الصلح وقد تأتى له ان يجيب اليه اذ لاداعي للتاخر عنه فلذلك حرر في جوابه بعد التحية وصلني كتابك ايها الجنرال المحترم وفهمت ما ذكرته فيه واعلم ان افكارك موافقة لافكاري موافقة لها وبذلك تحققت استقامتك فكن متأكدًا بان الشروط التي توفقنا العناية الالهية لاجرائها بيننا نتمسك بها بصدق عظيم ولا نتجاوزها وها انا مرسل لنحوك معتمدين وهما وزير الخارجية الميلود بن عراش والآغة خليفة بن محمود يتخابران معك في الشروط التي يمكن اجراؤها وحينئذٍ تجري المعاهدة وتذهب العداوة من بيننا ونستبدل لها بالصداقة التي لا تخل بمقامنا وينبغي لك ان تثق بي لانني والحمد لله لم تسبق لي خيانة في عهدي ولا نقض لعقدي . ثم قال وكانت المقابلة بين القواد الفرنساويين ومعتمدي عبد القادر خارج وهران على فرسخين منها في خمس وعشرين خلين من شهر رمضان سنة تسع واربعين ورابع فبراير سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية وجرت مذاكرة طويلة في قضايا مختلفة قدمها الجنرال دي ميشيل ثم ركب وزير الخارجية راجعًا الى الحضرة ومعه نسخة الصك المشتمل على المسائل التي وقعت المذاكرة فيها غير ممضية من الجنرال ونصها

اولاً ان العداوة من هذا اليوم تبطل بين الفرنساوية والعرب ثانيًا ان الفرنساوية تلتزم بتكريم ديانة الاسلام مع عوائدهم ثالثًا ان العرب تلتزم برد الاسرى الفرنساوية رابعًا ان يكون السوق حرًا خامسًا ان العرب تلتزم برد من يهرب من الفرنساوية اليهم سادسًا من اراد السفر في الداخلية من الفرنساوية يجب ان يكون بيده رخصة مختومة من قنصل الامير ومن قنصل الجنرال . ولما اطلع عليها الامير وافق عليها وامضاها بخطه ثم حرر ورقة اخرى ذكر فيها ما اشترطه وهي اولاً يكون للعرب الحرية بان يبيعوا ويشتروا كلما يتعلق بالحرب ثانيًا يكون متجر مراسي ارزيو تحت ولاية الامير كما كان قبلا بحيث لا يصير شحن شيء الا منه واما وهران ومستغانم فلا يرسل لهما الا البضائع اللازمة لاهلهما ثالثًا يلتزم الجنرال بترجيع كل من يهرب اليه من العرب مقيدًا مع انه لاتكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضاء رؤسائهم رابعًا لا يمنع مسلم من الرجوع الى بيته متى اراد . وفي اليوم الخامس رجع وزير الخارجية واجتمع بالجنرال دي ميشيل داخل وهران واخبره ولم يسلمه ورقة مطاليبه الا بعد ان امضى ورقة الامير التي فيها شروطه ثم ان الجنرال اختار ان يكون صك الهدنة واحدًا تحرر فيه مطاليب الامير بالخط العربي ومطاليب الجنرال بالخط الفرنساوي وكل منهما يمضي للآخر على شروطه بخطه فاجابه ابن عراش الى ذلك ونص الصك . ان قائدي الجيش

الفرنساوي المقيم في وهران الجنرال دي ميشيل والامير عبد القادر بن محي الدين اعتمدا واتفقا على ما ياتي ذكره من الامور الاول منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين والعرب وكل من الجنرال دي ميشيل والامير عبد القادر يجتهد في القاء الالفة بين شعبين اقتضت الارادة الالهية ان لا يكونا تحت سلطة واحدة ولاجل ذلك تتعين وكلاء من الامير عبد القادر في وهران ومستغانم وارزيو كي لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب كما انه يقام وكيلاً عن فرنسا ضابط فرنساوي في معسكر الثاني يصير احترام ديانة الاسلام وعوائدهم الثالث يلزم ردّ الاسرى من الفريقين الرابع يصير اعطاء الحرية الكاملة للتجارة الخامس تلتزم العرب بارجاع كل من يفر اليهم من العسكر الفرنساوي ويلتزم الفرنساويون بتسليم كل من يفر اليهم من اهل الجرائم الهاربين من القصاص الى وكلاء الامير في المدن الثلاث السادس من اراد من الاوربيين يسافر الى داخلية البلاد يجب ان يكون مصحوباً بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الامير وتصحيحها الجنرال وبذلك يحصل على الحماية في جميع الاقليم حرر في وهران في السابع عشر من شوال سنة تسع واربعين ومائتين والثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف ثم ان ابن عراش اخذ الصك وعرضه على حضرة الامير وبعد اطلاعه عليه وامعان النظر فيه امضاه بخطه ورجع ابن عراش الى وهران فلما رآه الجنرال وعلم ان الامير وافق على ما حرر في الصك وانه امضاه تهلل وجهه واظهر لابن عراش بشاشة زائدة لم يعهدها منه قال المؤرخ الفرنساوي لويس دينلوت في تاريخه عند ذكر هذه المعاهدة ان الميلود بن عراش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده في عقد المعاهدة مع الجنرال دي ميشيل لما وفد عليه حاملاً صكها الذي صادق عليه الامير قابله بكمال الاحترام والاحتفال وكان امراء الجيش الفرنساوي جالسين على حسب مراتبهم والعسكر مصطفة حولهم يستمعون ما تقرر في الصك وبعد تلاوته امضاه الجنرال بخطه ثم التفت الى ابن عراش وفتح معه باب المذاكرة فقال ان العرب لا تجهل قوة فرنسا واستعدادها فاجابه ابن عراش نعم ان العرب لا تنكر قوة سلطنة فرنسا واقتدارها ثم قال الجنرال انني كنت عازماً قبل عقد المعاهدة على ان اطلب من دولتي عشرة آلاف جندي زيادة على ما عندي واخرج من هذه المدينة وتابع محاربتكم مدة شهر وما يدريك يامولود ان بهذا الفعل يدخل على سلطانك الوهن ويلحقه الضعف فاجابه ابن عراش اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم واقدام ولو فعلت ما قلت وخرجتم

بهذه القوة كنا نتقهقر امامكم متوغلين في الصحراء باهلنا واثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لاترجعوا عنا ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم ومتى سنحت الفرصة وتوردتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم واحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم لحقها التعب واضر بها السغب فحينئذٍ ماذا كنت تصنع ايها الجنرال قال فلما سمع الجنرال هذا الجواب المفصح عن جمل من اوضاع الحرب التي لم تخطر له على بال تعجب ولم يسعه الا السكوت وتفرّق المجلس وانقلب ابن عراش الى الحضرة بعد ان اتم سفارته . وشاع امر المعاهدة وارتفع الحصار عن وهران ومستغانم وارزيو وسلكت الطرق اليها من الداخلية وتعينت الوكلاء فيها من قبل الامير نعين مردخاي بن دران الموسوي في الجزائر ومحمد بن يخ في وهران والآغا خليفة ابن محمود في ارزيو وعين سنير فرنسا الكومندان عبدالله ويسون في معسكر واصله من مماليك الامراء المصريين استخدمته دولة فرنسا في العساكر المشاة وامست افكار الجنرال دي ميشيل هاجعة على بساط الراحة لعلمه ان هذه المعاهدة صارت حدًّا فاصلاً بينه وبين الغوائل السابقة وطير الخبر الى وزارة الحرب في باريز فاجابه ان الملك صادق على المعاهدة وانتقد عليه اموراً اخل بذكرها في صك المعاهدة نفهم الناس ان دولة فرنسا انشرحت لعقد المعاهدة ولم تنشرح لشروطها وايد لهم ذلك انها اخذت في استعمال الوسائط لنقضها قال المؤرخ لويس دينليوت ان دولة فرنسا قد حاولت ان تنقض هذه المعاهدة واستعملت لذلك مكايد متنوعة ولكن فطنة الامير ومعرفته بالسياسة عرقلت امورهم وافسدت سبيل نجاحها انتهى . وقصارى ما يقال ان تلك المعاهدة كانت عبارة عن متاركة لا تخلو عن مخاتلة من الطرفين وذلك ان كلاًّ من الامير والجنرال دي ميشيل جعل لنفسه باباً في صكه يخرج منه متى شاء وعلى كل حال فان الامير ارتاحت افكاره من جهة الحروب الفرنساوية وانصرفت همته لتنظيم الوطن وتوسيع سلطنته في بلاد المغرب الاوسط كما قال بعض مؤرخي الافرنج كانت هذه المعاهدة كمناد قام ينادي في اندية العرب بوجوب طاعة هذا الامير فسمع نداءه واجيب دعاه وامتد ملكه وبعد صيته ومداه كما انها جعلت للفرنسيس نوع سلطة في الاماكن التي استولت عليها . ولما وصل عبدالله ويسون الى العاصمة دخل على الامير في القاعة الملوكية بملابسه الرسمية وقدم اليه الرقيم المعلن بتعيينه وكيلاً عنده فلما قراه قال له الآن ادخل علينا السرور حيث اننا نظرنا شروط المعاهدة

اخذت منعولها وظهرت من القوة الى الفعل وامره ان يواصل التردد عليه ويرفع ما يعرض له من الحاجات اليه وغب خروجه من الحضرة الاميرية توجه لزيارة ارباب الدولة واعيانها في منازلهم ثم قابلوه بمثلها في منزله واظهر لهم غاية الميل والمحبة وخدعهم بلسانه العربي الفصيح ثم ان المسلمين الذين كانوا هاجروا من وهران ومستغانم تشوقت نفوسهم الى الرجوع اليهما وانتهزوا فرصة المعاهدة فمنعهم الامير واوعز الى قناصله بمنعهم وسد باب القبول في وجوههم وفي سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف بعد ابرام المعاهدة وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام صاحب المغرب الاقصى لاداء التهنئة للامير بالملك واصحبهم هدية من نفائس بلاده ومقدارًا وافرًا من ذخائر الحرب وادواته فاكرم الامير وفادتهم واعظم جانبهم وكان نفر من العساكر الفرنساوية فروا الى المغرب الاقصى فبعثهم السلطان مع الوفد ليرى الامير رايه فيهم فقبلهم وارسلهم الى الجنرال دي ميشيل فاهتز لذلك فرحًا وعلم صدق الامير ووفاءه بعهوده ووعوده ولما فرغ الامير من هذه الاعمال صرف همته الى تمهيد القاصية من البلاد وردع اهل البغي والفساد كالدوائر والزمالة ومن شايعهم كابن العربي ومن تبعه من قبائل شلف وابن المختي رئيس البرجية وكان الامير لما تقلد امر الامة واشتغل بالجهاد نظر فيما يلزمه من النفقات فرآى ان ما يجبى من اموال الزكاة والاعشار لا يفي بواجباته فطرح المسئلة في مجلس الشورى للنظر فيها فاتفقت آراؤهم على فرض ضريبة على الرعية تسمى معونة بضم العين وبنوا ذلك على اساسات شرعية مؤيدة بنقول فقهية واعمال سلفية فلما تم امر المعاهدة قام اولئك الظلمة وبثوا دسائسهم في افكار العامة بان البيعة انما كانت على الجهاد وحمل اثقال الضريبة انما كان لنفقاته وحيث ان الجهاد طوى بساطه والامير ركن الى مسالمة العدو فلنا ان نرجع في بيعتنا ونمتنع من دفع اموالنا فاثرت دسائسهم في بعض القبائل كبني عامر فامتنعوا من دفع المعونة واتصل خبرهم بالامير فاوعز الى مصطفى آغا بن اسماعيل رئيس الدوائر ان يركب عليهم فيردعهم ويجبي اموالهم فارتاح لها ابن اسماعيل لما تهيأ له في ذلك من اخذ ثاره منهم ثم راجع الامير افكاره فطن لدسائس ابن اسماعيل فكتب اليه بالكف عنهم فابى ذلك وسار اليهم بجموعه فدافعوه وقهروه ثم اوفدوا على الامير جماعة من اعيانهم فصادفوه على المنبر يخطب على الناس في امر المعونة فاراهم الوجوه التي بعثته على اخذها منهم ثم قال اعلموا ان الغاية الوحيدة في قبولي لتقليد هذا المنصب ان تكونوا آمنين على انفسكم واعراضكم واموالكم مطمئنين في بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية ولا يمكن ان ابلغ مرادي من ذلك الا

بمساعدتكم مالاً ورجالاً وبهذا تعلمون ان المنافع الحاصلة منكم عائدة عليكم ولا اظن ان يخطر في بال احدكم ان الاموال التي تؤخذ منكم ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلمكم وتحققكم انني غني ملي بما خلفه لي والدي وبالجملة فنحن لا نطلب منكم الا ما تجبركم الشريعة على دفعه وتجبرنا على اخذه فراجعوا انفسكم وسدوا آذانكم مما يلقيه اهل الفساد اليكم وكونوا على كلمة واحدة وصفقة متحدة فيما ينفعكم ويصلح شؤنكم ولا يتم لكم ذلك الا بطاعتنا قال الله تعالى يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فلما سمع الناس كلام الامير انشرحت صدورهم واظهروا الاذعان لاوامره والطاعة لاحكامه وتقدم اليه وفد بني عامر في شانهم فبرؤا ساحتهم مما نسب اليهم من الخروج عن الطاعة ومنع الجباية واوقفوه على دسائس مصطفى بن اسماعيل واشياعه واخبروه بما هو عازم عليه من نبذ الطاعة وذكروا له ما لحقهم منه من الظلم والعسف فاسرها في نفسه واكرم الوفد وردهم الى بلادهم وفي غرة ذي الحجة سنة تسع واربعين والحادي عشر من ابريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف توجه قاصداً تلمسان ونواحيها فطار الخبر الى الدوائر والزمالة فاحتشدوا واستجاشوا بعرب رياح واهل انكاد وصمموا لقتال الامير ولما قرب من منازلهم بعث الى ابن اسماعيل وغيره من اعيانهم يدعوهم الى الحضور عنده لينظر في حوادثهم مع بني عامر فاستنكفوا وزحفوا اليه بجموعهم ودارت بينه وبينهم حرب انكشف فيها اولا الخوارج وتركوا جميع موجوداتهم فلما اكب جيش الامير على الغنائم والتهوا بالتعبية عطف عليهم الخوارج بجموعهم من كل ناحية فهزموهم وكان الامير على حدة في فرقة قليلة فلما راى الهزيمة قد استولت على جيشه حمل عليهم مع كثرتهم فاصيب فرسه ووقع بين الصفوف فاردفه ابن عمه السيد المولود ابو طالب ثم ركب فرساً آخر واتصل القتال الى الغروب وقتل من الفريقين عدد كثير وجرح ابن اسماعيل في جملة من بني عمه ثم بلغ الامير ان الخوارج يكيدونه في تلك الليلة فتغافل عن ذلك ونام مع كافة الجيش في غاية الامن فلما كان الثلث الاخير من الليل هجم الخوارج على المعسكر فاستولوا على موجوداته وتخلص الامير من بينهم وبعد طلوع الشمس تراجع الناس اليه فانقلب بهم الى حضرته وطار الخبر الى حاكمها محمد بن السنية فجمع الايدي على تجديد ما سلبه الخوارج من ادوات الملك ومهماته وهيأ الموكب الملوكي ولما قرب الامير من الحضرة تلقاه بذلك وتلقاه العلماء والاعيان ودخل عاصمته في الهيئة التي خرج فيها واصبح في دار ملكه على ما كان عليه

ترى الناس في ابوابه ورحابه * كأنهم من فرط كثرتهم نمل

ولما رأى الخوارج ان حادثتهم لم تحدث في امر الامير ضعفاً ولا في افكار رعاياه تشويشاً ندموا ندامة الكسعي واقاموا يترقبون شديد الانتقام ووقعوا من امرهم في حيرة وقد تبرأ منهم الحميم وتباعد عنهم القريب ولم يبق على مشايعتهم الا ابن الغاري وقومه والبعض من قبيلة رياح وسنلم بما وقعوا فيه من الوبال والخسران والذلة والهوان وما آل اليه امرهم ان شاء الله تعالى

ذكر تنظيم الجند وما يتعلق به

لما علم الامير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيم عزم على تنظيم جند كاف يكون دابه التمرين والتدريب ليصل بقوته ومعرفته بالامور الحربية الى مقاصده الجسيمة فبعد رجوعه من واقعة الدوائر عقد مجلساً عمومياً من رجال الدولة واعيان الرعية وزعمائها وخطب عليهم خطبة اوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه واخبرهم انه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف فاجابه الجميع الى ذلك ووافقوه عليه وطفق المنادي يقول باعلا صوته في الاسواق ليبلغ الشاهد الغائب انه صدر امر مولانا ناصر الدين بتجنيد الاجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد فمن اراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع الى دار الامارة معسكر ليتقيد اسمه في الدفاتر الاميرية . فتلقى الناس هذا الامر بانشراح وارتياح وتسابقوا اليه طوعاً من كل جهة حتى من القاصية وصار له موقع عظيم عند العامة والخاصة واستحسنه كل عاقل ووافق عليه كل فاضل وامتلات عند سماع امره قلوب الاعداء رعباً وعلموا انهم قد حملوا انفسهم من عداوة الامير امراً صعباً وامست افكارهم في قلق وقلوبهم بنار الخوف في التهاب وحرق ولم يكل الامير امر الجند لغيره بل هو تولى ترتيبه وتنظيمه بنفسه فجعله ثلاث فرق . فرقة مشاة . وفرقة يركبون الخيل وعرفوا بالخيالة . والفرقة الثالثة مدفعيون وولى وقتئذ على المشاة والخيالة من مشاهير الابطال قدور بن بحر وعبد القادر بن عز الدين ومحمد قوشارمه ومحمد السنوسي وسالم الزنجي واحمد الغديوي وغيرهم كل واحد على الف جندي وولى على المدفعيين محمد آغا المعروف بابن ككسه (الكول اوغلي) ووضع لهم قوانين وضوابط جمعها بعض كتاب الجند في رسالة سماها (وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب) ونصها . حمداً لمن اعز كلمة نبيه سيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم واعلاها · ومكن شريعته على اساس التقوى وبناها · وصلاةً وسلامًا
على نبي الملاحم · المؤسس ترتيب الصفوف كانهم البنيان المرصوص او الموج المتلاطم
من كان يتقي به اكابر اصحابه رضي الله عنهم وارضاهم · وجعلنا ممن اقتدى بهم
ووالاهم · وبعد فانه لما كان يجب للجيش وضع قوانين لايتعداها · وهيآت يتميز بها
وشؤون اخرى لا بد ان يرعاها · وكان من ولاه الله امرنا واختاره اميرًا علينا ناصرًا
للدين سيدنا ومولانا عبد القادر بن محي الدين · ايده الله عارفًا بذلك · خبيرًا
بتلك المسالك · وضع لعسكره المحمدي · وجنده الاحمدي · قوانين تجري امورهم
عليها · ويرجعون في شؤنهم اليها · وهيئات تتميز بها امراؤهم · وترتيبات يكون
عليها اعتمادهم · ثم امر نصره الله بجمعها فجاءت بحمد الله كما امر · وعلى الوجه الذي
صدر · سميتها (وشاح الكتائب · وزينة العسكر المحمدي الغالب) ورتبتها على مقدمة
واربعة وعشرين قانونًا وخاتمة اما المقدمة فانها تشتمل على مسائل الاولى رتب
نصره الله عسكره على ثلاثة اصناف · الاول الراكبون وسماهم الخيالة · الثاني المشاة
وسماهم العسكر المحمدي · الثالث المدفعيون وسماهم الرماة والطوبجية وجعل على كل
صنف من هؤلاء الثلاثة رئيسًا فعلى الالف خيال آغة وعلى الخمسين سيافًا وعلى
العشرين رئيس الصف ودونه الجاويش ولكل الف وكل مائة كاتبًا وعلى الكتاب
رئيسًا سماه باش كاتب واما العسكر المحمدي فانه قسمه الى مئات وقسم كل مائة
الى ثلاثة اقسام وجعل لكل قسم خباء ورئيسًا عليه سماه رئيس الخباء اي الخيمة
وعين له نائبًا يقوم مقامه وسماه خليفة رئيس الخباء وجعل على كل ثلاثة اقسام
من هؤلاء رئيسًا سماه سيافًا وعين لهم كاتبًا يخصهم وجعل على كل عشرة من
السيافين فاكثر رئيسًا سماه آغة ورئيس العسكر المحمدي وشأنه النظر في احوال
السيافين فمن دونهم واما الطوبجية فيسمى رئيسهم باش طوبجي وعين لكل مدفع
اثني عشر جنديًا يقومون بامره وعليهم رئيس وكاتب · المسئلة الثانية كسوة العسكر
المحمدي على نوعين الجوخ والكتان اما الجوخ فعلى ثلاثة اصناف احمر قان وهو
الاعلى وادنى منه الجوخ العسكري وهو الاحمر الكاشف والصنف الثالث اسود
فاما الصنف العال الجيد فلرئيس العسكر المحمدي ولرئيس الخيالة واما الصنف الذي
دونه فهو للسيافين والكتاب اصحاب الرتبة الاولى ومعلم الحرب والطنبورجي وهو
صاحب الطرنبيطة واما الاسود فلباس الطوبجي ورئيس الاثني عشر مدفعيًا وكاتبهم
واما رئيس الصف ورئيس الخباء فكسوتهم متنوعة فيختص رئيس الصف بالغليلة

المعروفة بالمنتان من الجوخ الاسود والسروال من الاحمر وعكسه رئيس الخباء فمنتيانه احمر وسرواله اسود واما الكتان فهو كسوة سائر افراد العسكر المحمدي بخلاف الخيالة فان اكسيتهم من الجوخ الاحمر الدون (تنبيه) امر مولانا ان لا يغير احد كسوته المخصوصة به سواء كان آغة او سيافا او رئيس صف او رئيس خباء او خيالاً او طوبجيا او عسكريا ولو بلغ ما بلغ في الغنى ومن استهون بهذا الامر فانه يعاقب العقوبة الشديدة وقد جعل مولانا نصره الله لسائر رؤساء الاصناف المذكورة علامات يتميزون بها ويعرف بها الرئيس من المرؤوس فجعل لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة اربعة علامات من الذهب اثنتان على منكبيه احداها مكتوب عليها . اشهد ان لا آله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله . والاخرى مكتوب عليها (الصبر مفتاح النصر) واثنتان في صدره على شكل القمر فذات اليمين مكتوب عليها (لا آله الا الله) وذات الشمال مكتوب عليها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وجعل لرئيس الخيالة علامتين من الذهب ايضاً احداها على منكبه الايمن مكتوب عليها (الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة) والاخرى يضعها على صدره مكتوب عليها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وجعل للسياف علامتين من الفضة على شكل السيف يضعهما على عضديه احداها وهي اليمنى مكتوب عليها (لا انفع من التقوى والشجاعة) وعلى الاخرى وهي اليسرى مكتوب عليها (ولا اضر من المخالفة وعدم الطاعة) وجعل لسياف الخيالة علامة واحدة من الفضة يجعلها على عضده الايسر مكتوب عليها (ايها المقاتل احمل تغنم) وجعل لرئيس الصف علامة واحدة يضعها على عضده الايمن وهي من الفضة ايضاً مكتوب عليها (من اطاع رئيسه واتقى مولاه نال ما يرجوه ويتمناه) ولنائبه علامة من الجوخ الاحمر يضعها على ساعده الايمن وجعل للباش كاتب علامة من الفضة على شكل القمر مكتوب عليها (ناصر الدين) يضعها على ساعده الايمن وجعل لرئيس الطوبجية علامة من الفضة يضعها على كتفه الايمن وهي صورة مدفع مكتوب عليها (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) (المسئلة الثالثة) لما كان يجب على الجند باصنافه اعني المشاة والخيالة والطوبجية ان يكون كل فرد منه عالما بمكائد الحرب متخلقاً بها مستعملاً لها عند مقابلة العدو ومن غير تكلف عين مولانا لكل صنف من هؤلاء الاصناف معلماً عارفاً نشيطاً حافظاً لجميع ما يجب استعماله حال الحرب وعين نصره الله للعسكر والطوبجية منبهاً سماه الطنبورجي يعني الطرنبيطي يجمع العسكر والطوبجية ويفرقهم بنقرات الطنبور اي الطرنبيطة ويدعوهم للاقدام والاحجام وله في تعليم الحرب

صيغ مخصوصة وفي غيره صيغ اخرى منها صيغة للعسه وصيغة لتبديلها وصيغة لاجتماع رؤساء الصف وصيغة لاجتماع السيافين وصيغة للحمل على العدوّ وصيغة للحذر منه الى غير ذلك وجعل نصره الله للخيالة منبهاً وهو النفير المعروف بالبوري يجمعهم ويفرقهم باصوات مختلفة يفهمونها وعين لتعليم الحرب والتمرين عليه اوقاتاً معلومة في ايام معلومة يخرج فيها العسكر والخيالة والطوبجية كل صنف على حدة حسبما تقضي به عليهم قوانين الحرب (تنبيهات) الاول يجب على رئيس العسكر والسيافين ورؤساء الصنوف وخلفاء الجميع وسائر الجند ان يتعلموا حرب البواريد (البندقيات) الى ان تحصل لهم الملكة ويقدروا على تعليم غيرهم ومن لم يتعلم منهم يعاقب الثاني يجب على المدفعيين ان يتعلموا حرب المدفع من دك ونيشان وحركات المدافع يميناً وشمالاً على حسب الحاجة ومن تعلم ذلك وحصله يكرمه مولانا ومن لم يتعلمه يعاقب الثالث وهو آكدها ان الاغة اعني رئيس العسكر المحمدي وخليفته اذا قاتلا العدو على غير القوانين الحربية وحصل من ذلك اختلال في صفوف العسكر او هزيمة فانهما يعاقبان على حسب اجتهاد السلطان (المسألة الرابعة) اخترع مولانا علامات من خالص الذهب والفضة على شكل بديع سماه الشيعة المحمدية يعني النيشان ونبه على سائر الجند ان من ظهرت شجاعته او ابدى مزية وقت الحرب بان انقذ اخاه من يد العدو او سبق غيره بالهجوم او الكر او ردّ الهزيمة على العدو وغير ذلك من المزايا التي ترجب له العز والاحترام عند مولانا وثبت لديه ذلك فانه يمنحه الشيعة ويلبسه اياها بيده الكريمة وتضرب الموسيقى له اعلاماً بذلك والشيعة تكون على حسب المزية هذا اذا كان حاضراً بين يديه واما اذا كان مع احد الخلفاء فانه يلزمه ان يثبت مزيته التي يستوجب بها حمل الشيعة عند الخليفة وهو يرفع الامر الى مولانا فحينئذٍ يامر له بها وسنذكر مراتب الشيعة في آخر الخاتمة (تنبيهات) الاول ان مات الآغة اعني رئيس العسكر المحمدي او السياف او كبير الصف في الحرب فلا ينقطع راتبه وانما يبقى جارياً على بنيه الى ان يقدر احد اولاده على حمل السلاح فيجري عليه بعد ذلك راتب عسكري حتى يترقى في الخدمة فيزاد في راتبه على حسب الرتبة التي ترقى اليها الثاني ان جُرح العسكري في القتال جرحاً يمنعه من المشي ويقدر على القتال راكباً فانه يدخل في صنف الخيالة وان تعطل بالكلية فانه يجري عليه راتبه من غير شرطٍ الى ان يموت الثالث اذا مرض العسكري مرضاً يمنعه من الخدمة بشهادة الاطباء فانه يجري عليه نصف راتبه الى ان يموت (المسأله الخامسة) ان مولانا جعل للمسكوكات الجارية في البلاد

صرفاً معلوماً تتعامل به رعيته وسك نصره الله نوعين من العملة احداهما المحمدية والاخرى النصفية فجعل صرف الدور ابو مدفع المعروف بابي عمود اربع ريالات وكل ريال فيه ثلاثة ارباع جزائرية وكل ربع جعل صرفه ثمان محمديات وكل محمدية نصفيتين من السكة الجديدة المضروبة في دار السكة بحيث اذا اطلق الريال لا ينصرف الا الى هذا الصرف وجعل الدور الجزائري ثلاث ريالات الا ثمان محمديات وبهذا الصرف يعطي راتب العسكر باصنافه (المسألة السادسة) في قيمة الكسوة وآلات الحرب اما كسوة الجوخ فالسروال قيمته ستة عشر ريالاً والغليلة وهي المنتيان قيمتها خمس ريالات والصدرية ستة عشر محمدية واما كسوة الكتان فالكبود قيمته اربع ريالات والسروال ثلاث ريالات وثمان محمديات والقميص ريالان الا ستة محمديات والشاشية وهي الطربوش عشرون محمدية والبلغة وهي المداس على حسب سعر السوق واما آلات الحرب فالبلاصكه وهي محل الفشك ريال واحد والمحزمة ثمانية عشر محمدية والبندقية اي البارودة بتمامها عشرون ريالاً وقيمة العالية وهي السنكى ثلاث ريالات والسكين وهي السيف احد عشر ريالاً (تنبيه) اذا اضاع الجندي شيئاً من الكسوة وآلات الحرب في الحرب او في حال تعلمه فلا ضمان عليه وكذلك الخيال اذا اتلف الفرس او السرج اوآلة حرب في حال القتال او تعلم الحرب فلاضمان عليه ومن اتلف شيئاً مما ذكر في غير هذين الموطنين فانه يضمن ما اتلفه بالقيمة المذكورة واذا بلي شيء كالبلاصكه او المحزمة مثلاً فانه يجدد من بيت المال (المسالة السابعة) ان مولانا اوجب ان يكون رؤساء الجند باصنافه من ذوي النجدة والشجاعة والاقدام والقوة في الدين واليقين والصبر والثبات والفطنة والتنبه للمكائد الحربية لان الرئيس في المعسكر بمنزلة القلب في الجسد اذا صلح صلح الجسد كله واذا فسد فسد الجسد كله فلاجل ذلك لا تكون رئاسة العسكر والخيالة واصحاب الرايات الا باختيار مولانا ونظره لمن فيه هذه الخصال الحميدة ومن ثمت لا يكون العسكري سياقاً الا بعد ان يتولى في الرتب الصغيرة وتظهر نتائجه الا اذا كان ممن حمل الشيعة فانه يستوجب ان يتولى سياقاً من غير تدريج هذا اذا توفرت فيه الشروط واوجب نصره الله ان لا يكون احد الخيالة رئيساً على العسكر المشاة الا اذا كان من اهل الشيعة فانه له ذلك ان احتيج اليه واختاره الامير لمصلحة رآها فيه (المسألة الثامنة) قد جعل مولانا لمؤنة العسكر المحمدي ميزاناً معلوماً بالرطل ونصفه وجعل وزن الرطل ستة عشر اوقية وكل اوقية ثمانية اثمان وكل

ثمن مائتي شعيرة مقصوصة الاطراف وان لا يكون الكيل وآلة الوزن الا بختم الامارة وعين نصره الله لكل عسكري رغيفاً وزنه نيأ عشرون اوقية ونضيجاً ثمانية عشر اوقية واثنى عشر اوقيــة من البرغل وستة اثمان من السمن فان فقد الخبز فرطل بقسماط مكانه فان فقد امعاً فانه يعطى من البرغل بدلهما وعين للعسكر السمن في الصيف والزيت في الشتاء

القوانين

القانون الاول

لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة اثنان وعشرون ريالاً راتباً شهريًا لا ينقص له من هذا العدد شيء وله في كل يوم ثلاثة ارغفة احدها من الخبز الابيض الخاص والاخران من الخبز الاسمر او خمسة ارطال بقسماط عند فقد الخبز وله ستة ارطال من البرغل في كل ليلة ونصف رطل سمناً وخمسة ارطال حطباً وله مثل ذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط معاً وله في كل يوم خميس واثنين شاة وله كسوة تامة من بيت المال وان بليت فانها تجدد له بالثمن فثمن المنتان وهو الغليلة ثمانيــة وعشرون ريالاً جزائريًا وثمن السروال اربعة واربعون ريالاً وثمن القميص ريال واحد

القانون الثاني

للسياف اثنا عشر ريالاً في الشهر وله في كل يوم رغيفــان احدهما ابيض والثاني من مطلق الخبز او رطلان ونصف بقسماط ان لم يوجد الخبز وله في كل ليلة رطلان من البرغل واوقيتان سمناً ومثل ذلك في النهار ان لم يوجد خبز ولا بقسماط وله في كل يوم خميس واثنين من اللحم ربع شاة وكسوته تجدد بالثمن

القانون الثالث

لرئيس الصف ثمان ريالات راتباً شهريًا وله رغيفان في كل يوم او رطلاً بقسماط وله من البرغل رطل ونصف في كل ليلة وان نقد الخبز والبقسماط يعطى في النهار مثل الليل وله من اللحم في كل خميس واثنين نصف ربع الشاة وخلفته

ست ريالات ونصف شهرية وله في الخرج مثله وكسوتهما تجدد بالثمن

القانون الرابع

لباش كاتب العسكر اثنا عشر ريالاً في كل شهر وله رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر او رطلان من البقسماط ورطلان من البرغل في كل ليلة واوقيتان من السمن وله مثل ذلك في النهار عند فقد الخبز والبقسماط وله في كل يوم خميس واثنين ربع شاة ورطل حطب في كل يوم وليلة ووظيفة هذا الباش كاتب كتابة امور الجيش كالرواتب والاكسية والديون التي تترتب في ذمة افراد العسكر وقرائة القانون وقت الحاجة ومن وظيفته ايضاً انه يجمع ما تحته من الكتاب ويعلمهم فرائض الغسل والوضوء والتيمم والصلاة والصوم وعقائد التوحيد كما ان كل واحد من هؤلاء الكتاب يعلم المائة التي هو كاتب عليها جميع العبادات والعقائد ويؤذن للصلاة ويصلي اماماً كما ان الباش كاتب يجب عليه ان يعلم الآغة وظائف الدين ويؤمه في الصلاة وقد اوجب مولانا على العسكر ورؤسائه ان يحترموا هؤلاء الكتاب ورئيسهم ومن اهان احدهم فانه يعاقب العقوبة الشديدة

القانون الخامس

لكاتب المائة سبع ريالات في كل شهر وله في كل يوم رغيفان من مطلق الخبز او رطلان من البقسماط وله في كل يوم خميس واثنين نصف ربع الشاة من اللحم وكسوة الكتاب جميعاً ان بليت تجدد بالثمن

القانون السادس

لحامل الراية المحمدية سبع ريالات في كل شهر وله رغيفان من الخبز الاسمر او رطل بقسماط ان فقد الخبز وباقي الخرج فهو فيه مع رئيس العسكر ولا يكون حامل الراية الا من اهل النجدة والشجاعة والجرأة وينزل مع الرئيس في محله

القانون السابع

للطباخ ريالان في كل شهر وله جلود الشياه التي يذبحها

القانون الثامن

لمعلم الحرب اثنا عشر ريالاً في كل شهر وله رغيفان من مطلق الخبز او رطل ونصف من البقسماط عوضاً عنهما ان فقد الخبز وله في كل ليلة رطل من البرغل واوقية من السمن وربع شاة من اللحم ولا يكون المعلم الا واحداً عند كل رئيس ويكون نزوله مع السياف

القانون التاسع

لرئيس الطنبور سبع ريالات ونصف في كل شهر وله رغيفان كل يوم من مطلق الخبز او رطلان بقسماط وينزل مع الرئيس

القانون العاشر

لمطلق العسكر المحمدي اعني لكل فرد منهم ست ريالات في كل شهر وله رغيف او رطل بقسماط ولسائر اهل الخباء اي الخيمة في كل ليلة خمس وعشرون رطلاً برغلاً ورطل ونصف رطل سمناً ومثلها زيتاً في فصل الشتاء وعند فقد السمن ولهم من الحطب خمسة عشر رطلاً سواء كانوا في سفر او حضر ولهم خمس وعشرون رطلاً من البرغل ان فقد الخبز او البقسماط والمائة منهم لها في كل يوم خميس واثنين خمس شياة يقسمونها على الاخبية هذا تمام المؤنة واذا نقص من المائة او اهل الخباء فانه ينقص لهم من هذه الاشياء كلها بقدر ما نقص من الاشخاص

القانون الحادي عشر

لجاويش العسكر سبع ريالات شهرياً وهو مثل العسكري في كل شيء وامره بيد الآغة اي رئيس العسكر المحمدي تولية وعزلاً

القانون الثاني عشر

لرئيس الخيالة تسعة عشر ريالاً في الشهر وله رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر وله اربعة ارطال من البرغل واربع آواق سمناً في كل وقت اعني ليلاً ونهاراً واربعة ارطال من الحطب في الليلة ومثل ذلك كله من البرغل والسمن والحطب ان فقد الخبز والبقسماط

القانون الثالث عشر

لسياف الخيالة تسع ريالات في كل شهر وستة عشر محمدية وله رغيف واحد ابيض وله نصف ربع الشاة من اللحم في كل يوم خميس واثنين

القانون الرابع عشر

لكل خيال سبع ريالات في كل شهر ولكل واحد منهم في كل يوم رغيف اسمر او رطل بقسماط عوضاً عنه وللخمسين خيالاً في كل خميس واثنين شاتان ونصف شاة ولهم في كل ليلة سبعة وثلاثون رطلاً من البرغل ومن السمن رطلان وربع ولهم مثل ذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط ولهم من الحطب عشرون رطلاً وينقص لهم من اللحم والسمن بقدر ما ينقص من عددهم

القانون الخامس عشر

لباش طوبجي اربعة عشر ريالاً في كل شهر وله في كل يوم رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر و رطلان من البقسماط عند فقد الخبز وله ثلاثة ارطال من البرغل في كل ليلة وثلاثة أواق سمناً ومثل ذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط وثلاثة ارطال حطباً ومن اللحم ربع شاة في كل يوم خميس واثنين

القانون السادس عشر

عين مولانا كما سبق لكل مدفع اثنى عشر جندياً ستة يقاتلون وستة يرتاحون وعليهم رئيس وهو الثالث عشر سماه رئيس المدفع ولهذا الرئيس كل يوم رغيفان من الخبز الاسمر وله في كل يوم خميس واثنين من اللحم ثمن شاة وباقي الخرج والمرتب فكالعسكر

القانون السابع عشر

كاتب الطوبجية مثل كاتب المائة في كل شيء

القانون الثامن عشر

لكل واحد من الطوبجية ستة ريالات ونصف في كل شهر وله رغيف واحد

اسمر في كل يوم او رطل بقسماط ولهم من البرغل واللحم والسمن والحطب مثل ما للعسكر واذا نقصوا ينقص لهم من الخرج بقدر ما ينقص من عددهم

القانون التاسع عشر

ان معلم الطوبجية في الايام التي يتعلم العسكر فيها الحرب لا بد ان يكون مقابلاً بالانفار والمدافع للعسكر و يتحاربون كما يفعلون مع العدو لاجل التدريب والتمرين

القانون الموفي عشرين

ان ربط الفشك وتذييب الرصاص انما هو على الطوبجية في كل محلة اي عرضى لانهم احق بذلك واذا كثر عليهم الشغل يستعينون بالعسكر

القانون الحادي والعشرون

ان العسكري البعيد الدار اذا طلب التسريح الى اهله واخذ الرخصة فيه فان بارودته تبقى محفوظة عند السياف وكذلك العسكري المريض الذي يكون في المستشفى

القانون الثاني والعشرون

المؤنة انما تجري على العسكر والخيالة والطوبجية ورؤسائهم في السفر والحضر ما داموا في الخدمة فان كانوا مسرحين بالرخصة في بلادهم عند اهاليهم فلا شيء لهم منها البتة

القانون الثالث والعشرون

لا يرخص لاحد من العسكر او الخيالة او الطوبجية ان ياخذ شيئاً من المؤنة الا بحضور باش كاتب العسكر وباش كاتب الخيالة وباش كاتب الطوبجية ومن تخلف من هؤلاء الكتاب عن الحضور في الوقت المعين لهم يعاقب و يشهر عقابه

القانون الرابع والعشرون

ان من اعتناء مولانا بجنده انه ابتنى لهم في كل محل يتعينون فيه مستشفى وهيأ فيه للمريض جميع ما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش وغطاء وخدمة من افراد العسكر بشرط ان يكونوا ذوي نباهة وآداب وطلاقة وجه واتساع خاطر حتى لا تضيق نفوس المرضى منهم وعين في كل مستشفى طبيباً ماهراً وجميع ما يلزم من الادوية ياخذ ثمنه من بيت المال والخدمة اذا تعلموا صناعة الطب والتمريض وشهد لهم الاطباء بالمعرفة التامة فان مرتباتهم يزاد فيها على حسب تفاوتهم في المعرفة ومن

شانهم ان يقوموا بتمريض المرضى في حال السفر والحضر وجميع نفقاتهم من بيت المال وجعل لرئيس الاطباء كسوة من الجوخ الجيد تامة واثني عشر ريالاً في كل شهر وله في كل خميس واثنين من اللحم ربع شاة وله رغيفان من الخبز الابيض في كل يوم او رطلان من البقسماط وفي كل ليلة رطلان من البرغل واوقيتان سمناً او زيتاً عند فقد السمن وكذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط معاً وله في كل يوم ثلاثة ارطال حطباً انتهى تقييد المسائل والقوانين التي هي في الحقيقة اصول ولها فروع كثيرة مذكورة في غير هذا المختصر

﴿ الخاتمة في انواع الجزاء ﴾

اوجب مولانا على رئيس العسكر وهو الآغة ان يتفقد عدد العسكر وكسوته وسلاحه وجميع آلات الحرب في كل يوم سبت وان تخلف عن ذلك لغير عذر ظاهر يحبس عشرين يوماً واوجب عليه ان لا يأخذ من العسكري ولا من السياف ولا من كبير الصف ولا من غيرهم محمدية واحدة وان لا يغش في شيء من الخدمة وان ثبت عليه شيء من ذلك فان اسمه يمحى من الديوان العسكري ويطرد ويهان واوجب نصره الله على السياف ان يتفقد ما تحت يده من العسكر في كل يوم اثنين وخميس فان تخلف عن ذلك لغير عذر ظاهر فانه يحبس عشرة ايام وان وجد في سلاحه فساد لم يصلحه فانه يحبس خمسة ايام واوجب عليه ان لا يظلم احداً من العسكر وان لا يأخذ منهم شيئاً وان لا يغش في الخدمة ولا يخون فان فعل شيئاً من ذلك وثبت عليه فانه يحبس ستين يوماً ويجب عليه ان يطيع الاوامر الاميرية ولا يخالف في شيء ما واوجب على كل سياف من سيافي العسكر ان لا يركب في يوم الحرب ولا في يوم تعليمه وانما يكون مع المرؤس عليهم ماشياً ليرتب صفوفهم للقتال او التعليم ويشجعهم وهو المتكفل بسلاحهم وهو المسئول عنه بالنسبة لمن فوقه فلا بدّ ان يتفقده ويعده والا فانه يضمن ما فقد منه واذا مات العسكري او غاب بالرخصة وكانت البارودة في يده فانه ياخذها منه ويدفعها الى الخليفة وياخذ منه سنداً فيها تبرئة له من الضمان فان غابت ولم ياخذ فيها سنداً فانه يضمنها واوجب على رئيس الصف ان يتفقد ما تحت حكمه من العسكر كل يوم صباحاً ومساء وذلك ان يصفهم ويقف الكاتب معه والدفتر في يده فيسمي افراد العسكر واحداً واحداً وكل من ذكر اسمه يجيب فان ذكر اسماً ولم يجبه احد يعلم ان المسمى غائب فحينئذ

ينظر في امره فان كانت غيبته لعذر مقبول فلا باس عليه والا فانه يطلب ثم يحبس يوماً وليلة ومن انف من الخروج للتعليم فانه يحبس يوماً وليلة وان تخلف السياف والكاتب او كل منهما عن الحضور للتعليم فانهما يحبسان ستة ايام واوجب على الجندي طاعة سيافه والقيام بامر العسة واوجب على عموم العسكر طاعة عموم روءسائهم فمن عصى رئيسه في شيء فانه يحبس خمسة عشر يوماً ومن سمع الطنبور ليتعلم الحرب ولم يجب فانه يحبس يومين ومن سمع الطنبور يدعو الى الخروج الى القتال ولم يخرج فانه يحبس شهراً ومن خرج للتعليم او القتال في غير الكسوة الاميرية فانه يحبس يوماً وليلة وكذلك الآغة والسياف ورئيس الصف ومن ترك الوسخ على سلاحه او كسوته فانه يحبس ثلاثة ايام ومن اتلف شيئاً من سلاحه او افسده في غير يوم الحرب او تعليمه فانه يضمن قيمته كما تقدم في المسائل ومن هرب من الخدمة العسكرية ورجع باختياره فانه يحبس على قدر الايام التي غاب فيها ومن هرب وقبض عليه بامر الامير فانه يحبس على حسب اجتهاد الامير ومن اطلق طلقاً واحداً من بارودته ليلاً او نهاراً لغير مصلحة فانه يحبس يوماً وليلة واذا نام العسكري في العسة القائم بها فانه يحبس ثمانية ايام واذا باع العسكري شيئاً من البارود وثبت عليه ذلك فانه يحبس شهراً واذا كان العسكري المذنب مسافراً فانه يضرب بالسوط على قدر الايام التي يحبس فيها قانوناً وجميع ما يلزم رئيس العسكر المحمدي ويجري عليه يلزم رئيس الخيالة ويجري عليه وكل ما يلزم العسكري يلزم الخيال وكل ما يلزم سياف العسكر يلزم سياف الخيالة وان ركب الخيال فرسه من دون موجب فانه يحبس يوماً وليلة وما يجري على العسكر يلزم سائر الطوبجية ويجري عليهم وما يجري على السيافين يجري على باش طوبجي وان عمل احد روءساء العسكر او الخيالة او الطوبجية ما يستوجب العزل فانه ينحط عن رتبته الى رتبة عسكري ويلبس لباسه وكسوة الجوخ ترجع الى بيت المال وان وجب حكم من الاحكام السابقة على افراد العسكر فان روءساء الصف هم الذين يتولون نفوذ الحكم القانوني فان السياف يحكم عليه بحسب القانون الذي يحده وان فرط رئيس العسكر في نفوذ الحكم القانوني فان مولانا او خليفته يعاقبه حسب القانون وان فعل العسكري خصلة حميدة في حال الحرب فانه يحوز الشيعة المحمدية ويستوجبها على الهيئة المذكورة في المسائل ويحوز حرمة فوق السيافين واذا فعل رئيس العسكر مزية فانه يحمل الشيعة اللائقة والشيعة نيشان صورة يد مفتوحة الاصابع ذهباً وفضة وفي وسطها مكتوب ✱ ناصر الدين ✱ تربط على الراس فوق

الاذن اليمنى ولناقلها في كل شهر خمسة وعشرون ريالاً ويجب احترامه على الجميع وهكذا الخيالة ورؤساؤهم فمن عمل بمقتضى هذه القوانين وبما ذكر في المسائل فقد فاز في الدنيا والآخرة ونال من الله تعالى الرضى وزيادة فيجب على من سمع ما ذكرناه ان يطيعه ويعمل به ويذعن له ويرضى به والله ولي التوفيق والهادي الى سواء الطريق حرر في اواخر جمادى الاولى سنة تسع واربعين ومائتين والف



رسم احد خيالة جيش الامير



رسم احد عساكر الامير

﴿ صفة هيئة المعسكر وترتيبه في السفر ﴾

كانت هيئته شبه دائرة حسنة الانتظام خيامها مخروطية الشكل متناسبة البعد في البناء كل خيمة تضم ثلاثة وثلاثين نفراً ومدخل المعسكر من جهة الشرق وعليه مدفعان وفي المقدمة خيمة رئيس المدافع ويقابلها خيمة رئيس الجراحين والاطباء والمستشفى وفي نصف الدائرة خيمة الامير وطولها خمسة عشر متراً في عرض ستة امتار مزينة الباطن بانواع الاقمشة الملونة مفروشة الداخل بالزرابي المتقنة تبنى على ثلاثة عواميد ارتفاع كل واحد منها خمسة عشر قدماً متناسبة الوضع في البعد ومجلس الامير فيها مقابلاً للمدخل وامامه صندوقان صغيرا الحجم من حديد ضمن حداها اوراقه المهمة وضمن الثاني مال ينفقه في الاحسان والخيرات ويقابل المدخل ستارة يقف عندها عبدان دائماً ومن ورائها مكان يختلي فيه للوضوء والصلاة والمقابلة السرية وعلى بعد ستة امتار من الخيمة مركز راياته ومربط خيله المختصة بـه واذا جلس داخل خيمته تقف حوله كتمة اسراره وخواص المأمورين واركان الحرب بغاية ما يكون من الادب والخضوع ويقف من ورائهم ثلاثون عبداً من اهل الشدة والبأس المشهود لهم بالشجاعة والفروسية وهم الحرس الخصوصي للامير يتناوبون ليلاً ونهاراً واثمانهم من بيت المال واذا اراد اصدار امر ما اشار لمن يريده فيقرب منه ويتلقى الامر ثم يرجع القهقرى وخيام كتبة اسراره وخواص مأموريه عن يمين خيمته وشمالها ومن ورائهم خيام محافظي الخزنة ولوازمات الجند من البسة واسلحة وغيرها ومؤونة الجيش ومرابط الجمال والبغال على ناحية منها وفي كل جهة من المعسكر سوق يشتمل على قهاوي ودكاكين تباع فيها اصناف البضاعة والماكولات واذا حضر وقت الصلاة واذن المؤذن يخرج الامير فيصلي بهم اماماً ويعاقب كل من تخلف عن صلاة الجماعة لغير عذر وكان يجلس لفصل الدعاوي بعد فراغه من صلاة الضحى الى اذان الظهر ثم يخرج ويصلي اماماً ويرجع لخيمته ليقيل ساعة ثم يجلس للفصل ايضاً الى اذان العصر وبعد الفراغ من الصلاة تصدح الموسيقى امام خيمته بانغام شجية والحان اندلسية تحرك اوتار الاشجان ويتواجد من الحانها كل انسان حتى ان الخيل تكف عن الاكل ويتخيل الناظر انها ترقص من كثرة حركة يديها ورجليها عند استماعها فاذا انتهت الموسيقى نادى الجاويش (الله ينصر ناصر الدين ويطيل عمره) فيجيبه الجميع بمثل ذلك وبعد اداء صلاة العشاء تضرب الموسيقى

لحناً واحداً ثم يمنع الدخول والخروج من المعسكر ولا يؤذن في الدخول والخروج منه الا بامر الامير وكل من يخالف هذا القانون فجزاؤه الاعدام

صفة رحيل المعسكر ونزوله

اذا اراد الامير الرحيل يطلب الخزندار بعد اداء صلاة الصبح ويامره بتهيء الجيش للرحيل فيطلق مدفعان بينهما برهة يسيرة وهذه علامة الرحيل فحينئذٍ يثور جميع الجند لجمع الامتعة وهدم الخيام وتحميل المؤنة والذخائر وتمتطي الفرسان صهوات الخيل ثم تاتي الاغوات وقواد القبائل الى خيمة الامير فياذن لهم بالدخول ويسألهم عن الاراضي والمراكز الموافقة للنزول ثم ياتي الخزندار فيخبره بتهيء الجيش للمسير فيخرج من خيمته ويمتطي صهوة جواده فيثب به وثبتين ثم تصدح الموسيقى بلحن الرحيل فيبتدىء الجيش بالمسير على ترتيب عجيب الى ان يصلوا المحل المناسب للمبيت فينزل الامير وتنصب الرايات ويحيط به الحرس ويذهب الخزندار لترتيب نزول الجيش وتعيين محل خيمة الامير وفي اقرب وقت ترى الخيام نصبت والمضارب ضربت ونزل كل فريق في منزله ووقف الخفر في محله فعند ذلك يذهب الخزندار واحد اركان الحجاب فيخبر الامير بامكان دخوله المعسكر فيركب جواده ويسير والماموروں من ورائه والموسيقى تصدح بلحن الوصول الى قرب الخيمة ثم تغير اللحن فيهدأ فرس الامير ويتقرب من الكرسي المعد لنزوله وعند وطئه الارض تطلق ثلاث مدافع اعلاماً بنزوله

ذكر خروج الامير لتمهيد البلاد

لما بلغ ابن عربي خبر انتصار الدوائر على جيوش الامير اظهر ما كان كامناً في صدره من نبذ الطاعة والدعوة لنفسه وحمل قبائل البربر في ناحيته على اظهار ما كان يدسه اليهم من الخروج عن طاعة الامير واجتماع كلمتهم عليه فاجابوه الى ذلك واحتشدوا اليه فنهض بهم الى نواحي القلعة واستجاش بالبرجية وكان رئيسهم قدور ابن المختي على مشربه فصمدوا جميعاً في القرب من قصبة البرج فخرج اليهم الامير بعد ان اخذ اهبته وعرض جنده المنظم وسار اليهم في الثامن من صفر سنة خمسين وفي السابع عشر من يونيه سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف ففض جموعهم واثخن بهم قتلاً وسبياً ودخل القصبة فاضرمها ناراً وحطم اشجارها ثم بعث السبي وفيهم

حريم ابن المختي واولاده الى الحضرة وارتحل الى القلعة وفر ابن عربي بجموعه الى نواحي مينة فاتبعهم الامير وصادفهم القتال فهزمهم اقبح هزيمة وامتلأت ايدي جيوشه بالغنائم ولما علم اهل تلك النواحي ان ابن عربي قد تلاشى امره ولا مناص لهم من عقاب الامير اوفدوا عليه علماءهم واشرافهم فاعتذروا اليه واوثقوه على دسائس ابن عربي وادوا اليه طاعتهم وطاعة من خلفهم فقبلها منهم وولى السيد ابا شقور خليفة عنه في تلك النواحي وولى السيد محيي الدين بن علال على مليانه ونواحيها وفوض اليه في جمع كلمة القبائل الشمالية الى شرشال وتنس من السواحل البحرية وانقلب راجعاً الى الجهة الغربية فاحتل بسيك ثم ارتحل الى ثنية مانوخ وشن الغارات على قبيلة رياح في منازلهم فيما وراء تلمسان لجهة الشمال فجحهم واكتسح اموالهم وحملهم على الطاعة ثم انعطف غازياً على بني خلاد من قبائل ولهاصة في الساحل فاثخن فيهم واستولى على موجوداتهم وادوا طاعتهم وعسكروا معه فلما بلغ الدوائر ما حل باشياعهم تنادوا وانضموا الى حليفهم الشيخ ابن الغماري وقومه وعمدوا لقتال الامير في المهراز غربي تافنا فزحف اليهم الامير في السادس من ربيع الاول سنة خمسين واربعة عشر يوليه سنة اربع وثلاثين فاصطفوا تجاه الجند ودعتهم نفوسهم الى الهجوم عليه فاذاقهم نكال الحرب وردهم على اعقابهم ووقع رئيسهم ابن اسماعيل جريحاً فحملوه وولوا الادبار تاركين قتلاهم في المعركة وبعث الامير رؤوس من هلك من اعيانهم المشاهير كعبدالله بن الشيخ الغماري وغيره من الابطال المعروفين فنصبوا على ابواب الحاضرة معسكر عبرة لغيرهم وطارت البشائر بهذه الانتصارات المتتابعة الى الولايات واعلن بها في المدن والقرى والضواحي ففرح الناس بذلك وانشرحت صدورهم لما يعلمونه من مرض قلوب الخوارج وشدة حقدهم على المسلمين وظلمهم عباد الله ايام الحكومة الجزائرية وبعد ان فرغ الامير من امر الخوارج واشياعهم ارتحل الى تلمسان فكان يوم دخوله يوماً مشهوداً وتفاوض الخوارج في امرهم فاشار عليهم رئيس الدوائر مصطفى بن اسماعيل بان يلحقوا بالمغرب الاقصى ويدخلوا في طاعة سلطانه واشار الشيخ ابن الغماري والمازري بالاذعان للامير قائلين هو سيدنا وابن سيدنا فان تقبل توبتنا ورفع قدرنا بين اقراننا فذلك والا فحينئذ ننظر في امرنا واللحوق بسلطان المغرب الاقصى غير موافق لان فينا الضعيف ومن لا قدرة له على الوصول الى تلك البلاد على ان غالب سكانها لا تلائم الاحكام السلطانية فلا نسلم من غوائلهم ولا يخفى ان توالي الحروب وتتابع الغزوات علينا افنى لنا الظهر واباد المال واخذ قوانا

فقال ابن اسماعيل ان ابن محيي الدين اذا ظفر بكم لا بد ان يقتلكم ويعلق اشلاءكم واحدًا بعد واحد على اسوار معسكر وكأني انظر الى الحشم يتفرجون عليكم ويشمتون بكم والذي ينجو منكم يعيش تحتهم ذليلاً حقيرًا واطال عليهم في التحذير والتنذير فلم يلتفتوا اليه واستامنوا الامير فبعث اليهم منشور الامان مع كاتبه الخاص السيد مصطفى بن التهامي والعلامة السيد عبدالله سقاط فاطمأنت قلوبهم وطابت نفوسهم وتوجهوا مع الرسولين الى تلمسان ولما دخلوا على الامير مذعنين تقبل طاعتهم واكرم نزلهم واقر الشيخ ابن الغاري على رئاسة قومه وولى المازري على قومه الدوائر وامرهم بالرحيل الى قرب تلمسان فامتثلوا وارتحلوا وخالفهم ابن اسماعيل ولحق ببلاد ولماصه ثم ان المازري قدم شفاعته الى الامير في عمه ابن اسماعيل فشفعه فيه واحضره الى اعتابه فتلقاه الامير ولاطفه واحسن السوال عنه وعن احواله وبعد ان خرج من عنده لقيه اقاربه فسألوه عما جرى فقال لهم هذا آخر العهد بيني وبين هذا الامير فقيل له في ذلك فقال اني رايته لا يتاثر بما يرضى ولا بما يغضب فعلمت انه يضمر لنا السوء كيف وقد وقع منا ما وقع مما يوجب ذلك والان قد استقام له الامر ثم ذهب الى اهله وتنصر وقتل فيمن قتل من جيش الفرنسيس وسناتي على بقية خبره ان شاء الله تعالى ولم يزل الامير مقيماً في تلمسان الى ان اصلح شانها وشان ايالتها وفي اثناء ذلك ظهر قصور من قائد طائفة الكول اوغلان فعزله وولى مصطفى باي ابن الباي المقلح ثم بلغه ان فرقة من الدوائر فروا من منازلهم المعينة لهم قرب تلمسان ولحقوا بالحمرا نواحي وهران من جهة البحر فغزاهم وفي طريقه راى بعض الرعاة الجيش فسبقه اليهم واندرهم فبادر جماعة الى الهروب ودخلوا في حصن للفرنسيس كان قريبًا منهم وتراخى آخرون فلحق بهم الامير واكتسح اموالهم وردهم عن وجهتهم فتفرقوا اوزاعًا في القبائل وانفتل الامير راجعًا على بلاد اولاد خالفه من بني عامر ونزل بوادي الكيحل فحضر لديه من اعيان الدوائر رئيسهم المازري وبنو عدّه ولد عثمان ومن اعيان الزمالة رئيسهم محمد بن المختار ومحمد ولد قادم وابن غنوُّر وجماعة من الونازرة فامرهم ان يرتحلوا من منازلهم الى معسكر وعين محلة العرقوب لسكناهم فاجابو وارتحلوا حالاً واصل هؤلاء الدوائر والزمالة اخلاط من العرب والبربر كانوا يلوذون بالباي محمد حاكم معسكر وفاتح وهران من يد دولة اسبانيا فلما حدث الطاعون الجارف في المغرب الاوسط في اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة خيم الباي في ظاهر البلد وخرج الناس لخروجه فعين من هؤلاء الخدم جماعة للنزول في دائرة

خيامه فسموا دوائر وعين آخرين لحمل اثقاله واثقال عسكره فسموا بالزمالة ولما حصل لهاتين الفرقتين ما حصل من الاحترام والامتياز بين جميع الرعية باحراز مقاصدهم واستثنائهم من سائر المطالب الميرية صار الناس من جميع الجهات يهرعون الى الدخول في خدمتهم والانحياز اليهم فكثر عدد كل من الطائفتين وصارتا قبيلتين عظيمتين وكثر نسلهم وقويت شوكتهم ولما انتقل الباي محمد الى وهران بعد ان فتحها انتقلوا معه فحازوا الوظائف الجليلة والمراتب العالية وتقدموا على من سواهم من اعيان الوطن ورؤسائه عند حكومة وهران فلما بدلت تلك الحكومة بدولة الامير واحسوا بانحطاطهم عما كانوا عليه انفوا واستنكفوا واقتحموا الشدائد العظيمة التي لا يعانيها غيرهم فهلكت رجالهم ونفيت اموالهم وقل عددهم وانقطع مددهم و بلغوا من الضعف غايته ومن العوز نهايته ثم حملتهم الانفة على الانخراط في سلك الفرنسيس والدخول في عددهم فقاتلوا المسلمين دونهم وبذلوا قوتهم في نصرتهم ولم يتخل عنهم الامير الا بعد ان اطلع على نفاقهم واعراضهم ظاهرًا وباطنًا عن الاسلام وطالما حاول ابعادهم عن وهران فما امكنه ذلك ولم يزل اعقابهم ومن لم يهلك من كبارهم مع الفرنسيس لهذا العهد واما الحشم فانهم اخلاط من القبائل كانوا خدمًا وحشمًا لبني زيان ملوك تلمسان واما بنو عامر فاصلهم من عرب الشام ومنازلهم معروفة بفلسطين ببرج بني عامر ولما فرغ الامير من تمهيد الجهة الغربية واصلاح شؤنها وولى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي وانقتل راجعًا الى حضرته معسكر وتفرغ للنظر في احوال الجند وتكثير عدده واستكمال عدده ولما اتصل ذلك بالجنرال دي ميشيل حاكم وهران اوعز الى وكيلهم في معسكر عبدالله بمساعدة الامير واعطائه الآراء في تحسين احوال الجند والاستقصاء في تعليمه وتدريبه وارسل من طرفه معلمين ماهرين واربعمائة بارودة ومقدارًا وافرًا من الذخائر الحربية وقال ان الامير مستعد للقيام باعباء الملك غير ان ذلك لا يتم له الا بالعساكر المنتظمة والجيوش المدربة واما الحشود والجموع الغير المنتظمة فلا تجدي نفعًا ولا تستطيع جلبًا ولا دفعًا فعجب الناس من نصائح هذا الجنرال ومساعدته الامير وعدوه من شعائر الانسانية ودلائل الرغبة في دوام المواصلة والمسالمة ثم ان الامير وجه خليفته على بسكره والصحراء السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن ومعه السيد محمد بن كانون الى احمد باشا باي تونس واصحبها بسيف مرصع بالجواهر وخيول بسروج مذهبة وآلة شاي من الذهب وغيرها ثم رجع الوفد بغاية من الممنونية مصحوبًا بالهدايا السنية فتقبلها الامير قال بعض مؤرخي الافرنج وبهذا الاتفاق اتجهت احوال

العرب للتقدم والنجاح ثم في اواخر شهر آب وفد الشيخ ابن الغاري رئيس قبيلة انكاد حليف الدوائر على الحضرة وابن عربي مظهراً للخضوع والطاعة ومعه صهره محمد بن المداح رئيس قبيلة اولاد خويدم وقدور بن المخفي وروساء البرجية فانزلهم الامير في دار الضيافة وقدموا كلهم في وقت واحد كأنهم على ميعاد وفي ثاني يوم وصولهم اذن لهم الامير في الدخول عليه فبشّ في وجوههم واحسن السوءال عنهم وبعد ايام اذن لهم في الانصراف الى اهلهم سوى ابن عربي وصهره وشيخ انكاد ابن الغارى فانه امر بحبسهم حتى ينظر في امرهم ومن الاتفاق العجيب انه حدث الوباء المعروف بالريح الاصفر تلك الايام فمات به ابن عربي وصهره ابن المداح وبقي ابن الغاري ففر من السجن وكان دس الى اهله ان يأتوه بفرس ليهرب عليه نظراً لشيخوخته وعين لهم الوقت والموضع الذي يلاقيهم فيه ففعلوا فقبض عليهم العسكر بالليل وذهب ابن الغاري وخادمه الى الموضع الذي عينه لاهله فلم يجدهم ولحق بحرش بلد المشارف على مسافة قليلة من الحضرة فاقام به ينتظر اهله ولما طال عليه الحال بعث خادمه ليأتيه بما يقوته نقبض عليه المشارف وسالوه عن حاله فاجاب انه غريب سائل ثم قويت الشبهة فيه فضيقوا عليه فاقر بامره ودلهم على سيده فقبضوا عليه واحضروه بين يدي الامير فامر به فعلق على سور البلد وعلق خادمه لجانبه ولم يزل الامير جائلاً في ميادين هذه المقاصد متواصل الحركة في درء المفاسد تارة بالطعن والاثخان وتارة بالوعظ والاحسان على حسب ما يقتضيه الحال والزمان الى ان استقامت الامور وامنت السبل وارتفع الشقاق وارتاحت الافكار واشتغلت الرعية بما يعنيهم من زراعة وتجارة وعمّ الامن البراري والقفار قال بعض المؤرخين بلغ امر بلاد الجزائر في الامن الى حالة لو سارت البنت البكر الجميلة في صحاريها وقفارها حاملة نفائس الجواهر على راسها لا تجد من يسالها فضلاً عمن يتعرض لها بسوء وتعطرت المحافل بذكر الامير عبد القادر ورمقته عيون التعجب لما وصل اليه مع حداثة سنه من الامر المدهش الذي لم يكن مظنوناً عند من يعرف احوال بلاد الجزائر وضغائن اهلها وعدم انتظام امرهم ثم قال وكان الامير محافظاً على اقامة الحق ناشراً لواء العدل على عموم الرعايا يجري القصاص الشرعي والسياسي على اصحاب الجنايات بما يستحقونه لا تاخذه في ذلك لومة لائم وكان الناس يقبلون احكامه ويتلقونها بانشراح صدر وطيب نفس وقال غيره بعد ذكر ما جرى بين عساكر الامير والخوارج ان همم الامير عبد القادر لم تفتر في اثناء ذلك عن السعي بما فيه راحة البلاد فانه رتب

سائر ما يلزم من الخلفاء عنه والولاة ووطد الراحة العامة والحق يقال ان الحصول على ذلك في مثل تلك الاوقات امر عظيم جدًا وهو دليل كاف على عظم همته فانه قطع ما يوجب سقوط امارته وحوّل احوال البلاد من العسر الى اليسر ومن الاضطراب الى السكون في مدة عشرين شهرًا من يوم بيعته وابتداء دولته وقال ومن العجب ان تمكن امارته كان بقوتين قوة رغبة وقوة رهبة الا ان القوة الاولى كانت هي المعوّل عليها ولذا كان الاكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد وقال بلغ الامير عبد القادر في الفطنة والدهاء ما لم يبلغه غيره من امراء العرب وناهيك به من امير جليل تلطف في الشروط التي قررها في عقد المعاهدة واظهرها في اسلوب عجيب حتى ان الجنرال دي ميشيل لم يتوقف في قبولها ولم يتلعثم في الموافقة عليها بل اجراها وامضاها في الحال ثم ظهر له منها ما تركه في حيرة من امره وعلم ان الامير قد خدعه والحرب خدعة فمن ذلك ان جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة ارزيو لا في سواها من الاساكل وانها تكون تحت نظره لا مدخل للفرنسيس فيها وان جميع ما يرد من الداخلية لا يباع الا في ارزيو ولا يشحن الى بلاد اوربا الا منها واما وهران ومستغانم فلا يرد عليها من الداخلية الا ما تقضي به حاجة اهلها فاعتمد الوكيل خليفة ابن محمود في ارزيو على هذا وجعله نصب عينيه واستقصى في اجرائه وافرط حتى انه منع غيره ان يشتري شيئًا من واردات الداخلية وانما هو يشتري من الباعة ما يجلبونه الى البلد ويشحنه على حسابه الى بلاد الافرنج فغضب لذلك تجار فرنسا ونقموا على الجنرال دي ميشيل ظنًا منهم ان ذلك عن اذنه وبرخصته فرفعوا امرهم اليه فانكر ان يكون ما يفعله الوكيل منه ثم انه اجرى ما ارضى الطرفين وذلك انه ابقى للوكيل ما يرد عليه من واردات الامير المختصة به من املاكه وما سوى ذلك جعله حرًا لا يختص باحد دون آخر قال وكان الامير نبه على وكلائه ان لا يقبلوا رجوع المسلمين الذين هاجروا من وهران ومستغانم وارزيو فكانوا يمنعون كل من رجع من اولئك المهاجرين ان يدخل الى احدى هذه المدن ويجبرونهم على الرجوع الى داخلية البلاد وساعدهم ما ذكر في الشرط الثالث من شروط المعاهدة ثم اتصلت اخبار هذه الاجراآت وامثالها بدولة فرنسا فكبر عليها الامر ولعدم اطلاعها على احوال البلاد توهمت ان الامير يراجع امير مكة المكرمة ويطلب منه الامداد فانتخبت لمراقبة اعماله وحركاته غلامًا فطنًا اسمه روس ليون وسنه نحوًا من عشرين سنة وهو من عائلة شهيرة في فرنسا وارسلته صحبة ابيه الى الجزائر بعد ان اعلمته بالامر المهم المرسل لاجله وهو

تحقيق احوال الامير ومراقبة حركاته فلما وصل الى الجزائر تلطف حتى وصل الى الامير واسلم على يديه فامر الامير بعض الفقهاء بان يقرأه القرآن وآداب الشريعة والعقائد الدينية ويعلمه اللغة والكتابة العربية ولما تعلم احضر الى الامير فتعجب من اعتنائه وذكائه ثم زوجه واستعمله في كتاباته الخصوصية تاليفاً له وتشويقاً لغيره فقام باداء وظيفته اتم قيام ولازم الامير في اغلب المواضع وخاض بعض المعامع ودام على هذا الشان مدة من الزمان ولما احكم التدبير في امر الولوج شرع في التفكر باتمام العمل وسرعة الخروج فكتب كتاباً بما اراده الى امير مكة المكرمة وقلد خط الامير في الامضا وبخاتمه الخصوصي ختمه وترك الامير مشتغلاً بالحرب مع فرنسا في بعض الوقائع فانتهز الفرصة وآب الى معسكرهم راجعاً ومنه توجه الى باريس واخبر الحكومة بما فعل فاصحبته بهدية ووجهته الى مكة ولما قابل الشريف محمد بن عون وسلمه الكتاب والهدية اعتبره واكرم نزله وبعد ايام سلمه الجواب مع هدية لائقة بالامير ثم ودعه وامره بالمسير فانقلب راجعاً وكان مضمون الجواب اهداءه السلام والدعاء بالتوفيق وبلوغ المرام فعند ذلك تحققت الحكومة الفرنساوية ان لا مخابرة بينهما في امور سياسية وقد الف روس تاريخاً سماه ثلاثين سنة في الاسلام اودع فيه من اخبار الامير ما حسنه وزينه ثم امرت الجنرال دي ميشيل ان يبعث من طرفه الى دار الامارة بعسكر مراقبين مستعدين لالقاء الدسائس في قلوب اعيان الرعية فجاءوا اليها في صورة متفرجين وجعل امرهم الى وكيلهم عبدالله فاحس الامير بهذه المكيدة وتنبه لها واخذ حذره منها فسد على المراقبين طرق نجاحهم وقصر يد الوكيل وايديهم عن الوصول الى مرادهم وبالجملة فان آمال الفرنسيس التي كانت تتعلق بحصول الراحة لهم والقاء الدسائس المؤثرة في قلوب رعايا الامير خابت وذهبت سدى ثم ان دولة فرنسا بعثت جماعة من اعيان امرائها الى الجزائر في السادس من ربيع الاول سنة احدى وخمسين والثالث من يوليه سنة خمس وثلاثين وثمانمائة والف وجعلت اليهم النظر في امورها وعند وصولهم اليها تذاكروا فيما انتجته حروبهم من المنافع والمضار ثم تآمروا فيما يلزم استعماله لتوطيد سلطتهم في البلاد واتفقوا على وضع حكومة عسكرية ممتازة بسياسة مخصوصة في الجزائر وسائر المواطن التي استولوا عليها في الساحل فصدر امر دولتهم باجراء ما اتفقوا عليه وتعيين الجنرال الكونت دروان درلون والياً على الجزائر وعزل الجنرال دي ميشيل عن وهران وقد سمعت من الوالد رحمه الله ان سبب عزله انه بلغ دولته بان مراده الدخول في الاسلام فعزلوه حالاً ولولا مكنه الجنرال

تريزيل وامر بدوام المحافظة على المعاهدة والرعاية لها ولما كان ميالاً بالطبع الى
الخصام جلاّباً لاسبابه جرى في ظاهره على ما تقتضيه اوامر دولته وفي سره على
مقتضى طبعه واتفق ان اهل تيطرى بعثوا بيعتهم الى الامير واوفدوا عليه مشيختهم
فاتصل به خبرهم فوجم لذلك ورأى انه قد تهيا له الوصول الى ما يريده من نقض
المعاهدة التي عقدها الجنرال دي ميشيل لثقل امرها عليه ومخالفتها لمرامه وجاءته
رسل ابن اسماعيل وقومه يعرضون عليه امرهم ويعدونه باداء الطاعة عند اول فرصة
تتهيأ لهم ففرح لذلك ثم ان الامير بعث وزير الخارجية الميلود بن عراس الى والي
الجزائر ليبلغ التهنئة والتبريك بالولاية ويرى ما عنده في امر الوطن واصحبه مكتوباً
اليه ملخصه بعد التحية ان معتمدي ابن عراش وجهته الى حضرتكم ليبلغكم التهنئة
والتبريك من قبلي بالولاية على الجزائر . ولقيامي بالمحافظة على امور المعاهدة اوعزت
اليه ان يفاوضكم في امور تعين عليّ اجراؤها لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية
في السهول والجبال والسواحل التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية وخشيت
ان يكون ذلك سبباً مكدراً لما بيننا من المصافاة . ومراد الامير من هذه ان يثبت
بوسيلة خفية امارته على جميع الاقليم ما عدا الاربع مدن التي بيد الفرنسيس . وصار ينتظر
الجواب معتمداً ان اجابه برفض قبول المداخلة مع العرب الذين هم خارج وهران
ويجيبه بانه لا يعنيه التعرض له بل لا يعنيه امرهم على انه يعلم من الجواب هل يمكنه
ان يملك اقليم تيطرى بدون مجاوزة حدود المعاهدة ام لا فلما وصل ابن عراش الى
الحاكم اكرم وفادته والان له الجانب وكان جوابه الامير بعد اداء واجبات
التعظيم . قد وصلني مرسومكم . وبلغني معتمدكم ما تعلقت به ارادتكم في الجهة الشرقية
وحيث ان جل مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند
دولة فرنسا ورجالها فلا تتوقفوا واني اومل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة
البلاد ولك ان تعتقد بانك لا تقاوم في كل ارض تقصد الاستيلاء عليها بشرط ان تكون
لك قوة على اخذها قال بعض مؤرخيهم ان قرب عهد الجنرال بدخوله الى الجزائر والياً
عليها وعدم معرفته بدهاء العرب وطرق حيلها وخلو مجلسه ممن يشير عليه بالراي ويوقفه
على خفايا احوال البلاد هو الذي حسن له هذا الجواب مع ما اوصته به دولته عند تقليده
الولاية بقولها يلزمك ان تحافظ على مسالمة الامير عبد القادر في سائر الاحوال وان
لا تجري امراً ما يوجب اغبرار خاطره واياك ان تتعاطى حركة تقتضي عليك بطلب
العسكر من هنا مطلقاً ثم ان الامير لما راى ان لا شيء يمنعه من اجراء ما عزم عليه

اعتمد علي التوجه الى تيطرى فمنعه حدوث الريح الاصفر حينئذٍ في البلاد وبعد زواله تأهب للسفر وكتب الى حاكم الجزائر يخبره بذلك وكان بعد رجوع ابن عراش بعث اليه بصورة الشروط التي ابرمها مع دي ميشيل في المعاهدة فهاله امرها فلما اتصل به خبر المسير غضب وكتب في الجواب ما نصه قد فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي انظره ان هذا العزم خال من الصواب وليكن في علمكم ان الجنرال دي ميشيل لم تكن له سلطة ولا حكم الا على ايالة وهران ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات ومهما توسعت دائرة التاويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير فلا يكون لكم طلب الا على ايالة وهران وبناء على ذلك فلا نسمح لكم ان تدخلوا ايالة تيطرى ولا ان تتجاوزوا وادي شلف شرقاً ونهر ارهيو الى كوجيله وبالجملة فلكم ان تحكموا في البلاد التي هي لكم الان بحسب شريعة الاسلام وبذلك نكون اصحاباً ولا اقدر ان ارخص لعساكركم ان تدخل الى ولاية تيطرى لان كما يجري هناك يختص بي واني مستمر مع ساكني الاقاليم على السلم ومعتمد على تعيين مراكز فرنسوية في البليده وبوفاريك متى رايت ذلك مناسباً لصالح فرنسا فاجابه الامير قد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه ثم اقول ان مرمى افكار حضرتكم بعيد عن الاصابة لان تحافظتي على السلم لا يجهلها احد ولولا ذلك ما احتجت الى مذاكرتكم فيما اجريه في وطني وقصارى الامر انه لا يبعد ان يكون بعض اهل الفساد القى في ذهن حضرتكم ما اوجب ان يكون جوابكم على هذا الاسلوب وعلى كل حال فاني عدلت الآن عن النهوض الي تيطرى ابقاء للسلم ورعاية له ثم ان اهل تيطرى لما طال عليهم الامد وتاخر عنهم الامير في انجاز الوعد ولوا امرهم رجلاً من غز مصر يقال له الحاج موسى بن حسن ويعرف بابي حمار لادمانه على ركوب حمار له قد جاء الى تلك الولاية واستوطن بلاد اولاد نائل منها واظهر النسك والصلاح وانتحل تلقين اوراد الطريقة الشاذلية فاجتمعت عليه كلمة اولاد نائل وغيرهم من قبائل تلك الناحية وزحف بهم على مدينة المدية وهي حاضرة الولاية فدافعه اهلها واطلقوا عليه مدفعاً كان عندهم من ايام الحكومة الجزائرية فانكسر فجعلوا ذلك كرامة له ودانوا بطاعته وادخلوه الى البلد ثم انهم نظروا الى مدفعهم فوجدوه متداعى الاجزاء من قبل اطلاقه فلما استعملوه تفرقت اجزاؤه ولما شاع امره واتصل خبره بالدوائر والزماله وهم في منازلهم قرب تلمسان نبذوا طاعة الامير ونكثوا عهده وارتحلوا من منازلهم الى قرب وهران ولحق رئيسهم ابن اسماعيل بالكول اوغلان في قصبة المشور من تلمسان فاهتز

73

تريزيل حاكم وهران لذلك فرحاً وطار الخبر الى الامير فتغافل عنهم واقام ينتظر ما يفعله حاكم الجزائر مع ابي حمار المستولى على الولاية التي ارعد وابرق في امرها ولما رأى الامير ان الجنرال تصامم عن ابى حمار ولم يتعرض اليه احتشد الجيوش وعرض عساكره النظامية واصلح خللهم وضرب معسكره العام في هبرة لنظر اخيه الكبير السيد محمد سعيد لمراقبة الفرنسيس من جهة مستغانم وارزيو واوعز الى البوحميدى والى تلمسان ان ينحدر بجموعه الى نواحي وهران ليشغل حاكمها ويقف في وجهه ونهض هو في عساكره النظامية وحشود الجهة الشرقية قاصداً تيطرى بعد ان علم الجنرال بذلك في اواخر كانون الاول سنة اربع وثلاثين وثمانمائة وان توجهه ضروري لتوطيد الراحة في تلك الجهة وقطع الحركات بين القبائل ولما قارب بلاد العرب صبيح تعرضوا له وطلبوا جائزة الطريق جرياً على عادتهم مع حكومة الجزائر فكبحهم واعظم النكاية فيهم فاذعنوا للطاعة ثم احتل ببلاد جندل واتصل خبره بابي حمار فجمع اعيان حشوده وخطب عليهم ووعدهم بالظفر وقال لهم آية صدقه ان مدفع ابن محي الدين لا يعمل فيهم وان بارودة عند المواجهة يصير ماء ومثل هذه الترهات ثم كتب الى الامير يدعوه الى الجهاد فاجابه ان هذا غير ممكن الآن لكوني عقدت معاهدة مع الفرنسيس واما انت فان كنت مستعداً لذلك وعزمت عليه فشانك وما تريد فلما اطلع على هذا الجواب كتب اليه يدعوه الى بيعته فاجابه انني مبايع من اهل الوطن فان كانت بيدك اوامر سلطانية فاظهرها حتى نراها فان وجدناك صادقاً نقدم لك الطاعة امتثالاً لامر السلطنة العظمى والا فالذي تراه اعظم مما تسمعه فلما بلغه هذا الجواب استشاط غيظاً ونهض من المدية في جموعه للقتال وتزاحف الفريقان في بلاد وامري وكان الامير عند ما شاع ما القاه هذا المدعى على جموعه من الخزعبلات خطب على عسكره بقوله الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله واصحابه اما بعد فاعلموا ان الحق تعالى قلدني هذا الامر للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خبر هذا الرجل فان تركته وشانه اخاف على الوطن ان تغتاله غوائل الفرنسيس على حين غفلة وينشا عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه واطال في هذا المعنى ثم قال هذا واني اختبر امره الذي كاد ان يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم الى تشتيت الشمل وتبديد الجمع وذلك اني اطلق عليه مدافعي فان كان الامر كما زعم فانا اول مطيع له بعد اختبار احواله من جهة الشرع وان كان الامر بخلاف زعمه فهو دجال من دجاجلي هذا الوقت ثم امر بالزحف واطلاق المدافع على ابي حمار فلما اطلقت القلل على جموعه انهزموا وولوا مدبرين لا يلوي احدهم على الآخر في تلك الجبال والاودية

وفر هو تاركاً نساءه واولاده وسائر ما كان معه من الذخائر والمهمات واثخنت العساكر
في تلك القبائل الضالة عن سواء السبيل قتلاً وسبياً ثم صدر الامر بالكف عنهم بعدان
لاذوا بالطاعة وكان سبيهم قد ارسله الى مليانة فرده عليهم وجاء الطلب من ابي حمار
في رد نسائه واولاده فردوا عليه ثم ارتحل الامير الى المدية فدخلها وادى اهلها
واجبات الخضوع واسترسلت عليه الوفود من جهات الولاية وقاصيتها لاداء البيعة
فبايعوه عن انفسهم وعمن وراءهم وبعد ان اصلح شؤنهم وثقف اطراف الولاية عقد
عليها للسيد محمد البركاني من اعيان اشرافها ولما شاع خبر هذا الاستيلاء واتصل
بالجنرال تريزيل حاول ان يتخذه وسيلة لنقض المعاهدة فجمع مجلسه وفاوضهم في
ذلك وقال ان امير العرب عبد القادر تجاوز الحدود المقررة له فمن المتعين علينا ان
نهاجمه في دار ملكه فاستحسنوا قوله ثم بعث بهذا النص الى حاكم الجزائر فابى
ذلك ونقمه عليه واطلع مجلسه على ذلك وقال انني لست ماموراً من الدولة بنقض المعاهدة
ولا مستعداً الآن لفتح باب الحروب ويجب ان نتنازل ونسعى في تجديد المعاهدة
مع الامير ما دام في المدينة التي استولى عليها وعلى ايالتها ونضرب صفحاً عن تعرضنا
له لعدم مساعدة الوقت على مناجزته فوافقوه على ما قرره ثم حرروا شروط المعاهدة
وبعثوها صحبة القبطان سنت ايبوليت والموسوى ابن دران واصحبها الحاكم بهدايا
فاخرة الى الامير . وصورة الشروط التي انتخبها الحاكم اولاً يعترف الامير برآسة ملك
فرنسا على افريقية ثانياً تكون سلطنة الامير عبد القادر محصورة في ايالة وهران المحدودة
بنهر شلف ونهر ارهيو الى كوجيله ثالثاً تعطى الرخصة العامة للافرنج في السفر في
سائر جهات بلاده رابعاً اعطاء الحرية التامة للتجارة في الداخلية خامساً لا يصير
تسليم ولا استلام شيء من الاغلال والبضائع الا من الاساكل التي بيد الفرنسيس
سادساً يدفع الامير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للامن على
ذلك . فلما وصل الرسولان الى الامير في مدينة المديه وكان على اهبة الرجوع الى
دار ملكه رحب بهما واكرم وفادتهما وعرض عليهما ان يصحباه الى الحضرة فاجاباه الى
ذلك ونهض من المدية راجعاً والرسولان في معيته قال بعض مورخي الافرنج وقد حصل
للناس تاثير عظيم من ذلك واستدلوا به على عظم ملك الامير وحسن سياسته حتى
انه جعل ضباط الفرنسيس يسافرون معه ويقصدون عرش ملكه ولما كان الامير في
المدية كان في معيته خليفته السيد محي الدين بن علال والي مليانه فلما بلغ في
مسيره الى وادي الفضة اعطاه الاذن بالتوجه الى ولايته واستمر سائراً الى معسكره

العام في هبرة ففضة وارتحل ال معسكر ودلائل اللطف والوداد تجدد لاولئك الضيوف من قبله و بعد ايام سلمهما رقيماً الى حاكم الجزائر وضمنه الشروط التي رغب في عقد المعاهدة ان يكون عليها وبموجبها وهذه صورتها · يشترط ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين · اولاً ان تبقى جميع الايالات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه كما ان المدن التي استولى عليها الفرنسيس تبقى على حالها في ايديهم ثانياً ان ولاة المدية ومليانه عند عزلهم تبعث اسماءهم الى الحاكم العام ليعرفهم ولتكون المواصلة مع الامير بواسطتهم ثالثاً ان المتجر يكون حراً للجميع رابعاً ان الفرنسيس يكرمون العرب كما ان العرب يكرمون الفرنسيس في جميع الاماكن خامساً ان الاميرله ان يشتري من الجزائر بواسطة وكيله فيما سائر ما يحتاج اليه من الآلات والمهمات الحربية سادساً ان الامير يرد جميع الفارين اليه من الفرنسيس كما ان الحاكم العام يرد الفارين اليه من العرب سابعاً ان الامير اذا عزم على السفر الى قسنطينة او غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مع الافادة عن سبب ذلك السفر · فلما اتصلت هذه الشروط بالحاكم اظهر السكون اليها وفهم من فحواها ان الامير جانح لعقد معاهدة جديدة فسافر لوقته الى وهران وبعث اليه لاول وصوله يخبره بقدومه اليها ليكون قريباً منه تيسيراً للمخابرة وكتب اليه ما نصه بعد التحية والتعظيم قد وصلني رقيم سموكم من يد رسولي القبطان سنت ايبوليت وفهمت منه ما في افكاركم ولاجل ان اتمكن من اجراء المخابرة معكم بوجه السرعة حضرت الآن الى وهران في السابع عشر من صفر سنة اثنتين وخمسين واليوم الرابع من يوليه سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف · فاجابه الامير يهنيه بوصوله وكان الحاكم ينتظر الجواب بغير ذلك حيث انه كان يتمنى ان يدعوه الامير الى الاجتماع ثم ان الجنرال تريزيل انكر على الحاكم قدومه الى وهران وقال له لا اجد لزوماً لحضوركم لانني انظر ان ذلك مما يدل على ضعف احوالنا وايضاً فان دنوكم من الامير يكون كالمصادقة له على سائر تصرفاته فاثر ذلك في الحاكم وانقلب راجعاً الى الجزائر قال بعض مورخي الانكليز عند ما تعرض لذكر شروط الامير ان معاهدة كهذه جاء بها القلم النحيف لتنقض حقوقاً عظاماً ونخماً اوجدها السيف البتار لا بد انها تعتبر فتحاً لباب الحرب وفي الحقيقة انها كانت نتيجة سياسة الامير حيث علم انه بعظم اهمية قوته تقوم هذه المعاهدة وعلم ان تلك القوة تاتيه باستقلالية تامة سواء اشترط او اشترط عليه ولذلك وصف نفسه في تحريره الى الحاكم بناصر الدين ثم ان الحاكم لما وصل الى الجزائر امر الجنرال تريزيل ان يعتني دائماً باجتلاب صداقة

الامير والاتحاد معه فاستشاط تريزيل لذلك غيظاً وامسى متحيراً بين كونه يخضع لاوامر الامير ويطلب رضاه في كل الامور المتعلقة بداخلية البلاد وبين كونه يضع نفسه في حالة يتمكن بها من الاستقلال في عمله ثم كتب الى الحاكم يخبره بنزوع الدوائر والزمالة الى الخضوع لدولة فرنسا وانهم طلبوا منه ان يأذن لهم في النزول بارض مسركين خارج وهران وان يعين لهم فرقة من العسكر لحمايتهم وحيث ان الحاكم كان موءملاً في الحصول على المعاهدة اجاب الجنرال ان يتربص في امرهم وان يكون معهم على حالة تحتمل قبول طلبهم ورفضه ولما اتصل ذلك بالامير كتب اليهم · اما بعد فليكن في علمكم جميعاً انه قد طالما نصحناكم ووعظناكم وبينا لكم ما يجب عليكم شرعاً ان تفعلوه او تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا اليه والآن بلغ السيل الربى فلا بد ان ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الاسلام التي مضى عليها اباوءكم وتتركوا منازلكم التي انتم فيها الآن وترجعوا الى منازلكم الاولى بقرب تلمسان والا فلا تلوموا الا انفسكم لما يحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته قال بعضهم ولما بلغ هذا الكتاب اولئك القوم تحيروا في امرهم · وصاروا بين امرين خطرين · اما الانقياد الى الطاعة والرحيل من منازلهم الجديدة وقلوبهم تأباه واما اشهار ما هم عليه من النزوع الى الفرنسيس والانفصال عن المسلمين · ثم ترجح عندهم الاخير · وارسلوا وفدهم الى الجنرال تريزيل فاطلعوه على حقيقة امرهم وطلبوا منه انجاز ما كان وعدهم به فاجابهم الى مطلوبهم وخرج مسرعاً الى مسركين حيث مخيمهم فتلقاه روءساؤهم وقدموا اليه طاعتهم وعقد عليهم شروطاً وهي اولاً تعترف القبائل برئاسة ملك فرنسا وتلتجيء تحت حمايته ثانياً تخضع القبائل لمن يوليه عليها من روءساء الاسلام ثالثاً تقدم القبائل في الاوقات المعينة المرتب الذي كانت تقدمه الى بكوات الترك رابعاً يكون اقتبال الفرنسوية جيداً عند القبائل كما يكون اقتبال القبائل عند الفرنسوية خامساً تجارة الخيل مع سائر المواشي وتجارة المحصولات تكون مطلقة لكل انسان عند القبائل · اما البضائع التي تعين للوسق فلا يصير وسقها الا من المراسي التي يعينها الحاكم العام سادساً لا تكون تجارة الاسلحة وسائر متعلقات الحرب الا بواسطة ماموري الفرنسوية سابعاً تلتزم القبائل بتقديم نجداتها متى دعاها والي وهران الى غزوة حربية في اقليم افريقية ويكون للفارس فرنكان وللماشي فرنك كل يوم وكل واحد منهما يحمل في الاول خمس فشكات ويعطى من الترسخانة عشر فشكات · وكل من يقتل حصانه في الحرب يعطى بدله ثامناً ان لا تتعدى القبائل على من يجاورها من القبائل فان صار تعدٍ منها عليها حينئذٍ تعلم والي وهران ليحضر حالاً لنجدتها تاسعاً متى ذهبت العساكر الفرنسوية الى

العرب يعطي لهم كل ما يحتاجونه من المؤنة بالثمن العادل عاشرًا الاختلاف الذي يحدث في القبائل ان كان في قبيلة واحدة يصرفه قاضيها · وان كان بين قبيلتين يصرفه قاضي وهران الحادي عشر ينتخب رئيس من كل قبيلة ويسكن مع عائلته في وهران نقبلوا هذه الشروط وصادقوا عليها · ولما رجع الى وهران بعث الى الحاكم يخبره بما اجراه مع اولئك المتنصرة · وارسل اليه صورة ما اشترطه عليهم فلم يحز القبول ولا وقع موقع الاستحسان · وبعث اليه الجواب بما حاصله · وصلني تحريرك مع صورة الشروط التي اجريتها مع قبيلتي الدوائر والزمالة وهذا العمل وان يكن سيعود على فرنسا بالنجاح فانه سيكون لا محالة مانعًا لامضاء المعاهدة المنتظرة مع الامير عبد القادر وقد رجع الى ابن دران الموسوي اجراء ما نبتغيه من الامير · وبالجملة فاني ارى عملك هذا لم يوافق طريق الصواب · قال المؤرخ المذكور فغضب تريزيل لهذا الخطاب ·وكان جوابه الى الحاكم · قد وصلني تحريركم وفهمت منه ان وساوس ابن دران الموسوي كادت تؤثر فيكم والذي اقوله ان هذا الرجل لم تكن له خبرة ولا عنده وقوف على بواطن الامير عبد القادر وان التربص بهذا الامر مما يزيد مُلك هذا الامير قوة جديدة وخلاصة الامر ان ما اجريته مع الدوائر والزمالة لم يكن مخالفًا لاوامر مجلس وزارة الحرب في باريز وان كانت افكاركم تاباه فتكرموا برد ورقة الشروط مع تعيين من يخلفني في وهران فلما اطلع الحاكم على هذا الكلام علم انه قد اخطأ في اجتهاده وان تريزيل اكثر اطلاعًا منه على غوامض امور العرب ومع ذلك فانه لم ييأس من الحصول على ما رغب فيه من اجراء المعاهدة مع الامير قال وكان الامير يجتنب كل امر يكون سببًا في نقض المعاهدة الاولى حتى انه دائمًا يصدر اوامره الى خلفائه بذلك ثم كتب الى الحاكم يحتج عليه فيما اجراه تريزيل ويقول له قد ارتكبتم ما يؤذن بنقض المعاهدة التي عقدناها مع الجنرال دي ميشيل وارتبطت بها دولة فرنسا واعتمدتها ومن جملتها ان لا تقبلوا من يلتجىء اليكم من العرب كما اننا لا نقبل من يفر الينا من الفرنسيس فجاء الجواب من الحاكم محتويًا على مخادعة ومحاولة وصورته · اني اوضح لسموكم ان المعاهدة التي رغبنا في اجرائها الآن معكم لا تكون مخالفة للمعاهدة التي وقع عليها الاتفاق مع الجنرال دي ميشيل سابقًا نعم ان لفظة هارب المحررة في صك المعاهدة السابقة لم تفهم منها العموم اذ ربما يكون الهارب ليس في نيته الالتجاء وانما قصد بسكناه عندنا ما هو جار بين الناس من تفضيل ولاية على اخرى وهذا اظنه لا يضر ولا يكون فاتحًا لابواب الخصام الذي لا شك انه يكون ممقوتًا عند اصحاب السلم

العام هذا واني على كل حال احافظ على تلك المعاهدة بكمال الشرف والاعتناء
فاجابه الامير بقوله قد وقفت على ما حواه كتابكم والذي اقوله لك الآن انك
ايها الحاكم تعلم الشروط التي ربط بها دي ميشيل نفسه باذن دولته وعند وصولك
الى الجزائر وعدتني بالمحافظة عليها وانك تعلم جيداً ان الحكومة الفرنسوية ملزومة بان
ترد الى كل مذنب التجأ اليها ولو كان رجلا واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا
فان قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي احكم فيها بموجب شريعتي والآن
ابلغك البلاغ الاخير انك ان رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي
وقع عليها الاتفاق قديماً والا فاني لا استطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى انهم لو
اعتمدوا على رايكم لضعف آرائهم وقلة دينهم ودخلوا مدينة وهران فلا ارفع عنهم يدي
ولا بد ان الحقهم واطالبهم بالرجوع عن خطئهم الفاحش فان كنت ولا بد معتمداً
على انفاذ ما صورته افكارك من ادخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي
واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضي بيننا ومسوءلية ارهاق الدماء واتلاف
الاموال راجعة اليك وعليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد

ذكر انتقاض المعاهدة

لما وصل الامر الى هذا الحد وعلم الامير ان المعاهدة قد طوى بساطها وانقطع
نياطها فاوض اهل دولته وندبهم الى الجهاد ثم دعا روءساء الجند واعيان الحضرة الى
الجامع وطلع على المنبر وخطب عليهم بقوله . اما بعد فلا يخفى ان الله تعالى قال في
كتابه المجيد يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظةً
وقال وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله وهوءلاء القوم قد عاهدناهم
فنكثوا وصدقناهم فغدروا وصابرناهم فلم يصبروا وان تركناهم وشانهم فلا نلبث ان نراهم
قد فتكوا بنا على حين غفلة وها هم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء
الدين وحازوهم اليهم فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعودون بالنصر على
اعدائنا فهيا بنا ايها المسلمون الى الجهاد وهلموا اليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود
الكسل وازيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل اما علمتم ان من مات منكم مات شهيداً
ومن بقي نال الفخار وعاش سعيداً ثم هز سيفه في يده ثلاثاً فضج القوم عندها
بالتكبير وقالوا نحن على السمع والطاعة لسيدنا ومولانا ناصر الدين ثم قام اياماً ينتظر
جواب حاكم الجزائر فلما تاخر عنه وجاء الامر للوكيل بالسفر الى وهران دعى وكلاءه

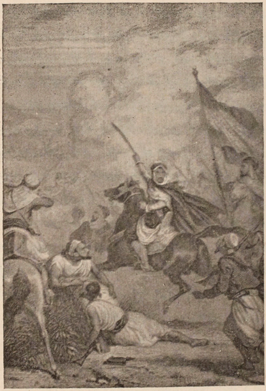
من مواضع اقامتهم وامر بنصب العلم الاكبر خارج الحضرة ونودي بالجهاد وصدرت الاوامر الى سائر النواحي والجهات بالتأهب للحرب فارتاح المسلمون لذلك واخذوا يستعدون للقتال واهتز المغرب الاوسط باهله لقتال العدو وبادر ابطاله من المتطوعة الى دار الملك

﴿ ذكر وقعة المقطع وهزيمة الجنرال تريزيل ﴾
﴿ وعزله وغير ذلك من الحوادث ﴾

ولما كان الجنرال تريزيل عازماً على نقض المعاهدة بما امكنه خرج من وهران في الرابع عشر من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين واوائل شهر يوليه سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف في خمسة آلاف من المشاة وفرقة من الخيالة واربع قطع مدافع جبلية وعشرين مركبة زاداً عدا عن المركبات الاحتياطية يقدمهم جيش الدوائر والزمالة ونزل في تليلات على مرحلة من وهران وكان الخليفة البوحميدي في في تلك النواحي مراقباً له من مدة شهور فطير الخبر الى الامير فنهض لوقته من الحضرة في نحو الفي فارس والف من المشاة واحتل بسيك عازماً على الاقامة هناك الى ان يتلاحق الناس به فعاجله تريزيل وارتحل من تليلات زاحفاً اليه فعبأ الامير كتائبه ورتب مصافه وحضر خليفته البو حميدي في جيشه فعينه في الميمنة وجعل خليفته بوشقور على الميسرة وثبت هو في القلب وتزاحف الجمعان في حرش مولاي اسماعيل بالقرب من سيك وابتدأ القتال مناوشة واستمر على ذلك متواصلاً يومين وفي اليوم الثالث هجم عسكر الفرنسيس على المسلمين والتحمت الصفوف واشتد القتال فارتدت عساكر الفرنسيس على الاعقاب منهزمة الى داخل الحرش بدون ترتيب ولا نظام وقتل منهم على ما ذكره روا في تاريخه عدد كثير فيهم الكمندان اودينو ابن الماريشال دوك دي ريجو ووقوع هذا الرئيس قتيلاً امام صفوفه كان سبباً في الهزيمة الشنعاء الى الحرش وحيث ان جيوش الامير اجهدهم العطش وطال عليهم القتال وراوا العدو قد انهزم رجعوا عنه وتفرقوا ظناً منهم انه يستمر منهزماً الى وهران ولم يبق مع الامير سوى عمه سيدي الجد الام السيد علي ابي طالب وهذه النادرة الاتفاقية ذكرتني ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين تفرقت جيوشه حتى المهاجرين والانصار ولم يبق معه سوى عمه العباس آخذاً بلجام بغلته صلى الله عليه وسلم التي كان راكباً عليها يومئذ ثم ان جيوش الامير لما علموا ان العدو بات

تلك الليلة في الحرش وان الامير لم يزل مراقباً له صاروا يتراجعون اليه افواجاً افواجاً حتى اجتمعوا كلهم وتلاحقت به الجموع التي شهدت القتال بالامس وامتلأ سهل سيك بالمسلمين واما الجنرال تريزيل فانه لما راى ان طريقه الذي جاء عليها قد سدت في وجهه انعطف راجعاً الى وهران على طريق ارزيو ولما رآه الامير انه سلكها خف في الف فارس انتخبهم من عساكره واردف كل فارس منهم عسكرياً من المشاة وسبق بهم الى مجاز نهر هبره المعروف بالمقطع وليس لذلك النهر مسلك غيره فاحاطت جيوش المسلمين بالجنرال وعساكره واضرموا عليه نار الحرب في حال السير من كل جهة واستمروا على ذلك الى ان قاربوا المقطع وكان الامير وصل اليه فلما راته مقدمة الجنرال ارتدت على اعقابها واضطرب العسكر الفرنساوي وخاض بعضه في بعض واختل نظامه والجأه المسلمون الى غياض النهر واذاقوه نكال الحرب واثخنوا فيه بالقتل والاسر واستولى الغرق في النهر على عدد كثير منهم واستولت الايدي على سائر المجلات وما فيها من الذخائر والمدافع واكب المسلمون على جميع الغنائم والاسرى الى الغروب وكان التعب اخذ منهم ماخذه وفي هذه الفرصة انسل الجنرال تريزيل ومن بقي معه من الجيش الى ساحل البحر ومن هناك جدوا في الهرب الى ارزيو تاركين القتلى والجرحى وسائر ما خرجوا به من وهران في ايدي المسلمين وفي الساعة السابعة ليلاً دخلوا الى ارزيو على اسوء حال وقد اسهب مؤرخو الافرنج في هذه الواقعة وملخص ما انتخبته من اقوالهم انه لما علم الجنرال تريزيل وقواد العسكر ان طريقهم التي جاؤا عليها من وهران قد سدت عليهم عرجوا على طريق ارزيو فبلغهم ان الاوعار التي في تلك الجهة يتعذر المرور فيها بمركبات الذخائر ومركبات المدافع فاعتمدوا على السير فيما وراء جبال حميان ويعبرون نهر هبره ولما نظر الامير الى الطريق التي سلكوها علم انه اذا سبقهم الى المقطع يتمكن من جوزه قبل ان يصلوا اليه وبذلك يمسون في قبضته وكان الامر كذلك وقد ادرك منهم ما اراد وارتاد وقال آخر سبق الامير الى مجاز النهر وضبطه من نتائج التصورات السعيدة التي تكلل صاحبها بالنجاح وقد وصل الجنرال تريزيل وجيشه الى المقطع عند انتصاف النهار بعد ان اعياهم السير ودوختهم جيوش العرب التي كانت محيطة بهم وتجاذبهم القتال وبينما هم في حالة الدفاع نظروا الامير قد انقض عليهم هو ومن معه كالعقبان على مستضعف الطيور فتحيرت عساكر فرنسا واستولى عليها الدهش ولم يجد الجنرال مسلكاً يقودهم اليه ولا مغيثاً يفرج عنهم ما هم فيه فاندفع آخر العسكر الى الامام واولهم الى الخلف واخذ الطوبجية ذات اليمين

فغرقت عجلاتهم بمدافعها في تلك المخاضات المهلكة التي لا اطلاع لهم عليها من قبل
وتفرقت كتائب العسكر وانقلبت من هنا الى هناك ابتغاء الخلاص ولات حين مناص
واقتحم اكثرهم مسيل النهر فاخذهم ولم يات الغروب الا وقد تشتت من بقي منهم
وتركوا موتاهم وجرحاهم وسائر ذخائرهم في يد العرب واسرعوا متسابقين الى ناحية
ارزيو دون انتظام لا ياوي بعضهم على بعض فوصلوها ليلاً في الساعة السابعة واما العرب
فانهم باتوا تلك الليلة في ابتهاج لا مزيد عليه وارتفعت اصواتهم وتعالت مشاعلهم
واقاموا على ذلك طول الليل ولو صعد انسان الى الجو لراى منظراً عجيباً وسمع اصواتاً
كالرعد القاصف وتراءت له هضبة مجتمعة من رؤوس الجيوش الفرنسوية وقال غيره
لما ارتحل الجنرال تريزيل من حرش مولاي اسماعيل قاصداً ارزيو حشرته جيوش
العرب عند المقطع وهو المحل الذي اعده الامير عبد القادر لدفن العساكر الفرنسوية
ثم هجمت عليه جموع المسلمين يقدمها حضرة الامير كالعقبان على الطيور الضعيفة
وفي اقل زمان فتكت في العساكر فتكاً لم يُعهد نظيره وكرت على باقي الجيش
فشتتت شمله ولم تكتف حتى حكمت سيوفها في اعناقهم وقد حاول العسكر الفرنسوي
الذي اكثره جرحى ان يفروا فلم يهتدوا الى الطريق ومن اقتحم النهر منهم هلك والعرب
في وسطهم كالجزار استعمل مديته في اعناق غنم محبوسة وفي وقت الغروب تلاحق
الباقون وفيهم الجنرال تريزيل في سهل ممتد على سيف البحر وساروا الى ارزيو
ولو اتبعهم العرب ما تركوا منهم مخبراً انتهى



وهذا رسم الامير

وحملته على الفرنساويين في هذه الواقعة

اخبرني من يعتمد خبره من احبابي قال حدثني من اثق بحديثه وامانته من اصحابي قال ذهبت سنة سبع واربعين ومائتين والف الى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال وكنت يومئذٍ في سن الشباب حين بقل عذارى فاقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين اذ ذاك مهادناً لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد انزل كل واحد منهما ببلد الآخر وكيله وتجاره على العادة في ذلك ايام المدنة فلما كان ذات يوم ورد الخبر بان قبيلتي الزمالة والدوائر من ايالة الحاج عبد القادر وهم نحو الفي خيمة قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا رايتهم واعلنوا بانهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث اليهم الفرنسيس يعلمهم بانه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر العسكري كتاباً الى الفرنسيس يقول فيه انك قد علمت ان هؤلاء القوم الذين فروا اليك هم رعيتي ومن ايالتي وعليه فلا بد ان تردهم عليَّ والا فالحرب بيني وبينك فامتنع الفرنسيس من ردهم واجاب الى الحرب واتفقوا ان يخرج كل منهما الى الآخره تجار الذين في ارضه وان من بقي منهم بعد ثلاثة ايام فدمه هدر واتفقوا ايضاً على ان يكون الوكيلان آخر من يخرج وان يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التي بين ارض المسلمين وارض النصارى ففعلوا وخلص كلٌّ الى مأمنه ولما انقضى الاجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ولما كان المساء سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وبارودًا كثيرًا واذا بالحاج عبد القادر قد هزم الفرنسيس هزيمة شنعاء حتى الجاهم الى سور ارزيو وازدحموا على ابوابه وركب بعضهم بعضاً وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم ايضاً ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو اربعة الآف غير الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط واخبية واثاث وكنت نفكة بكرًا ثم قال لي وكنت في تلك المدة مساكنًا لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة فلما انقضت الواقعة بيوم او يومين سالته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الواقعة قال اقرب لك ام ابعد قلت بل قرّب قال انا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الواقعة ثمانية عشر عسكريًا انتهى كلام المخبر

واستشهد في ذلك اليوم العظيم من رؤساء العسكر المحمدي الآغة قدور بن بحر

ومن اعيان الجيوش المتطوعة خليفة بن محمود الذي كان ايام المعاهدة وكيلاً في ارزيو والسيد محمد بن الجيلاني الورغى والسيد محمد المشرفي في عدد من المسلمين ثم ان الامير امر بجمع الغنائم ودفن المجاهدين وارتحل الى سيك وبعث الاسرى والغنائم الى الحضرة وكتب الى خلفائه في مليانه والمدية يبشرهم بما منَّ الله به على المسلمين من عجيب الانتصار الذي خلف لعدوهم تريزيل عند دولته العار والشنار وبعد ان اقام الامير في سيك اياماً ارتحل الى حضرته معسكر وكان عمه سيدي الجد على ابي طالب قدم اليه ثاني يوم المقطع قصيدة تهنئة يقول فيها

هنيئاً لك البشرى نصرت على العدى * ودمرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحزت مقاماً دونه كل باسل * يرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قد تفرد في الوغى * له سطوة عزت وجلت عن الوصف
فسعدي بعز مذ حلت بشعبنا * تطوف بكاس الراح مخضوبة الكف
تعاطيك طوراً من لهيب ومن لظى * وآونة تاتيك بالقرقف الصرف
ولما تولت خيلنا ورجالنا * مددنا لهم ايدي النزال الى السيف
بكل جواد يسبق البرق عدوه * وآخر يطوي الارض كالريح والطرف
نهار بدا كالليل اظلم حالكاً * اصبنا لهم الفي قتيل مع النصف
قلبنا لهم ظهر المجن عشية * فمالوا الى حب الحياة عن الحتف
وبدد شمل المشركين بنصرة * ازالت غياهيب الضلالة باللطف
امام له تبدو المعالي بقطرنا * فلله ذاك الفرد قد قيس بالالف
امير شريف في البرية مفرد * وفرع لمحيي الدين اغنى عن الوصف
صرفنا به غم الزمان وكربه * وغبنا عن الدهر المروع بالصرف

الى ان قال

وتبنى اصول الحب فيك على الوفا * اذا ما بناها الكافرون على حرف
يحييك دهر انت ظرف وداده * وما كل خل طرفه لك كالظرف
وان اخا الود الذي عم فضله * ليقنع من تلك الشمائل باللطف
الا لا ارانا الله فيك اساءة * فدم لعروس الملك زاهية العطف

﴿ وهنأه بعض الادباء ايضاً بمقصورة مطلعها ﴾

هون عليَّ الامر يا دهر فما * انصفنني ولا قلبت المشتطا
عسى الذي اجدب روح مهجتي * يخصب مني روحه الوصل عسى
او يرتضيني حضرة المولى الذي * ساوى الذي مضى ومايا تي ورا
باهت به الاقيال عند حربها * لما رات نار الحروب تصطلى

﴿ ومنها ﴾

ادرك ثاراً في العدى بجزمه * كعمر الفاروق فيما قد مضى
وبر امر الملك حتى شاده * برغم من عاداه من كل الملا
جاهد في الله وامسى ضارباً * بسيفه هامات عسكر العدى
قاتل اهل الكفر لا يبغي بذا * الا رضى مولاه في يوم الجزا

﴿ ومنها ﴾

نجل لعبد القادر المولى السري * يبقى ليوم الدين حيث الملتقى
ابن الملوك الصيد والقوم الاولى * يروى حديث مجدهم عمن روى

﴿ ومنها ﴾

رقيت يا كهف الانام للعلى * وكل باغ سقته الى الردى
بشرى لك الفتح الذي اوليته * هنئت بالنصر وادراك المنى

﴿ ومنها ﴾

نفسي لك الفدا وكل من على * وجه بسيط الارض ذاته فدا
محيت ظلم الشرك والكفر ايا * نتيجة الدهر سليل المصطفى

﴿ ومنها ﴾

يزهو به الدهر العبوس بعدما * قد كان قدماً قبله على شفا
ندا حداة النصر لا يجيبه * الا امير قد اجاب من دعا
حاز الكمال كله بين الورى * علماً وحلماً ثم ملكاً وتقى

ولما بلغ حاكم الجزائر خبر هذه الواقعة اصدر امره الى الجنرال تريزيل ان يتخلى عن وهران ويسلمها الى الجنرال دولورانج ويحضر الى الجزائر ففعل وطار الخبر الى دولة فرنسا فاحتدمت لذلك وكثر الشغب ونودي في محافلهم ان العرب هدموا

شرف فرنسا فتحركت فيهم الحمية قال بعض مؤرخيهم قام احد الاعيان في مجلس النواب وقال ان هجوم الفرنسيس على بلاد الجزائر اراه من الاعمال الناشئة عن الطيش والهوس لان سائر الاعمال الحربية فيها لم تأت بنجاح والمدن التي استولوا عليها لا ارى فائدة لهم في الاقامة فيها ثم قام المسيو تيرس الذي تقلد رئاسة الجمهورية الفرنسوية سنة ثمان وثمانين ومائتين والف وسنة احدى وسبعين وثمانمائة والف بعد حرب المانيا فقال ان غزوتنا الافريقية لا تحسب من قبيل المهاجرة ولا من قبيل المطالبة بقصد التملك وحالنا في تلك الاقاليم لا يحكم عليها بانها من احوال الحرب ولا من احوال السلم وقصارى ما اقول انها غزوة باطلة عارية عن الفائدة ولا اقول هذا طعناً في حق عساكرنا بانهم ليسوا باهل شجاعة وان قوادنا ليسوا باهل معرفة ولكن اقول ان الحرب لا يكون الا لامرين اما للفتح واما للتربية فان كان الاول فليس هذا سبيله وان كان الثاني فلم نحصل عليه ولم نصل اليه فلما سمعت رجال المجلس هذه الخطب تغيرت افكارهم وكثر الضجيج وكاد ان يختل نظام المجلس ثم اتفقوا على ان ينفض المجلس في ذلك اليوم ثم يعقد مرة اخرى ومن الغد اجتمعوا وقر قرارهم على عزل الكونت دوروان دورلون حاكم الجزائر وتولية الماريشال كلوزيل مكانه واقرار الجنرال دولورانج على ولاية وهران وامروا كلوزيل بالحمل على معسكر عاصمة مملكة الامير عبد القادر واما الامير فانه علم ان يوم المقطع وان جاء بنصر عظيم وتأييد جسيم فانه قد فتح باب حروب يشيب لها الوليد ويتقاعس عن دخول ميدانها البطل الشديد فشغله هذا التصوّر عن التبجح بما اوقعه بعدوه واخذ يتأهب للحرب ويستنهض همم المسلمين وكتب الى خلفائه ينبههم ويستلفتهم الى سطوة الفرنسيس ويذكرهم بشدتهم وعدم تغافلهم عما وقع بعساكرهم وكان السيد محيي الدين بن علال خليفته في مليانه كتب الى قبائل البربر المستوطنين في ساحل ولايته الدائنين بطاعة الفرنسيس يدعوهم الى الدخول في طاعة الامير والتعاون على الجهاد ودفاع العدو عن البلاد وينبههم من غفلتهم ويقرع اسماعهم بما صاروا اليه من الوبال والخسران في الدنيا والآخرة فقال اعلموا ايها القوم انني رايت انه من الواجب عليّ ان ارشدكم الى ما فيه صلاحكم والقيام بامر دينكم ولكن اخاف ان تكون آذانكم صماء عند ذكر نصائحي الناشئة عن صفاء طويتي لكم وصدق نيتي في امركم ولا شك ان الله تعالى يغضب عليكم لكونكم اطعتم عدوه الذي يعبد غيره اما تذكرون الآخرة واهوالها اما تعلمون ان المسلمين كالبنيان يشد بعضهم بعضاً اما سمعتم قوله تعالى وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واي بر اعظم من اداء فريضة الجهاد واي اثم يقاس بطاعة الكفار والدخول في زمرتهم والانحياز اليهم اما بلغكم قوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم وبالجملة فان ما انتم عليه ضلال مبين وخسران لا يقاس به خسران فبادروا رحمكم الله الى الاقلاع عما اوجب لكم ذلك وتوبوا الى الله تعالى ايها المؤمنون وهلموا الى الانضمام الى اخوانكم المسلمين وهاجروا الى مواطنهم واتركوا منازلكم التي هي الآن في خطر عظيم ولا يمسكم خوف على انفسكم واموالكم وانا الزعيم والكفيل بذلك واذا خالفتم امري ولم تقبلوا نصيحتي واقمتم في خدمة الكفار واعانتهم على المسلمين فانكم قد القيتم بانفسكم واولادكم الى التهلكة وعرضتموها لمقت الله تعالى واسيوف المسلمين كما هو مقتضى الشريعة المحمدية فافهموا كلامي وتعالوا نتفق ونجتمع على كلمة واحدة وقلب متحد بحيث اذا حرك احدنا يده تحركت جميع الايدي معه فافهموا وبادروا الى ما فيه وقاية انفسكم وحماية اموالكم وتقوية دينكم وما يبعدكم عن غضب ربكم وانظروا الى ما فعله الفرنسيس وخلفاؤهم من المنافقين بعلال بن الراعي من التعدي على مواشيه وكراعه ظلماً وجوراً واذا وفقكم الله الى ما دعوناكم اليه وصرتم الينا فاننا نعوض عليه اضعاف ما اخذه العدو منه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فوقع هذا التحرير عند اولئك القبائل الكثيرة العدد موقعاً حسناً واجابوا جميعاً الى الدخول في الطاعة وهاجروا من بلادهم وفارقوا مساقط رؤسهم ولحقوا بالجبال القريبة من مليانه وسهولها وانخرطوا في سلك اخوانهم المسلمين ولما رجع الامير الى معسكر من واقعة المقطع بعث الى خليفته المذكور ان يجمع جيوشه ويغزو على الجزائر فغزاها في خمسة آلاف مقاتل وكان هؤلاء القوم في مقدمة الجيش ومروا في طريقهم في سهول متيجة واعظموا النكاية بالمستوطنين فيها وفتكوا بهم واثخنوهم بالقتل والاسر حتى وصلوا الى ابواب مدينة الجزائر ثم انقلبوا بما في ايديهم من الاسرى وضروب الغنائم من الامتعة والمواشي واوعز الى خليفته البوحميدي في تلمسان ان يجمع الجيوش وينهض بهم الى منازلة وهران فنازلها وضرب الحصار عليها وقطع عنها مواصلة المستنصرة قال بعض مؤرخي الافرنج وبحسب الامر فعل البوحميدي جميع ما امره به الامير وصار الفرنسيس داخل وهران في اشد الضيق الا انهم احسن حالاً من اسرى الحرب وكاد الامير ان يحقق قوله انه لا يسمح للطير ان يجول من غير اذنه فوق المدن التي استولى عليها الفرنسيس الذين امسوا كالمغلول يطلب الخلاص من قيوده يتنفسون الصعداء وتتفتت اكبادهم غيظاً واقاموا يترقبون وصول المدد مع اوامر الهجوم لينتدفعوا على

ذلك الامير الذي رماهم بسهام نباهته المدهشة انتهى واستمر الامير في معسكر ينتظر ما يحدث من دولة فرنسا وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين والثالث عشر من اغسطس سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف وصل الماريشال كلوزيل والدوق دورليان ولي عهد ملك فرنسا الى الجزائر مع مقدار وافر من العساكر فتلقيا بالاكرام واصطفت لهما الجنود عند باب البحر بالزينة الكاملة ومن الغد جلسا لقواد العسكر واعيان البلد واطلعهم الماريشال على اوامر الدولة بولايته على مدينة الجزائر وعلى حرب الامير واخبرهم ان ابن الملك انما حضر معه ليراقب اجراء الاوامر فضج القوم استحسانا لذلك وانشدوا الاشعار المهيجة المشهورة بغناء الجزائر لاخذ الثار فوهم الماريشال لذلك واخذ يتكلم عليهم فيما يفتتح به امره وقال اول ما نبتدأ به ان نزحف بجيوشنا على عاصمة الامير وان ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها نتمكن من اخذ الثار ونشفي انفسنا من العرب ثم نعقد مع الامير عبد القادر صلحا باتا لكل نزاع فضجوا في محافلهم وكثر تصفيقهم استحسانا لخطابه ولما رأى ارتياح القوم لما القاه اليهم وشاهد منهم النشاط لاخذ الثار يوم المقطع واخذه الطيش وتخيل انه استولى على سائر البلاد ودانت له بالطاعة والخضوع وجعل ما ارتسم في خياله محسوسا في الخارج ولم يكتف بذلك حتى رسم خريطة جعل البلاد فيها اقساما وعين على كل قسم منها عاملا وبعد مضي شهرين امسى ما تخيله هباء منثورا قال بعض مؤرخيهم ان اعمال هذا الماريشال قضى الله عليها ان تناقض ما تخيله وتنتج له خلاف ما توهمه لانه ارسل البعوث الى جهات مختلفة يستفسر بها عن الاحوال فخسرت صفقتها ورجعت للجزائر مغلولة لا يلوي بعضها على بعض وامسى الماريشال في كدر لا مزيد عليه لما حصل لجيوشه من الفشل والخيبة واتخذ الناس خطابه وخريطته هزوا وسخرية

ذكر مسير الماريشال كلوزيل وولي العهد من الجزائر الى وهران واستيلائهما على عاصمة الامير وخروجهما منها

وفي اول ديسمبر من السنة ركبا اسطولها في العساكر والذخائر الى وهران وخيما خارجها وفي السابع والعشرين منه سارا قاصدين لمعسكر باثني عشر الف عسكري وكان مع الامير ثمانية آلاف خيال والذان من المشاة واربع قطع من المدافع وكان يترقب الفرصة بانفصال خطوط العساكر الفرنسوية ليكون الهجوم عليها مناسبا الا ان الجنرال كان يتجنب ذلك وجيشه مضموما الى بعضه ووجهه تجاه ميمنته متقدما لمهاجمة

العرب فتركه الامير يتمتع بمنازلة مقدمة العرب واندفع لمعارضة الطريق التي تؤدي الى معسكر وميمنته كانت محمية بحرش وميسرته مقيمة على تل اقرعليه الطوبجية وكان ترتيبه هذا مما يجلب الاكرام لجنرال اوروبي فانه كان يتمكن للقائد المقتدر ان يأخذ مركزًا حربيًا مناسبًا فاصلاً للنزاع لان الحاذق بفن الحرب يجعل الوقت والفسحة خاضعين لمآربه على ان الامر قدر له بان يختبر وقتئذٍ وبتركه مبادىء فن الحرب الاوربي في وقت النزال واخلاء المركز من تحت ارادته كانت وسائطه دون المطالب التي تقتضيها حذاقته كذا قال بعض مؤرخي الافرنج ثم ان الامير لما راى العدو لا يثني عزمه شيء زال عن وجهه وانسحب الى قصر عائلته بالبستان المسمى بكشرو ولم يخطر بباله ان يدافع عن حضرته معسكر لان قوته لم تكن قوة حصار وكان يقول لي كل محصور ماخوذ وطير الخبر الى حاكم الحضرة يامره بالجلاء عنها قبل وصول العدو اليها فخرج الناس سراعًا بما خف عليهم من الاثاث والمتاع ولم يتخلف فيها الا اليهود واستمر العدو سائرًا والعرب يناوشونه القتال من اطرافه وكان الحشم لما نزل العدو بالبطحاء المعروفة بهبرة شقوا العصا وتطايروا الى بلادهم وجعلوا طريقهم على الحضرة فانتهبوا دار الملك واستولت ايديهم على الخزائن وفشا النهب في البلد وفي السادس من كانون الاول دخلها كلوزيل فوجدها خالية من الاهل والمتاع فاقام فيها يومين وجاءه الامر بغتة بالرجوع فانقلب راجعًا الى وهران وتخلف فيها اوغاد القبائل المتنصرة من الدوائر والزمالة واضرموا النار في اكثر دورها الشهيرة وكان اليوم ماطرًا فلم تعمل النار فيها وباؤا بها شقاء لآخر الدهر ثم جاء الامير فدخل الحضرة وتراجع اهلها من الجهات وبعد ايام قليلة عادت آهلة عامرة الاسواق واقبلت الجيوش ترد عليها افواجًا متاسفين نادمين على ما سلف منهم من التقصير في دفاع العدو وجاء الحشم واعتذروا الامير واحضروا جميع ما انتهبوه من الامتعة والذخائر ووعدوه بالثبات وحلفوا له الايمان على ذلك وتضرعوا في العفو والصفح عنهم فاجابهم ان مرادي ان تريحوني من الحمل الذي وضعتموه على عاتقي وقدرتني الصوالح الدينية وحدها ان اقوم به الى هذه الساعة فلينتخب القوم خلفًا عني واني ذاهب مع عائلتي الى مراكش فتراموا على اقدامه صارخين انت اميرنا وسيدنا واذا تركتنا فما لنا الا ان نذل لعدونا فقبل الامير توبتهم وصفح عنهم واقبل على رؤساء الجيش النظامي الذين ثبتوا معه ولم يفارقوه وهم احلاس حرب وفتيان كريهة فاحسن السؤال عنهم وشكر شجاعتهم في حروبهم قبل هذه الواقعة واستدرّ ارزاقهم ثم وفدت عليه

اعيان القبائل وامراؤها من القاصية فخطب عليهم وعرفهم بعزمه على استمرار الجهاد والذب عن البلاد فاخلصوا الدعاء وصدرت اوامره بالنفير الى وهران وجعل نهر سيك موعدًا لاجتماع الجيوش والحشود واخذ في الاهبة وكان رجل من الحشم يقال له عمر عينًا للعدو على المسلمين فاعتقله وامر بشنقه فشنق في يوم مشهود وتتبع من كان على شاكلته من الاوغاد فشرّد بهم من خلفهم وجعلهم عبرة وحضر اواري آغة الحشم بشمسية الملك وكان انتهبها يوم الحادثة فردها الامير عليه وقال له وهو يتبسم احفظها عندك الى ان تصير ملكًا يومًا ما واقره على رئاسته على الحشم الغرابة وجعل خجله بين اقرانه قصاصًا له وعقوبة تذكر بين الناس وعلى هذه الحال انتهت تلك الحادثة التي ابتدات بما يشعر بسقوط الامير وختمت برجوع سطوته بعد ثلاثة ايام بما بهر العقول قال بعض مؤرخي الافرنج ولطف الله تعالى هو الذي قاد الشعب العربي الى الميدان الذي شعر فيه بخطئه والهمه اظهار الطاعة فاتخذها كفارة عن الذنب الذي ارتكبه فكان ذلك من اعظم الاسباب لتجديد قوة الامير ووقوع هواجس الخوف والرعب في العسكر الفرنساوي وحلفائه من قبائل العرب وكان الآغة المازري وغيره من روءساء الدوائر والزمالة الزمهم الامير بسكنى الحضرة باهلهم وارتحلوا اليها كما تقدم من حوز تلمسان وسكنوها ولما قصدها كلوزيل وولي العهد في هذه المرة وخرج اهلها الى الجهات كانوا فيمن خرج ثم ساروا ليلاً ولحقوا باخوانهم في جوار وهران رغبة في موافقتهم على طاعة الفرنسيس والدخول في زمرتهم وكان مصطفى بن اسماعيل عم المازري محصورًا في قلعة المشور بتلمسان مع الكول اوغل وكانوا بعد اذعانهم للامير ودخولهم في طاعته انتقضوا عليه ووافقوا ابن اسماعيل على التمرد والرضى بالردة فلما بلغه ان ابن اخيه المازري ارتد ولحق بوهران ارسل اليه يستنجده في امره و يطلب اليه ان يرفع امره الى كلوزيل ففعل

ذكر خروج بوشناق التركي الى الحضرة ورجوعه الى مستغانم

ولما اتصل خبر الامير بكلوزيل بعث الى بوشناق حاكم مستغانم ان يتوجه بجيشه الى نواحي الحضرة ليشغل الامير عما هو بصدده فخرج حتى انتهى الى البطحاء ومعه اعيان البرجية في قومهم وطار الخبر الى خليفته فانحدر اليهم في الجيوش الاسلامية وناجزهم الحرب واشتد القتال بين الفريقين وابلى المسلمون بلاءً حسنًا في ذلك اليوم واتصل الى الليل ثم رجع كل فريق منهما الى معسكره وفي تلك الليلة عمد المرتدون

من البرجية الى نهر هبرة وفتحوا فيه افواهاً فانطلق الماء منها على السهل حتى عمه فلما اصبح المسلمون ورأوا انه قد حيل بينهم وبين عدوهم ارتفعوا الى الجبل وانقلب العدو راجعاً الى مستغانم

ذكر واقعة واصل في نواحي تلمسان

ولما بلغ الامير خبر المازري ورفقائه وما ازمع عليه الماريشال كلوزيل من الاجلاب على تلمسان تأهب لدفاعه وكانت عساكره النظامية مخيمة في سهل بني يخلف من ضواحي الحضرة فولى السيد محمد بن فريحه بن الحضر خليفة في الحضرة وما اليها ورتب له جيشاً من العسكر النظامي ونهض بباقيه الى نهر سيك حيث المعسكر العام فعرض الاجناد والحشود ثم سار غازياً على ابن عوده الزمالي في قومه فصبحهم وهم على جبل اغبال المطل على سهل ملاته المتصل بوهران فاكتسحهم وقتل ابن عوده في حومة القتال ولم ينج من قبيلته الا الذي فرَّ في الشعاب واستولى المسلمون على جميع اموالهم واهليهم وامتلات الايدي من اثاثهم وامتعتهم ثم بعث الامير بسبيهم الى الحضرة وارتحل الى ثنية ما خوخ فسمع بنزول عرب انكاد في المنصورة خارج تلمسان نجدة لابن اسماعيل والكول اوغلى فسار منها حتى انتهى الى الحناية بالقرب منهم وخرج ابن اسماعيل والكول اوغلى لينضموا الى انصارهم فحيل بينهم ثم قسم الامير جيوشه فرقتين فرقة جعلها رداء له وفرقة تقدم بها لقتال عرب انكاد فناجزهم الحرب واتصل القتال عامة اليوم وكان الظفر للامير في الجانبين وارتد ابن اسماعيل وقومه على اعقابهم فدخلوا القلعة وتحصنوا بها وتركوا في حومة القتال ما يزيد على مائتي قتيل ومثلهم جرحى وامتلات الايدي من اسلابهم ومهماتهم واما عرب انكاد فانهزموا من اول طلق وجعلوا طريقهم على اثقالهم فحملوا منها ما قدروا عليه وابعدوا المفر فاستولى العسكر على اكثر نسائهم واولادهم وامتعتهم وجرح قائدهم عبدالله ابن الغماري واستشهد من الاعيان ابو زيان مصطفى التكاري قائد الشمسية الملوكية وابو حميد الزايري واشتهرت هذه الواقعة باسم المحل الذي وقعت فيه ثم ارتحل الامير واحتل بوادي الصفصيف وتقدم الى تلمسان وضرب عليها الحصار الشديد وبالغ في التضييق عليها

ذكر مقتل الخليفة ابن فريحة وولاية السيد مصطفى ابن التهامي على الحضرة

وبعد ان اقام ابن فريحة في اعالي البطحاء اياماً ارتحل الى بلاد البرجية وضربت له الخيام بالقرب من قرية البرج وطفق الجيش يلعبون على الخيل ويطاقون بواريدهم بالبارود على عادة اهل الوطن والخليفة ينظر اليهم وهو في خيمته فاصابته رصاصة في صدره فمات لوقته وعظم المصاب وانقلب السرور حزناً ووقعت الريبة على بعض الفرسان فمسكوا ورجعت الجيوش الى الحضرة ونما الخبر الى الامير وهو محاصر لتلمسان فارسل ابن عمته السيد مصطفى بن التهامي الى الحضرة وقلده خلافتها وبوصوله اليها قبض على زمام الامور ونظر في امر المتهمين فتحققت برائتهم عنده وتبين له ان الامر كان خطاء فاطلق سراحهم وهدأت القلوب والتفت الناس الى اشغالهم

ذكر خروج كلوزيل من وهران الى تلمسان وما آل اليه امره في تلك النواحي

زعم كلوزيل ان دخوله الى الحضرة يوءثر في المسلمين ويحدث في الملك وهناً يحمل الامير على مسالمة الفرنسيس فاقام في وهران ينتظر ما يصدق ظنه فلما تبين له ان الامر على خلاف ما زعم ورآى احوال المسلمين قد استقامت في اقرب مدة وكلمتهم اتحدت وعلم ان الامير غير ملتفت الى مخابرته بادر لاجراء ما كان وعد به المازري من اغاثة عمه ابن اسماعيل وجماعة الكول اوغلى فسار في عساكره الى تلمسان في الثاني من شوال سنة اثنين وخمسين والثاني عشر من يناير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة ففعل الامير بتلمسان ما فعله بالعاصمة فامر بخروج الاهالي والجلاء عنها فخرجوا بما خف حمله من الاثاث والمتاع فلما وصل كلوزيل بعساكره الى ساحة البلد قاتله الامير واتصل القتال بين الفريقين من طلوع الفجر الى الزوال وخرج جماعة الكول اوغلى وابن اسماعيل نجدة للعدو وفتحوا له ابواب القلعة فدخلها بعد عناء لا مزيد عليه في السابع عشر والثاني عشر من الشهرين المذكورين وفي الثالث من دخوله خرج من القلعة ووقع بينه وبين الامير قتال شديد تكافأ فيه ثم بث العدو سراياه في نواحي البلد فعثروا على الكثير من اهلها فاجبروهم على الرجوع اليها ولما تمكن كلوزيل من زمام البلد وضع ضريبة باهظة على اوليائه مثل الكول اوغلى وابن اسماعيل ومن معه من قومه ليسد نفقات تلك الحملة التي

ارتكبها من غير اذن دولته فانتدب لجمعها رئيس الكول اوغلي مصطفى ابن المقلش فالح فيها على قومه حتى ان الرجل يبيع ملبوسه وفراشه ويؤدي ما افترض عليه وان المرأة تبيع مصاغها وثيابها وتدفع عن نفسها ما افترضوه عليها وشاع خبر هذه الضريبة في النواحي فنفرت قلوب الناس من الفرنسيس لسوء تصرفاتهم ثم اتصل الخبر بدولة فرنسا فنقمت ذلك على كلوزيل فخرج من تلمسان راجعاً الى وهران بعد ان ترك [فيها] حامية وذخائر لنظر القائد كافنياك فلقيه الامير بعساكره قرب البلد وانتشب الحرب بين الفريقين واتصل عشرة ايام وكانت الدبرة فيها على كلوزيل وجنوده فرجع مغلولاً الى تلمسان وتحصن بالقلعة ثم جدد عزمه وخرج في الثالث من ذي القعدة سنة اثنين وخمسين والعاشر من فبراير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة فالتقاه الامير ثانية بعزم لا يرده راد ولا يصده عنه صاد والح عليه المسلمون في القتال فدمروا اكثر عساكره واستولوا على معظم ذخائره وقد حكى هذه الواقعة بعض مؤرخيهم بقوله خرج الماريشال كلوزيل بجنوده من تلمسان راجعاً الى وهران فصادف في طريقه اهوالاً جمة وعاين مصائب شديدة منها هزيمة عساكره وتشتيت شملها بوادي عوشبه ومنها انه ارتد عن طريقه التي جاء عليها وسلك طريق الساحل الى مرسى رشكون فوصلها على اسوء حال ومنها ان الامير اخذ بخنقه فيها واقام محاصراً له مدة شهرين كاملين لا يخلو يوم منها من القتال ثم لما اعياه الامر وضاقت به الحيلة بعث صريخه الى نائبه في وهران فبعث اليه بالمراكب فركبها بجيوشه وحمل ما امكنه من ذخائره ولحق بوهران وكاد الغضب يمزق فؤاده وسولت له نفسه امراً اوقعه في الخجل وهو ما اشاعه في الدوائر الرسمية من انه قهر الامير وغلبه والجأه الى الفرار الى الصحراء فكانت جنوده تتحدث في المحافل والمجامع بما يكذب خبره وتعلن بما حل بها من الوبال وبما شاهدته من اقدام العساكر العربية وقوة جاشها وشدة باسها ورؤساؤهم يؤيدون ما يخبرون به ثم ان كلوزيل نصب الجنرال دولورانج والياً على وهران والجنرال بهاراغو قائداً على الجند وتوجه الى الجزائر وبعد ثلاثة ايام من سفره سار بهاراغو في ثلاثة آلاف عسكري وثمانية مدافع الى تلمسان ليمهد الطريق بينها وبين وهران فتمكنوا من المواصلة بين البلدين ولما وصل الى نهر تافنا اقام متاريس على شطوط النهر واتصل الخبر بالامير فسار الى ندرومة حيث يمكنه رؤية حركات العدو من كل جهة في المحل الذي تتشعب منه الطريق من تافنا الى تلمسان ووهران واستمر عدة اسابيع يقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنا وبقي عدة ليالي من دون رقاد محرضاً وواعظاً ثم توجه بجيوشه واعترض العدو في وادي تافنا في سابع نيسان والتح

القتال بينهما نهاراً كاملاً ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتب صفوفه على هيئة قلعة ونزل الامير بعساكره بالقرب منه وحاصره في الهيئة التي هو عليها وفي الرابع والعشرين من الشهر تهيأ الجنرال للانتقال من مكانه فضج المسلمون من كل جهة وزحفوا اليه دفعة واحدة غير مبالين بصلصلة المدافع ولا بقعقعة البارود وهجموا على المدافع فاستولوا عليها وسار الجنرال بجنوده على الهيئة التي كانوا عليها والعساكر الاسلامية محيطة بهم تذيقهم نكال الحرب حتى اعجزتهم فعسكروا على هيئتهم الاولى . ويؤيده قول بعضهم خرج الجنرال بهاراغو من وهران قاصداً تلمسان وحين حل في وادي تافنا التقاه الامير بجيوشه وهجم عليه هجوماً امسى به محصوراً ولما طال عليه الامد امر جيشه بالزحف على جيوش الامير المحيطة به مؤملاً ان ينال فرجاً اقله ان تتوسع عليه دائرة الحصار فسوء حظه لم يمكنه من مراده وكانت نتائج افكاره وبالاً عليه وعلى جيشه وقد اظهر العرب ذلك اليوم شجاعة غريبة وكان الامير ممتطياً صهوة جواده امامهم يخترق صفوف العسكر الفرنسوي غير مبال بما تقذفه افواه بواريدهم من برد الرصاص ولما شاهدت جيوش العرب بسالة اميرهم ازدادت حميتهم وقوي هيجانهم فهجموا بقوة لا مزيد عليها حتى انتهوا الى المدافع الفرنسوية فلم يكن من الطوبجية الا الفشل ولم يسعهم الا الهروب وتسليم المدافع وحينئذٍ تقهقر الجيش وارتدوا على اعقابهم مدافعين عن انفسهم حسب ما تقتضي بــه احوال الحرب فكانت العساكر الفرنسوية تركض وخلفها فرسانها يحمونها ومن ورائهم الجيوش العربية تفتك بهم ولم يرتدوا عنهم حتى اتلفوا منهم عدداً وافراً ولما راى الجنرال ان عسكره قد دمره الحرب وطال عليه الامد ازمع على الهجوم الاخير فتهيا وجمع قوته واصبح سائراً على طريق وهران وسار المسلمون ياخذونه من اطرافه الى ان لحق بها في شرذمة قليلة وكانت الجيوش الاسلامية قد اخذ التعب من قوتها ونشاطها فجعلوا يتسللون الى اوطانهم ورجع الامير بعسكره النظامي الى ندرومة

﴿ ذكر ولاية الجنرال بيجو على وهران وخروجه الى تلمسان ﴾

لما اتصل خبر الجنرال دولورانج وجيشه بدولة فرنسا امتعضت له وجهزت الجنرال بيجو بثلاثة آلاف لاغاثته فسار بيجو من باريز في جيوشه الى وهران ثم في السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين واول يوليه سنة سبع وثلاثين وثمانمائة سار الى تلمسان بالذخيرة الى جيشهم المحصور في قلعتها وكانت الجيوش الاسلامية

من المتطوعة قد لحقها الضجر وطالت عليها المدة في الحروب فلحقت باوطانها ولما اتصل خبر بيجو بالامير وهو في ندرومة سار اليه فيمن معه من العسكر والتقى الفريقان علي نهر سكاك واهتاج المسلمون للجهاد وهجموا على تلك الجيوش الكثيرة فاستطرد لهم بيجو حتى اجازوا النهر ثم انعطف عليهم فاثخن فيهم وانكشفوا امامه وكثرت القتلى والجرحي بينهم ومحص الله المسلمين في ذلك اليوم واستمر بيجو سائرًا الى تلمسان وبعد ايام رجع الى وهران وطير الخبر الى دولته يبشرهم بانتصاره ويتبجح بما اتفق له من النجاح في اول حركة كانت منه في بلاد الجزائر ثم توجه الى فرنسا وجعل قيادة الجيش الى الجنرال والستاك

ذكر حصار الامير تلمسان

وبعد واقعة نهر سكاك ارسل الامير في المدائن والضواحي ينادي بالجهاد فاجتمع المسلمون في الجهات والضواحي التي عينها لهم لانتظار خلفائه فيها وسار من ندرومه بعد ان ازاح العلل في نواحيها فنازل تلمسان بقوته وضيق حلقة الحصار عليها وضبط خارجها فاشتد الامر على اهلها ونفدت ذخائرهم واجهدهم الجوع حتي اكلوا جميع ما حضرهم من انواع الحيوان وافضى بهم الامر الى اشنع الاحوال ذكر القائد كافيناك رئيس العسكر الفرنسوي المحصور في قلعتها انه كان يشتري الهر الواحد باربعين فرنكًا لقوته واما غيره فانه كان لا يجد فارًا يقيم به اوده وكانت مدة اقامة الحصار عليها تسعة اشهر وختم الامير في هذه المدة قراءة صحيح البخاري اربع مرات وقد اخبرني ابن خالي السيد محمد ابو طالب انه راى نسخة من البخاري في مجلد واحد عند الشيخ محمد القلي قاضي بجايه كانت للامير مكتوبًا بآخرها بخطه ختمت البخاري بهذه النسخة اربع ختمات وانا محاصر تلمسان عجل الله بفتحها الاسلام وبسفر كلوزيل وبيجو الى فرنسا انقشعت غيوم جيوشهم عن الداخلية ولم تصل يدهم الى وضع الحاميات في الاماكن التي اختاروها لذلك فيما بين وهران وتلمسان والجزائر والمدية ورجعوا الى حدودهم وانحجروا في مدنهم ونازلتهم الجيوش الاسلامية فيها حتى اجهدهم الحصار واحتاجوا الى الازواد وانقطعت اخبار الداخلية عنهم لشدة الضبط بحيث ان الجواسيس والسعاة من المتنصرة لم يجدوا سبيلاً الى تبليغ التحارير الى اهلها واقاموا على ذلك مدة ولما عميت اخبارهم عن الامير بعث الى السيد حمادي السقال من اهالي تلمسان يفاوضه في ذلك ويحثه على اتخاذ وسيلة يتوصل بها الى مطالعة

اخبار العدو فاجابه الى مطلوبه وتقدم الى الحاكم في ان يجعل اليه ارسال المكاتيب الى وهران والجزائر وغيرها ويتكفل بتبليغها ورد اجوبتها فانشرح صدر الحاكم الى ذلك وطفق يجمع المكاتيب ويسلمها الى سعاة من العرب يمرون بها على الامير فيطلع عليها ثم يردها اليهم فيذهبون بها الى مواضعها وعند رد اجوبتها كذلك فكان الامير لا يفوته شيء من اخبار العدو واحواله ومكائده وما في عزمه ان يجريه معه ثم اناب ابن عمته السيد مصطفى بن التهامي على الجيش وسار في شرذمة قليلة من الفرسان الى المدية لما بلغه ان الكول اوغل من اهلها اثاروا الفتنة فيها وكاتبوا حاكم الجزائر بطاعتهم فقبض على اهل الريبة منهم واذاقهم نكال العقاب واصلح خلل البلد وولى عليها اخاه السيد مصطفى بن محيي الدين وانقتل راجعاً الى تلمسان وانتقل امره الى طور التايد والانتصار على الاعداء وامسى يوم سكاك وغيره من الايام الهائلة نسياً منسياً ويعجبني ما ذكره اسكندر بالمار في تاريخه عند تعرضه ليوم سكاك وهو ان من العجب رجوع قوة الامير عبد القادر الى حالها الاولى بعد ان اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات الاولى بعد استيلاء الجنود الفرنسوية على عاصمته والثانية بعد غزوة تلمسان والثالثة بعد وقعة سكاك وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لان تكون سبباً قوياً لسقوط قوة اعظم سلطان راسخ القدم ومع ذلك فانها لم تؤثر في امره ولم تحصل الامة الفرنسوية منه على طائل فلهذا اقول لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين ومن هذا تعلم انه كان في اقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوته وقال غيره ان تلك الوقائع تسحق عقل القوي وتضعف عزمه ولو كان كالصخر الا ان الامير كان لا يبالي بذلك لانه عالم بانه اذا ابتسم ثغر السعد فسيفه البتار يقدر كل ساعة ان يجلب العصاة والمتمردة ليخروا عند قدميه

ذكر مسير كلوزيل الى قسنطينة وهزيمته ثم عزله عن الجزائر ولحوقه بفرنسا

بعد واقعة عوشبه ورشكون رجع كلوزيل الى وهران ومنها الى الجزائر ثم الى فرنسا يستعتب دولته فيما ارتكبه من غزو تلمسان بدون اذن منها فاعتبته واستنجدها فلم تنجده وجعلت اليه اوامر الحرب بما عنده من الجند في الجزائر ووهران فرجع بصفقة خاسرة وكان مهتماً بغزو قسنطينة فسار اليها في المراكب في الثامن من

شعبان سنة ثلاث وخمسين والثامن من نوفمبر سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وارسى في عنابة وفي الخامس عشر منه احتل بكالمه فاقام فيها اياماً ثم عرض جنده وزحف الى قسنطينة فتلقاه القائد علي بن عيسى واقتتلوا قتالاً شديداً وفي آخر النهار انكشفت الجيوش الفرنسوية واتصلت الهزيمة الى نصف الليل واستمر كلوزيل راجعاً الى كالمه تاركاً قتلاه ومعظم ذخائره ومهماته في ايدي المسلمين ثم سار من كالمه الى عنابه ومنها الى الجزائر واتصل خبره بدولة فرنسا فامتعضت له ثم عزلته ولحق بفرنسا وتولى مكانه الجنرال دوبروسوار وقد ساق بعض المشاهير من المؤرخين اخبار كلوزيل فقال اما عمل كلوزيل في فرنسا في سفره الاخير فهو انه تشبث بما رآه سبباً عظيماً في الحصول على مقاصده فطلب نجدة جديدة لكي يتوصل بها الى الاستيلاء على بلاد الجزائر واظهر لوزير الحرب ان الامر لا يتم الا بجيوش كثيرة فلم يجبه الوزير الى مطلوبه ولم يوافقه مجلس نواب الامة وانما امر بالرجوع الى الجزائر واجراء ما اعتزم عليه بما عنده من الجند في الجزائر ووهران فكان هذا الامر موجباً لضعف همته فرجع الى الجزائر وجهز تسعة آلاف جندي وسار في المراكب الى عنابه قاصداً قسنطينة وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر وصل الى كالمه وهي مدينة قديمة رومانية خربتها العرب لاول الفتح الاسلامي ولم يبق فيها الا آثار ورسوم فاقام هناك للاستراحة والنظر في احوال الجيش ثم ابتنى فيها برجاً من خشب وشحنه بالحامية والذخيرة وسار الى قسنطينة وكان القائد علي بن عيسى محمد لهم في العساكر فتناجز الفريقان واخذ كلوزيل يسوق جنده الى لظى الحرب واضرام نارها وبعد هجمات ارتدت جيوش فرنسا على اعقابهم وغلبهم العرب على حمل القتلى والجرحى فتركوهم في ايديهم واثخنوا فيهم بالقتل والاسر وبعد العناء الشديد وصل كلوزيل بجيوشه الى كالمه ومنها توجه الى عنابه بعد ان ترك فيها فرقتين من الجند لنظر الامير الاي دوفيفه ثم توجه الى الجزائر ولما اتصل الخبر بدولته عزلته عن غضب فلحق ببلاده ولم يزل في كدر الى ان مات

﴿ ذكر البعوث الى الثغور ﴾

ولما اتصل بالامير ان كلوزيل توجه في عسكره الى قسنطينة انتهز الفرصة وجهز البعوث الى السواحل فسرح خليفته السيد مصطفى بن التهامي والبوحميدي الى وهران في جموع قبيلتي الغرابة وبني عامر ومن انتمى اليهم فاكتسحوا نواحيها واشفوا مزارعها

واستولوا على ماشيتها وانتهبوا الابراج والاكواخ القريبة من اسوارها وضربوا عليها سياجًا من الرماة والانجاد وقطعوا عنها مواصلة المتنصرة من العرب وامست محصورة من جميع نواحيها البرية ثم سرح الى الجزائر خليفته السيد محمد بن علال فعاث في نواحيها واستباح القرى في ضواحيها وانتهبتها جيوشه ثم اضرموها نارًا واثخنوا في اهلها قتلاً واسرًا ووصلت خيله الى ابواب الجزائر وجعل الارصاد على من يواصلها من متنصرة البربر واقام في تلك الجهة يواصل الغارة على الساحل حتى امتلأت الايدي بالغنائم وضاق الفضاء بالماشية ثم جعل العيون على العدو ورتب الحاميات والمسلحات وانقلب راجعًا الى حاضرة ولايته مليانه وطير الخبر الى الامير بما اجراه في حركته وفي اثناء هذه الوقائع حدث ارتباك في فرنسا بين مجالسها وانقطعت الميرة والمدد منها عن مدينة الجزائر ووهران وغيرهما من مدن الساحل والتحق اهلها باهل تلمسان في شدة الانحصار والجوع

ذكر انعقاد الهدنة

ولما اشتد الحصار على المدن التي فيها الفرنسيس وطالت مدته وصاروا الى حالة يرثى لها ادركهم حسن حظهم ونباهة ابن دران الموسوي فانتدب من وهران ولحق بالامير وهو محاصر لتلمسان وفاوضه في ابرام الهدنة مع حاكم وهران ورغبه بما ينجم عنها من الفوائد مع راحة الجيوش الاسلامية من معاناة الحروب وشدائدها والح عليه في ذلك فاجابه بشرط ان يطلق العدو اسرى المسلمين فرجع ابن دران الى وهران واخبر الجنرال دوبرو سوار قائد الجيش بما كان من الامير فاظهر ارتياحه اليه ثم قر القرار بين الفريقين على ان ابن دران يتولى المواصلة بين الطرفين فيما يحتاج اليه كل منهما من الآخر فيبتاع سائر ما يحتاج اليه الفرنسيس في الجزائر ووهران وتلمسان من انواع الحبوب والماشية لنفسه من الامير ثم يبيعها الى الجنرال وياخذ منه باثمانها جميع ما يحتاج اليه الامير من المهمات الحربية ثم يبيعها من الامير وانعقدت الهدنة على هذا بين الفريقين ثم اطلق الجنرال الاسرى وافرج الامير عن تلمسان وصدرت اوامره الى خلفائه المحاصرين لوهران والجزائر بالافراج عنهما وارتفع الحجر عن المدن المحصورة وراجت الاسواق فيها وعاد اهلها في ارغد عيش فقدوه منذ زمان طويل وبهذه الهدنة استحصل الامير من عدوه مهمات حربية وذخائر عظيمة وبعد مدة قليلة استعملها في قهره وكبحه وبهذه الهدنة زادت قوته وتوصل الى فك الذين كان

المسلمون يتاسفون عليهم من الاسرى واستمر الامر على ذلك مدة اخذ كل فريق فيها الراحة والدعة ورجعت له فيها قوته

﴿ ذكر ولاية الجنرال دومرمون على الجزائر والجنرال بيجو على وهران ﴾

ثم ان فرنسا اتفق رايها على نقض الهدنة وتجديد الحرب مع الامير اذا لم يجنح للسلم على شروط ترضيهم نعزل المارشال كلوزيل عن الجزائر ونصب الجنرال دومرمون حاكماً عاماً عليها وعزل الجنرال دبرو سوار عن وهران وولى مكانه الجنرال بيجو وسار كل منهما الى موضع ولايته في العدد والعدد فوصل الجنرال دومرمون الحاكم العام الى مدينة الجزائر بثمانين الف عسكري مع مهماتها في اوائل المحرم سنة اربع وخمسين واوائل ابريل سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة والف فارسل له الامير ابن داران ليبارك له في ماموريته ويخبره بانه ازمع على ضرب نقود و يطلب منه ان تجري المعاملة بها في المحلات الحالة بها الفرنسوية فاجابه انه لا بد له من الاستئذان من حكومته وبعد مدة ساله عن ذلك فاجاب بان الحكومة لم تسمح حيث لم تحصل المخابرة عليها في معاهدة دي ميشيل وكانت آراء العامة في فرنسا وقتئذٍ متفقة على ترك الجزائر لاهلها ورجال الدولة كانوا يرون دوام الحرب فيها الى النهاية اولى من تركها وكان الجنرال بيجو مخيراً من دولته بين امرين اما ان ينتقض الهدنة المعقودة بين الامير وحاكم وهران السابق واما ان يعقد الصلح مع الامير على وجه يوافق مقام فرنسا وامرت حاكمها العام ان يجري جميع الوسائل والاسباب التي يحصل بها الوهن في قوة الامير او يجري صلحاً متين الاركان مقبولاً عند دولة فرنسا

﴿ ذكر انعقاد الصلح وما جرى في شانه من المخابرات والمحاورات ﴾

ولما وصل الجنرال بيجو هذه المرة كان اشد ما يكون من القوة والحماسة نعزم اولاً على نقض الهدنة واشهار الحرب وكتب مكتوباً يتهدد فيه اهل البلاد وعدل عنه الى مكاتبة الامير في الصلح فكتب اليه الى سمو الامير عبد القادر اخبركم انني قد حضرت الى وهران مكلفاً من طرف دولة فرنسا باجراء احد امرين اما الصلح وهو الاولى والاسلم على شروط يكون خيرها ونفعها عائدين على الامتين العربية والفرنسوية واما الحرب لآخر درجة تصل اليها الاستطاعة فارجو بعد التامل

فيما ذكرناه ان تتنازلوا لرد الجواب فلما اطلع الامير على المكتوب علم ان اقدام هذا الجنرال على الحرب يحمله ولا بد على اضرام نارها وهذا يضر بالمسلمين وان اجراء الصلح ولو الى وقت غير مديد لا بد ان ياخذ من سورة الجند الجديد ويكسر شوكته وحينئذٍ تميل انفسهم الى الراحة وتضعف قوتهم ولذا اجاب الجنرال بما اطمعه في اجراء الصلح وصورة جوابه الى حضرة الجنرال بيجو اما بعد فقد وصلني كتابكم واحطت به علماً فذكرتم ان دولة فرنسا امرتكم باجراء الصلح ان امكن والا فاستعمال السيف مع ان دولة فرنسا تعرف انني اشد الناس رغبة في حصول العافية واشدهم بغضاً لسفك الدماء بدون موجب شرعي وانها لتعلم انني راغب في عقد الصلح واقامة دعائمه على اساس قوي لا يتضعضع ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة فان ساعدت العناية الالهية على اجراء هذا الامر على يدكم فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى وصدق خدمتكم للدولة والشعب معاً فانظروا ما ترغبون فيه واخبروني به على الفور بواسطة رسولي اليكم حتى انظر فيه ولما وصل ابن دران الموسوي بمكتوب الامير الى الجنرال بيجو وفاوضه في امر الصلح وزينه في قلبه وقلوب بطانته مالت نفوسهم اليه واتفقت كلمتهم عليه فكتب الجنرال الشروط الآتية وجعلها كالاساس للاتفاق واصحبها بمكتوب نصه الى سمو الامير عبد القادر اخبركم بوصول رفيقكم وجميع ما حواه من كلامكم صار معلوماً عندي ولرغبتي في حصول الخير الامتين قد حملت الرسول ورقة ذكرت فيها الشروط التي يتوقف اجراء الصلح عليها واني اطلب ان تقبلوا احترامي لجنابكم العالي ونص الشروط التي كتبها الاول ان يعترف الامير برئاسة فرنسا الثاني تحديد مملكته الى نهر شلف الثالث اداء جزية الرابع ان يعطي رهنية كفالة وفعلاً موافقاً لكل معاهدة يتفق عليها في المستقبل الخامس كل من التجأ من الامتين الى الاخرى لا يجبر على الرجوع الا اذا كان قاتلاً ولما اطلع الامير على هذه الشروط صعب عليه قبولها فرد اليهودي فوراً وامره ان ينهي للجنرال بيجو اشفاهاً ان الامير يرى انه لم يزل على الحال التي كان عليها من قبل المخابرة بل يرى انه في مقام اعظم واعلى فلا يمكنه ان يقبل هذه الشروط المجحفة بمقامه الذي اعترف به من تقدمك من حكام الجزائر ووهران بمعاهدة الجنرال دي ميشيل لا سيما والمسلمون لا يرضون ان يكونوا تحت حكم الافرنج فان كانت دولة فرنسا تريد اذلالهم واخضاعهم لحكمها فدون ذلك حرب طويلة الذيل مديدة السيل ثم ان ابن دران بلغ الجنرال ما سمعه من الامير وفاوضه في اقليم تيطرى فقال له انما كان استيلاء الامير عليه برضى

اهله وعن طلب منهم وعلى هذا فلا تسوغ له ديانته وشرف نفسه ان يفوت قوماً مسلمين سلموا اليه ارواحهم واموالهم على انه ليس من مصلحة الفرنسيس ان يستولوا على قوم هم لهم كارهون فالاولى ان تعدل دولة فرنسا عن هذه الشروط وامثالها وتجعل الصلح مبنياً على شروط تجارية في الاساكل التي بيدها وتعرض عما سوى ذلك ثم قرر له من عنده ان الامير يمكن ان يسمح للفرنساويين ان يعمروا سهل متيجة ما عدا البليدة ويمنحهم ضواحي وهران الواقعة على الشط البحري الممتد منها الى مستغانم بحيث لا يتعدون سيف البحر وان يتعهد لكم بالقيام بحقوق كل فرنسوي يختار الاقامة في داخل مملكته وبكونه يدفع عنهم كل تعد من العرب وان طرأ على اموالهم شيء من ذلك فعليه ضمانه وقد آلى على نفسه انه لا يسمح بمقدار فتر من الشطوط لدولة اجنبية غير دولة فرنسا واحتراس اليهودي بهذا دفعاً لما بلغ فرنسا من ان دولة انكلترا ارسلت للامير معتمدين ليجعلوا معه معاهدة بناء على ان يعطيهم حق التملك في مدينة وهران التي هي في يد الفرنسيس ودولة انكلترا تتعهد باخراج الفرنسيس منها ومن جميع القطر الجزائري فلم يقبل الامير بذلك فلما سمع الجنرال هذا التقرير استكان له وكتب هذه الشروط اولاً يعترف الامير برآسة فرنسا في افريقية ثانياً ان فرنسا تحفظ لذاتها في اياله وهران بقعة عرضها من عشرة الى اثنى عشر فرسخاً ابتداوءها من وادي المالح وانتهاوءها نهر شلف وفي ايالة الجزائر تحفظ لذاتها مدينة الجزائر وهي تتخلى له عن ايالة تيطرى ووهران ما عدا البقعة المذكورة آنفاً ثالثاً يدفع الامير جزية سنوية من حبوب ومواش رابعاً ان يكون التجارة حرية تامة خامساً يتكفل الامير بكل الاموال التي تحتاج اليها فرنسا في الحال والاستقبال فلما وصلت للامير واطلع عليها عدل عن مخاطبة بيجو وكتب الى الحاكم العام دومرمون انه غير خفي على حضرتكم ما جرت به المخابرة بيننا وبين الجنرال بيجو حاكم وهران في عقد الصلح والعدول عن عادية الحروب التي اضرت بالامتين وحيث انني وجدت مطمح انظاره بعيداً عن المطلوب عدلت عن مخابرته الى مخابرة حضرتكم موءملاً النجاح في ذلك ولبعد المسافة بيننا عزمت على التوجه الى المدية حاضرة ولاية تيطرى لاكون فيها قريباً منكم وبذلك تسهل المخابرة بيننا فاهتز الحاكم لهذا الخطاب فرحاً وكان جوابه الى سمو الامير عبد القادر سلطان العرب . اخذت مرسومكم وفهمت منه ميلكم لوضع حد فاصل لنوائب الحرب غير انني الى الان ما وقفت على ما جرى بين سموكم وبين الجنرال بيجو واني اعتقد رغبتكم في صالح الجنس البشري عموماً

واطلب من الاله القادر ان يمنحنا قوة على تذليل الامور الصعبة واجراء ما نرغب فيه جميعًا من الخير العمومي وارجوكم ان تقبلوا احترامي ثم توجه الامير الى المدية وفاءً بوعده ولما اتصل بابن دران الموسوى ما جرى بين الامير وحاكم الجزائر من المخابرة خشي ان تحصل الموافقة بينهما على يد غيره فتقدم الى الجنرال بيجو في ذلك وعظم له الامر وقال ان هذا تخالف لامر الدولة فاستشاط الجنرال غيظًا وطير شكواه بالحاكم العام الى دولتهم نخطأت الحاكم فيما اجراه من قبول المخابرة مع الامير بدون علم بيجو ونهته عن التداخل في امر الصلح بل يترك امره الى بيجو وفي الوقت كتب الى الامير قد اخبرتكم بشديد رغبتي في اجراء الصلح والى الآن لم ازل على ذلك غير ان امر الحرب والصلح منوط بالجنرال بيجو فان وجدتم وجهًا مناسبًا لاجرائه معه فافعلوا واقبلوا مني مزيد الاعتبار لمقامكم ولما اطلع الامير على هذا التحرير اضطره الحال الى الرجوع الى عاصمته وبعد ان اخذ الراحة سار الى نواحي تلمسان وارسل الى الجنرال بيجو هذه اللائحة جوابًا عن لائحته وهي اولاً يعترف الامير بسلطة فرنسا ثانيًا كل المسلمين الذين يسكنون خارج المدن يكونون تحت حكومته ثالثًا ملك فرنسا في الغرب ينحصر في البلاد التي بين البليدة والبحر ويمتد الى حد المقطع ومن جهة مدينة الجزائر يسمح لهم ان يستولوا على البلاد التي بين تلك المدينة ونهر بني عزا رابعًا الامير يدفع عشرين الف كيلة حنطة ومثلها شعيرًا وثلاثة الاف راس من المواشي في هذه السنة فقط خامسًا للامير ان يشتري من فرنسا بارودًا وكبريتًا وسلاحًا سادسًا ان الكول اوغل الذين يختارون ان يبقوا في تلمسان تحفظ اموالهم ويكونون تحت حكمنا ولهم ان ينتقلوا الى ارضنا سابعًا ان الذين يتركون ارضنا او ارض فرنسوية ينبغي ان يسلموا عندما يطلبون من احد الفريقين الذي ينتمون اليه ثامنًا ان تترك فرنسا للامير رشكون وتلمسان مع قلعتيهما والمدافع والهوا وين التي بهما من قديم والامير ينقل ما فيهما من الذخائر الى وهران تاسعًا ان تكون التجارة حرة ما بين العرب والفرنسويين عاشرًا الفرنسوية تحترم عند العرب كما ان العرب تحترم عند الفرنساوية الحادي عشر الامير يتكفل بالزرع والاموال التي تحصلها الفرنسوية ويتمتعون بها بحرية وبعد مراسلات عديدة كتب كل منهما شروطًا توقف الجميع في قبولها ثم ان بيجو اعتزم على تجديد الحرب وخرج بجيوشه من وهران الى الناحية الغربية ولما احتل بتافنا بعث بالميرة والذخيرة الى تلمسان في جيش كثيف واتصل الخبر بالامير وهو في نواحي ندرومه فبعث في

الجهات يدعو الناس الى الجهاد ونما الخبر الى الجنرال فوجم لها وفكر في امره فوجد ما عنده من الظهر لا يقوم بحمل اثقاله ومهماته في حرب ربما تطول مدتها فوقع في حيرة كذا ذكر مؤرخوهم وغيرهم وقالوا ان بيجو ذهبت به افكاره وقتئذ في كل واد فلم يجد بدًّا عن المهادنة لا سيما وقد تواترت الاخبار عنده بنفير المسلمين الى الجهاد في سائر الثغور فحمله ذلك على تجديد المخابرة مع الامير في عقد الصلح واما الامير فانه نظر في شروط بيجو التي صعب عليه قبولها فرأى ان يصلح خللها و يعدل بها الى ما لا يقدح في دينه ومنصبه ثم يعرضها عليه فجمع مجلسًا عامًا من العلماء واعيان الدولة واراهم كيف كثر الشغب بعمالة تيطرى في الجهة الجنوبية وان تجدد الحرب بينه وبين العدو يفوته اصلاح الخلل الواقع في تلك الاطراف الشاسعة وربما اتسع الخرق وانتهى الامر الى ما لا خير فيه فمنهم من بادر الى قبوله واستحسانه ورآه من الامور الضرورية التي لا بد منها ومنهم من لم يقبله ورآى ان استمرار الحرب اولى فقام سيدى الجد السيد علي ابو طالب وخطب على اهل المجلس فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وقد علمتم ايها السادة انه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصةً فسلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس واخلاها من المدرس والدارس فحرج لذلك اهل قطرنا وضاقت بهم ارض مغربنا واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر وتفرقوا اوزاعًا في المواطن وتباينوا في الموارد والمعاطن وتغيرت الاحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحل والارتحال وضعف الرجاء في ان يؤب المسافر ويعود الشادر النافر الى ان طالت القصة وعز ما ندفع به هذه الغصة ومالت شمس الاتفاق الى الافول وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول فاظهر الله تعالى بلطفه بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن اخي هذا السيد عبد القادر بن محيي الدين فبذل جهده في الذب عن الدين والوطن واتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به قمن فكم من حروب اضرم نارها وكم من كروب ازالها عن المسلمين واطفأ اوارها وكم ضيق على العدو واخذ بخنقه وصيره محجورًا في احرج مكان واضيقه وفي بعض الاحيان كما علمتم تكون الحرب بينهما سجالاً وينقد كل منهما من جيوشه ابطالاً ثم لازال العدو يتكاثر ويجلب من بلاده العساكر والذخائر بالعدد الوافر حتى كاثره بجنوده وجاء بما ملا جميع اغوار الوطن ونجوده فاستمر

القتل في المسلمين وتوالى عليهم التمحيص في سبيل رب العالمين وقد استدعى حضرة الامير كما لا يخفى ملوك الاسلام في اقاصي البلاد واستنصرهم للجهاد فاعاروه اذناً صماء ولم يسمعوا له نداء بل اجابه لسان الحال لا حياة لمن تنادي ولا معين على من تعادي فاذا تمادى الامر ايها السادة على ما نحن عليه ولم ينجح الامير الى ما دعاه العدو اليه فلا جرم اننا نكون قد القينا بايدينا الى التهلكة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ونكون قد اعنا اهل الفساد على انفسنا ومهدنا لهم السبل الى ما يؤذينا فيتابع الذعار والغوغاء غاراتهم ويجرن الحفاة صوارمهم وتمشي سماسرة الفتن بين رؤساء القبائل ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم امركم في العاجل والآجل وبالجملة فالمنصف يقول الحق ولا يراعي بعداً ولا قرباً ولا يخاف لوماً ولا عتبا

وما علي اذا ما قلت معتقدي * دع الجهول يظن العدل عدوانا

فاذا صحت المنية وصحت المقاصد السنية فلا حرج على حضرة الامير فيما استشاركم فيه واستلفتكم اليه اذ هو من سياسة السلف ومن تبعهم من ملوك الخلف وهو الذي عليه فتوى الفقهاء وبه عمل العلماء والكلام في هذا السبيل كما لا يخفى مديد السيل طويل الذيل والانصاف من اعظم تقوى الله والنصيحة واجبه في دين الله وصون دماء المسلمين فرض متعين حتى في الجهاد وقد قيل سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معاند وقد ورد في الحديث النبوي من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جيء به يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمه الله والمتسبب كالمباشر وورد ايضاً من تشكل بغير شكله وتطور بغير طوره وحام حول حمى سفك الدماء وهتك المحارم فقد باء بغضب من الله ورسوله فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطه الامن على النفس والاهل والمال مع ظن الافادة وكونه لا يؤدي الى منكر اعظم من هذا مع تحققه فما بالكم اذا كان لمجرد الدعوى فالنظر ايها السادة انما هو للامام لا لغيره وكيف تذهبون الى ان عدم قبول الصلح اولى من قبوله مع علمكم بقلة الانصار والاعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الاقطار والاوطان وحاصل ما اقول ان ما تسعون فيه ان لم ترجعوا عنه يدعكم لاجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الاريب والبليد ثم لا شك انكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الاعداء علاوة على ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد وما قلت الا بالذي علمت سعد فلما سمع المخالفون ما نبههم اليه رجعوا عما كانوا عليه من الخلاف واتفقت كلمة الجميع على اجراء الصلح وتقريره وراوا ان فيه مصلحة كبرى للامة فارسل للجنرال اللائحة الآتية بواسطة السيد حماده السقال

رئيس حضرة تلمسان وهي اولاً ترك البليدة للفرنساويين ثانياً رفض كل سلطة عن المسلمين المقيمين بالاملاك الفرنساوية ثالثاً توسيع معين لحدود ملك الفرنسوية وقد ولج الامير السيد حماده السقال لينظر في الحدود المنوه عنها ويعطي التفصيلات المقتضية وحيث ان الجنرال بيجو ادرك جيداً ان التأخر لا ياتيه بفائدة وعليه حررت المعاهدة المعروفة بمعاهدة تافنا على شروط الاول ان الامير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران الثاني يبقى لفرنسا في اقليم وهران مستغانم ومزغران واراضيهما ووهران وارزيو واراضيهما يحد ذلك شرقاً نهر المقطع والبحيرة الذي يخرج منها جنوباً بخط ممتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجاري الى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد ومن هذا النهر الى البحر بحيث يصير كل ما في ضمن هذه الدائرة من الاراضي للفرنساوية وفي اقليم الجزائر مدينة الجزائر مع الساحل وارض متيجة يحد ذلك شرقاً وادى القدرة وما فوقه وجنوباً راس الجبل الاول من الاطلس الصغير الى نهر الشفه مع البليدة واراضيها وغرباً نهر الشفه الى كوع مزغران ومن ثم بخط مستقيم الى البحر فيكون ضمنه القليعة مع اراضيها بحيث يصير كل ما في داخل هذه الدائرة من الاراضي للفرنساوية الثالث على دولة فرنسا ان تعترف بامارة الامير عبد القادر على اقليم وهران واقليم تيطرى والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من اقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني ولا يسوغ للامير ان يمد يده لغير ما ذكر من ارض الجزائر الرابع ليس للامير حكم ولا سلطة على المسلمين من اهل البلاد المملوكة لفرنسا ويباح للفرنسويين ان يسكنوا في مملكة الامير كما انه يباح للمسلمين ان يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا الخامس ان العرب الساكنة في اراضي الفرنسوية تمارس ديانتها بحرية تامة ولهم ان يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الاسلامي السادس على الامير ان يدفع للعساكر الفرنسوية ثلاثين الف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بكيال وهران وخمسة آلاف راس بقر يؤدي ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة قسوط الاول من غرة اغسطس الى الخامس عشر ايلول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة والف والقسطين الآخرين يدفع بانتهاء كل شهرين قسطاً السابع يسوغ للامير ان يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الاسلحة الثامن ان الكول اوغل الذين يريدون ان يقيموا في تلمسان او غيرها من المدن الاسلامية لهم ان يتمتعوا باملاكهم بكمال الحرية ويعاملون معاملة الحضر والذين يريدون منهم الانتقال الى الاراضي الفرنسوية تكون لهم الرخصة على بيع املاكهم او ايجارها بكل حرية التاسع

على فرنسا ان تتخلى للامير عن اسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديمًا ويتعهد الامير بنقل الذخائر الحربية والامتعة العسكرية التي للعساكر الفرنساوية في تلمسان الى وهران العاشر المتجر يكون حرًا بين العرب والفرنساوية والجميع ان يتمتعوا بالتبادل في كل من الارضين الحادي عشر تكرم الفرنسوية عند العرب كما تكرم العرب عند الفرنسوية وكل ما تملكته او تتملكه الفرنسوية من الاملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الامير ان يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها الثاني عشر يكون رد المجرمين من الطرفين بالتبادل الثالث عشر يتعهد الامير بان لا يعطي احدًا من الدول الاجنبية قسماً من الشاطيء الا برخصة من فرنسا الرابع عشر لا يسوغ بيع من تحصولات او لوازم الاقليم ولا شراء الا في الاسواق الفرنسوية الخامس عشر لدولة فرنسا ان تعين في المدن التي في مملكة الامير وكلاء ينظرون في اشغال الرعايا الفرنسوية وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب وكذلك الامير ان يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت ادارة دولة فرنسا حرر في تافنا في السادس من ربيع الاول سنة اربع وخمسين ومائتين واول يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وحرر صك المعاهدة نسختين كل منهما على شطرين عربي وفرنساوي فكتب الامير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الامارة وكتب الجنرال بيجو اسمه بخطه على الشطر الفرنساوي وختمه بخاتمه الرسمي واخذ كل منهما نسخة وبعد امضاء صك المعاهدة وتقريرها كتب الجنرال لوزير الحرب يعتذر عن عقده المعاهدة التي افتحها بقوله انكم معتقدون انه يؤلمني جدًا ان اعمل افكاري بعدم اتباع تعليماتكم بالنظر الى الحدود المعينة فيها الامير على ان ذلك كان محالاً وتيقنوا ان الصلح الذي عملته هو احسن والارجح ان يكون طويل المدة وافضل مما اعمله بحصر الامير بين نهر شلف ومراكش ثم التمس الجنرال بيجو من الامير ان يجتمع به فاجابه لذلك وعين له موضعاً يجتمعان فيه فركب الجنرال مصحوبًا بست فرق من المشاة وفرقة من الخيالة وفرقة من المدافعية وفرقة من فرسان العرب وسار الى المحل المعين وبعده سبع ساعات عن معسكر الامير وثلاث ساعات عن معسكر الفرنسوية فوصله قبل الامير وبعد مضي نحو خمس ساعات اقبلت فرسان من العرب يعتذرون عن تأخر الامير بانه ابطأ في الخروج لانحراف مزاجه وليس ببعيد ان يصل ثم اقبلت فرسان أُخر يطلبون من الجنرال ان يتقدم قليلاً لملاقاة الامير فلم يمكنه الرجوع حتى ينال مطلوبه وهو اجتماعه بالامير وبعد ان سار

نحو الساعة اشرف علي جيش الامير المشتمل على نحو خمسة عشر الف فارس قادمين بنظام عجيب و ترتيب غريب في سهل يموج بهم ومنظرهم يفتن العقول وبعدهم شاهد الامير وقد احاط به نحو المائتين من روءساء العرب راكبين على سوابق تختال بهم تيهاً يتسربلين باسلحة صقيلة وامامهم اماهم يفوقهم بالمنظر والشهامة ممتطياً جواداً اسود تليعاً مسيره بصنعة غريبة تارة يختطف الريح بقوائمه خطفاً واخرى يمشيه على رجليه وكانت تلك الحركات تزيده هيبةً وهو غير مبال بها وحوله ستة من السياس آخذين بركابه فتقدم اليه الجنرال مطلقاً عنان فرسه نحوه فتصافحا ثم ترجلا فجلسا

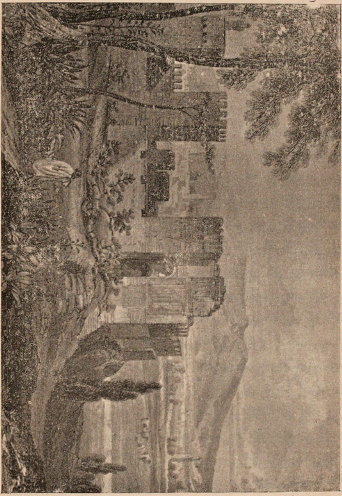


وهذا رسم اجتماع الامير مع الجنرال بيجو

واخذت الموسيقى تصدح بانغامها المطربة فسأل كل منهما الآخر عن صحته واخذا في الحديث فقال الجنرال انني على هذا الشرط جعلت نفسي كفيلاً لك عند ملك فرنسا فاجابه الامير ليس لك خاطر في ذلك فان لنا ديناً واخلاقاً عربية تلزمنا المحافظة على قولنا وانا لا اغير قولي قال الجنرال فلهذا اعتمدت على ذلك وبحسبه اقدم لك محبة خصوصية اجابه الامير قد قبلت محبتك فلتحترس الفرنسوية من كلام المفسدين فقال الجنرال ان الفرنسوية لا تنقاد لكلام احد وليس بعض حوادث خصوصية يفعلها البعض تنزع السلام من بيننا انما ينزعه عدم اجراء شروط المعاهدة او وقوع خصومة كبيرة وانما الذنوب التي يرتكبها البعض فاننا نعلم بعضنا بها ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها فاجابه الامير هذا حسن جداً فليس عليك الا ان تعلمني وانا اجري ما يقتضي قال الجنرال اني اوصيك بالكول اوغلان الذين يبقون في تلمسان فاجابه الامير كن مطمئناً من جهتهم فانهم يعاملون معاملة الحضر قال الجنرال وعدتني انك تدفع عرب الدوائر والزمالة في بلاد هبره فاظن انها لا تكفيهم فاجابه الامير يوضعون في مركز لا يمكنهم من ايقاع ضرر لحفظ السلام و بعد ان سكتوا قليلاً رجع الجنرال الى الحديث فقال وهل امرت ايها الامير برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية فاجابه الامير لا افعل هذا الا بعد ان ترد لي تلمسان فقال الجنرال جداً تعلم باني لا اقدر على ردها لك الا بعد تصديق الملك على المعاهدة فاجابه الامير فاذاً ليس لك قوة على اجراء المعاهدة فقال الجنرال نعم لي قوة على ذلك ولكن يقتضي ان يصادق الملك على ما اجريه حيث يكون ذلك كفالةً له فانه اذا صُدق عليها مني فقط ثم اتى جنرال آخر فانه يقدر على ابطالها واما اذا صدق عليها من الملك يصير ملتزماً بالاجراء على موجبها فاجابه الامير ان لم ترجع لي تلمسان كما وعدتني في المعاهدة فلا ارى احتياجاً لاجراء الصلح بل يكون ما جرى الا من قبيل هدنة موقتة فقال الجنرال هذا صحيح ولكن انت تكسب بهذه الهدنة حيث اني بمدتها لا اخرب المواسم فاجابه الامير ذلك لا يضرنا حتى اني اعطيك الرخصة بان تخرب كل ما تقدر عليه ولا يمكنك ان تخرب الا مقداراً زهيداً ومع ذلك يبقى عند العرب حبوب وافرة فقال الجنرال اظن ان العرب لا يفتكرون مثلك لانني ارى انهم يرومون الصلح والبعض منهم اثنى عليَّ لكوني حافظت على المواسم من الشفه كما وعدت بذلك حماده الصقال فتبسم الامير ثم سأل الجنرال عن المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا فاجابه لا تكون اقل من نصف شهر فقال الامير حيث ان الامر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة الا بعد ورود الجواب من فرنسا ثم قاما من مجلسهما

وودع كل منهما الآخر وهذه المقابلة كانت اول مقابلة جرت بين الامير وحاكم فرنسوي وقد اخبرني ابن رابح احد ضباط الفرسان الذين كانوا يومئذٍ في حرس الامير انه عندما وقف في مجلسه لوداع الجنرال قرب اليه فرسه الادهم الشهير ليركبه وبعد ان صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت الى الفرس وعلا عليه في اقل من لمحة وحركه بركابه فمرق بين الخيل مروق السهم واندفع به ثلاث دفعات متوالية على وتيرة واحدة فانبهر الجنرال لذلك وتعجب من سرعة ركوب الامير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى وبعد ان سار الامير وجيوشه على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع امر الجنرال احد ضباط عسكره ان يرجع الى المحل وياخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث ووضع لها علامات فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً وفي الحادي والعشرين من ربيع الاول والخامس عشر من يونيه ورد الجواب من فرنسا مع ضابط بقبول المعاهدة وصحبته هدية نفيسة من الملك للامير وهي اسلحة مجوهرة واقمشة حرير مطرزة بالذهب واواني صينية فاخرة مكتوب بالذهب على كل صفحة منها كلمة حكمة من كلام الحكماء الاقدمين وطقم شاي جميعه من الذهب الابريز ولما وصل الضابط بالجواب والهدية الى الجنرال بيجو ارسل الى الامير يخبره باتمام الصلح والتصديق عليه من الملك ويخبره بالهدية وطير الخبر الى حامية مدينة تلمسان يامر قائدها كفيناك بالخروج منها وتسليمها مع القلعة الى نائب الامير فخرج القائد بجيشه من باب ودخل الخليفة السيد محمد البوحميدي من باب آخر واخذ في نقل اثقال العسكر الفرنسوي منها الى وهران على حسب ما وقع عليه الاتفاق قال بعض المؤرخين ان هذه المعاهدة كانت مستحسنة جداً عند الحكومة الفرنسوية التي اعتبرتها ككلمة حاذق والشعب الافرنسي نظر اليها كخافضة شان فالدولة افتخرت بان عبد القادر الذي كان عدواً اصبح حليفاً لها والشعب راى فيها خطاء وهو تسليم ايالة افرنسية الى قوة اجنبية اما عبد القادر فكانت عنده هذه المعاهدة كحجر زاوية للبناء الذي كان يشيده بمواظبة واجتهاد وانه كان يقيم عدة سنين بواجبات مضاعفة فكان من جهة يدفع في قالب التنظيم والمناسبة اسباب المنازعات التي كانت تحيط به مسكنا القلاقل ونازعاً النزاع ومخمداً الفتن ومن اخرى كان يتلقى بجراءة صدمات هجمات عدو كان يفوقه جداً في كل الوسائط والحيل التي هي من فن الحرب في اعلى طبقة وعندما كان يتخلص من شدة خارجية كان يفرغ كل قوته ليتغلب على الصعوبات الداخلية

ثم كتب هذا الاعلان من الديوان ونشر في انحاء المملكة ونصه الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وبعد فان البشائر الاسلامية والمفاخر الايمانية ينبغي ان تشاع وتشاد ويطال في ذكرها الاطراء والانشاد وينادى عليها بالتهاني في كل ناد وترفع احاديثها الصحيحة ثابتة المتون عالية الاسناد وتسير بخبرها الركبان في الاغوار والانجاد وتحلى بحليها الشفاه والآذان والاجياد لياخذ كل مسلم حظه من سواطع مطالع مسراتها وينال كل موءمن نصيبه من مواهب رغائب مبراتها وخصوصاً فيما يرجع الى اعلاء الدين وظهوره ورسوخ قواعد الاسلام وفروعه وما يعود الى الاعداء بالصغار والهوان ويلبسهم الخزى والخسران فان لذلك تأثيرًا كبيرًا في قلوب الذين هدى الله يدل عليه ويومئذٍ يفرح الموءمنون بنصر الله والى هذا ادام الله لكم التسديد والتوفيق وهداكم الى اقوم سبيل وطريق فقد ورد البشير بما شرح الصدر واعلا الاسلام لظهور القوة ورفع القدر من فتح تلمسان في تاسع شهر صفر الخير سنة اربع وخمسين ومائتين علي يد من رفع راية الاسلام واعزها حضرة مولانا ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر ابن محيي الدين بفضل الله وسعادة صاحب هذا الميدان بعد محاصرتها شهورًا عديدة واياماً مديدة بصلح اسفر عن العز وجه نجاحه وطلع في فلك الاسلام طالع سعده وفلاحه فاصبحت به ثغور الدين بواسم وهبت به رياح بتتابع النصر نواسم وقامت به في التهاني كالاعياد والمواسم وبشر بتوالي فواتح تلك الثغور واحياء تلك المراسم واعلم ان خيل النصر تنجد كل حين وتغور وتوالي الشدائد على العدو في المساء والبكور حتى ترده على اعقابه وتدخل عليه من ابواب الظهور والقابه فيتهافت في الفرار تهافت الذباب على الشراب ويقنع من الغنيمة بالاياب وقد اعلمناكم بهذه البشرى واطلعنا كم على هذه النعمة الكبرى لتاخذوا اوفر نصيب من معانيها اللطيفة وترووا احاديث صحيحة موصولة باسانيدها المنيفة وتعلموا ان كيد الاعداء في افتار وان امرهم بمجرد اقباله يعقبه الادبار فبمثل هذا تقر العيون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وما ورد البشير حتى انتشرت راية الاسلام في معاهدها وشهد الله بالوحدانية في مشاهدها واقيمت الصلوات الخمس في مساجدها فلله الحمد على هذه المنة العظيمة والمنحة الجسيمة نسال الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها في صحائف المجاهدين من الذخائر ويخلص الجميع من يد عصابه انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير



مدينة تلمسان

وعند دخول الامير الى تلمسان حمد الله تعالى واثنى عليه بما هو اهله وقال

الى الصون مدت تلمسان يداها ✲ ولبت فهذا حسن صوت نداهـا
وقد رفعت عنهـا الازار فلج به ✲ وبرد فؤادًا من زلال نداها
وذا روض خديهـا تفتق نوره ✲ فلا ترض من زاهي الرياض عداها
ويا طالما صانت نقاب جمالهـا ✲ عداة وهم بين الانام عداهـا
وكم رائم رام الجمال الذي ترى ✲ فارداه منها لحظها ومداهـا
وحاول لثم الخال من ورد خدها ✲ ففنت بما يبغي وشط مداهـا
وكم خاطب لم يدع كفوءًا لها ولم ✲ يشم طرفًا من وشي ذيل رداها
وآخر لم يعقد عليهـا بعصمة ✲ وما مسها مسًا ابان رضاهـا
ولم تسمح العـذرا اليـه بعطفة ✲ ولم يتمكن من جميل مناها
وشدت نطاق الصد صونًا لحسنها ✲ فلم يتمتع من لذيذ لماهـا
وابدت له مكرًا وصدًا وجفوة ✲ وسدت عليه مـا نوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم ✲ ولم تنل الاعدا هنـاك مناها
قد التحمت من تلمسان حبـالها ✲ وبانت وآلت لا يحل عراهـا
سوى صاحب الاقدام في الراي والوغى ✲ وذي الغيرة الحامي حماة حماها
ولمـا علمت الصدق منها بانها ✲ انالتني الكرسي وحزت علاها
ولم اعلمن في القطر غيري كافلًا ✲ ولا عارفًا في حقها وبهاهـا
فبادرت حزمـًا وانتصارًا بهمتي ✲ وابرتها حبًا شفـاء دواهـا
فكنت لها بعلًا وكانت حليلتي ✲ وعرسي وملكي ناشرًا للواهـا
ووشحتها ثوبًا من العز رافلًا ✲ فقامت باعجاب تجر رداهـا
ونادت اعبد القادر المنقذ الذي ✲ اغثت اناسًا من بحار هواها
لانك اعطيت المفـاتيح عنوة ✲ فزدني ايا عز الجزائر جاهـا
ووهران والمرساة كلا بن حوت ✲ غدت حائزات من حماك مناها

﴿ ذكر ظهور محمد بن عبد الله البغدادي في جنوب ولاية تيطرى وقيام محمد بن عوده المختاري بدعوته ﴾

قدم محمد بن عبد الله من بغداد الى المغرب الاوسط ايام سيدي الجد السيد محيي الدين رحمه الله وزعم انه من ذرية الغوث الاكبر والقطب الاشهر سيدي عبد القادر

الجيلاني قدس الله سره فاحتفل به سيدي الجد واجل مقامه وكان يحضر معه في تلك الايام جهاد العدو ثم لحق بالمغرب الاقصى متجملاً بنسبته فلقيه السلطان عبدالرحمن بن هشام بالتحية والاكرام و بعد سنين رجع الى المغرب الاوسط فوجد سيدي الوالد مرتبكاً في امر العدو نعدل عنه الى قبائل الزناخره واولاد نائل ومن اليهم من القبائل في الجهة الجنوبية وكان زعيم اولاد مختار محمد بن عوده من اقوى المشاغبين في تلك الجهة فلحق به وجعله داعية له نقام بنصرته ودعا الناس اليه وقال لهم هذا محمد بن عبدالله المنتظر فاجتمع عليه خلق كثير وكانت نفس ابن عوده منذ ظهر الامير تحدثه بالخروج عنه والدعاء الى نفسه واخذ يستميل الناس اليه بانواع العطاء فلما قوي الانكار على الامير في مصالحة العدو وترك الجهاد مع ما كان الناس عليه من استثقال امر المعونة التي ضربت عليهم للقيام بامر الملك ولوازم الجهاد اظهر ماكان يخفيه وجاهر بالخروج عن الطاعة ودعا الناس الى البغدادي المذكور على ان يكون زمام الامور بيده فانقادت اليه قبائل الزناخرة واولاد نائل واولاد موسى واولاد مختار وغيرهم في تلك الاطراف

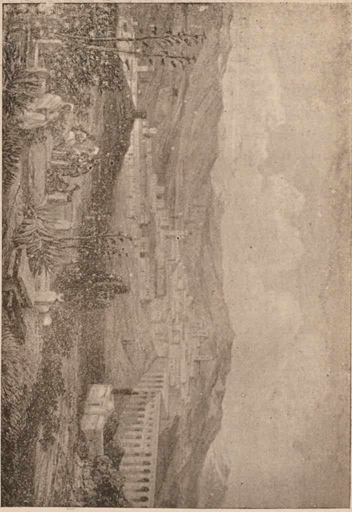
ذكر خروج الامير الى الجهة الشرقية وهزيمة محمد البغدادي ومصير امره

ولما فرغ الامير من عقد المعاهدة مع بيجو واصلح خلل الجهة الغربية من مملكته رجع الى الحضرة ثم نهض منها في ثمانية آلاف فارس والف من المشاة وقطع من المدافع لتمهيد النواحي الشرقية ومشارفة الامور بنفسه فجال في نواحيها حتى انتهى الى المدية حاضرة ولاية تيطرى فلقيه خليفته السيد محمد بن علال في وادي شلف في اربعة آلاف خيال والف من المشاة وكان وصول الامير الى المدية لما قويت شوكة البغدادي فاهمه امره ثم سار اليه في الجيوش وجعل على مقدمته الخليفة السيد محمد بن علال فكان بينهما في المسير مسافة مرحلتين ثم ان الخليفة بعث الى اعيان القبائل الدائنة بطاعة الثائر بكتاب يدعوهم فيه الى مراجعة الطاعة ويحذرهم من سوء العاقبة ونصه . الحمد لله الواحد القهار والصلاة والسلام على نبيه ورسوله المختار وعلى آله واصحابه الاخيار وتابعيه من المهاجرين والانصار اما بعد فالذي نخبر به قبائل الزناخرة واولاد نائل واولاد مختار ومن والاهم ووافقهم على الخروج عن طاعة حضرة الامير انه لما بلغه ايده الله خبر عتوكم وشقكم عصى المسلمين بخروجكم عن الطاعة وتخالفكم

لاهل السنة والجماعة واعلانكم بالعدوان ومجاهرتكم بالعصيان صدر امره العالي المطاع بالله تعالى باعذاركم وانذاركم وبذل النصيحة لكم فان رجعتم عن غيكم وارتكاب ما اداكم اليه جهلكم ومرض قلوبكم وضعف دينكم وجئتم اليه تائبين وعن افعالكم الشنيعة مقلعين فذلك والا فانه نصره الله يقاتلكم وينتقم بسيف الله ورسوله منكم ولا يخفى انكم بانتقاضكم عليه وخروجكم عن طاعته التي اجمع عليها اهل المغرب الاوسط وبايعوه عليها صرتم ممن اباح الله دماءهم واموالهم فالمقتول منكم مصيره الى النار والمقتول من العساكر المحمدية المنصورة مآله الى الجنة فيجب عليكم ايها الناس ان تتوبوا الى الله تعالى وترجعوا عما انتم عليه من الضلال وتعلنوا بالطاعة والدخول في سلك الجماعة وتبادروا الى اعتاب مولانا خاضعين طائعين مذعنين لاوامره فانه ايده الله يقبل توبتكم ويصفح عن زلتكم ويعرض عن جهلكم ولا ينالكم منه الاما تحبون فهذه نصيحتي لكم فان تلقيتموها بالقبول فذلك والا فانكم ستشاهدون بقدرة الله تعالى ما يدع اطفالكم يتامى ونساءكم ايامى واموالكم غنيمة يقتسمها المسلمون وحينئذ تندمون على ما فاتكم من الخير وتتأسفون حرر بامر الخليفة السيد محمد بن علال نائب مولانا الامير في ايالة مليانه فلم يزدهم هذا المكتوب الا اعتداء وعتوًا ومع ذلك فان الخليفة اقام ينتظر فيئتهم اياماً ولما يئس من طاعتهم وبلغه انهم تجمعوا وصمموا للقتال في بلاد اولاد مختار بعث الى الامير يخبره فوجم لذلك وسار اليهم في جيوشه وزحف اليهم الخليفة بعسكره في وقت عينه له الامير فلما تراآي لهم سوى الخليفة صفوفه والتقى الجمعان والتحم العسكر بالحشود واشتد القتال واتصل ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع جاء الامير من وراء العدو والح في قتالهم فانكشفوا واثخن فيهم بالقتل والاسر وفر الثائر وصاحبه ابن عوده لا يلوي احدهما على الآخر وتفرقت جموعهما في جهات مختلفة فاقام الامير في موضع المعركة ثلاثة ايام لراحة الجيوش وفي الرابع ارتحل يقفو اثرهم وبث البعوث في النواحي فدمروا من ادركوه منهم واثخنوا فيهم بالقتل والاسر والتجأت القبيلة المعروفة ببني عنتر الى موضع كثير الشعراء والصخور وتحصنوا فيه فلحقهم العسكر المشاة واحاطوا بهم وضربوا عليهم حلقة الحصار الى ان اجهدهم الجوع والعطش فلاذوا بالطاعة ونزلوا تحت حكم الامير فعفا عنهم وامن روعتهم ولما ذاع خبر هذه الواقعة وما لحق بالعصاة من الوبال والنكال اذعن الناس وجاءت الوفود من القاصية الى الامير وهو في بلاد اولاد مختار ورجع العصاة كلهم فقدموا طاعتهم اليه واعترفوا بذنوبهم بين يديه فشملهم بالعفو ورد عليهم سبيهم واسراهم واستامن

اليه محمد بن عودة فامنه، ووفد عليه فاكرم وفادته وكتب له بالولاية على سائر القبائل في ناحيته من عرب وبربر وسماه آغة وقرىء الظهير الاميري بذلك على اعيان القبائل الذين ترأس عليهم وبهذه السياسة الحسنة صار من كان عدواً بالامس صديقاً اليوم بل خادماً اميناً وبعد هذا الانتظام العظيم صلحت الاحوال في الجهات واستقامت الامور وعميت آثار الفتن وانكشف الديجور من ساحل البحر الى القفر واما البغدادي فانه وقع في يد بعض العصاة فقبض عليه واحضره الى اعتاب الامير وجعله ذريعة لتوبته فتقبلها الامير منه واشخص الثائر الى المغرب الاقصى ولم يزل الامير يتنقل في تلك النواحي الجنوبية والجهات الشرقية الى ان اجتث المفاسد من اصلها واخضع قبائل الصحراء ودوخها وولى عليها العمال واهل الجباية ثم انتقل راجعاً الى المدية حاضرة الولاية

﴿ وهذا رسم المدينة ﴾



فوفدت عليه وفود الاغواط وقدموا طاعتهم فتقبلهم واكرم وفادتهم وافاض عليهم من احسانه ما استعبدهم ثم انهم اخبروه باحوال بلادهم واوقفوه على ما عليه عشائرهم وبطونهم من الطاعة له وطلبوا منه منه ان يولي عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم فاجابهم الى ما طلبوه وولى عليهم السيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى اللغواطي المشهور فيهم بالسؤدد والرئاسة الموروثتين عن اسلافه واقامه نائبًا عنه في تلك النواحي الشاسعة وكتب له في ذلك ما نصه هذا ظهير شريف يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية والترهيب من السعي في تفريق الجماعة والدعاء الى التمسك باوامرنا المطاعة اصدرناه للمكرم المحترم السيد الحاج العربي اللغواطي وذلك انه لما تقرر لدينا فضله وعدله رأينا انه احق من نقلده الامر الاكيد ونرمي به الغرض البعيد ونستفسر به احوال الرعية حتى انه لا يغيب عنا شيء من احوالها ولا يخفى علينا ما يتجشمها من طارق اهوالها وينهي الينا جميع ما يحدث فيها انهاء يتكفل بجلائلها ودقائقها وجعلناه نائبًا عنا وخليفة لنا في قبائل الاغواط الغرابة والشراقة ومن اليهم من القبائل الصحراوية في الجهات الجنوبية فيجمع سائر وجوهها واعيانها ويخبرهم بامرنا هذا ويتلو عليهم ما قلدناه به ويقرر لديهم وجوب طاعته ولزوم اتباعه والاذعان لاوامره ونواهيه وقد عينا له من العسكر النظامي ما يتوصل به الى تقرير الاحكام وجباية الاموال وقهر الظالم والاخذ بيد المظلوم هذا مع ما نعتمد عليه من انقياد رعيتنا للاحكام الشرعية والاوامر المرعية ولذلك لم نبالغ بالاستكثار من العسكر لخدمة خليفتنا المذكور فكونوا ايها الناس لامره السالك فيه على جادة الحق والعدل سامعين ولكلمته مطيعين واعلموا ان من نكث فانما ينكث على نفسه والله ولي المتقين حرر عن اذن مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين في سنة اربع وخمسين ومائتين وثمان وثلاثين وثمانمائة وبعد تحرير هذا الظهير وتسجيله تناوله السيد الحاج العربي وسار مع الوفود الى بلادهم فرحين بما نالهم من الامير من الاكرام وقضاء المطالب ونيل الرغائب ثم رجع الامير الى المدية فاستقبلته الاهالي على بعد اميال منها حتى غص الطريق بالوف من الذين تقاطروا من كل نواحي المدية ليتمتعوا اعينهم بمشاهدة ذاته وكانوا يصرخون فليعش مولانا عبد القادر وصدحت عند دخوله الموسيقى باغانيها المطربة ورشقوا ممره بباقات الزهور ولم يزل سائرًا الى ان دخل الجامع الكبير فصلى فيه وخطب ووعظ ثم توجه الى محل الامارة فتوارد عليه الوجوه والعلماء مقدمين له التهاني فكان يستقبلهم بالبشاشة والمؤانسة ثم وفد عليه الوفود من قسنطينة والقبائل

المقيمين بالحدود الجنوبية في ايالتها يستنجدونه ولكن محافظته على معاهدة تافنا منعته عن ذلك وكان رضي الله عنه بعد فراغه من الاشتغال بالامور المدنية يشتغل بالامور الدينية اما في نفسه واما للعموم فكان مدة وجوده بالمدية يدرس درساً عاماً في التوحيد وكان يوم ختمه ام البراهين للسنوسي يوماً مشهوداً حضره العلماء من القطر الجزائري وقدموا له المدائح ومن جملة من امتدحه العلامة السيد قدور بن رويله فقال

اغيوث السماء سحت بروض ✲ ام نسيم الصبا زكت بربوع
ام شموس الضحى تجلت لسعد ✲ ام بدا البدر في سعود الطلوع
وثغور الاقاحي بالزهر تبدو ✲ باسمات عن البريق اللموع
وخدود الورود تحسبها وجـ ـنة عذراء ذات خدر منيع
وعيون من نرجس شاخصات ✲ لم تذق في الرياض طعم الهجوع
وحمام الاراك في الدوح يشدو ✲ ببديع التسجيع والترجيع
وذيول المنى تجر وتاج الـ ـثغر يزهو ببهجة الترصيع
ام سحاب العلوم في الدرس يهمي ✲ بفهوم من الغمام الهموع
ام فيوضات بحر لفظ كلام ✲ زاخر في اصوله والفروع
ام عقود من البراهين تبدو ✲ بقياس يزهو بحسن صنيع
ام لآلي فوائد ملحقات ✲ بمعان من البيان البديع
قد اقرت لما اسود غريس ✲ ولها اذعنت جميع الجموع
حيث شمس الهدى لعيني تجلت ✲ فاستنار الفؤاد بين الضلوع
من سماء الامام قطب المعالي ✲ صاحب الوقت والمقام الرفيع
سيدي عبد قادر من له قد ✲ خضع المرهبون اي خضوع
ابن محيي الدين الحسني جداً ✲ ومن الاصل كان اطيب الفروع
فهو للدرس ان تصدى امام ✲ وهمام ان جال فوق سريع
جد حتى اطاعه كل شيء ✲ يا له من فتىً مطاع مطيع
يا حمى العلم باطناً ظاهرياً ✲ من به ردع الفيلسوف الطبيعي
دم لتوحيد الله اقوى معز ✲ اوقع الشرك في اذل وقوع
وصلاتي مع السلام على جد ✲ كم الهادي الرسول الشفيع
وعلى آله واصحابه ما ✲ فاح مسك الختام بعد الشروع

غزوة وادي الزيتون

خرج الامير بقواده ورؤساء القبائل من المدية قاصداً فرقة من معسكره نازلة في سهل قريب من البلدة ولما وصل المعسكر امر بعدم خروج احد منه وبالاجتماع عليه فاصطف الجميع حوله كهيئة نصف دائرة نقال لهم طالما قابلت اعوجاج قبائل وادي الزيتون بالاستقامة وعاملتهم على ما فيهم من الاساءة بالمعاملة الحسنة فلم يزدهم ذلك الا عتواً واستكباراً مع علمهم باننا قد بذلنا نفيس الانفس والمال للجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الله واخترنا ركوب الاخطار للذب عن الدين والوطن ودافعنا الاعداء بالمال والبدن وقد خالفوا فمالوا اعداءنا في الدين ومنعوا دفع الزكاة والعشر المفروضة عليهم شرعاً لبيت مال المسلمين واني قد بذلت الجهد في ارشادهم وارسلت الاشراف والعلماء لنصحهم فما ارتدعوا عن غيهم وقد افل يوم الرحمة عنهم ودنا يوم النقمة منهم فاحملوا عليهم حملتكم المعروفة واهجموا عليهم بشجاعتكم الموصوفة التي القت الرعب في قلوب كل الاعادي ولا تخشوا رصاص رماتهم فان الله هو الرامي ولا يهولنكم اعتصامهم كالنسور في صياصي الجبال فالصياد الماهر يتسلق الجبال لبلوغ الآمال فتوكلوا على الله ان الله معنا وهنيئاً لمن يموت شهيداً ومن آب ظافراً عاد والله سعيداً واستمدوا من الله المعونة والنصر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطهر فنادى الجميع اللهم صل على سيدنا محمد وانصر ناصر الدين ثم امر بتهيء الجيش للسير ولما وصلوا لوادي الزيتون امر بترتيب الجيش للهجوم وقسمه اربعة اقسام قسم للميمنة وقسم للميسرة وقسم لجمع المجاريح وتعقيب المنهزمين وابقى الباقي في معيته على رابية مشرفة على ساحة القتال ثم صدحت الموسيقى بالحان الحماسة والهجوم وشرعت الجنود بالزحف حتى قطعوا الوادي وابتدأوا بالصعود الى معتصم العصاة فقابلتهم العصاة باطلاق البنادق من وراء صخور الجبال وقتلوا عدداً من الجند فتوقف الباقي عن التقدم والقواد تشجعهم وتحثهم على الاقدام والثبات وتعدهم بالنصر وامر الامير بالحمل عليهم من كل جانب فحملوا عليهم حملة رجل واحد وعلا القتام وضجت الاصوات من الفريقين وصعد الجند الى اعلا الروابي واضرم النيران في القرى وثارت العصاة تدافع عن المال والعيال مدافعة الاسود عن الاشبال والتحمت الرجال بالرجال وبطل الرمي بالبنادق وعمل السيف الفصال بالاعناق والمفارق ولم يزل السيف يعمل والابطال تقتل وتجندل الى ان دب بالاعداء الفشل وسلموا انفسهم الاسر فامر القائد عند ذلك

بوثق الرجال وجمع النساء والاطفال في محل ووضع الحرس الكافي عليهم واستولى الجيش على الاموال والامتعة ثم رجع الامير الى خيمته وامر بجمع العلماء لترتيب الجزاء على روءساء الاسري فحكم عليهم بالاعدام واحضر بين يديه ثمانية عشر رجلاً منهم فقال لهم قد امرنا الله بقتال من فارق الجماعة وخالف الشريعة المطهرة وشق عصا الطاعة وقد اظفرنا الله بكم وجعلكم في ايدينا فماذا ترون فاجابه احدهم ان قطع اعناقنا اولى من تقديم الطاعة لك عندنا والله يحكم بيننا وبينك يوم القيامة وهو اعدل الحاكمين فوبخه الجاويش على ذلك وامره بالسكوت فرفع الامير راسه واشار الى الجلاد بضرب عنقه ثم الثاني والثالث الى ان وصلت النوبة الى شيخ هرم فقدم وهو يرتعد خوفاً وجزعاً فهجمت اطفاله على الامير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الامير بقولها بحق الله ووالديك واولادك ان تعفو عن والدي فلما سمع الامير كلامها غلبت رحمته على غضبه وظهر اثر العفو والشفقة في وجهه وامر بالعفو عن والدها وعن الباقين واقبل على البنت وقبل جبهتها لانها كانت سبب عفوه عنهم ثم اعلن العفو عمن خالفهم ورد اموالهم عليهم فلما سمعت روءساء القبائل المخالفين لهم بذلك اسرعت للمثول بين يديه وادوا الطاعة والاموال المفروضة عليهم من زكاة وعشر فعند ذلك اقر كل رئيس على قبيلته وامر برحيل المعسكر ورجوعه الى المدينة

﴿ذكر خروج الجنرال دومريمون الى قسنطينة ومقتله واستيلاء عساكره عليها﴾

لما فرغ الجنرال بيجو من امر المعاهدة مع الامير بعث بالجند الذي كان عنده في وهران الى الجزائر وبعد ايام اخذ الحاكم العام استعداده ثم سار في المراكب المشحونة بالعساكر والذخائر قاصداً قسنطينة ونزل في بونه ومنها خرج الى كالمه ولا زال يتقدم الى ان استولى على مضيق عمار وكانت حاميته اذ ذاك من عسكر احمد باي صاحب قسنطينة فلما اتصل بها خبر الفرنسيس تفرقت من غير قتال واقام الحاكم الفرنساوي في المضيق المذكور ينتظر لحوق الذخائر والمهمات به وقسم عساكره اربعة فرق وزحفت هذه الجنود في اول يوم من اكتوبر واتصل الخبر باحمد باي فخرج في نقاوة جيشه الى خارج البلد واقام نائبه علي بن عيسى في باقي الجيش داخلها واستمرت الجنود الفرنسوية سائرة الى ان وصلت قرب البلد فناجزها المسلمون الحرب واستمر القتال بين الفريقين ستة ايام بلياليها ثم وقعت فترة من الجيوش الاسلامية فتقدمت الجيوش الفرنسوية انتهازاً للفرصة واستولت على الخندق فتوقف الحاكم الفرنسوي عن القتال وكتب الى الباي

وعلي بن عيسى واعيان البلد يدعوهم الى التسليم ونص ما كتبه من القائد العام ورؤساء الجيوش الفرنسوية الى احمد باي وعلي بن عيسى وسائر العساكر والاهالي المحصورين داخل البلد نعرفكم ان العناية الالهية منحتنا انتصاراً مجيداً عليكم ويد القدرة الربانية كللتنا باكليل النصر فها جيشنا الجسور وابطالنا الشجعان قد استولوا بعزمهم وقوة سلاحهم على خنادق بلدكم ولم يبق بيننا وبينكم الا احد امرين اما اعمال السيف واما التسليم للنجاة من الحيف لا جرم ان عدم التسليم يعود عليكم بالدمار والخراب ونحن لا رغبة لنا في سفك دمائكم فالتسليم اسلم لكم واحسن بكم لانكم امسيتم في مركز خطير جداً والخلاص منه بدون ضرر كبير يلحقكم مستحيل كيف وبواريد فرنسا قد احاطت بكم من كل جهة وصرتم في وسطها مثل السمك في الشبكة فاجابوه بما نصه من الامة المحافظة على شرفها وبلدها الى العسكر الفرنسوي المعتدي على حقوق غيره قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها نعم ان مركزنا امسى في خطر عظيم ولكن استيلاؤكم على قسنطينة المحمية بالابطال العربية الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم واعلموا ان الموت عندنا تحت اسوار بلدتنا احسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم الفرنسوي قال لاهل مجلسه من القواد ما ذكره هؤلاء هو كذلك فانهم ابطال شجعان اصحاب قلوب قوية وما رغبوا فيه سيعود على جنودنا بالعز والفخر ثم امر باستئناف الحرب واخذ الجيش في طم الخندق وتوجه الحاكم الفرنسوي وفي معيته الدوك دي نمور الى محل العمل فبينما هم ينظرون الى عمل الجند اذا رسلت عليهم كلة من مدافع البلد فاصابت الحاكم الفرنسوي في صدره فالقته قتيلاً وتقدم الجنرال بريكو ليحمله فاصابته رصاصة في جبهته فالحقته برفيقه ثم اتفق رأي القواد على تعيين الجنرال كاله قائداً عاماً فامر باطلاق المدافع على البلد فارسلت عليها كالمطر ثم هجم القائممقام لامورسير بفرقته على البلد واتصلت النار باللغم الذي كان المسلمون اعدوه للعدو فدمر عدداً كثيراً من الفرقة الهاجمة وجرح قائدها لامورسير جرحاً اعجزه عن القيام ثم هجم كومب بفرقته مدداً للفرقة الاولى التي هلك اكثرها واشتد القتال بين الفريقين وابلى المسلمون بلاء حسناً فكان منظر القتلى مرعباً وانين الجرحى محزناً واستمات الفريقان وثبات اهل قسنطينة في ذلك اليوم اوجب مزيد الاستغراب لكل من شاهد تلك الحرب الهائلة وبعد هذا فالغلبة للجنود الفرنسوية لانهم اقتحموا شدة ذلك البلاء وتعلقوا باسوار البلد وتمكنوا من نشر راياتهم عليها غير ان الخسارة التي تكبدوها لا يعادلها شيء فقد قتل من القواد المشهورين عدد

كثير منهم القائد العام الجنرال دومريمون والجنرال بريكو والكمندار كومب والقائد فيه دمبريني وغيرهم من الوف من الجند ومعظم الوبال كان في النهار الاخير ويؤيد هذا ما ذكره بالمار ووافقه روا في تاريخهما ولما دخلت جنود فرنسا الى البلد تفرقت العرب وفر احمد باي صاحبها في لمه من خواصه ولحق بالزاب ثم اخذ مدينة بسكره من يد حاكمها فرحات بن سعيد الزواوي ورجع الجنرال كاله الى الجزائر بعد ان اقام القبطان بتريل حاكمًا على قسنطينة وثبتت قدم الفرنسيس في مدينة قسنطينة وانقطعت منها دعوة الدولة العلية ولله عاقبة الامور ثم آل امر احمد باي الى الدخول في يد الفرنسيس وكانت وفاته في مدينة الجزائر

ذكر استيلاء الامير على بلاد الزيبان وصطيف وما اليها من البلاد الجنوبية والشرقية

ولما تم استيلاء الفرنسيس على قسنطينة وفر صاحبها احمد باي الى الزيبان حشد الحشود وزحف بهم على بسكره حاضرة تلك البلاد فدخلها وفر صاحبها فرحات ابن سعيد ولحق بالجزائر مستنجدًا بحاكمها الفرنسوي فلم ينجده وتغافل عنه وكان الامير وقتئذٍ في المدية فجاءه وشكى امره اليه ودعاه الى الاستيلاء على بسكره وما اليها من البلاد فاجابه الى ذلك وجهز الخليفة السيد محمد البركاني في الجيوش المنظمة والمتطوعة وسار بهم مع فرحات الى مدينة بسكره وكان خبرهم اتصل باحمد باي ففر منها ولحق بالتخوم مما يلي الصحراء واستولى الخليفة على بسكره ووفدت عليه اعيان العرب والبربر من تقزاوه والزواوده وغيرهم وقدموا طاعتهم وطاعة من وراءهم وارسل الخليفة بالخبر الى الامير فسر بذلك وامره بتمهيد تلك النواحي الى اطراف الصحراء ثم بالانقلاب الى صطيف وما اليها من بلاد مجانه الى جبال زناته ففعل ثم انتقل راجعًا الى المدية ظافرًا. فانعم الامير على فرحات بن سعيد بايالة بسكره وما اليها فاستلم زمام امورها ورتب العمال في اعمالها ولما فشت الدعوة في سائر النواحي الشرقية والجنوبية بادر من تقاعس من القبائل عن اداء الطاعة فادى طاعته واتسع نطاق المملكة مسيرة شهر طولاً وعرضًا للمجد· واستقامت الامور وترتبت الحاميات والمسلحات في الثغور والتخوم وامنت السبل حتى ان المرأة كانت تسير من اول المملكة الى آخرها لا تسئل من اين والى اين

ذكر خروج التجيني في حصن عين ماضى من بلاد الاغواط ومسير الامير اليه

تقدم ان وفود بني الاغواط الشراقه قدموا طاعتهم الى الامير فتقبلها وولى عليهم وعلى من يليهم من القبائل السيد الحاج العربي وردهم الى بلادهم فاذعن الناس للخليفة وقبلوا ولايته ومشت كلمته في تلك النواحي ولم يشذ عنه الا السيد محمد الصغير التجيني ومن وافقه من الاغواط الغرابة فانهم امتنعوا من اداء الطاعة وجاهروا بالعصيان فبعث الخليفة بخبره الى الامير فوجم لذلك وخشي ان يسري هذا الحال في الناس ويرجع الامر الى ما كان عليه من الارتباك فبادر الى قمع هؤلاء الثائرين وتنكيلهم ليكونوا عبرة لغيرهم وسار في الثامن عشر من ربيع الاول سنة اربع وخمسين ومائتين واثنى عشر يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة في ستة آلاف من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاة وثلاث قطع من المدافع وستة هواوين وبعد عشرة ايام من مسيره سيرًا عنيفًا في قفار رملية شارف الحصن فرأى من حصانته بالخندق والسور ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه ثم تقدم اليه وفرق الجند على جهاته ومعهم النقابون للسور ومن ورائهم الرماة فمنع اهل الحصن ساحته وحاربوا من المكامن التي اتخذوها تحت السور ومن شرفاته فتأخر الجيش عنهم وجعلوا يناوشونهم الحرب من بعيد واخذوا في قطع الغياض الملتفة الاشجار حول الحصن وحطم البساتين واقيمت البطاريات في تلك الفسحات وصار الشروع باطلاق النار وكلما فتحت ثغرة لاجل الهجوم تسد من داخل وتكرر ذلك مرارًا ثم امر الامير بحفر النفوق لحفر نفق من المعسكر الى داخل الحصن ولما وصل العاملون فيه الى داخل السور احس بهم الرئيس فنقب جيشه على العملة ووقعت بينهم مقاتلة داخل النفق وابطلوا للعملة عملهم ولما طال الحصار على اهل الحصن مدة تقرب من ستة اشهر واجهدهم الجوع واضناهم الخوف اجتمعوا الى رئيسهم واروه ما آل امرهم اليه من الجهد ونفاد الاقوات وما يحتاجون اليه في الدفاع وتكلموا معه بما اضطره الى التسليم وفي التاسع عشر من نوفمبر بعث التجيني الى السيد الحاج مصطفى بن التهامي خليفة الامير يستامن على نفسه واهله وسائر اهل الحصن ومن حضره من الحشود وطلب مهلة اربعين يومًا يتاهب فيها للانتقال والجلاء عن الحصن فعرض الخليفة ذلك على الامير فاجابه على شروط اولها ان يدفع التجيني مصارفات الحصار الثاني ان يكون مجبورًا على اخلاء المدينة في برهة اربعين يومًا الثالث ان يكون له حق باخذ جميع امواله المنقولة بلا استثناء الرابع لاهل

المدينة حتى بمرافقة التجيني باموالهم واسلحتهم الخامس ان يرفع الامير الحصار عنهم ويرجع ثمانية اميال عن المدينة حتى تخلى السادس ان يكون ابن التجيني عند الامير رهينة الى تمام المعاهدة فقبل التجيني الشروط المذكورة وامضى عليها وارسل ابنه معها فامنه الامير وامهله وبعد انقضاء المدة خرج باهله وحشوده ولم يتخلف في الحصن الا المستضعفون فامر الامير بتخريب الحصن فالصق سوره وسائر دوره وابراجه بالارض وغوّر ماءه وارسلت له قبيلتان من قبائل الاغواط المجاورين للحصن الزكاة والعشور واصرت بقية القبائل على عدم دفع ما كان عليهم من الزكاة والعشر ولحق التجيني بالاغواط الغرابة وساكنهم في حللهم في خيام الشعر فاعلن الامير بذلك الى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وبعد فان الله تعالى منذ ولانا امر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تاليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقوله عز وجل ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقد توجهنا هذه المرة الى بلاد الاغواط لجمع كلمتهم واصلاح فسادهم فاظهر عامة اهلها غاية الطاعة والانقياد الا ما كان من التجيني ومن انتمى اليه فانهم تجاهروا بالشقاق وتظاهروا بالتصدي عن الوفاق فامرناهم بالرجوع الى الحق وحذرناهم من شق عصا المسلمين غير مرة وناشدناهم الله في صون دمائهم واعراضهم فلم يرجعوا عن غيهم بل صمموا على قتالنا واستعدوا لمحاربتنا فخفنا ان اهملنا امرهم من سريان هذا الفساد الى غيرهم فيفوت المقصود الذي هو جمع الامة على كلمة واحدة وطريقة متحدة فاخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم ولما استشرفوا على الردى وكادت ان تعمل فيهم المدى طلبوا منا الامان مع انهم خدعونا مرات عديدة فمنحناهم الصفح الجميل صونًا لدمائهم و حفظًا لاعراضهم لقوله تعالى فاعفوا واصفحوا وامناهم على ان يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاؤا فخرجوا كلهم منه الا المستضعفين منهم وذهب التجيني وحريمه واولاده الى الاغواط الغرابة وابقى ابنه الكبير رهنًا عندنا فالحمد لله الذي ايدنا بنصره على من عصى امره وناواه فانه لا رب غيره ولا معبود سواه واصل التجيني من اشراف المغرب انتقل والده السيد احمد في اواخر المائتين بعد الالف من فاس الى بني توجين اصحاب تاهرت وتاكدمت من البربر اخوان بني زيان ملوك تلمسان وبني مرين ملوك المغرب الاقصى ولما طال مقامه بين اظهر بني توجين نسب اليهم فقيل له التجيني وكان حصن عين ماضي موضع سكناه وكان عالمًا زاهدًا مشتهرًا بالصلاح وقصده الناس للتبرك به وكان يقول لم يوجد من عصر الصحابة رضي

الله عنهم الى عصري عالم مثلي وله تاليف سماه الكناش ذكر فيه آدابا صوفية وحقائق الهية وثار ولده محمد الاكبر على الحكومة وزحف بجموعه على مدينة معسكر ودخلها فخرج اليه حاكم وهران وقتله وقد تقدم تفصيل الواقعة وهذا الحصن اختطه ماضي بن يقرب من اقيال العرب في المائة الخامسة لاول استيلاء العرب على المغرب الاوسط ايام العبيديين ويحتوي على ثلاثمائة دار وتدخل له العين المسماة بالحصن في قناة وبه صهاريج لجمع ماء المطر تسد عوز اهله وله من المتانة والحصانة ما يبهر العقول وحوله من النخيل والاشجار المتنوعة ما هو زينة للناظرين

وهناء بعض ادباء اهالي مليانه الامير بفتح هذا الحصن الذي عجز عن فتحه من قبله بقوله

ايا نسمة الاسحار طبت بصولة	*	وطابت بك الاكوان طرا بسرعة
وآب سرور الدهر مذ طاب نشرها	*	ونادى منادي النصر من كل وجهة
واقبلت البشرى وعم سرورها	*	ونالت به الايام احسن سطوة
بطلعة عبد القادر السيد الذي	*	له الشرف السامي باشرف نسبة
هو البدر وافى في سماء كماله	*	يمحو ظلام حل قدما ببلدة
فعن عين ماضي قد ازاح غشاوة	*	فضاءت وعادت خير عين بصيرة
فويل لمن عادى ابن اكرم مرسل	*	وويل لمن يدعون اصحاب ذمة
هنيئا لنا اهل المحبة اننا	*	بذا البدر نلنا اليوم اكمل منية
بسعي امير دمر الطاغين مذ	*	جرى عدله في كل مصر وقرية
فنطلب من رب السماء بقاءه	*	لنطرب اياما باحسن دولة
عليه سلام الله ما هبت الصبا	*	وما اشرقت شمس العلا كل لحظة

ولما فرغ الامير من امر التجيني رجع الى معسكر لاخذ الراحة وبعد ان اقام بها بضع اسابيع الف جيشا من خمسة آلاف فارس وامر ان ياخذ كل واحد منهم على فرسه ما يكفيه من الزاد والشعير وان يجتمعوا في سهل غريس فاجتمعوا فيه ولم يعلم احد بمراد الامير بذلك في وقت اشتدادالبرد وكثرة الشتاء وقبل غروب الشمس اقبل عليهم ممتطيا ظهر الجواد لابسا لامة الحرب والجلاد فتوجه بهم نحو الشمال الغربي ولما اعتكر الظلام امر بايقاد اربعة مصابيح امام الجيش فجعلت في اسنة الرماح فكانت اشعتها تنبعث الى وراء الجيش ثم ترك الجادة وانعطف فجاءة الى جهة الشمال الشرقي نعلم الجيش اذ ذاك ان سيره السابق مجرد تورية وتمويه ولم يزالوا يجدون السير الى نصف الليل

ثم نزلوا على حافة جدول فاكلوا واطعموا خيولهم وبعد مضي ثلاث ساعات عادوا للسير العنيف الى نصف النهار ثم نزلوا فاطعموا الخيل واكلوا ثم عادوا لما كانوا عليه من السير السريع واستمروا على هذا الحال اربعة ايام واربع ليال وفي صباح اليوم الخامس انكشفت لهم منازل الاغواط الذين اصروا على عدم الطاعة وامتنعوا عن اداء العشر والزكاة وكانت خيامهم تنوف عن عشرة آلاف خيمة وكان اهلها من نكبات الدهر آمنين وفي لذة النوم مستغرقين لم توقظهم الا الصيحات العالية والضربات المتوالية ولما انتبهوا رأوا ما هالهم من الفرسان المنقضين عليهم انقضاض العقبان على الغربان وكثر من النساء العويل والنحيب واندهش عقل البطل النجيب وركض البعض لاسلحتهم والآخرون لخيولهم فلم يتمكنوا من الاجتماع حتى صمت الاسماع بصوت الامير صونوا الحريم واما الرجال فاذيقوهم كاس الوبال ثم احيط بهم من كل جهة واستاقوهم كقطعان الغنم ولما احضروا مشايخهم بين يدي الامير وقعوا على رجليه وتذللوا بين يديه واعطوه المواثيق والعهود على الطاعة وحسن السلوك فرحمهم وتقبل طاعتهم ورد عليهم جميع ما اخذ منهم وفي الحال دفعوا له اربعة آلاف جمل وثلاثين الف راس غنم عما تبقى عندهم من زكاة خمس سنين وكانوا بعد ذلك من اشد القوم تمسكاً بالامير واكثرهم طاعة له

ذكر المقاطعات والعمال وغيرهم من ذوي المناصب العالية وترتيب الاحكام وشؤنها

لما تمت بيعة الامير واستقام له الامر واتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة قسم ما دخل في طاعته الى مقاطعتين مقاطعة تلمسان وولى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي ومقاطعة حضرته معسكر وولى عليها السيد محمد بن فريحة المهاجي ولما قتل ولى عليها السيد الحاج مصطفى بن احمد التهامي وكان رئيس ديوان الانشاء ولما امتدت طاعته الى ما وراء وادي شلف جعل مليانة مقاطعة ثالثة وولى عليها السيد محيي الدين بن علال القليعي ولما مات ولى عليها السيد محمد بن علال من اقاربه ولكل من هذه المقاطعات الثلاثة مرسى تخصها فلتلمسان مرفا رشكون ولمعسكر مرفا ارزيو ولمليانه مرفا شرشال ثم دانت له بلاد تيطرى فجعلها مقاطعة اربعة وجعل حاضرتها مدينة المدية وولى عليها اخاه السيد مصطفى بن محيي الدين ثم عزله وولى عليها السيد محمد البركاني ثم تزايدت الفتوحات في الجهات الشرقية والجنوبية فاتسعت المملكة واخذت في الشرق الى ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة وفي

الجنوب الى القفر فيما وراء وادي سوف حيث مجالات التوارك من بقايا الملثمين وفي الشمال الى ما وراء جبال زواوه فجعل مقاطعة مجانة مقاطعة خامسة وحاضرتها سطيف ومقاطعة الزيبان مقاطعة سادسة وحاضرتها بسكره ومقاطعة الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها برج حمزه فولى على مقاطعة مجانة محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخروبي القلعي ثم السيد محمد بن عمر العيسوي وعلى مقاطعة بسكره والصحراء الشرقية فرحات بن سعيد ثم السيد الحسن بن عزوز ثم السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن بن احمد بن الحاج وعلى مقاطعة برج حمزه السيد احمد بن سالم الديبسي وجعل الصحراء الغربية مقاطعة ثامنة وولى عليها السيد قدور بن عبد الباقي وقسم المقاطعات الى دوائر ووضع في كل منها آغا وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر فجعل على كل قبيلة قائداً وعلى كل بطن وعشيرة شيخاً فكانت الاوامر الاميرية تصدر الى العمال المعروفين بالخلفاء ومن طرفهم الى الاغوات ومنهم الى القواد ومنهم الى المشايخ والقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ الى القواد وهم يرفعونها الى الاغوات ومنهم ترفع الى الخلفاء ثم تعرض على الحضرة الاميرية اينما كان هذا في القضايا المهمة واما غيرها فان الخلفاء يفصلونها بدون ان يرفعوها الى الحضرة الاميرية وفي وقت الحرب تكون هؤلاء الرؤساء رؤساء عسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم الى القتال ولما كان غاية قصد الامير ربط البلاد بالادارة الشرعية لم يستخدم في جميع اعماله الا من اشتهر بمعرفة الاحكام وعرف بالعفاف والاقدام وابعد غالب العمال ارباب التقدم والنفوذ في ايام الحكومة الجزائرية واستخدم في ادارة الامور الملكية من كان ذا حزم وعزم وقوة شكيمة من ذوي البيوت المشهورين بالعلم والفضل وحسن السياسة ومع ذلك كان يحلفهم على صحيح البخاري بان لا يعدلوا عن الحق وان يكونوا صادقين في الخدمة مع الامير والرعية وكان مناديه في غالب الاوقات ينادي في الاسواق ان من له شكوى على خليفة او آغا او قائد او شيخ فليرفعها الى الديوان الاميري من غير واسطة فان الامير ينصفه من ظالمه وان ظلم احد ولم يرفع ظلامته الى الامير فلا يلومنّ الا نفسه وتعيين العمال بمراسيم خصوصية تحرر بقلم كاتب الديوان الخاص ويختم باعلا سطر منها بخاتم الامارة وهو خاتم كبير الحجم نقشه في الدائرة

ومن تكن برسول الله نصرته * ان تلقه الاسد في آجامها تجم

وفي جوانبه الله محمد ابو بكر عمر عثمان علي وفي وسط الدائرة الواثق بالقوى المتين

ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين والتاريخ سنة ١٢٤٨ ويصير نصب العامل داخل الديوان الاميري وعند تسليمه مرسوم التقليد يعطى خاتماً عليه اسمه ولقبه ويخلع عليه برنس جوخ على حسب الرتبة التي تولاها ويحلف على صحيح البخاري الشريف بحسن السيرة والعدل ومع ذلك لا يغفل الامير عن ملاحظتهم والسؤال عن مسراهم مع الرعية وبعد موت المتولي او عزله يرجع الخاتم الى دار الامارة وعلى حسب جسامة المقاطعة او الخطة تكون افراد الحكام في الشرف والشهرة وقد اسندت نظارة الامور الداخلية لابي المكارم السيد محمد بن السيد العربي ونظارة الامور الخارجية لابي محمد الحاج المولود بن عراش ونظارة المالية لابي عبدالله الحاج الجيلاني بن فريحة ونظارة الاوقاف لابي عبد الرحمن الحاج الطاهر ابو زيد ونظارة الاعشار وصنوف الزكاة لابي محمد السيد الجيلاني بن المادية والجباة يخرجون في السنة مرتين مرة في الربيع لجباية الزكاة ومرة في الصيف لجباية الاعشار ونظارة دار ضرب السكة والاسلحة ومعاملها وما يتعلق بذلك من ادوات الحرب لابي البركات السيد محمد بن الجيلاني من السادة الاقارب وكتابة الديوان الاميري لابن عمه السيد احمد بن علي ابي طالب والسيد مصطفى بن احمد التهامي ثم نقل الاول الى قيادة فليته والثاني الى خلافة الحضرة وعين بعدهما للكتابة السيد محمد بن الخروبي ثم نقل الى سطيف والسيد محمد بن عبد الرحمن المرسلي والسيد مصطفى بن العوني واتصلت خدمتهما في كتابة الديوان الى ان ماتا آخر ايام الامارة واسندت نظارة الخزينة الخاصة لابي سعيد محمد بن فاخه والحجابة الى محمد بن الحاج علي الرحاوي والملبوس الاميري لنظر الحاج النجادي الرحاوي وتعين عبد القادر بن ابي معزه للفراشة والبدالي بن شانعية للسقاية وعبد الرحمن بن مقيطيف للسلاح وعبدالله بن بوسف لحمل الشمسية او اللواء وهو من حرير اعلاه واسفله اخضر ووسطه ابيض مرسوم عليه بالذهب المزركش في صورة دائرة تامة نصر من الله وفتح قريب ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين وفي وسطها صورة يد مبسوطة مطرزة بالذهب ولنظارة الاصطبل محيي الدين بن عبدالله ولرئاسة الموسيقى ابو مدين ابن ابي دغن وغير ذلك من الترتيبات الاميرية ولوازمها وبعد ان فرغ منها اقبل على الوظائف الشرعية نعين في كل عمالة وكل دائرة واسعة الانحاء قاضياً عالماً بفصل القضايا الشرعية على مذهب الامام مالك بن انس امام دار الهجرة النبوية فقيهاً نزيهاً مشهوراً بالعفاف والقيام بامور الدين وربط ادارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي رئيس مجلسه الخاص ونصب السيد بن عبد بن المصطفى المشرفي قاضياً للعسكر وعين لكل

قاض كاتبين اكبرها يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الاحكام على مقتضاها ورتب في سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلم وعين لهم مرتبات على حسب طبقاتهم وامر بطلب العلم وباحترام اهله واستثنائهم من جميع المطالب الميرية فاذا حضر عنده طالب علم يمتحنه في الفن الذي يتعاطاه فان وجده ناجحاً فيه اكرمه والا اعرض عنه فكان هذا سبباً قوياً للطلبة في الاجتهاد وحصل من ذلك نجاح عظيم وانتشر العلم في جميع المقاطعات واقبل الناس على تعليم اولادهم الامور الابتدائية فكثر النفع وعمت الفائدة وكانت الكتب حينئذٍ قليلة في البلاد فاجتهد في جمعها من كل جهة وامر العسكر بان كل من وجد كتاباً يحضره له ثم شدد في حفظ الكتب الموجودة بايدي الطلبة وعزم على ترتيب مكتبة في تاكدمت فصار يجمع الكتب اللازمة ولما احتاج الى اخلاء المدن جعلها في الزمالة فتلفت كلها في وقعة طاكين لما هجم ابن ملك فرنسا الدوك رومال على الزمالة واجتهد في تهذيب الاخلاق وباصلاح الآداب العمومية بحيث لو اراد الله باطالة المدة لعادت العرب الى طريق اسلافهم الموسسة على منطوق القرآن الكريم لانه منع بشدة وصرامة شرب الخمر ولعب القمار لا سيما من العسكر ومنع استعمال الدخان لكونه اسرافاً من دون فائدة سيما للفقراء ومنع الرجال من استعمال الذهب والفضة الا في الاسلحة وعلى الخيول وامر بالصلوات الخمس ان تكون في الجوامع ومن وجد في دكانه وقت الصلاة يجلد وعين مأمورين لذلك ومنع النساء من دخول الجوامع وامر بوابي الجوامع بان تكون عندهم مغرة وكلما جاءت امرأة يسمونها بها فبهذه الواسطة انقطعت النساء عن دخول الجوامع خوفاً على اغطيتهن واحدث اموراً تحسنت للامارة والمملكة لم تكن موجودة في ايام من سلفه من ملوك المغرب فاتخذ في كل مقاطعة دار شورى للمفاوضة في الدعاوي المهمة التي تحدث بين الرعايا وفي مصالح المملكة وجعل انتخاب اعضاء هذه المجالس الى الخلفاء والقضايا التي ترى فيها يكون فصلها على الوجه الشرعي ويكتب فيها صكوك يضع اصحاب الشورى فيها اساءهم بخطوط ايديهم ورئاسة كل منها تناط بالقضاة فاذا حضرها الخلفاء فالرئاسة لهم وعلى كل حال فهم المأمورون بتنفيذ صكوكها وامر هذه المجالس مربوط بالمجلس العالي الاميري المؤلف من احد عشر عالماً وهم نواب المملكة ومن تعين فيه لاول الدولة السيد احمد بن التهامي والسيد عبد القادر ابن روكش والسيد عبدالله سقاط المشرفي والسيد طاهر الخنوظي والسيد محمد المخنوظي والسيد احمد بن الطاهر ابن الشيخ المشرفي والسيد محمد بن المختار الورغي والسيد

المكي الخرنوبي والسيد المختار بن المكي والسيد الحاج عبد القادر بن روكش الاكبر والسيد ابراهيم بن القاضي ورئاسة هذا المجلس الثانية لقاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي وعند حدوث نازلة مهمة يحضره الامير وتكون الرئاسة له والوجه الشرعي الذي بموجبه يجري الحكم في النوازل موقوف على اتحاد آراء الاعضاء ولهذا المجالس سجل كباقي المجالس تحرر فيه مفردات ما يراد من الحوادث وبهذا الترتيب كانت الاحكام جارية على جادة الاستقامة ونفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال كباقي الوظائف والخطط الملكية واما اهل الوظائف الدينية وما يتعلق بها فتصرف مرتباتهم وتعييناتهم من خزينة الاوقاف ومن الامور التي احدثها الامير وحاز بها الفضل على من تقدمه من الملوك في المغرب انشاء المارستانات لمرضى العساكر في كل المقاطعات وعين في كل مارستان اربعة اطباء يرجع امرهم الى طبيب حضرته العلية وهو ابو عبد الله الزروالي وكان ماهرًا في علم الطب وشهد له اهل الخبرة بذلك وكان عالمًا بخواص الاعشاب على اختلاف صنوفها وكان يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب بوضع عشب على مدخله فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة دون الم وابتنى دارًا للمسافرين والوفود في الحضرة واقام ناظرًا عليها من امناء دولته ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم وتقدم لهم المآكل والمشارب على حسب مقامهم

ذكر احتفال الامير للمولد النبوي والعيدين

كان يحتفل للمولد النبوي ايام امارته احتفالاً عظيماً فيخرج يوم المولد الشريف هو وخاصته وامراء جيشه الى ارض فيحاء متسعة ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة كهيئة قلعة مربعة الاركان ويضعون ما يحتاجون اليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعة ويجعلون في كل ركن من اركانها مدفعين ثم تاتي فرقة من الخيالة فتحيط بتلك القلعة فتخرج اليها شرذمة من القلعة لتردها عنها فتبعد عن القلعة نحو عشر دقائق وتطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهجم الخيول عليها وتطلق النيران حتى تقرب منها فترجع تلك الشرذمة الى وراء وهي لا تفتر عن اطلاق النار حتى تدخل القلعة وتقف في مكانها الذي خرجت منه ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول وتطلق مدفعًا او مدفعين من الركن الذي يليها فترجع الخيالة عنها ثم تخرج شرذمة اخرى من الجهة الثانية الى ما يليها من الخيالة فتهجم عليها فرقة من الخيالة المقابلة لها بجميع قوتها حتى تردها الى مكانها الذي خرجت منه بحيث تتخيل

للناظر انها لم تخرج منه اصلاً ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة ويطلق المدفع عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقرى وعلى هذا المنوال تفعل اصحاب الجهة الثالثة والرابعة من الافعال ويستغرق هذا العمل مقدار ساعتين من النهار فيشاهد الناظر من تلك الافعال ما تقر له الاعين وتبتهج به النفوس وتقول في حقه الالسن لا عطر بعد عروس وهكذا كان العمل في ايام الاعياد بعد الفراغ من الصلاة

ذكر ما شيده الامير من الحصون وما انتهى اليه عدد العسكر النظامي مشاة وركباناً

لما فرغ الامير من تمهيد البلاد اقبل على تحسين احوال المملكة وتحصينها وتثقيف ثغورها فابتنى في الخط الفاصل بين السواد والصحراء عدة حصون منها سعيده وسبدو في الجهة الغربية وفي الجهتين الجنوبية والشرقية تاكدمت وبوغار وسباو وعريب وبوخرشفه وطازه ولما ان دخل طازه ورأى تشييدها في اقرب وقت حمد الله واثنى عليه وقال ارتجالاً

الله اعلم ان هذا لم يكن * مني على الامل الطويل دليلا
كلا وان منيتي لقريبة * مني واصبح في التراب جديلا
ورضى الاله هو المنى ليكون من * بعدي انتفاع الخلق ثم طويلا

ثم امر بكتابتها على باب الحصن وحصن تاكدمت اعظم الحصون المذكورة واقواها واحسنها موقعاً واوفقها لوصل تجارة الصحراء بتجارة السواد وقد اعتنى به الامير نظراً لمركزه ولما ابتنى هذا الحصن انتقل اليه باهله واهل دائرته وانشأ فيه دار السلاح وجلب اليها عملة من اسبانيا وفرنسا فكانوا يصنعون فيها البواريد وحرباتها والسيوف وغيرها من ادوات الحرب ومهماته وابتنى فيه داراً لضرب السكة وجعلها ثلاثة اجناس من الفضة والنحاس مستديرة الشكل فالفضة والنحاس نوعان مكتوب على احد وجهيها (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) وعلى الآخر (ضرب في تاكدمت) وتاريخ الضرب سنة ١٢٥٥ وهذه القطعة عبارة عن فرنكين والجنس الثاني من الفضة والنحاس مكتوب على احد وجهيه (ان الدين عند الله الاسلام) وعلى الوجه الآخر محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد والجنس الثالث من الفضة والنحاس مكتوب على وجهه الاول (ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا) وعلى الثاني محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن نصف فرنك وتنقله في رسم هذه الآيات بحسب

ما كان عليه من اختلاف الظروف والحالات وابتنى في الحضرة معسكر ومليانة والمدية معاملاً لصناعة الاسلحة بانواعها والبارود والرصاص ومع ذلك كان يشتري منها حين اللزوم من مملكة تونس ومراكش جانباً عظيماً وكان تجار فرنسا يجلبون الملح والكبريت لمراسي الجزائر فيشتريه منهم وفي اوقات الهدنة يحضره من فرنسا وتارة يستخرجه من معدن بجبل وانشريس واما الجوخ والمدافع فكان معملها في تلمسان تحت نظارة معلم اسبانيولي . وقد رأيت ثلاث مدافع في باريس اخذت في ايام الحرب مكتوب على كل مدفع فوق خزانته النارية (عمل في تلمسان وقت امارة ناصر الدين السيد عبد القادر ابن محيي الدين سنة ١٢٥٥) . وقد الزم كل من سلب في الحرب بارودة فرنسوي ان يحضرها لناظر المعامل الحربية وياخذ ثمنها منه اثني عشر ريالاً سينك ورتب صناعاً لاصلاح السلاح وهم المسمون قرداحية وكانوا يرافقون الجيش سفراً وحضراً ورتب عدداً من الخياطين والسروجية لاصلاح ما يلزم اصلاحه من الالبسة وسروج الخيل للعسكر والمتطوعة في ايام الحرب وبالجملة فقد بذل الجهد والمال في منافع الدولة والبلاد واستقصى اساليب ما به العمران ووضع الحاميات والمسلحات في المضايق ومواضع الخوف وحصن الثغور فعم الامن سائر المملكة واطفأ نار الفتن التي لم تزل منذ تقلد امور المسلمين تتقدم تارة وتخبو اخرى واستاصل اهل الفساد وللجند المنظم في ذلك اليد الطولى فانه لا يعرف غير الفتك في اهل الضلال ولا يراقب في طاعة مولاه ونصرته الاً ولا ذمةً مع قلة عدده اذ لم يتجاوز خمسة عشر الفاً وثلاثمائة منها اثنا عشر الفاً مشاة والفان وخمسمائة خيالة ومائتان وخمسون مدفعيون تدير عشرين مدفعاً للسفر وخمسمائة عبد اتخذها حرساً له تحت رئاسة سالم اغا الزنجي الفارس المشهور وكانت البستهم من الجوخ الاحمر الجيد وسلاحهم محلى بالذهب والفضة مرصعاً بالمرجان وهذا عدد افراد الجند الشخصية ومن حيث الشجاعة والبسالة فقد كان الواحد منه يعد بعشرة وعلى اتم ما يرام من النظام وكان ينضم له عند اللزوم من حشود المملكة وجيوشها ما تقتضيه الحال وناهيك بجند مع قلته فتح الاقفال ونقل الانقال واستوثق به الامير ملك اقام في مقارعة جيوش فرنسا ومناضلة الثوار والخوارج ستة عشر سنة وبذلك تشهد الاخبار والآثار ولكن لكل هبوب ركود وليس للايام عهود قال شرشل في تاريخه ان هذه الاعمال كبيرة جداً بالنسبة الى سن الامير حين المباشرة لاجرائها مع عدم اطلاعه على احوال العالم كما ينبغي اذ ذاك لكنها صغيرة بالنسبة الى ذكاء عقله الفريد ولا شك انه لو تركت فرنسا الامير مغتنماً تلك الغلطة التي اقرت بها في معاهدة تافنا

لكان اظهر منه ما لم يكن في حساب حيث ان العاقل يندهش متى سمع بان دولة فرنسا احتاجت الى مائة الف عسكري معدودة من اول عساكر الدنيا تقاتل بها الامير وقتل منها ما يزيد على مائة الف حتى امكنها هدم ما بناه في نحو الثلاث سنين على انه لولا المساعدات الخارجية والداخلية لكانت احتاجت الى اكثر من ذلك والله غالب على امره

ذكر توجيه السيد ابن عبدالله سقاط وفدًا الى سلطان المغرب الاقصى وما ارسله معه من الاسئلة الى علمائها وما اجاب به شيخ الاسلام الامام التسولى

قد كان الامير يعاقب من يقع في ايدي ضباط الثغور من اشقياء المتنصرة كالدوائر والزمالة والبرجية وغيرهم ممن يواصل العدو ويتسلل الى مدنه بما اختلسه من المسلمين من عروض وماشية بما دون القتل الا من تحقق ضرره للمسلمين فكان يامر بقتله ثم بدا له ان يستفتي المحققين من علماء مصر وفاس في شأنهم وشأن مانعي الزكاة والاعانة التي افترضها للقيام بامر الجهاد وغير ذلك مما اضطره الحال الى السؤال عنه تاكيدًا لحجته وتوطيدًا لمحجته فامر بتجهيز هدية عظيمة ذات قدر وقيمة واختار السيد ابن عبدالله سقاط لايصالها الى سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن بن هشام واحكام عرى المحبة بينهما وكتب له كتابًا يذكر له فيه ما اجراه من تنظيم العسكر وتمرينه وتعليمه ابواب الحرب ومكايدها واطال في مدح ذلك وجل قصد الامير من ذلك الاطناب ايقاظه من غفلته وتنبيهه على انتهاز الفرصة في الاستعداد لذلك واعلمه بما ارسله من الاسئلة صحبة رسوله لعلماء فاس يجيبوه عليها بالجواب الشافي على وجه التفصيل الكافي ونص السؤال

الحمد لله وحده السادة العلماء الاعلام ائمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الادريسية حفظكم الله ورعاكم ومن كل سوء حماكم جوابكم ابقاكم الله فيما عظم به الخطب واشتد به الكرب في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر تجاذر وذلك ان عدو الدين يحاول ملك المسلمين واسترقاقهم آونة بالسيف وتارة بشبكات السياسة ومن المسلمين من يداخلهم ويتابعهم ويجلب اليهم المواشي وجياد الخيل وغيرها من انواع الكراع ولا يخلو امرهم من دلالتهم على عورات المسلمين ومن القبائل من يفعل ذلك فاذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم تجمعوا وتمالوا على الكذب والانكار مع انهم

يعرفون منهم العين والاثر فما حكم الله في الفريقين في انفسهم واموالهم وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة اذا استنفر الامام او نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن فهل يعاقبون على ذلك وباي شيء يكون عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ اموالهم واسلابهم وما حكم الله فيمن يمتنع عن اداء الزكاة كلاً او بعضاً لدعوى عدم وجود نصابه عنده مع تحقق وجوده في الحال فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن ام يكون للاجتهاد فيه مجال ومن اين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد لثغورهم عن اغارة العدو ولا بيت مال موجود منظم الآن والذي يجمع من الزكاة لا يفي بقوتهم فضلاً عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ولوازم مؤنتهم فهل يترك الامر فيستبيح العدو الوطن ام يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين واذا كان فهل على العموم ام على الاغنياء فقط وهل يعد مانع المعونة باغياً ام لا وما حكم اموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به ام لا اجيبوا ابقاكم الله عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال ماجورين والسلام عليكم بدا وعوداً حرر في ذي الحجة سنة ١٢٥٢ عن اذن ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين

وفي اليوم التاسع عشر من ذي الحجة سنة مائتين واثنين وخمسين توجه السيد ابن عبدالله بالهدية والكتاب والاسئلة ولما وصل الى فاس امر السلطان بانزاله واكرامه ثم قدم اليه الهدية والكتاب فاخذ يسأله عن احوال الامير وما هو عليه مع عدوه وعن الرعية وافعالها معه فاخبره بالحقيقة وقدم اليه السؤال فارسله الى شيخ الاسلام اذ ذاك العلامة ابو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي وامره ان يجيب عنها جواباً شافياً موضحاً كافياً ولما تم تحرير الجواب وقدم الى حضرة السلطان عبد الرحمن امر وزيره باحضار سبع كسوات فاخرات وسبع افراس من عتاق الخيل بسروجها واربعة مدافع صغار وستين فرساً وان يعطى من الخزينة عشرة آلاف منقال الى الحاج الطالب وكيل الامير بفاس ليشتري له بها من الادوات الحربية ما يأمره بشرائه وامر بتحرير كتاب الى الامير مضمونه التحريض على استئناف الجهاد ونقض المعاهدة وان ما ارسله له من الخيل والمدافع انما هو ليستنجد بهم في الجهاد واجابه عما نبهه له من تنظيم العسكر وتعليمه بقوله ان عسكرنا حين يأتينا العدو ما نجمعه من الجموع وعلى هذا كان اسلافنا وكتب الوزير للامير نحو هذا وزاد فيه ذكر مفردات الهدية وكذلك الحاج الطالب كتب للامير يعلمه بانه قبض عشرة آلاف منقال من الخزينة وانه منتظر امره بالذي يشتريه له فيها ثم امر السلطان باحضار السيد ابن عبدالله

سقاط واوصاه بان يبلغ الامير على لسانه باستئناف الجهاد ونقض المعاهدة ثم امر باكرامه واكرام من معه وبعد ان سلم له الهدية والكتب وجواب السوءال ودعه وامره بالتوجه فجد في المسير الى ان اجتمع بالامير في حصن طازه فاخبره بما اوصاه به السلطان عبد الرحمن من نقض المعاهدة واستئناف الجهاد وقدم الهدية والكتب والجواب عن السوءال وحيث انه في غاية الاسهاب رمت اختصاره ليتاتى درجه في هذا الكتاب محافظة على احكامه المنقحة وانتشاقًا لريا ازهاره المتفتحة فاقول قال في خطبة رسالته الحمد لله الذي لا نشرك به احدًا ولا نجد من دونه ملتحدًا ابتلى قلوب الموءمنين ليميز الخبيث من الطيب ويعلم ايهما اقوى جلدًا والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي انقذنا من الهلاك والردى وتكفل بالشفاعة الامة غدا ضارب هام العدا وتجاهد من حاد عن طريق الهدى وقاتل من اتخذ مع الله ولدا وعلى آله واصحابه الذين لم ترعهم الكتائب الوافرة ولو كانوا هم اقل عددًا ولا هالتهم الامم الكافرة ولو كانت اكثر جمعًا واقوى عددًا وعددًا وبعد فقد ورد في هذه الايام من ناحية اعمال الجزائر كتاب من اميرها المجاهد في سبيل الله رب العالمين سيدي الحاج عبد القادر ابن محيي الدين ايد الله كتائبه وجعل عونه مظاهره ومصاحبه متضمنًا السوءال عن مسائل شتى كما ستراه بعد ونقف عليه ولما وقف عليه مولانا الامام كهف الاسلام وملاذ الخاص والعام كافل امة محمد عليه افضل الصلاة والسلام وقاطع طواغيت الشرك بالسنان والحسام امير الموءمنين الآخذ لراية الكتاب والسنة باليمين نجل الملوك العظام المنصور بالله مولانا عبد الرحمن بن هشام ايد الله ايامه بعزيز داده ونصر مكين يتصل به الى المولى امداده كلف هذا العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير ان يجيب عن تلك المسائل بحسب ما يراه فامتثل واجاب عن ذلك بجواب يدل بحسب فحواه على ان المجيب استفرغ ما هو عنده في سره ونجواه وكان نصره الله امر بالاختصار في الجواب وعدم التطويل والاطناب ثم لما طولع به وهو ايده الله على ما هو عليه من الشغف بمحبة العلم والتلهف على بثه وغاية الحرص على اذاعته ونشره والمبالغة في التنفير عن البدع المحدثات وقمع الملحدين المعتدين ذوي الجراة والتعصبات والذب عن الحنيفية السمحاء وحياطتها وقمع من لحظها بعين الاعتداء والازدراء بها راى ان الجواب المذكور في غاية الاختصار والقصور فامر المجيب امرًا ثانيًا بان يجعله تاليفًا يحيط بجميع معانيه ويطلق في ذلك عنان القول بما يبرىء العليل ويشفيه ويتوسع في الجواب ويتعرض لجميع متعلقاته ويسلك به صوب الصواب فقلت ممتثلًا لامر المولى

ان الجواب عن هذه المسائل التي عظم موقعها من دين الاسلام وتاكد الاعتناء بها وبمتعلقاتها على التمام يتوقف على تبحر في الفقه وتضلع في قواعده وباع واسع في تحرير غوامضه ونوازله واني للقاصر مثلي ان يجول في مجالها ويحصل دقائق فروعها واصولها وعلى كل حال فاقول اما المسئلة الاولى ففيها فصول الخوض فيها لقاصر العلم مثلي خطير والكشف عن لثامها مع كلالة الذهن صعب عسير ولكن الامر المولوي تكلفت الجواب عنها على قدر نظري القصير لان المسافر الجاد في السير قد ارخص له في التقصير وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير ثم ساق السوءال بحروفه وقال في الجواب الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله

الفصل الاول

فيما يعامل به قبائل هذا الزمان المنهمكين في المحرمات والعصيان

قد افتى كثير من الفقهاء المحققين بقتال القبائل المجاورين لفاس ومن نحا نحوهم لما هم عليه من التعدي على حقوق عباد الله وكتمان امر اللصوص والجواسيس والذب عنهم ووافق الشيخ مياره على ذلك والامام اللباس والشيخ عبد القادر الفاسي وغيرهم قال الامام ابن العربي قد اتفقت الامة على ان فاعل المعصية يقاتل عليها ويحارب الا اذا اقلع عنها وتاب

الفصل الثاني

في دليل عقوبة الجاسوس والنصاب وغيرهما ممن يستحق العقاب وسوء العذاب

اعلم انه لا يخفى ان كل من تلبس بمعصية توعد الله عليها بالعقاب الاخروي فان الامام يجب عليه ان يعاقبه سواء كان فيها مع ذلك حق الآدمي ككتمان الجواسيس والنصابين وحمايتهم والتعصب لهم لما في ذلك من الفساد وادخال الضرر على المسلمين في دينهم ودنياهم او كان فيها هضم لحق من حقوق الله فقط كالاكل في نهار رمضان او ترك الصلاة او ترك الاذان او ترك النهي عن المنكرات مع القدرة لان من رضي بفعل قوم فهو منهم وسبب هلاك الامم السالفة انهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه

الفصل الثالث

في كون الرجل يؤاخذ بجريرة غيره

روى مسلم في صحيحه وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه ان ثقيفاً كانت حليفة لبني غفار في الجاهلية فاصاب المسلمون من بني غفار رجلاً ومعه ناقة له واتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد بم اخذتني واخذت ناقتي فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخذتك بجريرة حلفائك ثقيف وكانوا اسروا رجلين من المسلمين وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر به وهو محبوس فيقول يا محمد اني مسلم فيقول له صلى الله عليه وسلم لو قلت ذلك وانت تملك امرك لافلحت ثم قبل النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالرجلين فدلوه من ثقيف وامسك الناقة لنفسه قال الابي هذا الحديث اصل في هذا الحكم وهو اخذ الحليف بجريرة حلفائه وان لم يجزم الا كونه حليفاً فقط وبيان ما قاله الابي ان هذه المسئلة لا تخلو من ثلاثة اوجه احدها ان يكون الغير ممن لا ياوي الى المذنب ولا يحميه ولا يتعصب له ولا يقدر ان يكفه عن الذنب فهذا الغير لا يؤاخذ بذنب ذلك المجرم كتاباً وسنة واجماعاً سواء كان ذلك الغير من قرابته ام من الاباعد وهو المشار اليه بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى ثانيها ان يكون ذلك الغير ممن لا ياوي اليه المذنب ولا يحميه ولا يتعصب له الا انه يقدر ان يكفه عن ذنبه ومفسدته ويقدر على الانتصاف منه فهذا تجوز مؤاخذته سداً للذريعة ثالثها ان يكون ذلك الغير ممن يحمي المذنب ويتعصب له او يواسيه او يأوي اليه ويرضى بفعله فهذا يؤاخذ بجريرته وبجميع ما اخذه ولا يختلف فيه لانه بتعصبه له ولو بجاهه وحمايته والرضى بفعله صار معيناً له على ظلمه متسبباً بذلك لاتلاف اموال الناس ودمائهم

الفصل الرابع

فيما لا يجوز بيعه للنصارى ولا يحل تمكينهم من تناوله واخذه

قال مالك في المدونة لا يباع للحربيين سلاح ولا كراع ولا نحاس ولا عروض قال ابن حبيب سواء كانوا في هدنة او غيرها وهو المذهب كما في المعيار

الفصل الخامس

في معاقبة العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الاقوال

ملخص ما ذكره الائمة الاعلام في هذه المسئلة ان ما شرع الله فيه حداً معلوماً كالزنى والسرقة والحرابة والقذف ونحوها لا تجوز العقوبة فيه بالمال اتفاقاً لما فيه من تبديل الحدود المعينة من الشارع قال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون اللهم الّا ان تعذرت اقامتها فيعاقب بالمال ارتكاباً لاخف الضررين ودفعاً لاثقل المفسدتين ولا يسقط ان زال العذر وما فيه التاديب والتعزير بالاجتهاد فقيل يعاقب فيه بالمال مطلقاً وبه قال الشافعي واختاره النووى وابن قيم الجوزى وقيل لا يعاقب به مطلقاً وهو ما لابن رشد ومن وافقه وقيل لا يعاقب الا مع التعذر وهو ظاهر كلام الشيوخ المتأخرين

الفصل السادس

في حرمة ترك الامام ونواب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم

يجب على الامام ان يجري على الرعية الاحكام الشرعية ويحرم عليه ان يتركهم على ما يتعمدونه من ارتكاب المفاسد والمظالم ويتغافل عن جرائمهم كتاباً وسنة واجماعاً اذ من المعلوم ضرورة ان نصب الائمة والولاة انما هو لزجر من ارتكب من الرعية شيئاً مما نهى الله ورسوله عنه وذلك فرض عين عليهم فانهم ان تركوه افضى الامر الى هدم الاسلام واستوجبوا الوعيد في قوله صلى الله عليه وسلم من غش امتي فعليه لعنة الله

واما المسألة الثانية ففيها فصلان

الفصل الاول

في حكم التخلف عن الاستنفار وما عليه من العقاب

من المعلوم ان الاستنفار للجهاد يتعين بتعيين الامام فمتى استنفر قوماً فقد عينهم ومتى عينهم وجب عليهم النفير وحرم عليهم التخلف فان ابوا الا التخلف فقد عصوا الله ورسوله واستوجبوا العقوبة في الدنيا والآخرة قال تعالى الا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً

الفصل الثاني

فيما ينبغي ان يفعله الامام قبل ان يستنفر الناس وفيمن يجب استنفاره وتدريبهم للحروب واستعمال المكايد وما يستعان به على خذلان العدو وتشتيت شمله

اعلم انه ينبغي للامام ان يامر قبل النفير بالتوبة ورد المظالم الى اهلها والصدقة وغير ذلك من انواع البر كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك ويقول انما تقاتلون باعمالكم وان يستنفر وجوه الناس وابطالها الصابرين في الباساء والضراء الذين لا يولون الادبار وان يدربهم امور الحرب ويمرنهم عليها و يعرضهم بالعمل على حضرته المرة بعد المرة اذ ينبغي له استعمال ذلك شرعاً في كل خمسة اشهر او ستة على الاكثر فيجمعهم بين يديه ويطلع على احوالهم وافعالهم الحربية و يعدهم بالعطايا والخصوصيات متى صبروا واظهروا الجلد في الحروب الى غير ذلك مما يزيدهم قوة ونشاطاً كما انه ينبغي له ان يستعين على العدو باستعمال المكايد اذ ربما تعمل المكيدة ما لا يفعله الجيش كما روي ان المهلب بن صفرة لما اعتاص عليه جيشه في حرب الخوارج وقالوا لا طاقة لنا على مقابلة السهام المسمومة وذلك ان رجلاً اسمه ابزى من الخوارج كان يصنع لهم سهاماً مسمومة يقاتلون المسلمين بها فكتب كتاباً لابزى وارسله مع ساع له وامره ان يلقيه بين صفوف الخوارج ونص ما كتبه انه وصلتنا هديتك وحسن موقعها عندنا وقد انفذنا اليك مع كتابنا هذا الف درهم فاقبضها من رسولنا ولا تقطع مواصلتنا ومهاداتنا وما يصلك من عندنا اعظم ومهما طلبتنا وجدتنا حيث شئت فذهب الرسول بالكتاب وفعل ما امر به ووصل الكتاب الى قطرب رئيس الخوارج وعجل على ابزى بالقتل في الوقت من غير ان يتحقق خبره وقال ما اصنع بن هادى المهلب ثم قال المهلب لاصحابه لا تشغلوا الخوارج عن المنازعة بالقتل فانهم افترقوا الآن فلا يجتمعون ابداً فكان الامر كما قال

المسالة الثالثة

اعلم ان مانع الزكاة يقاتل عليها اجماعاً والمتهم بتغييب المزكى يحلف في العين مطلقاً وفي غيرها ان سبق له امتناع من ادائها ويخرص على غير الامين وقيل مطلقاً

لفساد الناس في هذا الزمان وعدم الامانة ومحل ذلك فيما اذا ثبت له مال اما ببينة او اقرار والا فلا يكفي مجرد التهمة

المسألة الرابعة وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

يجب على الامام ان يجبر الرعية على الاستعداد لدفاع العدو ولاصلاح خلل البلاد قال تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها فالخطاب الائمة والولاة على احد الاحتمالات باداء الامانات اي التكاليف التي كلفوا بها في الرعية من الحكم بالعدل وتدبير امورهم بما يعود عليهم نفعه من استعداد وغيره وقال تعالى في حق الرعية يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم

الفصل الثاني

في جواز صلح العدو وعدمه

الذي به فتوى العلماء انه يجوز فيما اذا كان العدو مطلوبا لان الجهاد فرض كفاية ولا يجوز فيما اذا كان العدو طالبا لان الجهاد وقتئذ يكون فرض عين الا اذا دعت الضرورة اليه ابقاء على المسلمين وبلادهم فانه يجوز والضرورة لها احكام وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب

الفصل الثالث

فيما يرتزق منه الجيش ان فرغ بيت المال ووجوب المعونة ان احتيج اليها في الحال والابدان والمال

قال في المعيار عن الامام ابن منظور الاصل انه يطالب المسلمون بغارم غير واجبة شرعا لكن اذا عجز بيت المال عن ارزاق الجند وما يحتاج اليه من آلة حرب وغير ذلك من العدد فيوزع على الناس ما يحتاج اليه من ذلك ويستنبط هذا الحكم من قوله تعالى قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا الآية ثم قال ان هذا الامر يتوقف على شروط احدها ان يعجز بيت المال وتتعين الحاجة ثانيها ان يصرفه الامام بالعدل فلا يجوز له ان يستاثر به

دون المسلمين ولا ينفقه في سرف ولا يعطي من لا يستحق او يعطي من يستحق اكثر مما يستحق ثالثها ان يكون الغارم قادرًا من غير ضرر ولا اجحاف واما من لا شيء له او له شيء قليل فلا يغرم البتة الرابع ان يتفقد امر المعونة في كل وقت اذ ربما جاء وقت لا يفتقر فيه الى زيادة على ما في بيت المال ثم قال وكذلك اذا تعينت الضرورة للمعونة بالابدان ولم يكف المال فان الناس يجبرون على التعاون بابدانهم بشرط القدرة وتعيين المصلحة والافتقار الى ذلك

الفصل الرابع

في حكم من ساكن العدوّ الكفور ورضي بالمقام معهم فيما لهم من البلاد والثغور

اعلم ان الهجرة من ارض الفساد واجبة ولا فساد اعظم في الدين من الكفر قال ابن العربي في الاحكام ان الهجرة وهي الخروج من دار الحرب الى دار الاسلام قد تقررت فريضتها في ايام النبي صلى الله عليه وسلم ولم تزل باقية الى يوم القيامة قال وكذلك الهجرة من ارض الحرام والباطل قال عليه الصلاة والسلام يوشك ان يكون خير مال المسلم غنيمات يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن اخرجه البخاري ومالك في الموطا قال بعضهم ان قيل اذا لم يوجد بلد الا كذلك قلنا يختار المرء اقلها اثما مثل ان يكون بلد فيه كفر وبلد فيها جور فبلد الجور خير له او بلد فيها عدل وحرام وبلد فيه جور وحلال فبلد الجور والحلال خير له او بلد فيه معاص في حق الله تعالى وبلد فيه معاص في حق العباد فبلد فيه معاص في حق الله تعالى اولى من بلد فيه مظالم العباد الخ ما ذكره قال ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى على بلادهم العدو الكافر الا بثبوت العجز عنها بكل وجه بحيث لم يجد لها حيلة ولا سبيلا كان يكون مريضًا جدًا او ضعيفًا جدًا واما القادر على الهجرة باي وجه كان فانه غير معذور بل هو داخل في وعيد قوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماويهم جهنم وساءت مصيرًا قال المؤلف فهذه النصوص القرآنية والاحاديث النبوية مع الاجماع كلها كما في المعيار صريحة في وجوب الهجرة وحرمة الاقامة في بلاد

الكفار ولا تجد لذلك مخالفاً من اهل القبلة فان تعمد المسلم ترك الهجرة مع القدرة عليها فقد قال في المعيار ما نصه اختلف العلماء فيمن اسلم و بقي في دار الحرب فقال مالك دمه محقون وماله فيء فهو لمن اخذه وليس بمعصوم حتى يخرج به صاحبه الى دار الاسلام وقال الشافعي دمه وماله معصومان وان لم يخرج الى دار الاسلام و بقول الشافعي قال اشهب وسحنون واختاره ابن العربي و بقول مالك في المال قال ابو حنيفة و به قال اصبغ واختاره ابن رشد وهو المشهور قال وهذا الخلاف انما ورد فيمن اسلم منهم و بقي بين اظهرهم ولم يهاجر لكن المتاخرون الحقوا به في الحكم من كان مسلماً بالاصالة و بقي ساكناً معهم وسووا بينهما في الاحكام الفقهية المتعلقة باموالها واولادها ولم يروا فيها فرقا بين الفريقين الى ان قال فاجتهاد المتاخرين في هذا مجرد الحاق سكت عنه الاولون فيمن كان مسلماً بالاصالة لعدم وقوعه في زمانهم بمن اسلم و بقي في دار الكفر لاستوائهما في المعنى من كل وجه وهو عدل من النظر واحتياط في الاجتهاد

المسئلة الخامسة

اعلم ان مانع المعونة بالمال والبدن باغ قطعاً لانه منع حقاً وجب عليه يجري عليه البغاة المشار اليه في قول خليل وغيره البغاة فرقة خالفت الامام لمنع حق الى قوله واستعين بمالهم عليهم ويظهر غاية الظهور انه يوءخذ من مالهم ما جهز به الامام الجيوش التي قاتلهم بها لانهم ببغيهم تسببوا في اتلاف بيت المال فعليهم ضمان ذلك في المال الذي بايديهم وقد قالوا ان الغريم المماطل ضامن لما تسبب في اتلافه على الخصم من اجرة الرسول والجيش كله رسول للبغاة في الحقيقة ولا يشك ان من تسبب في اتلاف مال وجب عليه غرمه وهو معنى قول خليل وضمن المعاند النفس والمال ولعل هذا هو المستند في عدم رد الملوك اليوم اموال البغاة اليهم اذ الغالب انها لا تفي بما جهزوا به جيوشهم التي قاتلوهم بها او يقال مستند ذلك سد الذريعة اذ لو ردت اليهم اموالهم لكان ذلك سبباً لبغي غيرهم فعدم ردها اليهم فيه سد تلك الذريعة ثم قال وايضاً فان بغاة هذا الزمان غير متاولين وكل باغ غير متأول يضمن ما قتله من الجيش كما انه يضمن ما اتلفه من الاموال يوءخذ ذلك من مفهوم قول خليل ولم يضمن متأول اتلف نفساً او مالا انتهى ما لخصناه من الاجوبة المقررة في الرسالة

ثم قال مؤلفها الامام التسولي في خاتمتها هذا ما قصدنا جمعه نسأله سبحانه
وتعالى ان يمن علينا وعلى من كان السبب فيها بتوبة صادقة وان يجيرنا وجميع المسلمين
من الفتن الظاهرة والباطنة وان يختم لنا ولهم بحسن الخاتمة وان يهب لنا ولهم قرباً على
بساط الادب في مقام العبودية وان يدمر اعداءنا تدميراً لاتقوم لهم معه قائمة الى يوم
النشور وان يجعل تاليفنا هذا خالصاً لوجهه الكريم و ينفع به المتسبب والقارىء ويجعله
لنا ولهم سبباً لجنات النعيم بجاه اشرف الخلق سيدنا محمد عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم
ورحم الله امرءاً رأى خللاً فاصلحه او عيباً فستره فان الانسان محل الخطا
والنسيان والله سبحانه يتكرم على الجميع بالعفو والغفران اللهم رب كل شيء واله
كل شيء وولي كل شيء وقاهر كل شيء وفاطر كل شيء والعالم بكل شيء
والحاكم على كل شيء والقادر على كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لنا ولهم
ولجميع المسلمين كل شيء ولا تحاسبنا واياهم بشيء ولا تسالنا واياهم عن شيء انك
على ماتشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ووافق
الفراغ مما جمعناه ظهر يوم الاربعاء عاشر ربيع الاول النبوي الانور سنة ثلاث
وخمسين ومائتين والف وهذا صورة السوال وجوابه من علماء فاس واما صورة
السؤال وجوابه من علماء مصر لم تصل اليه يدي لطول العهد وفي مناسبة ذكر
الهجرة قال الشيخ الاكبر والامام الاشهر سيدي محيي الدين بن العربي في الفتوحات
المكية في الباب الموفي ستين وخمسمائة في الوصايا ما نصه واعلم ان المقيم بين اظهر
الكفار مع تمكنه من الخروج من بين ظهرانهم لا حظ له في الاسلام فان النبي
صلى الله عليه وسلم قد تبرأ منهم ولا يتبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
مسلم وقد ثبت انه صلى الله عليه وسلم قال انا بريء من مسلم يقيم بين اظهر
المشركين فما اعتبر له كلمة الاسلام وقال الله تعالى فيمن مات وهو بين اظهر المشركين
ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض
قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيراً
ولهذا انكرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والاقامة فيه لكونه بيد
الكفار اذ الولاية لهم والمسلمون معهم على اسوء حال نعوذ بالله من تحكم الاهواء
فالزائرون اليوم لبيت المقدس والمقيمون فيه من المسلمين هم من الذين قال الله فيهم
ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً وذلك ايام كانت في يد
الصليبيين ثم قال وكذلك تجب الهجرة من كل خلق مذموم شرعاً قد ذمه الحق تعالى

في كتابه او على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم

ذكر ما وقع فيه الخلاف بين الامير والمارشال من مسائل معاهدة تافنا وما آل اليه الامر في ذلك

ولما تمّ امر معاهدة تافنا عين الامير وكلاءه في وهران ومستغانم وكتب الى مسيو كزماني وهو ايتالياني الاصل ووكيل امريكا في الجزائر في القيام باعباء الوكالة له فيها ونص كتابه الحمد لله وحده ولا معبود سواه من عبد القادر بن محيي الدين ناصر الدين الى مسيو كزماني كارل قارئين السلام على من اتبع الهدى وبعد فاننا منذ وقع الصلح بيننا وبين دولة فرنسا ونحن نسأل عمن يكون لنا وكيلاً في الجزائر وواسطة بيننا وبينهم في دوام الالفة والمواصلة ثم بلغنا عنك انك من اعقل الناس واعلمهم بطرق السياسة واخبرنا بعض المحبين انه لا يصلح لوكالتنا في الجزائر غيرك فانشرحت صدورنا لذلك وبناء عليه كتبنا لك هذا اعلاماً بان تكون لنا وكيلاً عند الفرنسيس وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها وتجري امورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الاصلح لنا معهم والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به والذي يعرض لك من ذلك تعرفنا به ومن المعلوم عنا اننا نحب الخير والهناء والعافية والامن في سائر الوطن حرر في رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين ولما اتصل به مكتوب الامير تلقاه بالقبول والتبجيل وعرض على المارشال تعيينه وكيلاً الامير في الجزائر فخشيت فرنسا ان يكون تعيينه واسطة لربط علاقات ودية بين امريكا والامير فكتب المارشال الى الامير لا يخفى سموكم ان مفهوم الشرط الاخير من المعاهدة ان وكلاءكم تكون من العرب كما ان وكلاءنا تتعين من الفرنسيس وعلى هذا فلا حق لكم في تعيين مسيو كزماني وكيلاً لكم هنا وكتب مضمونه الى مسيو كزماني وكزماني عرف الامير بالقضية تفصيلاً وحيث ان الفاظ تحرير المارشال كانت قاسية اغتاظ الامير وامر ان يحرر الى المارشال الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى حضرة المارشال امالا ان وكيلنا موسيو كزماني قد بلغنا انه لا يسمح له ان يقيم بمصالحنا وقد كتبتم له تحريرًا ارسل الينا نسخة منه فقرأناها وهي تعلن اليه انكم لا تقبلونه وكيلاً عنا وانه يجب ان يقام مكانه ابن عرب فاولاً لا نقدر ان نجد ابن عرب يتم وظيفته ويرضي كلانا ويرضى في صوالح الطرفين

وان كزماني رجل حكيم وعاقل لايتمسك الا بما فيه النفع للفئتين وثانياً ليس لفرنسا حق ان تجبرنا على تعيين وكيل ضد ارادتنا وميلنا لان ذلك منوط بنا ولنا ان نختار ما هو الاحسن لنا وان كنتم ترغبون ان تقيموا ابن عرب وكيلاً لكم عندنا فافعلوا فاننا لانعارضكم في ذلك فلماذا تعرضون لنا بانتخابنا فعملكم هذا يناقض مبادئ الشرف الذي يجب ان يراعى في كل الاعمال ويظهر من هذا انكم تريدون ان تردوا الاختلال مرة اخرى في ايالتي الجزائر ووهران حيث ان الافراد الذين ارادوا ان ياتوا ويستوطنوا اراضينا لم تمنعوا عن ذلك بالقوة الجبرية فقط بل القوا في السجن كانهم مجرمون ولما وكيلنا كزماني اقام الحجة على هذه الاعمال وامثالها فلم تتنازلوا ان تجاوبوه فتصرفكم هذا يشير الى الاجحاف عن الحق ويظهر انكم ترغبون ان تزرعوا الخصومات بيننا وبين دولة فرنسا فها اننا قد انتخبنا مسيحياً من مدينتكم وانتم ترفضونه وكنا نتأمل ان تصرُّف حضرتكم لا يكون كتصرف من سبقكم ولا تمشوا على اثرهم وان دولة فرنسا ترسل رجالاً ليحسنوا ادارة حكومة الجزائر عاملين بما يقتضيه العدل والعقل لنتمتع باثمار السلام واستناد حضرتكم في تحريركم على الشرط الاخير من المعاهدة المختص بتعيين الوكلاء متبادلاً منا ومنكم عندنا وعندكم وفهم ان تكون وكلاؤنا من العرب ووكلاؤكم من الفرنسيس فهو خلاف اصله المصادق عليه بل هذا التفسير اختراعي فان كنتم محافظين على المعاهدة فاقبلوا وكيلنا كزماني المعين بموافقة مجلس شورى الامة وان كنتم استحسنتم خرق الشروط وابطال المعاهدة فنحن مع عدم الميل الى ذلك نجيبكم الى مرغوبكم ولا يخفى ان البغي وخيم ونتيجة الشر تعود على البادئ به وبالجملة انني انتخبت كزماني وكيلاً عندكم في الجزائر فرجوعي عنه محال فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم وتاكد عنده ان هذا العمل اثر في خاطر الامير اخذ في تلافي الامر وحرر الامير بالموافقة واخبره انه نحافظ على بقاء المعاهدة الجارية على اسلوبها حيث لا امل في الحصول على ماهو احسن واوفق منها وهذه المراجعات التي دارت بين الامير والحاكم بواطنها وما ينشأ عنها وما تشير اليه من دقائق السياسة لم تخف عن الامير ولذلك جعل بمقتضى حزمه وتفطنه للامور جواسيس حذاقاً تخبره على الدوام بحقائق الاحوال لاسيما ابن دران الموسوي وهذه الحال هي التي اوجبت التشديد واثبات وظيفة كزماني ومن ثمة شرع الامير يخاطب المارشال بالفاظ حرة شديدة في سائر ماعليه الاختلاف والنزاع كمسالة الحدود واشباهها ومن غريب الاتفاق انه في سنة ست وتسعين ومائتين والف كان مدحت باشا والياً على سورية فجاءه مكتوب من كزماني

وهو مقيم في ايتاليا يقول فيه ان الدولة العثمانية عزلتني من وظيفة وكيلها في ايتاليا بسبب انني قمت بخدمتكم حينما كنتم في هذا الطرف كما ان دولة فرنسا لم تقبلني لما عينني الامير عبد القادر وكيلاً له عندها في الجزائر ثم نال له وهذا مكتوب الامير الذي ارسله اليَّ في ذلك الوقت بهذا الخصوص يصلكم في طي تحريري هذا اليكم ومما وقع فيه الخلاف مسير جيش فرنساوي من ارزيو الى مستغانم على طريق البرّ بامر الجنرال بيجو حاكم وهران وجعل ذلك اختباراً لحال الامير معهم هل هو متفطن لمكائدهم ام غافل عنها فان وجده متنبهاً لما خنس والا فانه يمد يده الى مطلوبه والداعي الى ذلك ان المارشال نقم عليه اموراً بنيت عليها المعاهدة وتعقبها عليه واتبعه في ذلك كثير من رجال دولتهم فحاول ان يعالجها بمغالطة الامير وجعل فعله هذا مقدمة لما قصده ولما اتصل بالامير خبر الجيش غضب وعلم مكيدة بيجو فبعث اليه يقول ان مسير جيشكم من ارزيو الى مستغانم على طريق البر مخالف الاصول التي قامت عليها المعاهدة وتقرر عليها الصلح ففعلكم هذا محض تعدٍّ على حقوقنا وان خفي عليكم الامر وادعيت انك غير متعد بفعلك هذا فراجع الشروط وامعن النظر فيها فانك تجد انه لا حق لكم في المرور على طريق البر الى مستغانم وتعلم ان فهمك لمنطوق العبارة المقررة في صك المعاهدة حائد عن الصواب هذا ان قلت انك بنيت امرك على ما فهمته من العبارة او اولته فلما وقف بيجو على مكتوب الامير علم انه على غاية من الحزم في اموره فلم يسعه الا السكوت ولما استولوا على قسنطينة ارادوا ان يمدوا ايديهم الى المسافة الطويلة التي بينها وبين الجزائر وقبل ان يظهروا هذا الامر راوا ان يجعلوا لذلك مقدمة تكون توطئة وتمهيداً له فسير المارشال قاله مع فرقة من العسكر من الجزائر الى قسنطينة على طريق البر ولما وصل الخبر الى الامير كتب الى المارشال في ذلك وشدد النكير واقام عليه الحجة فاجابه على ما ذكره المؤرخ بالمار ان فرانسا قد وهبتك جميع اقليم وهران وجميع اقليم تيطرى ومن الجزائر جميع ما هو غربي نهر الشفه ولا حق لك في شرقيه واما اقليم قسنطينة فانه خارج عن الجوال ولا كلام عليه في المعاهدة لانه كان في وقت انعقادها تحت ولاية احمد باي فاستشاط الامير غضباً لقول المارشال ان فرنسا قد وهبتك وعظم عليه ذلك فاجابه اما اقليم قسنطينة فهو خارج عن محل البحث واما اقليم الجزائر فالواجب عليكم ان تتذكروا ما جرى بيننا عليه من المراجعات الكثيرة حين

المخابرة في انعقاد المعاهدة حيث كان مرادي ان اجعل حدودكم محصورة في ضواحي مدينة الجزائر ولما الح عليّ الجنرال بيجو في توسعة الحدود وامتدادها جعلت وادي القدرة حدًّا لكم في الجهة الشرقية والى البليدة غربًا وكلمة الى عربية وضعت لانتهاء الغاية في كل شيء فكان الواجب عليكم ان لا تتجاوزوا وادي القدرة الذي جعلته لكم حدًّا ونهاية لغاية ما ابحته لكم من البلاد على ان المسافة التي بينه وبين قسنطينة لاتعلق لها بما جرى بيننا في المعاهدة مما استوليتم عليه فان ما استوليتم عليه في الشرق محصور فيما بين قسنطينه وبونه وبالجملة فتجاوزكم لحد وادي القدرة خارج عن جادة العدل بعيد عن خط الصواب لا سيما واهل تلك الناحية لم يحل في اعينهم نعلكم بل رأوه تعديًا محضًا على حقوق المسلمين وظلمًا بحتًا لهم ودولة عظيمة شهيرة مثل دولة فرنسا لا ينبغي لها ذلك وبالجملة فتعريجكم على تاويل الالفاظ لا يليق بكم بل يجب عليكم وعلينا ان نحافظ على النصوص الصريحة ونجري في امورنا على موجبها فاجابه المارشال ان مراجعاتي لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة فوق المذكورة في التحديد الشرقي فارجو ان تلاحظوها . اجابه الامير ان جوابي الاول وما بعده ومراجعاتي كلها مؤسسة على ملاحظة سائر ماذكرناه في التحديد كلمة كلمة وهو الصواب المطابق للغة العرب وما فهمتموه انتم من كلمة فوق وكلمة الى غير مطابق لما وضعنا له وعندكم من علماء اللغة العربية من يحقق لكم ماذكرناه وهذه المراجعات كلها لم تجد نفعًا واستمرت المشاكل تتزايد يومًا فيومًا ومع ذلك فان الامير غير مبال بها ولا ملتفت اليها لما اطلع عليه من ميل دولة فرنسا لدوام السلم ولما استولى الامير على مجانه والزيبان وغيرهما من النواحي الشرقية والجنوبية قام المارشال وقعد وبعث اليه في ذلك فاجابه انكم استوليتم على مدينة قسنطينه والخط الممتد بينها وبين مرسى بونه لاغير فان ادعيتم ان جميع ما كان تحت سلطة احمد باي لاحق بذلك فهو محل نظر واما ما استولينا عليه فانه بعيد عن دعواكم ولا حق لكم فيه اذ لا يعد من اعمال قسنطينه التابعة لحكومة احمد باي ولا كان في طاعته بل كانت حكام هذه البلاد من اهلها لا تعلق لهم به ولا يد له عليهم منذ انقرضت الحكومة من الجزائر بناء على ذلك ليس لكم في البلاد التي استولينا عليها دعوى تسمع عند اهل العدل الذين يحافظون على حقوق العباد ولا تطمح نفوسهم الى الاعتداء ثم ان هذه الاعمال التي اجراها الامير دون ان يلتفت الى احد فيها قد فتحت له بابًا عظيمًا لتوسيع مملكته ومدت له طريقًا متسعًا لنفوذ كلمته

و بذلك وضع يده على الاماكن الواقع عليها النزاع وعلى البلاد الشاسعة كالزيبان ونجانه وجبال البربر الشمالية وما اليها وسلم للفرنسيس استيلاءهم على قسنطينة ولم يسلم لهم دعوى تابعية البلاد التي استولى هو عليها بل قال ان هذه الاقسام خارجة عن حكومة احمد باي الكونه يعلم ان ما تغلبوا عليه لا يمكنه التعرض اليهم فيه لعدم مساعدة الوقت له في ذلك وما كان خارجاً عن محل تغلبهم فلا حق لهم فيه .

« ذكر خروج ابن علال خليفة الامير على مليانة لتحصيل »
« الاعانة والزكاة من الاعراش »

ولما طال على الامير امد حصار عين ماضى كتب الى السيد محمد بن علال خليفته على مليانه بان يحصل الاعانة المفروضة على الاعراش ويستوفي زكاة خمس سنين لم يدفعوها فخرج الخليفة في فرقة من عسكره وما زال يصبح عند قوم ويمسي عند آخرين ويحصل الاعانة منهم والزكاة وكل من تاخر عن اداء ما عليه منهما يناجزه القتال حتى انتهى الى جبل تاشته وكان سكان هذا الجبل لصوصاً طغاة يسرقون الاموال ويختطفون النساء ذوات البعول من اخبيتهن ويذهبون بهن الى اماكنهم الحصينة ويتزوجون بهن وكانت الحكومة السابقة لا تقدر على ردعهم عن ذلك مع كثرة المتشكين من افعالهم البربرية ولما طالبهم الخليفة بالزكاة والاعانة وامرهم برد ما عندهم من المظالم لاهاليها المجتمعين عنده لم يعتبروا امره واجابوه باننا خدام الاعراش وقد ارسلنا لهم الخبر بذلك وطيروا الخبر الاعراش يستنفرونهم للقتال فاقام الخليفة ثلاثة ايام يراجعهم فلم يجده ذلك نفعاً وفي اليوم الرابع ركب في خمسين فارساً واربعمائة من المشاة فصعدوا الجبل وابتدأوهم في القتال وبعد ساعة ولوا منهزمين وتركوا العيال والاموال فاستولوا على الجميع ونزلوا بهم الى العسكر وبعد ذلك استأمن كبراؤهم فامنهم ولما حضروا عنده امرهم بدفع كافة ما عليهم من الاموال فاجابوه لذلك ثم امرهم برد المظالم لاهلها فادوا جميع ما غصبوه ثم امرهم بان ياتوه بالنساء اللاتي خطفوهن فاتوه بالبعض منهن وقالوا لم يبق الا اللاتي هرب بهن رجالهن وفيهن من ولدت منهم بطناً واثنين وثلاثة فلم يقبل منهم ثم اتفقوا ان يدعوا عنده عشرة رجال من اعيانهم رهناً الى ان ياتوا بهن فاجابهم لذلك واطلق عيالهم

وسلمهم جميع اموالهم بعد ان استتابهم واخذ عليهم العهود ان لا يعودوا لمثل ذلك وارتحل عنهم وبعد ايام قلائل ردوا اليه بقية النساء وافلت رجالهم المرهونون عنده وقد غير سيدي الوالد كثيرًا من امثال هذه الافعال والعوائد فمنها ما اعتاده اهل جبل مطامطة من عدم توريث الزوجات والبنات فارسل اليهم قاضيًا وعدولاً فحصلوا لمن ارثهن ومنعوهم عن فعل مثل ذلك وعين لهم الفقهاء والقراء يعلمونهم امور الدين ، يقرؤون اولادهم القرآن العظيم وامر بعقاب كل من ترك صلاة الجماعة لغير عذر

(ذكر توجه ناظر الخارجية ابي محمد الحاج المولود بن عراش الى باريس)

ولما راى الحاكم الفرنساوي بعد اتمام معاهدة تافنا ماعليه الامير من شدة العزم والحزم والاقدام واخذ امره في النمو وتهافت من جاهر بعصيانه على اداء الطاعة له اصر على الامير بارسال سفير من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له انه جاء لتوطيد الحب وتاكد السلم وذكر له من فوائد هذا الامر ما جلب به موافقة الامير له عليه ثم ان الامير ارسل اخاه سيدي محمد سعيد ومعه الحاج محمد فاخه وفدًا الى سلطان المغرب الاقصى واصحبهما بهدية وكتاب ذكر له فيه ان الحاكم الفرنساوي طلب منه طلبًا حثيثًا ارسال سفير من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويحكم معه طريق المواصلة واعلمه بان نفسه تميل الى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحملته من اعباء الامارة في زمان كثر فيه العدو وفسدت فيه الاخلاق وعرفه بما اجراه بعين ماضي واخذ زكاة نعمها عن خمس سنين ولما وصل الوفد الى فاس تلقاهم السلطان عبد الرحمن بالمبرة والاحسان وانزلهم في اعز مكان ثم اخذ يلاطف سيدي العم ويساله عن احوال الامير فيحدثه عن افعاله بما يستغرب ويقضي على السامع بالعجب وبعد ان قضوا بضع ايام استاذنوا ورجعوا الى الامير مصحوبين بكتاب من السلطان ملخصه بعد الحمد لله تعالى ولدنا الذي نظم به شمل الامة وجلى بنور صدقه الشدائد المدلهمة حامي حمى الاسلام والمسلمين الامير المجاهد السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين ايدك الله بنور توفيقه ورعايته وجعلنا جميعًا من اهل قربه وعنايته آمين وسلام الله الاتم و رضوانه الاعم يتواليان على حضرتكم ضعفًا ومقامًا و يرتفعان لكم عند الله مقامًا ورحمة الله وبركاته مادام الفلك وحركاته وبعد فقد وافا حضرتنا الوفد الذي اشخصتموه من بابكم ووجهتموه من

جنابكم صحبة اخيكم البر الرشيد السيد محمد السعيد نائباً عنكم في الزيارة لابساً من عنوان صفاء مودتكم ابهى زي واحسن بشاره فادى الينا كتابكم الذي تفتقت عن ازهار روض اخوتكم في الله مبانيه وتنفست عن كريم عهدكم وسليم عقدكم طيب معانيه وافصحت عن طيب سرائركم معاليه واعربت عن حسن ظنكم خواتمه ومباديه وافاد بطالع مسراته من خبر هناء تلك الاقطار وبلوغ المسلمين بانتظام الكلمة الاماني والاوطار ابقاك الله الاعلام رافعاً وعن حوزته مدافعاً ولا عدمت من الله معونة وتاييداً وهداية وتسديداً هذا وقد وافتنا الهدية التي وجهتم صحبة الوفد الذي اشخصتم محفوفة بجميل الآثار مكسوة بحلل البر والايثار جرياً على جميل اعتقادكم وعملاً بحسن ظنكم ووداكم نقابلنا وجه نظركم بالقبول وتلقينا حديث صلتكم بالبر الموصول كثر الله امدادكم ووفر عددكم واعدادكم وما اقتضته المصلحة من توجيه باشدور من قبلكم لبر فرانسا حيث طلبه طاغيتكم بحث وازعاج جارياً من الرشد على منهاج فانت والحمد لله من دينك على بصيرة ومن سياستك على اقوم سيرة نقد مارست احوال العدل سلماً وحرباً واطلعت على بعض دسائسه شهوداً رغيباً فامره كله تمويه وتدليس وشانه كله خداع وتلبيس فكن من مكائده على بال ومن امر غدره على بصيرة واحتيال فطالما اسر حسوا في ارتغاء واظهر تمنعاً في ابتغاء وابدى تحبباً ووداداً واضمر غدراً وعناداً وفيما فعل بالاندلس واهلها اعدل شاهد وبرهان وليس الخبر كالعيان فقد كانوا شرطوا عليه نيفاً وسبعين شرطاً لم يوف لهم منها بواحد وضربوا معه فيها في حديد بارد

لا يغرنك ماترى من خضوع · ان بين الضلوع داء دوياً ذلما اظهر التودد منها الخ قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا خذوا حذركم وقال سبحانه ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم واي خير يحب عدوّ الدين لجماعة المسلمين فالحازم اليقظ من لسلمه لا يستقيم ولا يبرح عن سوء الظن به ولا يديم والله سبحانه يجزيك من معونته على عوائده ويعيد على الكافر شؤم مكائده وما ذكرت ايدك الله من التنصي من عهدة الامور الاجتهادية والميل الى تعاطي المسائل العلمية لتخرجك من ارتكاب تجلي اليها سياسة الخلق وربما يخفى فيها ظهور وجه الحق فاعلم ان الله سبحانه وحركاته وسكناته ذخراً له و بضاعة فاذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة دين الله كملت المطالب وتوفرت الرغائب وهذا هو السر في افتتاح الامام البخاري رحمه الله في الجامع الصحيح انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء مانوى واذا اجتهد الانسان

قدر وسعه وجهده امده الله بتوفيق من عنده وهداه لسبيل رشده والائمة في هذا مجال فبهديهم اقتده وكيف يسوغ لك التفصي وقد رفعت بك في ذلك القطار راية الاسلام وانتظم امر الخاص والعام وارغم بك انف الكفر واحزابه ورد كيده على اعقابه حتى صار العدو يخفض لك الجناح ويرسم اسمك على السلاح وسارت بخبر ذلك الركبان برًّا وبحرًا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرًا ولولا وجودك وجدك لتفرقت اشياع تلك القبائل الاسلامية شذر مذر ولا افترست كلاب الروم اهله وعمرت عبده الصليب حزنه وسهله ولكن الله سبحانه تداركه باقامتك وسد ثغوره بحمايتك ولن تعدم من الله عونًا ومددًا ومن صالحي المؤمنين عدة وعددًا فانه لن يعدم القائم بالدين وحياطة الاسلام والمسلمين النصر والاعانة والتمكين من القوي المعين والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من امتي ظاهرين وما نعلت من اخذ زكاة نعم ناحية عين ماضي عن خمس سنين حين ظفرت بها بعد تكرر المطالبة للسيد محمد بن احمد التجاني بسببها فقد اخذت حقا وطهرته واهله ولو انصف وقال حقا فانت المكلف بتلك الاقطار دانيها وقاصيها واليك مرجع طائعها وعاصيها ونرجو الله سبحانه ان تضاف اليك جميع بلاد اهل الشرك وتنتظم بطاعتك انتظام الجوهر في السلك وتنفذ كلمتك في الحواضر والثغور وتبسم فرحًا بك الحامية والثغور بحول الله وقوته وقد تفرسنا في اخيك عند ملاقاته الخير وعلمنا صحة فراسة والدك رحمه الله حين تخيره للخلافة على الزاوية ورشحه لتلك الرتبة السامية فالدر من معدنه والخير من اهله

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباء صدق يلقهم حيث سيرا

ارى كل غصن نابت في ارومة ... ابى منبت العيدان ان يتغيرا

ونسال الله ان يجدد بك الآثار والاعلام ويجعلك من الائمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك آمين واذا اردت توجيه باشدور لطاغية الروم فاختره من اهل الدين المتين الذي يرجح جانب الاسلام على المشركين باظهار القوة وتوفر الاجناد واجتماع القلوب على الجهاد فان اكثر الناس اليوم كل على مولاه الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم والله تعالى يشد ازرك ويديم نصرك آمين من المولى عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد ابن المولى عبد الله ابن المولى اسماعيل في اواخر ذي القعدة سنة اربع وخمسين ومائتين بعد الالف ولما قرأ الكتاب وفهم ما تضمنه معناه صمم على ارسال سفير الى ملك فرنسا

واستخار لذلك فوقع اختياره على معتمده ناظر الامور الخارجية ابن عراش فبعثه
واصحبه بهدية تشتمل على عدد وافر من الابقار والحمر الوحشية والنعام وانواع
من البسط والفرش الفاخرة المتخذة من الصوف الناعم نادر الوجود فسار ابو محمد
في اصحابه الى الجزائر ومنها ركبوا البحر الى فرنسا وعند وصوله الى باريس
احتفل الملك بقدومه وبالغ في موءانسته واحسن السوءال عن الامير ومدح ثباته
في الذب عن دينه ووطنه وشكر اجابته الى الصلح وقبوله لما فيه من التوصل
الى ما يحتاج اليه في اموره وما يناله في مدته من الراحة له ولعساكره واطال
في ذلك قال بالمار في تاريخه ان الحاكم العام لما راى تقدم الامير آخذاً في
النمو على وجه لم يكن في الحساب ونظر ان الفاظ المعاهدة لم تزل مبهمة بحسب
فهمه وشاهد ما عليه الامير من الحزم وثبات الجاش عرض عليه ارسال سفير
من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له انما جاء لتوطيد الحب وتأكيد
السلم فهذا راي الحاكم في الظاهر واما في الباطن فمقصوده انه ربما تنتقل الامور
التي بينه وبين الامير الى طور آخر يحمل الامير على رجوعه عن تعصبه لما
يراه مصلحة له وأوجب عليه ان يثبت فيه ويعمل بمقتضاه في الامور المختلف
فيها وعلى كلا الوجهين فقد راى الامير ان راي الحاكم حسن فاجابه الى ما رغب
فيه واختار معتمده بن عراش لهذه السفارة فبعثه وارسل معه هدايا غريبة وذكر
مفرداتها طبق ما ذكرناه ثم قال ولما وصل المعتمد المذكور الى الجزائر تلقاه الحاكم
بالمبرة والاكرام ثم ذاكره فيما يتعلق بايضاح مبهم العبارات المقررة في المعاهدة وراى
ان مذاكرته في ذلك قبل سفره الى باريس اونق واولى فلم يفز منه بجواب
شاف بل سلك معه طريق المحاولة والمزاولة ووعده بانه بعد رجوعه من باريس
يجري له ما يرضيه نغضب الحاكم من هذا الروغان وحمله غضبه على ان كتب
لدولته ان اجراء امر نهائي مع معتمد الامير لا يوانق صالح فرنسا ولا اهل الجزائر
ولما وصل المعتمد الى العاصمة نزل في دار الضيافة بكل اكرام وغب الاستراحة
قابله وزير الخارجية وتوجها معا لمقابلة الملك فقابله الملك بكمال الاحترام ونال منه
حسن الالتفات وساله عن احوال الامير واستعلم منه حركات عساكره واظهر له ارتياحه
الى الهدية المرسلة معه وقبوله لها وقال له اني اعد الامير عبد القادر صديقاً وحيداً
لي واني ارجو نجاح عمله وبلوغ البلاد الجزائرية الى حالتي الرفاهية والتمدن ثم
ان المعتمد اخذ في مذاكرة الملك فيما يتعلق بالمعاهدة والبحث في الالفاظ التي وقع

الخلاف في المعنى المراد منها فاجابه وزير الخارجية ان هذا الامر ينبغي ان تكون المذاكرة فيه مع المارشال فاله حاكم الجزائر وبعد ايام انقلب المعتمد راجعاً من باريس بهدية من الملك الى الامير وهي سيف وزوج طبنجة كل منهما مرصع بالياقوت والزمرد واللؤلؤ وحلق الماس وكردون منظم من الياقوت والزمرد وزرابي مخصوصة بقضبان الذهب واثواب منسوجة بالذهب وغير ذلك ولما وصل المعتمد الى الجزائر قابله الحاكم وعاجله بالسؤال عما وقع له في امر المعاهدة فاخبره بما اجابه به وزير الخارجية في حضرة الملك فانشرح صدره واطمان فكره ثم استانف المذاكرة معه في تلك الامور التي لم تزل شاغلة لافكاره وبعد مراجعات طويلة تقرر عند الحاكم انه يذيل صك المعاهدة بما يؤذن بتغيير اشياء منصوص عليها فيه وتبديلها بما يوافق مصالح فرنسا ونص ما حرره في ذلك التذييل ان المارشال فالا حاكم الجزائر ومعتمد الامير عبد القادر الحاج المولود بن عراش اتفقا على توضيح الكلمات المبهمة في صك معاهدة تافنا التي تقرر فيها العمل على ما ياتي الاول ان يكون الحد في جهة الشرق من الجزائر ممتداً من مجرى نهر القدرة الى منبعه في جبل طيبارين ومنه الى يسر فوق جسر بني هني وعليه فيكون خط التحديد الحالي فيما بين وطن فليسه ووطن بني جعد وما بعد يسر الى البيبان وطريق الجزائر الى قسنطينة بحيث ان يكون برج حمزة وجميع الارض الكائنة في شمال وشرق الحدود المذكورة الى البحر تابعاً لدولة فرنسا وان باقي ارض بني جعد وونوغا جنوباً وغرباً من هذه الحدود يبقى تابعاً للامير وفي عمالة وهران يسوغ لدولة فرنسا ان تمر عساكرها من ارض ارزيو الى ارض مستغانم واذا رات مناسباً لها ان تصلح قسماً من الطريق الكائن في شرق المقطع فلها ذلك بدون تعدٍ على ارض الامير · الثاني ان ما تعين على الامير ان يدفعه للعساكر الفرنساوية من الحنطة والشعير في مدة ثلاثة اشهر والى الآن ما دفعه يلزم ان يكون تقديمه منجماً على عشرين سنة بحيث انه يقدم في اول كانون الثاني من كل سنة منها قسطا من كل صنف من الصنفين المذكورين وان يكون الدفع في مدينة وهران · الثالث ان جميع ما يحتاج اليه الامير من الادوات الحربية والذخائر يطلبه من الحاكم وهو يحضره و يسلمه الى وكيله في الجزائر باثمانه الاصلية التي اشترى بها فعلى هذه الوجوه يكون الاجراء بدون تغيير ولا تبديل وباقي الشروط المذكورة في صك المعاهدة يبقى معمولا بها ثم لما انهى الحاكم

تذييله عرضه على المعتمد ودعاه للموافقة عليه بموجب كونه وكيلاً عن الامير
فاعتذر اليه بانه غير مرخص له في مثل ذلك ووعده بالسعي فيما يحمل الامير
على الموافقة والاجابة الى مراد دولة فرنسا منه فلم يقنع الحاكم بجوابه والح عليه
ان يكتب في هامش التذييل انه اطلع عليه واستحسنه فتوقف ابن عراش في
ذلك ثم كتب انني اطلعت على هذا الملحق واستحسنته ولست مسوءلاً عن
مصادقة اميري عليه وبعد ان حرر المعتمد ذلك رخص له الحاكم في السفر
ولا جرم ان ما حرر في هذا التذييل يستدعي الحيرة للامير فان وافق عليه
يخرج من يده قسم عظيم من البلاد التي استولى عليها وتقررت احكامه فيها وان ابى
فلا بد من خرق سياج المعاهدة ونقض الصلح قال بعض موءرخيهم وصعوبة القضية جعلت
الفرنسيس يتلافونها باستعطاف خاطر الامير ولذلك بدا للمارشال ان يبعث مع المعتمد صهره
القائد دوسال الى حضرة الامير ليذاكره في القضية مشافهة وكان الامير وقتئذ
محاصراً لحصن عين ماضي فاعتذر المعتمد بذلك واخبره ان المسافة بعيدة جداً
فاجابه الحاكم ان بعد المسافة لايصده عن قصده فاستكان المعتمد لذلك وعلم انه لا
مناص من خروج القائد معه فسارا معاً من الجزائر قاصدين الحضرة فلما وصلوا
الى مدينة مليانة تلقاهما الخليفة السيد محمد بن علال بالتبجيل والاكرام ورفض ان
يعرف القائد رسماً بدون امر من الامير ثم ان المعتمد اسر الى الخليفة بالامر واطلعه
على مافي سره من كونه يخلف القائد عنده وهو يغذ السير الى الامير ليخبره بالواقع
فوافقه الخليفة على ذلك وتلطف المعتمد في الخروج ليلاً واسرع في السير الى
تاكدمت وبوصوله طير الخبر الى الامير وهو على حصن عين ماضي اما القائد دوسال
فانه لما اتصل به خبر سفر المعتمد دونه حمله الغضب على الرجوع الى الجزائر فرجع
واخبر المارشال بما اتفق له مع المعتمد فقام لذلك وقعد وكتب الى دولته بالواقع
واخبرها بان الاحوال الراهنة تقضي ببطلان المعاهدة وفي هذه المدة كان الامير
مشتغلاً فيها بامر التجيني فانتهز الفرنساوية الفرصة وشيدوا الحصون المتينة في بونه
وكالمه وميله من اعمال قسنطينة في الجهة الشرقية منها ووضعوا فيها العساكر والذخائر
واكتشفوا على آثار مدينة قديمة رومانية على البحر غربي بونه وتسميها العرب سكيكدة
والبربر روزيكاوا فابتنوا في حزبها مدينة سموها فيليفيل وبهذا المركز توصلوا الى
وضع يدهم على جيجل والقل وغيرهما من المراسي الصغيرة فيما بينها وبين الجزائر
وبعد فراغ الامير من فتح حصن عين ماضي رجع الى تاكدمت وبوصوله احضر

معتمده ابن عراش ووبخه على استبداده فيما كتبه على التذييل فاعتذر اليه بانه
لم يفعل ذلك الا لاتقاء شره والخروج من قبضته فقبل عذره ثم اقبل على تفقد
احوال الجيش ومهاته الحربية وبعث الى خلفائه في الولايات يحثهم على النظر في
احوال من عندهم من العساكر وامرهم بمفاوضة الاعيان والرؤساء في امر الجهاد
والاخذ في الاستعداد ودس الى وكلائه في الجزائر ووهران وغيرهما باستقصاء الاخبار
واستطلاع الاحوال والنقب على دسائس العدو ومكائده وبعث الى اهل الثغور في
في التيقظ والتنبه الى غوائل العدو والتحذير من مفاجاته ولما اتصل بحاكم الجزائر
ما عليه الامير من شدة الالتفات الى اموره وما هياه الله له من النصر والتمكين
وثبوت القدم حركه الحسد مع ما اتفق اصهره مع المعتمد ابن عراش فبذل وسعه
في نقض المعاهدة وواصل رسائله الى دولته في ذلك وهي تعيره اذنا صماء ثم
بعث صهره القائد دوسال مرة اخرى الى مليانه وكان معه رسالة من الحاكم في
طلب الجواب على مقتضى ما في التذييل وعند وصوله الى الحضرة تلقاه الامير بالمبرة
والاكرام وبعد اطلاعه على رسالة الحاكم تحير في امره وراى انه امسى بين
امرين خطيرين اما الموافقة والوصول اليها صعب لبعده عن قبول الامة له واما
رفضها وهو يؤدي الى نقض المعاهدة وكان ديوان الشورى وسائر الامة يميلون
الى الحرب ويقدمونه على اعطاء الدنية بقبول ما في التذييل مال معهم واجابهم
الى ما طلبوه واستحسنوه ثم انه دعا القائد دوسال الى الديوان وكان حشر اليه
الاعيان والقواد فلما استقر به المجلس اخذ الامير يتكلم على العموم فاخبرهم بالقضية
وبتحريض الحاكم على الاجابة الى مطلوبه والموافقة عليه ثم قال وهذا الرسول
الذي هو بمثابة وكيل لدولة فرنسا جالس بينكم وحاضر معكم يسمع كلامي وكلامكم
فانظروا ما يحلو لكم واظهروا ما فيه رغبتكم فضج الجميع وقالوا لا نقبل ولا نجيب
الى ما هو مذكور في التذييل ولا نرضى بالدنية في ديننا ولا بما يخل بشرفنا فالنار
ولا العار فان كانت الدولة الفرنساوية ترضى ان تبقى على ما انعقد اليه الصلح
في تافنا فذلك والا فالحرب وبالله المستعان فاقبل الامير على القائد دوسال وقال
له ها انت قد نظرت بعينيك وسمعت باذنيك وليس الخبر كالعيان فاخبر الحاكم
بما رايت وسمعت والذي عندي هو ان تتكلم معه بما يقنعه ويحمله على ابقاء
المعاهدة جارية في سبيلها القديم فان ذلك احسن للطرفين واليق بالجانبين وعاقبة
الحرب كما لا يخفى وخيمة وسفك الدماء مع امكان حقنها لا يجوز في سائر الشرائع

115

المقررة ولا يرضى به ذو عقل سليم وعلى كل حال فنحن مسرورون بقدومكم علينا ونرجو ان يكون ما شاهدته وسمعته من نواب المملكة اكبر عذر لنا عند الحاكم ثم ان القائد دوسال بعد ان وقف على حقائق الامور انقلب راجعاً الى الجزائر واخبر مرسله بالواقع فوجم لذلك ثم بعث الى وزير الحرب في باريس يخبره بما جرى وما شاهده صهره من الامير ورجال دولته وما هم عليه من التحمس والرغبة في الحرب واردف الحاكم ذلك بقوله ان تغيير الحال الراهنة يحوجنا الى استعمال اشياء وهي ان تعلن الدولة الفرنساوية للامير عبد القادر بانها لاتقبل الحكام الذين وضعهم في الاماكن المختلف فيها ولا تعرفهم فانها تصدر امرها بتهديد الامير ووعيده فان لم يجد ذلك نفعاً تامر بالهجوم عليه بكمال القوة التي يتوصل بها العسكر الفرنساوي الى هدم قوته والاستيلاء على برج حمزة وما يليه من البلاد الشرقية وانها تكتب بعد هذا كله الى الامير ان هذا العمل ليس المقصود به نقض الصلح بل هو متمم له ومثبت لروابطه

فلينظر العاقل الى هذا التحرير وما هو عليه من فساد المعنى وهل مع عمل السيف صلح وهل بعد الهجوم والاستيلاء على الاراضي المذكورة معاهدة ثم ان الامير لما علم ان الحاكم ساع فيما يخل به عقدة المعاهدة كتب الى ملك فرنسا رأساً يخبره بالحال ويطلعه على سوء تصرف حاكمه في الجزائر وملخص كتابه . من المعلوم قديماً وحديثاً ان المسلمين من دابهم محاربة عدو دينهم قياماً بما اوجبته الشريعة الاسلامية عليهم من الجهاد اما لاعلاء كلمة الله او للدفاع والذب عن الدين والبلاد فاذا عارضتهم امور سياسية او ضرورات شرعية فلهم ان يجنحوا للسلم ووضع اوزار الحرب ونحن لما رأينا الجنرال بيجو راغباً في الصلح ورأينا بلادنا تحتاج الى ما به عمرانها وفيه راحتها اجبنا الجنرال الى مطلوبه وعقدنا معه الصلح ظناً منا ان دولة فرنسا تحافظ على العهد كما اننا كذلك فاذا بعمالكم في الجزائر بادروا الى مابه خيبة الظن وعجلوا بما يؤدي الى الضرب والطعن فكاتبناهم في ذلك فما سمعوا ولاطفناهم في القول والفعل فما قنعوا بل جمعوا حولهم وقوتهم فيما يحملنا على الاجابة الى ما لا يجوز لنا شرعاً ان نجيب الى مثله وهو التخلي عن قسم عظيم من بلادنا والتسليم في اخواننا اهل ديننا وحيث انه غلب على الظن انكم لاترضون بوقوع ما يكدر صفونا ويقطع مواصلتنا بادرنا الى ارسال هذه الرسالة الودية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمالكم ولتتأكدوا اننا راغبون في مسالمة فرنسا ومصافاتها ودوام معاملتها

في المتجر وغيره من اسباب العمران ولا تظن الدولة الفرنساوية ان رغبتنا فيما ذكرناه لضعف اعترى قوتنا او لقصور اخذ من حدة شوكتنا فاننا بحول الله تعالى وقوته لم نزل ولا نزال على ما تعهده عساكرها من عساكرنا من كونها تعطيها في ميادين الهيجاء كيلاً بكيل ونقابلها المثل بالمثل غير اننا لما راينا ذلك لايجدي نفعاً رغبنا في المعاهدة طلباً للراحة والوصول الى ما فيه عمران البلاد كما اشرنا الى ذلك آنفاً وكتبنا الى جلالتكم هذا اعلاماً بالحال انتهى

وقد وصل هذا التحرير الى الملك الاَّ ان العوارض الكثيرة وقتئذ منعت من رد الجواب قال ثم بعث الامير الى الملك مكتوباً ثانياً ولم يتيسر جوابه وبعد مدة اتصل به ان وزيري الخارجية والحرب عزلا وتعين لوزارة الخارجية مسيو تيرس الشهير ولوزارة الحرب المارشال جراردن فتوهم ان هذا التغيير يجديه نفعاً فيما هو راغب فيه فكتب الى الملك مرة ثالثة والى الوزيرين المذكورين وملخص كتابه الى الملك

قد كنت بعثت لجلالتكم برسالتين ذكرت فيهما ما هو واقع بيننا وبين عمالكم في الجزائر من الوحشة ورغبنا في زوالها من لدن جلالتكم بوجه العدل والانصاف كما اننا رغبنا ان تامروهم بالعدول عن طريق الظلم والاعتساف والى الان ما وصلني جواب عن واحدة منهما فظهر لنا من ذلك انهما لم يصلا اليكم لان كرم الاخلاق يابى ان تكونوا بعد اطلاعكم عليهما تغافلتم عن رد الجواب وبناء عليه كتبت هذا علاوة على ما تقدم رجاء ان يصل وتطلعوا عليه وانه يحوز القبول وقصارى ما اقول ان عمالكم في الجزائر اجهدوا انفسهم فيما ينقض الصلح المنعقد بيننا وبينكم من غير موجب من جهتنا البتة وانما حملهم على ذلك ما سوَّلته لهم انفسهم من التعدي على حقوق عباد الله ومدّ اليد الى ما ليس لهم فيه وجه فالبلاد التي ذكرها الحاكم في تذييله هي بلاد سبقنا نحن اليها ووضعنا ايدينا عليها وهي في حكم الموات لا حاكم لها بمقتضى الشرع وذلك منذ انقرضت الحكومة من الجزائر واعمالها ولم تدخل قط في حوزة احمد باي حاكم قسنطينة ولا كانت بينه وبين اهلها مواصلة سياسية فباي وجه ينازعوننا فيها ونحن احق بها واهلها من وجوه لا تخفى على المنصف ذي القلب السليم وهب انها كانت من اعمال قسنطينة التي استوليتم عليها واخذتموها من يد احمد باي فان احمد باي كان حاكماً عليها بالتغلب ايام دخولكم الى الجزائر وهب انه كان عاملاً عليها من قبل حكومة الجزائر فان تلك الحكومة انقرضت وبانقراضها انقرضت احكامها وحكامها فلا سلطة شرعية لاحمد باي عليها وبقاؤه فيها انما كان على سبيل الدعوى لنفسه والناس لم يقبلوه ان يكون ولي امرهم

ولا اعتبروه رئيساً عليهم مطلقاً وتغلبه كان على نفس مدينة قسنطينة وبونة ولو وجد اهل تلك النواحي من المسلمين من ياخذ بايديهم ويدفع عنهم لسارعوا اليه كما وقع ذلك حين توجهنا الى النواحي التي تلينا ومن جملتها الاراضي التي نازعتنا فيها عمالكم بغير حق وبالجملة فسلوك هؤلاء العمال معنا حائد عن طرق الحق مغاير لاساليب العدل ومن العجب انهم تعدوا على نفر من عساكري وحبسوهم بدون سبب شرعي ولا داع قانوني وعلى فرض ان لهم وجهاً فيما فعلوه فكان الواجب عليهم ان يخابرونا في امرهم ونحن نجري عليهم ما تقضي به الاحكام الشرعية او القانونية على حسب ذنوبهم ثم انهم منعوا بيع الحديد والنحاس والرصاص في اسواقنا كما انهم منعوا تجارنا من شرائه في اسواقهم واهانوا رسلي اليهم واعرضوا عن ردّ اجوبة رسائلي التي وجهتها اليهم وجعلوا ضريبة على المكاتيب التي ترد من الداخلية الى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم ومع هذا كله فانهم يكتبون الى جلالتكم انني عدو فرنسا اطلب حربها واسعى في اسبابه فينبغي والحالة هذه ان تاخذوا من اعنتهم وتضربوا على ايديهم وتامروهم بالعدل عن سوء التصرف معنا فان كمال مروتكم مع ما شاع عنكم من مكارم الاخلاق يقضي عليكم بذلك فان قال هؤلاء العمال اننا تاخرنا عن اجراء البعض من شروط المعاهدة قلنا اننا لم نؤخر ذلك الا لكون الجنرال بيجو تقاعد عن اجراء ما تعهد به ظناً منه انني غافل عن تلك المعاهدة المحرر عليها اسمه بخط يده وما علم انني اعتبر صحة مواعيد شخص هو وكيل ملك فرنسا فانظر ايها الملك فيما ذكرته لك واسمح برد الجواب والتعريف عن مقاصدك والله يوفقك الى ما فيه راحة العباد

وكتب الى وزير الخارجية ما ملخصه

اني اهني فرنسا برجوعك الى الوزارة الخارجية واعلم ان الاثقال المهمة التي تقتضي بصرف الهمة وتوجيه الفكر الى تحسين الاحوال بيننا وبينكم تجعلني انتظر منك ما اهنئ به نفسي فانك على ما بلغنا تحب الهدوّ والسكون وتسعى فيما يحسن العلائق بين شعبك وسائر الشعوب ولا يخفى ان الاحوال الجارية بيننا وبين عمالكم لا يصلحها ويحسنها الا تاييد السلم المنعقد بيننا وبينكم وتوطيده ومجانبة الاعتداء بكل وجه واما استعمال الحيل مع الاغضاء عن اجراء شروط المعاهدة لاجل مطامع خارجة عن جادة الحق فلا جرم ان ذلك يفضي بنا وبكم الى ما لا خير فيه لنا ولكم وحيث ان الحق تعالى وهبك من الاخلاق الحميدة ما اكسبك الثناء الجميل من ابناء وطنك فينبغي لك ان تستعمل تلك الشيم الكريمة كذلك في افريقية وبذلك ينتشر ذكرك الحسن بين الامتين وتتعطر انديتهما بمدحك وكمالك وتحصل لك الشهرة المطلوبة لكل عاقل ويدوم ذكرك في العالم

وبالجملة فاني انتظر منك ما يسر السامع وتبتهج به المجامع من تجديد الروابط الودادية بيننا وبين دولتكم

وكتب الى موسيو جراردن ما ملخصه

لما بلغني ان ملك فرنسا قلدك وزارة الحرب انشرح صدري لذلك لعلمي انك تميل الى المسالمة وتسعى في اسبابها ومن يكون قادراً على نظارة الحرب فلا بد ان يكون قادراً على تمكين الصلح وحمايته من اعتداء المعتدين هذا وان معاملة عمال الجزائر لنا وسوء تصرفهم معنا لا بد ان يكون قد شاع وذاع وتاسف له كل عاقل وتكدر منه كل فاضل فان هؤلاء العمال بعد ان عقدنا الصلح مع دولة فرنسا واسسناه على شروط قبلها كل منا وجرى بها العمل قاموا يتعاطون اسباب حل ما عقدناه ونقض ما اسسناه و بنوا امرهم على الطمع الذي يمقته كل منصف والظلم الذي يمجه كل عادل وحاولوا تغيير كثير من الشروط وبحثوا في معاني الفاظها العربية ولا ادري هل كان ذلك منهم لجهلهم باللغة العربية ام هو على سبيل التعنت ومن العجب انهم ارتكبوا ذلك ولم يعلموا انه حطيط في حق دولتهم العظيمة وبالجملة فنحن نستدعي حسن التفاتك الى المطاليب التي اكثروا علينا فيها ونرجو نفوذك القوي عند جلالة الملك يعضد مقاصدك السليمة والله تعالى يوفقكم الى فعل الخير وتقريره .

فمن تامل في معاني هذه التحارير ظهر له منها حسن مقاصد الامير وشدة ميله الى الصلح كما ان دولة فرنسا كانت تظهر ذلك ولكن ارادة الله اقتضت وقوع الحرب بين الفريقين ولما يئس حاكم الجزائر من اجابة الامير الى موافقته على ما حرره في تذييله وعلم ان ذلك دونه خرط القتاد وانتضاء السيوف من الاغماد بعث الى دولته صورة التذييل الملحق وذكر لها ما يحملها على اختيار الحرب وكان معلوماً عندها ان الامير لا يسلم بذلك لكنها نظرت ان مرور جيشها في تلك الاراضي يكون فيه الشرف العظيم لفرنسا ووضع اليد لا يعد نقضاً لدعائم الصلح واصدرت الامر الى المارشال بهذا وعند وصوله اليه اخذ في الاستعداد وبعد استكمال تعبيته ووصول الدوك دورليان ابن الملك ورؤساء العسكر اليه خرج وهم في معيته من الجزائر في السابع والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين والسادس من اكتوبر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة سالكين طريق البر ولما وصلوا لمضيق البنيان قسموا جيشهم الى فرقتين فرقة توجه بها ابن الملك الى قسنطينة والفرقة الثانية استمر بها المارشال سائراً الى ان دخل الجزائر قال بعض مؤرخيهم وكان دخوله الى الجزائر دخولاً احتفالياً وقوبل باعلا اصوات الابتهاج واستمرت الاحتفالات اربعة

ايام وعملت وليمة فاخرة على ممشى باب الواد وظن ان الجزائر قد انقلبت فكان انتصار وهمي رسمته المخيلة على لوحها وانبأت عنه الشتاء وكان اهل البلاد التي يمرون فيها يعتقدون ان حاكم الجزائر قصد بمروره بابن الملك في بلادهم مجرد السياحة والتفرج لما هو مقرر عندهم من امر المعاهدة بين الامير ودولة فرنسا ولذلك كانوا يقدمون له جميع التسهيلات السفرية مسرورين بحليف ودود لاميرهم ولولا هذا ما تركوه يمر في بلادهم من غير قتال قال بعض مؤرخيهم ولو كان عبد القادر هناك بخمسمائة عسكري فقط لما مكنهم ان يعبروا ابواب الحديد عند وصولهم اليه ولا مكنهم ان يخرجوا منه ولما مر بوسط قبائل بني مناصر احد قوادهم وحصل اطلاق البارود بينهم انتبه الخليفة السيد احمد ابن سالم من نومه وطير الخبر الى الامير فوجم لها ثم نهض من مليانه الى المدية وكتب الى المارشال ما ملخصه بينما كنا معكم في حال سلم ومعاهدة لم نشعر الا وقد نعلتم ما ينافي ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة بين بلادنا و بلادكم بغير اذني ولا تقدم مخابرة في ذلك ولا علم ومررتم بابن الملك في عساكركم الكثيرة في بلادي من الجزائر الى قسنطينة بدون وجه يسوغ لكم ذلك ويجوزه ولو اخبرتموني ان ابن الملك يريد زيارة بلادنا كنت رافقته بنفسي او عينت احد خلفائي لمرافقته والذي يظهر ان القصد من فعلكم هذا اظهار التعدي على حقوقي حتى اتاثر لذلك وينجر الامر الى نقض المعاهدة والحال ان فعلكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لها و بناء عليه اعلن لكم انني عزمت على استئناف الحرب و بالله المستعان فارتعوا وكلاكم من بلادي واندروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم ٠

ذكر ما جرى بعد هذا من اشهار الحرب والمراجعات فيه وما آل اليه الامر بعد ذلك

لما يئس الامير من اجابة الدولة الفرنساوية الى مادعاها اليه من ترك مطامع عمالها والبقاء على ما تقرر به الصلح ورأى ان العمال الفرنساوية عامدون الى نقض العهد واضرام نار الوغى اعتزم على دفاعهم والذب عن دينه ووطنه واصدر اوامره الى خلفائه في المقاطعات بالتاهب للحرب والاستعداد لها واطلعهم على ما اظهره الفرنسيس من نقض المعاهدة ثم اصدر اعلاناً عمومياً ليتلى في المحافل والمجامع وملخصه ٠ ليكن في علم سائر الخلفاء والاغوات والقواد وكافة المسلمين اهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقهم الله للقيام بفريضة الجهاد واعانهم بالقوة والامداد ان الفرنسيس

قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومرّوا في بلادنا من الجزائر الى قسنطينة بدون اذن منا فتاهبوا اعانكم الله للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم وأجمعوا امركم للذب عن موردكم وعطنكم وحيث ان ما في بيت المال من النقود لايفي بنفقات الحرب ولوازمها فقد تعين عليكم ان تفرضوا على انفسكم ومن يليكم اعانة جهادية وسارعوا بالحضور الى المدية فانني انتظركم فيها ووطدوا طريق الراحة والامن في سائر اعمالكم على الوجه الذي اكون به مطمئن البال واعلموا ان النجاح موقوف على اخلاص النية فوجهوا قلوبكم الى الله تعالى واطلبوا منه تاييد كلمته وتشييد اركان دينه بكم والسلام عليكم . قال بالمار وغيره من مؤرخي الافرنج من اطلع على هذا الاعلان وغيره من اعلانات الامير علم ان ما ينسبه اصحاب الاهواء للامير من انه اشهر الحرب بغتة ولم يعلنه بالوجه المعتاد بين الملوك غير مصيب في دعواه ومن المعلوم عندنا ان هذه النسبة الحائدة عن طريق الصدق كانت من المارشال فالا وحده وذلك انه لم يرد الجواب في وقته المطلوب الى الامير عبد القادر ولانبه على الفرنساو بين المقيمين في سهول متيجة وغيرها لياخذوا حذرهم ثم لما اصابهم بعد ذلك من الوبال ما اصابهم اشاع هذه النسبة لينتصل من عهدة ما وقع فيه وفي الحقيقة انه وصله اعلان الامير بالحرب في المكتوب السابق فتغافل عنه وترك كل شيء على حاله واما الامير فانه لما طال عليه الانتظار لرد الجواب علم ان اعراض المارشال عنه دليل على عزمه على الحرب فكتب الى خلفائه وسائر اعيان رعيته في امر الحرب وامرهم بالاستعداد لها كما تقدم وعلى ذلك فلا اعتراض على الامير مطلقاً انتهى

ولما شاع خبر الاعلان بالحرب وسارت به الركبان وتحقق حاكم الجزائر وحاكم وهران باقتراب وقت النزال ومقارعة النصال بالنصال تحيروا في امرهم وخافوا من رجوع بغيهم عليهم وليس عندهم اذن من دولتهم في فتح باب الحرب ثم ان حاكم الجزائر بعث ابن دران الى الامير واصحبه بكتاب منه والامير وقتئذ في المدية ينتظر وصول الجيوش اليه وملخص كتابه على ماذكره مؤرخوهم انني لم ازل احافظ على السلم وقد قدمت رسالة الى الدولة ومنتظر جوابها فاصبر قليلاً وانني ارجو تسوية القضية بيننا بما يرضي ولا يخفى ان غوائل الحرب عاقبتها وخيمة . واتفق ان الامير كان وقت وصول ابن دران الى المدية في مجلس الشورى فلما بلغه خبره امر باحضاره واعطى الكتاب الى الامير فقراه على اهل المجلس وامر ابن دران ان يتكلم بما عنده من الاخبار

فلما سمع اهل المجلس كلامه وفهموا منه مرام مرسله اعلنوا له بما وقع عليه الاتفاق واجتمع عليه الرأى من اشهار الحرب ودخول ميادينه فراجعهم ابن دران وبين لهم سوء عاقبة ما اتفقوا عليه فقال له الامير وان يكن الامر كما قلت فانه اسهل عندنا من احتمال الاهانة فقال ابن دران الذي وقفت عليه من الاحوال ان الفرنسيس ليس لهم قصد في ضرركم ومرور ابن الملك في بلادكم انما كان على سبيل التنزه والتفرج فعلى هذا اقول ان عملهم على هذه الصورة لايستدعي الغضب ولا يوجب الحرب وبعد انفضاض المجلس انفرد الامير في قصره فاستاذن ابن دران في الدخول عليه فاذن له وقرر له ما اطلع عليه من اسرار المارشال وقواد العساكر الفرنساوية وكشف له الغطاء عن احوال الوقت ورغبه في مسالمة فرنسا وقال لايخفى ان الخصومة لا ينتج عنها الا ضعف القوى على اني لا ارى الحرب يوافق احوال سموكم فقال له الامير اني اعلم هذا ولكن اذا كانت الرعايا تطلب الحرب وآراؤها اتفقت عليها فماذا اصنع لا سيما والفرنسيس عملوا ما يوجبها ومع هذا ساعقد مجلس الشورى مرة اخرى وافاوضهم في هذا الامر وفي اليوم الثاني امر باجتماع المجلس واحضار العلماء وقواد العساكر ورؤساء القبائل وبعد ان جلس الناس على حسب مراتبهم قال لهم الامير بالامس قد بينت لكم الاحوال واعربت لكم عن حركة الجيش الفرنساوي وتعديه على الحدود ومروره في بلادنا من غير علم منا وعرفتكم غوائل الحرب ومن المعلوم ان فتح بابها سهل ولكن الدخول في ميدانها صعب وحيث انني رايت اضطراب راي بعضكم بالامس جمعتكم اليوم فانظروا في امركم واظهروا ما ترغبون فيه بعد امعان النظر واني اطلب من الله التوفيق لما فيه عز الاسلام وصلاح الامة فاطرق القوم مليًّا ثم قالوا بلسان واحد ان الموت اهون من العار وهدم اساس شرفنا فقد وافقنا الفرنسيس على ما طلبوه منا اولاً وثانياً في معاهدة الجنرال دي ميشيل ومعاهدة الجنرال بيجو وحملنا انفسنا ما لا تطيقه والان لما تجاوزوا حدوداً ارتضوها وجرى الصلح عليها فلا بد ان يكونوا قد قصدوا باعتدائهم هذا ان يستولوا على بلادنا ويستعبدونا ودون ذلك بذل اموالنا وارواحنا فلا عدول عن الحرب والنصر مطلوب من الله القادر الذي لا نقاتل الا لاعلاء كلمته فلما سمع الامير كلامهم قال حيث انكم تريدون الحرب ولا محيص عنها فاعلموا انني لا اتاخر عن اعلانه مرة اخرى وهي المرة الاخيرة ومعاذ الله ان اتخلف عن الجهاد بل ساكون فيه بحوله تعالى وقوته امام صفوفكم غير ان لي حقاً عليكم وهو ان تعطوني عهداً وميثاقاً على الطاعة وبذل النصيحة وان لا تسكوا معي ولا في سائر امور الدولة والملة

سبيل الخيانة والغدر وان لاتولوا الادبار يوم الزحف وان لاتتخلفوا عن الجهاد ولذب عن الدين والبلاد عند ما اطلبكم لذلك فاجابوه الى ما امر به وحلفوا له عن آخرهم ونص يمينهم . بالله العظيم منزل القرآن على نبيه الكريم اننا لا نخون حضرة سيدنا ومولانا ناصر الدين سيدنا عبد القادر بن محيي الدين ولا نسلك في طاعته سبيل الغش والخديعة لا ظاهراً ولا باطناً لا سراً ولا جهراً واننا لانتاخر عن صفوف الجهاد بل كلنا يقاتل لآخر حياته واننا نبذل اموالنا وارواحنا لحماية ديننا ووطننا ابتغاء لمرضاة الله ورسوله

وبعد ان قر القرار على اشهار الحرب صدر من المجلس الاعلان به على الطريقة المعتادة وصورته . بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الحمد لله الذي انزل في كتابه المبين وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً والصلاة والسلام على نبيه القائل الجنة تحت ظلال السيوف وعلى آله واصحابه واتباعه الذين قاتلوا في سبيل الله الوفاً بعد الوف وصفوفاً بعد صفوف اما بعد فان الفرنسيس المعتدين على البلاد الاسلامية بعد ما عاهدناهم وسالمناهم نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن المعلوم ان التهاون في مثل هذا والاغضاء عنه يزيدهم طغياناً واعتداء علينا فلذلك قد اجتمعنا في مجلس عال بحضور سيدنا المعظم ومولانا المفخم ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين نصره الله لاجل المذاكرة في هـذا الامر المهم والخطب الملم فوفقنا الحق تعالى جل جلاله للجواب والهمنا جادة الصواب واتفقت كلمتنا واتحدت آراؤنا على اعلان الجهاد والقيام بواجبه على اكمل استعداد وقد بايعنا حضرة اميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية وعقدنا على الصدق في ذلك النية وحررنا هذا الصك ليكون شاهداً علينا فيما ذكرناه فاجيبوا ايها المؤمنون داعي الله وانفروا خفافاً وثقالاً الى ما دعاكم اليه ومن تاخر منكم فانما اثمه على نفسه كما ان لومه فيما يحل به من العقوبة الاميرية عليها . ومن الله نستمد العناية وهو ولي الهداية . حرر في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين . والسادس عشر من كانون الاول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة في الديوان الاميري العمومي المنعقد في مدينة المدية المحمية . ثم ختم على هذا الصك الخلفاء والعلماء وقواد الجيش ورؤساء القبائل وبعد تسجيله قدم لاعتاب الامير فامر بتحرير الكتاب النهائي الى المارشال حاكم الجزائر ونصه

اما بعد فقد وصلني كتابكم صحبة الموسوي ابن دران واحاط علمنا بما فيه وقد كنت كتبت اليكم من مدة خمسة عشر يوماً ما فيه الكفاية والآن اعرفكم تعريفاً نهائياً ان سائر اهل الوطن اتفقت كلمتهم واجتمع رايهم على استرجاع شرفهم بالحرب لانهم راوا

تجاوزكم الحدود المعينة في معاهدة تافنا مبطلاً لها ناقضاً لاساسها واما انا فقد اجهدت نفسي في تغيير آرائهم وصدهم عن قصدهم فلم يجد ذلك نفعاً بل زادهم هياجاً ورغبة في اشهار الحرب وجعلوا العهدة في تاخيره عليَّ وحدي فبناء على ذلك اعلموا انني ما خنت ولا نكثت عهدي معكم وانما ذلك كان منكم لامني فاذنوا لوكلائي عندكم في تعجيل الاوبة اليَّ وبالله المستعان · وبعد مسير ابن دران الى الجزائر اقبل الامير الى ما كان عليه من اعداد المهمات الحربية وبث الدعاة الى الجهاد في سائر النواحي فاقبل الناس الى الثغور وسارعوا اليها وفي ايام قلائل امتلات بهم الاغوار والنجود وجرى ترتيب الكتائب على اكمل وجه وظهر من انقياد الرعية للاوامر الاميرية وخضوعهم لها ما شاع في الاقطار وحدا به حادي القطار قال مؤرخهم ولما استقر رأي الامير على الحرب صدرت اوامره بالزحف الى البلاد التابعة لدولة فرنسا من كل جهة فهرع الناس اليها من كل فج عميق وتسابقوا نحوها من كل بلد سحيق امتثالاً لامر الامير واغتناماً لطاعته وما كان في يد الفرنسيس حينئذ من الارض لا يتجاوز الشطوط البحرية ولما انتهت المراجعات ورأى حاكم الجزائر ان تدارك الامر قد فات وقته وعلم انه لا محيد له عن الحرب جمع اعيان مجلس الجزائر واطلعهم على مكتوب الامير الذي جاء به ابن دران واظهر لهم الاسف على ما فاته من تدارك امره مع الامير الذي طالما دعاه الى المسالمة والبقاء على ما انعقد عليه الصلح في معاهدة تافنا فلم يلتفت اليه ثم جمع قواد العسكر وفاوضهم في امر الحرب وامرهم باختبار الجيوش وعرضها وتدريبها واخذ الاهبة للزحف الى البلاد الاسلامية وقال لهم ان اول ما تؤمرون به انكم تقصدون المدن الكبيرة ومتى حصل لكم الاستيلاء على مدينة منها وجب عليكم ان تقيموا فيها ثم رتب لهم طرقاً ووجوهاً لتبليغ الاخبار الحربية اليه وكذلك الامير جمع رؤساء جيوشه المدربة والمتطوعة وامرهم بالزحف الى الاماكن التي يوجد فيها عسكر فرنسا وامرهم بالهجوم على الحصون واستعمال التورية في المسير الى الجهات وعين لهم من يبلغ اخبار كل فرقة الى الاخرى ورتب بريداً مخصوصاً به يبلغه اخبار سائر الفرق

ذكر بدء الحرب

اول سرية كانت باكورة الحرب سرية مجوط وذلك ان الامير امر قائدهم بالغزو على ما يليه من ارض العدو فسار بهم ولما تجاوز نهر الشفة الذي كان يعتبر حداً في ايام الصلح شن الغارة على قبيلة اولاد غانم الدائنين بطاعة فرنسا نغنم سائر ما يملكونه

من ماشية ومتاع وفي رجوعهم لقيهم حشد من المتنصرة نصرة لهم من اهل تلك الجهة فناوشوهم القتال فانكسرت المتنصرة وقتل قائدهم وانقلب قائد حجوط بالغنائم الى بلاده وقسمها في قومه وهذه الوقعة كانت مقارنة لوصول وكلاء كل فريق اليه ولما اتصل خبرها بحاكم الجزائر امتعض لذلك وجهز فرقة من جيشه وبعثها لقتال حجوط فالتقوها عند نهر الشفة وانتشب القتال بين الفريقين ولحق بكل منهما اضرار تستحق الذكر ورجع عسكر الفرنسيس الى الجزائر بلا طائل وبعث الحاكم الى وزير الحرب بالخبر وذكر له ما سيتبع هذه الوقعة من النوائب وطلب الاسعاف بالعساكر والذخائر

ذكر غزوة متيجة

ولما فرغ خلفاء الجهة الشرقية من استعداداتهم امرهم الامير بالغزو على متيجة وما اليها كل منهم مما يليه وكان مسيرهم جميعاً في اليوم الرابع والعشرين من رمضان واول يوم من دسمبر وكانت مداشر الفرنسيس التي اختطوها مالئة لذلك السهل الممتد شرقاً وغرباً مسيرة ايام ولما قربوا من تلك البسائط شنوا الغارة عليها فاثخنوا في ساكنيها بالقتل والاسر والسبي واكتسحوا اموالهم وحطموا زروعهم واحرقوا سائر مداشرهم وابنيتهم واستولوا على كافة ما عندهم من ماشية واثاث وذخائر ولم ينج من القتل في جميع جهات متيجة الا ما ندر ولم تزل جيوش المسلمين تجدد الغارة على التوالي يوماً فيوماً الى ان انتهوا الى بساتين الجزائر وضاق الفضاء على ما استولوا عليه من صنوف الغنائم قيل ان هذا الهجوم كان مهولاً لم يسبق له نظير لان عساكر الامير بمجرد هجومها افنت سائر من كان موجوداً من الفرنساويين في سهل متيجة وغنمت كافة ما كان عندهم من سلاح وذخائر ومهمات وما يكونه من اصناف الحيوان ثم صدر امر الخلفاء بحرق سائر الابنية في تلك البسائط فامست رماداً تذروه الرياح وفر الناس امامهم افواجاً الى مدينة الجزائر فكان دخولهم اليها من الامور المزعجة فرجفت قلوب اهلها عموماً حتى المارشال فانه انتقل من قصره خارج البلد الى داخلها وتبعه من كان ساكناً في البساتين وعم الرعب سائر القلوب ثم رجع الخلفاء بجيوشهم وما في ايديهم من المغانم الى المدية لان الامير كان ينتظرهم فيها ثم توجه الخلفاء الى ولاياتهم لسد ثغورهم والقيام بشؤنهم لعلمهم ان العدو لا يتغافل عن هذه الوقعة الهائلة قال المؤرخ وبعد ان وقع ما وقع في سهل متيجة ارسل المارشال فالا يخبر دولته بهذه الغزوة الاسلامية التي اخافت العموم والجات الجيش الفرنساوي

الى التحصن باسوار مدينة الجزائر

﴿ ذكر وقعة ابي بهير ووقعة بوفاريك ﴾

وفي الخامس والعشرين من شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وثاني يوم من يناير سنة اربعين وثمانمائة التقى جيش تجوط مع جيش العدوّ على نهر ابي بهير من مدن بني يراتن من زواوه وانتشب بينهما قتال تكافأ فيه وخرج جيش آخر من بوفاريك حصن في ضواحي الجزائر قاصداً الى البليدة فزحف اليه المسلمون والتقى الجمعان بالقرب منها واشتد القتال بينهما وبالعشي الح المسلمون على العدوّ وحملوا عليه حملة رجل واحد فرجع القهقرى ثم جمع امره وهجم على المسلمين فانكشفوا ثم قلبوا الكرة عليه وصدقوه القتال فتقهقر ثم حال الليل بين الفريقين وفي اليوم الثاني خرج جيش من البليدة مدداً للعدوّ فتمكن بهم من دخولها .

﴿ ذكر غزوة مستغانم ﴾

وفي الثامن عشر من ذي القعدة والرابع والعشرين من يناير خرج خليفة معسكر غازياً على نواحي مستغانم فعاث فيها وحطم زروعها واثخن بالقتل والاسر ونازل مزغران واخذ بمخنقها وقطع عنها المدد من مستغانم ثم بعد مدة جاءها المدد من وهران لتقوية حاميتها ولما طال الامر افرج الخليفة عنها واغار على نواحي وهران فاستاصل عدداً كثيراً من المرتدين المقيمين في ضاحيتها واكتسح اموالهم وارهب العدوّ ثم انقلب راجعاً الى حاضرة ولايته وطير الخبر الى الامير بذلك وبهذه الوقائع المتتابعة امتلأت قلوب الفرنساويين رعباً وبعثوا صريخهم الى دولتهم فانجدتهم بعشرين الف مقاتل وذخائر حربية وكراع للنقل وبهذا العدد تم عندهم ستون الف جندي على ما ذكره روا في تاريخه

﴿ ذكر خروج حاكم الجزائر الى المدية وصده عنها ﴾

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة والثاني من فبراير سنة الف وثمانمائة واربعين خرج المارشال فالا بجيش كثيف من الجزائر الى البليدة ومنها سار قاصداً المدية فاعترضه خليفة مليانه بجموعه وناشبه الحرب واشتد القتال بينهما ثم وقع الفشل في حشود البربر فانكشفوا وثبت الخليفة في الجند المنظم فكاثرهم العدوّ وزحزحهم عن مصافهم وكثرت القتلى والجرحى في الفريقين واتصل القتال يوماً كاملاً وفي الغد اصبح المارشال راجعاً الى الجزائر .

ذكر مسير الفرنساوية الى مرسى شرشال

وفي الحادي عشر من المحرم سنة ست وخمسين والسادس عشر من مارس سنة ثمانماية وار بعين خرج المارشال فالا من الجزائر الى شرشال وهي اسكلة صغيرة على مرحلتين من الجزائر يسكنها قليل من البربر والكول اوغلان ولم يحتفل الامير بها لانها قريبة المآخذ للعدو ولما توسط المارشال الطريق اليها اعترضته القبائل القريبة منها واوقفوا حركته اياماً عديدة مع كثرة جيشه حتى انه همّ بالرجوع عنها قال بعضهم خرج المارشال من الجزائر في جيش كثير العدد متوجهاً الى شرشال وبعد صعوبات وخسائر كثيرة دخلها ورتب فيها حامية كافية .

ذكر وقعة موزايه

وفي الثامن والعشرين من المحرم والثاني من ابريل وصلت النجدة الى الجزائر من فرنسا ووصل الدوك دومال ابن ملك فرنسا ومعه شقيقه الدوك دورليان فنشط الفرنساويون في الجزائر من عقالهم وفرح المارشال فالا ثم اعتزم على المسير الى المدية حاضرة تيطري فخرج في اثني عشر الف جندي وطار الخبر الى الامير وهو في المديه فعرض عساكره وسار الى مضيق موزايه وكان رتب الجيوش فيه كما تبها في غيره من المعاقل والمضايق التي في طرق العدوّ الى الداخلية ولما انتهى العدوّ الى ثنية موزايه في التاسع من ربيع الاول والحادي عشر من ايار اعترضه الامير في العساكر الاسلامية وضرب على مضيقها المصاف واضرم على العدوّ نار الحرب وفي آخر النهار رجع المارشال القهقرى وارتد في عساكره وبات كل فريق في موضعه الذي ادركه الليل فيه وفي بكرة اليوم الثاني تجددت الحرب واشتد القتال وكان الدوك دورليان في مقدمة المارشال فكان اكثر الوبال على جيشه ثم اجتمعت صفوف العدوّ والتحم بعضها ببعض وحملت على المضيق حملة رجل واحد فتوسطوه وانثالت العساكر الاسلامية عليهم من كل جهة واختلطت بهم وتقاتلوا بالسيوف والحراب وصبر العدو الى ان خرج من ذلك المعقل الشديد واتصل الحرب في هذا النهار الى الليل وفي اليوم الثالث ارتحل وسلك طريق المديه واحاط به المسلمون يناوشونه القتال ويدافعهم باطلاق المدافع عليهم وكلما وصل الى مضيق او حرش من الاحراش يخرج له كمين يمنعه من التقدم فتارة يتقهقر ويرتد اوله على آخره وتارة يقف في موضعه ويرتب جيشه في صورة قلعة يحيطها بالمدافع ويبيت او يظل على تلك الهيئة ثم يرتحل وهكذا دابه في جميع مسيره ولما قرب من المديه اشتد عليه الحال

121

وتكاملت الجيوش والحشود الاسلامية وحملت عليه وتفاقم الامر قال بعض مؤرخيهم فكان اطلاق النار مستمرًا متصلاً حتى لاح للناظرين وقتئذٍ كأن تلك البقعة بحر من الكبريت التهب نارًا ولما راى الامير قرب العدوّ من المدينة امر باخلائها فخرج اهلها بما خف الى الجبال القريبة منها وتخلص العدو الى المدية فوجدها خالية تتاجج النار في منازلها وكان دخوله اليها في الخامس عشر من ربيع الاول والثامن عشر من مايه وبعد ان رتب فيها حامية تقرب من خمسة آلاف مقاتل ارتد راجعًا ولم يزل في طريقه في قتال ودفاع الى ان وصل قرب البليدة واما حامية المدية فانها امست يوم خروج المارشال منها محصورة لان الخليفة السيد محمد البركاني نازلها بالجيوش وقطع جميع ما تنتفع به وكانت هذه الوقعة ايام الصيف فنال الحامية من شدة الحرّ وضيق الحصار مالا مزيد عليه وآل الامر الى تلف الجل منها ذكر روا في تاريخه ما ملخصه سار المارشال فالا في اثني عشر الف مقاتل من عساكر فرنسا ومعه الدوك دومال وشقيقه الدوك دورليان اللذان حضرا من باريس ليشتركوا معه في هذه المحاربة وقصدوا في مسيرهم مضيق موزايه ليتوصلوا منه الى المديه فاتصل خبرهم بالامير عبد القادر فسد في وجوههم المضيق بالعساكر العربية ورتب كمين في اماكن كثيرة في طريقهم فكانوا كلما ساروا مرحلة صادفوا مصادمة قوية ومهاجمة لم تكن منهم على بال فتارة يضطرون للتاخر الى وراء وتارة يحوجهم الامر الى التوقف عن المسير وهكذا في كل مرحلة قطعوها حتى كادوا يفقدون قوتهم بالكلية

ثم ان المارشال واولاد الملك اتنوا من الرجوع على هذه الحال فصبروا على مقاساة نيران الحروب العربية وعند وصولهم الى مضيق موزايه صادفوا ما بهر عقولهم من المقاومة الشديدة وكان الامير وجيوشه على رؤوس تلال محصنة بمتاريس طبيعية من الصخر الصلب ولما اخذت عساكر فرنسا تمر في المضيق انقضت عليها جيوش الامير والتحموا بها واتصل هذا بهذا وصاروا الى المقارعة والمبارزة فتخلص الدوك دورليان من المضيق بفرقته بعد ان فقد اكثرها وهان الامر على من وراءه من الجيوش الفرنساوية ثم رجع المارشال واولاد الملك بجنودهم بعد ان تركوا لحماية المدية خمسة آلاف عسكري مع ما يلزمهم من الاقوات والمهمات وصادفوا في طريقهم اهوالاً يقشعر الجلد عند ذكرها لا سيما في مرورهم في وادي الزيتون وشعراء تلك الجبال الصعبة المسالك وفي اثناء طريقهم اقاموا اياماً لراحة الجند مما قاسوه من المشاق الهائلة التي لا يمكن لمؤرخ ان يصفها ولو تقريباً وفي مدة اقامتهم في ذلك الموضع اعتزموا على المسير الى مليانه

وقتل الدوك دورليان ابن الملك في احدى هذه المعارك فاشاع الفرنساويون انه وقع من العربية فمات وقد بلغني ان تلك المعركة مصورة مجسمة في ساحة وسط مدينة الجزائر

ذكر مسير الفرنساوية الى مليانة

وبعد وقائع موزايه والمديه توجه الامير الى مليانه لما كان يتوقعه من قصد العدو اليها ولما اتصل به خبر مسيرهم في طريقها امر اهلها بالجلاء عنها كما فعل في المديه فخرج الناس بما تيسر حمله من اثاثهم وامتعتهم وتركوها خالية ثم ان الامير والخليفة السيد محمد بن علال جمعوا جيوشهم مع العسكر النظامي والتقوا بالعدو في طريقه واذاقوه حرارة الحرب ومرارة القتال فلم يصده ذلك عن قصده ولما قرب منها حمل عليه المسلمون حملة ما سبق له مثلها منهم واتصل ذلك نهاراً كاملاً وفي الغد اصبح سائراً والمسلمون يلحون عليه في القتال ولم يصدهم عنه تتابع الكلل المرسلة عليهم كما ان العدو لم يصده الحاحهم عليه وسد الاودية والمضايق في وجهه حتى وصل الى بساتينها فتجمعوا عليه واختلطوا به وثار الغبار واظلم الجو حتى لا يكاد يتميز العدو من الصديق واظهر المسلمون من الشجاعة والاقدام ما اذهل عقول الفرنسيس وغيبهم عن انفسهم حتى كان بعضهم يضرب بعضاً وهم لا يشعرون ولما كان القدر الالهي مساعداً لهم اقتحموا هذه الشدائد وتخلصوا الى المدينة فدخلوها في التاسع من ربيع الثاني والحادي عشر من يونيه وبعد ان اقاموا فيها اياماً رتبوا فيها حامية كالمديه ورجعوا الى الجزائر واكتنفتهم الجيوش الاسلامية واذاقوهم نكال الحرب واشتد بهم الامر قال مؤرخهم وتركوا جرحاهم وبهماتهم في يد عدوهم وما وصلوا الى البليدة الا وهم على آخر رمق ولا استطاعوا ان يسيروا منها الى الجزائر الا بعد ان جاءهم المدد منها واما تلك الالوف التي خرجوا بها فقد اتى التلف عليها الا شرذمة قليلة تخلصوا بها الى البليدة ورايت في تاريخ فاليلوت الفرنساوي كتب بيجوان المارشال فالا في اثناء هذه الحروب كتب الى قبائل تلك النواحي يدعوهم لطاعة الدولة الفرنساوية ولم يتعرض لنص المكتوب وانما ذكر الجواب وملخصه من عباد الله القادر المؤمنين به وبرسوله مبيد الكفرة بسيفه الباتر الذين يحاربون اعداء الله لاعلاء كلمته وتعظيم اسمه القاهر الخاضعين لاوامر الله واوامر مولانا ناصر الدين سيدنا عبد القادر بن محيي الدين ايده الله آمين الى حاكم مدينة الجزائر السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابكم المشتمل

على دعوتنا الى طاعتكم والنداء اليها ناخذ بنا العجب في كل طريق ومذهب وهل في الدنيا ذو عقل سليم يتصور هذا في فكره فضلاً عن كونه يتلفظ به او يكتبه وكيف نترك ديننا الذي هو الدين القويم والصراط المستقيم ونتبع دينكم الذي يجب علينا في شريعتنا ان نقاتلكم حتى نردكم عنه الى ديننا اما علمتم ان ديننا مبطل لسائر الاديان وشريعتنا ناسخة لكافة الشرائع ولو انصف علماؤكم لاقروا بهذا لانه مقرر في سائر الكتب الالهية كالتوراة والانجيل ولكن حب الدنيا مع خوفهم على مناصبهم عندكم غطى على قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه واظهروا لكم ما يناسب اغراضكم من التعلق بزينة الدنيا وزخارفها وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون ثم اعلموا اننا بحوله تعالى وقوته لا نزال نحاربكم وندافعكم عن ديننا واوطاننا الى ان تقفوا على سوء عاقبة ما ارتكبتموه من عظيم الذنب واي ذنب اعظم من تعديكم على بلادنا اولاً ثم سعيكم في تغيير ديننا ثانياً اما علمتم ان سائر الاديان والنواميس الازلية تامر بالعدل وتنهى عن الظلم والتعدي على الحقوق كما هو منصوص عليه في الانجيل الذي انزله الله على نبيه ورسوله سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر الينا لتاخذوا بلادنا وتغيروا ديننا فما نسبتكم من دين الله ورسوله الا كنسبة الثرى من الثريا وبالجملة فنحن لا نترك ديننا ولا نتخلى عن طاعة مولانا واميرنا وسيدنا عبد القادر ابن محيي الدين والله تعالى يقضي بيننا وبينكم بما شاء فان الارض ارضه والملك ملكه ونحن عبيده يفعل فينا وفيكم ما يشاء ويحكم ما يريد حرر في سابع عشر ربيع الاول سنة ست وخمسين ومائتين والف من الاعيان والاكابر والاغوات والقواد في ولايتي تيطرى ومليانه . ثم قال وكتب لهم مرة اخرى وجعل مدار ما كتبه على امر الاسرى الذين هم في قبضته من العرب وملخص جوابهم

الى حاكم الجزائر السلام على من اتبع الصراط المستقيم والدين القويم قد وصلنا مكتوبك وفهمنا ما اشتمل عليه من كونك جعلت الدعوة الى الخضوع لدولتكم مبنية على اطلاق الاسرى منا عندكم وقيدت بذلك ان فكهم موقوف على طاعتنا لكم فاعلموا ان عندنا اسرى منكم وعندكم اسرى منا فان شئتم الفدا فلا باس وان ابيتم ذلك فان الامة الاسلامية لله الحمد كثيرة العدد وافرة المدد والاسرى منهم لا يزيدون في عددكم ولا ينقصون في عددنا واما اجراء الوجه الذي ذكرتموه فان دونه خرط القتاد وسوق الاجناد بل لا نقبل ان نسمعه وكيف خطر هذا في افكاركم ام كيف تخيلتم اننا نخضع لكم وندخل في طاعتكم لاجل خلاص اشخاص عددهم من

الخمسين الى المائة مع دعواكم قوة الفطنة والذكاء وجودة الرأي وان اغتررتم باحوال القبائل في نواحي قسنطينه من كونهم لبوا دعوتكم واسرعوا الى الدخول في طاعتكم فما ذلك الا لضعف دينهم ومرض قلوبهم بداء النفاق واستيلاء الجهل على كبيرهم وصغيرهم اما نحن فلسنا مثلهم ولا تروا منا بحوله تعالى وقوته الا ما يخرج من افواه البنادق وتفعله السيوف عند التحام الصفوف لاسيما وقد اتفق الآن سائر اهل الوطن على تايد كلمة الاسلام والذب عنها على الدوام الا اذا شاء الله خلاف ذلك فلا راد لقضائه وقولكم انكم ابتنيتم في جهة بني صالح قلاعاً محصنة اردتم بها ايقاع الرعب في قلوبنا فهذا لايؤثر فينا ولايوهن عزمنا وقد سبقتم لمثل هذا في المديه ومليانه وشحنتموهما بالعساكر والذخائر ولم نهتم بشيء من ذلك بل رأيناه من سوء التدبير وقبيح النظر كانكم اردتم باولئك المساكين سجنهم او قصدتم نفيهم او جعلتموهم وليمة للموت ولذلك اننا نرى كل يوم يتهيأ منهم عدد وافر على مائدتها ونرى افواجاً يفرون الينا صارخين برطانتهم بما معناه الجوع الجوع فنرحمهم جرياً على عادتنا من الشفقة على امثالهم ومن بقي منهم في داخل المدينتين فهو محصور مقهور هكذا يكون نصيب عساكركم منكم ومع ذلك فانكم تخدعون ضعفاء العقول منا بالاماني الكاذبة واما وعيدكم لنا وتهديدكم بالاستيلاء على بلاد موزايه وبني صالح فاننا لا نعيره اذناً سامعة واهل تلك البلاد اينما توجهوا يتيسر لهم امر معاشهم فان ارض المسلمين واسعة شاسعة الاطراف وفيها الكفاية لهم ولغيرهم وعلى كل حال فلا شرف لكم في التغلب على عباد الله وانما الشرف والفخر في عمران بلادكم التي نشاتم فيها خلفاً عن سلف وفي اقامة قسطاس العدل واستعمال مكارم الاخلاق واما افعال كهذه فلا شرف فيها وقولكم اخبرونا عن احوال المغرب فلا خبر عندنا الا الحث على الاستعداد للجهاد فيكم والتواصي بالصبر على قتالكم ولا نعلم من انفسنا الا اننا نؤمن بالله تعالى وبرسوله الينا وان لنا اميراً مسلماً شريفاً من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً عادلاً واننا لانفعل الا ما امرنا به على وفق ديننا وشريعتنا واننا لا نغتر بمواعيدكم ولا بكلام الذين خالفوا الاوامر الالهية من ابناء ملتنا ليعيشوا عندكم في راحة حسبما وعدتموهم وما ذكرتموه من قوة الدولة الفرنساوية فانا لا نعرفه وانما المعلوم عندنا والمحقق لدينا هو عظيم قوة الله القادر سبحانه وتعالى

ذكر احوال الفرنساوية بعد الحروب السابقة

كان المارشال فالا يظن انه متى استولى على مدينتي مليانه والمديه تنقاد له القبائل وتمتد له الطاعة في تلك النواحي فبدا له من الله ما لم يحتسب ولم يحصل على طائل فيما كان يتمناه من الفخر وتخليد الذكر عند دولته وآل امره الى العزل والتوبيخ على سوء سيرته وقبيح سياسته وما ارتكبه من تطويح عساكرها في مهاوي الهلاك فيما بين مدينتي مليانه والمديه والجزائر وما لحقها في تلك الاودية الوعرة والجبال الصعبة المسالك من الشدائد التي كادت تاتي على آخرها وقد ظهر لي ان اذكر هنا ما ذكره فاليوت كاتب المارشال بيجو في تاريخه نقلاً عن بعض القواد الذين حضروا ذلك وعاينوه بل ذاقوا مرارته وتكبدوا مشقته واقروا به ولم تحملهم العداوة على كتمانه ولا دعتهم الحمية الى موافقة حاكمهم في كذبه وبهتانه فقال ما ملخصه اجتمعت في الجزائر ببعض قواد جنودنا الفرنساوية فاخبرني بجميع ما شاهده وحضره في بلاد العرب فقال انني في مدة الشهر الاول من اقامتي في بلاد الجزائر شاهدت سوء حال الفرنسويين وعاينت الشدائد التي كانت تحدث يومياً ورايت ارتباك الحاكم العام في تدبير سياسته التي بلغ فيها الى مركز صعب لان امره كان يقضي عليه في كل وقت ان يبعث نجدات وذخائر ومهمات حربية متتابعة الى العساكر التي وضعها في المديه ومليانه وهذا لا تصل يده الى ذلك في كل وقت لان الجيش الذي عنده في الجزائر لا يقوم بذلك والذخائر والمهمات التي اعدها لما هو بصدده نفدت واحضار مثلها من فرنسا متعذر من وجوه اعظمها انه لا يريد كشف الغطاء للدولة عن اموره كلها خوفاً من توجيه العتاب اليه على سوء تصرفه فلذلك رايناه في حيرة دائمة وارتباك متصل ثم الجاه الحال الى اخلاء كثير من الحصون التي كان جمع ايدي العسكر على تشييدها ومن جملتها حصن فودوك المهم والحرس الذين كانوا فيه رايتهم على اسوء حال سود الوجوه من حرارة الشمس نحفاء الاجسام من ضنك المعيشة وشدة الامراض ولقد رايت من فضل منهم عن الموت عند ما صدر لهم الامر بمبارحة ذلك الحصن فرحوا كثيراً ثم ان الحاكم راجع رايه وعين فيه حامية من العرب الخاضعين له ولما كانت دواب النقل غير كافية اضطر الحاكم الى اخذ دواب اهل الجزائر ومن دخل في الطاعة من اهل ضاحيتها واستعملها في النقل فصعب ذلك على الناس وتعطلت اشغالهم كما ان الجيش لحقه الضجر الشديد من تتابع الاسفار وبذلك تكدر مورد راحة

العموم وصار الجيش يجاهر قواده بالعصيان وعدم الانقياد لاوامرهم فقام الحاكم لذلك وقعد وتدارك الامر في تسكين روع الاهالي وتطييب قلوب الجيش ولا طائل تحت ذلك لان الكثير منه قد مات بالامراض المختلفة التي علقت باجسامهم وفشت بين صفوفهم وفعلت بهم ما فعلته سيوف العرب ورصاصها حتى ان حامية مليانه لم يبقَ منها سوى اثني عشر عسكريًا ثم ازمع الحاكم على المسير بنفسه لتبليغ الذخيرة الى المدية فخرج في فرقتين من الجيش وكنت احد القواد فيهما واخرج معه عددًا كثيرًا من الدواب وعجلات النقل مشحونة بالذخائر والمهمات وخروجه كان في صورة غير منتظمة لسآمة العسكر وسائقي العجلات والدواب وذلك لكثرة ما تكبدوه من المشاق المتوالية فكنت اراهم مظهرين الغضب والحنق على الحاكم ومن كان على رأيه من القواد وكانوا لا يتحاشون الفاظ السب والشتم بلغاتهم المختلفة ثم وصلنا في مساء ذلك اليوم الى الدويرة وهي قرية صغيرة على مرحلة من الجزائر فيها فندق فدخلته فاذا هو مظلم وسخ ضيق المساحة وفي صباح اليوم الثاني ا تحللنا وبعد ان قطعنا مسافة قليلة وصلنا الى قرية بوفاريك ثم سرنا الى البليده فوصلناها عند الزوال وهي بلدة جميلة المناظر خصبة المزارع وموقعها في انتهاء سهل متيجه عند الاطلس ماؤها عذب رائق وحولها حدائق الليمون بانواعه ومن شدة تعلق اهلها به يغرسونه داخل البيوت فكانت روائح الزهر عند دخولنا اليها عابقة في ارجاء المدينة وضواحيها وقد سمعت ممن لهم خبرة باحوال تلك البلاد ان هذه البلدة اتى عليها الخراب مرات عديدة لتوالي الزلازل عليها وكان من جملة القواد في عسكر البليده الجنرال شانكرني والجنرال دو فيفير وقد رأيت العسكر الموجود فيها على غاية الانتظام الا ان الرعب مع اخذ الحذر في كل آن اثر في اجسامهم نحولة وفي وجوههم صفرة وفي اليوم الثاني ليوم وصولنا جهز الحاكم ثلاث فرق من حرسها وضمهم الى فرقته التي خرج بها من الجزائر فسرنا معه قاصدين المديه ولما وصلنا جبال تجوط وجدنا جموع العرب في الطريق فانثالوا علينا من كل جهة وناوشونا القتال فكنا في مسيرنا على حال الدفاع ولم نتمكن من اطلاق المدافع عليهم لضيق المسالك وكثرة الاحراش ولما انتهى مسيرنا الى اول مضيق وجدنا فيه حامية من عسكرنا معهم مدفعان صغيران فنزلنا عندهم ثم ان الحاكم امر الجنرال شانكرني ان يتقدم امامه بفرقته الى مضيق موزايه ليستكشف له الاحوال هناك فسار قبلنا وسرنا خلفه وسار الجنرال دوفيفير بفرقته في طريق اخرى غير طريقنا وكانت جيوشنا تسير في تلك

الاودية الوعرة وحشود العرب عن اليمين وعن الشمال يرسلون علينا رصاصهم المتوالي مثل البرد المسترسل ومن العادة ان المدافع تدحر العدو وتفرج كرب العسكر ولضيق الطريق لم يتمكن الموكلون بها من اطلاقها بل لم يتمكن الواحد منا ان يخطو قبل ان يخطو الذي امامه فناهيك بطريق حرج يكتنفها من الجانبين حائط عالٍ طبيعي من الصخر وبعد بضع ساعات وصل اول العسكر الى المضيق الاعظم وهو مضيق موزايه الشهير وكان وصولهم اليه في حالة محزنة من شدة ما لحقهم من التعب وهناك اجتمعنا بالجنرال شانكرني واما الجنرال دوفيفير فانه قد سلك طريقاً اخرى وكانت طريقه اصعب من طريقنا ولم يتخلص منها الا بعد ان هلك اكثر فرقته لان العرب احاطت به جموعهم وانصبت عليه انصباب الصخر من اعلى الجبل الى قعر الوادي وضايقته حتى كاد عسكره ان يلقي السلاح ويطلب الامان ثم صبر ودافع واخذه القتل من كل جانب ولولا ان العرب لحقهم التعب من تلك الاوعار التي تكبدوا سلوكها لجاؤا على آخره وبسبب فتورهم عنه انتهز الجنرال الفرصة في التخلص من ذلك المضيق العجيب بعد ان فقد من ضباطه اربعة وخمسون ضابطاً ولم اقف على عدد ما فقد من العسكر واما نحن فقد امرنا الحاكم بالعبور في المضيق الاعظم كيفما كان الحال فاجتمع القواد ورتبوا الجيش صفوفاً فلم يتمكن لهم ذلك وجعلوه على صفين متلاصقين كتف هذا عند كتف هذا اذ لا يسع الممر اكثر من ذلك واشتعلت نار الحرب بيننا وبين العرب وكان الحاكم العام انفرد في بطانته على كثيب عالٍ على فم المضيق ليعاين منه مرور الجيش فكنت ارى الرصاص ينزل عليه وعلينا كالمطر وجرح من اصحابه ثلاثة وكنت ارى العرب كالاسد الضارية يقتحمون علينا تارة بالسيوف والحراب وتارة يتقون بالصخر القريب منا ويرموننا بالرصاص وبهذا كانت اصابتهم لجيشنا اكثر من اصابته لهم ثم خرجنا من ذلك المضيق الى سهل الزيتون فبتنا فيه تلك الليلة على آخر نفس من شدة ما لحقنا من الوبال ونالنا من عظيم الاهوال وفي غد ذلك النهار ارتحلنا على طريق المدية والعرب لم تفارقنا طرفة عين بل تساير حوالينا على حسب سيرنا ولم تفتر عن مناوشتنا مع الصراخ والشتم ولم تزل على ذلك الى ان انتهينا الى ساحة المدية فخرج القائد كافينياك منها ملاقياً لنا فلما رآه الحاكم عجل اليه وعانقه وساله عن حال الحرس فاخذ يصف له ما هم عليه وما قاسته الحامية من الضنك الشديد وما نالها من الامراض التي افنت اكثرها وذكر له ان المدينة لم يبق من عمارتها سوى المساجد المحكمة البنيان وانه اضطر الى ان يتخذها ماوى للمرضى وانه من شدة البرد وعدم وجود

الحطب اخذنا اخشاب سقوف البيوت الفاضلة عن الحريق لسد عوز العسكر في التدفئة والطبخ و بالاختصار كانت تلك الاخبار محزنة مكدرة جداً فاقمنا تلك الليلة للاستراحة وفي الغد دخلنا البلد وقدم لنا الحرس بقولاً خضراء زرعوها في خرابات البلد مع جملة وافرة من البيض والدجاج الذي اتخذوه لانفسهم وقاموا بتربيته وهذه البلدة موقعها جميل فهي مبنية على تل كبير ينحني قليلاً لجهة الجنوب وفيها آثار قلعة قديمة يقال انها من ابنية الرومانيين ومن حيث ان جموع العرب لا تترك شيئاً يتمتع به الفرنساويون في هذه المدينة ولا تتخلى عن حصارها ساعة واحدة كان من الواجب دوام ارسال الذخائر اليها وهذا لا يتاتى الا بعد اتعاب ومشقات شتى لان المقدار من الذخائر الذي يجب ان تبعث لهذا الحرس في كل مرة لا يمكن ان يكون اقل من الف وخمسمائة حمل ولا بد ان يتكرر ارسال هذا العدد اكثر من عشرين مرة في كل سنة والمسافة من الجزائر الى المدية لا تنقص عن خمسة عشر يوماً ولا يمكن السير في طريقها الى مدة الصيف ومع ذلك فان الاخطار متوالية فان لم تكن من الامطار والثلج فمن فرسان العرب وبناء على ما ذكرناه فلا بد ان يترك الحرس مراكزه ويرجع الى الجزائر والا فانه يبقى فيها اسيراً يترقب الفرج من الله تعالى ومن المعلوم ان سائر اعمال الجيش الفرنساوي في هذه المدة انحصرت في الاستيلاء على مدينتي مليانه والمدية والغاية المقصودة من وضع الحرس فيهما هي اتخاذها مركزين عظيمين يتمكن الجيش فيهما من محاربة العرب في جميع الجهات الداخلية ولا يخفى ان الوصول الى نتيجة هذه الآراء يتوقف على استعمال حزم شديد وساعد من حديد ثم ان الحاكم بعد ان اقام في المدية اربعة ايام امر بالاستعداد للرجوع الى الجزائر وسار على طريقه وما سرنا مقدار غلوة حتى ظهر لنا نحو الف فارس من العرب شاكين السلاح فاخذوا يطلقون بواريدهم علينا وبعد ان عبرنا اودية عميقة كانت في طريقنا هجمت جيوشنا عليهم ففرقتهم وبلغنا انه جرح منهم عدد كثير كما وقع ذلك في جيشنا ثم لم يلبثوا ان عادوا الينا وما زالوا محيطين بنا عن بعد يناوشوننا القتال الى ان وصلنا غابة الزيتون فبتنا فيها تلك الليلة وبات العرب في مواضعهم بالقرب منا وفي الغد انكشف الظلام عن مقدار الف وخمسمائة فارس وفرقتين من العسكر المنظم فانضمت اليهم الجموع السابقة وجعلوا مسيرهم على الميمنة في طرف الجبل وبوجود هذه الجيوش الكثيرة التي كان الامير عبد القادر قائدها توقف جيشنا عن المسير ولما نظر بعض المهندسين الذين كانوا معنا مسير الامير وترتيب جيشه قال ان هذا السير يعد

من مكائد الحرب التي كان الامير يستعملها فطالما نجح بهذا الاستعمال الذي قضى بتكبد الفرنساويين والحقهم خسائر جسيمة ثم ان الامير لما رأى جيوشه قد قربت من عساكرنا بوجه لا يهتدى اليه الا من مهر في امور الحرب ومكائدها امرهم بالحملة عليه فحملت الفرقة الاولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الحشود على التتابع واشتد القتال واحمرت الحدق واتصل ذلك عدة ساعات ثم انفصل كل فريق عن الآخر وانكشف الجو وتبين ان العرب لحقها ضرر جسيم ولكنه ليس باكثر مما لحق بجيشنا وجرح الجنرال شانكرني في كتفه ولم يثبت لمقاومة جيشنا من تلك الفرق والجموع الا الفرقة النظامية التي كانت تحت قيادة الفارس العربي الشهير بالشجاعة وهو محمد البركاني خليفة الامير في مقاطعة تيطرى ثم خمدت نيران الحرب واخذ جيشنا في المسير وفي اليوم الثاني عاد الامير الى تحاربنا ولولا ان المطر الغزير المتتابع حال بيننا وبينه لآل الامر الى خسارة عظيمة وربما كانت تاتي على آخر جيشنا لشدة ما لحقه في هذه المراحل المتوالية من تعب السير ومقاومة الخصم ونقص عدده بالموت في تلك الحروب الهائلة مع عدم تمكننا من الاقامة والراحة لاننا توردنا في جبال شاهقة واودية وعرة لا نعرفها واهلها اعداء لنا والمدد مأيوس منه ثم بعد مشقة زائدة تمكنا من عبور المضايق وسلكنا في طريق سهل الى متيجة واتصل سيرنا الى الجزائر فدخلناها على هيئة يرثى لها واما الامير عبد القادر فانه لما هو عليه من شدة الحزم وقوة العزم لا يخطر في افكاره ان يقر للعدو بالتقدم او يجعل له طريقاً لذلك بل كان مستضعفاً له مستصغراً لامره عاكفاً على انفاذ اوامره متيقظاً لشانه وبعد ان اخذنا الراحة في الجزائر امر الحاكم العام بترميم سورها واصلاح خلله .

ذكر عزل المارشال ڤالا عن الجزائر وتولية الجنرال بيجو في مكانه

لما اتصل بالدولة الفرنساوية ما اجراه المارشال فالا في داخلية الجزائر من الحروب واطلعت على ما عليه الامير من الاستعداد لمقاومة جيوشها ورات ان تلك الحروب قد افنت عساكرها وذخائرها من غير طائل عزلت المارشال فالا عن الجزائر فذهب الى فرنسا منكسر القلب محمولاً على كاهل اللوم والعتب قال بعضهم لما كان المارشال فالا متخلقاً باخلاق لا تناسب احوال البلاد العربية ورأته فرنسا انه في سائر حروبه لم ينجح نجاحاً تقر به عينها بل آل امره الى فناء عساكرها ومهماتها عزلته وولت مكانه الجنرال بيجو المشهور في السابع من ذي القعدة واول يناير

سنة ثمانمائة واحدى واربعين وامرت بتجهيز ثمانية وثمانين الف جندي علاوة على ما هو موجود وقتئذ في الجزائر من العساكر لقتال الامير عبد القادر وهذا ما عدا المتطوعة من بعض الدول لانه كان يوجد بين اسرى الفرنساوية متطوعة من المانيا واسبانيا وخلافهم وارسلت من المهمات والذخائر ما لا ياتي عليه حصر ولما وصل الجنرال بيجو الى الجزائر واتصل خبره بالامير بعث اليه بمكتوب ملخصه

الى الجنرال بيجو وسائر قواد العسكر الفرنساوي في الجزائر السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى اما بعد فقد بلغني انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين الف جندي زيادة على عساكركم السابقة فيها فاعلموا انني بعونه تعالى وقوته لا اخشى كثرتكم ولا اعتبر قوتكم لعلمي انكم لا تضرونني بشيء الا ان يضرني الله به ولا يلحقني منكم الا ما قدره الله عليَّ وقضاه واني منذ اقامني الله في هذا الامر وجعلني ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثا من عساكركم التي تكافحونني بها ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين وعساكركم كثيرة والآلات الحربية قوية ومع هذا البون العظيم الذي بيني وبينكم فاني اعرض عليكم اموراً فاختاروا واحدة منها وهي اما ان تعطوني ما احتاجه من ادوات الحرب بالشراء ثم انظم عسكراً يكون نصف عسكركم الذي تحاربونني به وحينئذ نتحارب واما ان تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها وابقى انا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب احدنا من الآخر مدة اثني عشر سنة فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة وحينئذ اقاتلكم فان غلبتكم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة وان غلبتم انتم فتكونوا قد غلبتم رجلاً له قوة فيحصل لكم الفخر عند الملوك واما اليوم فانتصاري عليكم يعد فخراً لي عند الدول وانتصاركم عليَّ لا يعدُّ فخراً حيث انكم غلبتم رجلاً عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها ومن الامور التي اقترحها عليكم انكم تبعثون من قبلكم من يعدُّ عسكري ثم اخرجوا من عندكم في مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم واعطيكم العهد اني لا ازيد عسكرياً واحداً على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن ومنها ان يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائي فان غلب صاحبكم فلا انازعكم في طريقكم من الجزائر الى قسنطينة ومن اراد من المسلمين اهل تلك النواحي البقاء تحت حكمكم فلا نتعرض له وان اراد الخروج منها ويلحق ببلادي فانتم لا تتعرضوا له ومنها ان ابن الملك يبارزني فان غلبته فانكم ترجعون بعساكركم الى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في يدكم الان بما فيها من الذخائر والمهمات وان غلبني فانكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع فان اخترتم واحدة من هذه

الامور فلا بد ان تحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك واما نحن فلا نخالف كلمتنا وان استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه اعتماداً على قوتكم فنحن قوتنا بالله القادر على كل شيء هو ولينا وناصرنا . ولما اتصل هذا المكتوب بالجنرال بيجو قرأه على قواد العسكر واعيان مجلس الجزائر فوجموا له ثم اتفق رأيهم على الاعراض عن رد الجواب

ذكر سؤالات وجهها الامير الى قاضي فاس

ولما رأى الامير ان بعض القبائل في الساحل القريبة بلادهم من المدن التابعة للعدو مالوا الى طاعته والدخول تحت ظله وحمايته ارسل اليهم من العلماء والاشراف من يعظهم ويحذرهم من مقت الله تعالى وغضبه فلم يجد ذلك نفعاً فيهم ثم هددهم واوعدهم وامرهم بالخروج من مواطنهم واللحوق باخوانهم المسلمين في الداخلية فلم يقبلوا وتمادوا على ما هم عليه فاعتزم حينئذ على غزوهم والفتك بهم ثم توقف في شانهم واستشار الفقهاء في امرهم وبعث الى قاضي فاس في ذلك لينظر ما عنده فيه وزاد اسئلة اخرى عن اشياء متفرقة عرضت له ونص ما كتبه اليه . الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده من خادم المجاهدين والعلماء عبد القادر بن محيي الدين الى الشيخ الامام علم الاعلام السيد عبد الهادي العلوي الحسني قاضي القضاة بفاس المحمية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فما حكم الله سيف الذين دخلوا في طاعة العدو الكافر بديارهم وتولوه ونصروه يقاتلون المسلمين معه وياخذون مرتبه كافراد جنوده ومن ظهرت شجاعته في قتالهم للمسلمين يجعلون له علامة في صدره يسمونها نيشان عليها صورة ملكهم هل هم مرتدون ام لا وان قلتم بردتهم فهل يستتابون ام لا وما حكم نسائهم هل هن كرجالهم ام لا وان قلتم انهن مثلهم فهل يحكم باستتابتهن او يقتلن او يسترققن كما نقل عن ابن الماجشون ام لا وما حكم ذراريهم هل لنا سبيهم ام لا وهل ما حكاه ابن بطال من الاجماع على ان المرتد لا تسبى ذريته منقوض بما نقل عن ابن وهب وعن جمهور الشافعية ان المرتد كالكافر الاصلي ام لا وهل يسوغ لنا العمل بما ينقل عن اصحاب مالك رضي الله عنه من الاقدمين كابن وهب وامثاله في دقيقة في هذه النوازل وامثالها مما لم يشهره المتاخرون ام لا وما حكم الخوارج الاباضية المعروفين في مغربنا ببني مزاب وهم على ما لا يخفاكم من عدم صلاة الجماعة والجمعة مع المسلمين فهل قول ابن العربي بكفرهم صحيح يعمل به ام لا . وهل ما ذكره شراح ابن الحاجب من ان الباغي لا يرد عليه

ما له يسوغ لنا العمل به في هذه الازمنة الفاسد اهلها ام لا . وهل ما نقله بعضهم عن ابن رشد من صحة دفع الزكاة لكل ما فيه مصلحة للمسلمين صحيح يعمل به ام لا . وهل ما تقرر من ان العدو اذا نزل بقوم وعجزوا عن دفعه ينتقل الوجوب والخطاب الى من يليهم عام في جماعة المسلمين او هو خاص بالسلاطين من حيث انهم حاكمون على الرعايا وهل وجوب الدفاع والاعانة خاص بالابدان او هو عام في الابدان والاموال حتى ان من عجز عن الدفاع بنفسه مع قدرته على الاعانة بما له وترك ذلك يكون عاصياً وهل هذا العصيان يكون قادحاً في العدالة ام لا . وهل مجازاة ومكافاة المصطفى صلى الله عليه وسلم للشعراء والمهديين كانت من بيت مال المسلمين او من خمس الخمس وان كانت من بيت المال فهل لولاة المسلمين هذا بعد ذلك ام لا . وهل لهؤلاء السلاطين قبول الهدية ام لا . كما نقل عن عمر بن عبد العزيز وهل يردونها جملة او يضعونها في بيت المال وهل قول مالك لا ينبغي الامير ولا لعامل الصدقة اذا خرج لبعض عمله ان ينزل عندهم او ياكل من طعامهم خاص بعمل الشعوب والبطون ام عام حتى في ولاة الاقاليم ولفظ لا ينبغي هل هو على الحرمة او الكراهة اجيبوا ادام الله وجودكم جوابا يشفي المرض و ياتي على الغرض محيطاً بالتفاصيل والجمل مبيناً لنا ما يكون به العمل مع ملاحظتكم زماننا ووطننا والسلام مكرر ومعاد عليكم وعلى اهل مجالسكم الشريف ولا تنسونا من صالح دعائكم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله واصحابه اجمعين .

ذكر الاجوبة

الحمد لله وحده الى نخبة افاضل المجاهدين الامير السيد عبد القادر بن محيي الدين لا زلت منصور الراية على الكفرة المعتدين مظفراً بالفتح والتمكين وسلام الله يتوالى على علي مقامكم المتين هذا واني احمد الله لكم على ما به خصكم في هذا القطر المغربي من صرف الهمة الى اعلاء كلمة الله واني ثم المرغوب من كمال فضلكم ان تسهمونا من صالح دعائكم ولكم منا مثله ومن الله يرجى لجميعنا فضله وجواب ما اشرت اليه في كتابك من المسائل ان اللائذين بالنصارى المقاتلين معهم قال فيهم البرزلي في القضاء من نوازله ما نصه ان المعتمد ابن عباد استغاث بالكفار في حرب المرابطين فنصرهم الله عليه وهرب ثم نزل على حكم يوسف ابن تاشفين امير صنهاجه فاستفتى فيها الفقهاء فافتى اكثرهم انها ردة وقاضيه مع

بعضهم لم يرها ردة ولم يبح دمه فامضى الامير ذلك ولم يبح دمه واخذه اسيرًا ونقله الى اغمات الى ان مات فيها ونقله الزياني في نوازله بواسطة الكتاني ويؤيده ما في ابن جزي على قوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم ونصه من كان يعتقد معتقدهم فانه منهم من كل وجه ومن خالفهم في الاعتقاد واحبهم فهو منهم في المقت عند الله تعالى واستحقاقه العقوبة وقد قال الغزالي في كتاب التفرقة بين الايمان والزندقة الذي ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد اليه سبيل فان استباحة المصلين المقرين بالتوحيد خطأ والخطأ في ترك التكفير اهون من الخطاء في دم مسلم ولا سيما اذا كان فيه تاليف ورد عما هم عليه فهو متعين نعلى القول بعدم ردتهم لا اشكال في عدم سبي نسائهم وذراريهم وعلى القول بردتهم فكذلك قال خليل وان ارتد جماعة وحاربوا فكالمرتدين قال شارحه ابن عبد الصادق سار فيهم عمر سيرة المرتدين برد النساء والصبيان الى عشائرهم كذرية من ارتد فلهم حكم الاسلام وعلى هذا جماعة العلماء والسلف الا القليل منهم مضى على رأي ابي بكر بانهم كالناقضين للعهد قتل الكبار وسبى النساء والصغار وجرت في اموالهم المقاسيم وذهب ربيعة وابو القاسم وابن الماجشون الى نعل عمر واقتصر عليه المصنف لانه قول الجماعة واما حكم الاباضية فالصحيح عدم كفرهم كما عند ابن رشد في البيان وقال في الفتح عن ابن حزم اهداء الخوارج والبغاة واقربهم الى قول اهل الحق الاباضية وذكر الخلاف فيهم غير واحد وتقدم ان التكفير صعب والميل الى عدمه اهرن وقد ترجم البخاري بترجمته لقتل الخوارج وباخرى لتركه اشارة الى الخلاف كما قاله في الفتح واما البغاة فلا يؤخذ من مالهم غير السلاح قطعًا كما قيد به شراح خليل قوله واستعين بما لهم عليهم ثم رد واما السلاح فعليه يحمل المتن ومقابل ما في المتن في غاية الضعف لا يعمل به وقد قال ابن عرفة ان العمل بالراجح هو الواجب ولا ينفذ الحكم بما سواه ونحوه للعقباني والسنوسي واما الزكاة فلا تصرف في غير المصاريف الثمانية التي قص الله عنها انما الصدقات للفقراء الآية قال خليل ومصرفها نقير ومسكين الى قوله لاسور ولا مركب وما نسبه الجنان وغيره لحفيد ابن رشد من اعطائها للعلماء ولو اغنياء وكذا سائر المصالح لا يجوز العمل به كما للشيخ التاودي وغيره ممن حشاه من المتاخرين واما ان عجز من حل بهم العدو عن دفعه فيتعين على كل من يقربهم اميرًا كان او غيره الاقرب فالاقرب ان يدافعه قال خليل وتعين بنجأ العدو وان على امراة وعلى من بقربهم ان عجزوا او خوطب بنفسه وماله قال تعالى جاهدوا باموالكم

وافسكم في سبيل الله ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة واما مكافآت النبي صلى الله عليه وسلم للشعراء والمهديين فمن جملة مكارمه وهي من الفيء والخمس تؤدى ففي تفسير ابن جزي لقوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه الآية ما نصه الخمس الى اجتهاد الامام ياخذ منه كفايته وفيه ايضاً ما نصه ما يؤخذ من الكفار منه ما يخمس ومنه ما يكون جميعه للامام ياخذ منه حاجته ويصرف سائره في مصالح المسلمين وهو الفيء الذي لم يوجف عليه واما الزكاة فلا يكف ارباب الاموال بغيرها واما الولاة فجميع ما زاد بايديهم على ما يعرف لهم من قبل فمن ولاهم ان يضيفه الى بيت المال ويصرفه في مصارفها واما هدايا من تحت حكم السلطان له فلا يجوز له قبولها لانها رشوة قال خليل في القرض وعدم هديته الى قوله وذي الجاه والقاضي وهو مضمون قول الباجي ونصه اذا كان المهدي تجري عليه احكام المهدى اليه فقال سحنون واشهب لاتقبل هديته مسلماً كان او كافراً ووجه ذلك ان هديته ريبة اذ ربما تكون لدفع مظلمة يجب دفعها او ترك حق لا يحل تركه ويؤيده ما اشرتم اليه من قول عمر بن عبد العزيز كما في البخاري في كتاب الهبة وقضيه ابن الاتبية المكررة في البخاري لما استعمله النبي صلى الله عليه وسلم فجاء بمال كثير وجعل يقول عند محاسبته هذا لكم وهذا أهدي الي فغضب صلى الله عليه وسلم وعاتبه وقال هلا قعد في بيت ابيه وامه فينظر ما يهدى له تدل على انها ترد الى بيت المال ان قبل كما لابن بطال انتهى كتبه اجهل عباد الله راداً العلم لمولاه عبد الهادي بن عبد الله الحسني وفقه الله في اول يوم من المحرم فاتح عام ستة وخمسين ومائتين والف

ذكر ما تكلم به الجنرال بيجو في المجلس الحربي في مدينة الجزائر

لما شاع ان الامير استنفر سائر اهل مملكته من حدود المغرب الاقصى الى حدود تونس الى الجهاد وامر باخذ كمال الاهبة والاستعداد لمحاربة العدو ومدافعته عن البلاد واتصل ذلك بحاكم الجزائر بيجو امتعض له لاسيما وقد رأى ان اهل الجزائر استولى على قلوبهم الرعب وخامرها الاضطراب نعقد مجلساً حربياً وتكلم فيه بما نقله عنه بالمار المؤرخ وهو قوله انني ايها القواد والرؤساء الانجاد قد كنت اظن ان للامير عبدالقادر جنوداً نظامية كافية لها خبرة بفنون الحرب واساليبه واقتداراً على مقاومة الجيوش الفرنساوية والان تحقق عندي ان الامر على خلاف ذلك وكنت اظن ان العرب ذوو

ضخامة وجسامة فتبين لي الآن انهم ليسوا كذلك غير اني لا انكر قوة بأسهم وشدة شوكتهم وصلابتهم في الجلاد ومقاومة الاضداد لكن هذا ما داموا في اوطانهم وما دامت املاكهم في ايديهم التي عليها مدار معاشهم فلاح لي من الراي الذي نتوصل به الى تفريق كلمتهم واخضاعهم للطاعة ان عساكرنا تتصدى اولاً الاستيلاء على بسائطهم التي فيها انجاع ماشيتهم التي يترزقون منها فان حصل هذا فلا شك في الفوز والنجاح ثم نضع الحاميات الكافية والمسلحات الوافية في الاماكن الصعبة في الطرق التي نمر فيها لنتمكن من اتباع آثار الفارين منهم المتوغلين في الداخلية ونضع جنوداً وافرة في الحدود لتمنعهم من الدخول الى الممالك المجاورة لبلاد الجزائر فاذا ضاق عليهم المجال واشتدت عليهم من كل جهة الفتن والاهوال فلا محالة انهم يلوذون بطاعتنا ومما ييسر علينا الوصول الى هذا ان اكثر رؤساء عساكرنا تعلموا اللغة العربية وصاروا ماهرين فيها عارفين بعوائد العرب واحوالهم او نستعمل هذا فنعين قسماً من الجند للمحافظة على الاماكن المهمة في سائر الجهات وقسماً آخر يقيم في التخوم لمنع الوارد والصادر عن البلاد كما يمنع من فرار اهلها الى الخارج عنها وباقي الجند نعده للهجوم والحرب واعلموا ان استعمال المحاربة بالنوع النظامي لا يجدينا نفعاً لان الخصم لا يعرف ذلك وانما نقابل العرب بما يقابلوننا به والمقصود الاهم هو ان جيوشنا تجعل همتها في استعمال ما تتلاشى به قوة الامير وتزعزع اركان دولته هذا ما ظهر لي من الرأي فانظروا ماذا ترون انتم فاجابوه ان ترتيب الحاميات في المراكز الصعبة لا نراه صواباً اذ ربما يوقعنا ذلك فيما هو ادهى وامر من تركنا اياها وذلك لاننا نخشى ان يحوجنا الحال الى تعيين قسم كبير من جيوشنا لحمايتها او لتخليصها من يد العرب ويبقى في ايدينا من الجيوش ما لا يفي بالمطلوب عند شبوب نار الحروب فالاولى الاضراب عن هذا الان فاستحسن بيجو رأيهم ثم اتفقت كلمتهم على ان ينهضوا بجيوشهم الجرارة الى المدن وبعد الاستيلاء عليها ينظرون فيما يلزم من المحافظة عليها ولما انتشر هذا الخبر حدث في المعسكر قلق وامتلأت قلوب الجنود رعباً لجهلهم بما يؤول اليه امرهم في داخلية البلاد وخافوا ان يقع بهم نظير ما وقع بمن تقدمهم من اخوانهم فيستولي عليهم التلف كما استولى عليهم مدة عشر سنين قال فاليوت في تاريخه كنت ذات يوم مع الحاكم بيجو في محل عالٍ فقلت له ايها المارشال انظر الى هذا المنظر البهيج فاجابني انه منظر جميل لاهل الجرنالات اما لامثالنا فلا ثم قال لي انظر الى تلك الحيطان السود الشمالية من البلد فلربما يكون هناك سجن العساكر الفرنساوية ومن الممكن ان يقاد الحاكم

يعني تنسه ذليلاً في بلاد حجوط وعندها كة واحدة تكفي في قتله الم تعلم يافاليوت ان حاكم الجزائر يحتاج الى سياسة قوية لان الامير عبد القادر خصم صنديد وقرم عنيد لا يخشى بطش الجيوش الفرنساوية ولا ينظرها بعين الاعتبار ثم ان فاليوت استطرد ذكر حكاية عن بعض الجنود في الجزائر نقل قد وقفت على رسالة لبعض افراد الجند الفرنساوي ارسلها الى والديه واخواته في فرنسا عندما شاع اتفاق المجلس الحربي على الحرب ونص الرسالة من مدينة الجزائر في الخامس والعشرين من شهر اذار سنة احدى واربعين وثمانمائة الى والديّ واخواتي اخبركم ان حياتي قد صارت في خطر وذلك اننا في هذا الوقت متوجهون من مدينة الجزائر الى المدية ومليانة ومن دون شك اننا نصادف في طريقنا اخطاراً ومهالك ولا ادري هل ارجع سالماً ام ذلك آخر العهد بالحياة الدنيا ولا يخفى ان الموت اقرب من السلامة ولكن يلزمنا الصبر وحيث ان احتمال الموت عندي اقرب فاعلموا انه يوجد عندي الفا وخمسمائة فرنك فاريد ان تعطوا عمي منها مائتين يستعين بها على عوزه وان لا تتركوا اولادي بدون البسة حسنة وما بقي من الدراهم فالوالدة تفعل بها ما تشاء واني اخبركم ان العرب فرسان مشهورون بالشجاعة والاقدام وحالنا معهم في الحرب ان رصاصهم يصبّ علينا كالمطر واما نحن فلا نقابلهم الا بالكل ليبعدوا عنا وان وقع في ايديهم جندي منا فانهم يعرضون عليه الاسلام فان قبل واجاب تركوه والا قتلوه وعندما نسير من محل الى آخر ناخذ ازوادنا معنا لانه لا يوجد في طرقنا فنادق ولا خانات وفراشنا وغطاؤنا ليس الا الكبوط لا غير فهذه حالنا في بلاد العرب وعلى كل حال فانا اودعكم وعيناي غريقتان في الدموع. قال بالمار لما اعتزم بيجو على الحرب اتخذ البغال والجمال لحمل الاثقال والذخائر والمدافع عوضاً عن العجلات وعرض العساكر فوجدها قد اكسبها تمرينها في المدة السابقة نشاطاً فحينئذ قوي عزمه واشتد حزمه وقال رأوا كذلك العرب قد تدربوا على الحرب وتمرنوا فزاد بذلك نشاطهم الغريزي المفطورون عليه

ذكر مسير الجنرال بيجو الى مليانة وهزيمته في رجوعه منها

وفي الخامس من ربيع الاول سنة سبع وخمسين وفي الثامن والعشرين من ابريل سنة احدى واربعين نهض الجنرال بيجو من الجزائر في جيش كثيف الى مليانه ثم انقلب راجعاً الى الجزائر على طريقه وكان الامير اعد فرقة من عساكره النظامية

قرب البلد واكمن له فرقة اخرى في الغابة قريبة من الفرقة الاولى فلما خرج العدو من البلد بادرته الفرقة الاولى بالقتال ولما حمل عليها استجرت له وارخت العنان امامه فلحقها الى ان وصل الى الغابة فخرج الكمين واشتد القتال وبيناهم كذلك اقبل الامير بباقي الجيوش الاسلامية وهجم على العدو من ورائه واختلطت العساكر بالعساكر وحمي الوطيس فانهزم بيجو بجيوشه ورجعوا الى مليانه تاركين القتلى والجرحى والذخائر التي كانت معهم في ايدي المسلمين قال رُوا وهذه اول وقعة وقعت بالمارشال بيجو في ولايته على الجزائر ورآسته على العساكر الفرنساوية ولاول تفويضه في امر الحرب مع الامير عبد القادر ثم قال ولما هجم الامير بالقسم الكبير من جيشه الذي كان معه على المارشال انبهر عقله ولم يسعه الا الفرار فساقته جيوش العرب والفرق النظامية قهراً عليه الى مليانه تاركاً قتلاه وما معه من الاثقال وهذه الوقعة نكلت العساكر الفرنساوية اشد النكال واوقعتهم في ورطة الوبال وكانت خسائرهم جسيمة ونوائبهم عظيمة انتهى ثم ان بيجو رجع الى الجزائر وقسم جيوشه على الثغور المهمة فعقد للجنرال بركوباي ديلي على الجهة الشرقية وللجنرال بارتسي على ما يلي الجزائر وتوجه بالقسم الاكبر الى مستغانم ومعه الدوك دومال واخوه الدوك دتيمور وضم الى جيشه جيش وهران وبعد اقامته اياماً في مستغانم نهض منها على طريق مجاهر قاصداً قلعة تاكدمت فامر الامير اهلها بالجلاء عنها وحمل ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن التي كانت فيها واتصل سير العدو مع اتصال القتال الى ان وصلها واستولى على سائر ما بقي فيها من السلاح وآلات المعامل ثم توجه منها الى العاصمة معسكر وكان اهلها خرجوا منها الى ضواحيها فاستولى عليها واقام فيها حرساً ثم رجع الى مستغانم وكان الامير صمد له في الجيوش عند مضيق عقبة خدّه ومضيق فرقوق فلما وصل بيجو الى اول مضيق منها انثال عليه المسلمون من كل جهة واحاطوا به من كل ناحية وانقدت نار الحرب بين الفريقين واتصلت من شروق الشمس الى مغيبها وكثر القتلى والجرحى من الجانبين وجرى في ذلك النهار ما يعجز عن وصفه القلم واللسان قال رُوا لما وصلت العساكر الفرنساوية الى مضيق عقبة خدّه وجدت فرسان العرب وحماتها ينتظرونهم فيه وانتشب القتال بين الفريقين واستمر الرمي بالرصاص والضرب بالسيوف والحراب ياخذ كل منهم حظه من النفوس من طلوع الشمس الى غروبها وكانت خسائر الطرفين جسيمة ففقد العرب الكثير من رؤساء عسكرهم واغواته كما ان بيجو فقد من العساكر الفرنسوية وقوادها عدداً كثيراً وعندما اذن الظلام باغماد سلاح الطرفين اخذ العرب يتفقدون

قتلاهم وجرحاهم واما بيجو فانه انتهز الفرصة وتسلل بجيوشه تحت ستر الظلام على حين غفلة من العرب الى ان تخلص من المضايق كلها وجدَّ في المسير الى ان لحق بمستغانم على اسوء حال و بالجملة ان هذه الوقعة من الوقائع المشهورة التي استمر ذكرها في محافل فرنسا ومجامعها

ذكر ما كتبه الامير عبد القادر الى المارشال بيجو

قال اسكندر بالمار بعد وقعة عقبة خدّه كتب الامير عبد القادر الى المارشال بيجو ما نصه . الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى المارشال بيجو . اما بعد فان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الارض ما يكفي رعاياها وارسلتكم لتغصبوا اراضينا و تبذلوا في ذلك نفوسكم واموالكم فنحن نتخلى لها عما هو في ايديها الآن من السواحل ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض وان ابت الا ان تستولى على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا في مدافعتها وحماية ارضنا منها الى ان يقضي الله بيننا وبينها بما شاء فان البلاد بلاده والعبيد عبيده ولا يخفى عليكم ايها الحاكم ان مهاجمتكم على بلادنا كما انها سبب لاتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن وهذا شيء لا يرضى به عاقل فضلاً عن فاضل ودولتكم تدعى انها او ل دولة في العالم تحب الانصاف وتستعمله و تحافظ على ميزان العدل وتحكم به ففعلها هذا يكذب دعواها و يبطل مدعاها وانتم وغيركم من رجالها نراكم دائماً تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذلون انفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها ولو كان عندكم ادنى نظر سديد ما وافقتموها على اتلاف جنودها في الحرب ومواسم الامراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي فياهل ترى باي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والاموال والكراع فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر او من تراب الاراضي التي اغتصبتموها فافعلوا واني اراك ايها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ظناً منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع اهل البلاد اليكم والحال ان هذا ليس بشيء عندهم فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الاطعمة والاشربة مثلكم بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم و يقيم اودهم كيفما كان على انه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية وما تاخذونه انتم من ذلك فهو جزء من جملة اجزاء ولا اراكم في هذا الامر الا كمن ملاء قدحه من

130

البحر معتقداً انه ينقصه وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون وفي سبيل اعتدائكم تمشون والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها فنحن اهلها من المهد الى اللحد وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيف شئنا واما انتم فقد بذلتم اموالكم وافنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف ومما علم من كتب التواريخ القديمة ان العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه فلا يخطر في بالكم انهم يضجرون منها او يتركونها من ذات انفسهم ما دامت الاقدار الالهية مساعدة لهم فان حكمت عليهم بغير ذلك فمن المعلوم ان الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى حرر في عاشر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وفي آخر يونيه سنة احدى واربعين وثمانمائة

ذكر مسير المارشال بيجو الى ولاية معسكر

بعد رجوع بيجو من وقعة عقبة خدّه الى مستغانم اخذ اهبته وخرج بجيوشه الى شمال ولاية معسكر وكانت قبائل اولاد خليف وصبح وامثالهم دانوا بطاعته عند مامر في بلادهم الى تاكدمت ثم توجه الى الجهة الجنوبية وانتهى في مسيره الى بلد سعيده وهذه البلدة اختطها الامير واسكن فيها مهاجري مستغانم ووهران ولما قاربها خرج اهلها الى النواحي فوجدها خالية فخربها ولاذ اهل تلك الجهات القريبة منها كاولاد ابرٰهيم والحساسنة والجعافرة بالطاعة وعدل الامير عن قتاله وسار غازياً على قبيلتي الدوائر والزمالة في ساحة وهران فصبحهم واكتسح اموالهم واثخن فيهم بالقتل والاسر ولما اتصل الخبر ببيجو امتعض لذلك وارتحل راجعاً من الجهة الجنوبية الى مستغانم ثم الى وهران وفي هذه الايام ارسل حضرة الاسقف دوبيش الى خليفة مليانه السيد محمد بن علال يستاذنه في الحضور عنده ليتوسط له في الاجتماع بالامير فاجابه الخليفة ان الامير في نواحي الصحراء على مسافة ايام متعددة منا فان كنت تكتفي بملاقاتي نيابة عن الامير فانا مستعد لقبول زيارتك فاجاب الاسقف الى ذلك وحضر عند الخليفة فاحتفل لملاقاته وبعد ان عزم على الرجوع الى الجزائر قدم اليه الخليفة فرسين من جياد خيله هدية على عادة امراء العرب مع ضيوفهم المعتبرين قدراً وشهرة وكان عنده من اسرى الفرنسيس نحو الخمسمائة اسير فاحضرهم بين يدي الاسقف بسلاحهم والبستهم ثم قال له حيث انه لم

يتيسر اجتماعكم بسيدنا الامير وكنت انا من جملة اتباعه وخدمه فعلى حسب استطاعتي
اجريت بعض ما يجب اجراؤه مع امثالكم وهوءلاء الاسرى من عساكركم بسلاحها
وامتعتها قد سمحنا باطلاقها تكرمة لكم تخذوها معكم ولو ساعد القدر واجتمعتم بسيدنا الامير
لكنتم شاهدتم من اكرامه ما تستقلون له اعال الملوك العظام ففرح الاسقف بذلك فرحاً
لا يعبر عنه قلم ولا لسان وانقلب بالاسرى الى الجزائر وكان يوم دخوله اليها بهم يوماً
مشهوداً فانظر الى هذه المعاملة الحسنة والمعاملة التي قابلها بها بيجو كعادته فانه بعد رجوعه
من غزوة بلد سعيده الى وهران كتب الى روءساء القبائل عدة رسائل يدعوهم الى طاعته
ويتهددهم ان ابوا ذلك عليه . وهذا نص جواب اولئك الروءساء عن احداها من كافة
الحشم الشراقة والغرابة ومن اليهم كبني شقران وبني غدو الى النصراني بيجو السلام على
من اتبع الهدى وثبت عليه قد وصلنا تحريرك وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا الى الطاعة
وتخبرنا انك عازم على ان تجعل بلادنا سعيدة مباركة واي سعادة احب الينا من سعادة
الجهاد وحماية البلاد وثباتنا امام اعدائنا ولو بدون تحاربة ولا طعان فان الله تعالى جعل
لنا ثوابا عظيماً اذا نحن اذقناهم مرارة الوبال ونكلناهم شديد النكال وكبدناهم انواع
المشقات والجاناهم الى التفريق والشتات واذا لم نتمكن من ذلك كله فمن بعضه فان لم
يتيسر لنا فيكفي الثبات في وجوههم وعلى قدر التعب يحصل الاجر وكونك تعدنا كعادتك
مع غيرنا بالفخر والمجد اذا نحن اطعناك والى مطلوبك اجبناك فهذا لا نسمعه ولا نلتفت
اليه بل نعده ضرباً من المحال والذين اطاعوك من اهل وطننا فانهم عندنا قوم لا دين لهم
ولا خلاق لهم بل لا يعرفون من الاسلام الا اسمه فلا نغتر بكلامهم فانما قادهم اليك
الطمع فيما عندك فباعوا لك دينهم بالذهب والفضة واما نحن فلا نبيع ديننا وانما نبيع انفسنا
الى الله تعالى الذي يشتريها منا بالجنة ومن الواجب عليك ان تنظر الى عظمة سيدنا الامير
كما ننظرها نحن فانه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير مدد ولا ذخائر
موءثلة ولا خزائن قائمة وافرة واما انتم فلا مزية لكم لان دولتكم قديمة من الف سنة تجمعت
الاموال الطائلة ودربت الجيوش الجرارة على الحروب فان هي غلبت الان فان اميرنا حديث
العهد بالملك ورعيته قد انهكتها الحروب الاهلية والاجنبية من مدة متطاولة فاي مزية
لدولتكم في تغلبها عليها والظاهر انك ايها الحاكم مسرور بكونك اخرجتنا من اوطاننا واحرقت
اغلالنا وارسلت لدولتك تبتهج بذلك ولو كنت من اهل النظر ما ظهر هذا منك نعم
لو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عدداً واستعداداً وفعلت بنا ما فعلت كان يحق لك ان
تبتهج بعملك وتفتخر به ولكن حيث انك جلبت الينا جيوشاً يزيد عددهم على عدد

نفوسنا وكراعينا وشجرنا وحجرنا فلا حق لك في سرورك لان من غلب بكثرة لا مزية له ولا فخر وانما المزية لمن غلب من يكافئه عدداً وعدداً او يكون اكثر منه ونحن لله الحمد مع قلة عددنا فقد وقفنا في صدوركم واذقناكم نكال الحرب ومرارة الجلاد والضرب مدة احد عشر عاماً من حين استيلائكم على مدينة الجزائر الى يومنا هذا ولا نزال بحوله تعالى وقوته على ذلك الى ان نغلب او نغلب ويهلك كبيرنا وصغيرنا وعلى كل حال فلا تتعب نفسك فانك لا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الارض كما هو في بالك لان ذلك انما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة موءثلة من كل شيء واما دولة قليلة العَدد والعُدد فلا مزية لمن غلبها ومما يتعجب منه كل العجب ان دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر وهل عاقل في العالم يفتخر بالظلم والاعتداء حاشا وكلا انما الفخر في تركهما وعدم التخلق بهما وجميع ما اتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا لوجود غيره عندنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عديدة فان نفدت فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب او المشرق مفتوحة وكما ان مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالموءن والذخائر فكذلك نحن عندنا الجمال تحمل الينا ما نحتاج اليه من القاصية ومن الواجب عليك ان تنظر فيما دخل في يدك من الذخائر والموءن في هذه المدة وما خرج منها فان وجدتها ناقصة فبادر الى ارسال ما يسد نقصها من حجر معسكر وتراب غريس الى دولتك وبذلك تجعلك محبوباً لديها كبيراً في عينها ولو احصيت ايها الحاكم قتلاك واسراك ثم قابلتهم بمن قتل منا واسر لظهر لك خسرانك وتحقق عندك نقصانك والمكافاة في الحرب وان كانت لا تقضي بالمزية لاحد الطرفين فانها تقضي لنا به نظراً لكثرتكم وقلتنا وكبر دولتكم وصغر دولتنا هذا جوابنا فاعلمه فاننا فصلناه تفصيلاً مفرطاً في الاسهاب والاكثار رجاء ان تفهم حرر في العشرين من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين والحادي عشر من حزيران سنة احدى واربعين

ونص جواب الرسالة الاخرى المؤرخة في التاسع والعشرين من ربيع الثاني والعشرين من حزيران من الحشم وغيرهم من القبائل المتمسكين بدينهم الاسلامي الوثيق العرى الى النصراني بيجو قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف واطلعنا عليه فوجدناك تطلب منا نص ما طلبته سابقاً غير مرة فتعجبنا من الحاحك واكثارك علينا في الطلب مع اننا بذلنا وسعنا في اقناعك فلم تسمع واوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسك بديننا وطاعتنا لاميرنا فلم تفهم ولو فهمت لعدلت عن الحاحك وتتابع طلبك وعلى كل حال فهذا آخر جواب ياتيك من طرفنا فليكن

مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله الينا وكيف نترك ديننا الذي هو اشرف الاديان وتخلى عن اميرنا الذي هو عندنا اعظم امير واشرف من يطاع هذا مما لا يقول به عاقل ولا يُعلق به افكاره آمل والذي حملك على الالحاح هو تصديقك لاولئك المتنصرة الذين يسارعون الى الدخول في طاعتك ولو كانوا مما يعتدُّ بهم في الديانة ما جحدوا نعمة الله عليهم بالاسلام واطاعوك ودخلوا تحت رايتك وانت عدوُّ دينهم ودنياهم والذي اخذ بنواصيهم وقادهم الى ذلك انما هو حب المال الذي يسرتم لهم طريق الطمع فيه ولم تعلموا انهم كما ازاغهم الشيطان وتركوا دينهم ورفضوا طاعة اميرهم كذلك يتركون دينكم وطاعتكم لان من كان بهذا السبيل لا يوثق به وانت لغرورك بهم وثقت بحالهم واتبعت اشارتهم وآراءهم وبالجملة فنحن في وطن واسع الاطراف ممتد القاصية لا نزال نتنقل فيه غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً وانتم تتبعون آثارنا فلا تدركون شأونا وغاية ما هنالك ان عساكركم تفنى جوعاً ومرضاً وذخائركم تنفد وكل ذلك من غير طائل فالاولى لكم ان تعمروا بلادكم التي نشأتم فيها ونشأ آباؤكم من اجيال متطاولة واما بلادنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة وهب انكم استوليتم عليها واقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم فانكم لا بد ان تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كأمس الذاهب والدهر هكذا واهب ناهب والظاهر انه يخطر في فكرك انك اذا استوليت على وطننا ان فرنسا تجعلك ملكاً تدين بطاعتك هيهات انما انت عسكري تعيش عسكرياً وتموت عسكرياً ولم تستفد شيئاً فانك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً والذين استهووك وغروك من العرب بطاعتهم لا يعبأ بهم اذا حضروا ولا يسئل عنهم اذا غابوا فاقوالهم ومواعيدهم انما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن مثلكم ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً وغاية امرهم ان الذي يؤملونه منكم لا يصلون اليه وانما يموتون كفاراً تحت رايتكم نسال الله العافية والحماية من ذلك ومن العجب انكم تعلمون اننا وان كنا خاضعين لاميرنا فاننا ما طلبنا الصلح معكم الا قهراً وامتثالاً لامره فكيف الان نميل اليكم ونرغب في طاعتكم ثم لا يخفى ان بلادنا تمتد غرباً الى حدود المغرب الاقصى وشرقاً الى حدود افريقية وشمالاً وجنوباً من البحر الى القفر وجميعها مع اتساع اقطارها في غاية الامن بالنسبة الينا فلا تظنوا انه يلحقنا ضرر منكم او يرهبنا وضع عسكركم في معسكر ومليانة والمدية فان الضرر والخسارة وامثالها في الحقيقة لا تعود الا على اولئك الجنود الذين لا نراهم لا اسرى في بلادنا اذ لا يأتيهم ما يقتاتون به الا بمشاق واتعاب يتلف فيها من اخوانهم عدد كثير ومن الذخائر اكثر

وملخص ما نقول اننا واياكم عبيد الله تعالى والارض ارضه والبلاد بلاده وهو الذي وطن فيها اباءنا فان ابقانا فيها فله الفضل والطول وان اخرجنا منها وجعلها في ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختار في فعله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . ثم ان بيجو بعد رجوعه من غريس الى مستغانم تفقد الجنود التي كانت قبله في الجزائر والتي حضرت معه وبعده فوجد التلف قد اتى على اكثرها فكتب الى دولته بذلك واستمدها فامدته بالعسكر والذخيرة واقام اربعة اشهر ياخذ في الاستعداد ويتاهب لتجديد الحروب وكان في هذه الفترة يكاتب القبائل والعشائر يدعوهم الى الطاعة ويعدهم ويمنيهم تارة ويتهددهم ويوعدهم اخرى ويبالغ في الطرفين ولما استكمل اهبته عقد مجلساً حربياً في وهران جلب اليه قواد الجيوش الفرنساوية من الجزائر وغيرها وفاوضهم في تعيين مدينة من المدن الداخلية يجعلها مركزاً للعساكر ومخزناً للذخائر فوقع اختيارهم على مدينة معسكر لخروج بسائر الجيوش اليها واتخذها مركزاً وبهذه الواسطة تيسر له الحمل على القبائل وادخالهم تحت السلطة الفرنساوية لان اهل الوطن لما رأوا ما نزل بهم من الجائحة التي لا دواء لها ولا سبيل لزوالها تحيروا في امرهم وسئموا من الفرار في الفيافي والقفار وهلكت ماشيتهم وفنى كراعهم وعلموا ان الامير لا قدرة عنده على حمايتهم والذب عن الوطن من سائر جهاته لا سيما وقد تهافتت قبائل البربر الذين ليس عندهم من الدين الاسلامي الا النطق باسمه على اداء طاعتهم للفرنسيس واكبوا على التقاط ما نثره لهم من الذهب والفضة ونالوا من احسانهم ما لم يكن لهم في حساب ولم يعلموا ان السم في ذلك الدسم فبذلوا نفوسهم في نصرة عدوهم واعلاء كلمته واعانوه على المسلمين المستمسكين بدينهم وطاعة اميرهم وكثروا عدده ودلوه على عورات المسلمين وارشدوه الى الطرق التي يتوصل بها للاستيلاء على الوطن وصاروا يكاتبون الناس في الجهات ويرغبونهم في اللحاق بهم والدخول في زمرتهم سبحانه لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه

ذكر مسير المارشال بيجو الى تلمسان

وفي الخامس عشر من ذي الحجة سنة سبع وخمسين والتاسع والعشرين من يناير سنة اثنتين واربعين خرج بيجو من معسكر بجيش كثيف الى تلمسان فطار الخبر الى الامير فامر باخلائها ونقل سائر المهمات الحربية منها فارتحل الناس ونقلت المهمات منها الا ما عسر حمله كآلات معمل المدافع وشبهها ودخلها العدوُّ اخبرني من يوثق به ان بعض اهالي تلمسان الذين بارحوها رجعوا اليها من الطريق ودخلوها ليلاً وقدموا

طاعتهم الى الجنرال واخبروه ان جيوش الامير قد سئمت الحرب ولانت قوتها وكان في عزمه ان يتركها ولما سمع ذلك عقد النية على الاقامة فيها والاستيلاء الدائم عليها وشرع في تحصينها خشية ان يسترجعها الامير منه واقام بها حكومة وسلم ادارتها للجنرال بادو من مشاهير قوادهم ثم ارتحل الامير من ضواحي تلمسان الى ندرومه وفيها اجتمعت عليه قبائل تراره وولهاصة ومن اليهم من قبائل الساحل في تلك الاطراف فاغزى خليفته السيد مصطفى بن التهامي على الدوائر والزمالة في ساحة وهران فاثخن فيهم وغنم غنائم كثيرة ثم سار الى مضيق الجيرة من بلاد الغرابة ومنها انتقل الى سيك واما الامير فانه استمر في نواحي تلمسان ينتظر الفرص الموافقة لحرب الجنرال ولما اتصل خبر الخليفة بنائب بيجو في معسكر ارسل سرية من جنده لتباغت الخليفة في موضعه من سيك فواصلت سيرها الى ان رأت مضارب العسكر ليلاً فتوقف قائدها عن الهجوم وبعد ان اخذ عسكره الراحة عدل عن الخيام ومر في طريق اخرى في حالة هدوء وسكون حتى لا يحس به العسكر الاسلامي وكان الحرس فطنوا بهم ولكن ظنوا انهم من اخوانهم المسلمين جاءوا نجدة لهم فلم يتعرضوا لهم بشيء ثم اقتفوا اثرهم ولما طلع الفجر وعرفوا انهم من العدو حملوا عليهم وطيروا الخبر الى الخليفة فركب في سائر الجيش ولحقوا بالعدو وعظم الامر واشتعلت نار الحرب واتصل ذلك من طلوع الفجر الى وقت الظهيرة فانهزم العدو واستولى المسلمون على سائر مدافعه وذخائره واثقاله ثم رجع الكرة عليهم فازاحهم عن موقفهم واسترد ما اخذوه منه وصمد العسكر النظامي الاسلامي وحافظوا على موقفهم ثم حملوا على العدو حملة رجل واحد واختلطوا به هبراً بالسيوف وطعناً بالحراب واستمر ذلك الى الغروب ومن الغد اصبح العسكر الفرنساوي سائراً الى وهران والمسلمون اخذ بهم التعب والاعياء ماخذهما فلم يلحقوه ثم انتقل الخليفة بعسكره النظامي ومن بقي معه من الجيوش المتطوعة الى الجبل المطل على سيك ولما استولى بيجو على تلمسان رجع الى الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصل بين بلاد الصحراء و بلاد التل فوصل الى قلعة سبدو و بعدها عن تلمسان نحو المرحلة وجرت بينه وبين قبائل تلك النواحي حروب كان الظفر فيها له ثم لاذوا بطاعته ومنها توجه الى قلعة سعيدة على مرحلتين من معسكر وقد كان خربها قبل فقدم الجعافرة والحساسنة واولاد ابراهيم واولاد خالد ومن اليهم مقاليد الطاعة اليه فافاض فيهم العطاء جلباً لغيرهم ومنها سار الى القيطنة فاحرقها وهي بلدة عائلتنا اختطها جدنا السيد مصطفى بن المختار سنة ست ومائتين والف لجهة الشمال من معسكر تبعد عنها بمرحلة قال

القبطان دي مونرون في تاريخه وكانت تلك البلدة مبنية بوسط وادٍ يانع بالازهار تندهش منه الابصار وكان لا يظن انه يوجد في اقصى افريقية ابنية محكمة البناء كابنيتها وفي هذه الايام خرج جيش من مدينة الجزائر قاصداً قبيلة بني مناد في نواحي شرشال فاوقع بهم ولما رات قبائل تلك الجهة ما حل بجيرانهم لاذوا بالطاعة قال مؤرخهم روا ولما توجه المارشال بيجو الى نواحي شلف ضرب خيامه على اطراف الجبال ملجأ القبائل التي كانت لم تزل تعكر كاس راحته وتناوشه الحرب وباداء طاعتهم له حصل الامن في سهول متيجه الى مدينة الجزائر نوعاً ما وصارت المواصلة بين المدية ومليانة وشرشال قليلة الخطر في بعض الاوقات انتهى واما الامير فانه سار بجنوده الى الجهات الصحراوية وسائر القبائل التي كانت قدمت طاعتها للعدو لاذت بطاعة الامير واعتذرت بالعجز وارتكاب اخف الضررين نعفا عنهم وانتظموا في سلك جنوده وضرب معسكره في معبر الاطاس وهو من المعاقل القديمة ومنه كان يغزو على العدو ومن دان بطاعته من العرب والبربر . يتابع شن الغارات عليهم و يذيقهم النكل ويجلب اليهم الويل والوبال ويبث السرايا والبعوث الى الجهات فانحازت المنتصرة الى ضواحي المدن وخلت البلاد من اهلها وانحصرت العمارة في الصحراء للمسلمين والسواحل وما قاربها للعدو قال بالمار ان الامير رأى ان من الواجب عليه ديانة ان يؤدب القبائل التي خرجت عن طاعته وانضمت تحت راية عدوه وقصد بذلك قمع علائق الفساد وحفظ الشعائر الدينية والمحاماة عن الوطن فصار يتابع الغزو والغارات عليهم ولكن ذلك لم يجد الامير نفعاً لان الناس توجهت قلوبهم لطاعة عدوه طلباً للراحة من مشقات الانتقال من موضع الى آخر وغزا بني عامر والغسل وتلك النواحي فصدوه واظهروا عداوته والمارشال بيجو وان كانت انتصاراته متتابعة فانه لم يثق بذلك لما هو معلوم من احوال العرب والبربر قديماً وعلاوة على ذلك فان فرسان الحشم الشراقة والغرابة المشهورين بالشجاعة واقتحام الشدائد لم يميلوا الى طاعته بل لم يفارقوا سيدهم واميرهم الذي بايعوه على الموت وارتحلوا باهليهم واولادهم معه وخيموا حيث خيم باهله واولاده وجنوده بمعبر الاطاس ولذا ترى ان المارشال كان دائماً يخشى الوقوع في محذورات لا خلاص له منها ولم تهدأ افكاره من اضطرابها ولا سيما انه رأى القبائل بعد ان بذلت طاعتها اليه راجعت طاعة سيدها لما رأته وهرعت الى اعتابه تطلب العفو وتعتذر بعجزها عن دفاع العدو الكثير الجنود فهذا الفعل وامثاله ادى المارشال الى الحكم بان

جميع مايراه من العرب من اظهار الطاعة والقتال معه انما هو من قبيل الامور الخيالية التي لا اساس لثبوتها فعقد في معسكر مجلساً حربياً وقال لهم ان الامير كما ترون قد نزل بجيوشه في جبال وانشريس قرب التل وسائر بلاد شلف ونهر مينه الجنوبية رجعت الى قبضة يده وجميع من يحاذيها من قبائل العرب والبربر لم تخرج عن طاعته فالاولى اننا نجمع جيوشنا ونخرج بها دفعة واحدة من الجزائر ومستغانم ووهران كل الى ما يليه الى الداخلية فاجابه اهل المجلس ان فصل الشتاء قد اقبل فلا نتمكن من مطلوبنا فقال اذاً يلزمكم ان ترتبوا الفرق الآن وبعد مضي الشتاء نجري ما يقع عليه اتفاقكم فاجابوه الى ذلك وقر قرارهم على ان سائر الجنود تنقسم الى ثلاثة اقسام قسم يكون تحت نظر المارشال بيجو ويكون مركزه في نواحي شلف والثاني تحت قيادة الجنرال شانكرني ويكون مركزه البليده والثالث تحت قيادة الجنرال لامورسير ويكون مركزه معسكر وفي اواخر الشتاء خرج كل قسم الى موقفه المعين له واخذ كل من القواد الثلاث يشن الغارات المتتابعة على ما يليه من القبائل فما نجح واحد منهم في عمله لان سائر الشعوب والقبائل تركوا اوطانهم وارتحلوا الى الصحراء كل الى ما يليه منها فاتبعتهم الجيوش الفرنساوية فلم تدرك لهم اثراً واستولى التعب والنصب عليهم والدبر والنقب على دوابهم ونفذت ذخائرهم ورجعوا الى مراكزهم من غير طائل واما الامير فانه كان كلما توجهت فرقة فرنساوية على جهة يخالفها الى جهة اخرى فيصيب من المنتصرة ولا تصيب الفرقة من المسلمين شيئاً وتوغل الجنرال لامورسير في الجنوب وشن الغارات على البسائط والجبال في نواحيها فخالفه الامير الى جهة معسكر فاكتسح مافي قرية البرج من الامتعة والاموال واستاق ماشيتها ثم اضرمها ناراً وسار على وجهه الى الجهة الشرقية فمر بجيوشه ليلاً على معسكر بيجو في شلف وشن الغارة على قبائل تلك النواحي نغنم واثخن في القتل والاسر والسبي وتوجه الى الجنوب فتعجب الفرنساويون من امره وسرعة سيره وبلوغه ما قصده من الخوارج في ايام قلائل متوالية وفي اثناء هذه الحوادث حدث بين دولتي فرانسا والانكليز نزاع في قضية تعلق بمدينة ارثاهيه احدى مدن الاوقيانوس فحسبها الامير فرصة يجب اغتنامها فارسل الى دولة الانكليز معتمداً من طرفه ليفاوضها في امره ولتمس منها ان تشغل عنه وجه الفرنسيس حتى يتمكن من مدافعتهم عن الوطن فاحس الفرنسيس بذلك وتلافوا امرهم مع الانكليز ثم ان الامير كتب الى الدولة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصل

اليه حال الوطن الذي هو جزء من ممالكها فلم ترد له جواباً وكتب الى صاحب مراكش يستدعيه للمشاركة في دفاع العدو لاتصال المغربين الاقصى والاوسط وقال ان اصبحت بلاد المغرب الاوسط في يد دولة فرانسا فكيف تامن على بلادك وما الذي يمنعها منها فتغافل عن الجواب وانتهت ايام سنة ثمان وخمسين ومائتين واثنتين واربعين وثمانمائة على ماذكرناه من الوقائع المتتابعة ثم ان الامير لما راى ان العدو قد استولى على المدن والقلاع ظهر له ان يتخذ عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب اثيرة فباشر في ترتيبها وفي اقرب مدة ظهرت للوجود على احسن الاساليب واجمل التراتيب وسمى ما يخصه منها الزماله وما يخص الاعيان والعامة بالدائرة وما يخص الجند بالمحلة واتخذ فيها جملة مضارب لمعامل السلاح واخرى لوضع المهمات الحربية ومثلها للذخائر واعد فسطاطاً واسعاً لاجتماع المجلس العام وآخر اتخذه مسجداً ورتب مضارب للباعة واهل السوق تضرب بعيدة عن الزمالة والدائرة وما يتعلق بهما فكانت تجبي اليها الذخائر وسائر ما يلزم الانسان وتقصد بالتجارة في صنوف البضائع وما تدعو الضرورة اليه من الحرف والصنائع وبالجملة فقد كانت الزمالة والدائرة ومتعلقاتهما على اتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كانها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة وابنية جليلة وكانت تعد مركزاً حربياً ومقراً مدنياً تشتمل على مائتي الف نفس وكان الامير يبث من هذه المدينة الرحالة غوازيه وبعوثه وفيها يستعد للحرب وكانت الجيوش الفرنساوية تتقيها وتحذر منها ولم تزل تزداد كمية واتساقاً وارتباطاً حتى صارت ملجاء عظيماً وحصناً امينا وقد عين لحراستها وحماية حوزتها اربعة قبائل من العرب وفرقة كثيرة العدد من العسكر انظامي فمن اطلع على هذه المدينة الرحالة وترتيبها عرف ما كان عليه الامير من الآراء المصيبة والتدابير العجيبة التي انفرد بها في وقته ولم يسمع فيما مضى بملك اتخذ عاصمة ملأت النجود والاغوار تتردد بين الحلول والاتحال والاقامة والانتقال وحيث ان الفاعل المختار في فعله قضى بان مصير كل شيء الى الزوال وانه لا وسيلة لبقائه ولا احتيال فلا عتاب ولا ملامة ولا تحسر ولا ندامة ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده

ذكر ما كتبه الامير جواباً عن سؤال قدمه اليه « بعض الاعيان من خواصه » .

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده وصلى الله على سيدنا محمد وآله ومن تبعه وجرى على منواله اللهم اني اعوذ بك من معضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ونضرع اليك يا مقلب القلوب ان تثبت قلوبنا على ديننا المحبوب اما بعد يا اخي فاني رأيتك متعطشاً الى سماع ما لائمنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدو فاحببت ان اذكر لك ما روي عنهم في ذلك ولولا اني رأيت شدة تعطشك وأوامك ما ذكرت لك شيئاً مما هنالك اذ ربما تفنى في نصيحة اولئك الجهلة باقي ايامك من غير طائل ويكون تعبك في علاجهم كتعب من رام اصلاح الفاسد او حياة الهالك . وهل يصلح العطار ما افسد الدهر

واعلم ان الراكن الى الكفار الداخل تحت ذمة اهل البوار احد رجلين اما رجل كذب الله في ضمانه لرزقه نعوذ بالله من كفره وحمقه وقال ان هاجرت مت جوعاً وازداد بذلك هلوعاً واعتقد ان وطنه هو رازقه لا ان الذي يرزقه هو موجده وخالقه ولما خطر هذا في قلوب جماعة من المؤمنين في زمانه صلى الله عليه وسلم بعد ان نزل قوله تعالى آمراً بالهجرة يا عبادي ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون انزل الله قوله وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم قال المفسرون في هذه الآية تحريض على الهجرة لان بعض المؤمنين فكر في الجوع والفقر اللذين يلحقانه في الهجرة وقال غربة في دار لا مال فيه ولا عقار ولا من يطعم الجار فضرب الله لهم المثل بحال الدواب التي لا تسعى في تحصيل قوت ولا تدخره واما رجل متكالب على الدنيا اصمه واعماه حبها يريد الظفر بها سواء كان ذلك بالاسلام او بالكفر وكلا هذين الرجلين لا يرجى صلاحهما ولا يؤمل نجاحهما ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ان الله لا يهدي من يضل وهذه الفتن جرت بها سنة الله التي قد خلت في عباده وحكمته الجارية في ارضه وبلاده ليتبين الصادق من المدعي ومن تحلى بحلية ليست له فضحته شواهد الامتحان الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم يعني

ان الله تعالى يختبر عباده و يمتحنهم حتى يتبين للناس الذي لم يتخذ وليًا ولا نصيرًا من دون الله ورسوله والمؤمنين من الذى يتخذ نعوذ بالله من المهالك ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين ولعل هذا هو الزمان الذي اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تاتي في آخر الزمان فتن يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا الا من اجاره الله بالعلم وفي رواية بعلمه ولقد ظهر في اهل هذا الزمان مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى يارسول الله قال فمن رواه البخاري في صحيحه لان اهل هذا الوقت كانوا يطلبون الجهاد ويتمنون مجيء النصارى فلما ظهر الجهاد نكصوا على اعقابهم فهم في هذا كبني اسرائيل اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب ثم بعد هذا ارادوا من سلطانهم ان يجاهد وحده و يتكفل بردع العدو ويعرفه حده فهم في هذا كبني اسرائيل ايضًا اذ قالوا لموسى عليه السلام اذهب انت و ربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ثم بعد هذا صاروا ردءًا للكفار ومعينين لهم بالانفس والاموال على من بقي مستمسكًا بعروة الاسلام واعظم هؤلاء ذنبًا واشدهم هلاكًا وابعدهم نجاة واكثرهم في الامر سقوطًا رجلان احدهما رجل عرف الحق وعاند وهو اول من تسعر به النار اذ هو عالم لم ينفعه الله بعلمه وجحد الحق مع معرفته به انه حق وهذا اصل من اصول الكفر الستة ومنه كفر الموجودين في زمانه صلى الله عليه وسلم المشاهدين لمعجزاته قال تعالى فيهم انهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وهذا اعظم الضلال واداء الضلال اضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فبعد الختم لاترجى زيادة ولا نقصان في الشيء المختوم عليه والآخر رجل قرأ بعض ابواب الفقه نعلم بعض احكام الصلاة والنكاح والبيوع فظن انه وصل الى غاية استحق ان يسمى بها عالمًا فصار يقول في دين الله ما ليس له به علم و يفتري على الله الكذب ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته انه لايفلح الظالمون و يستدل بآيات واحاديث وكلام الائمة وهو مع هذا لايحسن النطق والتلفظ بمبانيها فكيف

له الغوص على معانيها فالحمار احسن حالاً من هذا اذ جهل الحمار بسيط وجهل هذا مركب

قال حمار الحكيم توما لو انصف الدهر كنت اركب
لان جهلي جهل بسيط وصاحبي جهله مركب

والجهل المركب اصل من اصول الكفر السنة فجميع هذا الصنف مع قبح ما هم عليه من الدخول تحت ذمة الكفر استحلوا ما حرم الله من ذلك والمستحل لما حرم الله كافر وخرقوا الاجماع فان الاجماع منعقد على وجوب الهجرة ومخالف الاجماع كافر وجعلوا ماورد في القرآن والسنة من ذكر الهجرة ومدحها والامر بها عبثاً ومنسوخاً وذلك باب لميلهم واقوالهم الكاذبة كيف والقرآن مملوء بذكر الهجرة ومدحها وذم تاركها وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وقال عليه الصلاة والسلام انا بريء من كل مسلم مقيم بين اظهر الكافرين رواه اصحاب الصحيح ما عدا البخاري وقال آخر وهو ممن بلغ رتبة الاجتهاد الحافظ السيوطي في حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة لما ساق هذا الحديث ما تبرأ منهم صلى الله عليه وسلم الا لكفرهم وفي الصحيح من جامعهم او ساكنهم فهو منهم قالوا لم يارسول الله قال الا تتراءا نارهما وقال مالك رضى الله عنه تجب الهجرة من ارض الظلم والعدوان فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن وتعبد من دونه الاوثان وقال تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها قال ابو السعود في الآية دليل على انه لا عذر في ترك الهجرة الا عدم اتساع الارض وقد وسعها الله ولو كان هناك عذر يقبل في ترك الهجرة ما كان في الآية تبكيت لتاركيها اذ ربما يعتذرون بعذر آخر فلما ذكر الله اتساع الارض دل على انه لا عذر غيره وقال الونشريسي في كتابه المعيار الواجب الفرار من دار غلب عليه الشرك والخسران الى دار الامن والايمان ولذلك قوبلوا بالجواب عند الاعتذار الم تكن ارض الله واسعة فلا عذر للمستطيع بوجه وان كان بمشقة في العمل او الحيلة او اكتساب الرزق في ضيق المعيشة الا المستضعف رأساً الذي لا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلاً وعجز المسلم عن حمل اهل بيته وولده لا يبيح له التخلف عن الهجرة بل يهاجر بنفسه وقد هاجر صلى الله عليه وسلم لما تعذر عليه اخراج اهله معه ولحقوا به الا بعد حين وكذا ان خاف ان هاجر يسلب ماله فان مفارقة الوطن او سلب المال

ليس بعذر في ترك الهجرة نص على ذلك صاحب المعيار وقد ذكر اهل الاحوال
ان الضرورات التي تجب المحافظة عليها خمسة الدين والنفس والعقل والنسب والمال
فكل واحد من هذه يجب حفظه مالم يعارضه حفظ ماقبله فالمال هو آخر المراتب
والدين اولها فهو مقدم على غيره وكذا تجب الهجرة على المرأة اذ لم يهاجر زوجها
وقد هاجر كثير من المسلمات الى الحبشة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة
واليها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم وفيهن انزل الله تعالى قوله يا ايها الذين
آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الآية ولم يعذر الله تعالى في
المقام تحت ذمة الكافر الا الذي لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً كالاعمى
الذي لا يجد قائداً والزمن الذي لايجد حاملاً مع نيتهما انهما متى وجدا ذلك
هاجرا فان تركا النية وماتا ماتا على غير سبيل المؤمنين نص على ذلك غير واحد
والكتاب العزيز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحذر من
مخالطة الكفار وموالاتهم ومواددتهم قال تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا
عدوّي وعدوّكم اولياء تلقون اليهم بالمودة الى قوله ومن يفعله منكم فقد
ضل سواء السبيل وقال انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم
وظاهروا على اخراجكم ان تولّوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون وقال بشر المنافقين بان
لهم عذاباً اليماً الى قوله فان العزة لله جميعا فبين الله تعالى مراده في المنافقين في الآية
بقوله الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المومنين فالذي يتخذ الكافر وليا منافق
الى غير ذلك من الآيات والاحاديث القاطعة الصريحة الصحيحة التي لا تحتمل تاويلاً
وقد ذكر صاحب المعيار في باب الجهاد ان هؤلاء المقيمين تحت ذمة النصارى لا تصح
لهم صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد بوجه من الوجوه فانظره فانه قد طال عهدي به
ومما ذكره ان الزكاة شرطها ان تدفع الامام يعني سلطان المسلمين فاذا دفعها للنصارى
لينفقوا بها على المسلمين كانت المصيبة اشد ومنها ان شهر رمضان في الغالب لا يثبت
الا بروءية عدلين ابتداء وانتهاء والعدالة انما تثبت عند الامام وقاضيه وحيث انه لا امام
ولا قاضي فيكون رمضان مشكوك الاول والآخر الى غير ذلك من الوجوه ولا تجوز شهادة
المقيمين تحت ذمة النصارى الا من له عذر مقبول شرعاً ولا تنفذ احكام قضاتهم قال
بعض العلماء هم اشد من اهل الاهواء وقد ردت شهادتهم واحكامهم قال ابن عرفة شرط
قبول خطاب القاضي صحة ولاية ممن تصح توليته بوجه الشرع احترازاً من اهل الدجن
كقضاة مسلمي بلنسيه ومرسيه وقوصره من الاندلس ومرادهم بالدجن المسلمون الداخلون

تحت ذمة النصارى واهل الجزائر يسمونهم المنافقين وسئل المازري عن احكام تاتي من صقليه من عند قاضيها فاجاب القادح في هذا وجهان الاول من جهة القاضي من حيث العدالة فلا يباح له المقام في دار الحرب في قيد اهل الكفر والثاني من جهة الولاية اذ القاضي مولى من قبل اهل الكفر ومن كان هذا حاله فلا يعتبر حكمه في الشرع وقد بلغني عن هؤلاء الرؤساء الجهال الذين افتوا بغير علم فضلوا واضلوا المعنيين بقوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ياتي على الناس زمان عالمهم انتن من جيفة حمار انهم يتدلون بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره ولا حجة لهم فيه لان النبي صلى الله عليه وسلم قاله لسائل ساله عن الهجرة من مكة الى المدينة بعد الفتح فاجابه بان الهجرة التي كانت واجبة من مكة الى المدينة قد انقطعت بالفتح ونسخت كما نسخت حرمة رجوع المهاجر الى وطنه اذا عاد دار اسلام واما وجوب الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام فهو باق الى طلوع الشمس من مغربها قال ابن العربي الهجرة اقسام منها الهجرة من الخوف على الدين والنفس كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهجرة اصحابه المكيين فانها كانت عليهم فريضة ولا يجزى ايمان بدونها ومنها الهجرة الى النبي صلى الله عليه وسلم في داره التي استقر فيها فقد بايع صلي الله غليه وسلم من قصده على الهجرة كما بايع آخرين على الاسلام وهاتان الهجرتان انقطعتا بفتح مكة واما الهجرة من ارض الكفر فهي باقية الى يوم القيامة وكذا الهجرة من ارض الباطل والحرام والهجرة من ارض الفتنة وروى اشهب عن مالك لا يقيم احد في موضع يعمل فيه بغير الحق وقال البرزالي في بعض اجوبته الاجماع على وجوب الهجرة ان وجد المسلم اليها سبيلا وكذا يستدلون بقوله تعالى الا ان تتقوا منهم تقاة وهذه الآية منسوخة روى البخاري في صحيحه من كتاب التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لا تقية اليوم لاتساع البلاد الاسلامية وكذا يستدلون بقوله تعالى الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان والآية انما وردت فيمن يظفر به الكافر من غير اختيار كالاسير فاذا حملوه على معصية او نطق بكفر يسوغ له ذلك لخوف القتل والصبر اجمل ما كونه متمكنا من الفرار ويبقى تحت حكمهم فلم يقل به مسلم وكذا يستدلون بما ذكره البيضاوي في تفسير قوله تعالى قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فانه قال في الآية دليل على جواز التولية على يد الكافر ولا حجة لهم في هذا فان البيضاوي قال بعد هذا اذا علم انه لا سبيل الى اقامة الحق وسياسة الخلق الا بالاستظهار به وهذا الشرط معدوم اليوم وقد قال غير واحد ان الملك كان اسلم قبل ذلك على انه انما يكون ما ذكره البيضاوي على تقدير صحته فيمن كان

137

تحت اسرهم فانه يجوز له ان يطلب منهم ذلك في التولية اذ بعض الشر اهون من بعض
و يوسف عليه السلام جده الخليل عليه السلام وهو اول من سن الهجرة . قال الله تعالى
حاكيًا عنه وقال اني مهاجر الى ربي ومعه سارا فدخل قرية فيها جبار من الجبابرة
الحديث بطوله وكذلك يستدلون بما نقل عن النووى والرافعي ان المسلم اذا كانت له
عشيرة تحميه او له جاه لا تجب عليه الهجرة ولكن تستحب في حقه نقل ذلك ابن النحاس
في مشارع الاشواق الى مصارع العشاق وهذا ايضاً لا دليل فيه لان كلام النووي
والرافعي فيمن كان كافرًا في دار الحرب ثم اسلم وكان لا يخاف الفتنة في دينه لحماية
عشيرته وتوفر عصابته او جاهه بحيث لو اراد الكفار ذلك لا يقدرون فيأمن لذلك من
الفتنة وقد وقع من هذا النمط كثير في الصدر الاول كما ذكر ذلك اهل السير
والاخباريون اما من كان مسلماً في دار الاسلام ودخل عليه الكفار بالقهر والغلبة
فلا يتصور ان تكون له عشيرة تحميه او جاه يامن بهما من الفتنة في دينه مهما ارادها
الكفار منه وهل يوجد واحد من هذه الشعوب والقبائل الداخلة تحت ذمة الكفار من
له عشيرة تحميه من الكفار اذا ارادوا اجراء حكم من الاحكام عليه او يامن الفتنة
بواحد من هذين الوجهين اللذين ذكرهما الرافعي والنووى اللهم الا ان يكون احمق ضعيف
العقل والايمان فيامنهم ويثق بعهودهم ومواثيقهم وان الشارع الحكيم لا يقبل شهادتهم
واقوالهم بالاضافة الينا وكان هذا الاحمق لم يصل اليه خبر الاندلس خصوصاً اهل قرطبة
فانهم تعاقدوا مع الكافر لما غلبهم على نيف وستين شرطاً اشترطوها عليه فلم يحل الحول
عليها حتى نقضوها عروة عروة وآخر الامر صار الكافر ياتي الى المسلم يقول له ان جدك
او جد ابيك واباك او جدك كان كافرًا فارجع الى الكفر الذي كان عليه جدك واترك
دين الاسلام الى غير ذلك فالنصارى لا يوفون بعهد الا اذا كانت كلمة الاسلام هي
العليا وشوكته قائمة كيف والله تعالى يقول لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان
استطاعوا وقال كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاًّ ولا ذمة والالُّ القرابة واولئك
هم المعتدون اي المتجاوزون اي لا يقفون عند شرط ولا عهد ومن شنيع حمق هؤلاء
وضعف عقولهم ومرض ايمانهم انهم يسمون طاعتهم للكافر مهادنة وهل يسوغ لمن له
ادنى عقل وتمييز ان يتلفظ بهذا كيف واحكام الكافر وشرائعه وتصرفاته جارية على
شريفهم ووضيعهم ويؤدون اليه المغارم ويحملون اثقاله اذا اراد الغزو على المسلمين
ويقاتلونهم معه في جملة عساكره وجيوشه هذا والله الهذيان الذي لا يعقل على ان
المهادنة خاصة بالامام او نائبه فلا يعقدها سواهما قال خليل والامام المهادنة يعني لا لغيره

فقدم الخبر مع جره بالام وكلاهما يفيد الحصر والاختصاص واعلم ان هذه المصيبة التى هي ظهور الكفار على المسلمين حتي دخلوا تحت ذمتهم لم تكن في القرن الاول ولا في الثاني ولا في الثالث ولا في الرابع وانما حدثت في الخامس وبعده ولذا لم يوجد فيها قول ولا نص لواحد من الائمة رضى الله عنهم ولما حدثت ووقع السوءال عنها قاسها ساداتنا اهل النظر والاجتهاد المذهبي على مسئلة من اسلم ولم يهاجر قال ابن رشد وهو قياس صحيح وقد اختلف الائمة فيمن اسلم ولم يهاجر واقام تحت ذمة الكفار من غير ان تحصل منه اعانة لهم لا بالنفس ولا بالمال اما ان اعانهم بماله طوعا او كرهاً بان اخذوه منه مغرماً او بايعهم او شاراهم ولو في اقل شيء فقال القاضي ابن الحاج التجيبي الاندلسي من القواعد ان الاعانة بالمال تبيح المال والاعانة بالنفس تبيح النفس وقال الامام المغيلي في كتاب له سماه مصابيح الفلاح ان هوءلاء الموءمنين يعني الذين طلبوا الامان من الكفار وامنوهم واقاموا تحت ذمتهم ودانوا بطاعتهم توءخذ اموالهم و يقتلون ولو كانوا يقروءن القرآن وقال ابن القاسم واصبغ في مال المسلم المقيم في دار الحرب انه مباح وانه لايد لصاحبه وانما اليد للكافر وقد حرره في هذه المسئلة الامام ابن عباد شارح الحكم في جواب له ونصه حال المتنصرة على حسب فرقهم فان منهم من يلجأ لحصون العدو ليدافع بها عن نفسه ومنهم من يكون معينا له بنفسه وماله بمعنى انهم يقاتلون مع العدو ويدافعون عنه ويغيرون على المسلمين فهوءلاء اشد ضرراً على المسلمين وحكمهم حكم اهل دار الحرب في قتلهم وسلب مالهم واما اولادهم فلا يقتلون ولا يكونون فيأ وانما ابيح قتل البالغين لكونهم ردءًا للعدو الحربي معينين لهم بانفسهم وحكم الردء اذا لم يقاتل مع العدو حكم المقاتل فاحرى اذا قاتل قال بعض المحققين من علماء تونس في جواب عن اهل حصن كانوا ردءا للكافرين المحاربين ما نصه وقول هرقل لو كنت ارجو ان اخلص اليه لتجشمت لقيه يعني دون خلع من ملكه وهذا التجشم هو الهجرة وكانت فرضاً على كل مسلم قبل فتح مكة فان قيل ان النجاشي لم يهاجر قبل فتح مكة وهو موءمن فكيف سقط عنه فرض الهجرة قلنا انه هو في مملكة اغنى عن الله ورسوله وعن جماعة المسلمين منه لو هاجر بنفسه فرداً لان اول غنائه انه حبس الحبشة كلهم عن مقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم مع طوائف الكفار هذا مع انه كان ملجاء لمن اوذى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردءا لجماعة المسلمين وحكم الردء في جميع الاحوال حكم من كان ردأ له وكذلك ردء اللصوص والمحاربين عند مالك والكوفيين يقتل بقتلهم ويجب عليه ما يجب عليهم وان كانوا لم يحضروا الفعل ومثله في المساواة تحالف عثمان وطلحة وسعد بن زيد رضى الله عنهم

عن بدر وضرب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بسهامهم من غنيمة بدر قالوا واجرنا يارسول الله قال واجركم انتهى فانظر قوله وحكم الردء الى آخر كلامه ففيه الكفاية في تبين ما يجب العمل به ومنه تعلم ان من يدخل تحت جوارهم وامانهم من غير اعانة لهم بنفسه ولا بماله وانه لم يكن لهم عيناً ولا ردءاً دونهم لا يباح قتله وانما هو عاص لا يباح ما عصمه الاسلام من دمه وماله وانما يباح سلب مال من يكون معيناً للعدوّ به على قتال المسلمين ومقاومتهم ومناهضتهم وقد افتى العلماء باباحة اخذ مال قوم كانوا بقرب حصن العدوّ وهم قادرون على منازلته بذلك المال ولم يفعلوا فجوزوا للقيام بالحق المتعين ان ياخذ الامام القدر الزائد على كفايتهم ويصرفه في منازلة ذلك الحصن لا سيما اذا علم انهم ينفعونه ويعينونه به مثل هؤلاء الذين نتكلم في امرهم وانما لم يبح قتل اولادهم ولا سبي نسائهم فلعدم تعلق الاثم بهم لصغر الاولاد وضعف النساء واصالة اسلامهم بخلاف الحربي اذا اسلم واقام بدار الحرب حتى اخذ فولده وماله فيء مطلقاً ولا يقاس المسلم بالاصالة عليه خلافاً لابن الحاج هذا هو التحقيق في هذه المسئلة ومنهم من لجأ للمسلمين وصار يقاتل العدو معهم وهو مع ذلك يعين العدو خفية ويعلمه باحوال المسلمين ويطلعه على عوراتهم وكذلك ان اطلعهم على كتب يكتبونها فان حكم هؤلاء حكم الزنادقة ان اطلع عليهم قتلوا ولا فامرهم الى الله انتهى كلام ابن عباد وقال القاضي ابن الحاج الارجح سبي ذراري هؤلاء ليعيشوا في دار الاسلام آمنين من الفتنة في الدين يعني لا ليملكوا واما الذين يتجيشون بالكفار ويطلبون منهم الغزو على المسلمين فهم مرتدون قال البرزلي في نوازله احفظ ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين استفتي علماء العدوة في المعتمد بن عباد فاتفقت فتياهم على ان مجرد الاستجاشة على المسلمين بالكفار ردة مقصودهم بذلك ولو لم يحصل المطلوب والمعتمد ابن عباد هذا كان من ملوك الاندلس واستجاش بالطاغية على يوسف المذكور ونصر الله المسلمين فظفر به يوسف وقال بعض شراح رسالة ابن ابي زيد القيرواني الفرار من دار الاسلام الى دار الحرب ردة وقال الحطاب في باب الردة ادخال السرور على الكفار ردة ولا يخفى على كل مميز ما يدخل على الكافر من السرور عند دخول من يدخل تحت ذمته قال الاجهري في حاشيته على المختصر جعل البرنيطة على الرأس ردة وهؤلاء المتعبدون بالنصارى الداخلون تحت ذمتهم يحبون نصرة الكفار على المسلمين الذين يغيرون عليهم ويفرحون بذلك كلهم رجالاً ونساءً وهذه ردة

نسأل الله السلامة والمرأة اذا ارتدت قال كثير من الفقهاء تقتل كالرجل وقال اشهب تسترق ولا تقتل نقله التلمساني في حاشيته على الشفا لعياض قال القاضي ابو بكر ابن العربي ومنشأ الخلاف في ذلك ان قتل الكافر هل هو لكفره او لحرابته فاما من قال لكفره قال تقتل المرأة واما من قال لحرابته قال لاتقتل لانها لاتحارب واذا تاب احد ممن ارتد والعياذ بالله فالمشهور ان ماله يرد عليه ونقل ابن عرفة في مختصره عن ابن شعبان انه لا يرد عليه بل يبقى فيئاً كما كان في حال ارتداده كما افتى به بعض العلماء ففي سبي نسائهم وذراريهم خلاف فالذي ذهب اليه كثير من الفقهاء انه لاسبي في نسائهم وذراريهم والذي ذهب اليه خليل حيث قال وان ارتد جماعة وحاربوا فكالزنديق يعني يقتل ولا تسبى امراته ولاولده وقال ابن وهب من المالكية وجمهور الشافعية المرتد يسبى كالكافر الاصلي وهو حكم ابي بكر الصديق رضى الله عنه في اهل الردة فانه حكم بسبيهم واعطى علياً بن ابى طالب رضي الله عنه ام محمد ابن الحنفية وكانت سبيت يوم حرب اهلها بني حنيفة وقتل مسيلمة الكذاب ووطئها على رضى الله عنه بملك اليمين قال ابن حجر في شرح الاربعين قول ابن بطال الاجماع على ان المرتد لا يسبى منقوض بما ذهب اليه ابن وهب من المالكية وبما ذهب اليه جمهور الشافعية وخالف عمر بن الخطاب ابا بكر رضي الله عنهما فانه اطلق سراح المرتدين بعد موت ابي بكر رضي الله عنه وقد كانوا في اسره وقال بعض العلماء كما نقله الشيخ سالم لاخلاف بين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما في سبي المرتدين اذ الامام مخير بين الاسترقاق والمنّ فابو بكر رضي الله عنه اختار استرقاقهم وعمر رضي الله عنه منّ عليهم ولا تناقض في ذلك واذا قتل الغزاة نساء هولاء المتنصرة الذين تحت ذمة النصارى وصبيانهم فلا حرج على قاتلهم ولا اثم وقد عقد البخاري لذلك باباً في صحيحه قال باب اهل دار الحرب يسبون وفيهم النساء والصبيان ثم ساق الحديث على انه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال هم منهم وذكر في آخر الباب لا حمي الا لله ولرسوله انتهى المقصود بحمد الله وحسن عونه من جواب سؤال المحبين قطعاً لشبه المرتدين ونحن في الثغر مرابطون ولا كتب عندنا ولا مواد وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائتين والف من هجرة حائز الفخر والشرف صلى الله عليه وسلم وعندما تغلب العدو على الجهة الغربية من الوطن هاجر اخوان الامير الى المغرب الاقصى وبقي الامير باهله وجيوشه في الجهة الشرقية لمدافعة العدو ولما طالت المدة كتب الامير الى

اخوانه يتشوق اليهم وذكرهم باسمائهم فقال

يا سواد العين يا روح الجسد　　يا ربيع القلب يا نعم السند
كنت لي قرة عين وبها　　راح قلبي لا بمال وولد
فرمى الدهر بعيني اسهماً　　مذ نأيتم لا ارى فيها احد
ايروق الطرف شيء بعدكم　　لا ورب البيت في هزل وجد
مذ ترحلتم اذبتم مهجتي　　ودموعي فائضات من كمد
قد فني صبري ولم يفن الجوى　　ما اراه فانياً حتى الابد
وانزوى ما كان رطباً يانعاً　　ووهى العظم ولم يبق الجلد
مذ تواريتم توارى فرحي　　ما يسر القلب في اخذ ورد
فحياتي بعدكم مذ غبتم　　من مجاز مرسل عندي يعد
طال ليلي يا احبائي ولا　　يعلم الحال سوى الفرد الصمد
كم انادي حين يبدو صبحه　　يا سعيد هل خيال لي يرد
فترد الروح للجسم ويا　　مصطفى هل من دواء للكمد
شاقني حب حسين شاقني　　ما لحكم الله في الخلق مرد
هل يجود الدهر من بعد النوى　　باقتراب يحيى ميتاً لم يعد
فاذا لي تم ما املته　　عاد انساني وروحي للجسد
يا ذوي القربى قريباً من اب　　انتم ذخري وكنزي والسند
لي كونوا مثل ما كان الاولى　　سلفوا لي اهل سعي لا يرد
فاذا ما اقبلت فلتبذلوا　　واذا ما ادبرت فارضوا بود
وعليكم من سلام صيب　　طيب يترى الى غير امد
يشمل الاحباب انى قد ثووا　　كل حب لي هو الصنو الاود

ذكر دخول الامير الى ارض متيجة الغربية
« وانتصاره على القبائل المتنصرة هناك »

وفي المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين الموافق سنة اثنين واربعين وثمانمائة توجه الامير وخليفتاه السيد محمد بن علال والسيد محمد البركاني في ثلاثة آلاف من العسكر المنظم وعدد كثير من المتطوعة واحتل بوادي شلف ثم تجاوز جبال مليانه الى ارض متيجة وبث البعوث في جهاتها وشن الغارات على نواحيها وحصلت بين المسلمين والمتنصرة

وقائع عظيمة ثم لاذوا بالطاعة فقبلها الامير منهم وعفا عنهم وردّ اليهم ما غنمه المسلمون منهم واستولى الخوف والرعب على العدو وطار الخبر الى الجنرال شانكرني في الجزائر فخرج في جيوشه الى سهل متيجة الشرقي ومن هناك توجه الى ثنية الحد وواد الزيتون وقوى حاميتها بالجند والذخيرة وكان الامير لاول دخوله اراضي متيجة الغربية اضرم سائر الابنية الفرنساوية نارًا وقتل من الفرنسيس عددًا كثيرًا وسبى نساءهم وذراريهم فامتعض لذلك الفرنساويون وسرى الخوف في قلوب المتنصرة فحملهم على التوبة والندم واظهر الكثير منهم خضوعهم الى الامير ونصحوا له واجتهدوا في اصلاح ما كانوا افسدوه طلبًا لرضاه وعفوه عنهم قال رُوا في تاريخه ان الامير عبد القادر كان لا يملّ من التعب ولا يكلّ من الحرب ومشقاتها وكان يشاهد انتصارات فرانسا ولا يشاهد نفسه مغلوبًا لها وبعظيم حكمته وكمال فطنته استمال قلوب الكثير من القبائل رغبة ورهبة فانضموا اليه وصاروا في جيوشه وقال شرشل لما رأى الفرنساويون ما اجراه الامير في نواحي شرشال من ارض متيجة مما كان سببًا في رجوع القبائل الى طاعته وشاهدوا انقياد الناس اليه وبذل نفوسهم دونه في اقرب مدة بادروا بارسال بذر الذهب والفضة رشوة لاكابر القبائل كي يستميلوا بذلك قلوبهم ويردوهم الى ما كانوا عليه من الانقياد اليهم وتارة يتهددونهم فلم يجدهم ذلك نفعًا ولم يصغ لهم احد بل عكفوا على طاعة اميرهم وحافظوا على اموالهم واوطانهم ولم تزل غزوات الامير متتابعة وفرسانه الى قهر الاعداء متسابقة الى اول ايار ثم رجع بقوته الى الجهة الغربية

ذكر ما اجراه الجنرال بيجو لمنع دخول الامير الى نواحي الجزائر

ولما اتصل بالحاكم بيجو ما اجراه الامير في بلاد متيجة وتحقق وقائعه فيها مع المتنصرة وما امعن فيه من قتل الفرنسيس وسبي نسائهم وذراريهم وحرق محلاتهم في تلك الجهات خرج من الجزائر بجميع الجيوش التي كانت فيها الى وادي شلف وقسم العساكر ثلاثة اقسام قسم عقد عليه لابن الملك الدوك دومال والثاني عقد عليه للجنرال لامورسير والثالث ابقاه تحت نظره وامر ابن الملك ولامورسير بالسير الى الامير اينما كان ثم توجه بمن معه من العسكر الى بلاد متيجة الغربية واجرى مع القبائل ما حملهم على رجوعهم الى طاعته ولما رأى ان العساكر الموجودة في مليانة والمدية من المدن البرية وفي شرشال ومستغانم من المدن البحرية غير كافية لحماية قبائل الجنوب من بطش الامير انشأ مدينة بين نهر مينة ونهر شلف سماها الدوك دورليان وكانت قديمة الاصل تسمى

الاصنام ثم شحنها بالعساكر والذخائر ووضع حامية في مدينة تاهرت في حدود التل وحامية في مرفاتنس بين شرشال ومستغانم واما الجنرال لامورسير فانه سار بعساكره الى مدينة تاكدمت وجرى بينه وبين الامير وقائع وحروب تشيب لها الاطفال وكان الامير قبل ذلك في دائرته فاخبره بعض الجواسيس ان لامورسير قد سار قاصدًا الدائرة فركب الامير لحينه ولقيه في تاكدمت ولامورسير لم يزل في نواحي معسكر حين بلغ الامير سيره الى الدائرة فاقام في نواحي السرسو في نحو الف وخمسمائة فارس ليس معهم زاد فكانوا يقتاتون بالبلوط و يعلفون خيلهم من اوراق الشجر والاغرب ان تلك المدة من ايام رمضان والناس على صيام واغرب منه ان بعض رؤساء العسكر جاءه مستبشرًا وقدم اليه خاروفًا وجده بعض انفار العسكر ضالاً عن اهله فقال له خذه للعسكر يقتاتون به وآثرهم على نفسه مع انهم في الاضطرار سواء فقد تاسي بنبي الله داود عليه السلام حين ورد على بيت لحم وكان ظمآنًا فقدموا اليه ماء فقال أليس هذا دم الذين خاطروا بانفسهم في سبيل الله ولم يشرب منه وماثل الاسكندر حين قلّ الماء على جيشه واتى بقليل منه فامتنع من شربه وقال كيف اشرب الماء واصحابي اضرّ بهم الظمأ

ذكر واقعة طاكين

منذ اتخذ الامير الزمالة ودائرتها عاصمة رحالة يأوي اليها الرائح والغادي ويؤمها الصادر والوارد اخذ الفرنساويون يدبرون في نكبتها وينظرون في وجه مضرتها ولما ساعدهم الوقت توجه الجنرال لامورسير بمن معه الى معسكر ومنها الى تاكدمت فلقيه الامير ووقعت بينهما وقائع تكافئوا فيها وتوجه الدوك دومال ابن الملك بمن معه الى النواحي الشرقية ونظره الى الزماله لانهم علموا ان قوة الامير المالية قد جعلها فيها فصارت مطمح انظارهم ومنتجع افكارهم فخاضوا لذلك بحر الاهوال واستعملوا الوسائل والوسائط حتى استمالوا قلوب بعض القبائل المتنصرة بالاموال الجسيمة والهدايا العظيمة وكان من جملة من تعهد لهم بترصدها ودلالتهم على موضعها المتنصر عمر العيادي فجعل يتتبع مراحل الزمالة من موضع الى موضع حتى احتلت في كوجيله من نواحي الجنوب الشرقي من تاهرت فطير الخبر الى ابن الملك وكان اقرب ما يكون اليه فانتهز ابن الملك الفرصة لان الامير وقتئذ مقابل للجنرال لامورسير في نواحي السرسو فسار من بوغار في الفين من المشاة وخمسمائة فارس من جنود فرنسا وخمسمائة من القبائل المتنصرة ووصل

سيره ليلاً ونهاراً الى ان احتل بكوجيلة فوجد الزمالة انتقلت الى القرب منها برحلة ونزلت في الموضع المعروف بطاكين وفي نهار السادس عشر من ربيع الثاني سنة تسع وخمسين ومائتين والخامس عشر من ايار سنة ثلاث واربعين وثمانمائة صبحها فاكتسحها واستف ما فيها ولم يكن وقتئذ من حاميتها سوى خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر وقد اغتروا بالمكيدة العظيمة التي اجراها ابن الملاك باشارة عمر العيادي المرتد وهي الباس فرسانهم لباس الخيالة المسلمين فلما اطلعوا على الزمالة من بعيد ظن الناس انهم طلائع الامير فاستبشروا وخرجوا الى لقائهم بالتهليل والتكبير فما قربوا منهم حتى اظهرت جيوش العدو بشاراتهم المعروفة فحينئذ فطن الناس للمكيدة وحاولوا ان يتداركوا امرهم ففاتهم ما املوه ودافعوا ساعة زمانية ثم تكاثرت عليهم جيوش العدو وانتشرت على منازل الزمالة ودائرتها يقتلون وينهبون ويفعلون الفعائل الشنيعة التي يفعلها العدو بعدوه اذا هو غلبه وملك قياده ولم يجد من يدافعه عنه وتفرق الناس شذر مذر في الشعاب وشعب الجبال وبالجملة فانها كانت من اعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا يدرك اللسان تحصيلها قال بعض المؤرخين ولذلك رسمها بعض مصوري فرانسا وقد نظرت صورتها في سراي فرساي ثم ان العدو استولى على اشياء نفيسة واموال جسيمة احتوت على صنوف وانواع من الجواهر التي يكل عن وصفها اللسان وخزائن كلية وآلات حربية ومكتبة الامير قيمتها خمسة آلاف ليرة وآلحة بجوهرة وحلي بجوهر كان ملك فرنسا اهداه اليه ولوفور الاموال وكثرتها اقتسمت عساكر العدو الذهب والفضة بالبرانيط واسر من المسلمين ثلاثة آلاف نفس كان فيهم عيال الخليفة السيد محمد بن علال وكاتبيه السيد محمد الخروبي والسيد قدور بن الرويله هذا ما كان من امر الزمالة ودائرتها واما ما كان من امر الامير فانه ما زال مقيماً في احراش السرسو حتى اخبره من فرّ من اهل الزمالة بما جرى عليها فاثر فيه ذلك الخبر والحق به التاسف والكدر وفكر في تلك التقلبات الغريبة وصرف الناس واعتزل وبالصلاة والدعاء اشتغل وشاع الامر بين جيوشه فما منهم الا من تاوه وتحسر وتمنى ان يكون في تلك الواقعة حاضراً ليشفي غليل فؤاده ويطفي اواره ثم ان قواد العسكر اجتمعوا الى الامير وهم باهتون حائرون لان عيالهم واموالهم استولى عليها العدو فخرج عليهم من خيمته فازدحموا عليه وحدقت ابصارهم اليه ولم يستطع احد منهم ان يبداه بكلام او يصرح بمرام ثم آنسهم وابتسم في وجوههم وقوى قلوبهم ولسان حاله ينشد

وما نبالي اذا ارواحنا سلمت   بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع   اذا النفوس وقاها الله من عطب

و بعد ان هدأت قلوبهم وسكن اضطرابهم قال لهم سبحان الله كل شيء كنا نحبه وتعلقت افكارنا به كان يعوق حركتنا و يقف في صدورنا عن الوصول الى مطلوبنا والآن صرنا احراراً متجردين لا شغل لنا الا مقارعة الاعداء ومصارعتهم ثم التفت الى بعض الاعيان وكانت شدة الحزن اخذت منه مأخذها وقال له على اي شيء تحزن ما فقدناه من الرجال فنحن نعلم انهم شهداء وهم الآن في الفردوس الاعلى واما الاموال فيخلفها علينا الكريم الوهاب على ان هذا الخبر لم يبلغنا الا بعد وقوعه بثلاثة ايام وقد فات تداركه ولو كنا حاضرين لحاربنا عن نسائنا واولادنا واموالنا ودافعنا الاعداء عنهم وأرينا الفرنسيس ما لم يكن في حسابهم وامضينا عليهم يوماً مهولاً ولكن لا مفر من القدر وحكم الله لا بد من نفوذه وهذا الامر الذي وقع بنا مدخول عليه منتظر الوقوع منذ دخل العدو بلادنا ثم كتب الى خلفائه يخبرهم بما وقع وقال لهم حيث ان الله تعالى انفذ امره في الزمالة ينبغي لنا ان لا نجبن بل نكون من الآن فصاعداً اشد مما كنا عليه من قوة القلوب وكثرة الاستعداد للحرب ثم اخذ في النظر فيما تنصلح به اموره و يرد قوة جيوشه فصار يشن الغارات و يقرع الكتائب و ينزل بمن خانه من قبائل العرب والبربر انواع البلاء والمصائب بعد ان ضم اليه خليفته السيد محمد بن علال بمن معه من الجند وقد انزل على الفرنساويين في هذه المدة ما فيه عبرة للمعتبرين واحل بهم من الويل ما تركهم في حيرة ثم جمعوا جيوشهم واكملوا استعدادهم وتهيئوا لتجديد الحروب

ذكر مهلك مصطفى اغا ابن اسماعيل رئيس قبيلة الدوائر

لما حل بالزمالة ما حل اجتمع فلُّها بالقرب من موضع الواقعة وتلاحق بها من كان اخذه الفرار الى الجهات فاتصل خبرها بالجنرال لامورسير وهو في نواحي تاكدمت فجهز فرقة من جيشه وجعل امرها لنظر المتنصر مصطفى اغا ابن اسماعيل رئيس قبيلة الدوائر فسار الى الزمالة فلما بلغ الخبر الى اهلها ارتحلوا وساروا على سمتهم الى جهة الصحراء فلحق ابن اسماعيل بمؤخرها ونشبت الحرب بينه وبين المسلمين ولما كانت جيوشه اكثر واقوى انهزم المسلمون بين ايدي الاعداء فاثخنوا فيهم قتلاً واسراً ورجعوا فلقيهم جيش الامير ووقع القتال بينهم والتهبت نيران الحرب فانهزم الاعداء وولوا الادبار فلحقهم المسلمون يقتلون و ياسرون ويسلبون وكان فيمن قتل وشفا المسلمون منه انفسهم الرئيس ابن اسماعيل وكان قتله سبباً في الهزيمة ووقف عليه بعض المجاهدين فوجده يختبط في دمه

فاجهز عليه وقطع راسه واستمر العدوّ على هزيمته الى ان ابعد المفر واما المسلمون فانهم رجعوا الى الامير بالاسارى والغنائم واعظمها واحبها اليه والى كل مسلم رأس مصطفى بن اسماعيل قائد الفتنة وموقد نارها وعين الفرنساوية ولسانهم و يدهم ولما وضع الراس بين يدي الامير نظر اليه واستعاذ بالله تعالى من غضبه وعقوبته وعندما وصل الخبر الى الفرنسيس عظم عليهم الامر واشتد حزنهم وكدرهم على فقد اعز اصدقائهم عليهم واكبر حلفائهم وانصارهم واشد اعوانهم على المسلمين

ذكر واقعة الجعافرة

وكان الامير قد بلغه ما اوقعه ابن اسماعيل بالزمالة قبل مهلكه فلما رجعت اليه جيوشه ارتحل قاصداً الزمالة وهي في بلاد الاحرار في الجنوب فاقام فيها اياماً لتأنيس اهله واولاده ثم ارتحل بها الى الجهة الغربية وانزلها في اطراف بلاد الحساسنة واختار من جنده خمسمائة فارس وستمائة من العسكر المنظم المشاة وشرذمة من المتطوعة وسار قاصداً نواحي معسكر فطار الخبر الى الاميرلاي جرى في معسكر فجمع جيوشه وزحف بها اليه وفي طريقه لقيه الجنرال بيدو والاميرلاي تاميور ومعهما الفرق التي كانت في تلمسان في الجهة الغربية ولحقت بهم الفرق التي كانت في قسنطينة ووهران واخبرهم بما عزم عليه من ملاقات الامير وتحار به فاجابوه الى ذلك وساروا نحوه الى ان ادركوه وهو في قلة من الجيش وقلة من الذخيرة فلم يجد بداً عن ملاقاتهم فاجتمع الفريقان واشتعلت نار الحرب فدافعهم الامير بمن معه ثم كاثروه واحاطوا به وباشر القتال بنفسه وابلى فيه بلاء حسناً حتى ان ثيابه صارت مثل الغربال من كثرة وقع الرصاص عليه وقتل فرسه ووقع بين الصفوف فشد عليه مائة جندي من الجنود الفرنساوية كانوا من قبل هربوا اليه من معسكرهم مع ضباطهم وحسن اسلامهم ولا زالوا يدافعون عن الامير الى ان استشهدوا عن آخرهم وانتقل الامير الى فرس آخر ولم يزل الامر يتفاقم الى ان استولى العدو على المعسكر ونجا الامير في ثلة من خيله وحال الليل بينه وبين باقي جنده فظنوا انه قتل ولحقوا بالدائرة واشاع المرجفون انه استشهد فركبت شقيقته السيدة خديجة واستقبلت العسكر واخذت تسليهم عن مصيبتهم وتقوّي قلوبهم وتشجعهم وقالت لهم ان فقد شقيقي وذهب فان مدافعتكم عن الدين والوطن باق ذكرها الى آخر الامد وهؤلاء اهله واولاده في كنف الله ثم كنفكم فحافظوا عليهم الى ان يظهر الله ما في غيبه ثم قدمت لهم ضيافة وبينما الناس غارقون في بحر التاسف والتحسر اذ وردت البشائر بقدوم

الامير عليهم فانقلب الحزن سروراً قال بعض المؤرخين من الفرنسيس وكان من جملة ما عثر عليه الجيش الفرنساوي في المعركة سرج الامير على جواده المقتول مع مهمازه

ذكر واقعة الخليفة السيد محمد بن علال

وبعد رجوع العدوّ الى معسكر بلغه ان الزمالة نزلت في بلاد الحساسنة من الجهة الغربية وقاربت التل وكان الخليفة السيد محمد بن علال فيها فخرج تامپور من معسكر قاصداً اليها فاجفلت الى بلاد الجعافرة والتقى الخليفة وتامپور بالقرب منها واشتد الحرب بينهما واتصل اياماً عديدة وفي اليوم الاخير منها استشهد الخليفة واختل مصافه وتمكن العدو من الاستيلاء على المعسكر وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اربعمائة نفس واسر ثلاثمائة وستون وكان الخليفة السيد محمد بن علال من الشجاعة والسياسة بمكان لا يدرك احد شأوه فيه وله وقائع وحروب مع الفرنسيس في نواحي مليانة ومتيجة وشرشال تشهد له بذلك وناهيك برجل جمع الله له بين الجهاد والشهادة كما جمع له بين النسب والحسب ولما اتصل خبره بالامير جاء الى الزمالة وولى السيد قدور بن علال في مكان عمه الشهيد واصلح خلل العسكر ونظر في احوال الزمالة ثم امرها بالانتقال الى حدود المغرب الاقصى من الجهة الجنوبية فارتحل بها الموكلون بشأنها واقام بمن معه من الجند يتنقل في المحلات ويواصل الغارة على المتنصرة وينتهز الفرص التي تمكنه من قهر العدو وشفاء النفس منه قال بعض مؤرخيهم مفصلاً ما جملناه ولما بلغ الامير خبر خليفته السيد محمد بن علال صعب عليه وكبر لديه وولى ابن اخيه خليفة في موضعه وهو السيد قدور بن علال ثم اخذ في التدبير لامره الخطير حيث ان اصحابه قد تبدد امرهم واكثر القبائل ارتدوا وصاروا له اعداء وبارزوه بالقتال واظهروا له صنوف العسف والاعتداء وغدت بلاده الواسعة الاطراف قريبة المأخذ لاعدائه ولا طاقة له على الدفاع عنها ومع هذا كله فانه كان على عزمه المعروف وحزمه المعلوم لم يلحقه ضعف فيهما ولا نقصه شيء من دواعيهما لا يبالي بالمصائب ولا يفزع من الشدائد والنوائب فجمع نحو الخمسة آلاف مقاتل واقبل يغزو بهم على القبائل والعرب المتنصرة ويذيقهم شديد النكال ويسطو على جيوش فرنسا فيوقع بهم البلاء المبين وكان يباشر القتال بنفسه ويخوض بحر المعامع والشدائد حتى قمع بماضي عزمه كل معاند فقويت همة عسكره لذلك وخاضوا معه لظى الحروب والمهالك

ذكر واقعة سيدي يوسف

بعد انتقال الزمالة الى نواحي تخوم المغرب الاقصى عسكر الامير في الخط الفارق بين التل والصحراء في الثامن والعشرين من شعبان سنة تسع وخمسين ومائتين والثاني والعشرين من ايلول سنة ثلاث واربعين وثمانمائة ثم جرد من جيشه خمسمائة فارس ومثلها من العسكر النظامي وتقدم الى التل فاحس به بعض جواسيس لامورسير فبادر بالمسير اليه في جيوشه من غير ان يشعر به الامير حتى نزل بالقرب منه بنحو ستة فراسخ فجعل الامير العيون عليه وفي احدى الليالي نام الحرس وكان العدو سار على مهله ينسل كالسارق فما انصدع الفجر حتى وصل الى معسكر الامير وكان الامير من عادته انه يصلي الصبح ثم ينام بقصد الراحة من تعب قيام الليل فبينما هو نائم اذ سمع صراخ جيشه الفرنسيس الفرنسيس فقام وامر العسكر بالمدافعة وحاول ان يركب فرسه فلم يسعه الحال ولم يمكنه من ذلك تفاقم الامر واشتباك العسكر بالعسكر وبعد ساعة انكشف العدو وتمكن الامير من الركوب وصالت فرسانه صولة الاسود وهجموا على العدو فهزموه اقبح هزيمة وغنموا منه غنائم عظيمة ورجع العدو الى معسكره ثم ارتحل الامير وقصد بجيوشه ارض بني عامر فوجد عندهم فرقة من عساكر الفرنسيس حرساً لهم فعمدوا له ثم تقدم اليهم وصادمهم بمن معه من الفرسان والمشاة وكان في مقدمة العدو القائد بالحميدي الزائري فهجم على الامير فاخذ الامير البارودة من تابعه واقبل عليه بقوة ورماه بالرصاص فاصابه في صدره فوقع وبقيت رجله معلقة في الركاب وفرسه يجره فاخذ الامير بزمامه حتى لحقه الاتباع الاتباع فسلمه اليهم وكان هذا الرجل من صنائع الامير ولاه قيادة قبيلة اولاد الزاير ثم خان ودان بطاعة الفرنسيس وقاد قبيلته اليهم فلما رأى بنو عمه واخوته ما حل بقائدهم فشلوا واختل مصافهم وانهزموا فانهزم لهزيمتهم عسكر الفرنسيس الذي كان معهم وغنم الامير غنيمة عظيمة ورجع بها الى الزمالة وكانت في بلاد حميان الغرابة تجول في انحائها ثم اجمع امره على ان يدخل بها ارض المغرب الاقصى فسيرها امامه وبقي بعدها ردءاً لها فاعترضه الجنرال لامورسير بجيوشه ووقع بينهما حروب اخذ السيف فيها حظه واشتد الامر حتى صار النساء يشجعن الرجال ويحرضن الابطال على القتال واظهر الامير وجنده من الشجاعة في ذلك اليوم والبسالة ما يعجز القلم عن وصفه واللسان عن ذكره وسقط في يد لامورسير ورجع خائباً

143

مقهوراً وما زال الامير حارساً للزمالة محافظاً عليها حتى ادخلها الى جبال بني زكرى ثم بلاد تكفايت قرب وجده في الجنوب الغربي ثم توغل بها الى عيون ملوك ثم الى عين زوره قرب الاطلس الاكبر الممتد على سواحل البحر المتوسط والذي حمل الامير على دخول بلاد المغرب الاقصى امران احدهما انه طمع في اهل البلاد ان يقوموا معه في امر الجهاد وينجدوه بالطريف والتلاد لما كان يبلغه عنهم من القيام بامور الدين واتباع السنة والجماعة الثاني اطمئنان من كان يميل اليه من اهل وطنه لوجوده في امن وحرز من العدو وربما يكون ذلك وسيلة لهم في الهجرة اليه لمايعلمه من بغضهم للفرنسيس ونفورهم منهم وليامن على الزمالة حتى اذا اراد الغزو الى ارض العدو فانه يتركها في حرز حزير ولما استقرت الزمالة في عين زوره كتب الامير الى عبد الرحمن سلطان المغرب الاقصى يخبره بما جرى عليه من الامور ويلح له بطلب المعونة والنجدة فكان من جملة جواب السلطان عبد الرحمن الى الامير في كتابه . وانا نتمنى الحضور بانفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بايدينا بين صفوف المجاهدين ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكف البغاة جهاد بل افضل من جهاد النصارى حسبما نص على ذلك امامنا مالك رحمه الله ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا واياكم لنصرة الدين وقمع الكفرة المعتدين وبذلك ينال الموفق غاية امله ونية المرء خير من عمله والسلام حرر في الخامس عشر من ربيع الاول سنه ستين ومائتين والف

قال شرشال الانكليزي لما حصل للامير الامن على الزمالة اخذ يحرض الناس على الجهاد ويدعوهم الى قتال اعدائه ويحمل على القبائل المتنصرة ويهجم على الفرنساويين فيملئوا قلوبهم رعباً ثم بداله فرحف على القبائل الخارجة عن طاعة سلطان المغرب الاقصى منذ زمان طويل فاخضعها وكتب اليه يخبره بما اجراه ونبهه في ذلك استنهاض همته في اعانته على الجهاد فلم يرد له جواباً فعلم الامير ان هذه الوسائل لا تجديه نفعاً فجمع ما عنده من الجند وعين منهم حامية للزمالة وسار بالباقي الى الصحراء فاقام في ارجائها يتنقل شهوراً عديدة فلما نظر الفرنسيس قلة حركات الامير وانقطاع غزواته اعتقدوا ان شغلهم قد تم وان تردد الامير في الصحراء البعيدة عن الوطن دليل على ضعفه فهنأ المارشال بيجو نفسه وكتب لدولته يقرر بعد الوقائع الاخيرة ان الجزائر قد غلبت وخضعت لا سيما وقد عدم الامير جنده من مشاة وفرسان وقتل خليفته الشهير المرعب فبناء على هذا اقول بجسارة ان الحروب المخيفة قد تناهت

ومن المحال ان يقتحم الامير امرًا ذا اهمية او يقيم شرذمة قليلة من الفرسان حربًا قوية حيث ان غبار خيله امسى كغبار شاة ضعيفة انتهى ثم بعد هذه المدة جرت محاربة عظيمة ومقتلة جسيمة بين السيد محمد بن السيد عقبة خليفة الامير في بسكرة و بين الجنرال بلرا كو الذي كان تقلد قيادة الجيوش الفرنساوية في عمالة قسنطينة واتصلت الحروب والوقائع الهائلة بينهم اياماً وليالي بدون فتور وبعد ذلك توجه الجنرال بجيوشه الى كولو في حدود تونس فاستولى عليها

ذكر ما كتبه الخليفة السيد احمد بن سالم من جبال جرجرة «الى الامير وما اجابه به»

الحمد لله وحده بعد الثناء والدعاء واداء واجب الاعظام والانعام فاننا معاشر عبيدكم متعطشون الى مكاتيبكم ومن المعلوم ان ما تسطره يدكم الشريفة يحيي النفوس منا والآمال وقد اشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف واشاعوا ان والدتكم تصدر المكتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني ان الفرنسيس عازمون على الزحف الى بلادنا وليس عندي ثقة اكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم الى كلمتي وان كان تاخركم عنا لظن ان الخليفة السيد محمد البركاني يساعدني وينجدني فهو مع ما هو عليه من مصادمة العدو بعيد ان يساعدني و يقوم بناصري كما انني لا قدرة عندي على مظاهرته وعلى كل حال فانا اسالكم بالله تعالى ان تردوا لي الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة. فاجابه الامير بخطه اني اطلعت على مكتوبكم مخبرًا بان خبر موتي قد امتد في الشرق فاعلم ان الموت لا مفر منه ولا محيد عنه اذ هو من قضاء الله الذي لا يرد ولا يصد واني احمد الله اذ لم تأت ساعتي بعد ولم يزل عندي من القوة والاقتدار ما اؤمل به مهاجمة اعداء ديننا فكن في راحة ساكن البال صبورًا ومتى استقر الامر لنا هنا نتوجه الى نواحيكم انتهى. وفي هذه الايام انتهز الجنرال بيجو الفرصة لتتميم اعماله في الشرق فجهز الدوك دومال ابن الملك في جيوش كثيرة وسيره الى نواحي بسكرة فالتقى مع الخليفة السيد محمد بن عقبة وجرت بينهما حروب عنيفة متوالية انتصر فيها العدو واستولى على بسكرة ثم بانته ووضع فيهما حامية وذخائر ثم سار الى نواحي قسنطينة وكان احمد باي عمد له في جموع من العرب من نواحي الزيبان وناوشه الحرب ثم انكسر ورجع الى محل اقامته من الصحراء ولما توالى الخطب على المسلمين حارت العقول ووقفت الافكار ويئس كل من ملاقات

صاحبه في الحياة الدنيا حتى ان السيد قدور بن علال كان في الجهة الغربية مع الامير فكتب الى السيد احمد بن سالم وهو في محله من جبال زواوه شرقًا ان الخطوب المت بنا والمصائب انشبت اظفارها فينا فلذلك انقطع املي من اجتماع الشمل في الدنيا الا ان شاءه الله والحق تعالى يظهر العجائب والخوارق . فاجابه ايها الاخ ان الشدائد لا تدوم والليالي حبالى لا يدرى ما تلد واني اسأل الله تعالى ان ينصر امامنا ويؤمننا في اوطاننا ويرد علينا ما اخذ منا واعطاه لعدونا فكن ايها الاخ دائمًا في كل حال ملتجأً الى الله تعالى ولا تيأس فاني موقن باجتماعنا نحن الثلاثة مع ما نحن عليه الآن من مقاساة كثرة الاعداء وشدة الحروب . فاجابه ان ما ذكرته على حسب ما نشاهده من ضعف الحال وقلة المال والرجال غير مامول ان يكون . ثم ان الامير اخذ يتابع غزواته على البلاد ويسم اهلها بالخسف والدمار وفي اثناء ذلك حضر وفد من الخليفة ابن سالم الى الامير من الشرق فاكرم وفادتهم واطلعهم على سائر احواله وعند رجوعهم الى اوطانهم سير معهم مكتوبًا الى الخليفة هذا نصه . اما بعد فاني اوصيك بتقوى الله تعالى وشكره في الشدة وكن صبورًا على المصائب فالصبر مفتاح الفرج وكن جسورًا واجمع عساكرك وعضدهم برايك السديد وتحمل منهم هفواتهم ودبر امورهم حسبما يجب فان هذه الاحوال لا تدوم واني لارجو ان اكون عندكم ومن هناك تظهر لنا الجادة التي نتبعها ونسلك عليها وكتب الى جيوشه في تلك الجهات يتشوق اليهم ويمدحهم بقوله

يا ايها الريح الجنوب تحملي ... مني تحية مغرم وتجملي
واقرِ السلام اهيل ودي وانثري ... من طيب ما حملت ريح قرنفل
حلي خيام بني الكرام وخبري ... اني ابيت بحرقة وتبلبل
جفني لقد الف السهاد لبينكم ... فلذا غدا طيب المنام بمعزل
كم ليلة قد بتها متحسرًا ... كبيت ارمد في شقا وتململ
سهران ذو حزن تطاول ليله ... فمتى ارى ليلي بوصلي ينجلي
ماذا يضر احبتي لو ارسلوا ... طيف المنام يزورني بتمثل
كل الذي القاه في جنب الهوى ... سهل سوى بين الحبيب الافضل
أدِ الامانة يا جنوب وغايتي ... في جمع شملي يا نسيم الشمأل
واهدي الى من بالرياض حديثهم ... اذكى واحلى من عبير قرنفل
تهدي اليَّ طرائفًا وظرائفًا ... ولطائفًا بتعطر وتعسل
حاولت تنسي الصبر عنهم قيل لي ... مه ذا محال ويك عنه تحول

كيف التصبر عنهم وهمُ همُ   ارباب عهدي بالعقود الكمل
ايحل ريب الدهر ما عقدوا وكم   حلت عقود بالمنا المتخيل
تفديهم نفسي وتفدي ارضهم   ازكى المنازل يا لها من منزل
افدي اناساً ليس يدعى غيرهم   حاشا العصابة والطراز الاول
يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً   حمل اللواء الهاشمي الاطول
قد خصهم واختصهم واختارهم   رب الانام لذا بغير تعمل
هم بالمديح احق لكن ربما   ضاعت حقوق بالعدا والعذل
ان غيرهم بالمال شح وما سخى   جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم   في حب مالكنا العظيم الاجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم   يوم الكريهة نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى   الحاملون لكل ما لم يحمل
ان غيرهم ذاق اللذائذ مسرفا   هم يبتغون قراع كتب الجحفل
والذ شيء عندهم لحم العدا   ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق   رغما على الاعدا بغير تهوّل
لا يعرف الشكوى صغير منهم   ابدا ولا البلوى اذا ما يصطلي
ما منهم الا شجاع قارع   او بارع في كل شيء مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا   من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا   اقوى العداة بكثرة وتموّل
كم صابروا كم كابروا كم غادروا   اقوى اعاديهم كعصف موكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلدوا   للنائبات بصارم وتبقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا   من جيش كفر شبه موج يعتل
كم ثبتوا كم بتتوا كم شتتوا   شمل الكوافر باقتحام الجحفل
كم ادلجوا كم ازعجوا كم اسرجوا   بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتعوّدوا   تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم   عند الصباح له مشوا بتهلل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة   ممسوحة بثياب كل مجندل
لا يحزنون لهالك بل عندهم   موت الشهادة غبطة المتمول
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة   والنقص عندهم بموت الهمل

145

يا رب انك في الجهاد اقمتهم | فبكل خير عنهم فتفضل
يا رب يا رب البرايا زدهم | صبرًا ونصرًا دائمًا بتكمل
وافتح لهم مولاي فتحًا بينًا | واغفر وسامح يا الهي وعجل
يا رب يا مولاي وابقهم قذى | في عين من هو كافر بالمرسل
وتجاوزن مولاي عن هفواتهم | والطف بهم في كل امر منزل
يا رب واشملهم بعفو دائم | كن راضيًا عنهم رضا المتفضل
يا رب لا تترك وضيعا فيهم | يا رب واشملهم بخير تشمل
متوسلا مولاي في ذا كله | متشفعًا بشفيع كل مكمل
وجهت وجهي في الامور جميعها | بمحمد غيث الندا المسترسل
صلى عليه الله ما سح الحيا | والآل ما سيف سطا في الجحفل

ولما نظر بيجو اعمال الامير وتوالي غزواته على الوطن علم بانهم ان تغافلوا عنه وبقي مستمرًا على ماهو عليه لا بد ان ترجع اليه قوّته الاصلية فجمع اعوانه واهل مجلسه وقال لهم قد تعين علينا ان ننظر الى احوال الامير عبد القادر وما هو بصدده الآن فانه اقلق اهل البلاد بتتابع غزواته عليهم من سائر الجهات ولا يخفى ما انطوت عليه قلوب المغاربة المراكشيين من المحبة والتشيع له حتى انهم يودُّون ان يكونوا تحت طاعته وادارته لما راوه من اتباعه الشريعة الاسلامية وشاهدوه من حسن سياسته معهم التي تركت قوافلهم تسافر من فاس ومراكش الى الاقطار الجنوبية والشرقية في غاية الامن والسكون بعد ان كانت قل ان تسلم والذي زادهم رغبة في طاعته ما كانوا يسمعونه عنه من حسن سيرته مع رعاياه فانه كان لا يقرر عليهم ضريبة ولا يجعل عليهم خراجًا وانما كان ياخذ من اموالهم ما امرت به شريعتهم الاسلامية فاجابه اهل المجلس لابد من الاستئذان من الدولة فكتب الى دولته فبعثت الى سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام وعرفته بما يلزم اجراؤه في هذا الشأن فاجابها ان بلاد الريف قد خرجت من يدي ودخلت في طاعة الامير عبد القادر فلا يمكنني اجراء شيء من مطالبكم فكان هذا هو الداعي الاكبر لفتح باب الخلاف بين سلطان مراكش ودولة فرنسا وجهز بيجو جيشًا كثيفًا لنظر الجنرال لاموريسير والجنرال بيدو وامرهما بالنزول في تخوم مملكة مراكش في محل يعرف بمقام السيدة مغنية في شمال تلمسان وهذه السيدة كانت من العابدات دفنت هناك وكان مقامها معظمًا عند اهل تلك النواحي فعمدت جيوش فرنسا الى هدم

مقامها وابتذاله فوصل الخبر الى حاكم وجده من قبل سلطان مراكش وشاع في المغرب الاقصى فحصل من ذلك الهيجان ووقع سلطانهم بين امرين خطيرين اما الخوض في تيار الحروب واما انتقاض الرعايا عليه لما حصل لهم من الاضطراب لاهانة ذلك المقام المحترم فبعث الى عامله على وجده على بن الكناوي ان يخاطب الفرنسيس في هذا الامر ويشير عليهم بالارتحال من مقام السيدة مغنية فلما بلغهم رسول العامل استهزءوا به وازدروه ولما وصلت جيوش المغرب الاقصى وجموعه الى وجده زحف بهم ابن الكناوى الى المعسكر الفرنساوي والتقى الجمعان واضطرمت نار الحرب بينهما فكانت الدبرة فيها على ابن الكناوي وجموعه فانهزموا هزيمة تفرقوا منها شذر مذر واستولت عساكر الفرنسيس على جميع اثقالهم وذخائرهم وهذه اول واقعة وقعت بين سلطان مراكش وفرنسا

ذكر خروج بيجو من الجزائر الى جبال زواوة

لما بعث الجنرال بيجو لامورسير ويدو الى الجهة الغربية في الجيوش استكمل تعبيته وخرج الى جبال زواوة فلقيه الخليفة السيد احمد بن سالم في جموع المسلمين بارض فليسة وجرت بينهما حروب شديدة ووقائع متتابعة احتاج فيها بيجو الى النجدة فانجدته دولته بالجند والذخائر وقوي على المسلمين وكسرهم واخرق اربعين قرية ثم دان ابن زامون احد رؤساء القبائل بطاعة الفرنسيس فلما رأى الخليفة ذلك ترفع بجيوشه الى جبال اخرى ورجع بيجو الى الجزائر

ذكر مسير بيجو الى الجهة الغربية وما جرى بينه وبين حاكم وجدة ابن الكناوي

بعد ان رجع بيجو من بلاد زواوة الى الجزائر توجه في المراكب الى وهران ثم سار الى مقام السيدة مغنية ولاول وصوله اليه دعا حاكم وجده للمخابرة في اتفاق الكلمة فاجابه الى ذلك مع عدم اركان كل منهما الى الآخر ولما تقاربا تقدم ابن الكناوي في لمة من خيله نحو الجيش الفرنساوي في صورة سلمية فامر الجنرال بيجو الجنرال بيدو بمقابلته فلقيه في شرذمة من خياله وبينما هما يتحادثان اذ هجمت فرقة من جيش ابن الكناوي على جناح الجيش الفرنساوى وابتداءوهم بالقتال خوفاً من ان يؤول امر المخابرة الى الصلح وعند ذلك وقع بين الفريقين حرب شديدة كانت الدبرة فيها على جيوش ابن الكناوي فانهزموا الى وجده . قال

بعض مؤرخي الافرنج وقد اندهش بيجو من تلك الاعمال الدالة على الخيانة وعزم على الاستيلاء على مدينة وجدة فكتب الى ابن الكناوي يستوضحه السبب الباعث على ما وقع فاجابه يعتذر اليه ويعترف بذنب جيشه ويتنصل من عهدة ما وقع فكتب اليه بيجو ان جل المقصود الاهم هو امر الامير عبد القادر وتحديد الحدود التي كانت بينكم وبين حكومة الاتراك الجزائرية وليس مقصودنا ما يختص بكم من البلاد واننا نلح عليكم ان لا تقبلوا اقامة عبد القادر في بلادكم وان لا تساعدوه علينا فان قبولكم لاقامته في ارضكم نعده حربًا لنا وعداوة لا صداقة وبالجملة فالذي تريده دولة فرنسا منكم ان تخرجوا عبد القادر من بلادكم الى الجنوب الغربي هذا اذا لم تقدروا على ان تشتتوا شمل جيوشه وتريد منكم ايضًا ان لا تقبلوا من ينتقل الى بلادكم من رعاياها فان اجبتم الى هذه الامور فنحن نرتبط معكم ونجري الصداقة بين امتين مختلفتين وبها نحافظ على شرف السلطان عبد الرحمن وان انتم لم تفعلوا ذلك فنحن اعداء لكم ولا بد ان تردوا الجواب سريعًا . قال المؤرخ فلم تجد هذه المخابرة نفعًا ولذلك هجم بيجو على وجدة فدخلها بعد ان فر اهلها وتفرقوا في الجهات قال شرشل ثم ان دولة فرنسا لم تكتف بهذا حتى ارسلت مراكبها الحربية الى طنجة فاطلقت عليها نار مدافعها وهدمت قلاعها ونشأ عن ذلك هيجان في فاس عاصمة سلطان مراكش وفي الوقت جهز السلطان ابنه ولي عهده محمدًا في عشرين الف من الجند فارسل اليه الامير عبد القادر يحذره من مقارعة الفرنسيس وحربهم فلم يقنعه ذلك اعتمادًا على كثرة جيوشه واستمر سائرًا الى وادي ايسلي بالقرب من وجدة فزحفت العساكر الفرنساوية الى معسكر ابن السلطان في محله من ايسلي واشتبك الفريقان على النهر واشتعلت نيران الحرب وفي آخر النهار انكسر ابن السلطان وجيوشه ومنحوا اكتافهم للعدو فعمل فيهم السيف اعماله واستولى الفرنسيس على سائر المعسكر بما فيه من اموال وذخائر ومؤن وكراع وعلى اثني عشر مدفعًا وخيمة ابن السلطان وشمسيته وآب المغاربة بها شنعاء الى آخر الدهر وهذه آخر وقائعهم مع الفرنسيس ولم ينتصروا في واحدة منها ومن غريب الاتفاق ان في هذا النهار اطلق البرنس ديجو نوفيل الاميرال مدافعه على الصويرة وخرب اسوارها فكانت الغلبة على جيوش المغاربة برًا وبحرًا في يوم واحد قال بعض المؤرخين وبهذه الواقعة تلقب بيجو دوك دي ايسلي ثم قال وانحط لذلك شان سلطان المغرب الاقصى واجمع على المصالحة فالتمسها من القائد العام فاجابه

الى ذلك على هذه الشروط (الاول) سرعة ارتحال العساكر المراكشية من وجدة وما اليها في الحدود (الثاني) اجراء القصاص على الذين تعدوا الحدود الفرنساوية (الثالث) اخراج الامير عبد القادر من البلاد وان بقي فيها فلا يحصل له اسعاف من حكومة مراكش (الرابع) ان يصير تعيين حدود فاصلة بين حكومة فرنسا وحكومة مراكش فقبل سلطان مراكش هذه الشروط وتقرر الصلح ولما شاع هذا الامر في نواحي المغرب الاقصى وسارت الركبان بما وقع لجيوشهم وجموعهم مع الفرنسيس كبر عندهم ذلك ونسبوا المعرة فيه الى سلطانهم وقواد الجيوش وكثر القيل والقال واتفق اكثر القبائل على الانتقاض على السلطان واعطاء الطاعة الى الامير لما كانوا يسمعون عنه من الاقدام والشجاعة والقيام بامور الجهاد على ما ينبغي من اعاظم الملوك فكتبوه في ذلك فلم يقبله منهم وقال اني دخلت بلاد السلطان لا لاكون ضده او لنأخذ منه ملكه فهذا مما لا يقول به عاقل قال بعضهم ومن هنا يتبين ان الامير كان مقصوده فيما يعانيه من قتال الفرنسيس مقصوراً على الذب عن الدين والوطن لا تجرد الملك ولو كان كذلك لقبل من رعايا سلطان المغرب ما ندبوه اليه ولظفر به في اقرب وقت من غير كلفة وقال آخر ما كان الامير في جميع ما تكبده من المشاق ومعاناة الحروب الا حباً في نصرة الدين وانقاذ وطنه من يد الاعداء ولا بذل نفسه وماله وحوله وقوته ولا صبر على تلك الاهوال التي يعجز عنها اكبر سلطان في العالم الا لاعلاء كلمة الله وانقاذ وطنه فتحمل لذلك من الامور التي تقصم الظهور وتدكدك الجبال وباع نفسه في رضى الله تعالى وحب وطنه بيع سماح قال شرشل الانكليزي قد آل امر بعض من كان الامير يؤمل مساعدتهم الى ان صاروا اكبر الاعداء له وغدوا اعداءه ونصروهم عليه وحاربوه معهم واعانوهم في ذلك بالمال والرجال فكيف يقبل بعد هذا قول القائلين او يجيب دعوة الداعين ولما احس سلطان المغرب بما وقع من رعاياه من الاضطراب والتذمر منه ومن رجال دولته كتب الى الامير يختبر ما عنده ويسبر نيته فيما طلب اليه ويستميله اليه واكد عليه في زيارته في فاس ظناً منه انه ينخدع له او هو ممن يجهل مكره وغشه فاجابه ان الجيش منعوه من الاجابة الى ما طلبه منه واقبل على بعث الغزوات والسرايا على الوطن ووصلت جيوشه الى بالعباس من بلاد بني عامر فاهتز المغرب الاوسط باهله واشرأبت نفوس المرتدين الى التوبة من الردة وارجاع الطاعة والخضوع للامير واسبق الناس في هذا بنو عامر واتبعهم مجاوروهم واظهروا للفرنسيس العداوة فاضطربت حكام الجزائر ووهران لهذا الامر وبذلوا وسعهم في

منع الناس من الخروج من بلادهم وجعلوا عليهم العيون فارتحل الكثير من بني عامر ولحقوا بدائرة الامير في وادي ملوية فيما وراء جبل بني يزنا سن غرباً قال المؤرخ روا واقام الامير يتابع الغزوات على بلاد الجزائر من اول الشتاء الى اواخر فصل الربيع وتوغلت بعوثه وغوازيه الى تيارت وتاكدمت وتلك النواحي فاضطرب الحكام الفرنساويون لذلك وكاتبوا سلطان مراكش في هذا الامر فارسل الى الامير يامره بالخروج من الحدود ولما وصل اليه الرسول بذلك وتحقق ان الامير لا نية له الا في الجهاد وتاديب رعاياه الذين تركوه واتبعوا دولة فرنسا وافق الامير على قصده واخبره بماله في قلوب اهل المغرب الاقصى من الميل والمحبة وحسن الاعتقاد ثم ان الامير ارسل رسله تترى على القبائل يدعوهم الى القيام بوظيفة الجهاد المفروضة عليهم فاجابه الى ذلك خلق كثير واظهروا الخروج عن طاعة الفرنسيس ونادوا بطاعة سلطانهم تملصاً مما لحقهم منهم من المظالم والتكاليف الشاقة وبينما الناس على ذلك اذ ظهر محمد بن عبد الله المعروف بابي معزه في نواحي شلف داعياً الى نفسه مدعياً انه محمد بن عبد الله المهدي المنتظر وطفق يدعو الناس الى الجهاد ويحثهم عليه نحو سنة ودخل الناس في طاعته لامور شعوذية كان يظهرها لهم ووقع بينه وبين الفرنسيس عدة حروب انتصر فيها فايد له ذلك دعواه ثم انهم رجعوا الكرة عليه وشتتوا شمله وفرقوا جموعه وفر ناجياً بنفسه الى نواحي الصحراء قال بعض المؤرخين ومن اين لمثل هذا الرجل المدعي ان يحوز بعضاً من الصفات التي امتاز بها الامير عبد القادر من حسن الادارة وعلو الهمة وقوة الفروسية والنشاط في الحروب والحزم والعزم في ادراك الامور لاسيما في الوقائع الشديدة الطويلة المدا التي كادت تضعف بها قوة اعظم امة على وجه الارض في هذا العصر

ذكر وقعة الغزوات

وفي الحادي عشر من شوال سنة ثلاث وستين ومائتين والحادي والعشرين من سبتمبر سنة سبع واربعين وثمانمائة سار الامير من الدائرة وكانت بوادي تافنا قاصداً الى الغزوات وهي مرسى صغير في الحدود وارسل في مقدمته بعض رؤساء جيشه فعلم بهم احد المرتدين واخبر القائمقام الفرنساوي دي مونتانياك فجمع جيوشه وقدم امامه طليعة ثم خرج بعساكره وسار الى الامير فالتقى الحرس بطليعة العدو فاوقعوا بها ثم زحفت الجيوش الاسلامية والفرنساوية والتقى الفريقان عند تل قرب الغزوات واشتد القتال بينهما والتحمت الجيوش الاسلامية بجيوش العدو وخالطوهم فتركوهم

حصيداً واذاقوهم كاس الدمار والبوار ولم يفلت منهم سوى ثمانين جندياً التجأوا الى مزار كان قريباً منهم واغلقوا بابه عليهم فاتبعهم المسلمون واحاطوا بهم وقتلوا منهم نحو السبعين والباقون سلموا انفسهم فقادوهم اسرى وفي هذه الواقعة اصيب الامير برصاصة مسحت طرفاً من اذنه اليمنى ولما احس بها نزل وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على ما لحقه في سبيل الله وهذا اول جرح اصابه في الجهاد قال لي رضي الله عنه ان الذين كانوا معي ايام الجهاد يظنون اني كنت حاملاً حجباً لحفظ من رصاص العدوّ لما يرون من تاثيره في برنسي وعدم وصوله الى جسدي مع اني لم استعمل ذلك قط وانما كنت احفظ نفسي بالتعاويذ الواردة في السنة فقط قال تعالى فالله خير حافظاً وقال لي ايضاً ان العسكر الفرنساوي اذا انكسر يحصل له تلاشي ويختل نظامه وترتيبه ولا يلتفت لاوامر قواده لا سيما الخيالة فانهم اذا فروا لا يردون الكرة ابداً

ذكر وقعة تموشنت

وبعد فراغ الامير من وقعة الغزوات توجه بجيوشه الى بلاد بني عامر فالتقى بفرقة من الجيش الفرنساوي معها مهمات حربية قاصدة بها تلمسان فلما تراءت لها الجيوش الاسلامية رفعت علامة التسليم فتقدم اليهم الامير في ثلة من خيله فاستأمنوا له والقوا اليه سلاحهم بدون قتال وكانت تلك الفرقة يزيد عددها على ستمائة جندي وكانت المهمات الحربية كثيرة وافرة فانتشرت هذه الاخبار في سائر الاقطار الغربية وخفقت لها قلوب الفرنسيس والمرتدين وكتب الامير الى خلفائه في الجهات الشرقية يخبرهم بما اسنى الله له من الفتح والنصر ويعدهم بالمسير الى نواحيهم وهذا نص ما كتبه الى بعض خلفائه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده من ناصر الدين عبدالقادر ابن محيي الدين الى خليفتنا حفظه الله ومكن سيوفه من رقاب عداه اما بعد فاني احمد الله على نصرة الدين القويم وشريعة نبيه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين افضل الصلاة واتم التسليم واخبركم بما حبانا الله به من النصر المبين في جامع الغزوات وما ذاقته الجيوش الفرنساوية من الوبال والبليات فاننا قد حصدناهم في هذه الواقعة حصداً واذقناهم كاس الفنا والردا ولم ينجُ منهم احد والذي نامركم به ونؤكد عليكم فيه ان تجمعوا جيوشكم وتتفقدوا امورهم وتندفعوا على العدوّ في نواحيكم وانهاكم عن

تخريب الديار فان ذلك مما يوءذي اهلها ويكون سبباً في تاخرهم عن الطاعة ثم ابشركم بعد ان فرغنا من قضية الغزوات دخلنا بلاد بني عامر فالتقينا بنحو الستمائة جندي من جنود الفرنسيس معهم مهمات حربية ولاول ما رأونا رفعوا اشارة التسليم وتقدم قوادهم الينا في طلب الامان فامناهم وسلموا لنا سلاحهم وجميع ما كان معهم واستولينا على الكل من غير قتال فكانت هذه النصرة نافلة على الانتصار العظيم في الغزوات نساله تعالى ان يمدنا بتأييده ويصلح العباد والبلاد والسلام عليكم وعلى من حواه ناديكم ورحمة الله وبركاته ولما بلغ الفرنساويين هذه الاخبار تكدر عيشهم واحسوا برجوع الكرة عليهم وعلموا انهم صاروا في خطر عظيم حيث انهم فقدوا ثمرة خمس سنين في بضع ساعات واجتمع مجلسهم في الجزائر فاتفقوا على ان يرفعوا هذه الاخبار وما آلت اليه الحال الى دولتهم فحرروا وطلبوا النجدة والامدادات والحوا عليها في ارجاع المارشال بيجو الى الجزائر في اسرع وقت ولما اتصل ذلك بدولتهم هالها الامر وعظم عندها فعزلت المارشال فالا من الجزائر وعينت مكانه المارشال بيجو وامرته بسرعة السفر وجهزت معه مائة الف من العساكر وما يلزمها من الذخائر والمهمات كذا نقل شرشل الانكليزي في تاريخه واما الامير فانه جمع جيوشه ودخل الى الساحل وجعل يتنقل فيه يميناً وشمالاً والقبائل تراجع الطاعة وتلوذ بها وتقدم اعذارها فيقبل ويعفو ويصفح ثم بلغ الخبر الجنرال لامورسير وهو في الجزائر فركب البحر في جيش كثيف الى وهران وتوجه الى تلمسان فاجتمع بكافنياك وخرجوا الى الحدود المراكشية يطلبون الدائرة لياخذوا منها الثار وكان رئيس حامية الدائرة بلغه خبرهما فارتحل بالدائرة الى الاطلس في الجهة الشمالية من الريف ثم عدل كافنياك الى جهة الصحراء فاغار على اولاد سيدي يحيي فحصل على عشيرة منهم وكانوا لما راوا الجيش دخلوا في غار قريب منهم يعرف بغار العقبة البيضاء وكانو نحو الخمسمائة نفس بين رجال ونساء واطفال فجمع جيش الفرنسيس الحطب والتبن على فم الغار واضرموه ناراً فدخل الدخان الى داخل الغار فاختنق به كل من كان داخله وحسب الجنرال انه أخذ الثار بهذا القصاص المشين بالانسانية والمشعر بفقد الشفقة والرحمة والحمية واستمر الامير في جهات معسكر يجول فيها بجيوشه والقبائل تتوارد عليه لائذة بطاعته ولما رأى حاكم معسكر ان جميع القبائل التي كانت قدمت لم الطاعة قد تركتهم ودخلت في يد الامير اهتز لذلك وجمع ماعنده من العسكر وخرج يطلب الامير فلقيه وجرت بينهما حروب شديدة واستمرت اياماً كثيرة ثم انكسر

حاكم معسكر ورجع اليها بخسارة جسيمة وأمست العساكر الفرنساوية محصورة من جميع الجهات واضطرب الوطن باهله واشتد الهيجان في نواحيه وأدمن الامير على الغارات وبعث البعوث والغوازي فلا يخلو يوم من هجوم عساكره على الجهات قال بعض مؤرخي الافرنج قد اضطربت القبائل والفرنساويون لسرعة الامير وتعاقب ظهوره وخفائه وحضوره وغيبته مع الايام لانه جعل دابه سرعة الحضور في سائر المقاطعات واهاجة روح الحصار في كل المحلات فشهاب حضوره السريع جعل الفرنساويين في حالة اضطراب وخيبة ظن وبذلك ثارت المنازعات واشتدت الحركات حتى ان الامير في اليوم الواحد يظهر في غدوته في مكان وفي عشيته وروحته يظهر في آخر بعيد المسافة عن الاول حتى انهم سموه ابا ليلة وابا نهار ومن حركاته انه سار في ستة آلاف من الفرسان الى تاكدمت ومنها الى وادي شلف فبلغه ان اولاد شعيب وهم قبيلة عظيمة كثيرة البطون والعشائر عازمة على الاتحاد مع الفرنسيس نعدل في طريقه عن التوجه الى وجهته التي كان قاصداً اليها وسار اليهم ثم هجم عليهم وكانوا في خمسة آلاف فارس فاخذهم اخذ عزيز مقتدر والقى القبض على رؤسائهم ومشايخهم واخذ جميع اموالهم ومواشيهم وغنم ماعندهم من الاثاث والامتعة

ذكر ابي معزة الثائر وما آل اليه امره

اصله من اولاد خويدم في جهة وادي شلف ادعى انه المهدي المنتظر وسبب هذه الدعوى الكاذبة انه جاء الى قبيلة سنجاس فوجدهم مغاضبين لرئيسهم فزين لهم ما اضمروه من قتله وقوى بصائرهم وقال لهم ان هذا كافر بالله تعالى وهو الذي ادخل الفرنسيس الى بلادكم وقادكم الى طاعتهم فاستحسنوا ما دلهم عليه وبيتوا رئيسهم وقتلوه ثم جمع كلمتهم وغزى بهم فرقة من جيوش الفرنسيس كانت تخيمة في وادي الفضة قريبة من وادي شلف فانتصر عليها وغنم ما عندها من الذخائر وأثخن فيها قتلا واسرا ثم اخبرهم انه المهدي المنتظر وان سلاح العدو ورصاصه لا يعمل فيه ولا في جموعه ودعاهم الى بذل الطاعة له فاطاعوه ثم ان الفرنسيس تجمعوا له وكسروه وفر بنفسه هاربا وما زال يجول في تلك الجبال ينتقل فيها من جبل الى جبل ويدعو الناس اليه فلا يجيبه الا الاوغاد منهم الى ان غدرت قبيلة صبيح بسانجي قائد الفرقة الحامية بتلك الجهة فقتلوه وقتلوا اصحابه معه فانتهز

ابو معزة الفرصة وآوى اليهم وقرر في عقولهم انه يقوم بامرهم ويحمي حوزتهم من عدوهم فهاجت العشائر والقبائل ونادى مناديهم بالجهاد فارسل حاكم الجزائر القومندار موريلون في جيش كثير الى قبيلة صبيح لينتقم منها وياخذ بثار الحاكم واصحابه فزحفوا اليه مع ابي معزة فلما التقى الجمعان وانتشب القتال انهزموا وفر رئيسهم ابو معزه فلم يلو على احد وسكن الجبال الى ان لحق بالامير مع اهله واولاده

﴿ ذكر اعمال الجنرال بيجو بعد رجوعه الى الجزائر في المرة الاخيرة وما آل اليه الامر ﴾

وبعد ان وصل بيجو الى الجزائر وتلاحقت به العساكر من فرنسا وعددها مائة الف جندي جمع مجلسه الحربي للمفاوضة فيما هم بصدده فقر القرار على اظهار الشدة والحزم وان هذه الجنود مع ما كان موجوداً في الجزائر وملحقاتها من العسكر تنقسم الى اربعة اقسام وتزحف دفعة واحدة على الداخلية كل قسم مما يليه وتعين لاموريسير على القسم الاول وبيدو على الثاني ويوسف المتنصر العنابي على الثالث والقسم الرابع يرأسه بيجو بنفسه ثم خرجوا جميعاً وفي ذلك الوقت كان الامير في جنوبي ايالة وهران فقصده لاموريسير وطير الخبر الى بيجو ويوسف يخبرهم به لانهم تواعدوا على ان يجتمعوا عليه ويحولوا بينه وبين الصحراء قال بعض مؤرخيهم ولشدة عزمه وقوة حزمه وسرعة حركاته كان يوجد في المكان المعين ثم يفقد منه في اقرب وقت فلذا تركهم يجولون عدة اسابيع في نواحي شلف بدون طائل ثم بعد عناء وشدة اجتمع به بيجو ويوسف بجيوشهما في ابي الشطوط من بلاد اولاد شريف فوقع بينه وبينهما قتال شديد على وادي رهيو فقصدت فرقة من العدو الى مركزه فالجاته الى الوادي فشد على فرسه فارتمى به الى العدوة الاخرى وكانت المسافة بين العدوتين في مجرى النهر نحو الثلاثين ذراعاً هاشمياً ولم يلحقه انزعاج ولا لحق الفرس ضرر فاعدها الناس من اعظم خرق العوائد وفي آخر القتال انتصر على العدو مع كثرته وغنم منه نحو الخمسين فرساً ثم سار الى فليتة وبيجو يتاثره ثم ارتد عنه ليأسه من اللحاق به فلقيه يوسف في كوجيله في جيبته وكان الامير في نحو الفي فارس فاستجر له ليريه انه انكسر امامه ثم رد الكرة عليه ففرق شمل تلك الجيوش الكثيرة وبدد كتائبها وتحيز يوسف في ناحية من محل المعركة فقصده الامير ليبارزه فهرب وكان اليوم شديد المطر والرياح فلم يتمكن منه ولولا ذلك لاخذه اسيراً او اصماه بسيفه واعدمه الحياة ونعم الحارس الاجل وفي تلك

الليلة سار الامير من محل المعمعة غازيًا على قبيلة صدامة في وادي العبد غير ملتفت الى بيجو ولا الى لامورسير مع قربهما من بلاد صدامة ثم غزى قبيلة الاحرار فاكتسح من لحقه منها ثم توجه الى الجهة الشرقية فلاذت كافة قبائلها بطاعته ولم يزل يتنقل الى ان وصل الى جبال زواوة واحتل بجبل جرجرة وفيها التقى بخليفته السيد احمد بن سالم وفي اثناء مسيره الى تلك النواحي بلغه قرب العدو منه فخشي منه ان يتعرض له في طريقه فاغذ السير وقطع مسافة اربعة مراحل في ليلة واحدة وكان كلما وصل الى قوم ركبوا معه الى قوم آخرين الى ان وصل الى جرجرة ولذلك سمي بابي ليلة وبعد ان اخذ الراحة في تلك الجهة غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بطاعة الفرنسيس ومنازلهم بشرقي المدية ثم اجتمعت عليه قبائل زواوة وكانوا مستعدين للجهاد تحت رايته فانتخب منهم نحو الخمسة آلاف فارس وغزا بهم نحو متيجة فاكتسح الاموال وفعل في تلك النواحي الافاعيل وهرب الفرنساويون امامه الى مدينة الجزائر واستمر على فعله الى ان وصل قرب المدية كل ذلك وجيوش الفرنسيس تطلبه في ايالة وهران وايالة مليانة وبينما هم كذلك بلغتهم اخباره وفتكته في بلاد متيجة وانحاء الجزائر فتعجبوا من امره وارتاعوا من بطشه وبعد ان بلغ مراده من غزاته تلك وامتلأت ايدي جيوشه بالغنائم رجع الى جرجرة ومنها ارتحل الى الجهة الشمالية ونزل بارض فليسة من قبائل زواوة بالقرب من دلس وتبتعد عن مدينة الجزائر بمرحلة وصار يشن الغارات المتتابعة على سهول متيجة وقد مضى له اكثر من سنة بعيدًا عن اهله فكتبت متشوقًا اليه متعطشًا للقائه فاجابني بقوله .

بنيَّ لئن دعاك الشوق يومًا	وحنت للقا منا القلوب
ورمت بان تنال منا ووصلا	يصح بعيده القلب الكئيب
فاني منك اولى باشتياق	وناري في الفؤاد لها لهيب
وان اخفي اشتياقي في فؤادي	فان الشوق يكتمه الاريب

وقال يفتخر بنفسه وبجيشه

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول	وخضنا ابحرًا ولها زجال
اذا عنها توانى الغير عجزًا	فنحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لما	ينادي المستغيث الا تعالوا

وافظ الناس ليس له مسمى … سوانا والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر … ومصر هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كل لوءم … فاقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري … لكان لنا على الظمأ احتمال
ذرى ذا المجد حقا قد تعالى … وصدقا قد تطاول لايطال
فلا جزع ولا هلع مشين … ومنا الغدر او كذب محال
ونحلم ان جنا السفهاء حقا … ومن قبل السوءال لنا نوال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى … وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش … ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكر … بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر … رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم … بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريا … حماة الدين دأبهم النضال
لهم لسن العلوم لها احتجاج … وبيض ما يثلمها النزال
سلوا عنا الفرانس تخبرنكم … ويصدق اذ حكت منها المقال
فكم لي فيهمو من يوم حرب … به افتخر الزمان ولا يزال

ومما وجدته مقيدا بخط السيد قدور بن رويله كتب الامير قال ولما بلغ سيدي وسندي ومولاي الامير عبد القادر ابن سيدنا محي الدين نصره الله اني وصلت المدينة المنورة كاتبني وهناني بهذه الابيات

اخي نلت الذي قد كنت تطلبه … وفزت دوني بما ترجو وترغبه
وساعدتك الليالي لا شقيت فدم … قرير عين بوصل لست تسلبه
قد طاب في طيبة الغرا مقامكم … جوار محبوبنا من كنت ترقبه
يا هل ترى مثلما فزتم افوز وهل … تعلو سعودي على نحسي نتقلبه

ثم انه نصره الله ذكر لي ابيات ابن المبارك المروزي للفضيل بن عياض كتي بها نصره الله عن امره لي بالقدوم الى حضرته العلية وكان حفظه الله جرح في بعض مغازيه برصاصة اصابت طرف اذنه فلطف الباري والحمد لله على سلامته وهي ٠

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا … لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه … فنحورنا بدمائنا تتخضب

او كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الاطيب

فاجبته

بابي وامي افتديك من الردى وباحمد وباخته أتقرب
واحسرتي واضيعتي واخيبتي ان لم اكن بفدائكم اتلقب
وحياتكم فلانني بفراقكم لعلى لظى وجمارها اتقلب
هل من قطا يوماً يعير جناحه صباً غدا بفراقكم يتعذب
حتى اراني في حماكم واهباً روحي فداكم في رضاكم ارغب

ذكر واقعة نهر يسّر وما آل اليه امر الامير ورجوعه الى دائرته

ولما اتصل انتصار الامير في تلك الانحاء واشرأبت نفوس اهل الوطن اليه غص به حاكم الجزائر فجهز اليه الجنرال جانفيل بعسكر جرار وكان الامير معسكراً على شاطئ نهر يسّر من العدوة اليمنى فدهمه العدو في محله على حين غفلة فركب الامير فرسه ودافع بمن حضره من العسكر واشتد القتال بين الفريقين واختلطوا هبراً بالسيوف ووخزاً بالرماح ولا زال الامير يقاتل حتى وقع فرسه من تحته وركب فرساً آخر ثم رجع القهقرى بمن بقي من جيوشه وقصد جهة نهر سباو قال بعضهم وبهذه الواقعة انتهز بيجو الفرصة فوالى مسيره الى جرجرة واجتمع فيها بالجنرال جانتيل ثم زحفوا الى بلاد فليسة فاستولوا عليها وتنحى الامير مع جيوشه من مصادمتهم مرة اخرى ثم سارت الجيوش الفرنساوية الى نواحي الجنوب وتفرقوا في كل جهة واخذت القبائل يلوذون بالطاعة والانقياد اليهم ورجع الذين كانوا هاجروا من بلادهم منهم اليها ثم ان الامير لما رأى اضطراب الاحوال مع كثرة جيش العدو وعجز المسلمين عن المدافعة والمهاجرة اعتزم على التوجه الى نواحي الصحراء مراقباً سنوح الفرص ولا زال في طريقه يشن الغارات ويبث البعوث والغوازي يميناً وشمالاً على مستعمرات الفرنسيس الى ان اجتمع عنده من الغنائم مالم يدخل تحت حساب فعمد بالجميع الى جبل العمور طالباً بلاد اولاد نائل وقدم اثقاله وعساكره وتاخر في نحو السبعين فارساً يستطلع اخبار العدو فطار الخبر الى الجنرال يوسف العنابي المتنصر فسار بجيشه يطوي الليل والنهار حتى ادركه فالتفت الامير الى العدو بمن معه وصدقوه القتال واستمرت نار الحرب تضطرم نحو اربع ساعات واستشهد من المسلمين نحو الاربعين فارساً

ولم يبقى مع الامير الا نحو الثلاثين فجمعهم ورد الكرة على العدو فتطايروا امامه
ثم اختفى بمن بقي معه في بعض الاودية القريبة من موضع القتال فطلبهم العدو
فلم يجد لهم اثراً قال شرشل فعجب الفرنساويون من بسالته وشجاعته وسرعة اختفائه
حيث انهم طلبوه فلم يجدوه فكانه طار في الهواء او خرق الارض هو ومن معه
ثم قال وقد اوردت هذه القصة في باريس بين الاعيان في المحافل السياسية
في معرض التعجب والحيرة فشهد الجنرال يوسف للامير بالفضل على كل من
عرفت بسالته وحماسته من رجال الامم والذي اذهل العقول تواريه السريع
عن اعين الجميع بعد ان كان بينهم قال الجنرال ولقد رأيت من ثبات الامير وشدة
هجومه ما يحير الافكار ولما راى الامير كثرة الجيوش الفرنساوية وانتشارها في سائر
نواحي البلاد ورأى القبائل الذين كانوا يمدونه بالذخيرة وسائر ما يلزم له ولجيوشه
تركوا طاعته ولحقوا بالفرنسيس علم ان الوقت غير مساعد على الوصول الى اجتماع
الكلمة عليه والعدول عن طاعة عدوه الى طاعته سار بجيشه مغرباً على طريق الصحراء
فنزل على اولاد السيد الشيخ ابن الدين البكري في بلدتهم المعروفة بالابيض
فتلقوه بالتعظيم والاحترام واكرموا نزله ثم تقدم اليه كبيرهم وقال ايها الامير المعظم
انا نسألك بالله تعالى ان لا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا باقامتك
عندنا في بلادنا فان الفرنسيس لا يخفى عنادهم وظلمهم ولولا انهم اشد الخلق عتواً
وظلما واعتداء ما تسلطوا علينا واين بلادنا من بلادهم فهم في بر ونحن في بر آخر ومع ذلك
فانهم اعتدوا علينا وقصدوا ان يملكوا بلادنا ورقابنا فلما سمع الامير كلامهم رق لهم
واشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً الى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل
بني يزناسن ولاول وصوله اخبره بقتل الاسارى الفرنساويين المستولى عليهم في
واقعة الغزوات وتموشنت فاسف لذلك وتكدر ووبخ خليفته على الدائرة السيد الحاج
مصطفى بن التهامي فاعتذر عن ذلك باعذار كثيرة اشدها دسائس السيد محمد
البوحميدي وذلك ان الامير قبل واقعة الغزوات قد جعل امر الدائرة وما يتعلق
بها الى خليفته البوحميدي فلما وقعت واقعة الغزوات واعتزم على المسير لحمل القبائل
على الرجوع الى طاعته سلم الاسرى الى صهره وخليفته السيد مصطفى وعهد اليه
بامر الدائرة والنيابة عنه وفوضه تفويضاً مطلقاً باجراء مايعود نفعه على الدائرة
وان يمنع من اراد الخروج منها لان البعض وخصوصاً بني عامر اضمروا على الخروج
منها والدخول الى مراكش لما نالهم من المشقة والتعب وامره ان يبلغ البوحميدي

ان يلحقه بنجدة الى جنوب اقليم الجزائر ولما بلغ البوحميدي ظن ذلك من عدم ثقة الامير به فاخذ يهيج بني عامر على العود الى اوطانهم او اللحوق بسلطان المغرب الاقصى ويمنعهم من تقديم الطاعة لابن التهامي فحنق التهامي سيما من عدم توجهه بالنجدة للاميروامر بان الذي لا يريد ان يتوجه للنجدة يعطى فرسه الى من قتلت دابته في الحرب فحصل من ذلك قلق عظيم في قبيلة بني عامر لان العرب تعز خيولها اكثر من معزة نفوسها فاخذوا في الخروج من الدائرة الى بلاد مراكش فخرج في ليلتين مقدار مائتي خيمة والتجئوا الى القبائل المجاورة للدائرة وتبعهم الناس فافتكر السيد مصطفى لعمل واسطة تخوفهم من الخروج فلم يرَ بحسب فكره احسن من ذبح اسرى الفرنساوية الذين سلمهم الامير له واوصاه بحسن معاملتهم وظن ان ذلك الامر يؤخر العرب عن الخروج من الدائرة خيفة من الفرنساويين حيث انهم ارتكبوا امراً فظيعاً في حقهم فمنعه الخوف من غضب الامير وعتابه له لما هو محقق عنده من شدة اعتنائه بامر الاسرى وبذل الاكرام وحسن المعاملة لهم وصار يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى ورد عليه الخبر بزحف جيوش السلطان عبد الرحمن لانقاذهم من يده فازداد حيرة لوقوعه بين امرين خطرين اما سفك الدماء بين المسلمين لاجلهم واما ان يسلمهم لهم اختياراً ويصعب عليه الاعتذار عند مواجهة الامير ثم قوى عزمه على ما كان مصراً عليه وقتلهم وكانوا مائة وسبعة وثمانين اسيرًا وابقى احد عشر رئيساً وكانت هذه الفعلة الشنيعة افظع شيء وقع من هذا الخليفة في جميع تلك الحوادث والمواقع والحق يقال ان هذا الفعل خارج عن العدل ولولا ما اشتهر به الامير من حسن المعاملة للاسرى لظن الناس ان له دخلاً في هذا الامر ولذا قال بعض مؤرخي الافرنج ان حسن المعاملة المألوفة من الامير رفعت هذا الظن لانه كان ينزل اسراه منزلة الضيوف ويأمرلهم بافخر الطعام واحسن الملبوس وكان مرتب كل واحد من خمس ريالات الى عشرين على حسب مراتبهم وقد افرد شرشل الانكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه بذكر ما كان يعامل به الامير الاسرى الواقعين في يده من المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة وايد ذلك بحكايات صدرت من الامير في حقهم تستحق ان تكتب على طروس المواقع بماء الذهب وملخص ما ذكره ان الاعتناء الموجود عند الامير عبد القادر لاسراه الزائد عن الحد لم يكن له مثال في اخبار الحرب ولذا يجب على كافة المسيحيين ان يخرّوا عند قدميه نظراً لما ابداه من الرحمة والشفقة وحسن المعاملة لان الاسارى الذين يقعون في ايدي العرب المتوحشين كانوا معرّضين للتهديدات البربرية ولعدم فهم لفظة اسير عند القبائل المتوحشة كانوا لا

يبقون على كل من قبض عليه في ساحة الحرب وكان جل مرامهم تكثير عدد الرؤوس
من الاعداء افتخاراً بحملها على جوانب الخيول وطمعاً بما ينالهم على كل رأس من الجائزة
حتى صار ذلك الفعل طبيعة لهم لا يمكنهم تركها فكيف وقد اضطرمت نيران غيظهم
مما ألمّ بهم من الفرنساويين بيد ان مرحمة الامير وشفقته وبديع الحكمة والسياسة التي
ابداها بجعله لكل من اتى باسير سالماً ضعفي ما كان ياخذ على الرأس او ثلاثة اضعافه
وكل من اتى براس اسير يجازى بالجلد على رؤس الاشهاد واصدر الاوامر اللازمة بهذا
الشان في سائر مملكته وهذه المعاملة الحسنة واضرابها سرت في سائر خلفائه وعماله واثرت
في العرب والبربر تأثيراً غريباً فغلبت مرحمتهم الانسانية على شدتهم البربرية غير انه لم
يفق احد ما كان لوالدته من كمال الحلم والمرحمة ولطف المعاملة والشفقة على اسرى النساء
فقد اعتنت بهنّ اعتناء انساهنّ ما هنّ فيه وجعلت خيمتهنّ ملاصقة لخيمتها وعينت
اثنتين من امائها خفراً عليهنّ وفي كل صباح ترسل اليهنّ القهوة والشاي والسكر والزبد
واللحم وكافة ما تدعوهنّ اليه حاجتهنّ ومن شدة حرص الامير على الاعتناء بشانهم
كتب الى اسقف الجزائر ان يرسل اليهم كاهناً ليسليهم ويخفف مصائب الاسر عليهم
ويكتب لهم ما يريدون ان يكتبوه لعيالهم ويكون ذلك الكاهن اميناً على نفسه وضيفاً
مكرماً عنده ثم قال وان كان قلب الامير قاسياً عند لقاء الخطر لكنه يلين و يذوب شفقة
عند مشاهدة حزن الاسرى وكان اشد كراهة عنده ان يرى الاسرى من النساء و يضطرب
عند تصوّره وقوعهن فرائس الحرب وقد جاء اليه احد اعوانه باربعة من النساء اسرى
فحوّل وجهه وقال له متهكماً الاسد يقنص الحيوانات القوية ويقع ابن آوى على الضعيفة
واطلق مرةً اربعة وتسعين اسيراً بلا فدية ولا عوض وارسل معهم خفراً يوصلهم الى
رفقائهم فقال احد قوادهم ينبغي لنا اخفاء هذا الامر وكتمه عن العسكر لانهم ان علموا به
لا يتاتى لنا ان نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب ولم يكتفِ بتحسين حالة الاسرى
فقط بل كان يود المبادلة وقد طلب ذلك مراراً عديدة من الفرنساويين واصرّ عليه فلم
يجده نفعاً ومما يؤكد عدم اطلاعه على ما وقع بهم ما ذكره رُوا الفرنساوي في تاريخه
من ان الضباط الباقين منهم ارسلوا الى اهليهم في فرنسا كتباً يبرّؤنه بها ونص كتبهم
ان معاملة الامير للاسارى لم تزل معاملة حسنة بل عديمة النظير وان اكرامه لهم لا يقاس
عليه لعزته وجميع ما جرى على رفقائنا لم يكن باذنه ولا بعلمه بل لا يخطر في البال ان
يصدر مثل هذا الامر منه لانه يخشى مقابلة الفرنسيس له بالمثل فيذبحون الاسرى من
المسلمين الذين عندهم وهذا لا شك انه يهيج القبائل التي لها اسرى وعلى فرض انه امر به

صبره لما كان تأخر في انفاذ الامر تلك المدة الطويلة ولو قيل انه استشاره فيه بعد وصوله الى الدائرة فالوقت لا يقتضي ان يحصل على جواب في تلك المدة لان الدائرة كانت اذ ذاك في ملوية والامير في بلاد زواوة وبينهما مسافة ستمائة وثمانين كيلومترًا نعم ان الامير تغافل عن اظهار التهمة وتوجيه المسئولية على الرؤساء الذين فعلوا تلك الفعلة الشنيعة وهم السيد مصطفى ومن وافقه ليبري ساحتهم خوفًا عليهم من وقوع الخطر على احدهم ان وقع في يد الفرنسيس كما هو مقتضى طباعه الكريمة انتهى . وبالجملة فان شرف نفس الامير وكرم اخلاقه مع ما عهد منه فيما مضى من المعاملة للاسرى يحققان عدم صدور ذلك منه حتى ان المارشال بيجو قبل هذه الواقعة ارسل نيشان افتخار لبعض الاسارى الذين عند الامير اسمه اسكوفيه فلاول وصوله الى سموه امر باحضار اسكوفيه عنده وامر بعض اعيان العسكر ان يقلده النيشان بيده ثم احسن الى الاسير المذكور بما ملأ قلبه سرورًا وكتب اسقف الجزائر يسأله له اطلاق اسير من اقاربه وقال في كتابه ليس لي مال افديه به بل اقابلك بالدعاء والثناء والراحمون يرحمهم الله فاجابه الامير الى مطلوبه واطلق له اسيره وكتب اليه حيث انك زعمت انك مشفق على اسيرك فكان ينبغي لك ان تعم باشفاقك سائر الاسرى فتطلب اطلاقهم وقال فاليوت في تاريخه ان الامير كان في صورة عدوّ كريم الاخلاق فان كل من كان اسيرًا في قبضة يده من الفرنسيس قد اثنى عليه الثناء الجميل وكان يامر باعتنائهم من الخدمة يوم الاحد ملاحظًا في ذلك اعتبار الديانة المسيحية مع ان الفرنسيس لم يلاحظوا اعتبار يوم الاحد بل هو عندهم كسائر الايام فاذا كانت هذه احواله في مبدأ امره فكيف يكون على خلافها في منتهى امره انتهى . ثم ان الامير بدا له ان يفادي بالاسرى الباقين ولما لم يحصل على طائل اطلقهم وكتب الى ملك فرنسا ما نصه

الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى جلالة ملك فرنسا لويس فيليب احسن الله مقاصده في كل ما يؤل الى سعادته وجعله من الذين يتبعون سواء السبيل والمعروض لجلالتكم انني كنت مستعدًا لقبول شروط الصلح وطالما تعاطيت اسباب تقريره وسعيت وراءها فلم يجد ذلك نفعًا لشدة ما انطوت عليه بواطن عمال الجزائر من الفساد والعناد وتشبثهم بما يلقيه اليهم المنافقون من العرب والبربر الذين تردّوا في مهوى غيهم الداعي الى مكر الله تعالى بهم وغضبه عليهم وقد كتبت اليكم عدة مكاتيب فلم ياتني جواب منكم فقويت البواعث الردية في الجزائر على استمرار الحرب الى الآن وفي اثناء الوقائع بيننا وبين عساكركم

كان يقع في ايدينا اسرى كثيرة منكم فنفادي بها اسرانا الذين في ايديكم وفي السنة الماضية كتبت لنوابكم بمبادلة الاسرى فلم يردوا لي جوابًا فراجعتهم مرارًا فما افادت المراجعة شيئًا بل سجنوا رسلي واهانوهم وهذا اعظم دليل عند العرب بين المتحاربين على نقض العهد من فاعله حيث ان الرسل شانها ان تعاد الى مرسلها بلا اهانة ولا ايذاء وبعد ذلك شاع ان الفرنسيس عازمون على انقاذ اسراهم جبرًا من ايدي العرب ثم فشا بين الناس ان سلطان مراكش عازم على انقاذهم من يد خليفتنا رغمًا عنه فكان هذا مع سوء سلوك نوابكم سببًا لما وقع بالاسرى من غير اذن منا ولا علم لنا والآن قد اطلقنا عشرة ضباط مع الرئيس كورلى دي كوفري وهم يعلمون بما اجريناه من الوسائل والتدبيرات الحسنة لاجل الوصول الى الندية بما عندكم من اسرى المسلمين ويعلمون حسن معاملتنا لسائر الاسرى الذين يقعون في ايدينا ويعرفون ان عدم رد جواب نوابكم عن مكاتيبنا في هذا الامر هو الذي عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم واوجب ما اوجب مما كان من غير اختيار ولا قصد انتهى · وبعد ان اطلق الضباط المذكورين ارسل معهم حرسًا يوصلونهم الى مليليه وهي مرفأ لاسبانيا فوصلوا على احسن الاحوال وبعد وصولهم كتب كل واحد منهم بخطه بصورة الحال ونص ما كتبوه · حينما كنا اسرى عند الامير عبد القادر كنا نعامل احسن معاملة وكانت جرايتنا اليومية الخبز الخالص واللحم الجيد والسمن والسكر والقهوة وما اشبه ذلك ولم يحصل لنا ادنى اهانة من سائر الوجوه وعند ما كان الامير في الصحراء حرر خليفته البوحميدي الى المارشال في الجزائر في امر الفدا فلم يرد له جوابًا وعند ما اخذ العرب يقتلون رفقاءنا من غير علم الامير سالنا عن السبب فاخبرونا انه قد عزم المراكشيون على اخذهم جبرًا وبعد هذا كله انعم الامير علينا باطلاق سراحنا وارسلنا الى مليليه وكان هذا منه احسانًا من غير عوض حرر في السادس من تشرين اول سنة ست وسبعين وثمانمائة والف كاتبه · توما · باربوت · هابوس رئيس الفرقة الثامنة من معسكر اوريان · مينا كرينا · ماريسن · كورلى دي كوفري رئيس فرقة الفرسان · واطلاق هولاء الضباط لم تحتفل به فرنسا ولم تلتفت اليه وتمادت على غيها وغرائها لسلطان مراكش على الامير فارتاع السلطان عبد الرحمن وبعث الى الامير يامره بالخروج من الحدود ويذكر له انه لا سبيل الى خلاصك الا باحد امرين اما ان تسلم نفسك الينا واما ان تخرج من الحدود فان ابيت ان تجري احدهما طوعًا فنحن نجريه كرهًا ثم دس الى القبائل

القرية من الدائرة في التضييق عليها وقطع الميرة عنها والتجافي عن مواصلتها بكل ما يعود بالنفع عليها فوجم الامير لهذا الامر وكتب الى السلطان ما نصه ٠ اما بعد فاني كاتبتكم اولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لانهم كلهم اولاد دين واحد وشريعة واحدة فلم ياتني جواب عن ذلك ولم يحصل لهم ردع من طرفكم ومع هذا كله انا صابر ومتحمل لما يجرونه كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة اشهر طمعاً في رجوعهم عن البغي والطغيان الى العدل والاحسان مع قدرتي عليهم في كل آن فان لم تردعهم الآن عن افعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم التزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف اتباعي ولذا بادرت باخباركم والسلام عليكم ٠ ثم جمع اعيان جيشه ودائرته واطلعهم على حقيقة الحال فعلموا ان الرجل قد ضل رشده في التخلي عمن ينصره ويحمي حوزته وانه وافق العدو على اذلال المجاهدين في سبيل الله والغض من شانهم ثم قالوا الامير اننا قد بايعناك على السمع والطاعة والجهاد الى الموت ونحن مستعدون للوفاء بالعهد من اتباعك والكون معك في سائر احوالك ثم اتفقت كلمتهم على الاقامة في مواضعهم والدفاع عن حوزتهم ٠ وكتب الامير الى علماء مصر يستفتيهم فى ذلك ونصه ٠ الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وارض اللهم عن الصحابة اجمعين وعن الائمة الراشدين من خديم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر بن محيي الدين الى سادتنا العلماء الابرار الافاضل الاخيار رضى الله عنكم وارضاكم وجعل الجنة منزلكم ومثواكم جوابكم عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس فضلاً عن اعيانهم فامعنوا نظركم فيها شافياً واجيبونا جواباً كافياً خالياً عن الخلاف ليخلو قلب سامعه عن الاعتساف وذلك انه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر وخلت الايالة عن الامير وانقطعت السبل وعطلت الاسباب وطالت شوكة الكافر اجتمع ذوو الرأي وتفاوضوا على ان يقدموا رجلاً من ساداتهم يؤمن السبل ويكشف المظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى الكافر في راحة فتمتد يده فاختاروا رجلاً منهم وقدموه لذلك فتقدم وعمل جهده فيما قدموه له فتامنت السبل بحمد الله وتيسرت الاسباب بعونه وجاهد في سبيله وذلك من لدن سنة الستة والاربعين الى سنة ثلاث وستين هذه ولن نزال كذلك ان شاء الله فاذا بسلطان المغرب فعل بنا الافعال التي تقوي حزب الكافر على الاسلام وتضعفنا واضر بنا الضرر الكثير ولم يلتفت الى قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ولا الى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن لاخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ولا الى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمنون تتكافاء دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم الى غير ذلك من الاحاديث الشريفة فاول ما فعل بنا انا لما كنا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحواً من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومادة البر من الحب والحيوان وغيرهما تضييقاً عليه وتضعيفاً له خصوصاً من جهة الحيوان لان قانون عسكره انهم اذا لم ياكلوا اللحم يومين او ثلاثة يفرون عن طاغيتهم ولا يقاتلون ولا يلامون حتى بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال دورو فاذا بالسلطان المذكور امدهم وهم في الضيق الشديد بالوف من البقر وغيرها الثاني انه غصب من عاملنا الفاً وخمسمائة بندقية انكليزية الثالث انه غصب من وكيلنا اربعمائة كسوة جوخ اعددناها للمجاهدين الرابع ان بعض المحبين في الله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين فاذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه وقال انا احق بها والحال انه لم يجاهد الخامس ان بعض القبائل من رعيته عزموا على اعانتنا بانفسهم في سبيل الله فمنعهم من ذلك واعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله فحبسه الى الآن زجراً له وردعاً لغيره السادس انه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيس اياماً قلائل ثم تصالحا واشترط عليه الفرنسيس ان لا يتم الصلح بينهما الا اذا حل امر هذه العصابة المحمدية المجاهدين ويقبض رئيسهم فاما ان يحبسه طول عمره واما ان يقتله واما ان يمكنه من يد الفرنسيس او يجليه من الارض فاجابه السلطان الى ذلك كله ثم امرني بترك الجهاد فابيت لانه ليس له عليّ ولاية ولا انا من رعيته ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من لم يجد صبراً واسقط من المجاهدين ركناً ثم اخذ يسعى في قبضي فحفظني الله منه ولو ظفر بي لقتلني او لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيس ثم امر بعض القبائل من رعيته ان يقتلونا ويأخذوا اموالنا وكأنه استحل ذلك فابوا جزاهم الله خيراً فاذا تصورتم ايها السادات هذه الافعال التي تتفطر منها الاكباد وتتاثر عند سماعها العباد فهل يحرم عليه ذلك ويضمن ما غصب ويقتل بنا ان قتلنا حسبما نص عليه المعيار في اول باب الجهاد وزبدته انه اذا نزل الكافر بساحة المسلمين وقال لهم ان لم تعطوني فلاناً او ماله او يقتل استاصلتكم فانه لا يسعهم ذلك ولا يعطوه شيئاً مما طلب ولو خافوا استيصاله فان اعطى ماله ضمنه الآمر به ونقل ذلك عن نصوص

المالكية والشافعية وكما نص على ذلك ايضاً الشيخ مياره في شرح لامية الزقاق في آخر باب الامامة الكبرى ونصه قال ابن رشد اذا امر الامام بعض اعوانه بقتل رجل ظلماً ففعل فلا خلاف انهما يقتلان معا نقله المواق عند قول خليل في باب الجنايات كمكره ومكره فان فعل المأمور ذلك خوفاً على نفسه فانه لا يعذر بذلك قال ابن رشد ايضاً الاكراه على الافعال ان كان يتعلق به حق لمخلوق كالقتل والغصب فلا خلاف ان الاكراه غير نافع نقله ايضاً عند قوله في الطلاق لا قتل مسلم وقطعه ونقله الحطاب في هذا المحل الثاني ونصه في آخر معين الحكام ومن هدد بقتل او غيره على ان يقتل رجلا او يقطع يده او ياخذ ماله او يزني بامراة او يبيع متاع رجل فلا يسعه ذلك وان علم انه ان عصى وقع به ذلك فان فعل فعليه القود ويغرم ما اتلف ويحد ان زنى ويضرب ان ضرب ويأثم اهـ وهل المهادنة التي اوقعها فاسدة ومنقوضة لان الجهاد تعين عليه قبل ان يفجأه العدو بسبب قربنا منه وعجزنا عن الجهاد ولان منفعتها عائدة على الكفار وو بالها على الاسلام كما هو مشاهد حسبما نص على ذلك في المعيار ايضاً في باب الجهاد في الجواب عن سؤال التلمساني وحاصله ان الخليفة اوقع الصلح مع النصارى والمسلمون لا يرون الا الجهاد فاجابه بما حاصله ان مهادنته منقوضة وفعله مردود ونقل على ذلك نصوصاً وهل يحمل بيع البقر لهم في وقت حصرهم المسلمين على حرمة بيع الخيل لهم والشعير وآلة الحرب ام لا وعلى انه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا وتفريق جماعتنا وما ينشا عنه من ترك الجهاد بالكلية واقتحم الامر وشق العصا وجاءنا بالجيش ليقتلنا وياخذ اموالنا ويفرق جمعنا فهل يجوز لنا ان نقاتله بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة ايضاً في شرحه المذكور في الباب ونصه انظر اذا خلا الوقت من الامير واجمع الناس رايهم على بعض كبراء الوقت ليمهد سبلهم ويرد قويهم عن ضعيفهم . فقام بذلك قدر جهده وطاقته . والظاهر ان القيام عليه لا يجوز . والمعترض له يريد شق عصى الاسلام وتفريق جماعته ففي صحيح مسلم رضي الله عنه عن زيادة بن علاقة قال سمعت عرفجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انها ستكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان وبسنده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه اهـ ام لا يجوز لنا ذلك ونترك الجهاد ليس الا جوابكم تؤجرون وتحمدون وعليكم السلام في البدأ

والختام والحمد لله رب العالمين

فاجابه العلامة الحجة الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بالديار المصرية بقوله ٠ الحمد لله رب العالمين ٠ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين ٠ نعم يحرم على السلطان المكون اصلح الله احواله جميع ذلك الذي ذكرتم حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه مثقال ذرة من الايمان ٠ وما كان يخطر ببالنا ان يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الامور مع مثلكم فانا لله وانا اليه راجعون وما قدر الله سبحانه وتعالى لا بد ان يكون خصوصاً وانتم جسر بينه وبين عدوه وان كنا في اطمئنان على اقليمه من استيلاء عدو الله عليه بما في الاحاديث الصحيحة من بقاء اهله على الحق حتى تقوم القيامة ٠ منها ما وجد بخط الشيخ المقري ونصه من خط الفقيه المحدث العالم ابي القاسم العبدوسي حفظه الله تعالى ما نصه وجدت في ظهر تقييد الشيخ ابي الحسن الصغير على المدونة بخط من يقتدى به ٠ قال ذكر صاحب كتاب نقط العروس عن ابي مطرف ٠ قال حدثنا محمد بن الموز ٠ عن ابن القاسم ٠ عن مالك بن انس ٠ عن ابن شهاب ٠ عن سعيد بن المسيب ٠ عن ابي هريرة قال ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس ٠ اقوم اهل المغرب قبلة واكثرهم صلاة ٠ اهلها قائمون على الحق ٠ لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامة ٠ اه وكذا ضمانه لما غصب ضروري لا يشك فيه مسلم ٠ وكذا استحقاقه القصاص منه بقتله مؤمناً عمداً عدواناً مباشرة او باكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة والنصوص التى ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التاويل والمهادنة التي اوقعها فاسدة منقوضة ٠ وما نسبتم للمعيار هو كذلك فيه وبيع البقر وسائر الحيوان والطعام والعروض وكل ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعاً اجماعاً ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حال حصر المسلمين اياهم وفي حال عدمه اذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من النساء والصبيان من اهل تلك البلاد ومن قرب منهم كاهل عمل السلطان المذكور وفقه الله تعالى فكيف يتخيل مسلم ان معاملتهم بما ينتفعون به ويتقوون به على البقاء في ارض الاسلام جائزة مع ذلك قال الحطاب واما بيع الطعام يعني للحربيين فقال ابن يونس عن ابن حبيب يجوز في الهدنة واما في غير الهدنة فلا قاله ابن الماجشون اه وظاهره ان هذا فيما يذهبون به لبلادهم واما ما يستعينون به على البقاء في ارض الاسلام وقتال اهله اولى بالمنع وان اقتحم الامر وشق العصا واتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله وجوباً عينياً اذ هو حينئذ

كالعدو والبغاة المتغلبين الفاجئين القاصدين الانفس والحريم لعدوانه وتجاريه على ما اجمع المسلمون على تحريمه وهو انفسكم وحريمكم واموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالاجماع من جهاد الكفار الفاجئين لكم والمقتول منكم في قتاله كالمقتول في قتال الكفار ليس بينه و بين الجنة الا طلوع الروح فصمموا على قتاله واعدوا له ما استطعتم من قوة نصركم الله تعالى عليه وعلى اعداء الدين وبارك فيكم وفي كل من اعانكم من المسلمين وخذل كل من عاداكم وخذلكم كائنًا من كان وجعل كيده في نحره ونص ما في المعيار وسئل بعض فقهاء تلمسان جوابكم سيدي عما عمت به البلوى في بلادنا وعظم من اجله الخطب واتسعت فيه المقالات وذلك ان الخليفة اصلح الله حاله صالح هؤلاء النصارى الذين اخذوا سواحلنا الى اجل معلوم والمسلمون يرون ان جهادهم من اعظم القربات فصاروا يغيرون على اطراف بلادهم فيقتلون ويضيقون بهم هل ذلك طاعة او معصية والفرض ان الخليفة لا يوافق على ذلك ويعاقب عليه اجيبونا ارشدتم ووفقتم ٠

فاجاب الحمد لله الذي ايد الدين المحمدي بالجهاد ٠ ووعد الساعي فيه بالوصول الى اسنى المراد ٠ والشهيد بالحياة المحفوفة بالرزق والحسن في برزخ الموت والامداد ٠ فما من ميت الا يتمنى العود الى الدنيا الا الشهيد ٠ لما يرى من فضل الشهادة ٠ من ذي العرش المجيد ٠ فيطلبها ليزداد له من الكرامة ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بعد المعاد فاعظم به من وصف لا تحصى فضائله اذ قدمت على نوافل الخير العلي نوافله عند اهل الاجتهاد وصلى الله على سيدنا محمد النبي المبعوث لجميع الخلائق المنعوت بجميل الخلائق القامع بلسانه وسيفه وبرهانه اهل الباطل والعناد وعلى آله واصحابه الذين وازروه على اظهار الخزي عنه من الاضداد فجلبوا ببركته لامته المصالح وبذلوا لهم النصائح ودفعوا العناد صلاة وسلاما ننال ببركتهما من الخيرات والبركات ما يخرج عن المعتاد

اما بعد ايها الاخ الكريم محتده الجميل معتقده ٠ فان جواب سؤالك يتوقف على تقرير مقدمة بتقريرها يتبين ما يتضح به المسئول عنه فنقول الصلح الواقع بين امام المسلمين واعداء الدين على ضربين الضرب الاول حيث يكون الجهاد فرض كفاية والثاني حيث يكون فرض عين اما الاول فحيث يكون المسلمون طالبين على الكافرين الحربيين فالصلح لمصلحة يراها الامام بحسب اجتهاده جائز عند المالكيين ونقل ابن عبد البر عن سحنون انه قال لا يبعد في المدة ونقل ابن شاس عن ابي

عمران انه استحب ان لا تكون المدة اكثر من اربعة اشهر الا مع العجز واما الضرب الثاني فهما تعين الجهاد في موضع لم يجز فيه الصلح كما لو كان العدو طالبًا على المسلمين وقد يفجأ موضعهم وهو ضعف عدد المسلمين فاقل لاشدة وعدة على المشهور عند المحققين فيتعين على من نزل بهم ومن قاربهم دفعهم في الحين ونقل اللخمي عن الداوودي فرضية الجهاد على من يلي العدو ويسقط عمن بعد عنه وقرره المازرى بانه بيان لتعلق فرض الكفاية لمن حضر محل تعلقه قادرًا عليه دون من بعد عنه لعسره فان عصى الحاضر تعلق بمن يليه وحاصل كلام المازرى ان فرض الكفاية الذي هو حكم الجهاد قد يعرض له ما يوجبه على الاعيان في بعض الاحيان وفي تلقين القاضي عبد الوهاب قد يتعين في بعض الاوقات على من يفجأهم العدو وفي نوازل ابن ابي زيد عن سحنون ان نزل امر يحتاج فيه الى الجميع كان عليهم فرضًا ولو سبى المشركون النساء والذرية والاموال وجب استنقاذهم على من قوى عليه مالم يخافوا على انفسهم او على اهليهم بروءية سفن او خبر عنها فكل ما نقل في تعين فرض الجهاد مانع من الصلح لاستلزامه لابطال فرض العين الذي هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ وفي العتبية سئل مالك اواجب على المسلمين فنداء من اسر منهم قال نعم اليس واجبًا عليهم ان يقاتلوا حتى يستنقذوهم قال بلى قال فكيف لا يفدونهم باموالهم وفي مثل هذا اعني حيث يتعين الجهاد حكى القاضي ابن رشد الاتفاق على انه اقوى من الذهاب الى حجة الفريضة لان الجهاد ان تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه انه على التراخي ولما تقررت هذه المقدمة بما فيها من النصوص الائمة تعين بها ان الجهاد فرض عين في مسئلة السوءال فيمتنع فيه الصلح على كل حال لا سيما ان طالت مدته فقد عادت على العدو اهلكه الله مصلحته وعلى المسلمين منسدته وان تخيلت فيه مصلحة فهي للعدو اعظم من وجوه مكملة فانه يتحصن في تلك المدة ويكثر من آلات الحرب والعدة فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ ويصعب عليهم تحصيل المراد بعد تيسره لو ساعد التوفيق ولكن المولى جل جلاله المسئول في هدايته الى سواء الطريق فما وقع من الصلح هو مفسدة على الاسلام فلا يكون له في نفس الامر ابرام فالصلح المذكور يجب نقضه لانه بمقتضى الشرع غير مبرم فحكمه غير لازم عند كل من حقق اصول الشريعة قال في التلقين ولا يجوز ترك الجهاد لهدنة الا من عذر لا يقال الصلح المسئول عنه داخل في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب والصلح من المسلمين لا يكون في الغالب الا من عذر على انه حكم اجتهادي من امام فلا سبيل الى نقضه لانا نقول وقع ذلك عقب الداهية الدهيا وهي انتهاز العدو دمره الله الفرصة في بلاد المغرب

مع توفر الاسلام والعدد والعدو ليس له فيها مدد والمسلمون لا يقصرون عن ضعف العدو فضلا عن ان يكون عدوهم ضعفهم فاما ان يكون الصلح لخوف استئصال الكافرين بقية المسلمين واما للخوف من المحاربين والاول باطل لمخالفته الفرض والثاني كذلك ايضاً لان الخوف من المحارب بالفرض لا يتأتى مع امكان انقسام العدو واتصال المسلمين بحصول المدد فالواجب القتال وان كان العدو ذا جلد ومعه كثرة العدد فلا يدخل الصلح في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب وحكم الجهاد ينقض اذا تبين فيه الخطأ كما نقل عن سحنون وطول المدة في الصلح المذكور خطا فيه فينتقض الصلح وذلك ايضاً لان الصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين وترك الجهاد المتعين ممتنع فالصلح المذكور ممتنع وكل ممتنع غير لازم والجهاد في الموضوع المذكور لم يزل متعينا من زمن الوخزة الى الآن وعن ابن القاسم ان طمع قوم في فرصة في عدو قربهم وخشوا ان اعلموا الامام يمنعهم فواسع خروجهم واحب اليّ ان يستاذنوه قال ابن حبيب سمعت اهل العلم يقولون ان نهى الامام عن القتال لمصلحة حرمت مخالفته الا ان يرحمهم العدو وقال ابن رشد طاعة الامام لازمة وان كان غير عدل ما لم يامر بمعصية ومن المعصية النهي عن الجهاد المتعين على ما تقدم والله سبحانه وتعالى اعلم . ومما ينبغي ان يذيل به ما وقع من جواب السوال بيان حقيقة الصلح لغة وشرعاً وبيان الممتنع منه والجائز بمال او بغير مال وهو المعبر عنه في كتب الفقه بالمهادنة قال الجوهري هادنه صالحه والاسم الهدنة واما حقيقته في العرف الفقهي فهو عبارة عن توافق امام المسلمين والحربيين على ترك القتال بينهم مدة لا يكونون فيها تحت حكم الاسلام فقولنا الامام يخرج من سواه من المسلمين فاذا حصل منه فلا يتم ولو كان امير السرية وبقية الرسم تخرج الامان والاستئمان وذكر المدة غير مقيدة فيه اشارة الى انها موكولة الى اجتهاد الامام ما لم تطل ويفهم ذلك من تنكيرها فانها للنوعية واما حكمه فالجواز ان اقتضته مصلحة للمسلمين والمنع ان تضمن مفسدة عليهم قال ابن حبيب عن ابن الماجشون ان رجى الامام فتح حصون لم ينبغ له صلح اهله على مال وان على اياس منه فلا باس بصلحهم على غير شيء كصلح الحديبية وان لم يتضمن مصلحة ولا مفسدة فهو مكروه لما فيه من توهيم الجهاد فان نزل مضى ما لم تتبين فيه مفسدة بعد عقده فينتقض قال الشيخ ابن ابي زيد عن سحنون ولو هادنهم الامام على مال ثم بان له انهم غروا بالمسلمين لم ينبذه حتى يرد ما اخذ منهم وكذلك ان بان ذلك لمن بعده ولا يحبس من المال بقدر ما مضى من الاجل قال سحنون وليس للامام نقض الصلح لغير بيان خطئه فيه ولو رد ما اخذ الا برضا

من عاقده ونقل الشيخ ابن ابي زيد عن ابن المواز انه قال كره علماؤنا المهادنة على ان يعطينا اهل الحرب مالاً كل عام قال محمد وانما هادن النبي صلى الله عليه وسلم اهل مكة لقلة المسلمين حينئذ هذا ما يتعلق بالصلح على مال ياخذه الامام او بغير مال واما لو وقع بمال يعطيه المسلمون لهم فقال المازري لا يهادن العدو باعطائه مالاً لانه عكس مصلحة اخذ الجزية منه الا لضرورة التخلص منه لخوف استيلائه على المسلمين وقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم لما احاطت القبائل بالمدينة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في ان يبذل المسلمون ثلث الثمار لما خاف ان يكون الانصار ملت القتال فقالا ان كان هذا من الله سمعنا واطعنا وان كان رأياً فما اكلوا منها في الجاهلية تمرة الا بشراء فكيف وقد اعزنا الله تعالى بالاسلام فلما راى النبي صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتال ترك ذلك فيؤخذ من هذه القضية جواز اعطاء المال على الوجه الموصوف للضرورة اذ لو لم يجز لم يشاور فيه الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه قد شاور فيه فهو جائز وبيان الملازمة هو ان المشاورة في دفع المال ملزومة للهم بدفعه على تقدير الموافقة على اعطائه ولا يهم الرسول صلى الله عليه وسلم بممتنع واما بيان المقدمة الاستثنائية فبما ذكره اهل السير والله جل جلاله الموفق بفضله لا رب سواه

ذكر نكبة ابي معزة ووقوعه في قبضة الفرنسيس اسيراً

تقدم انه ظهر في نواحي شلف وادعى بانه المهدي المنتظر ثم انكشف عوارده وتلاشى امره ولحق بالامير وانخرط في سلك قواده واقام معه في الدائرة مدة وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وسبع واربعين وثمانمائة انفصل عنه في لمة من اصحابه ولحق بقبائل الصحراء ثم اظهر دعوته في قبيلة فليتة فقام بها رئيسهم ابن جلول واستفحل امره في تلك الجهة وبلغ حاكم الجزائر خبره فجهز لقتاله الجيوش تحت نظر الجنرال مونج والجنرال هربيلون وجرت بينهم وبينه في نواحي مينة حروب انكسر فيها ابو معزة ولحق باولاد نائل فشن مونج الغارة عليهم واكتسح اموالهم واستلحم منهم جموعاً كثيرة ثم انضم هربيلون الى مونج وساقوا جيوشهم الى ابي معزة فادركوه في نواحي تاهرت وشتتوا شمله ولما ضاقت به الارض واحس بالعجز من نفسه استامن الى القومندار سنتارنو فلم يجبه واخذه اسيراً الى الجزائر ثم اشخصه المارشال بجو الى باريز فاقام بها مدة وفر هارباً الى مرسى برست فالقى عليه القبض وسجن في قلعة هام وفي ايام الامبراطور لويس نابليون الثالث اطلق سبيله ولم يزل يتجول في بلاد فرنسا الى ان جرت الحرب بين الدولة العلية والروسيا

المشهورة بحرب القريم سافر الى الاستانة ودخل في سلك الجيوش العثمانية المتطوعة و بعد انعقاد الصلح خرج من الاستانة ولحق بالعراق واقام ببغداد مدة ثم انتقل الى باطوم وفي سنة خمس وتسعين ومائتين جاء الى دمشق واقام عند الامير شهوراً ثم توجه الى بيروت ومنها الى طرابلس الغرب ودخل افريقية ودعا الناس الى الجهاد ثم رجع الى باطوم من غير طائل ٠

ذكر تسليم الخليفة السيد احمد بن سالم الى الفرنسيس

لما طال الامر على الخليفة السيد احمد بن سالم وعجز عن مدافعة العدو ويئس من الانتصار عليه استأمن الى الحاكم الفرنساوي في صور الغزلان وطلب منه تخلية سبيله الى المشرق فامنه ووعده باجابة دولته الى ما طلبه منه وفي الثاني عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وستين ومائتين والتاسع والعشرين من شهر فبراير سنة سبع واربعين حضر في ثلة من ذويه الى صور الغزلان معلناً بطاعته وتسليمه فتلقاه الحاكم بما يليق بمقامه من الاكرام لما عهد عنه واشتهر به من شدة البأس وقوة الجأش وحسن السياسة وطار الخبر الى الجزائر فاستعظم اهلها هذا الامر اكثر من امر ابي معزة ثم هاجر الى دمشق الشام وتوفي بها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وبتسليم هذا الخليفة ضعف امر المسلمين في الجهة الشرقية وتلاشى عزمهم واشرأبت نفوس رؤساء القبائل الى الدخول في طاعة الفرنسيس وتقدمهم في ذلك قاسم بن قاسي الزواوي واقتدى به جم غفير من الرؤساء وانتهز المارشال بيجو الفرصة فخرج في الجيوش الى الجبال البربرية واوقع باملها ثم سار في الجهات الجنوبية و وصل الى صطيف والزيبان وبسكره ونواحي الجفنة واولاد نائل وجبل العمور ووقعت في تلك النواحي حروب جسيمة كانت النصرة فيها لجيوشه وتمهدت له الطاعة في سائر الاعمال الشرقية ثم كتب الى القبائل الغربية ما ملخصه من المارشال بيجو والي مملكة الجزائر وسائر اعمالها الى كافة بني يزناسن واهل انكاد والاحلاف والمهاية والمطالسه وبني بويحيي والقلعية وكافة اعراش نواحي الغربية بين الجزائر والايالة الغربية اعلموا اني اتكلم معكم بكلام يدل على الخير والمحبة البالغة ولولا المحبة لم اذكره وكنت افعل ما رمته فانصتوا لمقالتنا وتاملوها لانها نصيحة وارشاد وهي ان لكم مدة اربع سنين وانتم جادون في فعل الشر معنا ونحن نسامحكم حتى كثر العيب ووقع منكم ما وقع كما هو تحقق لديكم وبعد الوقائع كلها الهمنا الله للسداد والرشاد

وكان اول الشروط التي وقعت بيننا ان لا يبقى الامير عبد القادر بين ايالتكم وايالتنا وان لا تقبلوه في ارضكم فلما ضاق عليه المجال في ارضنا فرَّ منا وجر ذيله بيلادكم فقبلتموه واكرمتموه وبجلتموه وكان فعلكم هذا سبب الفساد الذي وقع بيننا وبين المعظم الارفع محبنا وصديق دولتنا صاحب السياسة والرياسة مولاي عبد الرحمن ابن هشام اعزه الله فانتبهوا من غفلتكم وفرقوا بين ضركم ونفعكم واعلموا بان الامير عبد القادر كالحية الرقطاء لمسها لين وهي قاتلة سماً وقد ذكر بعض الاوائل ان رجلاً وجد لفعة في سياق الموت من الم البر فاشفق لحالها وادخلها بين ثوبه ولحمه فلما افاقت وتحركت لسعته فمات وصار هذا مثلاً يضرب لمثلكم ونحن جعلنا الحدود وسويناها ووضعناها بيننا وبينكم وبيناها ولم تتم اربعة اشهر حتى افسدتم الامر وصار الامير عبد القادر يسير بخيولكم ورجالكم اعانة له واعراش بلادنا فرت اليكم وتحزموا معه وقد وصل لنواحينا وغزا ولم يحصل على مراده ولما وقع ذلك عزمنا على الدخول لايالتكم بجيوشنا ولم يبقَ الا التحرك فاذا بصديقنا المعظم الارفع مولاي عبد الرحمن كتب لسعادة سلطاننا راي فرنسا وبعث له البشدور يقول له تربص ولا تعجل حتى ننظر امر هؤلاء الرعية ونكفهم عن فسادهم وربما ينصتون بعد النهي وقد مضى ستة اشهر ونحن نراقب ما يصدر من الخير لكم ولنا فاذا به نسمع جعجعة ولا نرى طحناً والآن انا طردنا الامير عبد القادر وافسدنا امره ودخل ارض الفلات وقرب منكم وصار البوحميدي يمده بخيل ورجال منكم ومن غيركم وهو يحكم بوسطكم ويصول عليكم مع امساكه الزكاة والعشور والمطالب المخزنية ولم تكفوه عن ذلك او تجنبوا عنه وتتبرؤا منه ومن حلمنا وعدم عجلتنا بقى عسكرنا كانه في السجن منتظر لامرنا وهذا هو العجب وقد امتلأ القلب وفاض المكيال وكل شيء له نهاية وكال وان هذا والله لم يقع بين الاجناس اصلاً في الماضي والمستقبل وصبرنا لم يكن عند ملك ابداً لانا مراقبون امر هذا الثغر وقد اردنا ابتسامه واطلعنا على جميع احواله وفهمنا مراد اناسه ونظن احد امرين اولهما ان السلطان مولاي عبد الرحمن امركم بالكف عن الفساد وخالفتم امره فليس لنا كلام مع السلطان المذكور ولكن ندخل بلادكم بالجند الموفور واما ان يكون امركم بهذا خفية منا فهو العدو حيث قبل عدونا وحاشاه من ذلك ولا سيما ان الملوك اذا عاهدوا انجزوا واعلموا ان هذا ليس خوفاً منكم انما هو الواقع وفعلكم هذا يوافق الشريعة وربما لم يوافق جميع الاديان لخروجكم عن طاعة اميركم وهو دليل شركم بلا فائدة فاشروا بجرايكم نطلب

من الله تعالى ان ينبهكم من غفلتكم ويعرفكم بطاعة اميركم وتطردوا الامير عبد القادر وابناءه وننسى كل ما فات ويتبدل الغضب بالرضى والجوار اوصى عليه الرسول وفي هذا كفاية والسلام في الرابع من جمادى الاولى سنة ثلاث وستين ومائتين . فمن نظر كتاب المارشال بيجو المرسل لهذه القبائل وتامله ثم قابله مع الكتاب المرسل اليهم من السلطان عبد الرحمن الآتي ذكره وتامل تامل المنصف فعل كل من دواني فرانسه ومراكش وما اجرته ضد حركات الامير علم بداهة ما كان بينهما من المخادنة والمواطئة سرًّا وعلنًا على ابطال حق الحق واطفاء نور الصدق وعند الله تجتمع الخصوم . ثم رجع بيجو الى الجزائر وامر حاكم وهران بالخروج في العسكر الى الصحراء الغربية فجال في جهاتها واوقع بقبائل حميان واولاد السيد الشيخ ابن الدين في التخوم لجهة الجنوب وصارت السلطة الفرنساوية متمكنة في النواحي الغربية والشرقية من حدود مراكش الى تخوم تونس

ذكر استعفاء المارشال بيجو من ولاية الجزائر وسفره الى فرنسا

قد تقدم انه كان جنرالاً وقائدًا للعساكر الفرنساوية في وهران وهو الذي ابرم معاهدة تافنا مع الامير ولم يحسن الادارة بتلك المرة بيد انه تدرب مذ درس في مدرسة الامير الحربية احسن الادارة في المرة الثانية واظهر من الاقدام والشجاعة وتحمل من الخطوب ما لم يكن في حساب وكان في سن الشيخوخة فسماه الامير الاسد الهرم قال بعض مؤرخيهم ولذلك منحته دولته قوة لم تمنحها لاسلافه لا سيما انها اعتبرت عبد القادر بعد الحوادث الاخيرة رجلاً عظيمًا في كل امر فامرت بتلاحق ارسال النجدات العسكرية والذخائر الحربية ولما تم الامر المقصود للمارشال بيجو في بلاد الجزائر وتمهدت فيها الطاعة لدولته قدم استعفاءه طلبًا لراحة نفسه مما لحقه من اتعاب الحروب ومعاناة الخطوب مدة تزيد على ست سنين متوالية لم يسكن فيها روعه ولم يهدأ في سائر اوقاتها فكره فاجابته الى مطلوبه فترك الجزائر وسافر في الحادي والعشرين من جمادى الثاني سنة ثلاث وستين ومائتين والرابع من مائة سنة سبع واربعين وثمانمائة واقام الجنرال بار وكيلا فيها ثم ابدل بالجنرال بيدو وفي الخامس والعشرين من شوال والخامس تشرين اول جاءها الدوك دومال ابن الملك حاكمًا عامًا فضبط امورها واقر الجنرال لاموريسير على ولايته في وهران وعين الجنرال بيدو حاكمًا على قسنطينة والجنرال كافيناك على الجزائر ثم خرج يتفقد الحاميات والمسالح وخلا له الجو فلم يتعرض له احد ولله الامر من

قبل ومن بعد .

ذكر وقعة تافرسيت من بلاد الريف الغربي

قد تقدم ان عبد الرحمن سلطان المغرب الاقصى تعرض للامير باقامته في تخوم مملكته وطلب منه الخروج منها فتغافل الامير ولم يلتفت اليه فاغتاظ لذلك وارسل الى الشيخ بزيان يامره باستعمال الوسائل الفعالة في اخراج الامير ودائرته من ايالة مراكش وكتب الى مشايخ بني يزناسن واهل انكاد ان يكونوا معه يداً واحدة في اخراجه منها وصورة ما كتبه اليهم

الحمد لله وحده

خدامنا بني يزناسن واهل انكاد وفقكم الله وارشدكم وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا ان الامير عبد القادر نهض في قومه ومن انضاف اليه من اخوانكم الذي استنفرهم وخدعهم بتمويهه وابطاله حتى نزل بجامع الغزوات على من بها من النصارى وعمهم واوقع فيهم وقتل جلهم ولم ينج منهم الا من فر بنفسه وما مراده الا اثارة الفساد وجلب الشر والفتنة للمسلمين كما جلبها لايالة الجزائر وغيرها حتى اوقعهم في الكفر والعياذ بالله وانقادوا بسببه لاستيلاء الكفار واسلموا انفسهم لاحكامهم وعاد عليهم شؤم فعله بالدين الذي لا يرضاه مسلم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد خدعكم باظهار الدين واحوال الصالحين وما في ضميره الا الفساد وايقاد الفتنة بين العباد ومن يتبعه على ذلك الا هو من الاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ونحن لا نكره الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الاسلام ولكن هذا المشؤم اراد نقض ما اسسناه من الصلح الشرعي وايقاد الفتنة بعد اطفائها سعياً في هضم جانب عزكم وافساد دينكم ودنياكم وتكدير خاطرنا عليكم وانتم لا تشعرون فها نحن امرنا خاتنا الانجد الشيخ بزيان بالقيام على ساق الجد في اخراجه ودائرته من ايالتنا السعيدة طوعاً او كرهاً وحسم مادة فتنتهم وضلالهم فكونوا معه يداً واحدة وشدوا عضده على ذلك حتى يقضي الغرض ان شاء الله تعالى وكفوا اخوانكم عن متابعته ونهوضهم عن مقاطعته فان من قاطعه ونبذ متابعته فقد احاط نفسه ودينه ومن تبعه وشد عضده وكثر سواده فقد تعرض لسخط الله ورسوله وسخطنا لا ينجح له زرع ولا ضرع وقد اعذر من انذر اللهم اشهد وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون وما عقدناه من الصلح مع العدو الكافر اسسناه على قواعد الشرع العزيز وبنيناه واقتدينا

فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح كفار قريش صلح الحديبية حين صدوه عن البيت الحرام مع تدافع الصحابة وقوة عزمهم وقهر عدوهم ولم يكن ذلك غلبة وانما هو تشريع ولو شاء عليه الصلاة والسلام لامران ينكب عليهم الاخشبين حتى قال سيدنا عمر لرسول الله انعطى الدنية في ديننا السنا على الحق وهم على الباطل فقال بلى فقال ابو بكر الله ورسوله اعلم وقد صالحهم على ان من فر اليه يرده اليهم ففر اليه ابو هريرة ليلة فرده اليهم وفاء بعهده وامضاء لعقده وكان هذا الصلح هو الفتح بعينه فنحن برسول الله اقتدينا وبشريعته اهتدينا ونظرنا للمسلمين ان لم يضيقوا به رفقا بهم ليتهنوا ويتمتعوا في سعة وعافية ونحن على سنة الجهاد وعقده عارفون ما اعد الله لاهله من اجره فكيف يأتي هذا البداع يعلم احوال الجهاد واحكامه ونحن اعرف به منه وما ورد فيه وما اعد الله لاهله ولو رأينا الخير للمسلمين في غير الصلح ما ارتكبناه فلا يفيدهم الا ذلك فاسئلوا اهل العلم وما ورد في صحيح البخاري ومسلم في فضل الجهاد واحكامه والصلح واقسامه ليعلم حال عبدالقادر وجهله بالسنة وغيرها وان من تبعه فقد باء بالضلال والردى وحاد عن شريعة المدى في الثالث من شهر رمضان سنة ثلاث وستين ومائتين والف من المولى عبد الرحمن ابن المولى هشام. فضاق الامير لذلك ذرعاً ولم يجد بدّاً عن ان يحمي حوزته ويدوخ النواحي التي هو مقيم فيها فانذر واعذر واوعد وحذر ثم بطش باهل الفساد ومهد ما قرب منه من البلاد ومد يده الى اقامة الاحكام الشرعية فيهم واخذهم بالرهبة وبالغ في ذلك حتى لاذوا بالطاعة وتذرعوا بالخضوع فزال بذلك عن المهاجرين ما اهمهم وعمهم وادركوا من رخاء العيش وبعد الصيت ما حرك من سلطان مراكش السواكن واوقعه في الخوف على ملكه ثم بلغه ان اهل فاس قاعدة مملكته وغيرهم من اهل القاصية بعثوا الى الامير يدعونه الى الاستيلاء على بلادهم واخذهم بنصرته فازداد غضباً وجهز قائده الشهير بالاحمر في عسكر كثيف لقتال الامير واخراجه من البلاد وكان في تلك المدة وصل الى حضرة الامير مولاي عبد الرحمن بن سليمان سلطان المغرب الاقصى السابق ليكون في جملته فلما بلغ الامير خبر القائد الاحمر استعد الدفاع عن حماه وكان وقتئذ مخيما بين ارض بني توزين ومطالسه من قبائل الريف ولم يزل القائد الاحمر يطوي المراحل الى ان خيم بتافرسيت على مسافة مرحلة من الدائرة ثم بعث بعض لرؤساء في شرذمة من الجيش يستكشف احوال الدائرة ويستطلع اخبارها ولما تراءى الرئيس لها ركب بعض فرسانها اليه فلما رأى الخيل قد اقبلت عليه امتلأ قلبه رعباً ورجعوا الى معسكرهم لا يلوي احدهم على الآخر

وقبض على عدة خيالة منهم ثم ان الامير بعث الى القائد يدعوه الى المسالمة و يعتذر اليه بالعجز عن الخروج بضعفاء المهاجرين الى الصحراء لبعد المسافة و يظهر له سلامة صدره ويؤكد له انه لا يخطر في باله ما بلغ السلطان عنه وانه وانه لا يريد الا العافية واقامة المهاجرين تحت انظار السلطان فلم يجده ذلك نفعاً وابى القائد الا الخروج او القتال فحينئذ اخذ الامير حذره منه واستعد للمدافعة عن الاهل والاولاد ثم بداله في مراجعة القائد ثانية فبعث اليه يقسم بالله تعالى انه ما اضمر للسلطان شراً قط ولا سعى في افساد القلوب عليه ثم حذره من قتال المسلمين المهاجرين في ارض لا تنالها الاحكام منذ احقاب فابى الا باجراء ما جاء لاجله وامر بتنفيذه فلما راى الامير انه لا محيد له عن المدافعة والنصوص الشرعية موافقة له بادر الى الاخذ بالاحتياط ثم اختار من فرسانه مائتي فارس وسار بهم غازياً على العدو وهو في تافرسيت فصبحه واستولى على معسكره بما فيه وهجم بعض رؤساء جيشه على القائد فقتله واحتز رأسه وجيء بحريمه واولاده الى الدائرة وبعد مدة عين الامير لهم حرساً وارسله معهم فاوصلهم الى فاس وقد قدر ما كان في المعسكر من المتاع والخيام والكراع والمهمات الحربية بالوف من الليرات وكان من جملة تلك الامتعة البسة فاخرة جاء بها القائد ليفرقها في رؤساء القبائل اذا اعانوه على الامير وقاموا بنصرته فسقط في يده وخاب امله واهتز المغرب الاقصى لهذه الوقعة وخطأ الشعب سلطانه ونقموا عليه حيث بعث جيوشه لقتال المسلمين المهاجرين الذي التجأوا الى بلاده طالبين حمايته لهم من عدوه وعدوهم

ذكر واقعة بني عامر في نواحي فاس

لما ترك المهاجرون من بني عامر الدائرة ووقع بينهم وبين ابن التهامي خليفة الامير عليها بدسائس الخليفة السيد محمد البوحميدي وارتحلوا الى فاس مغاضبين فاكرم سلطان المغرب نزلهم و قطعهم ارضاً تشتمل على محرث عظيم وبسائط خصبة فاستوطنوها ولما رجع الامير من الجهة الشرقية الى الدائرة اشرأبت نفوسهم الى الرجوع واقاموا ينتظرون سنوح الفرصة فلما تمكن الامير في ارض الريف وثبتت قدمه فيها اعتزموا على الرحلة الى سيدهم وولي نعمتهم وكتبوا اليه ان يراقبهم في بلاد مكناسه فاجابهم الى ذلك وارتحل بدائرته الى كرط قريباً من جبل كاعيه ثم سار في نخبة من فرسانه الى بلاد مكناسه وكان بنو عامر ارتحلوا مشرقين ففطن بهم جيرانهم من اهل الوطن فطيروا الخبر الى سلطانهم فسير

في اثرهم جيشاً كثيفاً من الشراردة عليهم القائد ابراهيم بن احمد الاكحل ولما نزل بساحتهم ارسلوا الى رئيسه يقولون نحن قوم خرجنا من دائرة اميرنا لامر اقتضى ذلك والآن اردنا الرجوع الى اخواننا واهلينا فلا سبيل لكم الى منعنا شرعاً ولا قانوناً فما كان جوابه الا انه اغار عليهم فدافعوه يوماً كاملاً ثم كاثرهم الجيش وحشود اهل الوطن واحاطوا بهم احاطة السوار بالساعد فاعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون عن حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الارض فكلما توجهت اليهم طائفة من الجيش استاصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم اشباراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه ولما اعيى الجيش امرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون بناتهم ونساءهم بايديهم فراراً من السبي والعار ثم جعلوا يقتلون انفسهم حين تحققوا انهم في قبضة الاسر ومن بقي منهم من النساء والاولاد اخذهم المراكشيون وباعوهم في اسواقهم بابخس ثمن وباؤا بها شنعاء الى آخر الدهر لانهم استحلوا دماء قوم مؤمنين مؤمنين باذلين انفسهم واموالهم في سبيل الله لاعلاء كلمة الدين لم يدخلوا بلاد هذا السلطان حتى اذن لهم وامنهم واجارهم فليت شعري بماذا استحل دماءهم على ان الشارع حرم قتل المؤمن من الحربيين فكيف به اذا كان من المؤمنين اما سمع قوله عليه الصلاة والسلام كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه حسب المرء من الشرك ان يحقر اخاه المسلم اما بلغه ما روى ابن المبارك عن حمزة بن عبيد ما يحل لمؤمن ان يشتد على اخيه بنظرة تؤذيه وغاية ما اقول « لقد تعدى » وعند الله تجتمع الخصوم ولما اتصل الخبر بالامير وهو بمخيمه في بلاد مكناسه رجع الى الدائرة ووجد قبيلة كعيه اغاروا على كراع الدائرة فاخذوا منه عدداً وافراً فاسرها بنفسه وبعد ان اقام للراحة اياماً ارتحل بدائرته ونزل على قبيلة كعية وبعث اليهم برد ما اختطفوه من الدائرة فابوا ذلك واصروا على بغيهم واعتدائهم فحينئذٍ سار اليهم في جموعه فاثخن فيهم بالقتل والاسر واذاقهم شديد النكال ورجع الى دائرته وكان اكثر الاسرى من اعيانهم فتعهدوا برد جميع ما اخذته قبيلتهم من الدائرة وبعد الوفاء بذلك اطلق سراحهم واشتهرت هذه الواقعة فكانت من اعظم الوسائل لردع الذعار والغوغاء من القبائل الغربية من منازل الدائرة وبعد مدة انتقل الامير الى زايو وهو موضع مطل على سهل تريفه فجاء محمد بن عبد الرحمن رئيس قبيلة الاحلاف وفاوضه في بعث احد خلفائه الى حضرة سلطان مراكش ليعتذر اليه ويستعطف قلبه فاجابه الى ذلك وعين لهذه السفارة خليفته البوحميدي فسار ومعه الرئيس المذكور الى فاس فلم يحتفل به

السلطان ثم القى القبض عليه و بعد ايام قلائل اتلفه بسمّ اكرهه ناظر الحبس على شربه فمزق امعاءه ولما اتصل الخبر بالامير علم ما في نية صاحب المغرب من جهته قال بعضهم وبما فعله سلطان المغرب بالخليفة البوحميدي يئس الامير من مواصلته واعانته على عدوه وتبين له انه امسى وحيداً لا نصير له غريباً لا وطن له ومع ذلك فانه لم يلحقه جزع ولم ينله ضجر ولم يكن عنده وقتئذٍ من الجيش سوى الفي مشاة والف ومائتي فارس وهم من الابطال الذين شاركوه في اقتحام الشدائد وصبروا معه على مقاساة الخطوب والمكاره ولازموه في جميع مدته التي اظهر فيها من الشجاعة والاقدام ما بهر الافكار وخلد له الذكر الجميل مدى الدهور والاعصار وهم الذين عملوا باشاراته وفازوا في خاتمة امره بصالح دعواته ٠

﴿ ذكر آخر الوقائع في المغرب وما آل اليه امر الامير بعدها ﴾

لما استحكمت العداوة بين الامير وصاحب المغرب وقوى ما عنده من الاحن والضغائن وبلغه ما لحق الامير من الضعف وقلة العدد والعدد جهز ولديه محمداً وهو ولي عهده واحمد في خمسين الف مقاتل وسيرهم اليه في الثاني من المحرم سنة اربع وستين ومائتين والعاشر من دسمبر سنة سبع واربعين وثمانمائة نزلا بجيشهما في قلعة سلوان على مسافة ثلاث ساعات من الدائرة فرأى الامير ان يبادرهم بالهجوم ويأخذهم بالرهبة قبل ان يزحفوا اليه فجمع جيشه وشد عزائمهم واخبرهم بما عزم عليه من مهاجمة العدو فنشطوا لذلك وبايعوه على الثبات معه الى الموت واشار بمكيدة يستعينون بها على ارهاب العدو فاحضر جملين وشد على كل منهما حزمتين من الحلفاء بعد ان لاثوها بالقطران والزفت وامر ان يكون ايقاد النار في الحزمتين مقارناً للحمل على العدو في ليلة الرابع والثاني عشر من الشهرين المذكورين سار الامير بجيشه قاصداً سلوان ولما قرب منها رتب جيشه للهجوم وامر بتقدم الجملين امام الجيش ثم اضرمت النار في الحزمتين فنفر الجملان وذهبا يجوسان خلال خيام العدو وحمل الجيش بعدها حملة رجل واحد فما راع القوم الا مشاعل النار تجول بين الخيام وامطار الرصاص تنزل عليهم من حيث لا يحتسبون فلم يسعهم الا الفرار وترك الخيام بما فيها من الامتعة والمهمات واستمر الامير وجيشه على هجومهم من غير ان يلتفت احد منهم الى الغنيمة حتى انتهوا الى سرادق اولاد السلطان فوجدوا العسكر قد احاطوا به واتخذوا الظهر والاثقال وقاية لهم من الرصاص واشتد القتال

على السرادق من نصف الليل الاخير الى ان لاح الفجر فحينئذ تاخر الامير بجنده ونزل غير بعيد من منازل العدو وبعد ان صلى الصبح ركب راجعاً الى الدائرة بعد اثخن فيهم وفرق جمعهم وفعل بهم الفعائل حتى انه لم يبق مع ولي العهد واخيه الا حاميتها وقد استولى القتل على اكثرها وفي وقت الظهر تراءى للامير جيش اكثرهم من اهل الوطن مغيرين في اثره يطلبونه فعطف عليهم في نحو المائتي فارس فكسرهم مع كثرتهم وشتت شملهم ولا زالوا منهزمين لا يلوي احد منهم على احد الى ان دخلوا معسكرهم ثم انقلب راجعاً الى الدائرة وارتحل بها من زايو مع نهر ملوية ونزل بالقرب من مصبه في البحر واقام العدو في سلوان الى ان تراجع من جموعه من فر الى الجبال القريبة منه واما الذين ابعدوا المفر فاستمروا على فرارهم الى مواطنهم وارسل في جبل كعية وكيدانه ومن قاربهم من قبائل البربر وعرب تريفه حاشرين فانثالوا اليه افواجاً افواجاً معتذرين اليه في تخلفهم عنه حتى وقع بجموعه ما وقع من قوم غرباء لا ناصر لهم وبعد ان استكمل تعبيته ارتحل من سلوان ونزل بزايو فاتصل الخبر بالامير فاجاز بدائرته النهر ونزل بالعدوة الشرقية منه ثم جاء العدو فنزل في منازلها الاولى في العدوة الغربية فامر الامير ان ترتفع الدائرة الى ناحية عجرود وعين العسكر المشاة لمحافظتها وبقي فيمن معه من الفرسان ووقع المصاف على النهر وكان شائلاً وليس في تلك الجهة الا مجاز واحد فلما هجم العدو غرق منهم خلق كثير بخيلهم والذين اصطفوا على ضفته الغربية اشتد القتال بينهم وبين الامير كل من ناحيته واضطرمت نار الحرب وكثرت القتلى والجرحى من الجانبين واستمر القتال على النهر ساعات ثم تقدمت حشود البربر من اهل الوطن الى المجاز فاجازوا منه واتبعهم العدو واختلطت الجيوش وخاض بعضهم في بعض والتحموا وكثر القتال قعصاً بالرماح وطعناً بالسيوف وكان القائد الشهير محمد بن يحيى قد استشهد في تلك المعمعة بعد ان ابلى بلاء حسناً فاختل مصافه واصيب فرس الامير فوقع من تحته وركب غيره وتكاثر العدو فتزحزح الامير عن النهر وصار القتال في السهل مناوشة ثم اصيب فرس الامير الثاني فنزل عنه وركب ثالثاً فاصيب ايضاً وركب رابعاً ولما تولى النهار اقبلت جموع بني يزناسن وغيرهم من الوطنيين نجدة لولدي السلطان فحمل الامير عليهم حملة صيرتهم فرقاً وملأت قلوبهم رعباً وما زال يوالي الكر عليهم الى ان ردهم الى النهر ثم انصرف وقد ايقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه فلحقه العدو في الكتائب العديدة من الميمنة فانكشف جنده لقلته ونفاد ما بيدهم من البارود واخذ الامير باعقابهم

يدافع عنهم فكان رداً لهم الى ان انتهوا الى عجرود ثم مال العدو الى الدائرة فدافعه العسكر المشاة بقوة وثبات الى ان اجازت الاثقال والحريم والاولاد وادي عجرود وقد قتل من العسكر في تلك العشية نحو المائة واسر مثلها واستمر الامير سائراً باهله وخاصته تلك الليلة مانعاً لحوزته دافعاً للذل بعزته الى ان بلغ جبل بني خالد من بني يزناسن ودخلت الدائرة وفيها بعض اخوته واقاربه في ارض الفرنسيس وبهذا انتهت خاتمة المحن وانطفت نار الحروب والفتن

هذا الذي سبق القضاء به والدهر في الانسان ذو دول
ما قرّ في ايدي قوابله حتى اذيق الصاب بالعسل

وكان الجنرال لاموريسير حاكم ولاية وهران لما بلغه سوق صاحب المغرب جموعه على الامير سنار من وهران في نحو الخمسين الف جندي الى الحدود الغربية ليراقب اعمال المراكشية ويمنع الامير من التخطي الى الصحراء فخيم في عطيه من ارض مسيرده على مسافة بضع ساعات من وادي عجرود واقام هناك الى ان انتهى الامر بين الامير والمراكشية ولما اتصل به خبر دخول الدائرة في ارضهم بعث من قواد جيشه من ينظر في امرها ونصب العيون على الامير وفرق الجيوش فيما بين بني يزناسن ومعسكره وربط عليه الطرق حتى لا يتخطى تلك البلاد الى الصحراء وكان المطر سحاه متصلاً بالليل والنهار وعميت عنه اخبار الامير فاضطرب لذلك وارتبك في امره وخشي ان يفوته ما خرج لاجله واما الامير فانه لما وصل الى بني خالد نزل على استاذهم الشيخ مختار بودشيش في بلده تنجيرت وكان قبل ذلك من اصدقاء الامير فظن فيه انه يقوم بشأنه فاذا به رأى منه ما انكره وبلغه عن قومه ما انذره وحذره وتبين له انهم داخلون في الجملة المنحرفة والفئة المتطاعة الى الغالب جرت عادة الله في ارضه بذلك فلم يسعه حينئذ الا النظر في امره وانتهاز الفرصة في خلاصه من مكائد العدو ومكره فجمع خاصته وذويه وقال يا قوم ان الاحوال كما ترون والاخبار على ما تسمعون فما الرأي وما الحيلة فقالوا الراي لسيدنا فالذي يراه نحن معه فيه فقال لا ارى الا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ولقد اجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد · وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد · وذلك من حين اهتز غصن شبابي · وانتزعن شباة الهندي ذابي واقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة اقتحم المهالك · واملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك · استحقر العدو على كثرته · واستسهل استصعابه · وتوغل غير خائف اوديته

وشعابه . وأرتب له في طريقه الرصائد . وأنصب له فيها المكائد والمصائد . تارة انقض عليه انقضاض الجارح . واخرى انصب اليه انصباب الطير الى المدارح . وكثيرًا ما كنت ابيته فافنيه . واصبحه فابرد غليلي منه واشفيه . ولا زلت في ايامي كلها ارى المنية ولا الدنية واشمر عن اقوى ساعد و بنان . واقضي حق الجهاد بالمهند والسنان . الى ان فقدت المعاضد والمساعد . وفني الطارف من اموالي والتالد . ودبت اليَّ من بني ديني الافاعي . واشتملت عليّ منهم المساعي . والآن بلغ السيل الربى . والحزام الضبنين . فسبحان من لا يكيده كائد . ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد

ان يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
اجلي تاخر لم يكن بهواه ذلى والخضوع
ما سرت قط الى القتا ل وكان من املي الرجوع
شيم الاولى انا منهم والاصل تتبعه الفروع

فاستكان القوم لهذا الخطاب وتذكروا ايام الله فيهم وانما يتذكر اولو الالباب ثم اخذوا يتداولون الراي بينهم الى ان قر القرار على ان يكون التسليم الى الفرنسيس ثم ان الامير عاجله الحال ان يكتب كتاباً في ذلك الى الجنرال لامورسير رئيس الجيوش الفرنساوية فبعث رسولاً من حاشيته ليخبر الجنرال باللسان ولما وصل الرسول الى مناصب كيس وجد الدائرى الشهير بابن خوبه بالمرصاد فاطلعه على الامر وسار معه في لمة من خيله الى المعسكر الفرنساوي فبلغ الرسول الرسالة الشفاهية الى الجنرال فاهتز لذلك سرورًا و بادر ببعث سيفه الى الامير مع ورقة ختمها بختمه على بياض ليشترط الامير ما اراد وارسلهم صحبة ابن خوبه وفي الوقت نفسه كتب الى ملكه انني بهذه الدقيقة ممتطياً جوادي للذهاب لدائرة عبد القادر ولا يوجد عندى فرصة لابعث اليكم بنسخة التحرير الذي اخذته منه اوجوابى له و يكفيني ان اقرر باني قد اتفقت معه بانه هو وعائلته يذهبان الى عكا اوالاسكندرية وهذان المحلان هو الذي عينهما في شروطه وصادقت عليهما واني ملتزم بان اقوم بما اشترطه وقد عملت ذلك بكمال الاعتقاد من ان جلالتكم والحكومة تصادقون عليه ما دام عبد القادر اعتمد على قولي وخطي و بعث البريد الى الدوك دومال ابن الملك حاكم الجزائر فارتاح لذلك وركب من حينه بارجة وجاء الى مرسى جامع الغزوات ولاول وصوله اليها بعث الى الجنرال يخبره انه قد وافقه على قبول ما اشترطه الامير وامره ان يزيده في ذلك

تاكيدًا ويعطيه ميثاقًا غليظًا يطمئن به قلبه والامير وان كان في حالة يأس الا انه لقوة جاشه وصبره لم يظهر اليأس والجزع واظهر غاية التربص والتأني ولذلك ترددت الرسل بينه وبين الجنرال في ربط الميثاق واحكام العهد ثلاثة ايام بلياليها وبعد ان تم الامر بينهما على شروط منها ان يحملوه مع جميع عائلته الى عكا او الاسكندرية وان لا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر وان الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنًا على نفسه وماله ثم سار الامير باهله وخاصته واتباعه من تفجيرت قاصدًا المرسى حيث ان ابن الملك والجنرال لامورسير والجنرال كافنياك ينتظرونه فيها وعند ما وصل في طريقه الى مقام المرابط سيدي ابرهيم وهو الموضع الذي كان الامير انتصر فيه على جنود فرنسا واوقع بهم الوقعة الشهيرة منذ سنتين قبل ذلك وجد الكولونيل مونتبان في خمسمائة فارس ينتظره فواجه الامير بكل اعتبار واحتفال وبعد ان نزل الامير وصلى في المقام ركعات ركب وسار في ذلك الموكب الى ان قرب من مرسى الغزوات فاستقبله ابن الملك وفي معيته الجنرال لامورسير وغيره من القواد والاعيان في الابهة والاحترام وبعد ان استقر بهم المجلس قال الامير لابن الملك هذه الساعة التي قدّر الله تعالى ان يكون فيها ما نحن فيه الان وقد اخذت على الجنرال لامورسير عهدًا وميثاقًا فلا اخشى ان ينقضه ابن ملك فرنسا وعظيمها فاجابه الدوك ابن الملك بما يوافق قول الجنرال ويثبت عهده ثم قام الامير وقدم له سيفه وقال له اني احسب هذا شرفًا قدم لفرنسا وفخرًا عظيمًا حصل لها وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الامير على جواده الادهم وبعد ان نزل عنه اهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ثم اجتمعا اجتماعًا مخصوصًا جدد فيه ابن الملك العهد للامير وزاده وثوقًا واهدى للامير ايضًا طبانجته وساعته ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له اهله واولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور ابن علال وغيرهما من حشمه واتباعه في مائتي نفس قال بعض مؤرخيهم ان مما يجب الحيرة ويستحق التعجب ان عسكر الامير عبد القادر كاد ان يصل عدده الى الفين من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة وقد قاوم به جيشًا عظيمًا من جيوش اكبر دولة من دول اوروبا يبلغ عدده مائة الف وستة الاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة واعجب من ذلك انهم كانوا يدخلون في معسكرنا ويقاتلوننا من ورائنا ومن ميمنتنا وميسرتنا ويهربون في الوقت الذي نتصور به القبض عليهم باليد والعجب كل العجب انهم كانوا يتعبون عسكرنا بتجاوزاتهم الدائمة ويظهرون بالامنية التامة غير مبالين بما كان ولا مهتمين بما

سيكون فليت شعري بماذا يجاب من سأل عن الفرق بيننا وبينهم ومن الذي يستحق المدح منا ومنهم آه قال الاديب صاحب الجامعة بعد ذكر ترجمة الامير في مشاهير المتقدمين والمتاخرين فلا يسع المؤرخ الشرقي غير الوقوف بازاء عظمته متفكرًا وباسباب سقوطها معتبرًا لان الصراع بينه وبين الجنود الفرنساوية كان بين مبدأين لا بين قوّتين حربيتين احدهما استقلال الممالك الشرقية والثاني اطماع اوروبا الاستعمارية غير ان قوّة الطمع زعزعت استقلال الشرق واستشعر اهله انهم مطحونون برحاه فازداد يأسهم ولو قوي المبدأ الاول لقوي رجاؤهم وزاد باسهم وليت شعري ما يقول المؤرخ الغربي بعد امعان النظر في دولة احكم اساسها منذ الفوار بمائة سنة فقد استولت على مستعمرات امير عمر دولته سنة بعد ان قهر رجالها واباد ابطالها واشغلها خمسة عشر عامًا الى ان اراد الله انفاذ ما قدره وقضاه عاضدها اقرانه وساعدها عليه جيرانه فاستسلم لقضاء مولاه وسلم اليها نفسه برضاه على شروط موقع عليها من الجانبين وهذا هو سبب انهدام ملكه فليت شعري من يمدح ومن الذي يطعن فيه ويقدح وينبغي لكل شرقي وقف بقبر هذا الامير ان يخضع لعظمته ويمرغ وجهه في تربته ويعلم ان هذا الاسد الريبال محط رحال الآمال والانضال

سقى الرحمن قبرًا حلّ فيه	امير بالمفاخر لا يضاها
همامٌ قد حمى الاوطان مما	دهاها واقتدى بابيه طاها
به قرّت عيون الشرق فخرًا	واهل الغرب ما بلغت مناها
ولكنّ الاله قضاه ماضٍ	وكيفَ تردُّ اشياءٌ قضاها

وبتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية وهي الجزء الاول ويليه الجزء الثاني في سيرته العلمية والله وليُّ التوفيق

164

فهرست

الجزء الاول من تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر

صفحة

صفحة

165

صفحة

صفحة

166

صفحة

صفحة

﴿ بيان الخطا والصواب الواقع في هذا الكتاب ﴾

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٠٧	١٢	العلمية	القلمية
٠٨	١٧	القطة	القطعة
١٠	٠١	وبسيطة	وبسيطه
١٠	١١	للملكتين	للمملكتين
١٢	٠٢	شيدت	اشيدت
١٣	٠٦	الجداو	الجدار
١٤	١٣	النواي	النواحي
١٥	١٦	محلهم	محلها
١٦	١٠	النخيل فيها	النخيل لكثرته فيها
١٦	١١	بناها	بناها
١٦	٣٠	تنيرد	تنيره
١٦	٢٧	اودغ	آدوغ
١٧	١٠	الممتل	التل
١٧	١٢	كمله	كامله
١٧	٢٥	الزرو	الذرو
٢٣	٠٥	ونقل	ونفل
٢٣	١٥	صقلبه	صقلية
٢٤	٠٤	السوس	سوس
٢٤	٢٧	البشار	اليشار
٢٥	٠١	ملغار	املغار
٢٦	١٢	ومنء	ومن
٢٧	٢٧	اليغرتي	اليغرني
٣١	٠٣	المعامد	المصامد
٣١	٢٢	في خطة	في خطته

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣٢	٢٥	العبذيين	العبيديين
٣٣	٢١	يغض	يغص
٣٤	٠٥	من	ابن
٣٥	١١	نخذل	يجدل
٤٠	١٠	لمتونة	لمتونه
٤٢	١٨	غزواته	غزاته
٥٠	١٩	لمعروف	المعروف
٥١	١٣	تاورتت	تاودنت
٥١	١٦	تبلمست	تيلمست
٥٥	٠٧	بسلى	بسلا
٥٥	٠٧	السمارالى	السملالى
٥٦	١٣	واخلافهم	واحلافهم
٥٦	١٤	عن عرب	من عرب
٥٦	١٧	وحروب	حروب
٥٧	١٩	واتحلوا	وارتحلوا
٥٨	٠٨	ويسر	وبشره
٥٩	١٥	الهنتاني	الهنتاتي
٦٢	٠٨	ينسوادى	تيسوادى
٦٣	٠٧	نازغا	نازعًا
٦٧	١٣	قسطنطينيه	قسنطينه
٧٢	٠٧	النجون	اللنجون
٧٤	٠٤	حرب	جرت
٧٤	١٥	محمود	محمد
٧٥	٠٣	وجعة	وجعه
٧٦	٠٧	البرتقال	البرلقتال
٧٧	٢٤	في معيشه	في معيته
٨٦	١٣	مرزاك	مزراك

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٨٦	٢٠	الجائر	الجزائر
٩١	٢٦	في القيطينة	في القيطنة
٩٢	٢٢	مرارًا	ثمان
٩٢	٢٦	دعاها الى النوى	عراهًا على النوى
٩٢	٢٧	غياهب	غيهب
٩٣	٠٩	فانا	فنحن
٩٣	١٦	وانا	ونحن
٩٣	١٧	لها	لهم
٩٣	١٩	مرارًا	ثمان
٩٣	٢٤	يشتوي	قد شوى
٩٤	١٥	القيطينة	القيطنة
١٠١	١٧	الاتكالي	اتكالي
١٠٢	١٦	حيص ويص	حيص بيص
١٠٢	٢٤	وجمعة	وجماعة
١٠٥	٠١	عيشهم	عيثهم
١٠٥	١٦	تب	رتب
١٠٩	٠٨	ارسلوه	راسلوه
١٠٩	١٨	في مسركين	من مسركين
١٠٩	١٨	فئتهم	فيئتهم
١١١	٢٣	في الحرب لآ ذاننا	في الحرب احلى لآ ذاننا
١١٣	٢١	درك	ادراك
١١٥	٠٦	الميلود	المولود
١١٥	١٠	خلين	خلون
١١٥	٢٢	بترجيع	بارجاع
١١٦	١١	يسافر	ان يسافر
١٢١	٠٩	نصرالله	نصره الله
١٢٢	١	والسروال	والسراو بل

صفحة	سطر	خطا	صواب
١٢٢	٢	وسرواله	وسراويله
١٢٢	٢٥	وعن	وعين
١٢٤	١١	محل	محفظة
١٢٤	٢٥	احنج	احتيج
١٣٥	٩	حداها	احدها
١٤٣	٧	عراس	عراش
١٤٣	١٦	ويجيبه	يجيبه
١٤٤	١٢	الاقاليم	الاقليم
١٤٤	٢٦	اجزؤه	اجزاؤه
١٤٥	٧	علم	اعلم
١٤٦	٩	العرب	عرب
١٤٧	١	ال معسكر	الى معسكر
١٤٨	١٢	بعضهم	المؤرخ المذكور
١٥٥	١٠	العسكري	المعسكري
١٥٥	١٣	الى الآخره تجار	الى الآخر تجاره
١٥٥	١٥	المحده	الحدود
١٦١	٥	الامر	الامير
١٦٢	٥	اوارى	الهوارى
١٦٣	١٠	ينجح	ينج
١٦٣	١٥	رداء	رداءًا
١٦٥	٧	مغلولاً	مغلولاً
١٦٧	١٤	ذكر القائد	ذكر ان القائد
١٦٧	١٥	في قلعتها انه	في قلعتها كان
١٦٧	١٩	محمد	احمد
١٦٩	٢٧	واشفوا	واستفوا
١٧٢	١٨	حترامي	احترامي
١٧٢	٢٣	اشفاهاً	شفاهاً

169

كتاب

تحفة الزائر

في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر

الجزوء الثاني

❋ سيرته القلمية ❋

قال ابو تمام

من الناس ميت وهو حي بذكره * وحي سليم وهو في الناس ميت

بالمطبعة التجارية — غرزوزي وجاويش — بالاسكندرية
سنة ١٩٠٣

فهرست الجزء الثاني من كتاب تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر

(ركوب الامير البحر الى طولون وما اتفق له مع فرانسا)

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ركوب الامير البحر ووصوله الى طولون وما اتفق له مع دولة فرنسا

انه في ثالث يوم وصوله الى جامع الغزوات سار باهله ومن بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينتحبون ولم يزالوا على ذلك الى ان ركب البارجة الحربية المعدة لركوبه واسمها احموده وتوجه نحو فرانسا ولسان الحال ينشد قول ابن ابي لبانة شاعر ابن عباد

تبكي السماء بمزن رائح غادي ‏ ‏ على البهاليل من ابناء عبادي
على الجبال التي هدت قواعدها ‏ ‏ وكانت الارض منهم ذات اوتاد
عريسة دخلتها النائبات على ‏ ‏ اساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها ‏ ‏ فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا ضيف اقفر بيت المكرمات وخذ ‏ ‏ في ضم شملك واجمع فضلة الزاد
ويا موءمل واديهم ليسكنه ‏ ‏ خف القطين وجف الزرع بالواد
وانت يا فارس الخيل التي جعلت ‏ ‏ تختال في عدد منها واعداد
الق السلاح وخل المشرفي فقد ‏ ‏ اصبحت في لهوات الضيغم العادي
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ‏ ‏ وكل شيء بميقات وميعاد
ان يغلبوا فبنو العباس قد غلبوا ‏ ‏ وقد خلت قبل حمص ارض بغداد
نسيت الا غداة النهر كونهم ‏ ‏ في المنشئات كاموات بالحاد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ‏ ‏ من لوءلوء طافيات فوق ازباد
حان الوداع فضجت كل صارخة ‏ ‏ وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها ‏ ‏ كانها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ‏ ‏ تلك القطائع من قطعات اكباد

ثم ان المسلمين صاروا آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم لا سيما شيعته واهل محبته كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره و يقيهم اعتداء العدو وشره ويحيطهم من كل مكروه وينيل كل واحد منهم ما يؤمله ويرجوه

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة ادباء الاندلس صالح بن شريف

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغرّ بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول ولا يدوم على حال لها شان
اين الملوك ذوو التيجان من يمن واين منهم اكاليل وتيجان
واين ما شاده شدّاد من ارم واين ما ساسه في الفرس ساسان
واين ما حازه قارون من ذهب واين عاد وشدّاد وقحطان
اتى على الكل امر لا مردّ له حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله وامّ كسرى فما آواه ايوان
كانما الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر انواع منوّعة وللزمان مسرات واحزان
وللمصائب سلوان يهونها وما لما حل بالاسلام سلوان
دها الجزيرة خطب لا عزاء له ثوى له احد وانهد ثهلان

ولما شاع تسليم الامير عند اهل الجزائر عظم الخطب عليهم واشتغلت المنادب في المدن والقرى والبوادي وكثر النواح من النساء في ولاية وهران فاخبر الحاكم وطلب منه منع ذلك فاجاب الجنرال دعهم يبكون فان هذا عزنا وعزهم قد ذهب فانني حضرت من فرنسا ضابطاً صغيراً فترقيت الى هذه الرتبة بواسطة حروب الامير ومثلي كثير ولولاه لما تحصلت على هذه الرتب والنياشين وفي الرابع والعشرين من محرم سنة اربع وستين واول يناير سنة ثمانية واربعين ارست البارجة في مرسى طولون وكان ابن الملك عين مع الامير الكرونيل لورو وموسيو روسو ترجماناً واخبره ان البارجة تمر على هذه المرسى فبينما الامير ينتظر اقلاعها ومسيرها الى الشرق اذ دخل عليه حاكم طولون واخبره انه مامور بنزوله في برج لاملاك الى ان ياتي الامر من باريس فحينئذ احس الامير بالخديعة ولم يسعه الا النزول ثم جاءه الحاكم ولاطفه وآنسه واخبره ان الاقامة هنا لاجل

المخابرة مع الدولة العثمانية وصاحب مصر في شانك وبينما هو ينتظر انجاز الوعد اذ جاءه الكرونيل دوماس معيناً من قبل الملك الاقامة عنده ولاول وصوله اليه اظهر له ما جاءه لاجله واخبره ان كافة فرنسا عارضت في اتمام ما وقع التعهد به من بعثكم الى الشرق فلذلك يعتذر لكم الملك في عدم الوفاء والذي يحسن عنده ان تسكن بلاد فرنسا وتعطى اماكن مناسبة لمقامك العالي ويرخص لاهل محبتك من اهل الجزائر في الحضور عندك والسكنى معك فاجابه الامير اني لا اقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج وها انا بين ايديكم فافعلوا ما بدا لكم ولا يمكن ان اترك طلب الوفاء بالعهد ما دمت حياً ومن عجيب ما يسمع انني كنت ارى نفسي ضيفكم فجعلتموني اسيركم واخذتم تعددون عليَّ اموراً قمت بواجبها ذباً عن ديني وحماية لبلادي ولا زال التفاخر بها وبامثالها قديماً وحديثاً فان القيام بها دليل على كمال الرجولية والعدول عنها برهان على ضعف الانسانية وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم لا عليَّ ولو لم القِ بنفسي اليكم ما وصلتم الى التحكم في امري والتحيير في شاني والامر لله ثم عرض عليه التوجه الى باريس كما قصدها ابراهيم باشا خديوي مصر فقال ان ابراهيم باشا يرى باريس وغيرها من امصار فرنسا متنزهاً له يمرح فيه كيف شاء واما انا فلا ارى فرنسا الآن الا سجناً لي ولمن معي فلا فرق عندي بين طولون وباريس. ثم كتب الى ابن الملك الدوك دومال يخبره بما ارتكبته دولتهم من عدم الاعتناء بايفاء العهد وانجاز الوعد وان من اكبر العار عليها غدرها بمن سلم نفسه اليها على ان هذا تخالف للمروءة تجانب للدين لم يسمع بمثله في اساطير الاولين والآخرين ولو كنا نعلم ان الحال يؤول الى ما اليه آل لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال فاجابه ابن الملك بما نصه

(الى) حضرة الامير عبد القادر بن محيي الدين ارشده الله آمين

السلام عليك ورحمة الله وبركاته اما بعد فقد وصلني كتابك وقرأته وفهمت فحواه ومسني اهتمام لاهتمامك ومن حقك توسع بالك ولا تضيق خاطرك عن شيء لا يدوم ولو فرض انه لم يعجبك الم تعلم ان الفرنسيس جنس قوي وسلطانه صاحب حسنة وعدل مقيم فلا تندم على رأيك حيث سلمت نفسك لديه وفوضت امرك اليه وقد شهدت فضله واحسانه عليك فلا بد ان تكون مطمئن القلب سلي البال كما تسلى اصحابك وكل من معك وما يكون الا الخير والسعادة ان شاء الله وها اني بعثت لك كتابين ردا عليَّ من اخيك ودمت بخير والسلام حرر في يوم السبت اواسط صفر الخير سنة اربع وستين ومائتين والف

(قال) بعض مؤرخي الفرنسيس ان الامير لما تعين الكرونيل دوماس لمرافقته انس به لانه كان ايام معاهدة تافنا بين الامير وفرنسا وكيلاً عنده في عاصمته معسكر وكان الامير يحسن السلوك مع رفقائه ويسليهم ويتلطف معهم في سائر الامور ويخالطهم بنفسه ويؤثرهم عليها بكل ما كان يخص به من لذائذ الاطعمة ونفائس الالبسة فقيل له في ذلك فقال الحال التي نحن فيها تقضي عليَّ بذلك وعلى هذا كان اسلافي مع من يساكنهم ويصاحبهم فلا يقول احدهم حصاني وبرنسي ومالي بل يقول حصانا وبرنسنا ومالنا ولا اريد ان اخالف اسلافي في شيء وقد دخل عليه الكرونيل دوماس في يوم شديد البرد فلم يجد عنده ناراً فسأله عن ذلك فاجابه ان ما كان عندنا من الحطب قد نفد من امس ولا اريد ان اضيق على رفقائي باخذ ما عندهم منه فقال الكرونيل الذي اراه انك لا تشبه رؤساء اهل ملتك الذين اجتهدوا في هدم احوال الامم

(لطيفة) ــ دخل عليه الكرونيل وهو يضحك وقال له ان احد القسيسين السذج في ماكون طلب مني ان يقابلك لكي يعرض عليك الديانة المسيحية وقد تعهد لي بفرح شديد على اقناعك وفي اقرب وقت يدعك تعتنق المذهب الكاثوليكي فقال له الامير يقتضي ان يكون هذا الرجل من اصحاب الخير لان له مقاصد صالحة فقل له انه يأتي وانا ارشده الى الدين القويم ويعدُّ لي ظفراً ان اقنع رئيس ديانة مسيحية ان يتدين بديني . قال بعض المؤرخين وبالحقيقة لم يكن الكاهن المذكور اكثر خلوصاً في ايمانه من الامير عبد القادر في ايمانه فالذي يكون نظير الامير متعمقاً في الديانة لا يكون منهجه في حياته السياسي الا نفس منهجه الديني وكان يفتكر دائماً في استمالة العرب الى المبادي الاسلامية واستدعائهم الى فضائل اهل القرون الاولى للهجرة وايقاظهم من الغفلة ولولا محاربة دولة فرنسا لتمم مقاصده انتهى . ثم اتى لزيارته وتفقد احواله الكرونيل بوفورت نيابة عن الدوك دومال حاكم الجزائر واخبره ان الملك عزم على الوفاء بالشروط تماماً

وبعد ايام بلغه ان قضيته رفعت الى مجلس الامة لبحث فيها فحصل بين رجاله اختلاف كبير وقال البعض ان الامير قد خرج عن الطرق المرعية بين المتحاربين بقتله الاسرى صبراً فلا عهد له عندنا يجب علينا الوفاء به فاعرض اهل المجلس عنه وفي اول ربيع الاول سنة اربع وستين وستة ايام من فبراير سنة ثمان واربعين تكلم وزير الخارجية في مجلس الامة فقال لو فرضنا باننا لا نتمكن من ارسال الامير الى عكا لكون الدولة العثمانية لا تعترف باستيلائنا

على بلاد الجزائر فاننا نتمكن من ارساله الى الاسكندرية فاجابه كبير الوزراء ان المخابرة جارية بيننا وبين محمد علي باشا صاحب مصر وقد طلبنا منه الكفالات اللازمة لذلك فلما اتصلت هذه الاخبار بالامير سكن روعه وهدأ فكره ثم جاء الجواب من محمد علي باشا بعدم قبوله اقامة الامير في القطر المصري (وقال) ابن عمنا العلامة السيد الطيب ابن المختار مادحاً الامير ومتحسراً •

بكم السماحة والمروءة البست ... ثوب البها يا بضعة المختار
وتشرفت وتنورت وتزخرفت ... احوالكم يا نخبة الاخيار
وتزونقت وتزينت بمحاسن ... وتملكت وتزودت بفخار
وتطهرت وتطيبت بل اشرقت ... وتلألأت كتلألؤ الاقمار
واذا فقدتم من لنا من بعدكم ... ومن الخليفة بعدكم في الدار
جاوزتم في المجد حد ذوي النهى ... وسموتم في رفعة المقدار
ونحوتم آثار قوم قبلكم ... بتهجد وتلاوة الاذكار
وملكتم فزهدتم وقدرتم ... فعفوتم يا قاهري الكفار
عوفيتم وشفيتم وكفيتم ... وسلمتم دوماً من الاضرار
وحرستم ومنعتم وكنفتم ... بتقدس متكبر جبار
كم بالزمان اصبتم واذيتم ... فصبرتم لتلاعب الاقدار
ولطالما غلبتم وظفرتم ... ونصرتم بتناصر الانصار
ولطالما اعطيتم ومنعتم ... وبذلتم بقرارة الاكدار
جاهدتم في الله حق جهاده ... حتى الامان اضا كشمس نهار
دار السلامة والمبرة والبقا ... لكم وللاعداء دار بوار
مذ غبتم احبابنا ونأيتم ... يا جيرتي والدمع كالانهار
واحسرتي وكآبتي وصبابتي ... وشكايتي للمالك القهار
وتاسفي وتكففي وتعففي ... وتلطفي صبراً على التعار
جودوا بوصلكم الجميل فان لي ... فيه الحياة مدى الزمان الجاري

173

ذكر قيام الجمهور في فرنسا على الملكيين وما لحق الامير من سوء المعاملة

وبعد برهة يسيرة قام حزب الجمهور طالباً ادالة الملكية بالجمهورية واضطرمت نار الفتنة لذلك في سائر بلاد فرنسا ولما راى الملك تفاقم الامر خرج من باريس مختفياً ولحق بلونده عاصمة الانكليز وانتصر حزب الجمهورية ونشرت راياتها في سائر مدن فرنسا وامصارها وحدث للامير من سوء معاملة الحكومة ما اثار حزنه وهيج كربه لانهم نظروا في امر الامير تخافوا ان ينصب لهم حزب الملكية مكيدة به فيحملونه الى الجزائر وبذلك يمسون في ارتكاب عظيم من امرهم فبينما الامير ورفقاؤه ينتظرون ما يراد بهم اذ جاء الموكلون بهم وحملوهم من البرج الى قلعة طولون والجنود تحيطة بهم واظهروا لهم غاية الوحشة وسوء المعاملة والامير مظهر التجلد الى رفقائه آمر لهم به ثم دخل عليه الكورنيل دوماس واخذ يسليه ويخفف عنه فقال له نحن لا نحتاج الى هذا وانظر الى سلطانكم فانه كان ذا قوّة وسطوة كم امر ونهى وعزل وولى واقام واقعد وعاقد وعاهد وها هو الآن قد انحط وعن عرشه سقط ونحن ما بذلنا انفسنا واموالنا طلباً للدنيا وحرصاً عليها وانما كان ذلك امتثالاً لامر الله تعالى لنا بالجهاد لحماية الدين والوطن . وبعد ايام ارسلت الحكومة الجديدة الكورنيل اوليفيان ليتطلع احوال الامير فهش له وبش واظهر له السرور بقدومه عليه وقبل رجوعه الى باريس دخل عليه واطال الجلوس معه واظهر له ان الحكومة لا تابى ان تطلق سراحه الى الاماكن التي طلبها غير انها تخشى من نقض عهده ورجوعه الى الجزائر فاجابه الامير ليس في وسعي ان اعطي ميثاقاً للحكومة اقوى من الميثاق الذي اعطيته للجنرال لاموريسير واكدته للدوك دومال ابن الملك والملك ايضاً ولو لم ارد التسليم والنزول عن الامارة ما كنت اليوم هنا عندكم في حال اسير مقهور (فقال) اوليفيان كلامك ايها الامير مقبول ولا ضرر عليك اذا انت حلفت للحكومة بالقرآن على انك لا ترجع الى الجزائر ولا تتداخل في مصالح فرنسا بوجه من الوجوه بنفسك ولا بواسطة فاجابه الامير الى ذلك وقال ان دعتني الحكومة اليه لا اتوقف في اجرائه فقال له اكتب اذاً مكتوباً للحكومة يشعر بهذا فكتب ما معناه .

الحمد لله الواحد الاحد الذي لا يزول ملكه مدى الابد الى اركان المشيخة المستولين على زمام ملك فرنسا اما بعد فقد حضر عندي رسولكم الكورنيل اوليفيان واخبرني

بان الفرنسيس اتفقت كلمتهم على ابطال الملك الاستبدادي وادالته بحكومة جمهورية شورية فسرني هذا الخبر لما اعلمه من ان المراد بهذا الامر نزع الظلم ومنع التسلط وبناء على ذلك ارجو ان تكشفوا عني ما انا فيه من البلاء فانكم بنيتم امركم على دعائم العدل والانصاف والوفاء بالعهد والصدق في الوعد وان نقمتم على ما جرى بيني وبينكم من الحروب التي اتصلت عدة سنين فما اظن ان احدا ممن على وجه الارض من البشر ينكره عليّ او يذمني به لانني رجل اوجب عليّ ديني ان ادافع عنه وعن ارض اهله المتمسكين بعروته الوثقى فقمت بذلك وبذلت وسعي فيه ما استطعت ولما ظهر لي انتهاء اجل قيامي بهذه العبادة التي حزت بها ولله الحمد شرف الدنيا والآخرة وتلاشت الهمم وتقاعدت العزائم ونفد ما كان عندي من المواد والاسباب التي كان القيام بها سلمت وقلت ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فهو اقامني حيث شاء واقعدني حيث شاء ثم اني طلبت من رئيس جيوشكم التي كانت ترصدني وتتوقع وقوعي النائب عنكم في الجهة الغربية الجنرال لامورسير عهداً وميثاقاً على اني ان سلمت في امري الذي كنت قائماً به فانه بالنيابة عنكم يحملني انا ومن معي الى الاسكندرية او الى عكا فاجاب الى ذلك وقبله واعطاني العهد والميثاق على ذلك وحرره وامضاه بخطه وختمه كما اني اعطيته عهداً وميثاقاً على ان لا ارجع الى الجزائر ولا اتعرض للفرنسيس في شيء بوجه من الوجوه وبعد الوثوق منه ومني جئت باهلي واولادي ومن اتبعني من خاصتي الى مرسى الغزوات واجتمعت بالجنرال لامورسير حاكم الجزائر الدوك دومال ابن الملك والجنرال كافنياك ثم حملونا في الباخرة الحربية من مرسى الغزوات على ان يمروا بطولون لحمل لوازم الباخرة ثم يجددون السير بنا الى المشرق فلما وصلنا الى طولون انزلونا الى البلد وتصرفوا فينا بما شاؤا وكيف شاؤوا وها نحن على ذلك ننتظر الفرج من الله تعالى فلعله يجريه على يدكم فتحوذون به الفخر العظيم والذكر الجميل في العالم باسره اذا فالوفاء بالعهود وانجاز الوعود من خصال اهل الكمال ونعوت ذوي الفضل والافضال وان امرتم باني اقسم لكم بالقرآن العظيم اني لا انقض لكم عهداً ولا اخلف وعداً ولا اتعرض لكم في شيء فلا يثقل عليّ ذلك بل اقسم لكم بما تريدون فيما تريدون كتب هذا عبد القادر بن محيي الدين في اول ربيع الاول سنة اربع وستين وستة من شهر فبراير سنة ثمان واربعين فاخذ اوليفيان هذا المكتوب ورجع الى باريس وبقي الامير ينتظر الجواب بما يسره فاذا بخطابه احدث في الجمهورية نفاراً وكان جوابهم ان الجمهورية لا ترى نفسها مرتبطة بعهد مع الامير عبد القادر بل ترى انه اخذ اسيراً تتركه كما تركته الحكومة السالفة فاشتد كرب

الامير لذلك فاخذ الكرونيل دوماس يلاطفه في الكلام ويوءنس وحشته فاجابه الامير اذا طال الامر على هذه الحال يموت اكثرنا حزنًا بلا ريب واكون انا السبب الوحيد في ذلك اذ لم يستحسن المجيء الى الفرنسيس غيري والذي غرني واوقعني في يدهم دعواهم انهم قوم لا ينقضون العهد ولا يخلفون الوعد فاذا بهم لا عهد لهم ولا ميثاق بل عهدهم مكيدة وخديعة ولو علمت ان في فرنسا محكمة شرعية او سياسية تسمع دعوى المظلوم وتنصفه من خصمه ولو كان ملكاً ذا سلطة لرفعت اليها قضيتي فعساها ان تاخذ بيدي وتقوم بناصري فلم يكن من الكرونيل الا اظهار الاسف والتوجع والامر لله

﴿ ذكر اخبار اخوة الامير وحملهم الى طولون ﴾

وقد كان اخوة الامير معه في الدائرة ولما اقبلت الجيوش المراكشية زاحفة اليه استولى عليهم الخوف فاستامن منهم السيد مصطفى والسيد حسين الى الجنرال لامورسير فامنهما وكتب لهما في ذلك ووعدهما ان يحملهما الى المشرق فارتحلا من الدائرة ليلاً ولحقا بارض الفرنسيس وبعد اجتماعهما بالجنرال نقلهما الى تسالمت قرب وهران واما اخوهم الاكبر السيد محمد سعيد فانه لم يفارق الامير الا في ليلة عجرود وكان معه ابنتا الامير وهما زوجتان لولديه فحالت شدة الهول تلك الليلة دون اجتماعهم وبقي السيد محمد سعيد في قرية ابن ميره من قرى مسيرده ثم نقل الى تلمسان والتحق باخويه في تسالمت ثم امر الحاكم العام ان يجمعهم باخيهم وفي الحال يحملون الى الجزائر ومنها الى طولون ولما اتصل خبرهم بالامير ازداد كربه وغمه وبعد وصولهم وصل بعض اعيان فرنسا الى طولون واجتمع بالامير وكان الكرونيل دوماس حاضراً فتكلم الامير معهما في شان اخوته وقال ان حضور اخوتي الى هنا ليكونوا اسرى معي قد زادني غماً لانهم لم يحاربوا معي جيوش فرنسا ولا شاركوني في الوقائع فلا يستوجبون الاسر فان وجدتم سبيلاً للكلام في شانهم مع الحكومة فافعلوا فلعل ان تترك سبيلهم وتحملهم الى الاسكندرية فوعدوه بذلك ثم جاء الامر بعزل من في معية الامير عنه سوى اخوته وخليفتيه السيد مصطفى بن احمد التهامي والسيد قدور بن علال وبعض الاتباع وحملهم الى سنت ماكريت وهو موضع اقامة الاسرى فجاء الموكلون بتنفيذ هذا الامر بشرذمة من العسكر الى القلعة وعزلوا نحو المائة والخمسين نفساً ثم ساقوهم الى الباخرة المعدة لحملهم فعظم الكرب لهذا الامر الفظيع الذي لا داعي له الا اوهام واهية قال بعض موءرخيهم والباعث على ذلك ان وزراء الحكومة لما اتفقت كلمتهم على نقل الامير من قلعة طولون الى بو ومي

مدينة شهيرة وفي وسطها سراية عظيمة لاحد ملوكهم في تخوم فرنسا مما يلي بلاد اسبانيا وقع في قلوبهم انه ربما يخرج من السراية بالقوة لكثرة رجاله ويلحق ببلاد اسبانيا فقصدوا بما فعلوه ضعف قوّته وقلة عدده

ذكر نقل الامير الى بو ثم الى امبواز

ثم نقلوه بمن بقي معه الى سراية بو فوصل بها في السابع عشر من جمادى الاولى والواحد والعشرين من ابريل وابدل الكرونيل دوماس بالقبطان بواسوني ولم تمض ستة اشهر من وصوله الى سراية بو حتى بلغهم ان رجالاً من الانكليز ينتظرون سنوح الفرصة للتمكن من الفرار به الى بلادهم وانهم في اكثر الاوقات يقابلونه من جهة المنافذ على بعد ويشير اليهم ويشيرون اليه فاضطرب رايهم واتفق ان الامير قعد ليلة في احد المنافذ يقرأ القرآن فرآه الطوف ولما اصبح جعلوا عسساً مستمراً تحت المنفذ وزادوا في عدد الحرس وبعد هذا لم يهدأ روعهم الى ان قرّ قرارهم على نقله الى سراية امبواز التابعة لمقاطعة اورليان فحملوه بمن معه الى بوردو وهي من اعظم مدنهم الواسعة على شاطئ البحر المحيط وقبل وصوله اليها استقبله اسقفها دوبيش المشهور بغاية الاحترام والاكرام لانه كان من المحامين عن الامير ولم ينس الاكرام الذي اكرمه به الخليفة السيد محمد بن علال حينما زاره بولايته وقد اشرنا الى ذلك سابقاً ولما سافرت الى باريس سنة ثلاث وثمانين ومائتين ومنها الى بوردو ونزلت بفندقها الكبير المشهور واحضر لي خادمه صباحاً فنجاناً من الشاي والحليب على حسب العادة رأيت كتابة على الفنجان والصحن ترجمها لي القبطان الذي عينته الحكومة ترجماناً معي وهي ان الامير عبد القادر نزل بهذا الفندق سنة اربع وستين ومائتين وشرب القهوة في هذا الفنجان ثم ان رئيس الفندق طلب مني ان اكتب تحت الكتابة ان محمداً ولده الاكبر نزل في هذا الفندق سنة ثلاث وثمانين ومائتين وشرب القهوة في هذا الفنجان فشكرت له ما ابدوه من اهتمامهم باحوال الامير وتدوينها حتى على الفناجين . ثم سافروا منها الى نانت ثم الى تور ومنها الى امبواز ولما دخل السراية قال له الضابط الآن قد استرحت وآمنت عليك لانه لا تخلو عائلة من فرنسا الا ولها ثار عليك ولذلك كلما وصلنا لبلد تحاط بك العساكر خشية من بعض من لهم ثار عليك ان يقتلوك . وامبواز مدينة في وسطها سراية لملوكهم الاقدمين حصينة ذاهبة في الجو مشرفة على بسائط وبطاح يشق البلد

175

نهر عظيم واسع الاطراف تسير فيه المراكب الشراعية فاقام فيها اربع سنين لا يروع وان لم يكن آمناً ولم يتجدد له كرب وان كان في باطنه كامناً ولسان حاله يقول

الدهر خلخلني مثل النساء وكم   شنفت من قبل ذا آذان اكفائي

قال شرشل في تاريخه عند ذكره هذا الخبر ما معناه ان الامير عبد القادر ما زال ذا همة غالية لم تؤثر فيه شدة المشاق التي احاطت به من كل ناحية ولو الم بغيره لاذلته اذلالاً واعدمته الصبر والتجلد تفصيلاً واجمالاً ثم قال وكان الناس يتقاطرون اليه من جميع انحاء فرنسا وغيرها لمشاهدة حاله في اسره فكانوا يعجبون من سمو همته وبعده عن اظهار الضجر وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر ولا شك ان من كان مثله في القوة الفاضلة لا يبالي بالشدائد النازلة وقد قيل له في ذلك فقال

تعودت مس الضر حتى الفته   واسلمني طول البلاء الى الصبر

وكان كثيرون من اصحاب المناصب وذوي السياسية وقواد الحرب يسابق بعضهم بعضاً لاظهار الاحترام والاعظام لذلك الامير الهمام وكان يصرف ساعات كثيرة في مقابلة اولئك القاصدين والذي كان يدهشهم على الاكثر تظاهره بالبشر والافراح مع ما احاط به من المحن والاتراح وكان السنيور دوبيش اسقف الجزائر كتب الى الكرونيل دوماس بعد ان ترقى الى الجنرالية يهنيه ويخبره بعزمه على زيارة الامير فكتب اليه الجنرال المذكور يقول انك ايها الاسقف المحترم ذاهب لترى الامير الاسير وحقاً ان سفرك هذا لايذهب عبثاً ولا يخفى انك قد عرفت الامير عبد القادر حينما كان السعد خديمه والعز رفيقه وكانت بلاد الجزائر كلها تعترف بسيادته وسطوته وستجده الان من حيث عزة النفس وقوة الجاش اعظم واكثر مما كان في زمان اقباله وستجده ايضاً ليناً ودوداً بشوشاً في وجه من يزوره حزماً صابراً لا يظهر الضجر عاذراً لاعدائه متغافلاً عن اساءتهم لا ينطق في جهتهم بسوء وبالجملة ستزداد علماً ومعرفة بما فوق ما امتازت به حياتك . وكان هذا الاسقف ايام الحرب يكاتب الامير ويظهر التردد اليه وكان الامير كثيراً ما يستشيره في امور سياسية فيجيبه بما يطابق الواقع من غير حيف ولا مكر وقد كتب اليه الامير من برما نصه من عبد القادر بن محيي الدين الى محبه الاسقف دوبيش منذ ثلاث سنين كنت احارب الفرنساوية وليس لي امل ان ارى نهاية حميدة لي في هذه الحرب

التي ابتدئت من ستمبر سنة ثلاث وثلاثين مع اني كنت معتقداً اني لم اقم بالواجب الديني وحفظ بلادي واخشى ان اتلقى شبه الملامة من قومي الذين وثقوابي وحلفوا ان لا يتركوني وفي هذه المدة عرضت الفرنساوية عليَّ مقدمات كثيرة وهي ترك السلاح مقابل شروط · وزيادة على ذلك كان قد عرض عليَّ المارشال بيجو بالواسطة مليونًا لاترك السلاح فلم اقبل ذلك منه محافظة على عهدي وديني وقبل ذلك كتب لي خليفتي السيد احمد بن سالم عند سفره الى بلاد الشرق على باخرة افرنسية بعد تسليمه الاجباري واكد لي انه كتب له من قبل الحاكم العام الذي كنت عارفاً باستقامته وشجاعته باني اذا قطعت الامل واتبعته في عمله لاعامل باقل رعاية منه واجابة لطلبه تحمل على بواخركم الى بلاد بعيدة تقربها الوحدة الدينية الينا وقد بلغوه اني اذا كرهت السفر على باخرة مسيحية يستاجرون لي باخرة اسلامية ونفقتها على اسم فرانسه على انه كان لي ثقة بعدالة الفرنسويين وانها تفي بما وعدتني به مقابل تركي السلاح وما ينشأ عنه من السلام العام وليس لي امل اذا استمررت على الحرب بالظفر لعلمي بنتيجته لكن حلفت ان ادافع عن ديني واحافظ على بلادي الى حدّ تضعف دونه قوتي واظن اني لم اعمل القدر الكافي ومع ذلك كان مركزي بالدائرة اواخر سنة ١٨٤٧ خطرًا وخيماً فتحرك عليَّ حاكم مراكش واظهر ما عنده من الحنق واظنه يعقبني ويحاربني فصرت اتحسب من قبائل الريف المتوحشين اكثر من الفرنسويين الذين قوتهم كانت تزداد يوماً فيوماً مع ازدياد خوفي وقلقي ومع هذا كله لم يخطر بفكري ان اعقد الصلح مع الفرنسويين لكني لما رأيت اهلي في معسكر الدائرة على خطر عظيم من الجنرال اوست قررت ما يلزم ان اعمل محافظة عليهم من التعب على اني كنت قادرًا على التخلص رغماً بهمة من كان حولي من الفرسان الصناديد الاشداء على الاعداء الامناء على الوفاء وان اضايق الفرنسويين مدة طويلة آويًا الى قبائل الصحراء الذين لا يبخلون عليَّ بقليل من الشعير والحليب وكان في استطاعتي ان انهزم على حصاني الى المدن المقدسة لكني تركت ذلك حباً لراحة اهلي والجرحى وضعفاء اصحابي وكتبت الى الجنرال لاموريسير بان الحكومة الفرنساوية اذا كانت باقية على نواياها لي مما طالما حدثوني به وانها تاذن لي اذا تركت السلاح بالذهاب الى الشرق الذي هو مطمح انظاري تركت لها سلاحي فارسل لي لاموريسير سيفه وخاتمه عهدًا على انجاز جميع ما طلبته منه باسرع وقت فطلبت منه تاميناً بالكتابة والا فلا فكان الجواب منه كالاول فعرفته ثالثة اذا لم اكن على ثقة من عهده فاني اسلم امري الى الله ولا يتم بيننا عقد اتفاق فبعث لي بالتأمين الخطي ممضياً باسمه الفرنساوي مختوماً بخاتمه بالعربي فاطمأنَّ لذلك

قلبي حيث انه وكيل الحكومة الفرنساوية وان كلامها اكيد يعمل به ولو كان صادراً من اقل رجل من رجالها وحينئذ وصلت الى معسكره وبالوقت ذاته حضر الدوك دومال الى جامع الغزوات فاستقبلني بكل لياقة وقال لي ان ما فعله قائمقامي وتعهد لك به فاني اجريه عند اللزوم واذا رغبت فاني اعاهدك بكلامي الملوكي ان كلما صار الاتفاق عليه يتم فقدمت له حينئذ آخر ما ركبت من الخيل ايام حروبي فسألني الى اين قررت الذهاب ومن سيكون معك فاجبته الى القسطنطينية او عكا او الاسكندرية والذي يصحبني اهلي والبعض من ضباطي وكان عدة من اراد ان يرافقني نحو المائة ولم يكن في وسعي ان ارد املهم في الذهاب معي فاجاب ابن الملك بانه لا يوافقني على الذهاب الى القسطنطينية ولكن عند وصولنا الى المرسى الكبيرة يرسلني الى الاسكندرية اجابة الى طلبي ووفاء بوعده فقط ان السفينة التي اركب فيها ستقف قليلاً امام طولون فقبلت منه ذلك ولم ادرك له معنى الا ان السفر يقتضي ذلك ولما وصلنا الى طولون اخرجونا من السفينة واودعونا في السجن وا أسفاه كنت اظن ان نذهب الى محل الراحة والسعادة لا الى الحبس والشقاوة حيث اني اتكلت على العهد الوثيق والوعد الاكيد من ابن الملك الدوك دومال والجنرال لاموريسير وكان الغالب على ظني ان دولة فرنسا لا تخلف وعدها ولا تنقض عهدها لزعمها انها من اعظم الدول المحافظة على العدل والاستقامة بل كنت اقول في نفسي اذا اسرني الفرنساويون في الحرب لا انال منهم الا كل رعاية لانهم ذوو شهامة يعرفون قدر الغالب والمغلوب فكيف اذا سلمت نفسي اليهم عن طيب خاطر وكيف يكون اذا كان التسليم على عهد ووعد اكيد ونظراً لما اتاكده من كمال حبك وعقلك اخبرتك بالواقع لتفرق بين الاخلاق العربية والافعال الفرنساوية وتحكم بما تراه ولما زاره اسقف مدينة تور في فصل الشتاء قال ايها الامير اخشى عليك من شدة برد اقليمنا فاجابه نعم ان اقليمكم بارد لكن حرارة عنايتكم دفعت البرد عنا . وزاره بعض القواد الفرنساويين الذين افنوا شبابهم في حروبه وعرفه بنفسه فبش في وجهه ولاطفه قائلاً قد سررت ايها الكرونيل بزيارتك وزيارة رفقائك وتذكرت الحروب التي جرت بيننا في بلادي وان تضع اوزارها الا بما قضى الله بهذا الانقلاب العجيب ولا شك ان اكثر اصحاب الوظائف الحربية يعترفون بشدة مقاومتي لهم ويشكرون فعلي حيث كنت سبباً لارتقائهم الى الرتب السامية وحصولهم على النياشين العالية ويغلب على ظني انهم لا ينسون ايامي معهم ولما تقلد الجنرال لاموريسير وزارة الحرب واتصل خبره بالامير وهو في بو سر بذلك ظناً منه انه يوفي بعهده فكتب اليه يهنيه ويذكره بالميثاق والقيام بواجب الوفاء ومن

جملة ما كتبه . ان كثيرًا ممن لا المام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون انك غلبتني في الحرب واجبرتني على التسليم والقاء السلاح فينبغي لك ان توضح لهم القضية وتوقفهم على ما جهلوه من امرنا وبذلك تجد منهم من يسعفك وياخذ بيدك في الوفاء بعهدك الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسا بل الشعب كله لكونك كنت وقتئذ رئيس جيوشهم ونائب ملكهم في كل ما تجريه وبالجملة فان وفيتم فانكم تنالون فخرًا كبيرًا بين الامم والدول وان نقضتم واخلفتم فلا شك انكم ترتكبون في ذلك امرًا شنيعًا يسقط به قدركم ويقبح بارتكابه ذكركم في العالم كله حرر في سابع شعبان سنة خمس وستين ومائتين والسابع والعشرين من يونيه سنة تسع واربعين وثمانمائة فحرك هذا المكتوب من دي لامور سير سواكن الاحن فامر بنقل الامير من بو الى امبواز فسار الحرس به وبمن كان معه الى مدينة بوردو ومنها حمل في البحر الاوقيانوس الى مدينة نانت وفي اثناء الطريق اظلهم العيد فاخبر الامير بذلك قبطان المركب في مذاكرة كانت بينهما فلما كان صباح العيد امر القبطان بزينة المركب واطلاق المدافع تطييبًا لخاطر الامير وبعد وصوله الى امبواز جاء امر وزير الحرب دي لامورسير للموكلين بهم ان لا يكون للامير ولا لاحد من رفاقه علاقة مع احد من الخارج لا لسانية ولا قلمية وان لا يجتمع الامير باحد من الزوار وان طلب احدهم مواجهته فلا تاذنوا له بدون رخصة من وزارة الحرب فانظر الى هذه الافعال والاقوال المنافية للشرف والانسانية وكان هذا الجنرال قد وقع عليه اللوم والتبكيت في مجلس النواب في قبوله تسليم الامير وخطؤوه على ختم الشروط متعللين بامكان جعله اسير حرب فقال الجنرال ان هذا اللوم الشديد قد وقع عليَّ بجنحي للسلم في موضع يجب فيه الحرب بزعمكم وانا اتحقق اني لو ركبت الخطر بالزحف على عبد القادر ما رجعت الا بهزيمته وسحاده وانه ليذهب الى الصحراء بحيث لا يمكنني ان اصل اليه وهذا اكد عندي من ان يقع في يدي لان عبدالقادر ذو قوة وصلابة في دينه مشتهر بالصدق والامانة في وطنه شديد التمسك بمباديه وهذا الامر الاوحد والسبب الاعظم الداعي لاجتماع القلوب عليه وان مبدأه الفريد هو الذي اشهره في جميع الجهات ولا شك ان الظفر الذي حصل للرجل الذي حاربناه في وقائعه هو ثمرة ما قررناه ومن كان هذا شانه وسيره فلا بد وان يحدث خطرًا عظيمًا ان ترك في بلاده واظن اني ما سلكت الا جادة الصواب ومع هذا فارجعوه الى محله مع القوة التي كانت معه فقط وامسكوه عنوة وانا والحاكم العام ما قبلنا تسليمه على شروطه الا لاننا اخترنا راحة فرنسا وعساكرها التي اضنكها التعب وكثرة المصارف

من غير طائل تحصل عليه من جهة الامير والقبض عليه فسكتوا وانفض المجلس فاقام الامير بامبواز وهو مستمسك بعرى الصبر متجلد لنوائب الدهر قائم بواجب العبادة وكان مطران امبواز عند الاجتماع للوعظ في الكنيسة يقول لهم الا تنظرون الى الامير عبد القادر وجماعته في بلدتكم متمسكين بدينهم مواظبين على صلواتهم الا تسمعون نداء قره محمد في كل اوقات صلواتهم ليلاً ونهاراً لان السراية كانت عالية على البلد وقره محمد جهور الصوت فكان اذانه يسمع من بعيد . وداوم الامير في تلك المدة على تدريس العلم وافادة الطلبة من جماعته فقرأ الصغرى للسنوسي في علم الكلام ورسالة الامام محمد بن ابي زيد القيرواني في الفقه على مذهب الامام مالك وغيرها من المصنفات المفيدة ثم سلك اخوه الكبير السيد محمد سعيد واخوه السيد مصطفى وخليفته السيد مصطفى بن التهامي جادته وافادوا الطلبة افادته واجتمعوا لقراءة البخاري على نية تفريج كربهم وكتاب الشفاء للامام عياض على تلك النية واستمروا على التدريس الى ان انتهى اجل الاكدر والاتراح وجاء البشير بطلاق السراح على ما نذكره في محله ان شاء الله تعالى ثم ان بعض امراء الفرنساوية تذاكروا في الحضر والبدو فبعضهم فضل الحاضرة وبعضهم فضل البادية ثم اتفقوا على ان يحكموا الامير فيما بينهم لانه ممن سكن الحضر والبدو فحكم لتفضل البادية واجابه بقوله

يا عاذراً لامرىء قد هام في الحضر ... وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذمّن بيوتاً خف محملها ... وتمدحنّ بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
او كنت اصبحت في الصحراء مرتقياً ... بساط رمل به الحصباء كالدرر
او جلت في روضة قد راق منظرها ... بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقا ... يزيد في الروح لم يمرر على قذر
او كنت في صبح ليل هاج هاتنه ... علوت في مرقب او جلت بالنظر
رايت في كل وجه من بسائطها ... سرباً من الوحش يرعى اطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حزن ... في قلب مضنى ولا ضنكاً لذي ضجر
نباكر الصيد احياناً فنبغته ... فالصيد منا مدى الاوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعامته ... وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا ... شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى ... مرقعات باحداق من الحور

تمشي الحداة لها من خلفها زجل ... اشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها ... شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها ... على البعاد وما تنجو من الخمر
نروح للحي ليلاً بعد ما نزلوا ... منازلا ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل انقى وجاد بها ... صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت ... مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الاولى قد مضوا قولاً يصدقه ... نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر في بيتين رونقه ... بيت من الشعر او بيت من الشعر
انعامنا ان اتت عند العشي تخل ... اصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل انجى لراكبها ... سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها ... بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائماً للحرب مسرجة ... من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا احداً ... واي عيش لمن قد بات في خفر
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه ... وارضه وجميع العز في السفر
فان اساء علينا الجار عشرته ... نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا ... فيها المداوات من جوع ومن خصر
عدونا ما له ملجا ولا وزر ... وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب ما يخالطه ... ماء وليس حليب النوق كالبقر
اموال اعدائنا في كل آونة ... نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به ... الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية ... والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنحن اطول خلق الله في العمر

(ثم) ان الحكومة الجمهورية ارسلت الى حكام الجزائر ينظرون من يصلح لمؤانسة الامير ومجالسته من علماء تلك البلاد فوقع اختيارهم على العلامة الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني فحمل الى امبواز فلما وصلها اكرم الامير وفادته واجزل حرمته نظراً اعلمه فانتج حسن السلوك بينهما مودة استحكمت نواحيها وشدت اواخيها واستمر الامر بينهما على ذلك الى ان نعق في افقهما غراب البين وعادا ما كانا عليه اثراً بعد عين وقد وقفت لسيدي الوالد رحمه الله على رسالة اثبت فيها احاديث ائتلافهما وما جرى

178

بينهما من النظم ايام اجتماعهما قال قدس الله روحه الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وارض اللهم عن الصحابة اجمعين وعن الائمة الراشدين اما بعد فهذا تقييد يشتمل على بعض ما كتبناه وكتبه الينا اخونا في الله العالم المتفنن السيد محمد الشاذلي القسنطيني ايام صحبته لنا في فرنسا وورودة علينا للتأنيس فكان لنا خير انيس واحسن جليس نفس من همومنا بلطائفه وطرائفه مما لا تنفسه الصبا واجلى من احزاننا ما لا تجليه الصهبا

فكنت به اجلي همومي واجتلي زماني طلق الوجه ملتمع الضيا
ارى قربه قربي ومغناه غنيتي ورؤيته ريا ومحياه لي حيا

ولما نعق غراب البين وصار الاجتماع اثراً بعد عين انشدت قول بعضهم

وجدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الاحباب هينة الخطب

وقول الآخر

وقفنا ساعة ثم افترقنا وما يغني المشوق وقوف ساعة
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع اذا ما فرق البين الجماعة

نسأل الله ان يجمعنا في الجنة جمعاً لا نخاف بعده بالفراق محنة وان يجعلنا من المتحابين فيه الذين يظلهم في ظله يوم لا ظل الا ظله وان يستعمل قلوبنا وجوارحنا فيما يحبه ويرضاه ويلطف بنا فيما قدره وامضاه وان يختم لنا بالسعادة التي ختم بها لاوليائه ويجعل خير ايامنا واسعدها يوم لقائه وان يفك الاسرى ويعقب الشدة بيسرا متوسلاً في حصول ذلك كله بخير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين له من امته الفائزين بقربه آمين

فمن ذلك ما كتبته اليه حين الملاقاة لاول وصوله الينا نزل الحبيب ومقدمة التناجي والتقريب

اهلاً وسهلاً بالحبيب القادم هذا النهار لدي خير مواسم
جاء السرور مصاحباً لقدومه وانزاح ما قد كان قبل ملازمي
افديك بالنفس النفيسة زائراً من غير ما منّ ولست بنادم
طالت مسائلتي الركاب تشوقاً لجمال رؤية وجهك المتعاظم
لا غرو ان احببتكم من قبل ما شاهدتكم انتم جمال العالم
كانت على سمعي تغار نواظري حتى رأتك وانت انت مكالمي
عندي الايادي البيض حيث اريتني ما كان قبلاً في يقين العالم
والآن صرت من اليقين بحقه وبعينه ان السرور منادمي

اسميٌ قطب العارفين لك العلا　　متبوءًا منه اجلّ معالم
انت الذي في الفضل اصبح مفردًا　　لعلاه ما من مدعي ومزاحم
لا زلت ميمون النقية طالعًا　　بالسعد ذا فضل وخدن مكارم

فلما اطلعته على هذه الابيات وجدته قد كتب قوله

سلام عليكم طال شوقي اليكم　　وقلبي سواكم في البرية ما احب
سلام يفوق المسك نشر عبيره　　يعمكم والآل يا سادة العرب
اتيتكم عبدًا لقصد زيارة　　لعلي اوءدي ما عليَّ لقد وجب
فمنوا على العبد الذليل بدعوة　　ينال بها حسن الختام مع الارب
وكان مرادي ان الاقيكم على　　بساط عزيز الملك والحرب في نشب
وما كان في ظني ارى سيدي كما　　رأيت ألا لله ما تصنع النوب
فصبرًا لحكم الله راج ثوابه　　فان ثواب الله ياتي على التعب

وكتب الاخ المذكور يدعوني للمسامرة

ايا سيدًا فاق الكرام بمجده　　وخلق كريم لم يزل طيب النشر
تراه يريح الهم حسن حديثه　　ويبرئ مكلوم الفوءاد من الفكر
الا سمر منكم بذا الليل عندنا　　فالفاظكم اشهى اليَّ من القطر
وان كان عذرًا لتخلف منكم　　فحسبي من اوصافكم طيب الذكر
عليك سلام الله ما قلب عاشق　　لوصل حبيب راح يهوى مدى الدهر

فاجبته بقولي

نعم ولكم فضل باشرف دعوة　　غدوت بها ياصاح منشرح الصدر
وقد قيل لا يابى الكرامة غير من　　له عرق لوءم لم يزل في الخنا يسري
لمجلسكم اعلى الكرامة عندنا　　ولفظكم اشهى الينا من الدر
ورؤيتكم اجلى لهمي وانني　　غنيت بها عن طلعة الشمس والبدر
عليك تحيات القبول تكرمًا　　ايا واحدًا عندي يعدُّ بذا العصر

ومن ذلك ما كتبته اليه لما مرض وعدته صباحًا ولم اره مساء

خليلي قل لي كيف امسيت انني　　تحملت حزنًا منك بعي له رضوى
لقد مرضت ارواحنا وجسومنا　　لشكواكم ياليت لا كانت الشكوى
فلا تبغ اتلافي فما لي طاقة　　على الصبر ياروحي ولست لها اقوى
واني لارجو الله ينعم بالشفا　　عليك لنحظى بالسرور كما نهوى

فاجابني بقوله

بخير لقد امسيت والقلب شيق ... للقاكم شوق المحب لمن يهوى
احن لرؤياكم وضري مانعي ... وذكراكم انساني الضر والبلوى
لئن كان جسمي في الفراش فهمتي ... بساحتكم يامن هو الغاية القصوى
سألت الهي ان يخفف ضرنا ... ويجمعنا فيكم ويكشف ذا الشكوى

ومن ذلك ما بعثت به اليه صباحاً سائلاً عن حاله في ليلته

ياقرة العين قل لي كيف بت فقد ... والله بت وقلبي في لظى الحزن
مما عراكم عسى فيه اقاسمكم ... او حمله كله لو كان يمكنني
حتى يتم لنا من وصلكم غرض ... قد كنت آمله من سالف الزمن

فاجابني بقوله

ياقرة العين عني ان سألت جوى ... قد بت في الم من شدة الوهن
اكابد الضر والاجفان ساهرة ... هيهات ما ذاق طرفي لذة الوسن
والآن لم اك مثل الليل ياسندي ... الحمد لله ربي واهب المنن
جزاكم الله عنا كل مكرمة ... من فضله ووقاكم سائر المحن

ومن ذلك ما كتبه لاخواني يعاتبهم في تاخرهم عن عيادته

مرضت غريباً بين قوم اعزة ... فكلهم عن زورتي متمنع
كانهم في غيبة عن ثوابها ... او الطرق لم يعرف لها الدهر مهيع
اذا كنت مصحوب السلامة أقبلوا ... وان كنت في سقم فربعك بلقع
فهذي خصال البعض عند مريضهم ... فمن لي عند القوم بالعود يشفع
ولولا اصطباري واحترامي اليهم ... لكنت لهم انعي بشعري ألسع
ولولا احترامي للامير وآله ... لكان كلامي للجبال يزعزع

فاجبته عنهم

فديناك لا تعجل بلومك واصطبر ... وحقك ان العتب للقلب اوجع
لعل لنا عذراً يدافع عتبنا ... وصدرك في تلك المعاذير اوسع
وان من الاعذار ما ليس ذكره ... يليق ومنه مهجتي تتقطع
ولست غريباً بين قوم احبة ... مكانك فيهم من بني الدهر ارفع
فكم من حزين من بلائك واله ... يبيت على فرش الضنى يتوجع
وجمعي بكم يبقون جمع سلامة ... بدار بها ما للتفرق منزع

وجئت بلولا فاعلا لجوابها ... على انها في النحو قد قيل تمنع
وان كنت لساعاً فكن غير حية ... وكن نحلة ترياقها السم يدفع

فاجاب معتذرًا

سلام يفوق المسك والند عرفه ... يعم حمى قوم كرام المحافل
كرام اذا ما العبد بينهم جنى ... حبوه بعفو شامل ومآمل
بقدر عظيم الذنب يعظم عفوهم ... فاكرم بهم قوماً كرام الشمائل
على قدر نقصي عاملوني بفضلكم ... ايا كاملين الوصف لست بكامل
ندمت على ما كان مني ونادم ... عقيب وقوع الفعل ليس بفاعل
على ان عقل المرء يذهب للقضا ... فذو العقل ذو علم وليس بجاهل

فكتبت اليه مجيباً عن اعتذاره

خليلي لاتندم على العتب للمحب ... فان خفيف الحب انفع بالطب
فما ذاك مكروه ولا بمحرَّم ... بشرع الهوى بل ذاك فرض على الصب
سبيل الهوى هجر ووصل وفرقة ... وجمع وخلف في الزيارة والعتب
وهذى دواع للعتاب كثيرة ... لذا كان طول العتب الزم للمحب
وقد قيل يبقى الود ما العتب قد بقي ... فلله ما احلى مقال ذوي الأب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى ... فاين حلاوات الرسائل والكتب
واطيب ايام الهوى يومك الذي ... تروّع بالتعنيف فيه وبالسب

ومن ذلك ما كتبته اليه ايام شكواه وقد خرج للتنزه ولم اشعر به

يامملولاً لا يمل ... كيف كان اليوم حالك
يا كثير البعد عنا ... كان كالغدر ارتحالك
كنت من ذا في امان ... فبدا اليوم محالك

فاجابني بقوله

لا امل الحب ان كان يمل ... لست انساه بعيدًا او قريب
ليس يرضى الحب بالغدر ولم ... يهو قلبي غيركم قط حبيب
حالكم والحال مني واحد ... وعليكم سادتي مني رقيب

وقد كنا عودناه طعاماً فحصل ما اوجب قطعه عنه فكتب لي في ذلك مداعباً

فرضتم عليكم للتيم سنة ... تؤدونها بعد الفراغ من الفجر
طالبتم بها خيرًا ولا رمت فعلها ... واحسنتم والحسن من شيم الحر

وبعدُ فترتم والفتور مخالف   طباع كريم اخصه الله بالاجر
رزقتم مناكم لم ترومون قطعه   ونظمي له لاشك احسن في الشعر

فاجبته بقولي

سلامٌ عليكم دائم متتابع   له نفحة من دونها المسك والعطر
وبعد لعذر قد قطعنا عوائدا   تعودتها يا ايها الماجد الحر
والا فاثبات الرغائب شرعنا   نرى تركها ذنباً له يطلب الغفر
ولو انني قاسمتكم كل ما لنا   كما قاله الانصار والفاضل الحبر
لما جئت في معشار عشر حقوقكم   ولا كان ذا شيء يؤدى به شكر

ومن ذلك ما كتبته اليه استدعاء للاكل عندما يئسنا منه الصحة فانه لما مرض ترك الاكل وكنت اواكله فيما نصنع له من الطعام الذي نعده لانفسنا كرامة وايناساً

اما آن للخل المريض بان يبرا   فان صحيح الجسم منه شكى الضرا
توالت عليه جوعة بعد جوعة   اخوكم لها قد صار كالقلم المبرا
به وكل الجوع المضعف للقوى   فلله ما انكاه فينا وما اجرى
اذا نمت امسى لي ضجيعاً ملازماً   وان قمت اضحى كالغريم بنا مغرا
وقد عشت اياماً بظل جنابكم   فلله عيش ما الذ وما امرا
الى ان دهانا الدهر يوماً بجده   بعادات بين ما احدٌ وما افرا
ففرقنا جمعاً وكدر صفونا   وجوّعنا جوعٌ فقدنا له الصبرا
فان شئت فلتبرأ املاك مدركي   والا فان الجوع قد هيأ القبرا
بهذا اشار الناصحون لعلكم   ترقون او تاتي لنا منكم البشرى

فاجابني بقوله

خليليّ لا تجزع من الجوع انه   الى كل معتل هو الغاية الكبرى
لانك مصدوع وان بت آكلاً   يثير صداعاً ذلك الاكل والصفرا
وعبدك ان يشفيه مولاه في غد   سياكل اكل الفيل فاهناً بها بشرى
ليقضي الذي قد فات اذ كان واجباً   وفي الشرع تقضى كل فائتة قسرا

ومن ذلك ما كتبه اليّ

ايا اهل فن الطب بالله خبروا   ايوجد للصب النحيل دواء
نهكت سقاماً لم اجد لي شافيا   وقلبي من غير الخليل هواء
كلفت بها وهي الفريدة والتي   تجمع فيها الحسن وهي ضياء

ولا عيب فيها غير فرط دلالها　　وفي القلب منها للتباعد داء
اريد وصالاً وهي تقصد ضده　　ايمكن للضدين ثم لقاء
واسأل من ربي اللقاء فانه　　قدير ولي في ذي الجلال رجاء

فاجبته

سألت رجال الحب اخبر كلهم　　وهم اهل تجريب واهل ذكاء
بان سقيم الحب هيهات ما له　　دواء اذا ما الحب اصبح ناء
عسى ولعل الله ان يبرد الاسى　　فان رجاء الوصل بعض دواء
ولو لم يكن للعاشقين تقرّب　　لوقت وصال ما بقوا لمساء
وان دام هجر الحب او زاد بينه　　فذلك داء لم يزل بشفاء
وفيمن مضوا في شرعة الحب والهوى　　له اسوة فليصبرن لبلاء

كتب هذا خادم المجاهدين عبد القادر بن محيي الدين كان الله له ولاحبته في الدنيا و يوم الدين معتذرًا لمحبه ومتنصلاً من ذنبه عمداً كان او غلطاً آتياً او فرطاً هذا واني اعترف باني ما اعطيت لاخي المذكور حقه ولا وفيت له مستحقه اذ ليس عندي لاخوتي من الحقوق مع الاخ المذكور الا ما للاناث مع الذكور فانه لازمني ايام نفور الحميم والقريب وآنسني حين لا انيس لي من الجانس او غريب وتجشم شقة دونها اكبر مشقة في مكان لا يقتحمه الاسد المصور بل تنقطع دونه اجنحة النسور وكنا قبل وروده علينا نناغي الحمائم ونسامر الفرقدين والحمائم وان كانت الحمائم اذا صدحت لا تفهمنا وتجيبنا بالشجي فتدننا كما قيل

رب ورقاء هتوف في الضحى　　ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت الفاً وعهداً في الحمى　　فبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربما ارّقها　　وبكاها ربما ارّقني
ولقد اشكو فما افهمها　　ولقد تشكو فما تفهمني
غير اني بالجوى اعرفها　　وهي ايضاً بالجوى تعرفني

ويرحم الله ابا فراس الحمداني احد الادباء الشجعان وكان اسره الروم مرتين حيث قال

اقول وقد ناحت بقربي حمامة　　ايا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ النوى ما ذقت طارقة النوى　　ولا خطرت منك الهموم ببالي
ايا جارتا ما انصف الدهر بيننا　　تعالي اقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لديّ ضعيفة　　تردد في جسم يعذب بالي

الا تضحك ماسور وتبكي طليقة ويسكن محزون ويندب سالي
لقد كانت اولى منك بالدمع مقلتي ولكن دمعي في الحوادث غالي

قال المحقق التفتازاني كان بنو حمدان ملوكاً وجوههم للصباحة والسنتهم للفصاحة وايديهم للسماحة وابو فراس واحدهم بلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة حتى قال الصاحب بن عباد بدا الشعر بملك وختم بملك يعني امرأ القيس وابا فراس وقد ادركته حرفة الادب واصابته عين الكمال فاسرته الروم في بعض وقائعها فازدادت روميته رقة ولطافة فمنها ما قال وقد سمع حمامة قريبة منه تنوح وهي على شجرة عالية اقول وقد ناحت الابيات وهو القائل ايضاً

اسرت وما قومي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهرٌ ولا ربه غمر
ولكن اذا حم القضاء على امرىء فليس لهُ برٌ يقيه ولا بحرُ

انتهى وقد رأيت للسيد محمد الشاذلي المذكور بعض ابيات فمنها ما عزى به الامير في موت احدى سراريه وولدها وهو قوله

خليلي ان تجزع فحق لك الجزعُ بسرد مصيبات لها صدرنا انصدع
حليلتكم ماتت كذا النجل بعدها وسجن بارض الكفر كل لكم قرع
مصائب جات بعضها يذهب النهى ويفقد معهُ الصبر كيف بها جمع
ولكن قضاء الله يلزمهُ الرضى وحيلته صبرٌ يدوم بلا جزع
وان جل خطب المرء فالله مفزع فما خاب ذو خطب الى ربه فزع
اعزيكم والصبر فيكم جبلةٌ رزقتم عظيم الاجر والفوز بالورع

وقال مداعباً الامير حيث لم يحضر للعشاء معه لامر اوجب التخلف عنه

تعشيتم من غير رعي لحاجتي وما ذاك الا حيث لم تكُ لي عرسُ
ولو حضرت عرسي لما بت طاويا وتصنع لي والله ما تشتهي النفسُ
سألت الهي ان يساوي بيننا ويجمعنا حيث المسرة والانسُ

وقال وقد اكثر يوماً من اكل صفار البيض مع الامير فاثر فيه يقظة ومناماً

ايا معشر الغراب اصغوا لناصح شفوقٍ عليكم الامور مجربُ
واياكم اكل الصفار فانهُ يهيج طبعاً للنفوس معذبُ
يحرك عضواً لا يطاق دفاعهُ اذا لم يلن صبرٌ وذاك مجربُ

والشيخ الشاذلي المتقدم ذكره هو العالم الفاضل الشيخ محمد بن محمد بن ابراهيم ابن احمد الصوى النسب كان اجداده يسكنون طُولقة من اعمال الزاب في ولاية

قسنطينه فارتحل جده الى قسنطينه وسكنها ولد سنة اثنتين وعشرين ومائتين واشتغل في تحصيل العلوم على مشايخ افاضل اجلاء وتوفى رحمه الله في سنة اربع وتسعين ومائتين ودفن في تربة اسلافه وفي التاسع والعشرين من صفر سنة خمس وستين ومائتين والرابع والعشرين من دسمبر سنة ثمان واربعين وثمانمائة انعقد مجلس خصوصي للنظر في امر الامير وكان رئيس هذا المجلس البرنس لويس نابليون الثالث رئيس الجمهورية والمارشال بيجو وشانكرني من اعضاء المجلس فتكلموا في قضية الامير واختلفت الاراء واظهر البرنس نابليون ميله الى صحة العهد ووجوب الوفاء به فايده المارشال بيجو في جماعة من الاعيان وخالفه الباقون وكانوا اكثر عدداً فلم يسع الرئيس الا السكوت ثم استحسن بعضهم ان تكتب الحكومة الى الامير في تغيير شروطه التي اشترطها على الجنرال لامورسيير وقبلها ثم ايدها حاكم الجزائر الدوك دومال ووافق عليها والده فاستحسنوا ذلك وامروا المارشال بيجو بان يتولى هذا الامر فكتب ما ملخصه «الى» الامير عبد القادر كان مرادي التوجه الى حضرتك لافاوضك في امرك الذي انت فيه ولكن منعني اضطراب الاحوال وحيث ان الكتاب قد يقوم مقام كاتبه فيما يرومه فاني اقول انك قد قاسيت اهوالاً عظيمة وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمة ولحق فرنسا منها اوفر نصيب ومن حين القيت بنفسك وبمن معك الى العساكر الفرنساوية وصرتم في قبضتها حدث في فرنسا اضطراب لم ينقل في التاريخ مثله فلا شك ان بلادك وبلادنا استحقتا هذا القصاص لامر ما فان الله حكم عدل ولا احد يدرك ما يريد فالملك الذي سقط في الايام الماضية كان وعدني وعداً وثيقاً باطلاق سراحك وارسالك الى مكة ثم جاءت الحكومة التي قامت عليه وخلفته فنظرت في امرك وبحثت الى ما جنح اليه الملك ولكن اجبرها الصوت العمومي على ترك ذلك والآن اخبرك اخبار صاحب حقيقي لك انه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه الى المواضع التي طلبتها وان سليت نفسك بالاماني الباطلة فان ذاتك تصير في اشد الكدر وبناء على ذلك اشير عليك ان تكون على حسب الحال التي ابرزتها حوادث الدهر على وفق الارادة الالهية وذلك بان توطن نفسك على جعل فرنسا وطناً لك فتطلب من الحكومة ان تعطيك املاكاً جيدة في ارضها ينتج لك منها ما تعيش به كواحد من كبرائها مع مداومتك على اداء وظائفك الدينية كما تريد و بلوغ مرادك من تربية اولادك حيث اني اعلم

ان امر المعاش لا يهمك وانما يهمك مستقبل اولادك مع حقوق الجماعة الذين هم في معيتك فانك تراهم يموتون كمدًا مع انهم لو كانوا في ارض تخصهم لكانت ايامهم تمضي بكل سرور لان حراثة الارض الذ شيء عندهم ويمكنهم ان يتنزهوا ويتسلوا بالصيد متى شاوءا فيكون لهم من روءية اشغالهم كل يوم فرح جديد والحق تعالى لم يخلق شيئًا اعظم تسلية للانس من منظر الاشجار والنباتات الغريبة الكون الحسنة اللون فهذا ما اشير به بحسب حقوق الانسانية وبالخصوص عليك لما الم بك من المصائب مع اتصافك بالصفات الحسنة التي وهبها الله لك راجيًا قبول تحياتي المقدمة مع الاكرام والاحترام في الخامس من ربيع واربعين الاول سنة خمس وستين ومائتين والثامن والعشرين من كانون الثاني سنة تسع وثمانمائة « فاجابه » الامير بقوله لو جمعت فرنسا سائر اموالها ثم خيرتني بين اخذها واكون عبدًا وبين ان اكون حرًا فقيرًا معدمًا لاخترت ان اكون حرًا فقيرًا فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فانه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب والى الله ترجع الامور وبيده كشف هذا الديجور « قال » بعض موءرخيهم ومن عجيب امر هذا الامير العظيم ان هذا الخطاب المرعب الموءذن لسامعه باليأس مما ينتظره من الفرج لم يوءثر فيه ولم يصرفه عما هو عليه يعني من الاشتغال بالعلم ومطالعة فنونه وافادة طالبيه والادمان على اداء الصلوات المفروضة في اوقاتها والعكوف على تاليف الرسائل وتوضيح المسائل ومما ألفه في مدة اقامته بامبواز رسالة سماها ﴿ المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من اهل الباطل والالحاد ﴾ ولما كانت هذه الرسالة عظيمة الفائدة رغبت ان اثبت ما ذكره قدس الله سره من سبب وضعها ومجمل ابوابها واذكر من الباب الثالث جملة كافية لاشتمالها على المقصود منها ليكون المطالع على يقين في الدين قال رضي الله عنه بعد الخطبة اما بعد فاني في ايام اقامتنا في امبواز عند الدولة الفرنساوية الفخيمة تكلم احد روءساء الدين المسيحي في الاسلام وقال ان الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه فسمعه بعض من له محبة ورغبة في اظهار الحق فجاء اليَّ والح في الطلب على ان اضع في هذا الامر رسالة تتضمن بيان ما في شرع الاسلام مما يكذب قوله وينبذ سخفه فاعتذرت اليه بالحال التي نحن فيها ثم اعاد الطلب وشدد فيه وذلك حين افضت رئاسة الجمهورية الى فرع شجرة عظماء ملوكهم البرنس لويس نابليون بونابرت فاجبته معترفًا باني لا اصلح ان اكون تلميذًا لعلماء

الاسلام فضلاً ان اكون من جملتهم ولما كان المقصود من هذه الرسالة بيان حكم شرع الاسلام في الغدر والوفاء وذلك مستلزم لذكر كلام المشرع وكلام الله تعالى المنزل عليه وكلام التابعين له حقيقة لزمني ضرورة تقديم كلام في اثبات الالوهية ثم فن اثبات النبوة والرسالة لان هذه الامور مرتب بعضها على بعض فهي كالاساس لما نذكره وقد رتبت هذه الرسالة على مقدمة وثلاثة ابواب المقدمة في الكلام على العقل وما يتعلق به الباب الاول في اثبات الالوهية وفيه ثلاثة فصول الاول في النظر في خلق الارض وما يتولد منها والثاني في النظر في خلق السموات وما فيها من بديع الحكم الثالث في النظر في خلق الانسان الذي هو المقصود بالايجاد وكل شيء خلق لاجله الباب الثاني في اثبات النبوة مع الرسالة وفيه فصلان الاول في اثبات الرسالة على الاطلاق والعموم والثاني في ثبات رسالة مشرّع دين الاسلام على الخصوص الباب الثالث في موضوع الرسالة وهو بيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والامر به وترك الغدر والنهي عنه وما يتعلق بذلك كالصدق والكذب وترتب هذه الرسالة وضعاً هو بحسب الترتيب عقلاً لان اثبات الالوهية مرتب على وجود العقل واثبات النبوة والرسالة مرتب على اثبات الالوهية وبيان ما يحمد وما يذم من الاقوال والافعال والصفات مرتب على اثبات النبوة والرسالة وسميتها ﴿ بالمقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من اهل الباطل والالحاد ﴾ ثم اخذ في تقرير مسائل المقدمة والابواب والفصول واتى في ذلك بفوائد لم يسبق اليها وفرائد لم يتقدمه احد الى الغوص عليها وبسط الكلام في الباب الثالث وقال فيه رضي الله عنه اعلم ان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام مشتملة على محاسن الاخلاق ومحامد الآداب وكل ما يكون به الوفاق والائتلاف والاتفاق والخلوص بين العباد وتصلح به المعيشة الدنيوية وتعمر به البلاد سواء في ذلك اهلها او غيرهم فدين الاسلام يحتوي على كل شيء مستحسن لم ينكر منه عدو ذو عقل سليم شيئاً بل كل جاحد له وكافر به اذا سمع ما يدعو اليه صوّبه واستحسنه دون طلب برهان عليه لوضوحه فهو دين جامع لكل ما تفرق في الاديان والشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام ما جئت لابطل التوراة ولكن جئت لاكمله فكذلك محمد عليه السلام ما جاء ليبطل التوراة والانجيل ولكن جاء ليكملهما فالتوراة جاء بالقصاص النفس بالنفس والانجيل جاء بالعفو اذا لطمك اخوك على خدك الايسر ضع له خدك

183

الايمن والقرآن جاء بالقصاص في قوله كتب عليكم القصاص في القتلى الآية وبالعفو في قوله فمن عفا واصلح فاجره على الله الى غير ذلك مما يطول تتبعه والى هذا اشار صلى الله عليه وسلم بقوله انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق تعريفاً بان الانبياء قبله بعثوا بمكارم الاخلاق وبقيت عليهم بقية فبعث بما كان معهم وبتمامها قاله الحكيم الترمذي فما من خلق حسن ولا صفة حسنة سواء يدرك العقل حسنها اولا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا الا جاء الشرع بمدحها والامر بها والوعد عليها بالجنة وما من صفة ذميمة او خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد الا جاء الشرع بذمها والنهي عنها والتوعد عليها بالنار وبيان ذلك في مثل الصدق والوفاء والاحسان والايثار والاقتصاد في الامور والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس والانصاف من نفسك وانفاق المال لصيانة العرض والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واصلاح ذات البين واماطة الاذى عن الناس والاستشارة والادب والاحترام والاجلال لافاضل الناس وادخال السرور على الناس والارشاد لهم بالتعليم والتربية و فشاء السلام واكرام الجار واجابة السائل والاعطاء قبل السؤال واستكثار قليل الخير من الغير واحتقاره من نفسك وبذل الجاه وبذل البشاشة والبشر في وجوه الناس والتواضع والتعاون على الخير والتأني والتوادد وتنزيل الناس منازلهم والصبر والتغافل عن زلل الناس وتحمل الاذى وترك الاذى وترك الكبر وتجنب العجب وترك معاداة الرجال والجدال والتكلف وتجنب مواضع التهم وتجنب الظلم الى غير ذلك كالثبات في الامور وجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم والحلم والحياء وحفظ الامانة والعهد وحماية العرض والصمت عما لا يعني والتعقل في المقال والتأمل فيه وحسن الظن وطيب المعاشرة وطلب المعيشة ورحمة الضعفاء والصغار والرضا بالدون من المجالس والرقة وخدمة الضيف والاصحاب والفقراء والرفق في المعيشة والرأفة والزهد في الدنيا والسخاء والسماحة والصفح عن المذنب والصدقة وصلة الرحم وطهارة الباطن والعفة والعدل والعفو وعلو الهمة والقيام بحق الحق تعالى والخلق وقبول الحق وقول الحق وقضاء حوائج الناس وكظم الغيظ والمداراة والمخاطبة بلين الكلام والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لاهله ولمن عرفه لك والمكافأة وهضم النفس وترك الحقد والحسد وحب المال وتجنب العداوة والبغضاء وترك التذلل الاغنياء وترك الشح والبخل وتجنب الغل والكذب والغدر والغش والايذاء وتجنب الظلم والجفاء والجور والطيش وترك

العجلة والبغي وتجنب الحدة وجحد الحق وانكاره وترك اثارة الفتن وتجنب ضيق الصدر وترك سوء الظن وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء وتجنب الحرص والحمق وترك حب الرياسة وتجنب كفران النعمة وترك طلب العلو على الناس وترك الطمع وتجنب الجهل وترك المكر والخيانة والمخادعة وغير ذلك فان الاخلاق المحمودة والمذمومة غير محصورة فيما ذكرناه ✻واعلم✻ ان التحلي بالصفات المحمودة والتخلي عن الصفات المذمومة هو المسمى بحسن الخلق وهو الذي عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله البر حسن الخلق رواه البخاري ومعناه الفعل المرضي الذي هو جامع لخيري الدنيا والآخرة ✻ثم اخذ✻ في تعريف الخلق وتقسيمه وذكر ان امهات محاسن الاخلاق اربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وبين فروعها وثمراتها وقال بعد ان انهى الكلام فيها وفيما يتعلق بها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاخلاق المحمودة الا الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام واكملهم مشرع دين الاسلام وهو نبينا ولهذا قال انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقد شهد له القرآن بذلك قال الله تعالى مخاطباً له وانك لعلى خلق عظيم والناس متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الاخلاق الحميدة فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المسلم حقيقة وكل من فقدت منه هذه الاوصاف فهو بعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمسلم حقيقة فكيف يظن ظان او يتوهم متوهم فيمن خلقه الله مطبوعاً على كل خلق تستحسنه العقول السليمة ان يكون فيما شرعه نقص تنكره العقول الكاملة ولا تسلمه الآراء الفاضلة فهو رحمة ارسلها الله للعباد ولذا قال عليه الصلاة والسلام انما انا رحمة مهداة الى الخلق وقال تعالى يخاطبه وما ارسلناك الا رحمة للعالمين فهو رحمة لمن دخل في دينه ولمن لم يدخل فيه فان قلت هذا ينافي ما في شرع الاسلام من الجهاد والقتال فانه ليس بحسن في وضعه ولارحمة ظاهرة فيه لانه تعذيب عباد الله وتخريب بلاده وليس ذلك بحسن قلنا انما صار حسناً بواسطة دفع الضرر عن الاسلام ودفع اذاية المحاربين لان الله تعالى قضى بارادته وبما سبق في علمه ان تكون امة الاسلام اكثر الامم المخالفة لها حتى تكون نسبة كل امة اليها نسبة الجزء الى الكل والعقل حاكم من غير تردد بان رعاية الاكثر مقدمة على رعاية الاقل وبان حرمة الواحد ليست كحرمة الجماعة فالنفوس الهالكة بالقتال لقلتها ساقطة من الاعتبار فكأنها بالنسبة الى النفوس

184

الناجية شر قليل واقع بجنب خير كثير ولا يليق بالصانع الحكيم ترك خير كثير لشر قليل واستمر رضي الله عنه ينسج على هذا المنوال الى ان قال فماذا يقول القائل في شرع الاسلام الذي احكامه كلها جارية على ما يستحسنه كل عاقل و يستصوبه كل فاضل كامل ويتعالى و يتنزه مشرعه الذي جمع الله فيه صفات الكمال ان يكون في شرعه نقص كالغدر والكذب والخيانة والخديعة هذا من المحال قال الله تعالى يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود والعقود هي العهود الموثقة فهذا امر منه تعالى لعباده بالوفاء فيما يعقدون وقال تعالى ليس البرّ ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرآء و حين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون ﴿ قال ﴾ البيضاوي البر كل فعل مرضي والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية باسرها دالة عليها تصريحاً او ضمناً فانها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة اشياء صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً الى ايمانه واعتقاده و بالتقوى اعتباراً لمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق تعالى واليه اشار عليه الصلاة والسلام بقوله من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان وقال تعالى ان شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون اي لا يخافون سيئة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقال تعالى و بعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وقال تعالى خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين اي لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم او فعلهم بل احلم عليهم وقال تعالى وأما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سوآء ان الله لا يحب الخائنين امر الله نبيه اذا عاهد قوماً من العدو وظهرت منهم علامة نقض العهد ان يطرح لهم العهد و يخبرهم اخباراً بيناً واضحاً انه نقض العهد الذي بينه و بينهم ولا يعاجلهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد حتى يعلمهم و ياخذوا حذرهم و يستعدوا ومن لم يفعل هذا يكون خائناً في العهد والله لا يحب الخائنين في العهود وقال تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الارض اربعة اشهر كان عليه السلام قد عاهد الكفار والمشركين الى آجال معدودة فمنهم من وفى فامره الى الله

ان يتم له عهده ومنهم من نقض او قارب النقض فجعل له اربعة اشهر يسير فيها آمنًا حيث شاء وبعدها لا يكون له عهد وقال تعالى الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم احدًا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين فقوله ان الله يحب المتقين تعليل وتنبيه على ان اتمام العهد من باب التقوى وقال تعالى انما يتذكر اولوا الالباب الذين يوفون بعهدالله ولا ينقضون الميثاق الآية وقال واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً وقال واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولاً ولم يزل على هذا الاسلوب يسرد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واقوال الفقهاء وحكم الحكماء يؤسس المباني و يوضح المعاني الى ان ختم الرسالة بما جبلت عليه الامة العربية من مكارم الاخلاق وذكر ما لها في مدح الوفاء والصدق وذم الغدر والكذب ثم قال و باقي الامم وان كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالامة العربية اكثر واشد من جميع الامم في ذلك فانهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية واخلاق مرضية وافعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وانفة من كل خلق ذميم طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل ان تكون بينهم النبوة قال مؤلف الدر والعقيان الامام الحافظ التونسي روى عن شبيب بن ابي شيبة قال كنا في مجلس اجتمع فيه كثير من الاشراف فورد علينا ابن المقفع وكان من اشراف الفرس وحكمائها وعلمائها وعقلائها فقال لنا من افضل الامم فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى اصله فقلنا فارس فقال لم وا دناك ملكوا كثيرًا من الارض وحووا عظيمًا من الملك ولبثوا في ذلك دهرًا فما استنبطوا بعقولهم شيئًا فقلنا الروم فقال اصحاب صنعة فقلنا الصين فقال اصحاب طرفة فقلنا الهند قال اصحاب فلسفة فقلنا السودان قال شر خلق الله فقلنا الخزر قال نعم سائمة فقلنا فمن قال العرب فضحكنا فقال ما اردت موافقتكم ولكن اذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة والادب وذكر المؤرخون الاقدمون ان يزدجر بن سابور ذي الاكتاف لما ولد له ابنه بهرام جور اخبره منجموه عن مولده وسعادته وجده ومصير الملك اليه بعد شدة ومحنة وانه ينشأ بين امة نائية ذات همم عالية وحلوم زاكية ونفوس ابية ففكر يزدجر في خصائص الامم ومزاياها فرأى ان العرب اولى الامم بتلك الاخلاق التي وصفها له المنجمون ووقع اختياره عليهم فكتب الى النعمان الاكبر ابن امرىء القيس

فاستحضره مع جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها فواصلهم وبرهم وسلم اليهم ابنه بهرام جور وامرهم بكفالته فاسترضعوا له نسوة الى ان كبر وكان من امره ما يطول ذكره نقله مظفر الاندلسي في كتابه السلوانات واذا كان طبعهم ما ذكر في زمن الجاهلية فكيف بعدما هذب طبعهم الوحي والآيات القرآنية ولذا تراهم في الجاهلية والاسلام اكثر مدحهم بالصدق والوفاء واشد ذمهم بالغدر والكذب ولهم اسجاع واشعار تخرج عن حد الاحصاء (فمنها) انه قيل لبعضهم ما قيمة الصدق قال طول العمر في الدنيا قيل له فما قيمة الكذب قال موت عاجل وقيل لبعضهم ما افضل المروءة قال رغبة الرجل في الوفاء بوعده وعهده وقال بعضهم من وفا بالعهد فاز بالحمد ومن عرف بالصدق قبل كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه وقال بعضهم اربعة من علامات اللؤم استعمال الغدر وافشاء السر واسائة الجوار وتجنب الاخيار وقال بعضهم من النفاق غش الصديق ونقض العهود والمواثيق وقال بعضهم علامة الايمان حسن الخلق وحفظ العهود والمواثيق وعلامة النفاق نقض العهد واخلاف الوعد وقال بعضهم لاسيف مثل الحق ولا عون مثل الصدق وقال بعضهم فعل المرء يعرب عن اصله وقوله يعرب عن عقله وقال بعضهم صونوا المواعيد من الاخلاف والايمان من حنث الاوغاد والاجلاف وقال معاوية يوماً لخالد السدوسي انك تحب علي بن ابي طالب حباً مفرطاً فقال احبه والله لحلمه اذا غضب وعدله اذا حكم ووفائه اذا وعد وقال بعضهم لولده يا ولدي لا خير في قول الا بفعل ولا في مال الا بجود ولا في صدقة الا بوفاء ولا في حياة الا بصحة وأمن وقال بعضهم من كذب ذهب جماله ومن ساء خلقه كثر همه وقال بعضهم اعظم الناس قدراً رجل واحد وهو من لا يبالي بالدنيا في يد من كانت واجود الناس رجل واحد وهو من جاد عن قلة واسوأ الناس حالاً رجل واحد وهو الذي لا يثق باحد لسوء ظنه ولا يثق به احد لسوء فعله وقال بعضهم لازم الصدق جداً وهزلاً ولا ترض العبيد باسخاط المولى وقال بعضهم وجاهة العاقل اوقع في النفوس ومخالفة الفعل للقول تنكس الرؤس وقال بعضهم وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال بعضهم شر الناس من لايعتقد اداء الامانة ولا يجتنب الغدر والخيانة وقال بعضهم سعادة الانسان في سلامة الصدر وصدق اللسان وقال بعضهم الفاضل يعجل بالوعد قولاً ويعقبه بالانجاز فعلاً (ثم قال) بعد ان اكثر من النقل في هذا المعنى وللعرب في المدح بالوفاء والذم بالغدر اشعار كثيرة منها قول امرىء القيس في المدح

وتعرف فيه من ابيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا ونائل ذاك ذا صحاء وذا سكر

(وقول) ابن الزبعرى يمدح قوماً

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكاف
والقائلين بكل وعد صادق والظاعنين لرحلة الايلاف

(وقول الحسن) السبط رضى الله عنه

ولا اقول نعم يوماً فاتبعها خلفا ولو ذهبت بالمال والولد

وقول الآخر

علت مكانته فقر مكانه فتأكد التنزيه والتفضيل
يكفيكم ما قد بدا من صدقه والصدق بالعز المكين كفيل

وقول ابن الخطيب

واحكمت عقد السلم لم تأل بعده وفاء فصح العقد واستوثق الربط
تقر لك الاملاك بالشيم العلا اذا بذل المعروف او نصب القسط

وقول ابي القاسم

ولا انسى العهود ولو جفاني عليها اقاربي طراً وناسي
ولا ادرى لنفسي من كمال سوى اني لعهدك غير ناسي

وقول الآخر

ان الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وترى اللئيم مجانب الانصاف

وقول الحطيئة

قوم اذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
اولئك الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

وقول الآخر

اعلم بان صداقة الابرار ان تجعل الاعلان كالاسرار
ان اللسان هو الضمير فوعده ووعيده دين على الاحرار

وقول الآخر

اذا قلت في شيء نعم فاتمه فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا تسترح وترح بها لئلا يقول الناس انك كاذب

وقول الآخر

اناشدكم والحر اوفى بعهده ... ولن يعدم الاحسان والخير جازيا
خيالاً على بعد المزار يلم بي ... فيذكرني من لم اكن عنه ساليا

وقول ابن الحباب

ففضلك مشهور ووعدك ثابت ... وذكرك منشور وفعلك مرتضى
فكيف يحل المبطلون بافكهم ... معاقد صدق احكمتها يد القضا

وقول الآخر

لا تقولن اذا ما لم ترد ... ان تتم الوعد في شيء نعم
فاذا قلت نعم فاصبر لها ... بوفاء العهد ان الخلف ذم

وقول حسان بن ثابت

هجوت محمداً فاجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمداً براً تقياً ... رسول الله شيمته الوفاء

وقول لبيد

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... ابر واوفى ذمة من محمد

هذا آخر الرسالة ولولا خوف الاطالة والخروج عما اقتضته المناسبة لما نقلناه منها لاثبتناها كلها (ولما) طالت المدة وازداد الامر شدة قال مستغيثاً بحضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

ماذا على ساداتنا اهل الوفا ... لو ارسلوا طيف الزيارة في خفا
يترصد الرقباء حتى يغفلوا ... ويكون مانع وصلنا ليلاً غفا
فاذا تمكنت الزيارة خفية ... ياتي مواعد وصلنا متلطفا
ويكون قبل حلوله افرشته ... خدي وطاء للنعال وللحفا
ويكون بيت نزوله قلبي الذي ... وحياتهم من حب غيرهم عفا
ضيف له نزل لدي كرامة ... كبد شواها البعد في جمر الجفا
يا سعد ان كنت البشير بوصله ... فلقد اتيت على المسرة والوفا
لو ان نفسي لي اليك بذلتها ... واراه بذل مقصر ما انصفا
وتكون يا سعد المساعد للذي ... من هجر من يهواه صار على شفا
لم يبق يوم البين والهجر الذي ... خلقا لتعذيب الاحبة مسعفا
الا صبابته وجسماً قد غدا ... ملقى كشن بالفلا لن يخصفا

زفرات قلبي جمر نار اججت ... منها دموع العين فاضت ذرّفا
هل من منـام للديغ بمرّةٍ ... فضلاً عن المرات او هل من غفا
بمحاجر من حاجر اقذاء قد ... طردت ضيوف الطيف جاءت طوفا
مهما تالق برق سلع والحمى ... كادت تفيض النفس منه تاسفا
واراه سيفاً صارماً وسط الحشا ... فعل الافاعي او شهاباً ما انطفى
يحكي زفيري رعده ورياحه ... وبوبله حاكي دموعي الوكفا
واذا جرى ذكر العقيق واهله ... اجرى العقيق تاسفاً وتلهفا
يا اهل طيبة ما لكم لم ترحموا ... صباً غدا لنوالكم متكففا
لا تجمعوا بين الصدود وبعدكم ... حسبي الصدود عقوبة فلقد كفى
لم ادر شيئاً قبل معرفة الهوى ... حبي لكم ما كان قط تكلفا
ما بالهم يا صاح لم يتذكروا ... صباً كئيباً في المحبة مدنفا
ما قيل ذاك اسيرنا وقتيلنا ... بين العوادي والاعادي مثقفا
قلبي الاسير لديكم والجسم في ... اسر العداة معذباً ومكتفا
حاشاكم لجميل ظني فيكم ... ان تشمتوا فيّ العدوّ المرجفا
ولطالما لام العذول بحبكم ... واطال عتبي ناصحاً ومعنفا
ولكم جنى كيما يصرف وجهتي ... عن وجه ودكم ولم يك مصرفا
ويود لو اني سلوت هواكم ... فيكون لي خلاً وفياً منصفا
قلب الشجي كما علمتم انه ... لا يثني عن حبكم متخوفا
يبغي الوصال ولو تمزق تالفاً ... ويلذ بالتعذيب ان يكُ متلفا
يسري ولو ان الظلام عداته ... ويسير لو كان النهار المرهفا

(ولما) انتخب لويس نابليون لرئاسة الجمهورية وثبتت قدمه فيها وجه عنايته الى الامير بالتوسعة عليه والخروج للتنزه خارج البلدة فكان الامير يخرج كل يوم خميس في العربية محفوفة بالعساكر الخيالة وبقية جماعته يخرجون مشاة مع العساكر المشاة الى الاماكن البهجة اللطيفة المنظر وعين لاموانهم مدفناً في طرف البستان داخل السراية ودفن فيه نحو العشرين نفساً بين ذكور واناث فيهم للامير ابنان وبنت وام ولد مولدة واخرى سودانية وجعلوا على تلك المقبرة حاجزاً من حديد وقد زرتها سنة ثلاث وثمانين ومائتين ولم تزل محفوظة الى الان

﴿ ذكر اخبار البرنس لويس نابليون وما اجراه من تسريح الامير ﴾
﴿ واستيلائه على عرش المملكة وتسميته امبراطور فرنسا ﴾

ولما تمكن البرنس لويس نابليون من زمام الاحكام واحس من نفسه القوة والترقي الى الملك انف من المساهمة واخذ يجدع انوف الاحزاب واهل العصبيات وباشر الامور بنفسه فاستمال قلوب العامة والعسكر واستجلبهم اليه بلين الجانب وحسن السياسة وكان من جملة ما دبره في قضية الامير ثم ابرزه للعيان تفريق جماعته ليسهل عليه الوصول الى وفاء العهد الذي جعله الملك فيليب ورؤساء الجمهورية في زوايا الاهمال فكتب اليه ان الانسان اذا وقع في وحل يتعين عليه في خلاصه منه ان يرفع رجلاً بعد اخرى وقد ارنا ان نطلق سراح من لهم اقارب في وطن الجزائر من جماعتك الذين هم معك في امبواز فان رجوعهم الى وطنهم اولى لهم واريح لك من القيام بشؤونهم فاجابه الامير الى ذلك ولما جاء الامر بسفرهم اخبرهم الامير بذلك فصعب عليهم فراقه وبعد سفرهم بمدة اتى امر في سفر اخوة الامير واتباعهم فاخذوا الى مدينة الجزائر ومنها الى عنابه في تخوم بلاد الجزائر من جهة تونس ولما سافر اخوة الامير من فرنسا وبقي فيها قال

الا ان قلبي يوم بنتم وسرتموا ... غدا حائماً خلف الظعون يسير
يقاسي مرار الموت من الم الجوى ... فما لي الا انة وزفير
رحلتم ولو تدروا رحمتم فبينكم ... لخطبي يوم للبلاء عسير
وكنت ليوم البين اعددت عدة ... وفي الظن ما اعددته لكبير
فخان الذي اعددته لفراقكم ... وولت جيوش الصبر وهي غرور
فلو انكم يوم الفراق اعرتم ... قلوبكم لي انني لصبور

(وبعد) ايام كتب البرنس يعتذر الى الامير عن فصل اخوته عنه وقال انما فعلت ذلك لاختبر احوال الامة الفرنساوية من جهتكم فان سكتوا ولم يتعرضوا بعد ايام قليلة اطلق سراحكم للمشرق والا فاقول ان غريمكم والمقصود بالحكم هو نفس الامير ولا زال محبوساً ولما تبين لنا الآن رضاء الامة بما فعلناه فابشر عن قريب يحصل لك الفرج وكانت المراسلات سرية بين البرنس والامير بواسطة القبطان بوا-ني الموكل بامور الامير

ذكر زيارة البرنس نابوليون الثالث للامير عبد القادر في قصر امبواز

ولما سنحت الفرصة للبرنس في انجاز وعده اعتزم على الخروج من باريس يتفقد احوال الولايات فلما مر بمدينة تور بعث الى القبطان بواسني يخبره بروره على امبواز و يامره ان يتلقاه في موقف السكة الحديدية التي تقله ويهيؤا له عجلات يتوجه فيها الى القصر ليجتمع بالامير فلما كان اليوم المعين يوم الثلاثاء ثالث المحرم سنة تسع وستين ومائتين والسادس عشر من (اكتوبر) تشرين الاول سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة خرج البرنس من تور وفي معيته المارشال سنتارنو وزير الحرب والجنرال روغو والكرونيل فلوري ولما وصل لمحطة السكة الحديدية نزل وسلم على الجمهور الذي ينتظره ومكث قليلاً ثم ركب متوجهاً الى القصر ولما قرب منه نزل الامير عند باب القصر فلما رآه البرنس نزل عن العجلة فتلقاه الامير وسلم عليه ثم مشى البرنس ويده في يد الامير الى ان دخلا القصر ولما استقر بهما المجلس في المحل المعد للاستقبال اقبل البرنس على الامير وساله عن حاله وضيق صدره وحبسه بهذا المحل اربع سنوات ثم قال انكم قد جلبتم دقة نظري واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة وجميع ما ابرزتموه من انواع المدافعة عن وطنكم ولا انظر اليكم بنظر اسير بل بضيف محترم فاجابه الامير انني كنت اسمع بمحاسن اخلاقكم وعلو جنابكم المعلومين عند الجميع فتعشقتكم غياباً وتولد في قلبي لكم محبة عظيمة وبهذا اليوم قد ازداد حبي وتعظيمي لما اظهرتموه من الالطف والاحسان وانني مدة اقامتي بهذا القصر قد رأيت من اهالي فرنسا الحرمة التي لا انساها ابداً وكنت اعامل بمعاملة ضيف لا بمعاملة اسير فقال البرنس انه كان في خلدي من مدة انني لو اجد سبيلاً الى خلاصك من يد من لم يكترثوا بوفاء العهد لك ما تاخرت عن ذلك ثم ان الباري تعالى وجه قلوب الشعب الفرنساوي الي فاختار وني رئيساً لحكومتهم ولاول قبضي على زمام الاحكام صممت على اظهار ما كان في الخيال الى العيان والان صار وقته ثم اخرج ورقة من جيبه وناولها للامير وقال هذه ورقة تسر بحك تعلن بوفاء عهد فرنسا لك فاخذها الامير مستبشراً بما سمعه منه ودعا له واثنى عليه ونص ما في الورقة عبد القادر انني اتيت لاعلن لك بحريتك وانك تحمل بمن معك الى عاصمة سلطان تركيا وذلك بعد الفراغ من الترتيبات المقتضية لسفرك وستعين لك الحكومة الفرنساوية مرتباً يليق بمقامك واعلم ان سجنك قد كدرني كدراً

حقيقياً مدة طويلة وكنت احسب ان الحكومة السابقة قد قصرت جداً حيث انها لم تتمم ارتباطاتها معك وعندي ان عدم الثقة بامة عظيمة من جهة نقض عهدها يحط قدرها وشانها واخبرك بما اعتقده فيك وهو انك لا تحرك ساكناً في الجزائر لعلمي ان ديانتك توجب عليك الخضوع والتسليم لاحكام القضاء والقدر فان استيلاء فرنسا على الجزائر ما وقع الا بارادة الله تعالى. واعلم ان دولة فرنسا بل الامة كلها لا تتخلى عن ذلك الاستيلاء وآخرها يموت قبل ان يسلم فيه واذا كنت عدواً لفرنسا فلا يمنعني ذلك من ان اشكر اخلاقك الحميدة وشجاعتك وصبرك على الشدائد ولذلك افتخر باطلاقك واثقاً ثقة تامة بقولك حرر في السادس عشر من (اكتوبر) تشرين الاول سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ثم قال البرنس للامير انني بعد عشرة ايام اراك في باريس لتحضر الاحتفال المقرر اجراؤه ووجودكم بذلك الاحتفال يكون باعثاً للافتخار ثم هيئت سفرة الغدا وكان الاكل جزائرياً وبعد الفراغ من الغدا قام البرنس الى المنتزه المطل على البلد ونواحيها وعند خروجه منه قدم له الامير والدته فقبل البرنس يدها وسألها الدعاء ثم قدم له اولاده وخليفتيه والاتباع فحيوه تحية اعظام واجلال واظهروا له السرور والحبور بما انعم على سيدهم وعليهم فقابلهم بالقبول والبشاشة واستمر ماشياً والامير معه حتى وصلا الى الموضع الذي استقبله فيه عند باب القصر قال بعض المؤرخين ولهذا القصر آثار تاريخية وهو انه كان مقراً لكثيرين من ملوك فرنسا واول من اتخذه مقراً لويس الحادي عشر الذي اصدر منه امر سن مشيل وشارل الثامن ولد وتوفي فيه وقلود دي فرانس زوجة فرانسوا الاول ولدت اكثر اولادها فيه وزاد له لويس نابليون الثالث شرفاً عظيماً حيث اعطى الحرية فيه للامير عبدالقادر

ذكر توجه الامير الى باريس ولطائف اخباره وما هبت به نسيم رحلته المعطرة بنفحات آثاره

ولما مضت تسعة ايام من الموعد جاء الامر بتوجه الامير الى باريس وشاع الخبر في فرنسا فهرع الناس الى باريس من كل فج ليحضروا احتفال دخول الامير اليها وفي اليوم الحادي عشر الذي جعل موعداً للسفر وهو الرابع عشر من المحرم سنة تسع وستين والسابع والعشرين من اكتوبر سنة اثنتين وخمسين توجه الامير وبمعيته قره محمد والسيد علال شقيق خليفته السيد قدور بن علال والقبطان بواسني الموكل بأموره من امبواز وبعد نحو اربع ساعات عن باريس بالسكة الحديدية وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً بالاحتفال الذي اجرته دولة فرنسا لدخوله

الى عاصمتها قال بعض المؤرخين وصار للامير احتفال عظيم يحقه مقامه السامي واستقبلته الوزراء ورجال الحكومة وغصت ازقة باريس على اتساعها بجماهير الناس ولما شاهدوه استولى عليهم الطرب قال مسيو شارل اينار الفرنساوي في بعض كناباته على تصرفات الجنرال لاموريسير مع الامير وتقلبات الاحوال كيف جعلت الجنرال المذكور يمشي في طرقات باريس بدون ان يلتفت اليه احد وان المغلوب يعني الامير يدخلها دخول الانتصار والاهالي جميعها تزدحم لمشاهدته واتفق ان صاحب ملعب باريس الكبير كان عازماً على تشخيص يجريه تلك الليلة يحضره البرنس وسائر الوزراء ورجال الدولة فبعث وزير الحرب نائبه الكرونيل هنري الى الامير يخبره بذلك فاعتذر بالتعب من حركات سكة الحديد ولما اخبره بحضور البرنس الى الملعب اجابه الى ذلك وسار به الكرونيل الى المحل المعد له فتدافع الناس الى رؤيته واشتد ازدحامهم حتى سدوا عليه الطريق قال بعضهم ولما دخل الامير الى الملعب وجه كل من كان حاضراً فيه نظره اليه ولما بلغه حضور البرنس الى غرفته في الملعب بعث اليه يستأذنه في الاجتماع به فاذن له ولما خرج متوجهاً اليه قام ذلك الجمع الوافر رافعين البرنيطات تحية له وتلقاه البرنس عند باب الغرفة ثم اجلسه الى جانبه واخذ يساله عن احوال عائلته عموماً وعن والدته خصوصاً فكان الامير يجيبه عن ذلك مع كمال التشكر وقال له ان الوالدة كانت في خامس عشر اكتوبر تمشي متكئة على العصا وفي السادس عشر منه صارت تمشي مستقلة من غير عصا واشار بذلك الى ما كانت عليه قبل البشارة باطلاق سراحهم من الضعف والوهن وما حصل لها من النشاط والقوة بعدها ولما انتهت الفرجة اقبل البرنس على الامير وودعه واخبره انه سيتوجه في غد تلك الليلة الى الصيد وبعد يومين يرجع ويجتمع به في قصر سانكلو وفي غياب البرنس جال الامير في انحاء باريس وساحاتها ورد زيارات الوزراء ورجال الدولة وفي اليوم الثالث رجع البرنس ودعا الامير الى القصر قال بالمار في تاريخه وكانت الدولة عينته لصحبة الامير مدة اقامته في باريس بينما كنت جالساً في محل الاستقبال اذ خرج الامير من حجرته وفي يده ورقة وقال بلغني ان جرائد فرنسا ذكرت ان البرنس لما حضر الى امبواز اشترط عليّ شروطاً وعلق تسريحي على قبولها وانه استحلفني على الوفاء بها واني قد قبلت تلك الشروط وحلفت له على الوجه الذي امر به مع ان هذا لم يقع بيني وبين جلالته اصلاً غير اني لما كنت في امبواز قبل سفري هذا عزمت على ان اجدد عهدي

الذي اعطيته للجنرال لاموريس وافعل ذلك باختياري من غير ان يأمرني به احد ليعلم الناس اني افعل ما افعله واترك ما اتركه بارادتي ثم ناولني الورقة وامرني ان اطلع عليها وقال ان عثرت فيها على شيء ينافي المقصود ابدله بما يوافقه ولما اطلعت عليها وجدتها مستوفية لما يريد ثم ترجمتها بالقلم الفرنساوي ونص عبارتها الحمد لله وحده اطال الله بقاء سيد الملوك واعظمهم لويس نابليون الثالث واسعد ايامه وسدد احكامه انا المتكلم بين يديكم في هذا المجلس الموقر عبد القادر بن محيي الدين جئت الى حضرتكم العلية لاجل تأدية شكري لكم وثنائي الجميل على احسانكم اليَّ وامتنانكم عليَّ على قدر طاقتي والا فلا اقدر ان اقابل صنعكم الجميل بشكر يوافيه ويكافيه ولو عشت الدهر كله ومما يدل على كمالكم وصدق حدسكم وصفاء طويتكم انكم لما علمتم انني لست ممن ينقض العهد ويحنث في يمينه وثقتم بي واطلقتم سراحي ووفيتم لي بعهد حله من عقده ونقضه من ابرمه وغدر فيه من اوثقه واحكمه وفعلتم ذلك من غير ان توقفوا امري على شيء وبناء على ذلك فها انا اقسم بين ايديكم في هذا المجلس الحافل بالله تعالى وصفاته اني لا افعل شيئًا يخالف ثقتكم بي ولا انقض سابق عهدي الذي اعطيته ولا ارجع الى قطر الجزائر ولا اشوش على الفرنسيس فيها بفعل ولا قول فاني لما اقامني الله قمت ودافعت عن ديني ووطني على قدر ما امكنني ولما اقعدني قعدت خاضعًا لاحكامه وتركت الملك وجئتكم ودبني وشرفي يأمراني بوفاء العهد وصدق الوعد وهل يتصور عاقل فضلاً عن فاضل بعد ان نالت احسانكم الذي لا ينسى وانا عاجز عن مقابلته بالشكر والثناء ان اخونكم او افعل شيئًا ينافي معروفكم كيف والمعروف رباط معلق باعناق اهل المروءة هذا مع كوني قد شاهدت عظم دولة فرنسا وقوة عساكرها وكثرة غناها واتساع مملكتها فمن ذا الذي يخطر في باله من العقلاء ان يقاومها ويقاتلها هذا ليس بممكن لا لله الواحد القهار الذي قدمها وملكها الآفاق والاقطار وبعد هذا فاني اؤمل من كرمكم ان تجعلوني في عدد من تحبهم وتنظر اليهم بعين الرأفة سواء كنت بعيدًا عنكم او قريبًا منكم فان الانسان حيث قلبه لا حيث جسمه حرر في اواسط محرم سنة تسع وستين ومائتين واواخر اكتوبر سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة (ثم) توجه الامير فى الوقت المعين الى قصر سانكلو في خدمه وجماعة من الضباط الذين عينوا لخدمته وحراسته فوصل اليه قبل ان يحضر البرنس نابليون فاستقبله الجنرال دوماس وادخله الى المحل الكبير فرأى فيه ساعة كبيرة تعرف بها الاوقات في سائر البلدان الشهيرة في الدنيا فسال الجنرال عن حلول وقت

العصر في مكة المشرفة فاخبره انه قريب ولما حل الوقت اخبره فقام وصلى العصر وهذه اول صلاة اسلامية صليت فيه ثم اقبل البرنس محاطاً بوزرائه مع اهل بيته فدخل الامير عليه في مجلسه فاستقبله البرنس ومن معه بالاحترام والبشاشة واخذ يلاطفه ويعرفه بالوزراء واحداً بعد آخر ثم اقبل الامير على البرنس وتكلم معه بكلام اوضح فيه ملخص ما كتبه في الورقة المتقدم ذكرها وقال في آخر كلامه ان هؤلاء الوزراء الذين اراهم حولي قد وعدوا وعوداً لم ينجزوها وانت تفضلت بما لم تعد به فشكراً لكرمك وطيب محتدك ثم ناوله الورقة وقال هذا صك كتبته باختياري على نفسي بخطي فانظره فان كان كافياً فذلك والا غيرته على الوجه الذي يوافق مرادكم فاخذه البرنس ثم قال اعلم يا عبد القادر اني احببتك لثلاث خصال اولاً دافعت عن دينك ووطنك ثانياً لما عجزت استسلمت للقدر وقد احسنت بتسليمك لدولة عظيمة وان لم توف بعهدها فانا قد وفيت به وازلت عنها ذلك العار الذي ارتكبته ثالثاً نه لما كان محجوراً عليك صبرت وتحملت واشكر الله حيث كان محجوراً عليك وانت بين عائلتك وحشمك واما انا فكان محجوراً عليّ في حجرة وحدي لا ارى الشمس الا ساعة من النهار ولذلك اثق بك كل الثقة فلا احتاج الى هذا الصك الذي قدمته اليّ باختيارك ومن المعلوم اني ما طلبت منك عهداً ولا يميناً ولا شرطت عليك شرطاً مّا وحيث انك تبرعت بذلك من تلقاء نفسك فها انا قد قبلته وسررت به ولا شك ان صنعك هذا يبرهن للامة الفرنساوية باني ما اخطأت في حسن اعتقادي فيك وقوة ثقتي بك ولما انفض المجلس اطلع الامير على دوائر القصر ثم مشوا به الى الاصطبل فرأى فيه فرساً عربياً من جياد الخيل فجعل الامير يكرر النظر فيه كالمستحسن له فقال له البرنس اعددت هذا الفرس لك لتركبه غداً لاني قد امرت بعرض الجنود خارج باريس اكراماً لك واحتفالاً بقدومك وفي غد تخرج معي الى المعرض وتشاهد حركات الجنود فرساناً ومشاة فاجابه الامير الى ذلك مع اظهار التشكر ومن الغد قدم الفرس بسرج جزائري الى الامير فركبه وسار مع البرنس الى الميدان فاهتزت باريس باهلها لذلك واجتمع الناس في ساحة الميدان لمشاهدة الامير وهو راكب على الفرس العربي بهيئة جزائرية وشاهد الامير من الجنود الفرنسوية وحركاتها العسكرية ما عجب منه واستحسنه ولما حان وقت الظهر استأذن البرنس في اداء الصلاة في ذلك الموضع خشية فوات الوقت فاذن له ونزل الامير وادى صلاته بمرأى ذلك الجمع ثم ركب فرسه ولم يزل ملازماً

للبرنس الى ان رجع الى نحل ضيافته ثم ان البرنس ادب له مادبة حافلة في قصر فرسالية حضرها سائر الوزراء فمن دونهم من اعيان الدولة قال بالمار في تاريخه ومنذ دخل الامير الى باريس صار ينتقل من مادبة يدعى اليها ومنازه تعرض عليه فيجيب لها وصناعة غريبة يطلع عليها وكان يخاطب الناس على حسب احوالهم ومشاربهم فقواد العسكر يذاكرهم في امور الحرب وما يتعلق بها من الوقائع المشهورة والعلماء يباحثهم في المسائل العلمية والوزراء ومن شاكلهم في الامور السياسية وهكذا حتى بهر العقول وملات محبته وهيبته الصدور وكان من الزائرين من يقصده لاداء التشكر على جميل صنعه معه في ايام ملكه لا سيما الذين كانوا اسارى عنده واباح لهم احسانه وقد طلب بعضهم ان يكون في عدد خدمه واتباعه اينما كان نظرًا لما شاهده من كماله ونائله من افضاله والحاصل ان ما رآه اهل باريس من محاسن الامير ومكارمه وما رآه هو منهم من حسن المعاملة والمجاملة لا يصنعه لسان ولا ياتي عليه قلم ومر يومًا في بعض اسواق باريس والناس مصطفون عن اليمين والشمال يحيونه بتحيات التبجيل والتعظيم فقال له بعض الاعيان هؤلاء الفرنسيس الذين كانوا بالامس من اشد الاعداء لك تراهم اليوم يجلون مقامك ويتمنون طول حياتك ويتاسفون على ما تحملته من الصبر في بلادهم على الظلم الذي نالك من حكومتهم السابقة فانشرح لذلك صدر الامير وحمد الله تعالى وشكر صنيع البرنس نابليون وفي اثناء اقامته توجه الى رئيس اساقفة باريس وشكر له قيام الراهبات بخدمته وخدمة من معه في امبواز اربع سنين فارتاح الرئيس لحديث الامير وقال ان هذا نراه من الواجبات الدينية والوظائف الانسانية ثم توجه الى قبر نابليون الاول وعند الانصراف قال ان هذا الرئيس وان كان شخصه قد زال فان ذكره لا يزال ينتقل جيلا بعد جيل ثم توجه الى المارستان وعند دخوله اليه رآه رجل مسن من المرضى فتكلف القيام له فلما رآه الامير على تلك الحال تقدم اليه شفقة عليه فاخذ الرجل يده وصافحه ثم شكره ودعا له وكان هذا الرجل من الجند الذين حاربوا الامير ووقعوا في اسره وغذوا باحسانه وبره ثم توجه الى معمل المدفع وانواع السلاح ومن الغد توجه الى المطبعة الكبرى وكان البرنس بعث الصك الذي دفعه الامير اليه الى رئيسها ليطبعه فلما جاء الامير اراد الرئيس ان يظهر مهارته في شيء يعد غريبًا بين يدي الامير فرسم الصك في مطبعة خط اليد فانطبع وارتسم على هيئته الاصلية وكتب على قطعة حرير ابيض ما صورته الحمد لله وحده الشريف المعظم والامير المفخم الحاج

عبد القادر اطال الله ايامه وسر حياته شرف بزيارته المباركة دار الطباعة الاميرية الفرنساوية في سنة ١٨٥٢ المطابقة ١٢٦٩ فتعجب الامير لذلك ثم اطلع على جميع اعمال المطبعة واشغالها وعند الانصراف منها ساله بعض الاعيان عما رآه فقال بالامس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها اسرة الملوك وتخرب دولهم وهم لا يشعرون وبعد انتهاء المدة المعينة لاقامته في باريس استاذن في الرجوع الى امبواز ليتهيأ للسفر الى بروسه فاذن له البرنس ثم دعاه الى الحضور عنده وعند الدخول عليه تلقاه ببشاشة وطلاقة وجه واحسن السؤال عن احواله في باريس وعما رآه فيها من احتفال اهلها به واكرامها اياه ثم قال له ان دولة فرنسا ستعين لك مرتبًا من الدراهم شهريًا يكفي لنفقاتك ويغنيك عن التناول من خزينة غيرها وقد كنت امرت ان يهيأ لك سيف يليق بمقامك والآن تبين انه لا يتم العمل فيه قبل سفرك الى تركيا بناء عليه سيصلك في بروسه على يد السفير في الاستانة واعلم انني اقدم لك هذا السيف وانا على يقين بانك لا تجرده على فرنسا فاجابه الامير انني الآن ممن يستعمل القلم لا ممن يستعمل السيف فتبسم البرنس وقال حيث انك سلمت سيفك الى قائد جيش فرنسا احببت ان تخرج من بلادها بسيف عوضًا عن سيفك قال بالمال وهذه الهدية كانت عنوانًا على ما في صدر البرنس من المودة للامير فلذلك تلقاها الامير بالقبول ونصل هذا السيف قديم وقد رسم عليه من الامبراطور نابليون الثالث الى الامير عبد القادر بن محيي الدين في شهر دسمبر سنة اثنين وخمسين وثمانمائة والف ثم ان الامير ودع البرنس وسافر الى امبواز وفي اثناء اقامته في باريس كان الاديب الشاعر احمد افندي فارس الشدياق مقيمًا فيها فامتدح الامير بقوله

ما دام شخصك غائبًا عن ناظري	ليس السرور بخاطر في خاطري
يا من على قرب المزار وبعده	حبي له والشوق ملء ضمائري
ان كنت لي يومًا فديتك وافيًا	ماضرني ان كان غيرك غادري
فاذا رضيت فكل سخط هين	واذا وصلت فلم ابال بهاجري
واذا بقربك كنت يومًا نافعي	لم اخش شيئًا بعد ذلك ضائري
يافاتني بدلاله وثماله	وكماله وجماله ذا الزاهر
عقلي سلبت ومهجتي فارددها	لاجيد مدح شمائل لك باهر
وليعلم العذال اني صادق	في وصف حسن علاك وصفة شاعر

يـا محرقي شوقًا بفاتر جفنه   ارأيت قبـلي محرقـاً بالفاتر
يا بدر تم راع قلبي حبه   ياشمس حسن قد تملك سائري
ياظبي انس شاق عيني شكله   لكن له طبع الغزالـــ النافر
هلا رثيت لحالتي ورفقت بي   ووعدتني عدة ولو في الظاهر
كلم الحشا مني وعيدك قسوة   قبل الفراق بان تكون معاشري
لو كنت تدري ما القيت من النوى   لرحمتني ووددت انك زائري
مذ غبت عنك ارتد عن طرفي الكرا   من بعد ما هدى ء ارتداد الكافر
واهتاج وجدي واستثيرت لوعتي   و بدا بحبك ما تكن سرائري
اني وحق هواك غاية مطلبي   وسنا محيـاك الصبيح الناضر
من يوم لحت لناظري ماراقني   شيء ولم يملأ جمالاً ناظري
ما كان حسن سواك يومًا شائقي   كلا ولا لحظ لغيرك ساحري
اهوى لاجلك من حكاك بشكله   لا شكله اذ ذاك دون النادر
كيف اصطباري اليوم والاجل نقضى   وابيت ارضائي بطيف زائر
وبهجتي اني اراه ساعة   قبل الممات معانقي ومسامري
هبه اتى فقد يراني ساهرًا   والطيف ليس براقد مع ساهر
انسيت عهدي حيث ملت مع الهوى   ولقد عهدتك ما ذكرتك ذاكري
اما انا فكما علمت على النوى   والقرب صب فيك غير مغايري
شيئان لست اطيق صبرًا عنهما   ذكري لقاك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذي شهدت له   كل البرية بالفعالـــ الفاخر
ومنـاقب محمـودة وشمائـل   مرضيـة ومحامد ومـآثر
هو ذلك المولى الممدح سعيد   عند الاله وعند كل مفاخر
هـو ذلك الفرد الذي افعـاله   امدوحة البادي وفخر الحاضر
وهو المهيب لدى الملوك نزاهة   والنازح الصب الكريم الطاهر
من معشر العرب العريق نجادهم   اهل المكارم كابرًا عن كابر
العاملين بحكم التنزيل والـ   تحريم والتحليل حزب الحاشر
الناحرين اذا غشوا واذا دعوا   يـا للبراز فنحـرهم للنـاحر
الموثرين على خصاصتهم وقد   نظروا الى الدنيا كشيء غابر
ولرب قوم يحبسون خلاقهم   فيهـا وغابر لهوهـا كالغابر

ولديهم رد التحية منة — كبرى بها احياء عظم ناخر
يحيي الليالي بالدعاء تهجداً — فيميت في الاعداء اي جماهر
ويروع افئدة الرجال لقاوه — حتى يخوروا عن نداء الناصر
في قلب كل محنك من رعبه — ما عنه يحجم كل ليث زائر
وبكل حرف من بليغ كلامه — حرف يفلهم كحرف الباتر
الفضل شيمته وسيمته التقى — لله واسترباح اجر الصابر
يولي الندا قبل السؤال و بشره — للزائرين منوه ببشائر
يغنيهم عن ان يمنوا عنده — بضرورة واختهم واواصر
جيد الزمان غلاوة فكبا ولم — يبرح وفيه لديه سورة آجر
ولقد يكون النسر يوماً واقعاً — ويعود بعد الى مطير الطائر
فالله ينصر من يغار لدينه — والله يخذل كل عات فاجر
والله عز يداول الايام ما — بين العباد لسابق ولقاصر
سكن الامير وطار في الدنيا اسمه — وروي المعالي عنه كل معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل — والعرب بين مفاخر ومكاثر
ياناصر الدين العزيز وحزبه — ياخير صبار واعظم شاكر
يا خير ناهٍ عن تعاطي منكرٍ — وبخطة المعروف افضل آمر
لا تخشَ من بأس فربك قاهر — بدعائك الميمون جيش الجائر
لك حيث كنت عناية صمدية — ترعى حماك ونصر رب قادر
كن كيف شئت فان اجرك ثابت — في اللوح وهو اجل ذخر الذاخر
فاذا مدنت فانت اعظم حاذر — واذا ظعنت فانت اكرم ساهر

وبعد فالمرجو من كرم سيدي المكرم الامير المعظم ان يسمح لي بالمثول بين يديه ساعة من الزمان قبل سفره بالسلامة من هذا المكان فاني كثير الشوق الى تقبيل راحته والى التبرك بيمين حضرته ولولا خوفي من الملام لوافيت بهذه الابيات وقدمتها بيدي لذلك المقام لكن خشيت من اساءة الادب والجراءة على التقدوم قبل الطلب واني لامركم العالي منتظر وداع لجنابكم بالعز المستمر في اواخر نوفمبر سنة تسع وستين ومائتين والف فقابله الامير بغاية من الاكرام والاحترام وسر بقصيدته وزيارته واجزل جائزته وكنت دائماً اسمع من الامير حينما ترد عليه القصائد من الشعراء يتمثل قول القائل

اذا جهلت مكان الشعر من شرف   فاي مفخرة ابقيت للعرب

و بعد وصول الامير الى امبواز اخذ يتهيأ للسفر وفي تلك الايام انعقد مجلس نوّاب الامة الفرنسوية للمذاكرة في ادالة الجمهورية بالامبراطورية وبعد الاتفاق على ذلك صدرت الاوامر الى ايالات فرنسا بالانتخاب ولما بلغ الامر الى امبواز بعث حاكمها الى الامير يقول حيث انك اقمت في هذه البلدة اربع سنين فلك حق الاشتراك مع اهلها في الانتخاب فاجابه الامير الى ذلك وكتب هو ومن معه انتخابهم للبرنس نابليون وجعلت اوراقهم في درج مخصوص وبعثها الحاكم مع اوراق اهل البلد ولما تم الانتخاب حكم المجلس للويس نابليون الثالث بالامبراطورية ونفذ الامر بذلك واصبح امبراطور فرنسا وانتشر الخبر وفي العشرين من صفر والثاني من ديسمبر توجه الامير الى باريس ليؤدي مراسيم التهاني فاكرم الامبراطور وفادته واعظم تهنئته وخصه بمجلس حضرة الوزراء ورجال الدولة في قصر التيلري ولاول دخوله عليه تلقاه وصافحه وقال له ارأيت ايها الامير كيف كان صوتك ميمونًا عليّ فاجابه الامير ان صوتي قد اعرب عما في ضميري من ارادة الخير لك واني احمد الله تعالى الذي عجل لك بالجزاء عني بما تريد قبل خروجي من فرنسا فسر الامبراطور وتهلل وجهه لهذا الجواب وبعد ان تحدثا مليًا في امر السفر وما يتعلق به ودع كل منهما الآخر واقلب الامير راجعًا الى امبواز وبعد ايام كتب الى دوران دوليس وزير الخارجية فاجابه بما نصه الامير الانجد قد اتصل بيدي كتابكم الكريم واعلم انني لو بذلت جميع مافي وسعي في حصول مطالبك لا ارى اني وفيت لمقامكم العظيم حقه وعلى كل حال فاني الآن اخبركم ان الاشياء التي اشرتم بها قد اجاب اليها الامبراطور وامر بتنفيذها فاعددنا لك سائر مايلزم لسفرك من امبواز الى مرسيليا ومنها الى بروسه والقومندان بواسني ومن معه في خدمتكم من طبيب وترجمان وغيرهم قد اجاز وزير الحرب ان يكونوا بمعيتكم ويستمروا في خدمتكم الى بروسه واقاربكم الذين حضروا من طنجه الى مرسيليا ليتوجهوا معكم وهم السيد مصطفى ابو طالب والسيد الطيب بن المختار ومن معهم قد بعثت الى حاكم مرسيليا ان يقوم بشؤونهم الى ان يجتمعوا بكم وما اشرتم به من اسعاف ام بولاد فانه حاز القبول وامر الامبراطور ان يرتب لها في كل سنة ستمائة فرنك والمكاتيب التي بعثتها الى خادمكم الحاج الحبيب بن المهر المقيم الآن في تونس قد وجهناها اليه واوعزت الى قنصل فرنسا هناك ان يسعفه بما يحتاج اليه ويحمله الى محل اقامتكم مجانًا من غير نوال وما ذكرتموه عن الفسيان ميلي الذي خدمكم

في هذه المدة من كونه نصح في الخدمة وصدق فيها قد بلغته الى وزير الحرب واكتسب الفسيان بذلك رضاه ولا بد ان يعامله بما تحبون له واعلم ان السفير في اسلامبول قد اخبرنا ان حضرة السلطان امر لكم بمنزل يليق بكم في بروسة فستررون هناك ما يسرّكم ويسر من معكم وبالجملة فان مطالبكم كلها حازت القبول وكنت اتمنى ان اراكم عند السفر واجري الوداع مشافهة ولكن كثرة اشغالي حالت دون ذلك وحيث توفرت عندي اسباب المودة لكم وجب عليَّ ان اخبركم باني احبكم وان مودتي لكم تستمر دائماً على ما هي عليه الآن فلا تبرحون من بالي وستسير روحي معكم برًّا وبحرًا حرر في باريس في الثامن والعشرين من صفر سنة تسع وستين ومائتين. وفي اول ربيع الاول سافر الامير باهله ومن معه من امبواز الى الاستانة وما من بلد يمر عليها الا تلقاه اهلها بالمبرة والاجلال ولما قارب مدينة ليون الشهيرة تلقاه الجنرال مونتوبان بالكاو وكان حاضرًا يوم تسليم الامير برتبة ضابط فابدى للقائه الاحتفال الكامل واصطفت الجنود خارج البلدة وفي اليوم الثاني جمع الجنرال العساكر وكانت نحو العشرين الف ما بين خيالة ومشاة في سهل خارج البلد وخرج هو والامير وكنت بمعيته مع بعض جماعته وعند وصول الامير والجنرال الى مصاف العسكر سلمت عليه ثم باشرت في عمل ايقاع حربي باطلاق البواريد والمدافع وكانت تكر على بعضها وتفر وتقبل وتدبر واستقام ذلك من بعد الزوال الى قرب الغروب ثم دخلوا البلد وكانت مزينة بالمصابيح والاعلام بزينة كاملة وذلك اليوم مع ليلته كان من المواسم المعدودة وفي اليوم الثالث توجه منها في اعزاز واعظام الى ان دخل مرسيلية وقد امعن اهلها في حسن استقباله فاقام فيها الى ان تهيأ لركوب البحر وسافر في الباخرة الحربية التي اعدتها الدولة الفرنساوية لسفره وجعلت مسيرها لارادته ولما وصل الى جزيرة صقلية نزل بمسيليه فتلقاه حاكمها واجل مقامه وخرج معه في جماعته الي المدينة وجال في ارجائها ثم سار على عربة الخيل وكنت فيمن كان بمعيته الى جبل النار وهو احد البراكين المشهورة وكان سيرنا ثلاثة ايام تارة على العربات وتارة على الخيل الى ان وصلناه ثم صعدنا الى اعلاه فرأينا النار ترمي بصخور موقدة امثال البخت الى اسفل ثم تصير ماء جاريًا يلتهب نارًا وهذا من اعجب ما يرى ويسمع من آثار القدرة الباهرة ثم جعلنا ننظر الى نواحي الجزيرة وسهولها الممتدة المغطاة بشجر الليمون بانواعه ومحارثها الواسعة وجبالها الشامخة المغطاة بشجر الزيتون ومناظرها الزاهية الباذخة فتذكرنا من سكنها وعمرها

من المسلمين كانهم ما برزوا في رباها ولا تحلوا بسناها وهذه الجزيرة واسعة كثيرة المدن والقرى والحصون واول من غزاها من المسلمين معاوية بن خديج والي افريقية في خلافة معاوية بن ابي سفيان ولم يفتتحها ثم تتابع الغزو اليها في ايام بني الاغلب من اول امارتهم الى آخرها واستولوا على اكثرها ولم يزل الفتح فيها والغزو اليها الى ان انقضت مدة بني الاغلب سنة مائتين وست وتسعين كما تقدم في اخبارهم ثم تجدد الغزو اليها والفتح في ايام الفاطميين الى ان فتحها عاملهم احمد بن الحسين سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة واستمرت في ايدي المسلمين الى ان استردها الافرنج واستولوا عليها وذلك لما ضعف امر الخلافة وركد ريحها تفرقت كلمة امراء الجزرة واستقل كل واحد منهم في امارته فوجد لافرنج سبيلاً للاجلاب عليها واخذوا ينتزعون تلك الامارات من يد المتغلبين عليها واحدة بعد اخرى الى ان بقي بايدي المسلمين منها مدينة قصر يانه ومدينة جرجت وهما من الامصار العظيمة فنازلهما الافرنج سنة اربع وثمانين واربعمائة واتصل تضييقهم على من بهما من المسلمين شهوراً عديدة فلما اشتد عليهم الامر ولم يجدوا من ينجدهم من مسلمي وراء البحر اذعنوا للتسليم فاخذهما الافرنج منهم وصارت الجزيرة كلها بايديهم ووقع باهلها مثل ما وقع باهل الاندلس وهي الان من ممالك ايتاليا ولله الامر من قبل ومن بعد وقد وصفها وقتئذ العلامة سيدي الطيب بن المختار وذكر ما لحق بها وبمن سكنها من المسلمين من انواع النوائب وصنوف المصائب ثم تخلص الى مدح الامير . فقال

هذي صقلية لاحت معالمها ... تجر تيهاً فضول الريط من امم
دار اقرّ لها بالفضل ذو نظر ... والفضل ما شهدت فيه ذوو الهمم
كانت منار هدى كانت تحط ردى ... كانت سماء شموس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي ماآثرهم ... بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذي المساجد قد دكت قواعدها ... هذي المآذن بالناقوس في سقم
هذي المحاريب قد عاد الصليب بها ... هذي منابرها قفرى من الحكم
هذي الكراسي على علم ومعرفة ... دموعها بين منهل ومنسجم
اذا رأت مسلماً قد زارها فرحت ... واستبشرت ثم باست موضع القدم
فما هي الناس بالناس الاولى عرفت ... والود يمتاز بالسيما من السلم
فانظر لارجائها تلق العجاب بها ... قد اعلنت بسرور غير مكتتم
وازدان موقعها وافتر مبسمها ... والزهر منها غدا زاهٍ على الاكم
وكيف لا وحسام الدين حل بها ... فخر الاكابر من عرب ومن عجم

صدر الافاضل في دنيا وآخرة كهف الائمة في حرب وفي سلم
عبد لقادر ما اسنى سناه وما اعلى علاه حوى العليا من الهمم
رقي مراقي لم تصعد مصاعدها اسد الحروب وان ناموا فلم ينم
اصل المروءة مبداها ومنشؤها فرع النبوة لم يخضع ولم يضم
عز الامارة مولاها ورونقها بحر السماحة كم اسدى من النعم
لم تخف شمس الضحى في الجو طالعة او تجهل النار ان لاحت على علم
فاهنأ بفضل عظيم غير منقطع ودم بلطف خفيٍّ غير مزدحم
اولاك ربك عزّاً غير منقطع وعز غيرك لم يثبت ولم يدم
ذكرتنا يوسفاً اذ بان امركم لا غرو فالفضل منه غير منعدم
كانما قطر باريس حللت به مصر وقد حلها الصديق في حرم
فجرّ ذيل فخار قد سموت به وقرّ عيناً وثق بالله واعتصم
ثم احمدنه على الآلاء معترفاً بما انالك من عزّ ومن عظم
بشرى لنا يا اهيل الود ان لنا بيتاً من المجد مطوياً على كرم
هذي السعادة قد لاحت بدايتها فالله يختمها في حسن مختتم

﴿ ذكر وصول الامير الى القسطنطينية ﴾

وبعد ان اخذ الامير راحته في مرسى تلك الجزيرة سار عنها واتصل سيره الى الاستانة العلية فدخلها يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة تسع وستين وثامن يناير سنة ثلاث وخمسين واحتل بعاصمة الدولة العلية العثمانية ودار الخلافة الاسلامية

كعبة اسست على الفضل لكن كل حين لها يحج الوفود

حيث المنازل في مطالع السرور باديه والمنتزهات باشراق سعودها متلالية ولاول وصولنا نزل الامير الى البر واستمر سائراً الى ضريح ابي ايوب خالد بن زيد الانصاري رضي الله عنه عند سور القسطنطينية وقد كان قبره مختفياً الى ان اظهره الله على ساكن الجنان السلطان الغازي محمد خان الفاتح للقسطنطينية مظهر اشارة ماررواه الامام احمد في مسنده والحاكم في صحيحه عن بشر الغنوي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير اميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش وهذه الاشارة من معجزاته صلى الله عليه وسلم وعلم من اعلام نبوته ومنقبة عظيمة لذلك السلطان

الاعظم قدس الله روحه ونور مرقده وضريحه كما اظهر قبر الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر محيي الدين بن العربي على يد السلطان الغازي سليم ياوور خان في دمشق الشام واشهر فيها قبر صلاح الدين ابن ايوب القرشي على يد مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني ايد الله ملكه وابده وبعد فراغ الامير من زيارة ابي ايوب الانصاري رضى الله عنه توجه الى جامع ايا صوفيا وفي اليوم الثاني زار الصدر الاعظم المرحوم مصطفى رشيد باشا فانسه وعرض عليه النزول للبلد بجميع العائلة فاعتذر اليه بمرض والدته وبعض عائلته ثم توجه لزيارة المرحوم شيخ الاسلام العالم العلامة عارف حكمت بك وسائر الوكلاء والشريف عبد المطلب ثم توجه الى سفارة فرنسا فاجتمع بالماركيز دولافاليت سفيرها وفي اليوم الثالث دعي الى المابين فتشرف بمشاهدة حضرة السلطان الغازي عبد المجيد خان فرحب به واحسن السؤال عن احواله وشكره على ما كابده في الدفاع عن الدين والوطن وحمده على صبره على ما قاساه ايام اقامته عند الفرنسيس ومدح الامبراطور نابليون الثالث على وفائه بالعهد والقيام بشأنه وكنت يومئذ في معية الوالد فرايت من تنازل حضرة السلطان وتعطفه ولين جانبه ولطفه ما يشهد له باستكماله ما كمل من الخصال الحميدة ثم تنازل الى السؤال عني فقال له هذا ولدي الاكبر وعرفه برفيقه في الجهاد وفي فرنسا الا وهو حضرة السيد قدور بن علال وبخادمه قره محمد وعند الانصراف ذكر امر السكنى في بروسة فقال له اختار ما يختاره لنا مولانا امير المؤمنين فاجابه بانك مختار في السكنى في اي بلد شئت من ممالكي العثمانية فشكر الامير فضله وحسن ترجهاته وخرجنا من تلك الحضرة السنية في ارتياح وانشراح تخفق على رؤوسنا الوية الحمد وتضيء علينا من سماء المكارم السلطانية كواكب المجد ثم ان الامير قدم لاعتابه السنية قوله

الحمد لله تعظيماً واجلالاً	ما اقبل اليسر بعد العسر اقبالا
وما اتت نفحات الخير ناسخة	من المكاره انواعاً واشكالا
واشكر الله اذ لم ينصرم اجلي	حتى وصلت باهل الدين ايصالا
وامتد عمري الى ان نلت من سندي	خليفة الله افياء واظلالا
فالله اكرمني حقاً واسعدني	وحط عني اوزاراً واثقالا
قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت	لكن للوصل اوقاتاً وآجالا
اسكن فؤادي وقر الآن في جسدي	فقد وصلت بحزب الله احبالا
هذا المرام الذي قد كنت تأمله	فطب مآلاً بلقياه وطب حالا

وعش هنيئاً فانت اليوم آمن من — حمام مكة احراماً واحلالا
فانت تحت لواء المجد مغتبط — في حضرة جمعت قطباً وابدالا
وته دلالاً وهزّ العطف من طرب — وغنّ وارقص وجرّ الذيل مختالا
امنت من كل مكروه ومظلمة — فبح بما شئت تفصيلاً واجمالا
هذا مقام التهاني قد حللت به — فارتع ولا تخش بعد اليوم انكالا
ابشر بقرب امير المؤمنين ومن — قد اكمل الله فيه الدين اكمالا
عبد المجيد حوى مجداً وعز علا — وجلّ قدراً كما قد عم انوالا
كهف الخلافة كافيها وكافلها — من لا عهدنا له في القرن امثالا
يارب فاشدد على الاعداء وطأته — واحم حماه وزده منك اجلالا
واظهرن حزبه في كل متجه — وسددن منه اقوالاً واعمالا
وابسط يديه على الغبراء قاطبة — وذللن كل من في الارض اذلالا

يشير الى اهل الجزائر

فالمسلمون بارض العرب شاخصة — ابصارهم نحوه يرجون اقبالا
كم ساهر يرتجي نوماً بسطوته — وحائر يرتجي للحزن تسهالا
فرع الخلائف وابن الاكرمين ومن — شادوا عرى الدين اركاناً واطلالا
كم ازمة فرجوا كم غمة كشفوا — كم فككوا عن رقاب الخلق اغلالا
هم رحمة لبني الايمان قاطبة — هم الوقاية اسواء واهوالا
انصار دين النبي من بعد غيبته — في نصره بذلوا نفساً واموالا

يشير الى فتح القسطنطينية

قد خصهم ربهم في خير منقبة — ما خصّ صحباً بها قبلاً ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكرام لها — والله يختص من قد شاء افضالا
ما زال في كل عصر منهم خلف — يحمي الشريعة مقوالاً ومفعالا
حتى اتى دهرنا في خير منتخب — من آل عثمان املاكاً واقيالا
قد كنت مضمر خفض ثم اكسبني — رفعاً وقد عمني جوداً وافضالا
وبالاضافة بعد القطع عرفني — وحط عني تصغيراً واعلالا
هذا وحق علاه كم ازاح وكم — ازال عني بمحض الفضل اثقالا
لا زال تخدمه نفسي وامدحه — مستغرق الدهر ابكاراً وآصالا
اهدي مديحي وحمدي ما حييت له — افادني انعماً جلت واقبالا

جزاه عني اله العرش افضل ما جزى به محسناً يوماً ومفضالا

خادم الغزاة والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين في غرة ربيع الآخر سنة ١٢٦٩ (ثم) احتفل الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وسفير فرنسا لضيافة الامير فابدوا واعادوا واستقصوا واجادوا وكان شيخ الاسلام عارف حكمت بك رحمه الله له علينا فضل عظيم لانه لما طلب نابليون الثالث من المغفور له السلطان الغازي عبد المجيد خان كفالة عن الامير جعل مجلساً خاصاً للمذاكرة في امر الكفالة فقال شيخ الاسلام اذا لم تكن لمولانا السلطان حسنة مع كثرة حسناته الا هذه لكفى بان يكفل هذا الرجل المجاهد وينقذه من الاسر فحينئذ اجاب المغفور له بالكفالة ولعمري ان الله عز وجل قد حقق ما اجراه على لسان المرحوم عارف حكمت بك من قوله في مدح نفسه متفخراً

الم تعلم بان سماء فكري تلوح بافقه شمس المعارف
تفرس والدي في المزايا ويوم ولدت لقبني بعارف

وكتب ناظر التياترو ميخائيل افندي نعوم يدعو الامير اليه بقوله

كريم السجايا تحتد المجد من سما ذرى الرتب العليا بفضل جهاد
خفيراً لجاه العرب خوف ادثاره بسطوة ماض صيقل وجلاد
سلمت مدى الايام مستوفر الثنا وفي نعمة تبقى بغير نفاد
فانا من القوم الاولي ساقهم الى لقائك داعي حمية وبلاد
اجابة سؤل ان تزور مشرفاً لنزهة طرف وانشراح فؤاد

وكان الناس يزدحمون على مشاهدة الامير اثناء اقامته ورؤيته في الطرقات التي يمر بها ورحاب منازل الوزراء والعظماء التي يقصدها

ذكر وصول الامير الى بروسة

وبعد ان اقام عشرة ايام يزور ويزار ودع الصدر الاعظم فمن دونه من الوزراء والمامورين ثم ودع سفير فرنسا وتوجه الى بروسة فدخلها يوم الاثنين السابع من ربيع الثاني وتنقانا خارج البلد خليل باشا صهر السلطان مع سائر الوجوه والاعيان بغاية التبجيل والاحترام حتى نسينا بما شاهدناه منهم ما كان سبق لنا في فرنسا والاستانة من الاعتبار وكان نزولنا في الدار التي اعدت لنا بالامر السلطاني بالمحلة المعروفة بمحلة المحكمة فالقينا بتلك المدينة عصا التسيار وتبوأنا منها خير دار وحمدنا

الله تعالى على هذه النعمة التي لا يحيط بوصفها فكر ولا نستطيع ان نقابلها ما حيينا بشكر اللهم لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك ولما نظر الامير الى موقع المدينة واحوازها قال لقد صدق الذي اخبرنا انها تشبه مدينة تلمسان ثم اخذ يشير الى وجه الشبه بين المواضع والجهات وانشد

اما الخيام فانها كخيامهم … وارى نساء الحي غير نسائها

ولما استقر بنا الحال اخذنا نتجول في انحائها ونتنزه في ارجائها فحصل لنا بذلك سرور وارتياح وناهيك ببلدة ازدهت ببيان عالية ومنتزهات ومعاهد عامرة بالانس واللذات لا نرى الاكدار اسبابا ولا للسرور حجابا وحجابا ولاول وصول الامير الى بروسة عرض عليه واليها باذن السلطنة العظمى تعيين مرتب شهري يقوم بشؤونه فسر الامير بذلك ودعا للدولة العلية وشكرها على اهتمامها بامره الشكر الجزيل ثم قال له ان الامبراطور نابليون عين لي من النقود ما يكفي من النفقة واما مولانا السلطان المعظم فقد تفضل علينا بما هو اعظم من الدنيا بما فيها وهو تنازل عظمته وانعامه عليّ بالكفالة عند الدولة الفرنسوية وهذه الكفالة هي السبب الاقوى في حياتنا الجديدة ولولاها ما خرجنا من قبضة الاسر وهذا الانعام لا يوازيه شيء ولا يقابله شكر فنحن عبيد احسان الذات السلطانية خلد الله سطوتها وايد كلمتها وعلى كل حال فنحن مفتقرون الى مكارم مولانا ومراحمه ما دمنا وان حصل احتياج لذلك ارفعه الى الاعتاب فوقع هذا الجواب عند الوالي موقع الاستحسان ورفعه الى الاعتاب العالية وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس في الجامع القريب من الدار المعروف بجامع العرب ويقرأ فيه الدروس فقرأنا عليه الفية ابن مالك بشرح المكودي والسنوسية بشرح المؤلف والايساغوجي للفناري ويقرأ لنا في الدار الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ وفي تلك الايام اشهر الحرب المعروف بحرب القرم بين الدولة العلية والروسية فقال مستغيثا ومادحا مولانا السلطان عبد المجيد خان

يا رب يا رب يارب الانام ومن … اليه مفزعنا سرًّا واعلانا
يا ذا الجلال وذا الاكرام مالكنا … ياحي ياوليًّا فضلاً واحسانا
يارب ايد بروح القدس مليكنا … عبد المجيد ولا تبقيه حيرانا
ابن الخلائف وابن الاكرمين ومن … توارثوا الملك سلطانًا فسلطانا
احيى الجهاد لنا من بعد ما درست … وضاعف المال انواعًا والوانا

فانصره نصراً عزيزاً لا نظير له … حتى يزيد العدى هماً واحزانا
واحفظ علاه وارسل يا كريم له … من الملائك حفاظاً واعوانا
وانصر به الشرع وارفع يارؤف به … عن دينك الحق لا تعدمه برهانا
واجمع الهي قلوب المسلمين على … وداده واعله واعظم له شانا
به الصواب اصب واجعل له فرجا … بطانة الخير اقطاباً واركانا
واهدم وزلزل وفرق جمع شانئه … واجعل فؤادهم بالرعب ملئانا
وانصر وايد وثبت جيش نصرته … انصار دينك حقاً آل عثمانا
الباذلون بيوم الحرب انفسهم … لله كم بذلوا نفساً وابدانا
والضاربون بييض الهند مرهفة … تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر الخط عالية … اذا العدو رآها شرعت بانا
والمصطلون بنار الحرب شاعلة … مطلوبهم منك ياذا الفضل رضوانا
والراكبون عتاق الخيل ضامرة … تخالها في مجال الحرب عقبانا
جيش اذا صاح صياح الحروب لهم … طاروا الى الموت فرساناً ورجلانا
هم الرجال ثباتاً يوم حربهم … فصابر من عداهم صبره خانا
هم الليوث ليوث الغاب غاضبة … والليث لا يلتقي ان كان غضبانا
هم الاولى دأبهم شق الصفوف لدى … حملاتهم صار جيش الكفر دهشانا
الدافعون عن الاسلام كل اذى … بالنفس قد غلت قدراً واثمانا
كم غمة كشفوا كم كربة رفعوا … وكم ازاحوا عن الاسلام عدوانا
يارب زدهم بتاييد اذا زحفوا … واقطع بسيفهم ظلماً وكفرانا
الق السكينة ربي في قلوبهم … وزدهم يا اله العرش ايمانا
وجهت وجهي انلني ما دعوت به … باهل بدر حماة الدين اركانا
من الاله لهم قال افعلوا وذروا … ما شئتم لكم اوجبت غفرانا
اعني الذي صرح الحفاظ ذكرهم … باسمهم تاركاً من خلفهم بانا
بقطبهم احمد المختار من مضر … وسيد الخلق املاكاً وانسانا
كذا خليفته الصديق مجانا … واعظم الناس ايماناً وايقانا
وبالمكنى ابي حفص الذي انفتحت … به المغالق حتى صعبها هانا
وبالخليفة ذي النورين ثالثهم … اعني بذلك عثمان بن عفانا
وبالامام اخي المختار ذاك على … من في الوغى بالعدا تلقاه فرحانا

وبابن عثمان عبد الله سيدنا ... وابن البكير اياس ساد اعلانا
وحاطب وبلال ثم حمزة ذا ... عم النبي كريم ساد قحطانا
بسعدهم وابي طلحه وسهلهم ... كذا سعيد ظهير ساد عدنانا
بصنوه وعبيد الله ثم ابي ... حذيفة وحبيب زاد رضوانا
بابن الربيع الهي وابن رافعهم ... رفاعة ثم زيد سيداً كانا
وبالزبير ابي زيد كذاك ابو ... لبابة الخير من قد عز اخدانا
وبابن عوف وعمرو عقبة وكذا ... عبيدة من لدين الله قد صانا
وعامر وخنيس ثم عاصمهم ... ثم ابن صامتهم من زان اذعانا
عويمر ثم عتبان وحق لهم ... سيادة ومعاذ طاب اردانا
ومعوذ واخيه ثم مسطحهم ... كذاك مالكهم مقدام ما شانا
قدامة وهلال لا نظير لهم ... مرارة وابي فضلهم بانا
اني توسلت يا رب الانام بهم ... ارجوك فضلاً واحساناً وغفرانا
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... ما صارت الشيب يوم الحرب شبانا

خادم الغزاة والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين في غرة ذي الحجة سنة ١٢٦٩ (ولما) شاع في الآفاق خبر خروج الامير من فرنسا ووصوله الى بروسة اخذ المهاجرون من اهل الجزائر يقصدونه من مواضع اقامتهم في تونس ومصر والحجاز والشام ويتسابقون الى اعتابه راغبين في السكنى برحابه فقابلهم بالقبول والاكرام كما ان علماء الانحاء صاروا يتواردون على حضرته ويشدون الرحال الى زيارته ومن جملة من قصد زيارته العلامة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي نزيل دمشق فاكرم الامير نزله وبالغ في احترامه لعلمه ورفعة مقامه وبعد ان اقام اياماً توجه الى الاستانة وكتب الى الامير ما نصه · المقام العالي بالله ذي المجاهدة والتمكين مولانا السيد عبد القادر بن محيي الدين كان الله له خير معين آمين نحمده سبحانه وتعالى وهو اهل الحمد ونشكره راضين بقضاه فله الامر من قبل ومن بعد ونصلي على النور الساطع بالآيات الباهرات · القائل انما الاعمال بالنيات · وعلى آله الكرام · وصحابته السادة الاعلام · ما اشتاق خل لخله واهدى سلام

يهدي السلام محب لم يزل ابداً ... يثني عليك ثناء ليس ينحصر
ويسأل الله ان يبقيك تكرمة ... للناس حتى بك المكسور ينجبر
ما اشرقت في المعالي شمس ذاتك يا ... بحر الندا وبدا من لفظك الدرر

197

بسم الله الرحمن الرحيم تيمنا بذكره القديم ينهي السلام نخب متمسكاً من الولاء بوثيق العرى مستمسكاً بعطر الثناء الذي لا يزال الكون منه معنبراً مشوقاً للقاء الذي بالمهج يسام وبالنفوس يشترى متشوقاً الى ما يرد من الانباء التي تسر خبراً وتحمد اثراً ويسأل الله ان يخلد حضرة وكفت بوابل جودها وكفت المهم بنتائج سعودها مع اهداء دعاء ذكت اطيب المسرات نفحاته وزهت في رياض البشر لمحاته واسنى تحيات يشرق على الاكوان سناء نورها و يتعطر الملوان من شذا نورها طيبها مكتسب من طيب المهدى اليه ولطفها مستفاد من لطفه كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه واذكر اثنية تملي عنا رسائل الاشواق وتنبئكم عما قاسيناه من تباريح الفراق

فكل جسمي عيون ذقت لوعتها تجري بماء كماء المزن منهمر

لا استريح نهاري مذ نأيت ولا آنست طيب الكرى من لوعة السهر

فهي تظهر الوجد الكامن في الضمير ولا ينبئك مثل خبير تتشرف بمجلس سيدي ومولاي شقيق روحي وآسي بلطف دأبه جروحي انيس وحدتي وسبب رفعتي الناصر لدين الله البائع نفسه لاعلاء كلمة الله

كانه في لظى الهيجاء حيدرة له مواقف حاكت يوم صفين

وعلامة اخلاصه ما بهر العقول من كيفية خلاصه فالله يثيبه على نيته ويحفظه في ذاته وذريته بحرمة سيد بريته السيد الهمام بهجة العلماء الاعلام مظهر آثار علوم الحقيقة المنورة ومحيي آثار رسوم الشريعة المطهرة مؤيد دلائل السنة بادلته القاطعة وموضح سبل الهداية بانوار علومه الساطعة كشاف اسرار المعارف الربانية وكنز دقائق اللطائف الصمدانية من تنبيات الفصاحة والبلاغة ظل اقلامه ووقفت جيوش المشكلات خاضعة تحت اعلامه الفرد الرحلة الاجل ومن عليه في هذا العصر المعول

دمت لولاك في الزمان لقلنا لبس الدهر من ذويه السوادا

مركز احاطة العلوم ونقطة دائرة المنطوق والمفهوم المتقدم بالفضائل على الناس تقدم النص على القياس

اعز بني الدنيا واشرف من سما الى رتبته العليا بدون تردد

ولا بدع ان تاهت به الايام وباهت بمدحه الاقلام فهو الصدر الذي ينشرح بمحاضرته كل صدر والبحر الذي اذا املى فرائد فوائده تحدث عن البحر وبدر الكمالات التي ظهرت فلا تخفى الا على اكمه لا يعرف البدر . سلطان العارفين برهان الواصلين صفوة المقربين وارث مقام الانبياء والمرسلين الجامع لجميع المحاسن والاوصاف الذي احاطت

به الكمالات فهي لغيره لاتضاف السيد الامام والسند المقدام صاحب العز والتمكين المشار اليه علاه متع الله بوجوده الانام ونفع به الخاص والعام ولا زالت منح فوائده الجمة نوراً لابصار العارفين وملح فرائده كافية بل شافية لغال الخائفين بمحمد وآله ومن نسج على منواله

ما غردت ساجمات الورق صادحة   فاظهرت من شجون القلب ما كمنا

وبعد حصول ما حصل من التقصير وابداء عذر التاخير فان هبت نسمات اللطف والقبول من تلقائكم بالسؤال عن الاحوال كما هو المامول فان المحب المخلص والداعي المتخصص مقيم على قدم العبودية وحفظ العهود في البكرة والعشية

اعد من صلواتي حسن عهدكم   ان الصلاة كتاب كان موقوتا

واما الاشواق فانها لا تحصى ولا يبلغ مداها الاستقصا ولا تفي بها الارقام ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام ولو اخذ الداعي يصف شوقه لحضرتكم الشريفة وذاتكم اللطيفة لم يجد لذلك سبيلاً ووقف دون ادرك غايته جملة وتفصيلاً وماذا يصف من شوقه اليكم شوق الصادي الى الزلال والمهجور الى الوصال

وما فؤادي مشتاقٌ بمفرده   بل كل عضو الى رؤياك مشتاق

ولو بعثت اشواقي لركبت اليكم اعناق الرياح ولطرقت بابكم الذي هو سوق النفلاح لكن الامور باوقاتها مرهونة وهي مكنونة في غيبها حتى يظهرها المولى مصونة وايضاً فالبوائق جمة والحوادث لا تراقب في سيرها الاً ولا ذمة ونبتهل للكريم الخلاق بحرمة من ركب البراق واخترق السبع الطباق ان يطوي شقة الفراق ويسهل اسباب التلاق فيكون الخطاب من الشفاه الى الاسماع بدلاً من التراسل بالرقاع انه بعباده خبير بصير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير والله يعلم ان بعد الدار عن القلوب لا يحول وصدق محبة الفقير لا يزول

ان قلت غبت فقلبي لا يصدقني   اذ انت فيه مكان السر لم تغب
او قلت ماغبت قال الطرف ذا كذب   فقد تحيرت بين الصدق والكذب

وكتبت هذا الكتاب ليتشرف بلثم انامل الجناب متمثلاً بقول القائل من الاماثل

كتبت كتابي يلثم اليد خدمة   لعل كتابي ان يقوم مقامي
ويسجد بالباب الكريم تحية   ويقرأ مني الف الف سلام

والمرجو من المولى الهمام لا زال في حرمة الملك السلام ان لا ينساني من دعائه الغيبي وخبره السار الشافي للبي لطفاً بهذا الداعي بجميل المساعي فان الخبر بعض اللقاء وقد يحصل للظمآن من كفوف القراطيس الاستقاء

بالله لا تقطعوا عنا رسائلكم فان فيها شفاء السمع والبصر
وآنسونا بها ان عزّ قربكم فالانس بالسمع مثل الانس بالنظر

ولئن كان في الطلب اساءة الادب فمكاتبة العبد الى سيده مطلوبة وفي الشرع والعرف مرغوبة والسلام التام على كافة الاشبال الكرام اقرّ الله بهم العين على الدوام

سروري اذا منّ الزمان بعودة لبروسة التي خصت باسني المشاهد
امتع طرفي في محاسن روضها ومسك ختامي نظرة في المجاهد

هذا وان سالتم عن كافة الاحوال ندم على ارغد عيش وانعم بال كافة احبابكم لرؤياكم متشوقون ولروائح اخباركم متشوقون بلغهم تغيير هيئة اللباس *حصل لهم بذلك غاية الاستئناس وسر بقدومكم كافة اهل الاسلام من اهل الحجاز ومصر والعراق والشام فاشكر الله على ماولاك لا سيما نعمة الانفكاك وبلغوا سلامنا للسيدة الوالدة حفظها الله من كل واردة كائدة وقد بلغني انه ازداد عندكم مولود فان شاء الله هو مبارك مسعود ولو عرفت مسماه لهنئناكم وارّخناه وقد كتبت شرح حال قدومكم الذي سارت به الركبان لكافة احبائك المقيدين في الشام على العهود في جواب الكتاب الوارد لبروسه من الشريف ابن المشرفي المعهود ودوموا سيدي في امان الله وحسن رعايته (وكاتبه مرة اخرى واودع كتابه قوله)

الله اكبر هذا التعب يبريني من سيد بنواه كان يبريني
ومن عنائي به ناديت يا اسفي فالشوق يخلني والوصل يبريني
شوقي له جل ما باللفظ احصره ولو جمعت الوفا من دواويني
جاد الزمان بوصل ثم عاجلنا جرى على اصله في الغدر بالبين
حديثه وحديث عنه يطربني بذاك انسى وذا عنه يسليني
وكلما رمت ان القاه مجتهدا تترى موانع خير عنه تلويني
صبرا على حكم مولى لا شريك له ما شاء كان وما لا ليس يثنيني
لكنني اتسلى بالرجا فعسى يقضي بوصل به نفسي تهنيني
وها انا صابر بين القضاء فلا ادري القاه بداء او يلاقيني
انا المعنى فلا ارتاح من ولهي به نهارا ولا زار الكرى عيني
ان قلت غبت فقلبي لا يصدقني اذ انت تاوى به والكاف والنون
اوقلت ماغبت قال الطرف ذا كذب فقد تحيرت من حكم بضدين
نعم بدت في خيال الفكر صورته وان يكن شخصه ناء عن العين

فوجهه قبلتي والقلب مسكنه والورد ذكراه بل صلى له ديني
روحي فداه وصف ماقد حوته يدي والله بالفضل عن هذا سيجزيني
ان المودة في الارواح منشئها فالروح واحدة حلت بجسمين
ودي له خالص والله اعلم بي فليسأ لن قلبه عنه ويفتيني
احبه وارى فرضا محبته هذا اعتقادي فمن ذا عنه يثنيني
وبغض اعدائه فرض بما اجترحوا فالله يكفيه من كل ويكفيني
والله لن يصلوا ادنى مراتبه وهل يضاهي الحصا مسكا بدارين
يا سيداً خصه المولى بمنقبة سماؤها ذروة العليا على الدين
والكل في غفلة عنها وقد ذهلوا اذ كلهم اعرضوا عن وحي جبرين
فاسقط الاثم عنهم حيث حث على فرض الجهاد بتدبير وتخمين
فالله يجزيه في احيائه علناً فرضاً اكيداً باجر غير ممنون
فقام لله في اعلاء كلمته لا للمباهاة بل في نصرة الدين
فكم وكم جندل الاعدا بسطوته يذيقهم كاس مر الموت في الحين
كأنه في لظى الهيجاء حيدرة له مواقف تحكي حرب صفين
سل ان جهلت وان ينكره ذو حسد مكابراً فهو من جند الشياطين
فالشمس لا يبصر المكفوف بهجتها قطعاً وينظرها ذو العين بالعين
فقل له قف فان الحشر موعدنا سيظهر الله ما يخفى بلا دين
هذا هو الفخر لا شاي ولا وتر وقطع شرع وجمع بين اختين
دليل اخلاصه ما في الخلاص بدا بحكمة الله من بين الى بين
عدوه السيف اهداه له علنا مع كونه جاهداً في بذل مضنون
فاشكر الملك اذ اسداك ما انبهرت منه العقول بسر الكاف والنون
وقر عينا وطب نفساً فسوف ترى ما يصنع الله بالبهم الملاعين
واشهد الله اني عبد رؤيتكم اسقي عداك كؤوس الموت والبين
اني لارجوه في انجاز مسئلتي ونية الخير عند الله تنجيني
مع ان لي فكرة جاد الاله بها مع قوة العجز للخيرات تهديني
وطال ما كنت في فاس اروم لقى لكن قضاء الهي عنه يثنيني
ان قدر الله ذا مني فسوف ترى ما الله يرضى له في نصرة الدين
ان الشهادة عندي والاله لهي احلى من العيش في الدنيا على ديني

فلست احسن من صحب بها ظفروا   في جنة الخلد بالولدان والعين
والله اسأل مع حسن الختام بها   دفنا بطيبة فضلاً بعد تكفيني
وسيدي عارف الدنيا يبشركم   براحة في الدنا والفوز في الدين
وكل ما تشتهي ياتي اليك فلا   تهتم الا بذكر او بتبيين
والحبر نوري افندي قال ابلغه   عني السلام فانت الآن تكفيني
فانني في اشتغال زائد وعنى   عسى بحرمتـه المولى يهنيني
وشوق زائد يدعو لحضرتكم   بما يسرك من خير بدارين
والسـيد العلم القدسي يبلغكم   تحية منه لا تحصى بتبيين
وكل من فيك قد صحت محبته   فبالسلام عليك الان يوصيني
واقرأ سلامي على الاشبال قاطبة   الله يحفظهم للنفع في الدين
محمد صاحب الساطور وهو قرى   من كان جاري ونفح الطيب يهديني
وكم بحلوى صنيع الغرب اتحفني   ان اشتهيت فاكل الحلو يرضيني
فنعم ذا الجار يرعى الحق فيه ولا   كاهل شـام اضاعوه مجانين
فالله بالبذل يجزيه الرضاء وان   بالعود فوراً وبالنوعين يجزيني
سلم على المصطفى نجل التهامي كذا   نجل المبارك قدور ضيا عيني
وكل من في الورى حققت نسبته   اليك بالحب من عال ومن دون
واسأل الله قبل الموت يجمعنا   على لطائف ترضيه وترضيني
وعن قليل فذا الخروبي قال يجي   نسعى به صحبة يا قرة العين
فالله يحجبنا من كل صارفة   عن اللقاء بسر الكاف والنون

(وقد اشار) بقوله هذا هو الفخر الى آخر البيت الى المولى عبد الرحمن سلطان مراكش حيث انه اشتهر بحب الشاي وآلات الطرب واتهم بانه جمع بين اختين من المولدات وبقوله عدوه السيف علنا الى السيف الذي اهداه له نابليون الثالث امبراطور فرنسا وبقوله وسيدي عارف الدنيا الى حضرة عارف حكمت بك شيخ الاسلام قدس الله روحه (ولما كان) الامير في باريس رأى الامبراطور نابليون يمدح الخيل العربية ويقدمها على غيرها وحين استقر في بروسة بعث الى سوريا رجلاً من اتباعه من اهل الخبرة بمحاسن الخيل يبتاع له من الخيل العربية ما يقع عليه اختياره فاشترى له ثلاثة افراس من احسن ما شوهد منها احدها كميت اغر محجل والثاني اشقر اغر محجل والثالث احمر ثم بعثهم الى الامبراطور سنة سبعين ومائتين لنظر

القائد عبد القادر بوكليخه احد اتباعه المقربين فسر بها الامبراطور ووقعت لديه موقع القبول

ذكر ما اجراه الامير في ختان اولاده وذكر حادثة الزلازل وما آل اليه الامر بعد

كان الامير كثيرًا ما يجامل اهل بروسة بحسن مجالسته ويعاملهم بلطف مؤانسته ويفيض عليهم سجال احسانه وامتنانه وفي ايام اقامته بينهم اجرى ختان اولاده واحتفل له اياماً والتمس من اعيان البلد ان يقيدوا له اولاد الفقراء المحتاجين للختان فقيدوا نحو الخمسمائة فامر بختانهم جميعاً على نفقته قال شرشل في تاريخه وعند ما كان ختان اولاد الامير تعجب اهل بروسة لان من عادة اعيانهم يحتفلون للختان وسائر الافراح بضرب الموسيقى والطبول والزمور والامير احتفل بكثرة الصدقات والمبرات فترى جماهير الفقراء والمحتاجين حول داره يتناولون انواع الاطعمة والالبسة والدراهم وكانوا على كثرتهم يرفعون اصواتهم بالدعاء له وهو يقول اربعوا على انفسكم واشكروا الله تعالى انتهى باختصار (وبينما) الامير واهل البلد في ارغد عيش وراحة مدة اذ نزلت بهم طامة الزلزال واستولى الهدم والحريق على البيوت والمساجد والتكايا والاسواق فخرج الامير باهله ومن معه من المهاجرين الى مزرعة جلتك قرب البلد وقد كان اشتراها للزراعة وهي تحتوية على اشجار متنوعة واكثرها شجر التوت وكان يشتغل فيه دود القز وابتنى فيها قصرًا عظيماً احضر له مهندساً من الاستانة فعمره على هيئة قصورها وجلب لها اشجار الفواكه المتنوعة ولما تفاقم الامر وتتابعت الهزات مع تتابع الساعات ليلاً ونهارًا وخرج الاهالي الى البساتين والحدائق ومنهم من ابعد المفر خيم الامير بتلك المزرعة وكان خليل باشا والي بروسة توجه الى الاستانة وخلفه عليها عالي باشا الشهير فكتب اليه الامير متشوقاً لما كان بينهما من شدة المواصلة

الا فافرِ الخليل خليل باشا ... سلاماً طيباً عبقاً نفيسا
له قل يا شقيق الروح مني ... على مَ هجرت بلدتنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر ... وتطلع من شمائلكم شموسا
فعادت بعدكم شمطا عجوزا ... وكانت تجتلي بكم عروسا
وعهدي سوحها بالوفد ملأى ... فاضحت بعدكم خلوا دروسا
وكنت لنا بها غيثاً هتوناً ... وكهفاً مانعاً ضرا وبوسا

200

وكان لنا الزمان بكم ضحوكا   فصار لنا بفقدكم عبوسا

بن اعتاض عنك فدتك نفسي   وكنت بقربكم فرحاً انيسا

ثم بلغ الامير ان علماء باريس تذاكروا في علماء الاسلام المشاهير وانتهى بهم الحديث الى ذكر الامير ومؤلفاته التي اتصلت بايديهم ومواعظه التي كان يلقيها على من يجتمع به منهم واجوبته على اسئلتهم التي كانوا يبعثونها اليه فوقع اتفاقهم على ان يثبتوا اسمه في ديوان العلماء من كل امة وملة من اهل القرون الماضية فاثبتوه وكتبوا اليه يخبرونه بذلك فكتب اليهم رسالة ضمنها علوماً جمة ذكر في خطبتها ما نصه الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضى الله تعالى عن العلماء العاملين اما بعد فانه بلغني ان علماء باريس كتبوا اسمي في ديوان العلماء ونظموني في سلك العظماء فحمدت الله على ستره عليَّ حتى نظر عباده بالكمال اليَّ وقد اشار عليَّ بعض المحبين منهم ان اكتب اليهم بعض الرسائل فكتبت هذه العجالة وسميتها ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ورتبتها على مقدمة وثلاثة ابواب وفي كل باب فصل وتنبيه وخاتمة اما المقدمة ففي الحث على النظر وترك التقليد وذمه واما الباب الاول ففي فضل العلم والعلماء وفيه فصل في تعريف العقل الذي به ادراك العلوم وتكملة في القوى الاربع التي اذا اعتدلت في الانسان كان انساناً كاملاً وتنبيه في فضل ادراك العقل على ادراك الحواس وفضل مدركاته على مدركاتها وخاتمة في انقسام العلم الى محمود ومذموم واما الباب الثاني ففي فضل العلم الشرعي وفيه فصل في اثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية وفيه تنبيه في معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة وخاتمة في المكذبين للانبياء واما الباب الثالث ففي فضل الكتابة وبيان عدد كتابات الامم وفيه فصل في الكلام على كتابة الامم وواضعيها وما ينجرُّ الى ذلك وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية وخاتمة في احتياج الناس الى التصنيف وما يتعلق به ثم شرع في تفصيل ذلك على الترتيب بما يحتار عند سماعه كل عالم نحرير لبيب

(وقدمر) انه لما انتشر خبر خروج الامير من فرنسا واقامته في بروسة قصدته المهاجرون من مواضع اقامتهم فمنهم من كان يزوره ويرجع ومنهم من ينتقل اليه باهله ليقيم عنده وكان يتلقى الجميع بالبشاشة ويكرم نزلهم فمن اتى بنية الاقامة عين له ما يتعيش به على حسب عائلته ومن اتى بنية الزيارة نقطاعطاه ما يبلغه محل اقامته ومن جملة من قصده بنية الاقامة القائد الحاج عبد القادر بوكليخة الذي ارسل معه الخيل الى الامبراطور نابليون ولم يزل عند الامير قائماً بسائر شؤنه

في بروسة الى ان توفي بها سنة احدى وسبعين ومائتين ومنهم العلامة السيد الحاج محمد الخروبي القلعي وكان كاتباً للامير في ابتداء امارته ثم جعله خليفة في ايالة صطيف ووقع في اسر الفرنسيس ثم اطلقوا سراحه ولحق بالمشرق فحج واستوطن دمشق ثم انتقل الى بروسة ولم يزل مع الامير فيها وفي دمشق الى ان توفي سنة تسع وسبعين والامير اذ ذاك في الحجاز ومنهم العالم الفاضل السيد قدور بن الرويلة وكان ممن اسر في الحروب الاخيرة واطلق الفرنسيس سراحه الى المشرق ولما بلغه وصول الامير الى بروسة جاء اليه واقام عنده في اعزاز واكرام الى توفي في بيروت يوم وصوله مع الامير اليه قاصداً دمشق ودفن في مقبرة السنطية في ربيع الثاني سنة اثنين وسبعين ثم ان الامير لما رأى رفاقه قد اشمأذت نفوسهم من الاقامة في بروسة لتوالي الزلازل فيها طمحت نفسه الى سكنى غيرها ووقع اختياره على دمشق وفي اول ذي الحجة سنة احدى وسبعين سافر الى الاستانة ثم الى باريس وفي الثامن عشر منه وصل الى مرسيلية على حين ابتداء الوباء بالفتك في اهلها فاصيب به اصابة خفيفة وكتب اليَّ منها يخبرني بوصوله وبما عرض له وذيله بقوله

احباب قلبي كم بيني وبينكم ... من ابحر وصفها قد صين عن حد
تحار فيها القطا والعي يدركها ... حتى الجهات بها تخفى عن القصد
ما كنت ادري بان الدهر يبعدكم ... عني ويتركني من بعدكم وحدي
قد خانني الصبر ما اجدى بمنفعة ... سوى المدامع قد سالت على خدي
والطيف مثل لي اوصافكم فبدا ... بشرى ومذ قمت غير الحزن ما عندي
هل الغزال الذي اهواه يسعفني ... بالوصل يوماً كما قد كان في العهد
هل النفور الذي اهواه يسعدني ... بالقرب من بعد ما ابدى من الصد
ياذا النفور الذي في القلب مرتعه ... ارتع به لا ترع فالصب في بعد
اني وان كنت مني نافراً فلقد ... ارضى بطيف خيال منك لا يجدي

(ثم) توجه من مرسيلية الى باريس فتلقاه الامبراطور ورجال دولته بالاجلال والاكرام ووقع مجيئه الى باريس بعد ان وصل الى بلاد الاسلام موقعاً حسناً عند كافة شعب فرنسا ولاول وصوله جاء خبر فتح سواستبول وانتصار جنود الدول المتحابة الثلاث على الروس فعظم السرور ثم انقلب راجعاً الى الاستانة ورفع امر انتقاله من بروسة الى دمشق الى الباب العالي فوافق وصدرت اوامر الدولة

العلية الى محمود نديم باشا والي دمشق ان يستعد لملاقاته واعداد محل لائق لسكناه وكتب ايام اقامته في الاستانة الى ابنة عمه والدتي قوله .

اقول لمحبوب تخلف من بعدي   عليلا باوجاع الفراق وبالبعد
اما انت حقا لو رايت صبابتي   ظنان عليك الامر من شدة الوجد
وقلت ارى المسكين عذبه النوى   وانحله حقا الى منتهى القصد
وساءك ما قد نلت من شدة الجوى   وقلت فما للشوق ارماك بالجد
فاني وحق الله دائم لوعة   ونار الجوى بين الجوانح في وقد
غريق اسير السقم مكلوم الحشا   حريق بنار الهجر ولوجد والصد
غريق حريق هل سمعتم بمثل ذا   ففي القلب نار والمياه على الخد
حنيني انيني زفرتي ومضرتي   دموعي خضوعي قد ابانوا لما عندي
ومن عجب صبري لكل كريهة   وحملي لاثقال تجل عن العد
ولست اهاب البيض كلا ولا القنا   بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها   بيوم يشيب الطفل فيه مع المرد
وارجاؤه اضحت ظلاما وبرقه   سيوف واصوات المدافع كالرعد
وقد هالني بل قد افاض مدامعي   واضنى فؤادي بل تعدى عن الحد
فراق الذي اهواه كهلاً ويافعاً   وقلبي خلي من سعاد ومن هند
فحلت محلاً لم يكن حل قبلها   وهيهات ان يحلل به الغير او يجدي
وقد عرفتني الشوق من قبل والهوى   كذا والبكا ياصاح بالقصر والمد
وقد كلفتني الليل ارعى نجومه   اذا نامه المرتاع بالبعد والصد
فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما   حملت لذاب الصخر من شدة الوجد
الا هل لهذا البين من آخر فقد   تطاول حتى خلت هذا الى اللحد
ألا هل يجود الدهر بعد فراقنا   فيجمعنا والدهر يجري الى الضد
واشكوك ما قد نلت من الم وما   تحمله ضعفي وعالجه جهدي
لكي تعلمي ام البنين بانه   فراقك نار واقترابك من خلد

ذكر انتقال الامير الى دمشق وما صادفه من الاحتفال فيها وفي طريقه اليها

وبعد ان اتم الامير مآربه في الاستانة اتى الى بروسة وفي خامس ربيع الآخر

سنة اثنين وسبعين ومائتين خرج بمن معه وكانوا مائتي نفس فركب بهم باخرة فرنساوية الى بيروت فهرعت اهاليها لاستقباله واحتفل واليها وامق باشا به احتفالاً عظيماً وطار خبره في انحاء سورية فاجتمع الامراء آل رسلان حكام الدروز ومشايخ من تلك الطائفة لملاقاته في جبل لبنان ولما بلغهم خبر خروجه من بيروت رتبوا جموعهم على الطريق التي يمر فيها ولما قرب منهم اقبلوا عليه يهرولون واكبوا على يديه ثم اخذت تلك الجموع في اطلاق البنادق وساروا عن يمينه وشماله و بين يديه يرتجزون و ينشدون المدائح على حسب عادتهم وكان الكلونيل شرشل الانكليزي اعد للامير ضيافة حافلة في تلك الليلة فنزل عليه ضيفاً كريماً و بات عنده في محله في الجبل وطلب منه امراء الدروز ان يقيم عندهم اياماً فاعتذر اليهم وشكر صنيعهم وعند الوداع قام الامير امين ارسلان حاكم الدروز وقال ايها الامير الجليل ان حسن صيتك جمل الوجود وهتف به الوالد والمولود وكانت نفوسنا ترتاح عند سماع اخبارك وذكر وقائعك وحروبك والان لله الحمد قد ابتهجت نفوسنا برؤيتك وعظم سرورنا بمشاهدتك فاجابه الامير بما ملاء صدور جمعهم حبرة وقلوبهم مسرة ثم ودعهم وودع الكلونيل وشكر صنيعه وسار في طريقه الى دمشق ووصل الخبر الى واليها محمود نديم باشا فخرج هو وعزت باشا رئيس العسكرية وغيرهما من ذي المناصب والمأمورين واشراف البلد وعلمائها واعيانها الى قرية دمَّر وهناك استقبله الجميع بالاجلال والاحترام واتصلت الجموع من اهل البلد وقراها من ذلك الموضع الى الصالحية وسار الامير في ذلك الموكب العظيم بين تلك الجموع التي يقف الناظر دونها الى ان نزل عند ضريح العارف بالله تعالى الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه و بعد ان زاره وتبرك به توجه الى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا الرئيس واصل هذه الدار لبيت القاضي محيي الدين ابن الزكي ولما قدم الشيخ الاكبر من بلاد الروم الى الشام نزل على بني الزكي وتزوج منهم وساكنهم في هذا البيت وتوفي فيه سنة ثمان وثلاثين وستمائة ودفن في مقبرتهم في سفح قاسيون و بالجملة فقد دخل الامير الى دمشق في يوم اخذ زينته من حسنه ولم يبق احد الا والمهابة ملء عينه وقد ذكر بعضهم انه لم يدخل دمشق امير عربي منذ مئين من السنين مثل ذلك الدخول وكانت الدولة العلية اصدرت امرها الى والي الشام ان يتخير للامير داراً لاقامته لائقة بمقامه فلما وصل الامير اخذ الوالي ينظر في الدور الشهيرة حتى وقع اختياره واختيار الامير معاً على داري القباقيبي محل اقامة الحكومة وهما داران متلاصقتان بينهما باب من داخلهما و بعد انتقال الحكومة منها واتمام لوازمها

سكنها الامير بعائلته وكانت ضيافة الامير وعائلته في ولايتي بيروت ودمشق جارية من الولايتين بامر الدولة العلية ثم كتب الى الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا يخبره بوصوله و يشكر فضل الدولة على ما حصل له من الاكرام والاحترام فاجابه بما نصه بعد حمد الله والصلاة على نبيه وعلى آله واصحابه والسلام على السيادة السنية حضرة الامير المجاهد عبد القادر فقد اخذنا بايدي الاعزاز والتكريم كتابكم الكريم بوصولكم الى دمشق الشام بخير وسلامة وتوفيق وحزنا منه على الفرح التام حيث اشتمل على اعز مقاصدنا من بقاء محبتكم وتوجهاتكم الخيرية جزاكم الله عنا خيرًا فاخرًا والسلام عليكم من مخلصكم اولاً وآخرًا في اثني عشر شوال سنة اثنين وسبعين ولما فرغ الامير من لوازم السكنى القى في دمشق عصا الترحال واتخذها دار اقامة في الحال والاستقبال وحمد الله تعالى الذي انعم عليه وجعل مآل امره الى دمشق الفيحاء فانها بلدة خيم فيها الاسلام من اول وهلة واستوعب من مواردها العذبة عله ونهله ولما رأى اهل دمشق ما عليه الامير من العلم ومكارم الاخلاق والكرم والفضل والاحسان. ومعالي الهمم سارعوا اليه فكان يبشرهم بنجاح مقاصدهم باشارته قبل صريح عبارته واستخلص الاشراف واهل العلم لولائه وربطهم باحسانه وتوالي نعمائه فما توالت لهم في التردد عليه قدم ولا عطل لهم في مدحه والثناء الجميل عليه قلم

ذكر توجه الامير الى زيارة بيت المقدس

وبعد ان رتب شؤونه واتمها تحركت نفسه الى زيارة بيت المقدس فخرج اليها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وكنت بمعيته وجعل طريقه على صفد بلدة نبي الله سيدنا يعقوب عليه السلام فزار آثاره فيها ووقف على جب سيدنا يوسف عليه السلام ومرّ على حطين حيث كانت الوقعة الكبرى بين صلاح الدين والصليبيين ثم توجه الى يافا اجابة لطلب مفتيها العالم العامل التقي الكامل السيد حسن الدجاني الحسيني فتلقاه اعيان البلدة خارجها ونزل في داره فحل لديه حلول صديق غائب ووقع عنده وقوع صائب فافاض الامير عليه وعلى اقاربه سواكب انعامه واراهم عجائب افضاله واكرامه وممن لازمه اذ رأى انعطافه عليه ومدح فاجاد وبلغ من الاجادة ما امل وأراد العلامة السيد حسن افندي اخو المفتي المذكور فقال

عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقا ... وانا نراه الان قد لاح مشرقا
وللغرب اصل الفضل اذ هو مطلع ... وان يك بدر التم في الشرق اشرقا

رعى الله بدراً قد سرى بمحمد السرى … الى الحرم القدسي وهام تشوقا
فلله من يوم به وصل الهنا … وجاد بشير الانس بالوصل واللقا
واشرقت الدنيا بطلعته التي … بدت شمس حسن نورها قد تألقا
بروحي افدي من علقت بحبه … واضحى لديه اللب بالرهن موثقا
سما في سما العليا كمالا وبهجة … ولطفاً وظرفاً فوق عرش البها ارتقى
لطلعته تعزى المحامد مثل ما … لحضرة محيي الدين حمدي تحققا
ومرآه عيد للتهاني بقدم … لمولاي عبد القادر السامي مرتقا
امام محاريب الافاضل جامع … لكل كمال في الانام تفرقا
همام بيوم الحرب اثنت حرابه … عليه وفي المحراب اضحى موفقا
طويل نجاد وافر الفضل كامل … بسيط الندا قد فاق فهماً ومنطقا
وما هو الا سيد وابن سيد … له المحتد العالي من الدر منتقا
مليك اذا ما أمَّ ساحة جوده … اسير العنا في الحال منَّ واعتقا
حوى البأس والمعروف والجد والذكا … وحاز المعالي والمكارم والتقى
ولا عيب فيه غير ان عطاءه … ابان لعجز الشكر لما تدفقا
سل الصارم الهندي عنه فانه … يحدث عن فضل به الضد صدقا
وليس لماضي عزمه من مضارع … لعليائه الامر انتهى وتعلقا
زهت جلق مذ رامها منزلاً له … فرد بروج البدر في السعد حلقا
واضحت دمشق مذ اناخ بسرحها … كجنة خلد نشرها قد تعبقا
وكم ما سمعنا عن مآثر فضله … فهمنا على حب السماع تعشقا
فكان عياناً فوق ما وصفوا لنا … وشاهدت فرداً بالكمال تخلقا
وحاشاه ان احصي بمدحي نعوته … وهل يحصى ودق في البرية اغدقا
وما الشعر من دأبي ولا انا اهله … وان اك احياناً به متعلقا
ولكن اياديه التي عم فضلها … وحبي لآل المصطفى العروة الوثقى
دعاني الى هذا القريض وانني … مقرٌّ بتقصير به اطلب العتقا
امولاي محيي الدين والسيد الذي … على فضله الاجماع قام واطبقا
هنيئاً هنيئاً بالقدوم الذي به … لقد اقبل الاقبال واستدبر الشقا
ووافى الوفا يافا بكم وتشرفت … وفاقت على الامصار فخراً ورونقا
فبشراك يا بدر العلا بزيارة … بها فتح تقريب لما كان مغلقا

ولا زلت في اوج السيادة راقياً ودام لك الاسعاد والعز والبقا
وهاك عروساً في مديحك قد حلا بحلي ثناكم جيدها وتمنطقا
على خجل وافت توءمُ رحابكم فمن عليها بالقبول تصدقا
وصلي وسلم يا الهي تكرماً على المصطفى خير الخليقة مطلقا
وآل كرام ثم اصحاب هديه مدى الدهر ما غصن المسرة اورقا
وما حسن نجل الدجاني قد شدا وقال يهني من كنجم السهى رقا
واضحى ليمن بالقدوم مؤرخاً الى المسجد الاقصى سرى يطلب التقى

١٢٧٣

(وصادف) الامير في يافا قيام اهلها ومن يليهم بمولد نبي الله روبيل عليه السلام عند مشهده الكريم على مسافة من البلد فاقام عند المفتي ثلاثة ايام ثم خرجا معاً في ذلك الجمع الغفير الى حضور المولد برسم الزيارة والتبرك واقاما يومين ثم ودع المفتي هناك وتوجه الى زيارة سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وفي معيته السيد حسن الدجاني فتشرف بمقام ذلك النبي الجليل واقام في اعتابه ثلاثة ايام ثم توجه الى القدس الشريف لزيارة المسجد الاقصى الذي تنجلي بمشاهدته سائر الهموم وتزول بها عن القلب الغموم وينشرح فيه الصدر وتصفو به مرآة الفكر

ولما قرب من تلك البلدة المعظمة خرج اعيانها لاستقباله ونزل في دار ناظر اوقاف سيدي ابي مدين الغوث قدس الله سره واقام هناك اياماً يتعاطى كؤس العبادة رائقه وتوالت على اهل ذلك البلد الشريف هباته ومبراته وزار القامة وبيت لحم وقبر سيدنا موسى عليه السلام ثم توجه الى بحيرة لوط لزيارة مسجد الياقين ومنها الى نابلس واستوعب من بلاد فلسطين كافة الاماكن المباركة والمعالم المقدسة ثم توجه الى الغور فزار قبر سيدنا معاذ بن جبل وقبر سيدنا ابي عبيدة بن الجراح ومن معهما من الصحابة الكرام رضي الله عنهم . من هناك رجع الى دمشق على طريق حوران فزار قبر الامام النووي وحمد الله تعالى على هذه النعم المتوالية عليه وشكره شكر من عرف المنة فعظمت لديه وكان قبل سفره الى بيت المقدس حضر الى اعتابه الاديب المسيحي سليمان افندي الصوله وقدم الى حضرته ما نصه . الحمد لله الذي جعل مكارم الشيم داعية الفصاحة في العرب والعجم حمداً يستحقه بعلو شانه وسبوغ احسانه وبعد فلما اجمع البشر من البدو والحضر على مدح آية الحرب والمحراب والقلم والقرضاب السيد الشريف المستغني لشهرته عن التعريف الاشهر من علم تسربل بالنار والاوضح من الشمس في رابعة النهار صاحب

الوقائع المشهورة والمآثر المخبورة والمزايا الهاشمية والمكارم الحاتمية مولانا وسيدنا الامير عبد القادر ذو السيف الباتر والفضل الباهر والحلم السافر والحزم الوافر رب المفاخر والوقار والسماح المدرار المغربي النجار والمشرقي الانوار القاطن الآن بالكنانه قمر حفه الجمال وزانه احببت ان اتشرف بمدحه السامي كما تشرف كعب بمدح جده التهامي فنظمت ما هو بالنسبة لمقامه الرفيع لا يعد الا من سقط المتاع ولكن بمدحه البديع اصبح يهدر على عواتق السماع ولعمري لا يفتخر السيف بقرابه والمرء بجلبابه انما يفخر القشر بلبابه والدن بشرابه · ولله در القائل ·

ماذا يضرُّ السيف كون قرابه   رثا او البازي حقارة عشه

وهذا ما جادت به القريحة الجامدة · وتالقت به الفكرة الخامدة · قبل تحريك ركابه المنيف · لزيارة الحرم الاقصى الشريف · وتالله لقد قصرت بمدح الهمام الفاضل · واين الثريا من يد المتناول · فارجو المعذرة من ذوي البصائر · والحمد لله في الاول والآخر ·

شقت دجى فرعها عن فرقها السحري   فسبحت ايكة الوادي على الشجر
واقبلت تتجلى في غلائلها   كالغصن لو يحلى الغصن بالدرر
يزفها بلبل الخلخال مبتهجاً   زف المبشر بالاقبال والظفر
تقول قد رتقت بالوصل ما فتقت   ايدي الزمان وشقت شقة الكدر
فقمت الثم موطاها ولو سمحت   بلثم اخمصها قبلت بالبصر
اقول والشمس شمس الراح باسمة   بالكاس ان التي امتدت يد القمر
وقلت للراح لما افتر مبسمها   هذا هو الحبب الدري فاتزري
روحي الفداء لها انثى مكرمة   نصال ناظرها امضى من الذكر
تقل بدراً على غصن يقلها   بحر من النور في زق من الحبر
رود علقت بها درم مرافقها   يكاد اوسطها يخفى عن النظر
كان ما بين عينيها واخمصها   مد الصراط فلم نأمن من الخطر
يفداه صبح محياها يشوقنا   للاصطباح براح المبسم العطر
ما اطلعت مثلها الجوزاء نيرة   ولا حوى مثلها الاكليل من بشر
تظلل الورد في نسرين وجنتها   بآسة اللاز ورد الرطب في الشعر
ترنو بعين مهاة كحلها حور   واعين العين لا تخلو من الحور
تزهو بجيد تروق العين طلعته   كانه جيد خشف خائف ذعر

يخشى الكمي بعيداً قوس حاجبها ... فرا لخيفته قوس بلا وتر
ويتقى جفنها المكسور واحربا ... لا يحمل الشهم سيفاً غير منكسر
علقتها هونة الاخلاق طوع يدي ... طوع العناق وطوع اللهو والسمر
فما ظفرت بتكدير لرقتها ... لكن ظفرت بصفو غير منكدر
تركت بالصرف عني الهم منصرفا ... فاقبل الانس يسعى سعي معتذر
وبت ما بين خلخال واسورة ... احاول الوصل بين الخوف والحذر
اقول هل رحمة تقضي بتكملة ... لانى مفتقر للوصل منتظر
لولا غرامك ما احيي الدجى طمعاً ... بزورة منك يؤتاها على قدر
ولا تناوم للاطياف يخدعها ... برقدة الزور لما خط في السحر
فوسدتني وثيرا من ترائبها ... هو اللجين اذا كان اللجين طري
وكان ما كان مما لست اذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
حتى اذا انقبض الديجور وانبسط الـ ... شحرور وانتفض العصفور في الشجر
وبادر الصبح معجالاً بجيعلة ... تنبه النرجس المكحول للسفر
مدت صحيفة كافور تودعني ... بها نحر عقيق الدمع كالاكر
فقلت للعين لما آن مرتحلي ... بانت سعاد ولاح الفجر فانفجري
فصير القادر الاجفان في لجج ... حكت ندى عبده السمح الابي مضر
الثابت العزم والابطال في قلق ... والبيض تقذف للجيشين بالشرر
الملهب الاملد الخطار من مهج ... حراء مملوءة بالحقد والاشر
المنهل السيف يوم الكر نهلته ... من قمة الراس او من قلة البصر
التارك البطل القمقام منعفراً ... بعيثر كاديم الليل معتكر
افديه من اسد للحق منتصر ... نحر لمنتخر غوث لمصطبر
سيف يذب عن الدين الحنيفي ولم ... يخش الملام فما في الدين من خفر
يغشى الوغى باسماً والخيل عابسة ... بصارم كقضاء الله منحدر
هتك السوابغ من عاداته خدم ... من نمل جوهره الآساد في حذر
وذابل ركب الموت الزؤام به ... سن المنون فلم يترك ولم يذر
يفتض بالفتك ابكار القلوب على ... كبد السوابغ فضاً غير مستتر
وصافن من جياد الخيل مبتدر ... يقول للبرق سر مهلا على اثري
كانه تحت ملك فوقه ملك ... لا ياخذ النفس الا اخذ مقتدر

يرمي العداة بما تذري حوافره من الثرى فترى نبلاً من الحجر
هناك لاالخودة البيضآء تمنعه عن المرام ولا حمالة الدثر
تراه وهو فريد من مهابته بجحفل من ليوث الغاب منتشر
لا يتقي لهب البارود منحدرًا يفرى اديم الدجى في مهمه قفر
ولا يهاب بريق البيض يتبعها رعد العدا ودم الابطال كالمطر
الية بالهجان الشدقمية اذ تفري السباسب نحو الوكن والحجر
والصافنات عليها القوم يعتنقوا نقع الدجى لا اولي طيش ولا خور
ما اولد المجد من بكر العلا اسدًا سواه للدين من بدو ومن حضر
سيف سنين به سن القديم لمن يرجو الجهاد حديثا طيب الخبر
قد صير الغرب شرقًا مشرقًا ابدًا بنور شمس افتخار غير مندثر
لاقى الخطوب بصدر العزم فانفرجت وقيد الحزم بالتقوى فلم يجر
حتى غدا الوحش كالاطيار في طرب والجن كالانس مما جال في الفجر
لم يتبع دعوة الباغي لمظلمة ولم يبع نصرة المظلوم بالبدر
ولم يدع برؤوس القوم من طمع الا جلاه جلآء السيف من وضر
بادهم طبعت فيهم سنا بكه ميم الممات على الصادات في الطرر
كان نسر الدياجي فوق غرته من الاسارى قصيص الريش لم يطر
فعال اصيد قوم فاضل حكم وعالم عامل بالنص والخبر
فصل الخطاب له حتما وحجته لله بالغة في لجة الاثر
له على الفقه في التاليف خير يد وبالتفاسير فضل غير منحصر
علم الخليل الذي باهى ببحره يرى لدى علم هذا البحر كالقدر
بحر من الجود لو ضمت سواحله الـ ـبحر المحيط لاضحت اصفر الاكر
يجود وهو يحيينا بمنطقه فلا نفرق بين النطق والدرر
يا كعبة الجود من لباك فاز بما يرضى الاله واضحى خير معتمر
يامكسب السيف فخرًا لا زوال له وصاحب القلم الامضى من القدر
يا ابن الكرام واتقى الخلق قاطبة يا كنز مدخر ياخير مفتخر
اليك جارية عذرآء جارية في ساحة الحسن ترجو نقد معتبر
ترجو القبول فلا شيء يعادله عندي وليس لها الاه من وطر
فان سمحت به فالجود عادتكم وان ضننت فمن حظي وانت بري

دامت لطلعتك الاعوام باسمة   ودمت في كل آن تاج كل سري
وجادك الحرم الاقصى بنيل منى   ما قبل المزن وجه الروض بالمطر
ونشقتك نسمات القبول شذا   ريحانة الليل او نسرينة السحر

ولما رجع الامير من سفره الى دمشق قدم له قوله

من مجيري من العيون السكارى   ونصيري على القدود العذارى
ومقيلي من البعاد بقيل   يصرف الروع عن قلوب الحيارى
يا حداة المطي ان فؤادي   ضالع في ظعونكم يتوارى
مائل ضاع في الرحال ولكن   ما ارى من يعيده فتمارى
فارفقوا بالفؤاد يا مالكيه   انما الرفق واجب بالاسارى
وارحموا من غدا وحيداً فريداً   نازحاً نائحاً مضاما مضارى
آه من لي بوصل ربة خدر   ريقها يترك القراح عقارا
صيرت مقلة الغزالة خالاً   واخا طوقها الهلال سوارا
ياغواني حذار ان دموعي   اوسعت كل عاشق انذارا
من اصب ببينكم متفان   يرسل الدمع خلفكم تيارا
من مديد البعاد وافر سقم   غيركم كامل الملاحة مارا
اكسبت ضعفاً بالجفون انتصاراً   اكثر الله في الجفون انكسارا
يا بدور الحمى ارفقوا باسير   يطلق الغيث دمعه استعبارا
وانجدوا يا آل نجد ميت هواكم   مسني الضر بعدكم يا غيارى
واصطباري اضمحل من جل نار   صورت في خدودكم جلنارا
ومنامي الذي عتبت عليه   شام سهم الجفون ثار فطارا
يا لقيس من قوس حاجب ليلى   ملكت سهمها عليَّ فجارا
بدل النوم بالسهاد واهدى   من وريدي لقوسها اوتارا
طال ليلي وهجرها وغرامي   ومن الوصل لم اجد انصارا
طال ليلي كفرع ليلى ومالي   عن هواها البسيط قط اقتصارا
كلما ابتغت للتصبر درعاً   اشهرت من لحاظها بتارا
جار فينا وعاد عنا سقيماً   بعد ماصير القلوب فجارا
قل لمن يجهل المحبة من لا   يعرف المسك يحسب المسك قارا

نحن قوم نرى المحبة دينًا	واللاهي عن الاحبة عارا
كل من فاز بالمحبة منا	حبة منه ترجح القنطارا
كيف اسلو المهاة لحظًا وجيدًا	والتفاتًا وغنة ونفارا
ارقتني وفارقتني فعيني	ترسل الدمع بعدها مدرارا
دمع عيني اذا جرى خلت عبد الـ	قادر السمح اورد الابحارا
الطويل النجاد سمح الايادي	خير من ساد عنصرًا ونجارا
باسم الثغر والزمان عبوس	والضواري من الخطوب ذعارى
فاقد الند نـد روح المعالي	فاضل الجد امنع الخلق جارا
عقد فضل به الفضائل فازت	بانتظام وكان فيها انتثارا
نير الفكر لو ألم بليل	صير الليل بالضياء نهارا
اكرم الصيد حل اكرم ارض	اطلقت من سماحه بحارا
ازهرت من علومه واضاءت	هكذا الشهب تبدع الانوارا
يا له الله من سحاب سماح	بذباب الملال لم يتوارى
امطرتني يداه درًا ثقيلا	صغته في مديحه اشعارا
فله الفضل لا امنُّ عليه	بجور من كفه تتجارى
عالم عامل خبير خطير	في ميادين فضله لا يجارى
تحسب السيف واليراع بكفيـ	ـه خيولا الى العلا تتبارى
تحسب الطرس في يديه عيونا	والمداد الذي عليه احورارا
نطقه حكمة وفصل خطاب	ومناجاته تفيد افتخارا
عطر الشعر ذكره فملأنا	بغوالي مديحه الاقطارا
وسمعنا حديثه فغدونا	بقديم من السلاف سكارى
ماجد صير العفاف مقرا	ومن الخير قد تخير دارا
ساد اهل الزمان خلقًا وخلقًا	منهما الكون غدا معطارا
فاتك فاتح مغاليق رمز	من علوم تحير الافكارا
ذاته النقطة التي ارتكز المجـ	ـد عليها وثبت الانوارا
آية الحسن والكمال عليها	ارسل الله لطفه زخارا
لم تزل ضائري الزمان الى ان	شام في الشام سيفه فتوارى
شام في سيفه اخضرار زعاف	فاتقى ان يضل فيه اخضرارا

قل لمن فيه قد تباله جهلاً ويك لا تشرق البدور سرارا
ذا الذي اشبع الوحوش لحوماً غضة من عداه والاطيارا
احرق العتي بالجهاد واورى بقلوب العدا من الفتك نارا
شم محياه فهو آية حسن ابدعت من بهائه انوارا
ودع الحاسد الذي يتعامى عن ثناه البديع او يتوارى
لا تضر الشموس عين حسود انكرتها تمرضا وخوارا
ايها السيد الذكي الذي كا د ذكاه يصير الماء نارا
والنبيه النبيل والحكم الفر د الذي جل عن مقاتل دارا
يا مريش الجناح مني بارض لم ينلني سواك منها قرارا
ان بعد المزار ابعد نومي عن عيوني وارمد الابصارا
فازجر البين لاعدمتك عني انه ظل كافراً فجارا
لا تدع غير سيل قربك يهمي فوق هامي مؤبداً مدرارا
قد حمى جدك الآله باسرى الليل سبحان من حباك فخارا
لاسباك الآله حلية حزم لا يشق الهجاء منها شعارا
وبقيت الدوام تزجي البلايا عن ارقاك قادراً مغوارا
قاتلت عبدك العيون فنادى من مجيري من العيون السكارى

ذكر قضية مدرسة الاشرفية المعروفة بدار الحديث النووية

كان رجلاً من الاروام القاطنين في دمشق اسمه يانكو قد استولى على الدار التابعة لمدرسة دار الحديث الاشرفية ثم مد يده الى الزاوية الغربية من المسجد واقتطعها منه واعدها لوضع دنان الخمر فقام عليه العلامة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المتقدم ذكره ورفع امره الى الحكومة المحلية فلم تسمع دعواه فتوجه الى الاستانة وتعاطى الاسباب لانقاذه هذه البقعة المباركة وبعد الجهد التام احرز فرماناً سلطانياً في ذلك ولما قدمه الى والي دمشق طرحه في زوايا الاهمال وبقي الامر الى ان جاء الامير الى الاستانة من فرنسا فاجتمع به الشيخ يوسف وشكا اليه امره وجاء معه الى بروسة ثم توجه الى الاستانة بقصد الهجرة الى المدينة المنورة وحصلت بينه وبين الامير مكاتبات ومن جملة ما كتبه له في شأن المدرسة المذكورة قوله جناب السيد الهمام والبطل السميذع الهمام شقيق الروح واسي الجروح

من محبتنا فيه كما يعلم الله ورسوله خالصة وهي مع البعد متزايدة غير متناقصة مولانا
السيد الشريف الامير سيدي عبد القادر بن محيي الدين لطف الله بنا وبه وكافة
المسلمين في كل سكون وحركة آمين وبعد فاهدى اوفر تسليمات زكية واسنى
تحيات متوالية الى الحضرة العلية والطلعة السنية توءم المغنى وتعم المعنى هذا والمعروض
بعد اداء الدعاء المفروض انه وصلني من الجناب كتابان قرّت بكل منهما العينان
حيث استفدنا منهما صحة مزاجكم وراحة بالكم فنسال الله لكم دوام ذلك وابلاغكم
فوق ما هنالك وان يسلك بنا وبكم احسن المسالك وما تفضلتم به على سبيل
البشارة ثم توقفت في تطبيق معناها على قضيتنا باتحاد البشير والمبشر ثم خطر
بالبال المعلول انه من باب تنزيل الخلاف الاعتباري منزلة الذاتي كما هو مبين
في الاصول ويمكن ان يكون من باب السراية على اعداء الزمان ثم اهم ما سرّني
عزوك مسألة عمورية الى نص القاموس. اذا قالت حذامِ فصدقوها. ولا عطر بعد
عروس فاني قبل تنبيهك كنت مرتبكاً في اي النقلين هو الصواب حتى اتى جواب
الجناب اكثر الله فوائدكم وادام عوائدكم وارسلت لكم سابقاً جواباً مشتملاً على
قصيدة بائية من بحر الطويل حمل عليه صدق المحبة واخبرتكم فيه اني الآن
ولله الحمد في سعة عظيمة واحوالي بفضل الله عز وجل من قبل الصحة والدنيا مستقيمة
قاصدين سكنى المدينة حتى ينزل بنا على ملة الاسلام ان شاء الله الحمام ويا سيدي
قد نصحتم واجدتم وهذا من صدق محبتكم المحققة التي لا تحتاج الى استشهاد يقول
القائل ليس يصح في الاذهان شيء. الخ فها انا ابسط عذري وهو اني قاسيت بالشام
من المصائب العظام ما لا يصدر على مثلي لو كان بين عبدة الاصنام وذلك مشهور
لدى الخاص والعام ناولاً دار الحديث مدرسة اسست على تقوى وكان بها
النعل المنيفة التي مستها قدمه الشريفة صلى الله عليه وسلم وكانت محط رحال العلماء
العاملين اساطين الاسلام وائمة الدين فاولهم الحافظ بن الصلاح ثم الامام ابو شامة ثم
القطب الكبير الامام النووي الشهير ثم الحافظ المزي ثم مجتهد الدنيا في عصره
السبكي الكناس لها بلحيته وقال في شأنها وفي دار الحديث الخ الى الحافظ بن
حجر شارح البخاري بفتح الباري واضرابهم ومن البين ان التبرك بآثار الصالحين
من سنن النبيين والمرسلين وفعله صلى الله عليه وسلم ليلة مسراه باشارة سيدنا جبريل
حيث صلى في مكان سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام مع تفاوتهم
في درجات الكمال بشهادة تلك الرسل تنبيها لامته على انه سنة قديمة ليغتنموا

ثواب هذه المنقبة الفخيمة فمدرسة هذا شانها خبرها مشهور متواتر امتلأت به بطون الدفاتر قصدها الاكابر من سائر الاقطار لاغتنام بركة ما فيها من الآثار يليق ان يكون بجوارها خمارة لاجتماع الفسقة فضلاً عن كونها في قاعة درسها ودار وقفها سبحانك هذا بهتان عظيم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم واعجب من هذا ان اهل الكتابين الذين تحت الذمة في ظاهر الحال مع نقضهم للعهود الدينية والشروط العمرية هل سمعنا او رأينا انه خربت لهم كنيسة كانت معدة لعبادتهم جعلوها خمارة او تجاسر بعض سفهائهم وشرب بها خمراً مع استحلالهم لذلك وازيد من هذا ما شهدته بعد توجهي في العام الماضي من عندك من تزوير الحجج الباطلة بعد كتب الحجة لنا ان الدار للوقف بشهادة الجم الغفير من اهل الاسلام وختم عليها رؤساء المجلس والعلماء والقاضي وادعوا ان النصراني حماية وهو رعية ووضع جزية عشر سنين الآن فما بالهم لا يرجعون الوقف الى اصله فقوم هتكوا حرمة شريعتهم وكسروا ناموس دولتهم فعلى اي حال يكون المقام بينهم ثانياً مالي بينهم معاش ولا مرتب وكلهم له ذلك وهو مع ذلك في الزيادة يرغب وكسبهم بقراءة القرآن والتهاليل ودخول المحاكم للتوكيل واصلاح بين رجلين على اي وجه كان للاكل من الطرفين وما اعتدنا ولله الحمد شيئاً من ذلك وقد عودنا الحق سبحانه وتعالى الرزق من حيث لا نحتسب ضاقت عليّ بين اظهرهم الاحوال مع اني ببلدتهم ذو عيال فمعاشي بمزاولة الاسفار ومع ذلك يقول بعض سفهائهم الشيخ لا ثبات له ولا قرار راكباً في شامنا متن عين عمياء خابطاً خبط عشواء بدون بصيرة ولا استبصار وما درى الغبي اني في نفسي مهموم بشاني وشان عيالي ومن يقدم عليّ من الاحبة فاي فكرة تنقدح لادراك البديهي فضلاً عن النظري من العلوم مع انه لم يكن في البلدة عالم مستعد ولا طالب له ذهن متقد ولا يشتغلون بمهمات العلوم انما يشتغلون بصغار كتب بعض الفنون بدون اتقان وتحقيق فلا حول ولا قوة الا بالله ونسأله سبحانه اللطف فيما جرت به المقادير فخرجت معتقداً ان الهجرة واجبة للمناكر الشائعة والمصائب المتعاقبة على الحال الذي رايته جنابك فصارت الدنيا في وجهي كالخاتم مع سعتها وسدت الابواب دوني الاباب من هو للانبياء ختام فتوسلت به الى الله فتخلصت ولله الحمد ببركته من كل شدة بحول الاله وعلمت ان ذلك تاديب لي منه سبحانه بتركي التشريف بجواره صلى الله عليه وسلم ونشر شريعته في بلدته على قدر عجزي حسب الامكان مع الاستراحة التامة فلما صممت العزم على ذلك تيسرت اموري كلها عامة ثم ان الحق تعالى ساق الامير الى سكنى دمشق

فرأى الامر كما بلغه فحركته الحمية الاسلامية والغيرة العلوية فاحضر الرومي عنده واشتراها منه ثم اوقفها بموجب حجة شرعية على الشيخ يوسف وعلى عقبه واذا انقطع نسلهم يرجع ريعها للمدرسة وذلك في الثاني من جمادى الاولى سنة اثنين وسبعين وما ئتين والف وامر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته وجعل الله تعالى انقاذها وتطهيرها من نجاسة الخمر على يده وهذه من اعظم المبرات ونوافل الخيرات وبعد ان اتم ترميمها واصلاحها كتب للشيخ يوسف واخبره فحضر من المدينة المنورة وسكن في الدار واستلم المدرسة وفي اول يوم من رجب سنة اربع وسبعين ومائتين افتتح الامير فيها التدريس بصحيح البخاري رواية بحضور الشيخ المذكور وكان يجلس لاقرائه بعد صلاة الظهر الى ان يصلي العصر وكان درسه منورًا مفيدًا يحضره العلماء والاذكياء من الطلبة ووافق ختامه في آخر يوم من رمضان وحضر ختمه جماعة من العلماء واجاز كل من كان حاضرًا في ختامه من طلبة العلم وفيهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي فقام في ذلك المجلس وانشد بين يدي الامير قوله ·

باب القبول لهذا الختم قد فتحا ... فلاح من يمنه بدر السعود ضحى
وهب من روضة الرضوان عارفة ... اضحى بها القلب مسرورًا ومنشرحا
اما ترى الا عد قد لاحت بشائره ... وطائر اليمن في ادواحه صدحا
وهذه اوجه الاقبال مسفرة ... والوقت بالبشر والآمال قد سمحا
فـل الملك ما ترجوه من امل ... واضرع اليه فوجه القرب قد وضحا
وابسط يديك الى مولاك مبتهلا ... فان من ام باب الله قد نجحا
ان البخاري معلوم الاجابة في ... ما امه المرء في اقرائه ونحا
فما توسل محزون به ورجا ... الا وابدل من احزانه فرحا
ولا تلاه لكشف الضر ذو حرج ... الا تباعد عنه الضر وانفسحا
ولا اترب مكروب لخالقه ... بسره مخلصا الا اغتدا فرحا
ولا تنفس من انفاسه ارج ... الا اتى فرج باللطف منفتحا
فالهج به ورواة فيه قد وصلوا ... به حديث رسول الله منفحا
هم الائمة تجلى كل داجية ... بنورهم وهم الاقطاب والصلحا
وهم الو القرب في دنيا وآخرة ... والسادة القادة الهادون والنصحا
اهل الحديث حماة الدين تابعهم ... في متجر الحق والتحقيق قد ربحا
فازوا بدعوة خير الخلق ماوجدوا ... الا ونور الهدى من وجههم لمحا

روووا حديث رسول الله عن زمر　　غصنا طريا عليه الصدق متضحا
وقد نفوا كل شك عن شريعته　　فارغموا انف من للشك قد جمحا
جزاهمو الله خيرًا عن نبيهم　　ودينه وحباهم اجر من نصحا
وقد تسامى ابن اسماعيل في شرف　　بهم فنال العلا والفخر والمدحا
ادى الينا صحيحًا من حديثهم　　بجامع فاق ترتيبًا ومصطلحا
اتاه مولاه اجر المحسنين فقد　　اهدى المحدث عقدًا ما له طمحا
قد اعتنى كل ذي دين وذي رشد　　به فحاز به التقديم والمنحا
ورددوا سره في كل آونة　　يرجون من يمنه تقريب ما نزحا
وحاز قصب سباق في دراسته　　وفهمه عارف بالفضل قد رجحا
في مسجد الاشرف السلطان ما وسما　　دار الحديث بدرس ابهر الفصحا
ضبطًا وبحثًا مع الاتقان مقتفيًا　　آثار من حلها من سادة صلحا
مثل الامام النواوي والمضاهي له　　ممن على منهج الارشاد قد سبحا
فالله ينفعنا فضلاً بجاههم　　ويكشف الكرب عن ذا الجمع والترحا
مولى به ملة الاسلام باسمة　　والدين عال وحال الناس قد صلحا
فسيبه انعش المحتاج واكفه　　وسيفه اضلال الكافرين نحا
وصيته البس الاسلام عزته　　وعلمه لمعاني الدين قد شرحا
نور النبوة يبدو في اسرته　　وسرها من حلى اخلاقها وضحا
قد اكسب الدين رفعًا والعلوم حلى　　فالكفر اصبح والعصيان منطرحا
وعمر العمر بالطاعات تجتهدا　　في اشهر الخير للخيرات مقترحا
ادم الهي لعز الدين عبدك من　　للقادر انضاف وامنحه العلا منحا
هو الامام ابن محيي الدين من ظهرت　　منه الكمالات في الدنيا كشمس ضحى
من قام لله في امر الجهاد ومن　　غدا به صدر دين الله منشرحا
في عصرنا ما سمعنا من سواه حبي　　مثل الذي نال او طرفًا كهو لمحا
اضحى له وزرًا في كل نائبة　　تعرو وحصنًا حصينًا كلما سنحا
وجاء للدرس والاملا جهابذة　　للبحث ان عن او للفهم ان جنحا
قد لازموه ونالوا من معارفه　　ما يخرس اللسن او ما يبهر الفصحا
فليهناء الحاضروه نيل مقصدهم　　من الفوائد ان الباب قد فتحا
ويسال القوم ما شاؤا لانفسهم　　من فضله الجم ان الله قد منحا

والعلم افضل ما ازدان اللبيب به   وخير ما اعتنق التحرير واصطبحا
واسعد الناس من كانت بضاعته   علم الحديث الذي قد صح واتضحا
واسند العلم اخذاً عن ائمته   فنال من علية الاسناد ما اقترحا
وللبخاري رجال يستغاث بهم   في المحل ان حل اوفي الخطب ان فدحا
بجاههم اسأل الرحمن مغفرة   ورحمة تذهب الاحزان والترحا
ونكبة لعدو الدين عاجلة   تدير بالهلك والتدمير كل رحا
بك انتصرنا وانت الله ناصرنا   فالنصر منك لمن يدعوك ما برحا
انزل بهم يا شديد البطش قارعة   تكسوهم الذل والتبديد والبرحا
وامدد بنصرك والتاييد عبدك من   اضفته لمجيد القدر ممتدحا
وانظم به شمل هذا الدين واكس به   جماعة المسلمين الامن والفرحا
واجعل بطاعته يارب عصمتهم   والف الكل واهد كل من نزحا
وزده حلما وتوفيقا وعافية   واجعله افضل من امسى ومن صبحا
وارفع عماد الهدى والدين واحم به   شرع النبي وخذ من زاغ او جمحا
واحفظ بطانته اركان دولته   ممن اعان على خير ومن نصحا
ولا تدع لذوي التثليث قائمة   وطهر الارض ممن عاث او مرحا
بخاتم الرسل المختار سيدنا   محمد من به باب الهدى انفتحا
ما خاب من جعل المختار واسطة   ووصلة للذي يرجوه واقترحا
فانه باب فضل الله ما برحت   سحائب الجود منه تمطر المنحا
ما نال ذو مطلب دنيا وآخرة   الا استعار من المختار ما منحا
صلى عليه اله العرش ما طلعت   شمس وما سار عيس بالحجيج ضحى
والآل والصحب ما انجاب الظلام وما   ورق على غصن ايك ناح او صدحا
او قال يوسف بدر الدين مبتهلاً   باب القبول لهذا الختم قد فتحا

وقال ايضاً يمدح الامير بهذه الابيات

بك المسرات قد نالت امانيها   يا نعمة مالها شيء يدانيها
ان كان عيدا لها تهنى بموسمه   فالعيد كونك يا اقصى امانيها
يا نجل فاطمة الزهراء من فضلت   طرا نساء الدنا من ذا يضاهيها
اني اهنيك بالعيد المبارك بل   بكون مثلك في الدنيا اهنيها

نعم اهنى دمشق الشام اذ ظفرت … بمثلك الان تغدو في ضواحيها
لما بدا وجهك الابهى بساحتها … ترادف الخير فيها مع نواحيها
لا سيما سيدي ما كان مدخراً … من فك دار حديث من خناقيها
بك استنارت واحيي الله مربعها … لما تلوت البخاري وسط ناديها
تلاوة ما سمعنا من تلاه بها … من عهد يحيى النواوي في مغانيها
فاشكر آلهك اذ اولاك منه يدا … ليست لغيرك جل الله معطيها
وابشر بخير فان الله ذو كرم … يخفي مقادير اشياء ويبديها
في علمه غيب اسرار اذا بلغت … آجالها فلذا المخلوق يغشيها
والله ينصركم نصراً كنصرته … اصحاب بدر الاولى ثم المضاهيها
لا زلت يا نجل محيي الدين مرتقياً … اوج الكمالات باديها وخافيها
ودام اشراقكم في افقها ولكم … باليمن ارخت عد في مغانيها

١٢٧٤

واجعل دعاً بظهر الغيب جائزتي … ولا تسل لي الدنا اذ لست ابغيها

فاجابه الامير بقوله

انت مهنئة فليهن مهديها … جلت تراكيبها دقت معانيها
تدل بالحسن والادلال حق لها … فما حوت مثلها يوماً مغانيها
ودب في الجسم من انفاسها طرب … دبيب حبي لهذا الحبر منشيها
ليهننا بك عيد انت شاهده … عيد النفوس اذا نالت امانيها
يا يوسف ردلي من قربكم نظراً … كرده بقميص انت مهديها
لينشرح صدرك المملوء من حكم … وطيب النفس شهيها ومنيها
فانت بين اخلاء لهم ارب … تبقى وان مات قاصيها ودانيها
ولتعطنا من زكاة العلم واجبه … انت المشيد دار العلم بانيها
ابقاك رب العلا لشر حكمته … رغماً لانف معاديها وشانيها

فاجابه العلامة المذكور بقوله

تطيب نفسي يااقصى امانيها … بحكمة منك يا مولاي تشفيها
من حبها ما عن الخيرات افقدها … من المعاصي التي للنار تهديها

واحتفل الامير ايضاً لتدريس كتاب الاتقان في علوم القرآن للامام السيوطي وكتاب الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز لسيدي احمد المبارك بمدرسة الجقمقية

وكتاب الشفا للقاضي عياض والعقائد النفسية وصحيح مسلم في المشهد الحسيني والمشهد السفرجلاني من جامع سيدي يحيى واكثر اجتهاده في ذلك حال اعتكافه فيه فانه اقام سنين يعتكف في الجامع المذكور شهر رمضان من اوله الى آخره وبعد رجوعه من رحلة الحجاز جعل التدريس في منزل الضيوف من داره وسنذكر ذلك في محله ان شاء الله تعالى

ذكر ما احدثه الامير في دمشق من الابنية وما اشتراه من الاملاك داخلها وخارجها

تقدم ان مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان انعم على الامير في بروسه بدار على وجه التمليك ولما جاء الى دمشق انعم عليه بالف كيس بدلا عن الدار المذكورة فاشترى في دمشق دارين واسعتين بينهما دار صغيرة ومدخل الجميع واحد في زقاق النقيب من خطة العمارة فهدم احداهن واعفى آثارها وابتنى في موضعها داراً جميلة وفق مراده ولما تم بناؤها وتم اصلاح الدارين الملاصقتين لما انتقل من الدار التي استأجرتها الدولة العلية له الاٰن وكان العالم الفاضل حسن افندي الدجاني اليافي اذ ذاك زائراً عند الامير فقال مهنئا ومؤرخا بناء الدار الجديدة بقوله

يا حسن ما انشاه عين الاكرمين ... من دار تجد نزهة للناظرين
هو عبد مولى قادر بل سيد ... في عصره والحق في ذا مستبين
دار زهت وبها المحاسن كملت ... وغدت مطافا كعبة للقاصدين
وبدا لسان الحال منها قائلاً ... اهلا وسهلا فادخلوها آمنين
لا زال مولاها بدار سعادة ... يهنا ويهنا بالصفاء مع البنين
وحماه ربي من مكائد حاسد ... ومن الوقاية دام في حصن حصين
ما السعد قال مهنئاً ومؤرخاً ... نال الهنا فنعم دار المتقين

١٢٧٤

وقال مؤرخا له ايضاً

ان هذا بيت تجد قد حلا ... وعن المهموم غماً قد جلا
يا له مقعد صدق قد سما ... وعلى الحسن البديع اشتملا
شاد عبد لمولى قادر ... وهو مولى سيد في ذا الملا
من به قد اشرق الشرق كما ... نار فيه الغرب حقا اولا

منزل قد خيم السعد به ... ولمن فيه السرور اقبلا
ان يكن جدده الآن فكم ... سابقاً بالفضل شاد منزلا
دام بانيه بعيش رغد ... وملاذا للعفاة مومَّلا
ما له الاقبال قال ارخوا ... ساد هذا سيد مأوى العلا

١٢٧٤

وارخها العالم الاديب امين افندي الجندي رئيس ديوان القلم العربي بدائرة العسكرية بقوله

دار الامير الشهم عبد القادر ... كهف الدخيل وملجأ للحائر
دار بها دُر السرور ومنزل ... بالعز منزله لبدر سافر
مولى جليل القدر اوحد عصره ... حاز المعالي كابراً عن كابر
شمس اضاء الكون نور سنائها ... صبح جلا ظلمات ليل كافر
ليث الوغى يلقى الكتيبة وحده ... فيبيدها ضرباً بسيف باتر
في نصرة الدين المبين حروبه ... تذكارها سمر لكل مسامر
قد حاز كل فضيلة باقلها ... يسمو الفتى اقرانه بتفاخر
عين الكمال وجوده ونظيره ... في الكون مفقود بحكم النادر
بحر العلوم فليس يدرك غوره ... كنز التقى علم الهدى للسائر
من آل بيت المصطفى ولجده ... باز الرجال اجل نجل طاهر
عرفت ملوك الارض رفعة قدره ... بل كل بادٍ في الانام وحاضر
بمشاهد شهدت بقوة عزمه ... ومواقف وقفت بكل محاذر
قد طار بين الناس طائر صيته ... يرويه فينا حامد عن شاكر
لما توطن جلقا غبطت به ... وغدت لاهل الكون كعبة زائر
زادت به ارجاؤها شرفا كما ... قرت بطلعته عيون الناظر
وافاض للعافين من احسانه ... وندا يديه اجل بحر زاخر
احيى المساجد والمدارس بالتقى ... والعلم ثم ببذل مال وافر
واختار في خط العمارة منزلا ... لجنابه ولمنتم وموازر
وبنى به غرفا زهت واماكنا ... بالظرف اضحت بهجة للخاطر
من تحتها الانهار تجري دائماً ... حول الرياض وكل غصن ناضر
والطير ساجعة على افنانها ... سجعاً يكاد يفوق نظم الشاعر

تثني على علياء الامير فتنثني ... تهتز من طرب كحال الذاكر
مولاي يا انسان عين زمانه ... واجل ناه في الانام وآمر
خذها اليك خريدة رعبوبة ... بكرًا تزف بعقد در فاخر
عربية عربا رشيقة منطق ... تسبي العقول بغنج طرف ساحر
تهدى الى كفوء كريم ناقد ... ترجو القبول وتنتمي بمعاذر
جاءت تهنيكم بابهى منزل ... كملت محاسنه بلطف ظاهر
لا زلت مرفوع المقام معظما ... دنيا واخرى عند رب غافر
ما فاه باليمن الامين مؤرخا ... دار الامير الشهم عبد القادر

(وارسل) مع هذه القصيدة كتابًا نصه بسم الله الرحمن الرحيم احمد الله تعالى على آلائه واساله جزيل نعمائه . واصلي واسلم على سيد الانام وآله واصحابه الكرام ما اخلص عبد في السر والنجوى . واسس عبد بنيانه على التقوى . و بعد فالثم يدي حضرة مولاي العالم العامل والجهبذ النحرير الكامل مجمع بحري السيف والقلم . ومطلع نيرى الحكم والحكم . الكريم الماجد والامير المجاهد . الحائز فضيلتي الحسب والنسب . والفائز بجده في الدارين باسنى ما طلب . المشار اليه بالبنان في جميع الآفاق . والقامع بهمته العلية عصبة الكفر والنفاق بمدد سميه وجده باز الرجال . وبلغه الدرجة القصوى من مراتب الكمال . وشملنا بانظاره العلية . وتوجهاته السنية آمين واعرض لحضرته الشريفة . وسدته المنيفة . ان انتماء العبد الى حضرة المولى امر غني عن الاثبات بالدليل . لدخوله في عموم قضية من القلب الى القلب . بيل . ثم اني قد تجاسرت بتقديم هذا القصيد الى رحابه الكريمة . معتذرًا عن القصور الذي هو لهذا الحقير شيمة . ارجو النظر اليها بعين القبول . واسبال ذيل العفو عن عثرات الجهول . كما اني التمس لاجل حصول الافتخار والشرف . واحياء سنة الموالي ممن سلف . تنقيطها بشيء من الحلى المباح . او تقليدها بقطعة من السلاح . والحمد لله في البدء والختام . وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام

فاجابه الامير بقوله وارسل معه خاتمًا نفيسًا

احلى المديح مديح خل فاخر ... اقواله تزري ببدر باهر
عما اجن من الوداد جنانه ... الفاظه تترى كشهد قاطر
تكسو الملاحة والطلاوة وجهها ... فالود من ارجائها كالماطر
يا صاح خاتمة الافاضل كلهم ... من كل شهم كاتب او شاعر
عندي لكم بين الضلوع مودة ... محفوظة ومصونة للغابر
كن كيف شئت فانت انت امينها ... ما بين بادي عربها والحاضر

ما الدر الا ما اتانا منكم انا مخلص للود اولى شاكر

فكتب اليه امين افندي مجيباً ومتشكراً

فضلك يا مولاي لا يحصر وفي سواك المدح لا ينشر
يا كوكب الوقت ومن باسه حدث عنه السيف والاسمر
يا شبل باز الله عالي الذرى ومن هو السلطان والقسور
يا مركز النظرة من جده انت الى اسراره مظهر
تعنو لك الآساد من هيبة فان رات شخصك لا تزأر
اعطيت ما لم يعطه سيد في عصرنا ما ثم من ينكر
ما قيس في الراي وما حاتم في الجود ما سحبان ما عنتر
صيرتهم دونك حتى ولو جئت امام الكل لم يذكر
عن مثلك الدهر عقيم ولم يتحف به كسرى ولا قيصر
انى لهم ذاك وهل صور الا عقل بان ينقسم الجوهر
لا غرو فالباري له حكمة في آل بيت المصطفى تظهر
هم اشرف الناس بلا مرية لهم يد المحراب والمنبر
وهم نجوم الكون اقماره وانت انت النير الاكبر
انت لنا شمس فلا غيبت انت لنا سيف به نقهر
انت لنا ركن اذا اقبلت حوادث الكون له تدفر
اهديت لي دراً نظيماً به مادمت حياً في الملا افخر
وجوهراً حلى بناني فقد حيرتني ايهما اشكر
فلا برح الدهر في نعمة ما كر صبح وجرى جعفر

وجاء مرة لوداع الامير فوجده نائماً فكتب قوله

جاء الامين مودعاً ولبعض فضلك شاكرا
لكن عذر النوم قد اضحى جمالك ساترا
ارجوك ان لا تنسني اذ لم ازل لك ذاكرا

(ثم اشترى) على التوالي سبع دور اخرى جعل احداهن منزلاً لاضيافه ومن يقصده من اصحاب الحوائج وعدة دور في محلة العمارية البرانية جعل بعضها جنينة مقابلة للدور وبين الدور والجنينة نهر بردا واشترى مزرعة دير بجدلى بارض الغوطة وهو بستان نصر وعمر به حوشاً واشترى ارضاً اخرى في قرية اشرفية

صحنايا ثم اشترى حوش البويضية وباعه واشترى قرية قرحتا ومزرعة بلاس وعمر فيها حوشاً واشتر الطاحونة المشهورة بالاحدى عشرية وخان الصعب في العمارة وارضا بوادي قرية دمر ابتنى فيها قصراً لمصيفه ولما اتم بناءه دعا اليه العلماء والاعيان وصنع لهم وليمة وبعد الاكل قرأوا شيئاً من صحيح البخاري لاجل التبرك وكان من جملة من دعى العالم الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي فانشأ بالحضرة يقول

يهنيك يافرد الزمان ... دار المسرة والتهان
دار السيادة والسعا ... دة والعبادة والقران
دار بها دار الصفا ... وسرى السرور بكل آن
دار تصافحها الاكف ... كانها الركن اليمان
ابياتها بيت القرى ... وديارها دار الامان
هي جنة الدنيا التي ... قد اذكرت دار الجنان
حيث التفت وجدت رو ... ضا ناضراً او غصن بان
او جدولا او منهلاً ... عذب الموارد والمجان
فتبارك الله العظيـ ... ـم وما يشاء الله كان
عوذت رونق حسنها ... بالذكر والسبع المثان
واعيذ بانيها برب ... الناس من انس وجان
مولاي عبد القادر ال ... شهم السري فرد الزمان
علامة الدنيا الذي ... ما ان له في الكون ثان
رب المكارم والتقى ... بدر الكرام بلا امتنان
رب البلاغة والبرا ... عة والبراعة والبيان
سهل الخليقة ماجد ... سمح المحيا والبنان
مر المشاهد واللقا ... عذب الموارد واللسان
ما ضن قط بما له ... اوجاهه يوماً لجان
وعلى المدا لم يستعن ... في حادث الا اعان
مولى اجل من ارتدى ... حلل الثنا والطيلسان
مولى حماه كعبة ... يسعى لها قاص ودان
مولى عن الاغيار بال ... اسرار والعرفان فان
لا تنكروا في بابها ... يوماً موافقة الحسان

من آل بيت حبهم … فرض على طول الزمان
آثارهم مشهورة … وبفضلهم شهد العيان
ما بين علياهم وبيـ … ـن الفرقدان الفرق دان
وكفاك اكبر شاهد … السيد السند المصان
الفاتح الامصار بالا … ابطال والحرب العوان
والقاهر الاعداء بالـ … ـرمح المثقف واليمان
لو شمته يوم الوغى … والقرن قد قلب المجان
والطوب يرشق والرصا … ص الى مدى يتجاريان
والهام شبه كرى لها … ظبة المهند صولجان
والسيف والخطي في … نقط وشكل كاتبان
والموت يختطف النفو … س من الصدور بلا توان
والحرب تسعر نارها … والجو اظلم بالدخان
لرأيت ليثاً ضارياً … ثبت القوى ثبت الجنان
ينقض في الميجاء فو … ق اقب مطلوق العنان
ويخوض بحر الحرب كالـ … ـمعطى من الموت الامان
خطاره وجواده … نحو العدا فرسا رهان
لله ذلك كله … لا للمغانم والغان
اشهى اليه من الدمى … والذ من عزف القيان
وقع الصوارم في الوغى … يوم الكريهة والطعان
والكتب تدرس والكتيـ … ـبة باليمين او اليمان
ولكم مشاهد قامها … لله محفوظاً مصان
شيخاً وكهلاً في المواقف … والصبا في العنفوان
لم يلقَ وقع اذى فلا … نامت اذاً عين الجبان
واليكها عربية … حوت المعاني والبيان
رقت بحسن صفاتكم … معنى فما بنت الدنان
فاقبل بفضلك رقها … وافتح لها باب التدان
واعذر محباً عجزه … في مدح علياك استبان
ما اسطاع ذاك ولو له … في كل جارحة لسان

لا زلت في اوج الفضا ئل والعلا بدر الزمان
ما امتد الاحسان في ابواب جودكم يدان
او ما بني الآمال الا قوا في جواركم الجران
او انشدت دار الصفا بيتاً حلى الاوزان زان
يسمو به التاريخ في الا حسن على عقد الجمان
ان الديار باهلها وبربه شرف المكان

١٢٨١

وانشد ايضاً

دار اليها السعد دان وحكى سناها الفرقدان
دار بدمر فالها بالخير دم مر الزمان
قد شادها مولاي عبـ ـد القادر الشهم المصان
كهف العفاة وملجاء الا قصاد من قاص ودان
ولقد اتى تاريخها دار الفضائل والامان

١٢٨١

واهدى للامير ماء زهر وارسل معه قوله

ولما رمت ان اهدي اليكم قليلا من جنى بعض الجنان
تقاطر زهرها عرقاً حياء ولاح البردقان ببردقان

وارسل مرة اخرى ومعها قوله

وقائلة لما رأتني مهدياً الى البحر بحر الفضل مستقطر الزهر
سمعنا بمن يهدي الى الروض ورده ولم نر من يهدي المياه الى البحر

وقد حضر الاديب عبد المجيد افندي الخاني الى القصر في جماعة لزيارة الامير فقال

اوقاتنا بسعودكم اعياد وسرورنا بشهودكم يزداد
يا سادة ملكوا العباد بفضلهم وغدا الزمان لامرهم ينقاد
قد خصكم رب الورى بمناقب حارت بوصف جمالها الامجاد
علم وحلم محكم ومكارم وسيادة وولاية وجهاد
ماذا اقول بنظم جوهر مدحكم ما يفعل الانشاء والانشاد
لو انفق المداح كل علومهم في حصر قدس صفاتكم ما كادوا
لله يوم ورودنا لمقامكم اذ حفنا الاقبال والامداد

في قصر دمر منشأ الافراح قد نلنا الحظوظ وعمنا الاسعاد
قصر بانواع الجمال مرونق حاز النزاهة مالها انفاد
لا زلتم شمس المعارف والعلا يهدي الخلائق منكم الارشاد
ومقامكم حرم المراد وكعبة تاوي الى امداده القصاد
وبفضلكم تحيى الانام وعزكم تسمو به الانجال والاحفاد
ما لاح كوكب سعدكم بكماله او فاح في روض الهنا الاوراد
او قال عبدك ارخوا عزاً له لا زال قصراً بالسرور يراد
١٢٨٧

وللاديب الفاضل العالم الكامل امين افندي الجندي مفتي دمشق وكان مدعوا بالقصر المذكور حين راى نوفرة بستانه النازلة من نهر يزيد الى نهر بردة

ونوفرة يرقى الى الجو ماؤها فتطحنه الارياح طحن دقيق
يعود الى حوض به كان اصلها كطالب عليا وهو غير عريق

(ولنجل الامير) اخينا محي الدين باشا في وصفها

انظر الى فوارة في حسنها قد شابهت خوداً تمايل قدها
رقصت وقد لبست بياضاً ناصعاً من عظم ما وثبت تناثر عقدها

وطلب الامير من الاديب الشاعر محمد افندي الهلالي وصفها فاجابه ارتجالاً

انظر لنوفرة نحو السماء سعت بعزم ماء بديع الصنع للرائي
فالجو يعطي مطير الماء بركتها منه بمقدار ما اعطته من ماء

(وللامير في وصف هذا القصر وموقعه)

عج بي فديتك في اباطح دمر ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا فكانها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها سبحانه من خالق ومصوّر
ذات النسيم الطيب العطر الذي يغنيك عن زبد ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها ما بين أذكار وبين تفكر
ما شئت ان تلقى بها من ناسك او فاتك في فتكه متطور
اين الرصافة والسدير وشعب بو وان اذا انصفتها من دمر

(ثم) امر الشيخ عبد الرزاق افندي البيطار والشيخ محمد افندي المبارك

بتشطيرها فقال الاديب الشيخ عبد الرزاق

عج بي فديتك في اباطح دمّر ... وانظر لواديها البهيج الاخضر
وأدر لحاظك في حلا ربواتها ... ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا ... يحكي لنا امثال عقد الجوهر
فيها الشفاء لشارب من سقمه ... فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها ... وخريرها يزري بنغمة مزمر
وانظر اقدرة بارىء ذي حكمة ... سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي ... قد ضمخت اردانه بالعنبر
واريج ازهار بدت برياضها ... يغنيك عن زبد ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم ... يشدو على قد الغصون السمهري
يدعو الانام لحسن طيب سماعه ... برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنىً به النساك يزهو حالها ... لهم الهنا فازوا بحظ اوفر
اوقاتهم معمورة بعبادة ... ما بين اذكار وبين تفكر
ما شئت ان تلقى بها من ناسك ... خوف الجحيم وهول يوم المحشر
او ذائق شهد الوجود بذاته ... او فاتك في فتكه متطور
اين الرصافة والدير وشعب بو ... وان وغوطة سمرقند الاشهر
اين الرياض الزاهرات بحسن اا ... وان اذا انصفتها من دمّر
قد زانها قصر الامير الفرد عبـ ... ـد القادر الشهم الذي فاق السرى
قطب الهدى مردى العدا بحر الندا ... يا دهر ان رمت الفخار به افخر
لو انصف المداح واقتصروا على ... آلائه والى السوى لم تنظر
قسماً بطلعة بدره السامي الذرى ... وبجوده المزرى بفيض الابحر
ان عد سمح قبله او ماجد ... ما كان الا دون هذا الحيدري
لا زال سامي الذكر تاجا للعلا ... ومقامه يعلو مقام المشتري
ما دامت الدنيا وانشد منشد ... عج بي فديتك في اباطح دمّر

وقال الاديب الشيخ محمد افندي المبارك في تشطيرها

عج بي فديتك في اباطح دمّر ... تزهو بها طرباً بابهى منظر
وتدير صرف الانس في ربواتها ... ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا ... كفرائد من لؤلؤ او جوهر

احلى من الضرب المصفى طعمه ... فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها ... وترابها في الوصف مثل العنبر
هي جنة مولاي ابدع صنعها ... سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي ... ينفي جوى المضنى بلطف المخبر
وبحسن نشر عبيره واريجه ... يغنيك عن زبد ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم ... شوقا الى الوطن البهي النير
كم هيج الاشجان من اهل الهوى ... برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها ... فتفوز فيه بكل حظ اوفر
اوقاتها ابدًا تراها تنقضي ... ما بين اذ كار وبين تفكر
ما شئت ان تلقى بها من ناسك ... باك على تقصيره متحسر
او سالك نهج السعادة والهدى ... او فاتك في فتكه متطور
اين الرصافة والسدير وشعب بو ... وان من المغنى الزهي الانور
بل ما بها من حسن افنان والوا ... ن اذا انصفتها من دمّر
ماوى تفرد بالمحاسن كيف لا ... وبه انجلا سر الولي الاكبر
بدر العلا والمجد عبد القادر ال ... حسني ذي الوجه الجميل الانضر
عين الندا علم المدا السامي له ... روحي الفدا من جهبذ شهم سري
مولى به روض المعارف ازهرت ... فتضوعت طيبًا بعرف عبهري
منه وطلعته التي في حسنها ... انفقت كنز تجلدي وتصبري
من لي بان احظى بها متمتعًا ... طول المدا منها ببدر مسفر
ابقاه ربي للوجود وصانه ... من سوء كل مروع ومكدر
ما ناح قمري وغنى بلبل ... وسرّ قلبي بالقبول مبشري

﴿ذكر حوادث جبل لبنان﴾

هذا الجبل شهير لا يحتاج الى تعريف يسكنه طوائف من المسلمين والنصارى والدروز اكثرهم النصارى واقلهم المسلمون وكان النصارى والدروز موءتلفين الى ان وقعت العداوة بين الفريقين بعهد ابراهيم باشا المصري حين تغلب على سورية وذلك انه طلب من الدروز جندًا يستعمله في اموره فابوا وتعصبوا واشهروا الحرب عليه فجرت بينه وبينهم حروب عديدة في وادي التيم وجبل حوران ثم استعان عليهم بالنصارى والقى بهم الى قتالهم ودان الدروز بطاعة ابراهيم باشا فاخذ

منهم جميع اسلحتهم وقوى بها النصارى نكاية لهم ولما خرج ابراهيم باشا من سورية ورجع الامر الى الدولة العلية اظهر الدروز ما كان كامنا في ضمائرهم ووقع بينهم و بين النصارى الخلاف والشقاق وما زال يزداد و يتضاعف الى ان جرت بين الفريقين حروب عظيمة ووقائع جسيمة في سنة خمس وخمسين ومائتين واربعين وثمانمائة وبعد قبض الدولة على المير بشير الثاني وتعيين عمر باشا المجري خلفاً له على الجبل في سنة ثمان وخمسين ومايتين واثنتين واربعين وثمانمائة قويت شوكة الدروز وتغلبوا على عمر باشا واستبدوا بامور الجبل دونه فامرت الدولة العلية بالقبض على المشهورين من امرائهم فقبض عمر باشا عليهم واعتقلهم في بيروت وفي مقدمتهم الامير احمد ارسلان ثم تجددت الفتنة بينهم وبين النصارى سنة خمس وسبعين ومائتين وتسع وخمسين وثمانمائة وشبت الحرب بينهم فقام والي بيروت خورشيد باشا وتلافى امرهم واصلح ظاهر فسادهم وفي سنة ست وسبعين ومائتين وستين وثمانمائة عدا جماعة من الدروز على رئيس دير عميق وهو من القسيسين القائمين برهبنة الروم الكاثوليك فقتلوه فاهتاج لذلك غضب النصارى وشكوا امرهم الى الحكومة والى القناصل ثم عدا النصارى على درزي في خان الشياح فقتلوه وثارت الفتنة بين الطرفين واعتدى الدروز على نصراني في قرية عيناب واشتد ضرامها وسدت الطرق وعم الخوف سائر الجهات وتناذر الدروز من لبنان وحوران ووادي التيم واحواز دمشق وتجمهروا وجمع النصارى جيوشهم ووقع المصاف واضطرمت نار الحرب واتصلت اياما فانتصر الدروز على قلة عددهم واثخنوهم قتلاً وجراحاً واحرقوا قراهم وانتهبوا اموالهم وكان الامير عندما بلغه خبر استعداد الدروز لقتال النصارى و تجمهرهم كتب اليهم يحذرهم سوء عاقبة امرهم من جهة الدولة العلية و يرشدهم الى ترك ما عولوا عليه فافضت الحال الى ما اليه الامر آل

ذكر حادثة دمشق

ثم سرى سم هذه الفتنة الى دمشق فتحركت احن المسلمين فيها على النصارى جيرانهم وتذكروا ما نالهم من حنا بك البحري وطائفته من الاعتداء ايام المصريين وصاروا يتحدثون في الاندية والمجامع بما وقع في جبل لبنان وكثر اللغط والقال والقيل فخاف النصارى على انفسهم ورفعوا امرهم الى المرحوم احمد باشا وكان والياً ومشيراً للمعسكر الخامس وطلبوا منه ما يؤمن خوفهم فبعث فرقة من العسكر الى محلتهم للمحافظة عليهم وفي تلك الايام اخذ صبيان المسلمين يصورون الصليب في الطرقات و يرسمونه على

215

الاوراق ويلقونها في المحلات القذرة ولما بلغ الامير ذلك علم ان العاقبة وخيمة واذا وقع في دمشق نظير ما وقع في لبنان يجعله الافرنج لا محالة ذريعة لخراب البلاد فتوجه الى الوالي وتكلم معه في ذلك فاجابه ان ما بلغك محض ارجاف من النصارى وكان هذا من الباشا على ما يعتقده من اذعان اهل البلد وما يتلقاه من اعيانها ثم تفاقم الامر في جبل لبنان وتغلبت طائفة الدروز على النصارى واحرقوا زحلة ودير القمر وغيرهما من القرى الشهيرة فازداد بهذا مرض قلوب سفهاء دمشق فبعثوا الى الدروز يغرونهم على نصارى بلدتهم ويعدونهم بمساعدتهم ويرغبونهم في اموالهم فوعدوهم بالاجابة بعد فراغهم من امر الجبل فاتصل هذا الخبر بالامير فوجم له ثم استاذن الوالي في طلب مشايخ الدروز الى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظهم ويحذرهم سوء عاقبة ما عزموا عليه فاذن له وخرج اليهم وتكلم معهم بما اثر فيهم وجعلهم يذعنون لنصائحه وواعدوه بانهم لا يحركون في دمشق ساكنا ولا يثيرون فتنة ولما كان امر الله لا يرد وقضاؤه لا يصد قويت بواعث الفتنة ولم ينجع فيهم نهي الحكومة السنية ولا اثرت فيهم شدة انتقامها ممن يفعله وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين ومائتين والعاشر من يوليه سنة ستين وثمانمائة اخذ شرطي صبياً يلعب بصورة الصليب الى الحكومة فامرت بتعزيره واهانته في الاسواق فساقه الشرطي ومر به في سوق باب البريد فرآه اخوه فغاب عن احساسه ورمى بنفسه من دكانه على اخيه وقام جيرانه لقيامه واخذوا الصبي من يد الشرطي وماج الناس وكثر الصريخ واللغط في انحاء البلد وجعل السفهاء ينادون في الازقة والطرقات هلموا الى الجهاد واخذ الناس يتقاطرون الى محلة النصارى وينسلون الى جهاتها من كل ناحية بلا تامل في العاقبة ولا روية ومدوا ايديهم الى اهلها بالقتل والى اموالهم بالنهب والى ديارهم باضرام النار فيها ولما اتصل الخبر بالامير قال هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع انا لله وانا اليه راجعون ثم ركب الى محلة النصارى فوجدها في هرج ومرج وراى السنة اللهيب ممتدة من المنازل والغوغاء بين ناهب وقاتل فجعل ينهى وينصح فلم تسمع له نصيحة وتمادى الدعار على ما هم عليه ولما يئس من رجوعهم عن غيهم اخذ ينقذ من النصارى من يصل اليه ويتمكن من انقاذه ثم رجع ببعض قناصل الدول وجم غفير من الاعيان وغيرهم وصار يبعث المغاربة شرذمة بعد اخرى الى المحلة واطرافها ليأتوا بكل من عثروا عليه من غير استثناء وكان الامير اخبر الباشا ان المغاربة ليس عندهم

سلاح كاف للمحافظة فوعده بان يعطيهم ما يحتاجون اليه عند اللزوم فلما كان اليوم الثاني من الواقعة بعث اليه فيما وعده به فارسل في الحال عدداً وافراً من البنادق والفشك واستقصى المغاربة بامر الامير في جمع النصارى من الكنائس والاقبية وداخل البيوت الملتهبة بالنار وفي اليوم الثالث اجتمع السفهاء من البلد والصالحية عند باب الحديد بالعمارة قاصدين الهجوم علينا فتوجه الامير اليهم والقى الله الرعب في قلوبهم عند رؤيته ورجعوا على اعقابهم ثم ذهبوا افواجاً افواجاً الى بيوت بعض الاعيان الذين اقتدوا بالامير في جمع النصارى عندهم بقصد الهجوم عليهم واخذ النصارى منهم قهراً فبعثوا الى الامير يستغيثون به فارسل اليهم فرقاً من المغاربة لحمايتهم من الذعار ولما غصت دور الامير بالنصارى مع تعددها واتساعها اخذ يرسلهم الى القلعة باذن الحكومة فاجتمع عنده وفي القلعة نحو الخمسة عشر الف نفس وكان الامير يقوم بنفقات الجميع ولما طال الامر وضاقت نفوسهم طلبوا من الامير ان يرسلهم الى بيروت فاجابهم الى ذلك وصار يبعثهم اليها فوجاً بعد آخر بمحافظة المغاربة واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة اربعة عشر يوماً كل ذلك والامير مشتغل باخذ الوسائل ليتوصل الى اطفائها باذلاً جهده في حسم اسبابها ولم يدخل الى بيته في ايامها بل كان يجلس على سجادة في دهليزه لا يهجع من الليل الا قليلاً والباعث له على حمل تلك المشاق تاييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها اذ لو لم يقف في وجوه الغوغاء لاستأصلوا النصارى واستخدموهم وتفاقم الامر اكثر مما وقع وبذلك يحصل للدولة من الارتباك ما لا يخفى ولعناية الله تعالى بصاحب الخلافة العظمى ورعايته لسلطنته لم يقع ادنى خلل يتشبث به الاعداء لالحاق الضرر بالدولة العلية ولم يزل الامير يعاني المشاق الى ان حضر صاحب الدولة فواد باشا وزير الخارجية الى دمشق ولاول وصوله اجرى فيها حكومة عرفية خارجة عن القوانين المعتادة فقبض على الوف من اهلها حتى امتلأت بهم السجون وامر برد المسلوبات وعين لذلك مجالس مخصوصة في محلات البلدة واخذها فجمعوا اغلبها واجرى ما امر باجرائه من امعان النظر وتحقيق الدعاوي ثم فعل ما رآه صوابا واقتضته السياسة فقتل من ثبت عليه القتل او قامت عليه البينة بانه اثار الفتنة اووافق عليها ونفى جماعة من الاعيان والعلماء لتقصيرهم عن تدارك الامر وكف ايدي الغوغاء واشخص عامة الزعار ومن جرى مجراهم الى الاستانة ثم عقد مجلساً عسكرياً للنظر في امر احمد باشا وجماعة من رؤساء الجند فحكم عليهم بالقتل ونفذ امر الله فيهم وما اوقع احمد باشا شهيداً الا اغتراره باقوال من كان يستبعد ان يقع في دمشق

216

ما وقع في الجبل لدعوي وجود البواعث المقتضية لذلك بين اهاليه وعدمها في دمشق وعلى كل حال فلا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه وقد اجرى فؤاد باشا اموراً قسرية واحكاماً قهرية توصل بها الى تدويخ البلاد واصلاح ما فسد منها وتمكن من الاخذ بمقادها الى الطاعة والخضوع وبعد ان اتم ما اقتضته الحال في دمشق توجه الى بيروت وقبض على امراء الدروز ومشايخهم واعتقلهم ثم ارسلهم الى الاستانة ولاول وقوع هذه الحادثة ارسلت دولة فرنسا عشرة الاف جندي الى بيروت تحت قيادة الجنرال بوفور وخيمت في الحرش وارسلت بقية الدول مراكب حربية ومعتمدين ليراقبوا ما يجريه وزير الخارجية من الاعمال وفي اثناء وجود العساكر الفرنساوية في بيروت حصل اختلاف بين فؤاد باشا والجنرال الفرنساوي فبعث الجنرال رسولاً مخصوصاً للامير يخبره بانه اعتمد على ضرب دمشق من الصالحية فليخرج باهله ومتعلقاته منها فاغتم الامير لذلك وبعث للجنرال بان يوافيه بالبقاع وعين له قرية قب الياس محلاً للاجتماع وركب معلناً توجهه الى الاشرفية احدى قراه ومنها سار ليلاً الى البقاع واجتمع بالجنرال واظهر له سوء عاقبة ما اعتمد عليه فاصر الجنرال على ذلك فهدده الامير وعظم له الامر حتى عدل عن ذلك ورجع كل منهما لمحله وحفظ الله دمشق واسرها الامير في نفسه وجعلها خالصة لوجه الله تعالى ثم ان الدولة العلية استحسنت باتفاق الدول المتحابة على وضع نظامات وقوانين لاهل جبل لبنان وان يكون المتصرف الحاكم عليهم مسيحياً غريباً عنهم ويخابر الباب العالي راساً فتوجهت يومئذ المتصرفية على داود باشا الارمني واستتبت الراحة وعم الامن في سورية والهدو والسكون في سائر انحائها وارتحلت جنود فرنسا من بيروت ولحقت ببلادها واقلعت المراكب الحربية الى مرافيها ثم ان فؤاد باشا لما استبانت له شجاعة المغاربة وما جبلوا عليه من قوة الجاش وشدة الاقدام فاوض الامير في ان يعين منهم كتيبة ليكونوا في خدمة الدولة العلية فاجابه الى ذلك واختار منهم اربعمائة فارس وجعل السيد محمد بن فريحة احد اقربائه رئيساً عليهم ولم يزل فؤاد باشا يقرر الاحكام ويرتب الشؤون الى ان تمكن من مراده ثم اخذ السلاح من اهل دمشق ووضع عليهم الضرائب لتعويض ما اتلفه سفهاؤهم من امتعة النصارى وما دمروه من ديارهم وخصص يوماً لتمرين العساكر باطلاق البنادق والمدافع خارج دمشق في سهل القدم ودعا اليه وكلاء الدول المرسلين لاجل هذه الحادثة وكان من جملة المدعوين حضرة الامير وعند اجراء فنون الحرب من قبل العساكر خرج جميع المدعوين من خيامهم التي

اركزت لجلوسهم بذلك المحل الا الامير فانه بقي جالساً بمحله فاقبل عليه فؤاد باشا ودعاه ان يناظر التمرين الجاري فاجابه اني شاهدت ذلك فعلاً وعملاً وكنت اتلقى الرصاص والكلل بصدري فلا لذة لي الآن برؤيته تمثيلاً ولما اتصل بحضرة سيدنا ومولانا امير المؤمنين ما اتفق في هذه الواقعة الهائلة وما اجراه الامير في سبيل طاعة عظمته واداء واجب خدمته اظهر رضاه العالي بفعله وانعم عليه بالنيشان المجيدي العالي الشان من الرتبة الاولى عنواناً على حسن توجهاته وجميل التفاته . وصورة الفرمان . قد احاط علمي الشريف السلطاني بحال الحمية الدينية الثابتة في اصل فطرة الامير عبد القادر الجزائري زيد فضله وخلوصه الاكيد الوطيد لطرف دولتي العلية وقد اضطره كل منهما لاستعمال الهمة والغيرة الكلية الفائدة في الخدمة المرغوبة وهي تخليص عدد كثير من تبعة دولتي العلية الواقعين بايدي الاشقياء الظالمين عند وقع الفتنة والعناد مؤخراً في الشام من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف الملية الاسلامية والاحكام الجليلة الشرعية وحيث ان حركته الحسنة قد استوجبت لدى سلطنتي زيادة المحظوظية ووقعت موقع الاستحسان ولاجل حسن توجهاتي السلطانية الحاصلة في حقه والمكافاة العلنية على خدمته الخيرية الواقعة احسنت اليه بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الاولى واصدرت له فرماني السلطاني المعلوم المؤذن بالمكارم الملوكانية في اول صفر الخير سنة سبع وسبعين ومائتين والف . ثم حضر مكتوب من الصدر الاعظم عالي باشا وصورته لما طرق مسامع الحضرة السلطانية خبر الفتنة التي وقعت من اراذل الناس في الشام الشريف وذلك بهجومهم على الاهالي النصارى الطائعين الذين نفوسهم واعراضهم واموالهم بمقتضى الشريعة الغراء الاسلامية هي نظير نفوسنا واعراضنا واموالنا وتجاسرهم على اجراء حركات كلية قبيحة مخالفة للشرع كسفك الدماء وهتك الاعراض ونهب الاموال فالتأثر العظيم الذي طرأ على القلب الشريف الملوكي من اجراء ذلك كان في الدرجة القصوى ولذلك اقتضى الامر ارسال حضرة دولتلو ناظر الخارجية بالرخصة الكاملة والقوة الكافية ابتغاء اجراء التاديبات القانونية والشرعية وعمل ترضية للملة ولاهل الانسانية فلما وطئها نكل بهم بعون الله تعالى اي تنكيل واراهم جزاءهم الذي استحقوه وبما انه قد تحقق وشاع ان ذاتكم المتحلية بالفضيلة في اثناء اشتعال الفتنة توفقتم والحمد لله لتخليص الوف من التبعة السلطانية المظلومين من ايدي القتلة الخاسرين وكانت غيرتكم التي تكرمتم بها دليلا ليس له مثيل على حميتكم الدينية وخلوصكم

لطرف السلطنة السنية فاستحقيتم لدى الحضرة الملوكية على وجه الجد والحقيقة فرط المحظوظية والتحسين ولذلك جعلت علامة علنية لهذا التحسين وبرهانا جليا على التوجهات السنية بحق حضرتكم فجادت عليكم باحسان الوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الاولى وقد ارسل لطرفكم الشريف وصحبته الفرمان المنيف ومن ثم بمقتضى مودتي القديمة لطرف سيادتكم قد غدوت بغاية الممنونية لوجودي واسطة لتبليغ المكافاة السنية وعلاوة على ممنونيتي فانني اختم مقالتي بالتهنئة الخالصة والتامينات الاحترامية افندم في السابع من صفر سنة سبع وسبعين ومائتين والف فسر الامير بهذا الانعام السلطاني غاية السرور ثم رفع الى الاعتاب عريضة العبودية وصورتها . احمدك اللهم حمد معترف بالتقصير عن شكر ما اوليت من النعم . واصلي واسلم على نبيك سيدنا محمد افضل العرب والعجم . وعلى آله واصحابه الذين شيدوا منار الاسلام . ودعائم الدين بالعدل والحسام . ثم ارفع ايدي الضراعة والابتهال . الى ربنا القدير المتعال . ان يديم النصر والتاييد لحضرة مولانا الخليفة الاعظم . والملك الاعدل الافخم . سلطان سلاطين الامم . ظل الله الممدود في العالم ناشر لواء العدل على البرية . حافظ احكام الشريعة بالهمة العلية القوية . امير المومنين ايد الله تعالى دولته العلية الى يوم الدين . ثم اتوجه اليه سبحانه بقلبي وتضرعي ان يوفق كافة وكلائه ووزرائه وعماله في جميع الاقطار الى تحصيل مرضاته بالتزام منتهى الصدق والاستقامة في السر والاجهار وبعد فان العبد لم يزل قائماً بوظائف الدعوات الخيرية للدولة العلية في كل بكرة وعشية متحدثاً بنعم الله الظاهرة والباطنة شاكراً آلاء امير المومنين المترادفة في كل دقيقة وثانية مقراً بالعجز عن ايفاء بعض ما وجب عليه وعلى كل موحد في هذا الباب . سائلا من ذي الجلال العصمة عن الزيغ والارتياب . ثم لما وقعت حادثة الشام وانتهكت محارم الله بلا احتشام وتعين على كل فرد من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد قمت باداء ما قدرت عليه من هذه الفريضة العينية والنية الصحيحة في ذلك تحصيل رضاء الله تعالى ثم طاعة الدولة العلية . ولما صدرت الارادة السنية بسفر صاحب الآراء الصائبة الالمعية حضرة الوزير فؤاد باشا ناظر الخارجية قدم الى دمشق وهي تفور كالمرجل وارجاؤها من تميز نار الفساد تكاد ان تتزلزل فرتب العساكر المظفرة في المواقع اللازمة على مقتضى الحال وبادر بتمهيد قواعد الحكمة بلا امهال وفي اقرب وقت واقل مدة ساعدته القدرة الالهية والتوجه السلطاني امده فابرز ثمرة تدابيره من القوة الى الفعل واذهب من المدينة بنور الهدى ظلام الجهل واظهر عدل امير المومنين لكل باد وحاضر حتى اعلنت بذلك خطباء الاسلام على المنابر ورضي به كافة الملل والنحل من القاصي والدان وطهر ذيل

الشريعة المحمدية من لون اهل البغي والعدوان فجزاه الله عن امير المؤمنين والمسلمين خيرًا هذا وان سيدنا ومولانا ايده الله ما برحت نعمة تتجدد على تجدد الآناء والاذهان ولم يكتف بذلك دام علاه حتى طوقني بعلامة الافتخار وهي نعمة شكرها ليس في حيز الامكان ورفع قدر مملوكه بما لست له اهلاً من العنايات والتلطيف مع انه يكفيني فخر النسبة بالعبودية الى مقامه الشريف

ولم ار اعظم من نعمة ... منحت ولم تك لي في حساب
ساشكرها شكر وقت السرو ... ر واذكرها ذكر وقت الشباب
ايا سابقا بالذي لم يجل ... بفكري ثوابا ونعم الثواب
كذا فلتكن نعم الاكرمي ... ن تفاجي بلا منة او طلاب

وبناء على ذلك فاني ابتهل الى الله تعالى بكل دعاء مستجاب ان يجعل كافة آراء دولته العلية مقارنة للسداد والصواب ويديم بقاء ذاته الكريمة الملوكية بالتاييد مشمولاً بكمال الصحة والعافية الى امد مديد بجاه سيد الوجود عليه الصلاة والسلام والحمد لله دعاء المتقين في البدء والختام في اوائل ربيع الاول سنة ١٢٧٧

ذكر ما ورد على حضرته من مكاتيب الدول ونياشينها وما قدمه الشعراء الى اعتابه من قصائد المدح والتهنئة

ولاول وقوع هذه الحادثة العمياء طار خبرها في اقطار الدنيا وشاع ما اجراه الامير من السعي في اطفاء نارها وتسكين تيارها فاخذت مكاتيب التشكر من سائر الدول ونياشينها العالية الاولية ترد على حضرته اقتداء بالدولة العلية وهذه نصوص المكاتيب المذكورة

نص ما كتبه وزير خارجية فرنسا

ايها الامير السامي ان خبر الحوادث الشامية قد طرق مسامع الدولة الفرنساوية واجابة لطاعة مولاي الامبراطور وارادته بادرت الان باعلان اعتباره السامي والتشكر الوافر من طرف جلالته على السعي الذي تكرمتم به على الاهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنساويين وجمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة والمزية العظيمة في ذلك هي مشاهدة همتكم العلية التي جملتكم وقاية لحياة الوف من المساكين وجعلت محلكم ملاذا لهم في وقت كان الاشقياء الخارجون عن الطاعة يرتكبون القبائح المخالفة لاوامر الباري تعالى ولما تقتضيه الانسانية اما الامبراطور نظرًا لمعرفته بعلي همتكم وكرم اخلاقكم فانه لم يتعجب مما اظهرتموه من الاقدام في

ذلك الوقت الضنك وهو الآن يشعر بداع ذاتي يدعوه الى ان يخبركم عن فرحه الشديد الذي اثر فيه تاثيراً قوياً باجراء ما اجريتموه وانا ارجوكم قبول التهاني الشخصية مني التي اضيفت ايها الامير السامي تاكيدات سمو اعتباري لحضرتكم في ٣١ اغسطس سنة ١٨٦٠ ثم حضر رئيس المترجمين في دائرة الوزراء الفرنساوية مبعوثاً من لدن الامبراطور الى حضرة الامير وقدم اليه نيشان اللجيون دونور المرصع من الرتبة الاولى و بلغه اعتبار الامبراطور وسائر الفرنساوية لمقامه العظيم

صورة المرسوم الممضي بخط ملك بروسيا صحبة النشان

نحن غليوم بنعمة الله تعالى ملك بروسيا الى آخر الالقاب قد منحنا الامير عبد القادر بن محيي الدين نيشان صليب النسر الاحمر من الطبقة الاولى وقد اعطينا ارادتنا هذه لاجل تملكه الحقيقي لهذا الوسام حاوية توقيعنا وامضانا مع الختم الملوكي من بالسبيرج في الثاني عشر من اكتوبر سنة احدى وستين وثمانمائة

وهذه صورة المرسوم الممضي بخط يد قيصر الروس المرسل صحبة النشان

نحن اسكندر الثاني امبراطور وافطركراطور جميع الروسيين الى آخر الالقاب الى الامير عبد القادر اقتضت رغبتنا ان نشهر التفاتنا اليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضته الانسانية واجتهادكم في انقاذ الوف من المسيحيين من اهالي دمشق الذين وجدوا في خطر عظيم اقتضى الحال اننا سميناكم من اعظم فرسان رتبتنا الامبراطورية الملوكانية المشهورة بالنسر الابيض وهذه علامتها واصلة اليكم ونحن لم نزل باقين على المحبة نحوكم بالاعتبار الامبراطوري الملوكي حرر في بطرسبورج في يناير سنة ستين وثمانمائة

وهذا نص تحرير ملك ايتاليا

ان عظيم تصرفكم في امر المسيحيين في الحوادث الشامية قد اثبتت امام اوربا انكم ممن حاز المزايا الحربية العظيمة خصوصاً في الحادثة الدمشقية التي انقذتم فيها النفوس الكثيرة فكان ذلك حلية لنفسكم الكريمة المصطفاة ثم انه يوجد بيني وبينك ايها الامير العزيز مواصلة افرح بذكرها وهي محبة الحرية التي تجعل تابعيها محافظين على العدالة الحقيقية واذا كنت في ايامك السابقة لم يمكنك الحصول على النجاح التام على حسب مرغوبك فهذا لا يكون مانعاً لاكتسابك بالنظر لشجاعتك القوية الاحترام والاعتبار من جانب اهل الحرب المعاصرين

لك والذين يقاتلون في صالح استقلالية الشعوب ونظرًا لشهادتي بهذا الاحترام المخصوص لشخصك الكريم فانا مرسل اليك الان الشريطة الكبرى نيشان موريس والعاذر وهو اقدم نياشين الخيولية والفروسية وهو يسلم لك على يد اثنين من ضباطي وهما الكاواليردى كاستيلونيو والكونت دي كاستيلونيه القادمين الى حضرتك لاجل هذا الامر واني اوصي بهما شديد اعتنائك وارجو ان تصادفك السعادة فيما بين يديك ايها الامير السعيد نظير الندا الذي يقطر من السماء ليعطي الاقبال الى الارض والمأمول قبول هذا الدعاء مني لاجلك في المستقبل كما اني ارجو ان تعتقد تمام محبتي حرر في مدينة تورين بتاريخ سبتمبر سنة ستين وثمانمائة

محبك فيكتور عمانوئيل

﴿ نص ما كتبه ملك اليونان ﴾

نحن اوتون بنعمة الله ملك اليونان قد اعطينا للامير عبد القادر النيشان الكبير رتبة اولى من صنف نيشاننا الملوكي المدعو بنيشان المخلص المؤرخ بوليه سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف وارسلناه اليه ليحمله ويستعمله بمقتضى امرنا وبناء على ذلك اصدرنا له هذا المرسوم ممضيًا منا ثم من وزير بلاطنا الملوكي والتعلقات الخارجية حرر في اثينا بتاريخ سبتمبر سنة ستين وثمانمائة

﴿ نص تحرير قنصل دولة انكلترا في دمشق ﴾

الى عظمة الامير السيد عبد القادر المعروض لسعادتكم انني قد امرت من الحكومة الانكليزية الفخيمة ان ابين لكم حاسيتها الفائقة نظرًا لما اظهرتموه من حقوق الانسانية بتخليص حياة جماعة كبيرة من المسيحيين الذين لولا ذلك لهلكوا بين ايدي اهل القساوة في المذبحة الاخيرة بدمشق وبسلوك عظمتكم عرفت الحكومة الانكليزية مقامكم الرفيع للغاية ثم اعرض ان هذا الشرف الذي صيرني واسطة لتقديم حاسيات دولة انكلترا الفخيمة الى حضرتكم اعتبره شرفًا عظيمًا لا مزيد عليه وقد كنت شاهدت اجتهاد عظمتكم في تخليص عدة اناس كانوا مضطهدين حتى انني حصلت بذلك على حاسيات التعجب والان لي الشرف بان اكون مبلغًا لكم ما سطرته وداعيا لعظمتكم حرر في الرابع والعشرين من اغسطس سنة ستين وثمانمائة من قونصلاتو دولة انكلترا في دمشق وبعد هذا بعثت الملكة بندقية هدية للامير مكتوبًا على ظهر صندوقها من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريتانيا العظمى الى صاحب السمو الامير عبد

القادر تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ستين وثمانمائة .

﴿ نص تحرير الجمعية الفرانماسونية بفرنسا ﴾

الى الامير الاجل عبد القادر في دمشق اعلم ايها الامير ان العالم المتمدن قد كلل هامتكم الشريفة المقدسة باكليل الشرف والافتخار ونحن نقدم اليكم فرحنا بكونكم تسميتم من المحكوم لهم بحسن السيرة من اي فرقة كانوا او دين الذين اظهروا انفسهم بكمال الانسانية وانت قد اظهرت نفسك انساناً قبل الكل ولم تسمع الا الى الهامات ربانية في قلبك امرتك بمقاومة نار مشتعلة من الهيجان البربري والتعصب الجاهلي نعم انك النائب الوحيد للامة القوية العربية التي اوروبا مديونة بقسم عظيم من تمدنها وعلومها التي استنارت بها ولقد اثبت باعمالك وبكريم شيمك ان هذا الجنس لم ينحط اعتباره السابق وهو وان كان الان في سنة من النوم فسيستيقظ للاعمال العظيمة باستدعاء نفس قوية نظير نفسك وانظر فرانسا التي كانت خصيمتك فانها الآن عرفت كيف تعتبرك وتبتهل بك وما ذلك الا لكونك اعطيت للتمدن حقه ايها الامير لك المجد والشكر تكراراً فالاله الذي نسجد له جميعاً والذي عرشه في داخل قلوبنا وقلوب كافة الكرماء يتمم عمله بكم في الخير افلا ننظر الى العناية الالهية بعد تقلبات عديدة كيف اتت بكم الى تلك البلاد لاجل تبديد ظلمات الجهل واطفاء نار التعصب الجاهلي وانقاذ تعيسي الحظ من يد الجهلة واعلم ايها الامير الاجل اننا واثقون بان تقبلوا منا هذه الرسالة وان كانت لا قيمة لها حرر في باريس في الثاني من اكتوبر سنة ستين وثمانمائة واثبات هذا القدر من المكاتيب الواردة على حضرة الامير كفاية ولو تتبعنا تحرير جميعها لافضى الى ما يوجب السآمة والملل وممن مدح الامير على ما اجراه في هذه النازلة من الشعراء العالم الناظم الناثر الشيخ ابراهيم الاحدب نائب المحكمة الشرعية في بيروت فقال .

قلب بنار الاسى والوجد حيران	لجيرة من حمى جيرون قد بانوا
بانوا فبانت مسراتي بهم اسفاً	فلا انثنى بعدهم في روضة بان
عرب باحسانهم قد اعربوا كلفي	غداة تطربني بالوصل الحان
بذلت روحي لادنو من منازلهم	ان المعالي لها الارواح اثمان
وقد الفت بهم خلع العذار ولم	يقبل عذارى فامسى وهو شيبان
يا حبذا عهد نعمان الاراك بهم	ايام انعم لي بالقرب نعمان
ريم اروم التسلي عن هواه وهل	يسلو عن الماء بالنيران ظمآن
لا سالمت بعده آرام ذي سلم	ولاغزتني بالاحداق غزلان

بلؤلؤ الثغر منه كنت ذا فرح … فالآن دمعي بالياقوت مرجان
هل تنطفي نار احشائي بزورته … وتستكن من الاشواق اشجان
كما بهمة عبد القادر انطفأت … في الشام من حادث الايام نيران
شمس من الغرب وافتنا فكان لها … في الشرق نور به الآفاق تزدان
سر من الله قد احيا الانام به … ان كان يبدو لسر الله اعلان
حلت اياديه جيد الكون من عطل … وما تعقده في الدين ايمان
اثاره شامة في الشام قد نفحت … طيبا به ارتاح نسرين وريحان
ذو طلعة فوق نجم المشتري شرفا … وهمة دونها في الافق كيوان
الى النبي غدا يبدي لنا نسباً … في وجهه شاهد منه وبرهان
يا مرتجي الغيث يمم فيض انمله … فتلك للمرتجى جدواه خلجان
يدنيه للمرتجي لطف الجناب كما … يعلو به فوق هام النجم سلطان
وفي العلوم التي ساد الانام بها … لها اياديه بالتحرير اتقان
يا من على البدر اربى نور طلعته … والنجم فيما حوت علياه حيران
من بعد بعدك شمس الغرب قد غربت … وعطلت منه اوطار واوطان
والشرق اشرق فيه من سناك لنا … بدر منير به للحق تبيان
هل تنكر الشام فضلا قد خصصت به … غداة كل كسيف البال ولهان
اذ يوقظ الشر قوم داء جهلهم … اعماهم عن منار الحق طغيان
بذمة المصطفى المختار قد غدروا … وان ذلك للاحسان كفران
شككت في امنهم ناس بما فعلوا … اذ ليس يفعل هذا الفعل انسان
علمت عقبى الذي ابداه جهلهم … وان ذلك في الدارين خسران
فقمت تمنع ما ابدوه تجتهداً … ما فوق ذلك يا مولاي امكان
ورحت تظهر في حجب الدما شيماً … ما حازها قبل قحطان وعدنان
كما حميت العذارى بالظبا كرماً … مطهر النفس ما استغواك شيطان
اذ قد نهى المصطفى عن خفر ذمته … وان يكون لوالي الامر عصيان
ماذا عليك وقد راعيت سنته … ان راح ينكر نشر الورد جعلان
هذا هو الشرف المحض الذي اشتهرت … له مآثر قد امسى لها شان
على السماع بما قد شاع عنك غدت … مشوقة قبل رؤيا العين آذان
امسى لي الشعر سهلاً حين قام به … يبدي مآثرك الحسناء احسان

فاستجلها غادةً رقت محاسنها ⁂ جمالها عن سوى علياك منصان
على ابن سهل معاني لفظها صعبت ⁂ كما ابن هاني بما ابدته منهان
مع انني في زمان لا يقام به ⁂ للشعر سعر وان زانته اوزان
لكن جدك قد سن القبول له ⁂ ايام احسن فيما قال حسان
وانت خير امرىءٍ يقفو مآثره ⁂ لا زلت بدرًا به العلياء تزدان

وقال ايضاً

ماذا تقول بوصفك الشعراء ⁂ وعلاك ترفع اصله الزهراء
والله قد اثنى عليكم بالذي ⁂ قد شرف الثقلين منه ثناء
آل الرسول بكم يبين لنا الهدى ⁂ ويزول عن عين اليقين غشاء
نسل كمثل الصبح لاح لناظر ⁂ ما للصباح عن العيون خفاء
نفحت مآثرك الزكية في الورى ⁂ وتأرجت بثنائك الارجاء
وخلائق المختار فيك تجمعت ⁂ فتشابه الابناء والآباء
فنظرت بالنور المبين الى مدى ⁂ ما ادركت لثرائه الزرقاء
وعداك قد شهدوا بفضلك في الورى ⁂ والفضل ما شهدت به الاعداء
وبلغت بالهمم العلية غاية ⁂ عن درك وصفك تعجز البلغاء
يدنيك للراجي التواضع مع علا ⁂ عين السهى لمناله خوصاء
الله اكبر هذه الشيم التي ⁂ تقفو معالي فضلها الخلفاء
اسفي على ما حل بالشام التي ⁂ هي في البلاد الجنة الخضراء
بلد له الشرف الرفيع وحسنه ⁂ قد افصحت بمديحه الفصحاء
انى التفت ترى اغن مهفهفًا ⁂ تجلو سناه روضة غناء
او غادة يبدو لنا من فرعها ⁂ وجبينها الاصباح والامساء
يا ويح قوم ايقظوا الشر الذي ⁂ قد امَّ عمَّ الشرق منه بلاء
حذرتهم عقبى الفساد فما ارعووا ⁂ فكأنما تحذيرهم اغراء
فسللت من غمد العزيمة صارمًا ⁂ بمضيه في فل الخطوب مضاء
ووضعت اوزار الوغى بحمية ⁂ يحمى سطاها لاذت الوزراء
وفللت حد الخطب منك بهمة ⁂ تصبو لنعت علوها الخطباء
ومهابة وشهامة وحماسة ⁂ كل له فوق النجوم لواء
ما ادرك الجهلاء رشدك فيهم ⁂ عين الجهول عن الهدى عمياء

ما عذر من لم يشكر المولى الذي   صينت بجد حسامه العذراء
شمس من الغرب استنار بها الورى   والشرق منه عمه الاضواء
آيات موسى اظهرت اياته   منها استبان لنا اليد البيضاء
حسن الطوية مخلص في فعله   ان شاء بعض العالمين رياء
متمسك في الدين في افعاله   لم يهوَ بالارشاد منه هواء
يا ابن الذي بسناه شرف آدم   وسمت به شرف الورى حواء
اعرفت سحب الغيث فهي من الحيا   تهمي اذا ما انهل منك نداء
اني قد استشعرت طوق نداك لي   فسجعت فيك كانني الورقاء
وشعرت بالسر الذي اوتيته   فبلغت ما لم تبلغ الشعراء
ولقد وقفت على علاك قصائدي   وقفًا تسجل حكمه العلياء
واليك قد وجهت قبلاً غادة   نطقت بحق ليس فيه مراء
والان قد ارسلت شافعة لها   اذ كان عندك تنجح الشفعاء
حررتها فاتت اليك رقيقةً   ليرى لناظمها لديك ولاء
لم يبقَ في العلياء مطمح ناظرٍ   الا وجاز علاه منك سناء
فلذاك ندعو ان تدوم مخلدًا   ووظيفة العبد الضعيف دعاء

وقال عند حضور نيشان نابليون امبراطور فرانسا

بسهم رأيك يامن عز سلطانا   اصبت من غرض العلياء نيشانا
وحزت بالحزم فخرًا عز نائله   اثار في مهج الاعداء نيرانا
قدر اشم ومجد قد علا شرفًا   يستوقف النجم في معناه حيرانا
عداك ما انكروا فضلاً سموت به   وما استحلوا لما ابديت كفرانا
بل كلهم قد غدا يثني عليك بما   تأرجت منه يامولانا ارجانا
في الشام همة عبد القادر اشتهرت   تبدي لسر الذى اوتيه اعلانا
ما حيلة الشرق الا نشر سودده   فليفخر الغرب علياه به الآنا
بفضله معجزات المصطفى نشرت   اذ جاءنا بالهدى للحق برهانا
يا بحر علم مزج الدهر صح به   غداة كل يعاني منه بحرانا
حتام تعلو وهام النجم تحت ثرى   نعليك مع انه قد جل اركانا
اذا فما الرتب العليا وان عظمت   تزيد قدرك يامولاي امكانا
لم يخط سهمك مرماه لذلك قد   اولتك دولة نابليون نيشانا

221

رأت مساعيك الحسناء قد نجحت ... فاسرعت بالذي اولاك شكرانا
مع ان يغض اياديك الحسان لقد ... عمت جميع اولي الافضال احسانا
لو كافؤك على فعل الجميل بهم ... دعوك فيهم بحكم المجد سلطانا
لكن قصدك نشر العرف تبذله ... كالغيث عم الورى ان فاض هتانا
يا ليت مثلك يوم الدار كان بهم ... غداة اردوا بسيف البغي عثمانا
او كنت في يوم صفين تؤمهم ... اذا لعز دم بالبغي قد هانا
او كنت في قوم نوح داعياً لهم ... كفاهم الله بالايمان طوفانا
او شام فرعون نورا من سناك بدا ... لم يبن صرحاً له مامور هامانا
يا ابن النبي بكم ابدي الغلو وان ... منعته في سواكم اي من كانا
ما قدر قولي في مدح غلوت به ... وفيكم انزل الرحمن قرآنا
آل الرسول بكم تهدى الانام كما ... بحبكم نرتجي فوزاً وغفرانا
احسنت في مدحكم ارجو النجاة به ... فقابلوا بالولا احسان حسانا

ومنهم العالم الفاضل السيد امين الجندي فقال

اليك انتهى المجد الرفيع المؤثل ... وعنك احاديث المكارم تنقل
تفردت في الآفاق بالسؤدد الذي ... على فضله بين الانام المعول
سموت سمو البدر في برج عزه ... ونورك للاكوان مولاي يشمل
الست ابن سلطان الرجال ومن له ... على كل قطب في الوجود التفضل
اما انت من آل النبي كدرة ... تجل فلا يجري عليها التمثل
اما انت كشاف الكروب عن الورى ... ومنجدهم ان حل خطب ومعضل
حماك غدا للناس آية كعبة ... فما عنه للعافين يوماً تنقل
وموردك السامي صفا عن كدورة ... فمنه ذوو الآمال بالبشر تنهل
ظهرت باوصاف الكمال وانما ... لديك انطوى ما بعضه اللب يذهل
ومن ظن يستوفي المديح او الثنا ... عليك اذاً عند التامل يخجل
ولا عجباً فالله جل جلاله ... عليم يرى حيث الرسالة يجعل
ملكت زمام المجد فانقاد مسرعاً ... اليك وقوم حاولوه فحولوا
ملأت قلوب الناس لطفاً وهيبة ... وكل اذاً في بابه جاء يجمل
جمعت الندى للحلم والبأس للتقى ... فانت لمن وافاك ركن ومنهل
تهاب ليوث الغاب في آجامها ... سطاك ويرجو البر منك المؤمل

وقفت على سر الحقيقة فانجلت — لديك عروس الانس بالعز تحجل
وابرزت من كنز العلوم دقائقاً — يعز اليها عن سواك التوصل
حفظت بلاداً كنت فيها مملكا — بعزمك دهراً فيه ذو الحزم يحلل
وحاربت قوماً اهل باس وشدة — لهم بين شجعان الخليقة منزل
وكنت عليهم ظاهراً في مواقف — بها تقف الافكار عجزاً وتخيل
اقر بذا خصم هشمت ذراعه — وهذا هو الفضل الذي ليس يجهل
وفي الشام لما ان بغى الناس واعتدى — على بعضهم بعض بما ليس تقبل
نهضت لاخماد الفساد بهمة — تزيل الرؤس والاسود تجندل
حقنت دماء حرم الشرع سفكها — وصنت من الاعراض ما لا يحلل
بذلت من الاموال وفراً بمثله — يضن سخي الطع والمتمول
صنيعك هذا ليس يقدر قدره — ولا احد حقا له يتوصل
قصدت به مرضاة ربك مخلصاً — وما خاب عبد في رضا الله يعمل
ملوك الورى طراً حبتك علائماً — على شرف في حوزه انت اول
وصيتك عم الخافقين فلا يرى — نكير له في الكون او متأول
كفى اهل هذا العصر عزاً ورفعة — وجودك فيهم ما لذلك معدل
وحق لي التشريف اذ كنت سيدي — ومن اين لي لولا رضاك التوصل
وجدك في سلمان قال مقالة — فقل انت مني بالقبول مجمل
لارفل في قومي بثوبي كرامة — وعز وضدي بالمذلة يرفل
اقل عثراتي واتخذني لمدحكم — هزاراً عليه المدح في الغير ينقل
فما كان من الفي الدراري يصوغها — عقوداً ولا كل الاقاويل تقبل
واني وان قصرت فالعذر واضح — وما زلت عفواً منك مولاي اسأل
فلا زلت ملحوظاً بعين رعاية — من الله ما سار الحجيج يهلل
وما بسط الداعي الا كف لربه — وما قام في جنح الدجا متوسل
وما اشرقت شمس وماهبت الصبا — وما خص بالتسليم في الناس مرسل

ومنهم الشاعر الاديب سليمان افندي صوله فقال

شقيقة الروح ما اجرى الدموع دماً — الا فراقك دان الآل والندما
ولا اطار منامي عن مواطنه — غير الصدود الذي سرت به الخصما
وساق بينك لي روعاً نفى ورعاً — كنت الصؤل به طفلا ومحتلما

سقمان لم ادر تعذيبي بايهما ... سقم اصطباري ام اجفانك السقما
حكمت لي بالهوى والجور عادته ... أاشتكي جوره ام جور من حكما
الله بي فلقد اصبحت في وجلٍ ... لو حلّ ايسره بالزهر ما ابتسما
هيهات لا صبر بعد الهجر يسعفني ... وبعد شهد اللما صبر المشوق لما
ان كنت سالية عهدي فقد شمتت ... بنا الوشات واما ان وصلت فما
اما انا فكما تدرين مكتئبٌ ... لم اسل منك رضابا قد حلا وفما
رضيت بالشوق قوتاً والغرام ردا ... والحب دينا وسلطان الهوى حكما
ان كان بينك ضيقاً فاللقا فرج ... اذا تولاه عبد القادر اقتحما
حامي الشام وقد دارت دوائرها ... وقامت العرب فيها تقتل العجما
وكاشف الضر عنها بعدما عثرت ... اي العثار وحاكت اسدها الغنما
الالمعيّ الابيّ العبقري ابو ال ... اشبال نخبة باقي السادة العظما
السيدالسند الفرد الذي انقسمت ... به العدا وعلاه الفرد ما انقسما
وجاءه من ملوك الارض كل ثنا ... يزري شذاه سحيق المسك منتسما
وانجم من نياشين مكرّمة ... يشف عنها شعاع الماس مبتسما
تسمو الملوك بها قدراً فتحملها ... يوم المفاخر حتى تدرك العظما
يا من تخوف دهراً عاث ارذله ... يمّم حماه تجد مما تخاف حمى
هو الامير الذي فلت صوارمه ... عزائم الدهر لما جار واحتدما
فذا الزمان وحيد العصر خيره ... ثبت الجنان طويل الباع ان هجما
المشبع اقوم اطياراً اذا التمسوا ... والمشبع الطير اقواماً اذا انتقما
در الغمامة الا ان صيبه ... يوم السماحة در يفخر الديما
لو لم يكن اوحدالاوحاد ما اجتمعت ... على مدائحه البادون والقدما
الله يا ابن المعالي بي فقد نهبت ... حوادث الدهر مني ما جمعت وما
وقل صبري وما صبري وقد بلغ الــسيل الربي وتناهى الامر بي عظما
كانت جوائز شعري عندكم ذهباً ... فامنن عليّ بها يا سيدي كما
فاردد بجاهك كيد الحاسدين على ... نحورهم وعلى مداحك النعما

ومنهم الاديب نقولا افندي النقاش البيروتي قال

دع عنك تشبيباً بوصف محاجر ... ودع التغزّل في ظبا وجآذر
واطرب بوصف مناقب ومكارم ... والهج بذكر محامد ومفاخر

شرف الفتى يهوى جميل مناقب — من ان يبيت اسير طرف ساحر
واقصد حما الفيحاء واجثو خاشعاً — في باب كعبة بيت فضل ذاخر
وقل السلام على ربوع غيثها — فضل الامير الشهم عبد القادر
مولى به كملت صفات سميه — فانار فضلاً كل نجم زاهر
مولى له الآساد ترجف خيفة — وتراه يرجف خوف رب قادر
هذا الامام لكل مفضال وكم — عزت بوطئته رؤس منابر
مولاي انت الى البرية كوكب — تهدي الانام بنور فضل باهر
يا كوكباً بالغرب اشرق لامعاً — وسرى لافق ديارنا كالزائر
نعم الزيارة سيدي نلنا بها — من جود كفك بحر خير وافر
وسماء فكرتك السخية امطرت — غيثاً من العلم الشريف الطاهر
يا سعد عبد تابعٌ ارشاد كم — يهدى بنبراس العلوم الزاهر
يا صاح ان رمت السعادة فاتبع — آثاره تحظى بحسن مآثر
واسلك سبيل العدل لاتعدل الى — طرف الضلال سبيل عبد فاجر
وعن اكتساب المجد لا تغفل ولا — تشغلك عن مولاك ذات اساور
واسلك بطوع الله لا تهوى الى — طغيان ابليس اللعين الكافر
نعم الفتى من ليس يجهل بادلاً — وعداً جليلاً بالدنيء الحاضر
ما مجد ذي الدنيا وزينة فخرها — غير التلاهي بالضمير القاصر
والواثق المغرور في اوغادها — مثل الحريص على الخيال الغامر
ومؤمل منها دوام سعادة — وثبات موعدها الخؤن الغادر
كمحاول بين البرية ان يرى — نداً الى مولاي عبد القادر
هذا الامير ابو المعالي والنهى — الطاهر ابن الطاهر ابن الطاهر
ملك حوى النسب الصحيح مسلسلاً — وعلا المعالي كابراً عن كابر
ذو همة عربية وطهارة — حسنية ومهابة كالناصر
حاز الفضيلة والرصافة والحجى — وجمال خلق عن كمال سافر
واذا توالى الحرب يوم كريهة — رد الخميس بعزم زند قادر
يلقى العداة بكل اشهب ضامر — ينساب فوق جماجم ومغافر
فكانهم خلقوا لوطأة نعله — او تربهم من ترب وقع الحافر
تشكو رقابهم الى صمصامه — شكوى الجريح الى العقاب الكاسر

223

والنسر صام اذا دنا من جيشه — يكفيه من قتلى العدو الخاسر
تجثو لسطوته الصفوف مهابة — واذا هم وقفوا فوقفة صاغر
سل عنه آل الشام يوم مصابهم — لما حماهم بالحسام الباتر
يوم به مطر السحاب مصائبًا — ظلما وشمس العدل تحت ستائر
والبيض تلمع والاسنة تشرع — ما بين ذياك العجاج الثائر
والقوم بين مهرول ومجندل — ومذافر ومخاوف ومخاطر
ومواقع ومدامع ومعامع — او هاجد او شارد او نافر
او نادب او هارب او غارب — او صائح او نائح او حاسر
والنار تبتلع الديار باهلها — حتى غدت لجسومهم كمقابر
وحسام مولانا الامير يصونهم — من كل فتاك ظلوم غادر
تلقاه يخترق المعامع منقذًا — غنما غدت في فم ذئب كاسر
حتى اذا ما فاه داع باسمه — فرت جيوش الظلم مثل الطائر
داوى بحكمته الجراح وقد غدا — لعظيم ذاك الكسر اعظم جابر
حقن الدماء وصان عرضًا عاليًا — طوعًا لدين بالديانة آمر
ابدى بهمته العجاب وانما — عجب العجائب فعله بجزائر
سل امة الافرنج عنه في الوغى — ان لم تفه افواه ضرب الباتر
قصدته من اقصى البلاد كبارها — لتفي بمسعاها فروض الزائر
ما عدّ ماجورا فتى ما زاره — هب طاف بالقدس الشريف الطاهر
ياتون سدته الشريفة خشعًا — والقلب يخفق فرحة كالطائر
فيريهم الوجه المكلل بالبها — لطفًا ويشملهم بحسن مآثر
فيرون شهمًا بالمحامد راولاً — يختال بالمجد الرفيع الزاهر
يسري ويومئ بالانامل نحوه — فوق المعالي تحت عقد خناصر
وملائك الرحمن حول جنابه — لتقيه من عين الحسود الغادر
فبعيدهم يتسابقون لحمده — ولمدحه بلسان افصح شاكر
يصفونه وسنا الصواب دليلهم — ما بين اقران وبين عشائر
انى لهم تعداد كل صفاته — وعداهم ادراك بعض الظاهر
وبحصرها قد اعجزت كل الورى — من حاسب او ناظم او ناثر
مولاي هب طال الكلام بمدحكم — فبوصفكم ما زال اقصر قاصر

وانا الذي في وصف غيرك قاصر لكن بمدحك صرت اول شاعر
هذي صفات منك تهديني الى مدح وترشد للفصاحة خاطري
رصعتها دررًا اتت كقلادة ترصيع نقاش خبير ماهر
واتيت اهديها الزمان واهله فغدت لهم كجميل طوق فاخر
يتسابقون لحفظ نظم بديعها يتنافسون بكل بيت عامر
وسناء مدحك ضاء في ابياتها يجلو عن الابصار كل ستائر
يملي فتكتب والعيون قريرة هذا سنا مولاي عبد القادر

ومنهم الاديب اسكندر اغا اباكاريوس البيروتي

فانه الف كتابًا سماه نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان وقدمه الى حضرة الامير ونص ما كتبه بعد الديباجة وترتيب ابواب الكتاب وقد قدمته خدمة الى اعتاب فخر الموالي. وبهجة الايام والليالي. وحيد دهره. وفريد عصره. عمدة الامراء. وتاج الكبراء. من شاعت فضائله في الآفاق. وامتلات بمدائحه وذكر اوصافه الحسنية بطون الصحف والاوراق. ذو الباس الشديد. والرأي السديد. الذي شمله الله بالنعمة. وخصه بالفراسة والحكمة. ومكارم الاخلاق وعلو الهمة ورفعه على اقرانه بالشرف والسيادة. وجعل ايامه السعيدة قرة عين السعادة. الامير المفخم. والهمام المكرم. والشجاع المقدم. والليث الغشمشم. معدن اللطف والكرم. صاحب البند والعلم. الجامع بين شرفي النسب والقلم. مولانا عبد القادر بن محيي الدين الحسني ابقاه الله مدى الدوام. وحرسه من نوائب الليالي والايام. ما غنى الهزار وناح الحمام. بجاه الانبياء عليهم الصلاة والسلام. وبناء على ما شوهد من حسن خصاله. وجودة اخلاقه. وكثرة افضاله. قلت مادحًا مناقبه الفريدة. واوصافه الحميدة بهذه القصيدة

لباب مولاي عبد القادر ابتدرت ابيات مدح اصابت اصدق الكلم
هذا الامير الذي باهى الزمان به والطاهر الاصل والاباء والشيم
انعم به من امير ماجد فطن قد خصه الله بالاحسان والكرم
هذا الامير الذي صارت فضائله في الارض اشهر من نار على علم
مولى له في سماء المجد منزلة رفيعة الشان لم تدرك ولم ترم
فريد عصر تسامى عن مماثله في الحزم والعزم والآراء والهمم
حلو الشمائل ممدوح الخصال وكشـــاف المعاضل ماضي السيف والقلم
ترى المعارف في اعتابه اجتمعت وكل فن من الآداب والحكم

الجاعل العلم مثل الروض مزدهرًا   لما جرت فوقه ايديه كالدّيم
والجاعل الخير نورًا للعيون فما   تخشى الضلال بداجي ليلها العتم
لجوده في البرايا كل مكرمة   وللثناء عليه كل مزدحم
تثني عليه دمشق الشام ما انتشرت   في سفح قيسون ليلاً نفحة الخزم
زهت بهمته العلياء واكتسبت   فخرًا على كل مدن العرب والعجم
اقام ذكرًا الى يوم النشور بها   تكاد تقرؤه الاموات في الرجم
احيى النفوس باذن الله حين كفى   شر العتاة ولم يسمح بسفك دم
اتى به الله كهف المستجير فمن   يحمي نجا كحمام حل في حرم
يا ايها السيد المرهوب جانبه   والمرتجى غوثه في الاعصر الدهم
هاك الكتاب الذي لو كان يمكنه   سعى على الراس طوعًا لا على القدم
يرجو لديك قبولاً طاب مورده   فذاك يحسبه من اعظم النعم
لا زلت في درجات العز مرتقيًا   في صفو عيش رغيد غير منصرم
واسلم ودم ماسرى نجم وما طلعت   شمس وما غرد الشحرور بالنغم

واهدى اليه الاديب رزق الله افندي حسون
ديوانه المسمى بالنفثات وكتب له في ذلك

امولاي عبد القادر السيد الذي   وقانا لوجه الله شانيك ابتر
كتابي وقد اهديته تحفة الى   علاك ليحظى في الورى حين يشهر
واضحى جميل الشعر فيه الثنا على   مكارمك الغرّا مدى الدهر تشكر
هدية عبد يرتجيك قبولها   لسنة جود عن سليمان تذكر
وان كانت النذر القليل فانها   لجملة مالي والمقل ليعذر

وكتب في آخر هذا الديوان قصيدة ذكر فيها رحلته الى القوقاس وختمها بمدح الامير

ومن نوه بذكر الامير في هذا الخصوص الجمعية المعروفة بجمعية
عمل الخير واعانة المصابين في البر والبحر

وهذا نص ما بعثت به اليه : ان جمعية المصابين المؤلفة من اعيان الامصار ووجوه المدن الشهيرة في فرانسا قد اتفقت كلمتها على ان يكون الامير عبد القادر رئيس شرف لها وانما فعلت هذا لتوءكد له عظيم اعتبارها لجنابه الشريف وجزيل

تشكراتها الفائقة لما ابداه من اعمال الخير الجسيمة في سورية سنة ستين وثمانمائة وبناء على ذلك بعثت اليه هذا الرقيم كالشاهد على عقدها لما اتفقت عليه وذلك في باريس آخر يونيو (حزيران) سنة احدى وستين وكانت الجمعية الاميركانية الشهيرة بالشرقية القائمة بتاليف تاريخ العالم سبقت هذه الجمعية الى مثل ما فعلته وارسلت الى الامير نسخة من تقريرها وصورته بناء على تقرير الجمعية الاميركانية الشرقية وعلى قرار المجلس قد اعلنت بتعيين الامير السيد عبد القادر بن محيي الدين عضو شرف لما تتشرف بذكره وبعثت اليه بهذه النسخة المطابقة للاصل اعلانا بما قررته في باريس في الثاني عشر من لوليو (تموز) سنة ستين وثمانمائة والف .

ذكر ما نشرته بعض الجرائد الاوروبية من اخبار الحادثة الشامية

ذكرت جريدة منداباوستمري الفرنساوية في رابع اوغسطس (اب) سنة ستين وثمانمائة تحت عنوان عبد القادر امير معسكر سابقاً ما نصه ان حوادث سورية المحزنة قد اظهرت للوجود اسماً كان محجوباً بغياهب الغربة وهو ذاك الاسم الذي طالما كررته السنة الامة الفرنساوية بالرجفة والاضطراب هو ذلك الاسم المرسوم باحرف دموية من شاطئ نهر شلف الى رمال الصحراء في الجزائر وقد ايدت له قناصل الدول ونصارى دمشق الشكران الجميل في سورية وبذلك انكشف عن مزاياه الحجاب الذي كان ساترًا لها وغدونا جميعًا نتبارك باسم عبد القادر وهو الذي اقتحم الاخطار لاجل اولئك المساكين من ايدي سافكي الدماء ثم جمعهم في قصره وافاض عليهم من سجال كرمه وبره وقام فرسان المغاربة الامناء بمساعدته احسن قيام فبذلوا وسعهم في انقاذ المسيحيين وحمايتهم من اعتداء سفهاء الشام والدروز هو ذلك الرجل الذي كان يلوح على وجهه من امارات الثبات وعلامات الحزم والفطنة ما يدل على شرفه واتصال نسبه بالرسول هو ذلك الرجل الذي اقام في منفاه سنين ولم يتغير عما كان عليه من المحافظة على الاوامر الشرعية واداء الحقوق الثابتة للانسانية هو ذلك الرجل الذي كان عدوًا لدولة فرنسا واقام مدة سبع عشرة سنة ينادي بالجهاد فيها ثم ان ما نسبه اليه اعداؤه من الافعال الغير اللائقة كقتل الاسرى والحنث في اليمين الى غير ذلك مما نسبوه اليه ويأباه طبعه الكريم قد كذبه تحريره الشهير الذي بعثه الى لويس فيليب ملك فرانسا الدال على كرم اخلاقه ولطف جانبه وكانت وقتئذٍ نيران الحرب مضطرمة بشدة لا مزيد عليها ومن جملة ما ذكره في ذلك المكتوب قوله اني اريد منك ايها الملك ان توافقني على اجراء الفدية في

اسرانا واسراكم فلم يجبه الملك ثم أعاد طلبه هذا ثانياً وثالثاً فلم يجبه ثم بعد سنين في آخر امره شاع في فرانسا ان جنوداً فرنسوية وقعت اسرى في يد العرب وانهم قتلوا اشر قتلة وان ذلك كان بامر الامير وهذه الحادثة كانت في دائرة الامير في بلاد مراكش وهو غائب عنها في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر ولما بلغه خبر هذه القضية واتصل به ما نسب اليه من الامر بالقتل كتب الى حكام الجزائر يقول من العجب انكم تنسبون الينا ما وقع بالاسرى مع انكم تعلمون علم اليقين ومشاهدة العين باني بعيد عن الدائرة بمسافة مائة وثلاثين ساعة للراكب المجد في السير فظهر من هذا ان الامير لم يأمر بقتل الاساري وان تاخره عن قصاص الذين قتلوهم في غيبته بغير اذنه انما كان لعجز سلطته اذ ذاك وعدم طاعة العرب لكلمته وغاية الامر فان مزايا الامير واخلاقه الكريمة كانت دليلاً على شرف نفسه وتقدمه في الجزائر كما هو الان في سورية وبرهاناً قوياً على طهارة قلبه وارادته الخير الى سائر عباد الله وعند انتهاء امره وطي بساط ملكه كتب الى الجنرال لامور يس قائد الجيوش الفرنساوية يقول انني حاربتكم مدة طويلة والان يمكنني ان الحق ببلاد الصحراء واستمر فيما كنت عليه من قتالكم وشن الغارة على البلاد التي تغلبتم عليها الا انني تخليت عن ذلك فان كان يمكنكم ان تحملوني باهلي ومن معي الى الاسكندرية او الى عكا فانا اسلم لكم سيفي فاجابه الجنرال الى ذلك واعطاه فيه ميثاقاً وعهداً باسم فرانسا وموافقة ابن الملك حاكم الجزائر وقتئذ الدوك دومال ثم اتفق له نظير ما حصل لنابوليون الاول فانه لما انكسر في الحرب وسلم ذاته للانكليز عدلوا به عن مدنهم وامصارهم ونفوه الى جزيرة القديسة هيلانة وفيها مات والامير عبد القادر بعد ان استند الى عهد ابن الملك وسلم نفسه اليه اخذه اسيراً الى طولون ولكن الباري تعالى اتاح له احد ورثة نابوليون الاول فبادر عند جلوسه على عرش امبراطورية فرانسا الى تسريحه وتخلية سبيله وفاء بعهد فرانسا وحفظاً على شرفها وعلى كل حال فنحن نبذل الجهد في اداء الشكر للامير على ما اظهره من العناية في حق المسيحيين ولحضرة الامبراطور نابليون الثالث لمحافظته على شرف فرانسا

وذكرت جريدة اخرى ما نصه انه يوجد في ذات عبد القادر شخصان احدهما امير الجزائر والعدو المخيف للفرنسيس من ثلاثين وثمانمائة الى سنة سبع واربعين والثاني الامير الموجود الآن في سورية المخلص لالوف من النفوس في حادثة دمشق المهولة سنة ستين فالامير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين

مختلفتين وامسى الفرنسويون مديونين له بدين هم مجبورون على ادائه له الامير عبد القادر هو ذلك الرجل الباسل الذي ابدى اموراً واعمالاً لم يكن احد يتصورها ولذلك كانت جديرة بان تدون في اجمل تواريخ العالم واخر ما نقول ان عدونا القديم في الجزائر قد جعله الله الان سبباً لانقاذ المسيحيين في الشام

(وذكرت غيرها) ما صورته الامير عبد القادر هو رجل مشهور في العالم دافع عن وطنه وحريته ثم حكم عليه القدر الالهي فسلم لاعدائه فنقلوه الى بلادهم على خلاف الشرط الذي اشترطه عليهم وجعلته حكومتهم اسيرا آيساً مدة سنين غير ان شهماً من سلالة ملوكهم المشهورين كان يضاهيه في النباهة اعطاه حين رآه برهاناً وثيقاً وعهداً متيناً على ان يخلصه ثم وفى بعهده وخلصه من تقلبات الايام وذلك عند انقلاب الحكومة وارتقائه على كرسيها فبسلطة ذلك البرنس الذي صار امبراطوراً ارجعت الامير الى حريته التي طالما دافع عنها ثم اصبح ناصراً للاسلام واطفأ عن اهله نار فتنة عظيمة وذلك بواسطة دوران دولاب سعده واضحى في مركز قوي في العالم وركناً بين عظمائه وصار يخاطب من الملوك بالالقاب الموضوعة لاعظم المشاهير وكيف لا وقد دافع عن الذمار والذمة وحافظ على مقام الوفاء بكرامة كما عمل في بداية امره في وطنه وبالجملة ان سيرته الحميدة لا شبيه لها في التاريخ

(وفي هذا) القدر من كلام الجرائد كفاية وقد كان بين الامير والشيخ شمويل الداغستاني مواصلة ومراسلة ولما بلغه خبر الحادثة كتب اليه يصوب فعله وهو اذ ذاك محجور عليه عند دولة روسيا ونص كتابه الى من اشتهر بين الخواص والعوام. وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الانام. الذي اطفأ نار الفتنة قبل الهيجان. واستأصل شجرة العدوان. رأسها كأنه رأس شيطان. المحب المخلص السيد عبد القادر المنصف السلام عليكم وبعد فقد قرع سمعي ما تمجه السماع. وتنفر عنه الطباع. من انه وقع هناك بين المسلمين والمعاهدين ما لا ينبغي وقوعه من اهل الاسلام وربما كان يفضي الى امتداد العناد بين العباد في تلك البلاد ولذلك عند سماعه اقشعر منه جلدي وعبست طلاقة وجهي وقلت ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس وقد تعجبت كيف عمي من اراد الخوض في تلك الفتنة العظيمة من الولاة عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من ظلم معاهداً او انتقصه حقه او كلفه فوق طاقته او اخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيامة وهو حديث حسن ثم لما سمعت

انك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدى حدود الله تعالى واخذت قصب السبق في مضمار الثناء واستحقيت لذلك رضيت عنك والله تعالى يرضيك يوم لا ينفع مال ولا بنون لانك احييت ما قال الرسول العظيم الذي ارسله الله رحمة للعالمين ووضعت من يتجرأ على سنته بالمخالفة نعوذ بالله من تجاوز حدود الله ولكوني ممتلاءً بالرضى عنك كتبت هذه الرسالة اليك اعلاماً بذلك والسلام

حرر سنة سبع وسبعين ومائتين والف شمويل الغريب

فاجابه الامير بقوله الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر اخوانه من النبيين والمرسلين انه من الفقير الى مولاه الغني عبد القادر بن محيي الدين الحسني الى الاخ في الله تعالى والمحب من اجله الامام شمويل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل وسلام الله عليكم ورحمته وبعد فانه وصلني الاعز كتابكم وسرني الالذ خطابكم والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا من حماية اهل الذمة والعهد والذب عن انفسهم واعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو كما في كريم علمكم مقتضى اوامر الشريعة السنية والمروءة الانسانية فان شريعتنا متممة لمكارم الاخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لائتلاف اشتمال الاذواق على الاعناق والبغي في كل الملل مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم ولكن

يقضى على المرء في ايام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فانا لله وانا اليه راجعون على فقد اهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين حتى صار يظن من لا علم له ان اصل دين الاسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة فصبر جميل والله المستعان ومنذ زمان بلغنا وصولكم عند ملك روسيا وانه فعل معكم ما هو اهله من الاحسان وانزلكم من الاكرام ارفع منزل ومكان وسمعنا انكم طلبتم منه تسريحكم الى الحرمين الشريفين فنسال الله ان يجيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم وامبراطور روسيا من اعظم ملوك الارض شاناً واحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الارب بلا نصب ولا تعب كما فعل معنا الامبراطور نابليون الثالث فانه فعل معنا من سنيّ الافعال ما لم يخطر لاحد في بال والمرجو في الحقيقة هو الله المعبود لا معبود سواه

حرر في اول جمادى الاولى سنة سبع وسبعين ومائتين والف وفي سنة اثنين وثمانين فكتب الى الامير ما نصه

الى ذي النسب الطاهر واللب الباهر السيد عبد القادر عليكم السلام الاسنى

ولكم الدعوات الحسنى اما بعد فقد بلغنا مكتوبكم الشريف فرضيت عنكم والله تعالى يرضى عنكم حيث انكم ذكرتموني بخير ثم ان ما بلغكم من طلبي من الامبراطور الفخيم ان يأذن لي في زيارة الحرمين الشريفين والسكنى في الحجاز او القدس الشريف هو كما بلغكم واني مترقب دائماً حصول اربي هذا من جانبه السامي ومشتاق الى المواطن المباركة طول عمري وخصوصاً الآن حيث اني بلغت من العمر سبعين سنة وضعفت قوى نفسي وانا خائف من حلول اجلي قبل حصول املي مع انه ليس لي مقصود آخر من الدنيا اعلا واهم من ذلك ثم الموت على الايمان في الحرمين مهبط الوحي والغفران واني اوصيكم بالدعاء لنا والسلام كتبه في بلدة كالوكه اخوكم في الله تعالى الشيخ الهرم الداعي لكم كثيراً محمد شمويل وقد اجاب الله دعاءه حيث انتقل الى الحجاز وتوفي في المدينة المنورة ثم في سنة ثلاث وتسعين بعث ولده الى الامير ما نصه

(بعد) حمد الله والصلاة على رسوله وآله الى اكرم الكرماء واشرف الشرفاء والحائز لشرفي الحسب والنسب سلالة سيد المرسلين المختص بمزيد العناية من الملك المعين الغازي السيد عبد القادر بن محي الدين السلام عليكم والرحمة من الله والرضوان بحرمة سيد الانس والجان آمين اما بعد فلما طال انقطاع تخابرتنا وعدم اطلاعنا على احوال ذاتكم العلية واخباركم الشريفة البهية ارسلنا هذا مستخبرين عن احوالكم الكريمة عسى الله ان يحفظكم مما يوجب الحزن مدى الدهور والاعوام بحرمة سيد الانام وكنا قبل هذا ارسلنا مكتوباً في مقابلة مكتوبكم السامي الذي تشرفنا به في السنة الماضية فلعل الله ان يجمعنا عن قريب هذا واننا نتوقع المحاربة بين الدولة العلية والروسية بالنظر الى القرائن الظاهرة فنسأل الله ان يرزق النصر لاهل الاسلام لاحياء شريعة سيد الانام وان وقعت هذه المحاربة نعسى الله ان يرزقنا فيها اللقاء بالملاء الاعلى ويجعلنا من اهل الجهاد والسلام من الفقير الغازي محمد بن محمد شمويل

ذكر توجه الامير الى حمص وحماه

لم يزل الامير منذ قدم الى دمشق متعطشا الى زيارة السيدين الجليلين سيف الله خالد بن الوليد وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما وكثيراً ما كان اهل حمص وحماه يدعونه الى ذلك وهو يعدهم ويصف لهم ما هو عليه من التشوق الى زيارة تلك المشاهد المباركة والتبرك بها الى ان تهيأت الاسباب ولما بلغ اهل حمص

خبره استقبله خارجها الخواص والعوام واحتفلوا لقدومه ولاول وصوله فاتحه العالم الفاضل السيد خالد افندي الاناسي بقصيدة امتدحه بها وهي قوله

حمد ربي بدت بافق المنـاء   شمس انس جلت دياجي العناء
وغدا الروض ذا افترار يفـ   ـتر اذا ما بكت عيون السماء
فكان القرنفل الاحمر الغض   اذا فتقته ايدي النـداء
جنت من ياقوتة فوق غصن   ينثني من زبرجد مصفاء
ليت شعري وليتني كنت ادري   ما بذا الروض قد بدا للرائي
اعيون ام نرجس ووجوه   ام بـدور ام نجوم الجوزاء
وغصون تمايلت ام قدود   ووجينات ام شقائق الرمـاء
لا تلمني اذا خلعت عذاري   يا عذولي فذاك عين اهتداء
كيف لا اخلع الاعنة جهراً   طربا بين السادة الندماء
ومدام السرور في كؤوس البشـ   ـر سقيناها من اكف الظباء
لو ترى النهر يصفق من ايـ   ـناسه مـا عذلتني بغناء
او ترى الكون راقصاً من سرور   كنت اولى بخلع ثوب الحياء
انني مذ رأيت اكناف حمص   تتجلى بايكهـا المفياء
وثغوراً لها تبسم بشراً   وهي تيهـاً تجر ذيل الهناء
وهزاراً بهـا يغني حبوراً   في رياض لها برصد الصباء
سلها عن تجاهل لا جهـ   ـل فشمس الضحى بدت عن خفاء
ناشدتها علامَ تيهك قالت   حق لي حق لي ورب السماء
انت يا منشدي اناشدك الله   فنادي مصرحاً بالنداء
مرحباً مرحباً واهلاً وسهلاً   بالامام الهمام ذي العليـاء
هو بحر العلوم درة عقد الـ   ـمجد فخر الوجود كنز العطاء
جهبذ قد زكا زكاءً وابدى   من سنا هديه ضياء ذكاء
قد سما نسبة لبيت رسول الله   ـه نحى بعين سين وراء
هو مغني اللبيب في قطر لفظ   يمنح الدرّ للمربد الشائي
من مراقي فلاحه نور ايضا   ح بدا كالمنار في الظلماء
قد كسا منطق البديع بياناً   ليس ينحوه افقـه البلغاء
فاذا عنعن الحديث يقول ار   ويه عن جدي سيد الانبياء

يا له سيداً واكرم به مو … لى له طأطأت رؤوس العلاء
يا هماماً بدا لمقدمك الزا … هي هلال الصفا بنور الهناء
عش سعيداً انت المجاهد في الله … ولا زلت اسعد السعداء
ليس ينسى العدا منك ماذا … قوا وينسون طعم كأس الرداء
طالما اذقتهم كأس حتف … من يد البيض والقنا السمراء
يا رعى الله راحتيك فكم … ادارت لتمزيقهم رحى الهيجاء
جئت مستمطراً سحابك ارجو … ك دعاء في الغيب يا مولائي
فالسماء قبلة الدعاء ولكن … انت افديك قبلة للسماء
جل من اوجب المحبة فيكم … آل طه وخصكم بالثناء
حبكم سرى في دمي نعسى احـ … شر مع من احب يوم الجزاء
ياهلالاً نراه في الارض يبدو … وحواليه انجم الاهتداء
هاك بكراً من خدر فكر تبدت … تتجلى وبرقعت بالحياء
قد تغنت بمدح علياك لكن … ترتجي العفو عن قصور الثناء
خاب فكر اللبيب ثم وحارت … في مزاياك السن البلغاء
فاقبل العذر سيدي من عبيد … ما له طاقة لمس السماء
فهي بكر لك زفت تنادي … ان مهري تجرد الاغضاء
وصلاة الصلاة تهدى دواماً … لنبي محى سطور العناء
مع اصحابه الصباح وآل … اطلعوا طالع الهدى والتقاء
ما شدا خالد الاناسي جهراً … حمد ربي بدت بافق الهناء

وبعد ان زار مشهد سيدنا خالد رضي الله عنه توجه الى دير سمعان فزار ضريح سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم سار الى حماه فدخلها في احتفال عظيم ونزل عند مفتيها الفاضل شيخ السجادة القادرية بها السيد محمد افندى الازهري بالمنتزه المعروف بالطيارة ولما رأى الامير الناعورة الموجودة فيه انشد قائلاً

وناعورة ناشدتها عن حنينها … حنين الحوار والدموع تسيل
فقالت وابدت عذرها بقلما … وللصدق آيات عليه دليل
الست تراني القم الثدي لحظة … وادفع عنه والبلاء طويل
وحالي كحال العشق بات تحالفاً … يدور بدار الحب وهو ذليل
يطاطئ حزناً رأسه بتذلل … ويرفع اخرى والعويل عويل

وقد حصل له في حمص وحماه ونواحيهما من حميد الذكر وجميل النشر ما لا تزال الرواة تدرسه والتواريخ تحرسه وبعد ان اقام في حماه اياماً في اكرام واحترام عند اهلها خصوصاً اولاد القطب الغوث الرباني سيدنا عبد القادر الجيلاني ثم توجه الى بعلبك وهي مدينة قديمة شهيرة فرای من ابنية هيكلها وآثار الاقدمين فيه ما بهر افكاره وعند وصوله اليها اتى الخبر بانتقال ساكن الجنان السلطان الغازي عبد المجيد خان وارتقاء اخيه السلطان عبد العزيز خان على سرير الخلافة فحصل له من الحزن والكدر على هذا المصاب العظيم والرزء الجسيم ما يعجز عن وصفه القلم واللسان وتذكر نعمته عليه واحسانه اليه وسر بادالته باخيه ولما اجتمع اهل البلدة واصطفت العساكر السلطانية المخيمة فيها وقتئذ للقيام بشعائر التعزية ثم التهنئة تقدم حاكم البلد واعيانها الى الامير وقدموه للدعاء فدعا بما يناسب الحالين وندب الى الصبر والرضى وعزى في امير المؤمنين خليفة الله ثم هنأ بامير الذي اعطى خلافة الله والعاقل من قبل من الله افضل العطية وصبر له على اعظم الرزية وبعد ان اقام في تلك البلدة اياماً رجع الى دمشق وفي آخر سنة ثمان وسبعين توفيت الى رحمة الله تعالى والدته جدتي السيدة الجليلة الشريفة الاثيلة الصالحة الطاهرة السيدة زهرا ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية عن ثمانين سنة فعظم عليه مصابها وبعد رجوعه من دفنها بمقبرة الدحداح جلس في الطريق للاستراحة فقال له بعض من كان معه ارفق بنفسك قال له كيف ذلك وانا فقدت من كان يحبني على وجه الارض وقدم الاديب سليمان افندي صوله الى حضرته مرثية وهي قوله

جاورت يالحدها في الشام يحياها … وانت ياروحها بشراك في طه
ولا اقول اختفى في الرمس هيكلها … لكن اقول سماء الشمس موطاها
وهل تغيب الثريا في الثرى ومتى … اقول هذا الثرى للشمس وارها
وكيف تحتجب الاملاك في جدث … وقد يراها على الافلاك مولاها
يا يوم ام امير المؤمنين لقد … اجريت وابل اجفاني لجدواها
كانت دموعي من الياقوت جامدة … اذبتها من جوى قلبي فاجراها
ما كنت احسب ان الشام تفقدها … ولا افوه به حتى فقدناها
وكنت اعجب من سير الجبال اذا … تسير يوماً فمذ سارت رأيناها
ياويل نفس عليها لا تذوب اسى … ومقلة لا يذيب الدمع جفناها
ان النفوس التي تفنى اسى وجوى … في طاعة الله تسمو ان مدحناها

وحق ما قدمت لله من عمل   لو جاورته الليالي السود ازهاها
لو شاهدت حالنا من بعدها لبكت   عنا وقالت كفى فليبك من تاها
من كان يعلم ان الموت غايته   كيف استراح لها يوماً وآخاها
تباً لغرّارة تباً لزائلة   تباً لدار تساقينا رزاياها
تذيقنا المشرب المسموم نحسبه   شهداً وما هو الا سم افعاها
ومن يحقق بان الموت موعده   يجفو الدنية لا يهفو لمغناها
كما جفت بضعة المختار ما كرهت   اباؤها وابت عفو مولاها
وكيف تدهشها الدنيا بزينتها   وجدها ترك الدنيا والقاها
ان التي انتقلت كالشمس واخترقت   كواكب الزهر واختارت لها الله
تلك التي تمنح الاقمار طلعتها   وتودع الطيب طيباً ما ذكرناها
اضحى التراب بديلا عن غلائلها   وجامدات الحصا اسنى خباياها
واعتاضت الطيب عن طيب الحياة وما   طيب الحياة باذكى من سجاياها
يا بضعة المصطفى الدنيا وما وسعت   تاهت بليل حداد عم اجزاها
على ضريحك ما ناحت مطوّقة   تبكي السماء باسخاها وانقاها
ولا تعدى السحاب الجون معشبة   من رحمة الله تحواك طواياها
وانت يا كوكب الدنيا وبهجتها   وخير من شق للرحمن افواها
صبراً كما صبر الابرار لا برحت   علاك تخترق الدنيا ببهاها
تالله ان عيون المجد قد رمدت   ولوثت بدم الاكباد انقاها
على مصاب كصاب صابنا فكوى   منا القلوب فاشواها واقلاها
ما حيلة المرء والايام غادرة   هذى عوائدها ساءت سجاياها
هذا الفراق فراق الدهر اجمعه   فراق من بعد طول العمر تلقاها
فراق والدة سمحاء طاهرة   غراء لا ينكر المحراب تقواها
تسعى ملائكة الباري برحمتها   سعي العفاة التي تبغى عطاياها
فاءت بنشاتها الاولى مكرمة   والله يكرم فرعاً اصله طه
وخلفت خلفاً احيي مآثرها   ولو يشاء باذن الله احياها
ليعمل العاملون العز ما عملت   من صالحات لعل الله يرضاها
كفاك مولاي في الاسلام تعزية   ان المنية كاس الحق نقاها
ابوك آدم والهادي ترشفها   وسوف ترشف الدنيا بقاياها

فثق بربك عادات عرفت بها ... واضرع تنال من الخيرات اوفاها
كفاك ياخاف الاعلام واحدها ... شر اللئام واعمى عنك اعناها
ولا ازال الردى من عمرنا اجلاً ... حتى نراك على الاعداء تياها
ولا برحت طويل العمر وافره ... تثاب خير ثواب يا فتى طه

ذكر توجه الامير الى الحجاز

كان اهم شيء عند الامير بعد خروجه من فرنسا حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم عليه افضل الصلاة واتم السلام والتبرك بتلك المعاهد الشريفة والمشاهد المباركة المنيفة وما كان يمنعه من المبادرة الى ذلك الا ما كان من امر والدته المسنة فانه كان يخدمها بنفسه ويغتنم مشاهدتها ومجالستها والقيام بشؤنها اناء الليل واطراف النهار ولم يزل على ذلك الى ان توفيت رحمها الله راضية عنه داعية له ثم انه تفرغ الى ما كان مهتماً به وبعد استكمال اهبة السفر خرج من دمشق واصحب معه السيد سليم حمزة والشيخ عبد الغني الميداني وقره محمد وعبد القادر بن رابح قاصداً الحجاز في اول رجب سنة تسع وسبعين وركب البحر من بيروت الى الاسكندرية فاستقبلته اعيان الحكومة وقناصل الدول بغاية الاعظام والاكرام ومنها توجه الى مصر لزيارة المشهد الحسيني وضريح الامام الشافعي رضي الله عنهما وغيرهما من مشاهد اهل البيت والاولياء والعلماء المشاهير فاستقبله اعيان الحكومة والعلماء وقناصل الدول وانزله خديويها سعيد باشا عنده واجزل ضيافته واكرامه واحتفل طوسون باشا ابن سعيد باشا بمأدبة عظيمة اتخذها لوالده ودعاه اليها فكتب سعيد باشا الى الامير يخبره بذلك ويدعوه الى الحضور معه عند ولده

ونص ما كتبه : الى حضرة الامير والسيد الافضل الاجل ذي المفاخر والمآثر السيد عبد القادر بسم الله خير الاسماء وحمداً على نعمه لا نحصي ثناء كما اثنى هو على ذاته الاسمى الذي الف قلوب المؤمنين وداً ورحماً وصلاة وسلاماً على نبيه الذي لم يسمع في تبليغ ما امر به لومة لائم وسن لامته اخلاص المودة فيما بينهم بصنع الولائم وعلى آله واصحابه المتادبين بآدابه وبعد فان ولدنا طوسون باشا حلاه الله بحلية الادب والاخلاق الكريمة احب استجلاب حسن الرضا منا فصنع لنا وليمة شكراً لله على ما بلغه من العمر العام العاشر وتشكراً لنا على توسيع ثروته بالايراد الوافر وحيث ان حضرتكم لكم من مودتنا اوفى نصيب وحضوركم يحصل منه ما يحصل

من لقاء المحب للحبيب فان تفضلتم بالاجابة فانعم المشرف والمجيب ويكون تشريفكم غداً يوم الجمعة التاسع عشر من رجب فصفو الود هو الذي حمل على تحرير هذه النميقة واوجب حرر في ثامن عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين والف

ثم لم ينشب سعيد باشا ان توفي وتولى مكانه اسماعيل باشا وقد دعي الامير كثير من الاعيان والوجوه واحتفلوا لضيافته ودعاه رئيس شركة ترعة السويس مسيو فرديناند دولسيس وجماعته وامعنوا في اكرامه واحترامه وبعد ان اقام اياماً في تلك النواحي في اعزاز واجلال توجه الى القنال وركب منه الى الاسماعيلية ثم ركب الدواب الى مرسى السويس وتوجه الى جدة في الوابور وعند وصوله الى جدة بعث اليه شريف مكة واميرها السيد عبد الله باشا يخبره بانه مستعد لاستقباله في الاحتفال والابهة خارج مكة المشرفة فاجابه الامير انه لا يقبل ذلك وانما يريد ان يدخلها دخول عبد منكسر الى بيت مولاه فدخلها وعلامة القبول لائحة واشارات الدنو والزلفى واضحة وتلقاه الشريف عبد الله باشا بعد ان اتم عمرته وانزله بالمدرسة المجاورة للمسجد الحرام المعظم من الناحية الجنوبية القريبة من التكية المصرية وفي اليوم الثاني جاءه الاشراف والعلماء الاعلام والافاضل والاعيان للسلام عليه ولاول وصوله كتب اليَّ يخبرني بما اتفق له في رحلته كلها من الشام الى مكة المكرمة وكتب الى سائر الاحباب ومن جملتهم صاحب السيادة السيد محمود افندي حمزة مفتي دمشق فاجابه بما نصه

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبيَّ بعده من الفقير صاحب التقصير محمود الى مولاي وقدوتي العارف السيد عبد القادر اعلا الله في مقام المعرفة درجاته وامدَّني دنيا واخرى بامداداته واعاد عليَّ وعلى المسلمين من صالح دعواته آمين اما بعد حمد الله تعالى بمحامد تليق من عظمته لكماله والتضرع له سبحانه وتعالى ان لا يحرمني بواسطتكم مشاهدة جماله فانني تشرفت بورود كتابكم وتمتعت بلذيذ خطابكم حيث وافى وكنت اشتكي الم الفراق الصوري متوجعاً من وحشتي وقصوري فسرى به نوع مما بي وخفف بعض اوصابي وكان وصوله لديَّ قبل وروده الى الشام بخمسة ايام وذلك انني رايت نفسي في عالم المنام كانني اعطيت كتاباً ورد من حضرتكم بخط مغربي وانا اقراه وافهم معناه من منطوقه وفحواه فانتبهت وعند الصباح اخبرت نجل مولانا السيد محمد بذلك فقال نعم قد تعبرت الرؤيا بورود كتاب لنا البارحة بعد العشاء من اتباع مولانا يخبرون به عن وصوله وتم ما هنالك ثم بعد

مرور خمسة ايام حضر السيد محمد وافاد ان تعبير الرؤيا الان صح وهذا هو المكتوب فلما فككته وتشرفت بتلاوته ومبانيه ووقفت فكري في الفاظه ومعانيه قلت الآن صحت الرؤيا وحصلت الامنية العليا وتمليت من عباراته وفهمت على قدر طاقتي ما تيسر من اشاراته وحمدت الباري سبحانه وتعالى أن كنت في خاطركم ملحوظاً بعين توجهاتكم اذ ذلك بفضل الله ذخري وارجوه سبحانه التوفيق لعمل بمقتضاه وسلوكاً على نهج قضاه ورضاه

بيذل نفوس في الهوى شاد سادتي ... وضيعت بالتقصير نيل مرامي
لقد وهبوا منهم نفوساً زكية ... فنالوا مقام القرب اي مقام
واقعدني امساك نفسي حقيرة ... وساعده امر عظيم مرام
فمن لي بنفس يا خليلي كريمة ... فابذلها نقداً لوصل كرام

فآه ثم آه لو حصل انتشط من رباط ولكن الواثق احكم والامر اعظم والقلم جف والوسائط ترغب والقاهر اغلب والعذر مردود تأباه العهود والسبب موجود والعجب انه منقود اذا ساقني اشاقني او ادناني ناداني واذا قصدت نقد وجدت كل ذلك حق واعتقد انه صدق . مفاوز حارت في تيهها عقول الفحول ودانت لها مذعنة بالعجز عن ادراكها اعناق المعقول والمنقول فارجو من احسانكم ملاحظتي دائماً والدعاء لي بالهداية وحصول العناية والوصول الى الغاية فهو تعالى جواد كريم ذو الفضل العميم ادام الله تعالى نفعكم للعموم والخصوص من المسلمين وكان لامير لما وصل الى جدة كتب الى رئيس شركة السويس ونائبه وغيرهما يخبرهم بوصوله اليه فكتب اليه نائب الرئيس وهو المباشر للاعمال في القنال ما نصه : الى حضرة فخر الاماجد الكرام وقدوة ذوي الفضل الفخام الامير السيد عبد القادر بن محيي الدين حفظه الله تعالى مدى الدوام غب بث اشواق وفية لمشاهدة طلعتكم البهية اعرض انني بينما كنت مترقباً لاستماع اخباركم السارة اذ في ابرك وقت ورد عليّ طرسكم الكريم حاوياً بشائر سلامة اقنومكم الفخيم ووصولكم الى جدة فحمدت الله على ذلك وشكرت افضال سيادتكم على ما ابديتموه لنحوي من اللطف العظيم بتحريركم اليّ ذلك الرقيم ولا يخفى انني دائماً اترنم بحسن اخلاقكم وكمال اوصافكم بحيث انكم لم تبرحوا من بالي ولم يفتر لساني عن ذكركم والان واصلكم طي هذا الكتاب مكتوب من جناب مسيو دولسيبس ومن اطلاعكم عليه يتضح لديكم ان حضرته مقدم لسيادتكم الارض المدعوة بيير بو بلح وفيها قصر للسكنى وجنينة ومزارع

متسعة وهذه الارض هي المكان الذي تلاقى فيه نبيُّ الله يعقوب مع ابنه نبيّ الله يوسف عليهما السلام وهو مبارك لما فيه من التذكرة الفضيلة ومسيو دوليسبس لحسن اعتقاده في سيادتكم يحكم بان بحضوركم تحضر البركات والخيرات العميمة فلذلك اراد ان يهديكم الارض المذكورة لتكون مسكناً مباركاً لكم ولذريتكم و يكون هو قريباً منكم وسيادتكم ما رأيتم الارض المشار اليها لما مررتم في البرزخ فهي كائنة في الترعة الحلوة من النيل المبارك بالقرب من الموضع المعروف بالتمساح فاذا حسن موقعها عندكم فالمناء اسيادتكم بها والبشرى لنا بجوارکم ثم واصلكم صورة ذاتكم وجرنال فرنساوي مصور به ايضاً مروركم في البرزخ وسعادة والي مصر الجديد قد اظهر الميل الكلي الى نحو ترعة السويس اكثر من سلفه سعيد باشا ونخبركم ان الامبراطور نابليون لما بلغه انكم مررتم في البرزخ سر بذلك كثيراً والله تعالى يحفظكم حرر في شوال سنة تسع وسبعين ومائتين والف

﴿ ذكر السؤال الذي وجهه الامير لعلماء مصر ﴾

ثم ارسل الى علماء مصر ما نصه : الحمد لله المالكية قالوا ثبت بالتواتر ان ستة اذرع او نحوها من الحجر من البيت والشافعية قالوا ثبت ظناً لا تواتراً ووجود التواتر عند احدى الطائفتين دون الاخرى مستبعد في مثل هذا وايضاً نقل القسطلاني عن ابن رشيد ان الشاذروان لم يرد له ذكر في خبر صحيح ولا سقيم ولا يذكره احد من قدماء المالكية واول من ذكره منهم ابن شاش وتبعه ابن الحاجب قال وهو مأخوذ من الشافعية بلا شك فهل هذا مسلم من ابن رشيد ام لا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(فاجاب عنه العالم العلامة الشيخ حسن العدوي بقوله) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل بيته الحرام مثابة للناس وامناً . نحن اليه منهم في عالم الاشباح من لبّ في عالم الارواح فضلاً ومنا . والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك صفوة مخلوقاتك حسناً ومعنى . وعلى آله واصحابه الذين احرزوا قصبات السبق في مضمار تلبية الاجابة فصاروا نجوم الهدى كفاحاً وضمناً . وعلى انصاره الذين بذلت اطفالهم مهجهم في محبته واظهار دينه القويم علماً لا ظناً . فانتدبوا بالسيوف ابا جهل وهو في صف الكفر حتى نظموه في سلك الرميم وما ضنت كبارهم بذلك ضناً . ولا سيما من اقتفى اثرهم في ذلك الجهاد الاصغر مع الاكبر قرنّ مجد عزه في

231

الخافقين رنا. وبعد فيقول اسير الشهوات. وكثير الهفوات. حسن العدوي الحمزاوي انه لما كان من اعظم المنن الربانية والمواهب الرحمانية الوقوف على اصول السنة المحمدية. انبعث خاطر ذي الهمة السامية العلية. والنفس الحيدرية الزكية. سيد علماء زمانه. وبدر بدور اقرانه. انسان عين العرفان. ورافع لواء معالم الشريعة في السر والاعلان. الاستاذ المعظم. وامير الامراء المفخم. السيد عبد القادر ابن السيد محيي الدين المغربي الواسطي الراشدي منشاء المجاهد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله طالباً منا الجواب عن مسئلتين شرعيتين على سوءال ورد منه الينا مرسل من مكة المشرفة بخطابه الشريف. وخطه المنيف. فتشرفت وسررت حين اطلاعي عليه ووفق الرحمن لسرعة تحرير المقصود له ليكون عدة بين يديه وقبل تبيض الجواب على السوءال تصادف الاجتماع مع بعض الافاضل الاعلام. وكان عنده اشعار بحضور السوءال فبادرني هل حررت المقصود من الجواب فقلت نعم غير انه للان ما رسم وكان ذلك بحضرة ذى المجد الاثيل. والقدر الجليل. جرثوم الحسب والنسب الاصيل. بدر بدور العصابة الصديقية. وشمس نقباء السلالة الهاشمية. فخر الاشراف السيد علي افندي البكري فحمله حسن ذهنه فينا حين وقف على حقيقة السوءال الوارد من حضرة السيد المشار اليه آنفاً على ان اجعل لذلك الجواب رسالة مستقلة كما هو الاليق مع ذاك الجناب الفخيم ورجاء ان يكون بها النفع للمسلمين فانشرح لذلك صدري وقلت سمعاً وطاعة ولا سيما اجابة اسيدين فلعل وعسى ببركتهما تكون وصلة عند سيد الكونين ورتبتها على ثلاثة ابواب وخاتمة جاعلاً لكل مذهب من الثلاث مالك والشافعي وابى حنيفة النعمان فصلاً يخصه في كل باب من البابين الاولين. وسميتها كنز المطالب في فضل البيت وفي الحجر والشاذروان وما في زيارة القبر الشريف من المآرب. الباب الاول فيما يتعلق بالحجر الحرام وبيان حده وهل هو من البيت او خارجه وهل كونه من البيت ثبت تواتراً او ظناً. الباب الثاني فيما يتعلق بالشاذروان هل هو من البيت او خارجه وهل ورد في السنة ما يدل عليه وهل ما نقله الامام القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن رشيد تصغير رشد من المالكية ان الشاذروان لم يرد له ذكر في خبر صحيح ولا سقيم ولم يذكره احد من قدماء المالكية غير ابن شاش وتبعه ابن الحاجب قال وهو ماخوذ من الشافعية مسلم عن ابن رشد موافقاً لمذهب مالك او المذهب على خلافه وهذا مضمون السوءال الوارد الينا من الاستاذ ولفظه الشريف بخطه المنيف الحمد لله الى آخر

السؤال المتقدم بحروفه ثم قال ثم استطردت باباً ثالثاً في بيان اول من بنى البيت وكم مرة بني وذكر بعض الآثار الدالة على فضله وما يتعلق باركان الحج وواجباته وسننه في المذاهب الثلاث المتقدم ذكرها تتميماً للفائدة وخاتمة تتعلق بفضل الحرم المدني وزيارة سيد العالمين وصاحبيه المطلوبة على وجه الكمال والادب واسال الله العظيم متوسلاً اليه بوجاهة وجه نبيه الكريم ان يتفضل عليها بالقبول وان تكون لجواب السؤال هي المامول ولنشرع الآن فيما قصدنا على الترتيب السابق فاقول وبالله التوفيق لاقوم طريق

الفصل الاول من الباب الاول

في تحقيق جواب ماذكر على مذهب مالك اعلم ان الذي عليه التحقيق والمعول في مذهبه ان الحجر كله من البيت وان تحديده من الامام خليل بستة اذرع يقتضي صحة الطواف عند غايتها ولو كان خارجه ومعتمد المذهب خلافه ونص العلامة الامير في مجموعه وخروج جميعه اي الطائف عن الحجر واقتصار الاصل على ستة اذرع ضعيف اه ونص الشيخ عبد الباقي علي قول العلامة خليل وخروج كل البدن عن الشاذروان وستة ازرع من البيت تبع المصنف في التحديد بالستة اذرع الامام اللخمي ولكن الظاهر من قول مالك في المدونة ولا يعتد بما طافه داخل الحجر انه لا بد له من الخروج عن جميع الحجر لان ذلك شامل للستة اذرع وما زاد عليها قال وهو الذي يظهر من كلام اصحابنا ولطوافه عليه الصلاة والسلام من ورائه وقال خذوا عني مناسككم اه قال المحقق البناني في حاشيته عليه فعلم ان ما درج عليه الامام خليل في مختصره تبعاً للامام اللخمي طريقة مرجوحة والراجح وجوب الطواف من وراء الحجر اه وقال صاحب الطراز سئل مالك عن ممر الطائف في الحجر فقال ليس ذلك بطواف فان الطواف انما شرع بجميع البيت اجماعاً فاذا سلك في طوافه الحجر او على جداره او على شاذروان البيت لم يعتد بذلك وهو قول الجمهور لانه لم يطف بجميع الكعبة قال وقد صين ذلك بالحواجز لاستكمال الطواف اه ولعل اشارة الاستاذ السيد عبد القادر الى زيادة او نحوها بعد تحديد الامام خليل بالستة اذرع جري منه على المعتمد فلله دره ما اكمله في دقة فهمه مع ادبه في شان الائمة اقول ولكونه من البيت قيس عليه في صحة النفل فيه دون الفرض قال الامام خليل وصح نفل فيها وفي الحجر اي النفل لاي جهة ومعتمد المذهب رجوع التعميم

للبيت لا للحجر فلذا قال الامام عبد الباقي ناقلا عن الحطاب قال الذي ادين الله به واعتقده انه لا يجوز لاحد ان يستدبر القبلة اي الكعبة و يستقبل الشام ويجعله عن يمينه او عن يساره وطريقة الامام اللخمي الصحة لمن استقبل من الحجر القدر الذي تواتر انه من البيت وهو الستة اذرع واحتج بذلك بعض الشراح رداً على الحطاب القائل بعدم الصحة وقال بصحة من صلى النفل داخل الحجر ولو استدبر القبلة او شرق او غرب قال وهو مردود لما نقله ابن عرفة عن اللخمي ان صريح كلامه انه صلى خارج الحجر مستقبلاً له وكلام الحطاب في الصلاة داخله على ان ما قاله الامام اللخمي ضعيف ولا يجوز ولا يصح النفل مستقبلاً للحجر مستدبراً للبيت فاولى من صلى فيه قال ولا يحسن الرد على الحطاب بكلام اللخمي لما علمت من اختلاف الموضوع بين المقيس والمقيس عليه على ان ما قاله اللخمي ضعيف والقول بعدم الصحة هو المعتمد اه وقال الامام البناني على قول خليل وفي الحجر لاي جهة قال الامام الرماصي متعقباً لكلام الحطاب قد يقال لا وجه لعدم ظهور الصحة لنص المالكية كابن عرفة وغيره على ان حكم الصلاة فيه كالبيت وقد نصوا على الجواز في البيت ولو لبابه مفتوحاً وهو في هذه الحالة غير مستقبل شيئاً وكذا يقال في الحجر على ما يقتضيه التشبيه اه قلت وفيه نظر لان ما نقله الحطاب صريح في ترجيح منع الصلاة الى الحجر خارجه كما دل عليه كلام عياض والقرافي وصرح ابن جماعة بانه مذهب المالكية خلافاً للخمي وح فمنع الصلاة فيه اولى من الصلاة خارجه والله اعلم اه وقال العلامة الدسوقي في حاشيته على عبد الباقي صرح الحطاب بعدم صلاة من صلى في الحجر لغير الكعبة مستدبراً لها فقال له الشيخ سالم السنهوري كيف هذا مع ان اللخمي صرح بان من كان خارجاً عن الحجر يجوز له ان يستقبل في صلاته ستة اذرع من الحجر المقطوع بكونها من ظاهره ولو كان مستدبراً للكعبة وح فيقاس عليه من كان في الحجر فيجوز له استدبار القبلة والصلاة فيه الى ان قال لكن يقال ان كلام اللخمي ضعيف فما قيس عليه كذلك وح فالحق ما قاله الحطاب اه الى هنا انتهى تحرير المقام في كون الحجر من البيت واما قول الاستاذ السيد في اوّل سوءاله المالكية قالوا ثبت بالتواتر ان ستة اذرع او نحوها من الحجر من البيت والشافعية يثبتون ذلك ظناً مستبعداً لوجود التواتر عند احدى الطائفتين دون الاخرى لان التواتر يفيد القطع فلا يكون ظنياً فهو مبني على طريقة مرجوحة في المذهب الامام اللخمي

والراجح انه ظني لكونه لم يرو الا عن السيدة عائشة ولم يثبت في الصحيحين ولا في باقي السنن المشهورة نقله عن غيرها فهو حديث آحاد ونص الامام المحقق البناني على قول الشيخ عبد الباقي حكاية عن اللخمي استقبل من الحجر القدر الذي تواتر انه من البيت الخ قوله تواتر انه من البيت فيه نظر بل كلام ابن رشد الذي في الحطاب صريح في عدم تواتره ولذا قال الشيوخ لا نعلم انه رواه من البيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير السيدة عائشة رضي الله عنها مع البحث عنه اه وقال العلامة الدسوقي على عبد الباقي قد يقال ان قول اللخمي سابقًا من استقبل القدر الذي تواتر الخ يقتضي القطع لكونه قبلة لان التواتر يفيد القطع وبعد ذلك فالحق ان كون الستة اذرع من البيت انما ثبت بالآحاد لا بالتواتر اه فتخصيص السيدة عائشة في الموطا والصحيحين و باقي السنن المشهورة برهان قاطع على عدم التواتر ونص الموطاء عن مالك عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة ام المؤمنين ما ابالي اصليت في الحجر ام في البيت وحديث البخاري ومسلم عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر بالفتح لغة في الجدار اي الحجر من البيت هو قال نعم قال الحافظ العسقلاني ظاهره ان الحجر كله من البيت قال و به كان يفتي ابن عباس كما رواه عبد الرزاق ورواية الترمذي والنسائي وابي داوود وابن عوان بطرق كلهم عن عائشة قالت كنت احب ان اصلي في البيت فاخذ صلى الله عليه وسلم بيدي وادخلني الحجر وقال صلي فيه فانما هو قطعة من البيت ولكن قومك اقتصروه حين بنوا البيت فاخرجوه من البيت الى ان قال الحافظ والاحاديث المطلقة متواترة على سبب واحد وهو ان قريشًا قصروا عن بناء ابراهيم وان ابن الزبير اعاده على بناء ابراهيم وان الحجاج اعاده على بناء قريش قال ولم تات رواية قط صريحة ان جميع الحجر من بناء ابراهيم في البيت اه وفي الامام الزرقاني على الموطاء اتفق العلماء على وجوب الطواف من وراء الحجر كما حكاه ابن عبد البر ونقل غيره انه لا يعرف في الاحاديث المرفوعة ولا عن احد من الصحابة فمن بعدهم انه طاف من داخل الحجر وكان عملاً مستمرًا قال العلامة المذكور وهذا لا يقتضي ان جميع الحجر من البيت فلعله احتياطًا والعمل لا يقطع بالوجوب لاحتمال الندب اه اذا علمت ما تحرر و بالنصوص تقرر لك ان ثبوت كونه من البيت ظني لا تواترًا وح فما بناه الاستاذ في اول سؤاله من كونه ثبت عند المالكية تواترًا جري على طريقة مرجوحة للامام اللخمي وح فلا خلاف بين مالك والشافعي فلا تناقض ولا استبعاد حينئذ والله تعالى اعلم

233

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في تحقيق ما ذكر على مذهب سيدنا وولي نعمتنا الامام الشافعي)

فنصوص المذهب قاطعة بان الحجر جميعه من البيت وكذلك الشاذروان وعبارة المنهاج للامام النووي ولو مشى على الشاذروان او مس الجدار في موازاته او دخل من احدى فتحتي الحجر وخرج من الاخرى لم تصح طوفته قال المحقق ابن حجر في تحفته عليه وهو اي الشاذروان بعض جدار البيت نقصه ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما من عرض الاساس لما وصل ارض المطاف لمصلحة البناء ثم سنم بالرخام لان اكثر العامة كان يطوف عليه ومن ثم صنف المحب الطبري في وجوب ذلك التسنيم صونا لطواف العامة وهو من الجهة الغربية واليمانية وكذا من جهة الباب قال كما حررته في الحاشية قال واستثناء ماعدا الركن اليماني منه لانه على القواعد يرد بان كونه كذلك لا يمنع النقص من عرضه عند ارتفاع البناء وهذا هو المراد بالشاذروان في الجميع فهو عام في كلها حتى عند الحجر الاسود وعند اليماني وقوله او مس الجدار في موزاة اي الشاذروان اي مسامتته له او دخل شيء من بدنه قال وكذا ملبوسه على احد التأويلين والراجح عدم الضرر وقوله او دخل من احدى فتحتي الحجر بكسر اوله ما بين الركنين الشاميين على جدار البيت اصين بينه وبين كل من الركنين فتحة كان زريبة لغنم اسماعيل وروى انه دفن فيه ويسمى حطيما لكن الاشهر ان الحطيم ما بين الحجر الاسود ومقام ابراهيم وقوله وخرج من الاخرى اي فلو وضع انملته على طرف جدار الحجر القصير كما يفعله كثير من العامة لم تصح طوفته اي بعضها الذي قارنه ذلك المس او الدخول لانه ح طائف في البيت لا به المذكور في الآية اما في الاولى فلأن هواء الشاذروان من البيت كما علم من التعريف واما في الحجر فهو وان لم يكن فيه من البيت الا ستة اذرع او سبعة لكن الغالب على الحج التعبد وهو صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ومن بعدهم لم يطوفوا الا خارجه فوجب اتباعهم فيه اه بلفظه قلت ويحرر الجمع بين قوله نقصه ابن الزبير مع ما سبق لك عن الحافظ العسقلاني في الفتح ان الاحاديث متواترة على سبب واحد وهو ان قريشا قصروا عن بناء ابراهيم وان ابن الزبير اعاده على بناء ابراهيم وان الحجاج اعاده على بناء قريش اه فصريح الاحاديث على ان النقص منها وقع في بناء قريش لا بناء ابن الزبير ولعل الجمع بان الذي نقصته

قريش فقط هو الحجر ويشهد له حديث البخاري ومسلم المتقدم عن السيدة عائشة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر بالفتح لغة في الجدار كما تقدم اي الحجر كما صرح به شراح البخاري والامام الزرقاني على الموطاء حيث فسروه بذلك فقط فيحمل اعادة ابن الزبير له على قواعد ابراهيم على الحجر خاصة واما الشاذروان فابقاه على ما كان عليه من قريش فيكون معنى نقصه ابن الزبير اي ابقاه على نقصه غاية الأمر انه سنمه بالرخام خوفاً من طواف العامة عليه وهذا صريح قول ابن حجر في تحفته وفي حاشيته عليها في قوله السابق نقصه بن الزبير رضي الله تعالى عنهما من عرض الاساس لما وصل ارض المطاف لمصلحة البناء ثم سنم بالرخام الى آخر ما تقدم له ونصه في حاشيته ان قريشاً لما ثبت البيت على هيئته التي هو عليها اليوم نقصوا عرض الجدار لما ارتفع على وجه الارض لانهم لم يجدوا من الاموال الطيبة ما يفي بالنفقة وتركوا من جانب هذين الركنين بعضاً واخرجوها عن قواعد ابراهيم عليه الصلاة والسلام وجعلوا على ذلك البعض وما زاد عليه جداراً قصيراً وهو المسمى بالحجر فهما ليسا موضوعين على قواعد الاركان التي وضعها كما في اليمانيين وان كانا موضوعين على اساس البيت بوقوع البناء الذي حصل التركيب به على الاساس الذي اسسه اذ الركن عبارة عن ملتقى طرفي جدارين وكل منهما موضوع على اس سيدنا ابراهيم كما هو جلي وانما لم يراعوا ذلك لان الاستلام بالاركان المخصوصة لا لنفس البيت ولما وضع من الاركان على اساسه ومن ثم لما بناه ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما من جهة الحجر على القواعد استلمت الاركان فنقص الجدار عن عرضه لا سيما بعد ارتفاعه ولا يخرج كون اليمانيين موضوعين على قواعد ابراهيم صلى الله عليه وسلم اه وعبارة شيخ الاسلام في منهجه وشرحه عليه وثالثها جعل البيت عن يساره ماراً تلقاء وجهه فيجب كونه خارجاً بكل بدنه عنه حتى شاذ روانه وحجره الاتباع مع خبر مسلم خذوا عنى مناسككم قال فان خالف شيئاً من ذلك كان استقبل البيت او استدبره او جعله عن يمينه او عن يساره ورجع القهقرى نحو الركن اليماني لم يصح طوافه والحجر بكسر الحاء ويسمى حطيماً المحوط بين الركنين الشاميين بجدار قصير بينه وبين كل من الركنين فتحة قال المحشى البجيرمي قوله بكل بدنه فلو مس البيت بيده مثلاً او ادخل جزأ منه في هواء الشاذروان او هواء غيره من اجزاء البيت لم يصح بعض طوفته وليس الثوب كالبدن على المعتمد خلافاً للشوبري وقوله شاذروانه بفتح الذال المعجمة وهو الخارج عن عرض جدار البيت مرتفعاً عن وجه الارض قدر ثلثي ذراع تركته قريش عند بنائهم له لضيق النفقة اي لقلة الدراهم

234

الحلال التي يصرفونها في البناء والله اعلم اه تصريح هذا من شيخ الاسلام قاطع بان نقص الشاذروان كان حاصلاً في بناء قريش كما نقصت الحجر غير ان الذي اعاده ابن الزبير هو الحجر فقط ويقوي هذا الجمع قول الامام الزرقاني على الموطأ فلما قتل ابن الزبير شاور الحجاج عبد الملك بن مروان في نقض بناء ابن الزبير فكتب اليه اما ما زاد في طولها فاقره واما ما زاده في الحجر فرده الى بنائه وسد الباب الذي فتحه فنعل كما في مسلم عن عطاء اسال الله الكريم ان يتفضل علينا بالعطايا الربانية بجاه خير البرية صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وازواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرف وعظم كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

الفصل الثالث

في مذهب الامام الاعظم ابي حنيفه النعمان رحمه الله

فالحجر عنده باتفاق المذهب من البيت ويجب ان يكون الطواف وراءه وح فقد توافق فيه المذاهب الثلاث وانما الخلاف في نهايته هل ستة اذرع او سبع او ست وشبر ومع ذلك يجب ان يكون الطواف من ورائه باتفاق الجميع لحديث مسلم خذوا عني مناسككم ولم يطف صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون الامن خلفه وعبارة الدر قالوا ويمر بجميع بدنه على جميع الحجر جاعلا قبل شروعه ردائه تحت ابطه ملقياطرفه على كتفه الايسر استمنانا ووراء الحطيم وجوباً لان منه ستة اذرع من البيت فلو طاف من الفرجة لم يجز كاستقباله احتياطاً وبه قبر اسماعيل وهاجر وعبارة المحقق ابن عابدين عليه قوله قالوا الخ . قال في البحر ولما كان الابتداء من الحجر واجباً كان الابتداء في الطواف من الجهة التي فيها الركن اليماني قريباً من الحجر الاسود متعيناً ليكون ماراً بجميع بدنه على الحجر الاسود وكثيراً من العوام شاهدناهم يبتدؤن الطواف وبعض الحجر خارج عن طوافهم فاحذروه اه . فان قلت هذه الكيفية عن اللباب وانها مستحبة لا متعينا وبه صرح في فتح القدير ايضاً وفي الشرنبلالي بعد ما مرَّ عن البحر هذا اذا لم يكن في قيامه مسامتاً للحجر بان وقف جهة الملتزم ومال ببعض جسده ليقبل الحجر اما من قام مسامتاً بجسده الحجر فقد دخل في ذلك شيء من الركن اليماني لان الحجر ركن وركنه لا يبلغ عرض جسد المسامت له وبه لا يحصل الابتداء من الحجر اه . قلت لكن لا يحصل به المرور بجميع البدن على الحجر لكن قد علمت انه غير لازم عندنا ولعل الشارح اشار الى ضعفه

بلفظ قالوا وقوله وراء الحطيم قال المحشي العلامة المذكور ويسمى حظيرة اسماعيل وهو البقعة التي تحت الميزاب عليها حاجز كنصف دائرة بينها وبين البيت فرجة سمي بالحطيم لانه حطم من البيت اي كسر و بالحجر لانه حجر منه وقوله لان منه ستة اذرع من البيت لفظة من خبران مقدماً وستة اسمها مؤخراً ومن البيت صفة ستة والتقدير بان ستة كائنة من البيت ثابتة منه او من حال من ستة مقدم عليه ومن البيت خبره وهو جائز كقوله لمية موحشاً طلل قلت والثاني اظهر فافهم قال في الفتح وليس الحجر كله من البيت بل ستة اذرع منه فقط لحديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ستة اذرع من الحجر من البيت وما زاد ليس من البيت رواه مسلم قوله لم يجز بفتح اوله وضم ثانيه من الجواز بمعنى الحل لا الصحة او بضم اوله وسكون ثانيه من الاجزاء اي على وجه الكمال قال القاري في شرح النقاية ولو طاف من الفرجة لا يجزؤه في تحقيق كماله ولا بد من اعادة الطواف كله لتحققه وان اعاد من الحطيم وحده اجزأه بان يأخذ عن يمينه خارج الحجر حتى ينتهي الى آخره ثم يدخل الحجر من الفرجة ويخرج من الجانب الآخر او لا يدخل الحجر وهو افضل بان يرجع ويبتدأ من اول الحجر هكذا يفعل سبع مرات ويقفي صفته من رمل وغيره ولو لم يعد صح طوافه ووجب عليه دم اه قوله كاستقباله اي فانه اذا استقبله المصلي لم تصح صلاته لان فريضة استقبال الكعبة ثبتت بالنص القطعي وكون الحطيم من الكعبة ثبتت بالاحاد فصار كانه من الكعبة من وجه دون وجه فكان الاحتياط في وجوب الطواف وراءه في عدم صحة استقباله والتشبيه يمكن تصحيحه على الوجهين اللذين ذكرناهما في قوله لم يجز مع قطع النظر عن المفهوم فافهم قوله وبه قبر اسماعيل وهاجر عزاه في البحر الى غاية البيان وذكر بعضهم ان ابن الجوزي اورد ان قبر اسماعيل فيما بين الميزاب الى ما بين الحجر الغربي آه اذا علمت هذا تبين لك في المذاهب الثلاث انه يجب خروج جميع البدن عن جميع الحجر ولو على القول بانه ستة اذرع فقط لما علمت انه عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون فمن بعدهم الى وقتنا هذا لم يطف احد منهم داخل الحجر فهو امر تعبدي وقال عليه الصلاة والسلام خذوا عني مناسككم وان كونه من البيت ثبت بالآحاد عند المذاهب الثلاث لا تواتراً والله اعلم

الباب الثاني

فيما يتعلق بالشاذروان

هل هو من البيت او خارجه وهل ورد في السنة ما يدل عليه وهل ما نقله الامام القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن رشيد تصغير رشد من المالكية ان الشاذروان وان لم يرد له ذكر في خبر صحيح ولا سقيم ولم يذكره احد من قدماء المالكية غير ابن شاس وتبعه ابن الحاجب قال وهو مأخوذ من الشافعية مسلم عن ابن رشيد موافقاً لمذهب مالك او المذهب على خلافه وهذا مضمون السؤال الثاني الوارد الينا من الاستاذ وفيه فصول ثلاث

الفصل الاول

في تحقيق ذلك على مذهب مالك فاقول وبالله التوفيق ان جمهور المذهب على ان الشاذروان من البيت فمن طاف ببعض شيء منه من داخله بان ادخل يده في هويه بطل طوافه وهذا هو الذي عليه الاعتماد والمعول في المذهب وخلافه لا يلتفت اليه فلذا اقتصر عليه العلامة خليل في متنه وخاتمة المحققين الامير في مجموعه ولم يذكروا فيه خلافاً بل اقتصر جميع الشراح مع المتون قديماً وحديثاً على وجوب خروج جميع البدن عن الشاذروان ونص العلامة خليل وخروج كل البدن عن الشاذروان ونص العلامة الخرشي عليه قال والمعنى انه يجب على الطائف بالبيت ان يجعل بدنه في طوافه خارجاً عن الشاذروان وهو البناء المحدودب في اساس البيت وذلك شرط في صحة طوافه والمعتمد عند المؤلف ان الشاذروان من البيت معتمد على ما قاله سند وابن شاس ومن تبعهما كابن الحاجب والقرافي وابن جزى وابن جماعة التونسي وابن عبد السلام وابن هارون في شرح المدونة وابن راشد في اللباب وابن معلا والتادلي وابن فرحون ونقله ابن عرفه ولم يتعقبه وتبعه الابي وهو المعتمد عند الشافعية قال وانكر كونه من البيت جماعة من متاخري المالكية والشافعية فممن بالغ في انكاره من المالكية الخطيب ابو عبدالله بن رشيد مصغر رشد اه ونص المجموع وخروج جميعه اي الطائف عن جميع الحجر والشاذروان فيعتدل المقبل اه ونص العلامة الدسوقي على الشرح الكبير على قول العلامة الدردير لو طاف ويده على الشاذروان لم يصح اي لدخول بعض يده في هوي البيت وما ذكره من ان الشاذروان من البيت هو الذي عليه الاكثر من المالكية والشافعية وذهب

بعضهم الى انه ليس من البيت قال الحطاب وبالجملة فقد كثر الاضطراب في الشاذروان وصرح جماعة من الائمة المقتدى بهم بانه من البيت فيجب على الشخص الاحتراز منه في طوافه وانه اذا طاف و بعض بدنه في هويه ان يعيد مادام بمكة فان لم يذكر ذلك حتى بعد من مكة فينبغي انه لا يلزمه الرجوع مراعاة لمن يقول انه ليس من البيت اه اذا علمت هذا ظهر لك ان ما نقله الامام القسطلاني عنه انه لم يقل به احد من قدماء المالكية غير مسلم لابن رشيد لما علمت مما نقله الامام الخرشي عن الائمة الاعيان و قول الحطاب وصرح جماعة من الائمة المقتدى بهم بانه من البيت فكيف ينظر لقول ابن رشيد انه لم يذكره احد من قدماء المالكية مع هؤلاء الائمة المتقدم ذكرهم آنفاً ولذا اقتصر عليه الامام خليل بقوله وخروج كل البدن عن الشاذروان ومثله الامام الامير والامام الدردير ولم يذكروا خلافاً فضلاً عن اعتباره مرجوحاً فلو كان لقول ابن رشيد قوة في المذهب لنبهوا على وجود الخلاف في المتون كما هو القواعد المقررة في ذلك فعدم التفاتهم اليه راساً دليل على عدم اعتباره فخ ارتكان الامام القسطلاني على القول بانه ليس من البيت تعويلاً على ما لابن رشيد نظراً لما اطلع عليه فقط والا فها هي شروح المذهب ومتونه ناطقة بكونه من البيت وهم حجة في النقل فالواجب علينا اتباع ما نقلوه واعتمدوه ولم يعولوا على خلافه والله تعالى يرشدنا جميعاً لاتباع الحق والصواب بجاه سيد الاحباب صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

﴿ الفصل الثاني ﴾

في تحقيق ذلك على مذهب الامام الشافعي

قد سبق لك ما يفيدك بالنص الصريح ان الشاذروان من البيت وعبارة المنهاج السابقة للامام النووي ولو مشى على الشاذروان او مس الجدار في موازاته اي مسامتته له او ادخل شيئاً من بدنه لم تصح طوفته وعبارة شيخ الاسلام في منهجه فيجب كونه خارجاً بكل بدنه عنه حتى شاذروانه وحجره للاتباع مع خبر مسلم خذوا عني مناسككم قال فان خالف شيئاً من ذلك لم يصح طوافه قال المحشي البجيرمي قوله بكل بدنه فلو مس البيت بيده مثلاً او ادخل جزأ منه في هواء الشاذروان او هواء غيره من اجزاء البيت لم يصح بعض طوفته وليس الثوب كالبدن على المعتمد خلافاً للشوبري وقوله شاذروانه بفتح الذال المعجمة وهو الخارج عن عرض جدار البيت مرتفعاً عن وجه الارض قدر ثلثي ذراع تركته قريش عند بنائهم له لضيق النفقة اي قلة الدراهم الحلال التي يصرفونها في البناء والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفصل الثالث

في تحقيق كون الشاذروان من البيت او خارجه عند الامام ابي حنيفة النعمان وعلى كل هل يجب خروج بدنه عنه ولو على القول بانه ليس منه قال المحقق ابن عابدين الشاذروان هو الافريز المسنم الخارج عن عرض جدار البيت قدر ثلثي ذراع قيل انه من البيت حين عمرته قريش كالحطيم وهو ليس منه عندنا لكن ينبغي ان يكون طوافه وراءه خروجاً من الخلاف كما في الفتح واللباب وغيرهم اه اذا علمت هذا تبين لك انه في المذاهب الثلاث يجب خروج جميع بدنه عن جميع الحجر والشاذروان وغير ان الشاذروان عند ابي حنيفة ليس من البيت وانما وجوب خروج جميع البدن عنه عنده احتياطاً مراعاة لمذهب الغير وان ثبوت كون الحجر من البيت ظني عند المذاهب الثلاث لا تواترا لما علمت سابقاً انه لم يرو الا عن السيدة عائشة فح توافق في الحجر مالك والشافعي وابو حنيفة على انه من البيت وثبت ظنا وكذلك الشاذروان عند مالك والشافعي وعند ابي حنيفة ليس منه ومنشأ الخلاف مبني على الخلاف في فهم قوله عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة ان قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد ابراهيم فالذي عليه الجمهور من مذهب مالك والشافعي ان الاقتصار عن قواعد ابراهيم شامل لما ترك من الحجر ومن الشاذروان وخصه الامام الاعظم بالحجر دون الشاذروان وحديث الصحيحين رضي الله عنهما يشهد بظاهره لابي حنيفة بالتخصيص ونصه عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر اي الحجر أمن البيت هو قال نعم قلت فما له لم يدخلوه في البيت قال ان قومك قصرت بهم النفقة قلت فما شأن بابه مرتفعاً قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وحديث مسلم عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة اذرع من الحجر من البيت وما زاد ليس منه ورواية الترمذي والنسائي وابي داوود بطرق كلهم عن عائشة قالت كنت احب ان اصلي في البيت فاخذ صلى الله عليه وسلم بيدي وادخلني الحجر وقال صلي فيه فانما هو قطعة من البيت ولكن قومك اقتصروا حين بنوا البيت واخرجوه من البيت وفي شرح الامام الزرقاني على الموطأ رواية عن صحيح مسلم قالت قال صلى الله عليه وسلم ان قومك اقتصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك اعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدي ان يبنوه فهلمي لاريك ما تركوا منه فاراها قريباً من سبعة اذرع وفي الشرح المذكور انه لا تنافي بين رواية سبعة اذرع ورواية ستة اذرع وخمسة اذرع فان رواية الاقل

اريد بها ما عدا الفرجة التي بين الركن والحجر قال وهذا الجمع اولى من دعوى الاضطراب والطعن لان شرط الاضطراب ان تتساوى الوجوه بحيث يتعذر الترجيح او الجمع ولم يتعذر هنا واطلاق اسم الكل على البعض شائع تجازاً قاله الحافظ في الفتح فهذه الاحاديث ظاهرها تقوي ما للامام ابي حنيفة ورواية الاطلاق استند اليها مالك والشافعي كما في الصحيحين ونصها لولا ان قومك حديثوا عهد بجاهلية لامرت بالبيت فهدم فادخلت فيه ما اخرج منه والزقته بالارض وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به اساس ابراهيم قال خاتمة الحفاظ الامام العسقلاني في الفتح وفي الحديث فوائد منها انه يترك ما هو صواب خوف وقوع مفسدة اشد ومنها استئلاف الناس الى الايمان ومنها اجتناب ولي الامر ما يتسارع الناس الى انكاره وما يخشى منه تولد الضرر عليه في دين او دنيا وتألف قلوبهم لما لا يترك فيه امر واجب كمساعدتهم على ترك الزكاة وشبه ذلك وتقديم الاهم على الاهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة وانهما اذا تعارضتا بدئ بدفع المفسدة ويؤخذ منه ايضاً حديث الرجل مع اهله في الامور العامة وفيه رد الذرائع ونقل الامام ابن بطال عن بعض العلماء ان الحامل له عليه الصلاة والسلام على الترك خشية ان ينسبوه الى الانفراد بالفخر دونهم بدليل رواية الشيخين اخاف ان تنفر بالقاع وفي رواية ان تنكر قلوبهم ان ادخل الجدر في البيت وان الصق بابه الى الارض ورواية مسلم عن الزبير وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه فادخلت فيه من الحجر قدر خمسة اذرع اذا علمت هذا تبين لك ان الشاذروان مندرج في عموم ما اخرجته قريش من البيت عن قواعد ابراهيم عملاً بالاحاديث المطلقة في الاقتصار عن القواعد وخصه الامام الاعظم بالحجر عملاً بالاحاديث المقيدة ولكل وجهة رضي الله تعالى عنهم وعنا بهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وازواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرف وعظم كما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون اه المقصود من الرسالة (ثم اقبل الامير) على عبادة الله تعالى عند بيته الحرام في مسجده الحرام وتفرغ لها من كل شيء يتعلق بالدنيا واهلها واختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة استاذاً له فاخذ عليه الطريق وتلقى شؤنها عنها ولازم الرياضة والخلوة والاجتهاد وعكف على ما في تلك الطريقة الميمونة من الوظائف والاوراد الى ان رقي معارج الاسرار الى حظائر القدس ذات الانوار ووقعت له كرامات وخوارق واحرز بقوة سعده احوالاً سنية وانفاساً

محمدية وما تم له الارتقاء الاَّ وهو في غار حراء لانه انقطع فيه اياماً عديدة الى ان جاءته البشرى بالرتبة الكبرى ووقع له الفتح النوراني وتفجرت ينابيع الحكم على لسانه وفاضت عيون الحقائق بين ادواح جنانه وانفتح لهُ باب الواردات واستظهر من القرآن العظيم آيات ومن الحديث النبوي احاديث صحيحة فكتب من خلوته الى حضرة استاذه يصف بدايته ونهايته ويثني على الله بما اولاه على يده بقوله

امسعود جاء السعد والخير واليسر ... وولت جيوش النحس ليس لها ذكر
ليالي صدود وانقطاع وجفوة ... وهجران سادات ولا ذكر الهجر
فايامها اضحت قتاماً ودجنة ... لياليها لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوه الهم والضنى ... فلا التذ لي جنب ولا التذ لي ظهر
ليالي انادي والفؤاد متيم ... ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
امولاي طال الهجر وانقطع الصبر ... امولاي هذا الليل هل بعده فجر
اغث يامغيث المستغيثين والها ... الم به من بعد احبابه الضر
اسائل كل الخلق هل من مخبرّ ... يحدثني عنكم فينعشني الخبر
الى ان دعتني همة الشيخ من مدى ... بعيد الا فادنو نعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الازار وطار بي ... جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحب تهامة ... ولم يثنه سهل هناك ولا وعر
الى ان أنخنا بالبطاح ركابنا ... وحطت به رحلي وتم لنا البشر
بطاح بها البيت المعظم قبلة ... فلا فخر الا فوقه ذلك الفخر
بطاح بها الصيد الحلال محرَّم ... ومن حلها حاشا يبقى له وزر
اتاني مربي العارفين بنفسه ... ولا عجب فالشأن اضحى له امر
وقال فاني منذ اعداد حجة ... لمنتظر لقياك ياايها البدر
فانت بنيَّ مذ ألست بربكم ... وذا الوقت حقاً ضمه اللوح والسطر
وجدك قد اعطاك من قدم لنا ... ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
نقبلت من اقدامه وبساطه ... فقال لك البشرى بذا قضي الامر
والقى على صغري باكسير سره ... فقيل له هذا هو الذهب التبر
واعني به شيخ الانام وشيخ من ... له عمة ذي عذبة وله الصدر
عياذي ملاذي عمدتي ثم عدتي ... وكهفي اذا ابدى نواجذه الدهر
غياثي من ايدي العداة ومنقذي ... منيري مجيري عندما غمني العمر

ومحيي رفاتي بعد ان كنت رمة … واكسبني عمرًا لعمري هو العمر
محمد الفاسي له من محمد … صفي الاله الحال والشيم الغر
بفرض وتعصيب غدا ارثه له … هو البدر بين الاوليا وهم الزهر
شمائله تغنيك ان رمت شاهدًا … هي الروض لكن شق اكمامه القطر
تضوع طيبًا كل زهر بنشره … فما المسك ما الكافور ما الند ما العطر
وما حاتم قل لي وما حلم احنف … وما زهد ابراهيم اوهم ما الصبر
صفوح يغض الطرف عن كل زلة … لهيبته ذل الغضنفر والنمر
هشوش بشوش يلق بالرحب قاصدًا … وعن مثل حب المزن تلقاه يفتر
فلا غضب حاشا بان يستفزه … ولا حدة كلا ولا عنده ضر
لنا منه صدر ما تكدره الدلا … ووجه طليق لا يزايله البشر
ذليل لاهل الفقر لا عن مهانة … عزيز ولا تيهٌ لديه ولا كبر
وما زهرة الدنيا بشيء له ترى … وليس لها يومًا بمجاسه نشر
حريص على هدي الخلائق جاهد … رحيم بهم بر خبير له القدر
كساه رسول الله ثوب خلافة … له الحكم والتصريف والنهي والامر
وقيل له ان شئت قل قدمي علا … على كل ذي فضل احاط به العصر
فذلك فضل الله يؤتيه من يشا … وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر
وذا وابيك الفخر لا فخر من غدا … وقد ملك الدنيا وساعده النصر
وهذا كمال كل عن وصف كنهه … فمن يدعي هذا فهذا هو السرّ
ابو حسن لو قد رآه احبه … وقال له انت الخليفة يا بحر
وما كل شهم يدعي السبق صادق … اذا سيق لميدان بان له الخسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا … على ظهر جرد بل ومن تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس … اذا ثار نقع الحرب والجو مغبرٌّ
فيحمي ذمارًا يوم لا ذو حفيظة … وكل حماة الحي من خوفهم فروا
ونادى ضعيف الحي من ذا يغيثني … اما من غيور خانني الصبر والدهر
وما كل سيف ذو الفقار بحده … ولا كل كرار عليًا اذا كروا
وما كل طير طار في الجو فاتكًا … وما كل صياح اذا صرصر الصقر
وما كل من يسمى بشيخ كمثله … وما كل من يدعى بعمرو اذًا عمرو
وذا مثل للمدعين ومن يكن … على قدم صدق طبيبًا له خبر

فلا شيخ الا من يخلص هالكاً ... غريقاً ينادي قد احاط بي المكر
ولا تسئلن من ذي المشائخ غير من ... له خبرة فاقت وما هو مغترّ
تصفح احوال الرجال مجرباً ... وفي كل مصر بل وقطر له امر
فانعم بمصر ربت الشيخ يافعاً ... واكرم بقطر طار منه له ذكر
فمكة ذي خير البلاد فديتها ... فما طاولتها الشمس يوماً ولا النسر
بها كعبتان كعبة طاف حولها ... حجيج الملا بل ذاك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجذاب الذي سما ... وجل فلا ركن لديه ولا حجر
وشتان ما بين الحجيجين عندنا ... فهذا له ملك وهذا له اجر
عجبت لباغي السير للجانب الذي ... تقدس سرالا يجد له السير
ويلقي اليه نفسه بفنائه ... بصدق تساوى عنده السر والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً ... ويلقى فراتا طاب نهلا فما القطر
ويلقى رياضاً ازهرت بمعارف ... فيا حبذا المرأى ويا حبذا الزهر
ويلقى جناناً فوق فردوسها العلا ... وما لجنان الخلد ان عبقت نشر
ويشرب كاساً صرفة من مدامة ... فيا حبذا كاس ويا حبذا خمر
فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة ... وليس بها برد وليس بها حرّ
ولا هو بعد المزج اصفر فاقع ... ولا هو قبل المزج قان ومحمر
معتقة من قبل كسرى مصونة ... وما ضمها دن وما نالها عصر
ولا شانها زق ولا سار سائر ... بحمالها كلا ولا نالها تجر
فلو نظر الاملاك ختم انائها ... تخلت عن الاملاك طوعاً ولا قهر
ولو شمت الاعلام في الدرس ريحها ... لما طاش عن صوب الصواب لهم فكر
فيا بعدهم عنها ويا بئس ما رضوا ... فقصدهم قيد وسيرهم وزر
هي العلم كل العلم والمركز الذي ... به كل علم كل حين له دور
فلا عالم الا خبير بشربها ... ولا جاهل الا جهول به غرّ
ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئة ... سوى رجل عن نيلها حظه نزر
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر ... سوى واله والكف من كاسها صفر
اذا زمزم الحادي بذكر صفاتها ... وصرح ما كنى ونادى نائي الصبر
وقال اسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهر
وصرح بمن تهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

ترى ذائقيها منها هامت عقولهم ... ونازلهم بسط وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم ... وشمس الضحى من تحت اقدامهم عفر
وقالوا فمن يرجى من الكون غيرنا ... فنحن ملوك الارض لا البيض والحمر
تميد بهم كأس بها قد تولهوا ... فليس لهم عرف وليس لهم نكر
حيارى فلا يدرون اين توجهوا ... فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
فيطربهم برق تألق بالحما ... ويرقصهم رعد بسلع له زأر
ويسكرهم طيب النسيم اذا سرى ... تظن بهم سحرًا وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى ... اذا ما بكت من ليس يدري له وكر
بحزن وتلحين تجاوبتا بما ... تذوب له الاكباد والجلمد الصخر
وتسبيهم غزلان رامة ان بدت ... واحداقها بيض وقاماتها سمر
وفي شمها حقًا بذلنا نفوسنا ... نهان علينا كل شيء له قدر
وملنا عن الاوطان والاهل جملة ... فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصر
ولا عن اصيحاب الذوائب من غدت ... ملاعبهم مني الترائب والنحر
هجرنا لها الاحقاب والصحب كلهم ... فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر
ولا ردنا عنها العوادي والعدى ... ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر
وفيها حلا لي الذل من بعد عزة ... فيا حبذا هذا ولو بدوئه مر
وذلك من فضل الاله ومنه ... علي فما للفضل عد ولا حصر
وقد انعم الوهاب فضلاً بشربها ... فلله حمد دائم وله الشكر
فقل لملوك الارض انتم وشانكم ... فقسمتكم ضئزى وقسمتنا كثر
خذ الدنيا والاخرى اباغيهما معًا ... وهات لنا كاسًا فهذا لنا وفر
جزى الله عنا شيخنا خير ما جزى ... به هاديًا فالاجر منه هو الاجر
امولاي اني عبد نعائك التي ... بها صار لي كنز وفارقني الفقر
وصرت مليكاً بعد ما كنت سوقة ... وساعدني سعد فحصباؤنا در
امولاي اني عبد بابك واقف ... لفيضك محتاج لجدواك مضطر
فمر امر مولى للعبيد فانني ... انا العبد ذاك العبد لا الخادم الحر
هنيئًا لنا يا معشر الصحب اننا ... لنا حصن امن ليس يطرقه ذعر
فنحن بضوء الشمس والغير في دجًى ... واعينهم عمي وآذانهم وقر
ولا غرو في هذا وقد قال ربنا ... تراهم عيون ينظرون ولا بصر

وغيم السما مهما سما هان امره … فليس يرى الا لمن ساعد القدر
الا فاعملوا شكراً لمن جاد بالذي … هدانا ومن نعمائه عمنا اليسر
وصلوا على خير الورى خير مرسل … وروح هداة الخلق حقا وهم ذر
عليه صلاة الله ما قال قائل … امسعود جاء السعد والخير واليسر

* وبعد ان اتم الحج وادى المناسك في تلك السنة توجه الى الطائف واقام بها نحو ثلاثة اشهر ثم رجع الى مكة المشرفة على ما هو عليه من الاجتهاد في العبادة والانقطاع اليها ومن حين توجهه الى الطائف انقطعت عنا مكاتيبه وعميت علينا اخباره ولما طال الامر وتشوش الفكر كتبت الى حضرة سيادة المولى الشريف السيد عبدالله باشا امير مكة المكرمة اسأله عنه واطلب الافادة منه فكتب لي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين ما نصه · غب اهداء سلام يفوح شذاه المسكي من سوح الكعبة الغراء والحرم المكي وتحيات صادرة من مهابط التنزيل محفوفة بمزيد التعظيم والتبجيل الى جناب قدوة الاكابر جابر كمالات المفاخر الاعز الاكرم السيد محمد ابن السيد عبد القادر سلمه الله تعالى ورحمة الله وبركاته عليه تتوالى وبعد لا يخفاكم ان الموجب لتحريره السؤال عنكم لما يبلغنا من حميد سيركم فوصل والدكم الفاضل السيد عبد القادر وحقق لنا طيب حالكم فحمدنا المولى الكريم على ذلك وشكرناه على ما هنالك ثم انه وصلنا صندوق فيه آلة الشاي السنري وما هو برفقة المرسل صحبته من طرفكم وحل محل القبول وصار لنا بذلك مزيد الممنونية حيث انه كان سبباً للمكاتبة ووالدكم المشار اليه قد قضى وطره من اداء حج بيت الله الحرام والتملي بهذه المشاعر العظام وها هو متوجه للتشرف بزيارة سيد الانام عليه افضل الصلاة وازكى السلام نسأل الله ان يحله بالسلامة ويمن عليه بالوصول الى الاوطان بعد بلوغ كل مقصد ومرام ودمتم في حفظ الله وحسن رعايته آمين · والصندوق المذكور كانت زوجة الامبراطور نابليون الثالث اهدته لسيدي الوالد وكان الامير بعض الاحيان يجتمع به اهل محبته واخوانه في الله فيباسطهم ويداعبهم · ذكر لي حضرة الاديب الشيخ احمد الخضراوي وكان معهم في الطائف انه جال معه في الحديث يوماً وافضت بهم المناسبة الى ذكر شروط اهل مكة على الخدود قال فمدحتها له وانشدت فيها قول بعضهم

رأيت لها شرطاً على الخد قد حوى … جمالاً وقد زاد الملاحة بالقرط
فقلت مرادي اللثم قالت بخلوة … فقبلتها الفاً على ذلك الشرط

فانكر ذلك واستقبحه وقال

اقول لقوم لا تفيد نصيحتي — لديهم ولو ابديت كل الادلةِ
ألا فاتركوا ورد الخدود وشانه — فتخديدكم في الخد اقبح فعلة
ايعمد ذو لب لخد مورد — ويقسمه عمداً الى شر قسمة
ومادح شرط الخد بالسود صادقٌ — واما بخد البيض فالقبح عمدتي
اما يختشي من ان يكون مخدداً — ويدخل فيمن حاز افظع قولة
فباللحظ لا الموسي تخدش وجنة — فيا ويلتي منه ويا طول حسرتي
واني لاهوى كل خد مورّد — زها قط لم يمسسه موسى بخدشة

فاجبته بابيات منها

قد عمت البلوى بذلك سيدي — ولقد نصحت عبيدكم بجميلة

ذكر سفر الامير من مكة الطاهرة الى المدينة المنورة الزاهرة

وفي اول يوم من رجب سنة ثمانين ومائتين توجه الى جدة ومنها الى مرسى الرائس ثم الى بدر ثم بئر عباس فوجد هناك حافظ باشا حاكم المدينة وشيخ الحرم النبوي مخيما بعسكره ينتظر القوافل القاصدة الى المدينة المنورة من الجهات فاحتفل به للغاية وضرب له خيمة الى جانب خيمته واتصل خبره بقبيلة حرب الشهيرة وغيرها من قبائل تلك النواحي فجاءه الشيخ فهد في جماعة من الاعيان فاكرم نزلهم وعرضوا ان يكونوا في خدمته الى المدينة فدعا لهم وشكر توددهم اليه ولما تلاحقت القوافل ارتحل بها الباشا والامير فدخلوا المدينة المنورة في السادس والعشرين من رجب واستقبله اشرافها وعلماؤها في وادي العقيق وكان الشيخ محمد الدرابزلي المعروف بالشيخ المنتظر تهيا لنزوله عنده فاجابه الى ذلك وقام في ضيافته اياماً ثم استاجر منه بيته الكائن في طريق الحمام النبوي بالقرب من المسجد وانتقل اليها ثم طلب محلاً لخلوته في الحرم الشريف فهيأ له السيد احمد اسعد افندي محلا لصيقاً بجدار المسجد وهو في الاصل بيت سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه وله خوخة في المسجد وهي التي قال فيها صلى الله عليه وسلم كل خوخة في المسجد تسد الا خوخة ابي بكر فانقطع الامير في ذلك المحل المبارك مدة شهرين تقويت بها معارفه وزكت عوارفه وانكشفت له الحقائق القرآنية والاحاديث النبوية ومن طالع مواقفه في الحقائق وقف على ما اشرنا اليه واطلع على ما لا مزيد عليه ولاول وصوله الى المدينة المطهرة مدحه بعض ادبائها بقوله

بشرى لطيبة بالهمام الزائر   اكرم به من ليث غاب زائر
وافى حماها وهي في شوق له   من بعد طول تباعد وتهاجر
فتمايلت اعطافها لوصوله   فرحًا ونوَّر كل روض ناضر
و بوطئه شرفت رحارحها كما   شرفت بجده في الزمان الغابر
وتارجت ارجاؤها من طيبه اا   زكى وعرف شذا يديه العاطر
وغدا لسان الحال ينشد قائلاً   اهلاً بمن هو ليث غاب كاسر
فلطالما قد كنت في شوق الى   روئيا جمالك ان يلوح لناظر
فالان مني العين قد قرت كما   باياله قرت عيون مسافر
وبقدرة المنان زاد تشرفي   اذ حل سوحي الشهم عبدالقادر
نجل الفحول ابن البتول خلاصة اا   اشراف بل شبل الرسول الطاهر
حبر كسى خبر الفضائل والتقى   عطف الخبير بكل فن ماهر
وروى احاديث المفاخر والمعا   لى مسلسلات كابرًا عن كابر
بحر من الاحسان يقذف جوهرا   لعفاته لكن بغير تفاخر
شهم تقضى منه شرخ شبابه   في نصرة الدين الحنيفي الزاهر
واقام احقاباً بصهوة سابح   يرمي الطغاة بصاعقات بواتر
وجفا عشائره وفارق ربعه   طالبا لمرضاة المليك الغافر
نال المعالي بالعوالي والظبا   فلذا له خضعت رقاب الكافر
ولكم بصارمه اباد كتائباً   ذهبت هباء مثل امس الدابر
ان اضحك البيض الرهاف بكفه   بكت الرقاب بجيع دمع هامر
واذا انتضى يوم الكريهة عضبه   سجدت له قمم الظلوم الجائر
بطل اذا لمس القنا في جحفل   طارت جناحاه بدون تشاور
واذا احس الجيش رجع زئيره   بلغت قلوب سراته بحناجر
والليث ان يسمع صهيل جواده   يغدو بقلب في جناحي طائر
وحسامه ان لاح برق فرنده   بغمام نقع فر قلب الغادر
يلج الخميس بصافن وبعامل   فيعود يقسم خمسه لعساكر
يلقى الكماة الصيد فرداً في الوغا   فيرد وردهم بدون مصادر
ويداه ان هزت انابيب القنا   قطعت قلوباً في صدور قساور
الفته عقبان الفلا ونسوره   مذ ابصروه بكل نقع ثائر

انى يسير تسير كيما تبتغي عاداتهن بشلو علج كاشر
وثعالب الخطي بعد اوامها وردت حياض طلى العدو الفاجر
مولاي اني في الثناء مقصر اني لمثلي غوص بحر زاخر
وبحلبة الادباء يوم رهانهم است المجلي بل ولست بشاعر
لكن قصدي من جنابك دعوة بصلاح حالي جنح ليل عاكر
من لي وفضلك كيف احصى عده وصفات ذاتك ما لها من حاصر
انت المجدد للبرية دينهم بالكتب والسيف الطرير الباتر
لو جئت في العصر الغوابر في الورى لم تلق منهم غير شهم ناصر
لكن عصرك قد تاخر وتبه واتى تجيئك في الزمان الآخر
فالصبر افضل ما يكون لذي النهى وكفى الكتاب مبشرًا للصابر
فاشكر الهك ان حباك بزورة لختام رسل الله افضل شاكر
والسعد قد وافى حماك مهنئًا لك بالوصول الى النبي العاطر
واتى القبول اليك منه مورخًا بشراك انت اعز حب زائر

١٢٨٠

واستمر الامير مدمنًا على اداء وظيفة اوراده في الخلوة والجلوة لم يلحقه في ذلك فتور وفي الشهر الاخير من اقامته في المدينة المنورة كان يكثر من زيارة احد وقبور الشهداء والصلاة في مسجد قبا ويجيب من دعاه الى الضيافة فكان اهل المدينة يتسابقون الى ذلك واكثرهم فيه السيد احمد افندي اسعد واقاربه ودعي يومًا الى البستان المعروف بالقائم في قبا ايام الزهر وكانت المأدبة حافلة والمجلس مشمولاً بانواع الطيب فانشأ الامير يقول

بخر بعود الطيب لا زلت طيبًا ورش بماء الزهر يا خلي والورد
وما بغيتي هذا ولكن تفاؤلا بعود الى عود وورد الى ورد

ودعي اليه مرة اخرى فحانت منه التفاتة الى جبل احد فاطرق ساعة ثم رفع راسه وانشاء يقول

تذكرت وشك البين قبل حلوله فجادت عيوني بالدموع على الخد
وفي القلب نيران تاجج حرها سرت في عظامي ثم سارت الى جلدي
ومالي نفس تستطيع فراقهم فياليت قبل البين سارت الى اللحد
الى الله اشكو ما الاقي من الجوى وحملي ثقيل لا تقوم به الايدي

بطيبة طاب العيش ثم تمرمرت　　حلاوته فانحس اربى على السعد
اردد طرفي بين وادي عقيقها　　وبين قباها ثم الوى الى احد
منازل من اهواه طفلاً ويافعاً　　وكهلاً الى ان مرت بالشيب في برد

* وفي مدة اقامته في الحجاز توفي ملك اليونان الاسبق وانعقد مجلس نواب الامة اليونانية في اثينا للنظر فيمن يولونه عليهم ملكاً فكتبوا اسم الامير في المنتخبين لذلك ونادى كثير منهم باسمه واهل اسبانيا قد انتخبوه في جملة من انتخبوهم للملك عليهم حين وقوع الفتنة بينهم قبل ان يتولى ملكهم المتوفي اخيراً فتشكر الامير للامتين على اعتبارهما لمقامه بما دل على ما تكنه صدورهم من احترامه واعظامه

﴿ ذكر رجوع الامير الى مكة ثم الى دمشق الشام ﴾

ولما حضر الركب الشامي الى المدينة المنورة توجه فيه عائداً الى مكة في السابع والعشرين من ذي القعدة واحرم بالحج من ذي الحليفة وبعد الفراغ من اداء مناسك الحج وطواف الوداع توجه الى جدة في الرابع عشر من ذي الحجة وفي التاسع عشر ركب الوابور المصري الى السويس ومنها الى مصر فاجل مقامه خديويها اسماعيل باشا واجزل في ضيافته واكرامه ثم دعته شركة السويس الى الاسماعيلية فتوجه اليها على طريق الزقازيق ومر على التل الكبير ثم على بوابح الذي اهدته اليه الشركة المذكورة فرآه واستوعب حدوده ثم توجه الى الاسماعيلية واقام اياماً في ضيافة الشركة ثم رجع الى مصر وتوجه الى الاسكندرية وبعد خمسة ايام من وصوله اليها توجه الى بيروت وفي التاسع عشر من المحرم سنة اثنين وثمانين وصل الى دمشق واستقبلته في جم غفير من الاهالي والمهاجرين في محطة الهامة وقرت عيوننا برؤيته وامتلأت صدورنا سروراً بمشاهدته وتوالت علينا وعلى كافة المهاجرين الافراح وزالت عنا وعنهم بوجوده الهموم والاتراح وتوارد على بابه اهل البلد على اختلاف طبقاتهم يسلمون عليه ويهنئونه بما اسداه الله من النعم اليه فكان يقابلهم بما جبله الله عليه من الانس واللطف ولين الجانب ورفع اليه حضرة العالم العلامة الحبر البحر الفهامة شيخنا الشيخ محمد افندي الطندتائي الازهري قصيدة يهنئه فيها بحج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم عليه افضل الصلاة واكمل السلام وهي قوله

يا سيداً فاق الورى　　بما حباه ذو الجلال
من همم عالية　　تدرك صغراها الجبال

حتى تجاوزت السها   من بين ارباب الكمال
نخضت بحرًا دونه   قد اتجمت همم عوال
في طلب الاخرى ولم   تنظر لجاهٍ او لمال
فكم هجرت مضجعًا   وكم سهرت من ليال
وكم تركت لذةً   مع رغبة وصدق حال
وكم بذلت مهجةً   حتى ظفرت بالوصال
ونلت اعلا رتبة   مما يناله الرجال
وقد شفيت غلةً   من ذلك الورد الزلال
اعظم بها من نعمةٍ   لم ينلها ذو دلال
وكيف لا وانت نجـ   ل المصطفى من خير آل
مع الذي حويت من   شرف المزايا والخصال
علم وحلم وندا   والمنطق السحر الحلال
ولطف زهد وتقى   بشاشة مع الجمال
شجاعة تواضع   وفاء وعد صدق قال
محاسن جميعها   يفوق عدها الرمال
فمن اراد حصرها   فقد تصدى للمحال
بشراكم قد قبلت   اعمالكم على الكمال
فالحج حقاً سالم   من رفث ومن جدال
والقصد وجه الله وال   مال اتي من الحلال
والمصطفى جدكم   ولا يرد الجد آل
يا ايها الحبر الذي   حويت هاتيك الخصال
ابقاك ربي ملجاء   الى النساء والرجال
ممتعًا منعمًا   بما حباك ذو الجلال

وللاديب سليمان الصوله يهنئه بالقدوم بقوله

حتى الطلا شهدت ان اللما عذب   فكيف اينع فيه اللؤلؤ الرطب
وكيف جاوره جمر فاثلجه   وما تعاوره من برده عطب
واحر قلباه من نار يؤججها   برد الرضاب ولم يفتر لها لهب

بي ظمئة وبها ايامي سارية ... الا تبل فؤادا ساءه اللغب
من لي بعانسة في فيك يدخرها ... بين المراشف هذا المبسم العذب
بحق معطيك هذا الحسن لاتسبي ... منها حشاشة صب كله وصب
يميتـه الشوق احيانًا وينشره ... فكم يموت ويحيى وهو مضطرب
قد هزني الضر يا ليلى وعاذلتي ... تقول يا ويلها قد هزه الطرب
وعاورتني هموماً خفضت هممي ... لا ترفع الذل رأسي حين ينتصب
جودي بوصلك لي والمهر يا املي ... العقل والروح لا ورق ولا ذهب
لم يبق لي نشب اما اذا رجع ال ... مولى فعندك مني المال والنشب
حبر بدعوته الاوزار تنقضب ... ومن سماحته الامطار تنجذب
تهز نفحة اشعاري مناكبـه ... كما يهز قناة الفيلق اللجب
لذاك والله خير الناس قاطبة ... وجوده فوق ما جادت به السحب
كأن عيني به والحي مبتهج ... يزهو بطلعته لا ساءها صخب
يقله فرس من فوقه اسد ... في وجهه قمر في كفه يلب
ان صال قطع اوصال الرجال وان ... جال استطال عليها الويل والحرب
ياقاصد البيت لو لم تات تجرته ... سعى اليك كما تسعى له العرب
انت ابن يس بيت الله يعرفكم ... يا آل يس فيكم جاءت الكتب
لم يبق جودك لي في المال من ارب ... فدعوة تحاماني بهـا النوب
عودتني الخير في حل وفي سفر ... كالغيث ينهله دان ومغترب
انت الذي تقبل الدنيا بدعوته ... تقبل الله ما يولي ومـا يهب
عسى يبدل اعساري بميسرة ... ويصلح الله ايامي فتنقلب
زر حج طف واعتمر وارم الجمار على ... قلب الحسود وعد لافاتك الارب
لازلت افضل من حجوا واورع من ... لبوا على عرفات المجد واقتربوا

وكتب الامير الى ابن عمنا الفاضل الناظم الناثر السيد الطيب ابن المختار يخبره بما اسنى الله له من الفتح المبين والحصول على التمكين · فاجابه بقوله · الحمد لله الذي بحمده تفتح الامور وهو الفتاح العليم · والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم والكرم العميم · وعلى آله وصحابته ذوي الشرف الباذخ والفخر الصميم

ياقـادمًا عمت الدنيـا بشائره ... أبشر بمقدمك الميمون طائره
قدمت والخلق في نعمى وفي جذل ... ابدى بك البشر باديه وحاضره

امارة الدين والملم الذي رفعت اعلامه والندى الفياض زاخره

الامارة التي اشرق في سماء العدل شهابها . واتصلت باسباب المجد اسبابها . واجيلت قداح المفاخر فكان الى جهة الله انتدابها . واشتملت على العفاف والطهارة اثوابها . المناضل عن مرضاة الله اصيل نحره . المتسم بالمرابط المجاهد على اقبال سنته وجدة عمره مخدوم الملوك على شدة بأسها ومعظمها على اختلاف اجناسها

ملك تتوج بالمهابة عند ما لم يستجز في الدين لبس التاج

ماضي العزيمة والسيوف كليلة طلق المحيا والخطوب رواج

سيدنا ووسيلتنا الى رب العالمين . مولانا عبد القادر ابن شيخ الاسلام وقدوة الانام مولانا محيي الدين . رزقكم الله تاييدًا تبدي له الجياد الجرد . والرماح الملد . ارتياحًا واهتزازًا وعزًا يطاء من اكناف البسيطة وارجائها المحيطة سهلًا وعزازًا ويمنا يشمل من بلاد الله اقطارًا نازحة ويعم احوازًا ومجدًا يجوب الآفاق جوب المثل السائر عراقًا وحجازًا

لازلت ترقى وترقى في العلا ابداً ما دام للسبعة الافلاك احكام

وسلام كريم طيب عميم . ختامه مسك ومزاجه تسنيم . على ذلك الجناب الرفيع الظاهر في اقصى المغارب والمشارق في زي بديع . من عبد اقعدته ذنوبه . وابعدته عن حضرتكم عيوبه

صب يحث مطاياه بذكركم فليس ينساكم ان حل او سارا

لكنه حادثات الدهر تمنعه وقد اقامت له الايام اعذارا

وبعد فان كتابكم الصادر من طابه . المشحون بالالفاظ العذبة المستطابه . المشرق شمسًا في سماء الفصاحة والبلاغة المنسبك تبرًا في صناعة الصياغة . المبدي لنظاره دلائل الاعجاز . المظهر بلطافته عين الحقيقة في خيال المجاز . قد وافانا ونحن في غاية الارتقاب . لما يصل الينا من ذلك الجناب . فعظم موقعه من نفوسنا . وقبلناه اجلالًا ووضعناه فوق رؤسنا . وانشدنا عند ازالة اللثام وفض الختام . لشبه الحال بالحال قول ابي تمام

فضضت ختامه فتبلجت لي غرائبه عن الخبر الجلي

وكان اغض في عيني واندى على كبدي من الزهر الجني

واحسن موقعًا مني وعندي من البشرى اتت بعد النعي

وضمن صدره ما لم تضمن صدور الغانيات من الحلي

243

فكائن فيه من معنى خطير   وكائن فيه من لفظ بهي
رسالة من تمتع منذ حين   ومتعني من الادب الشهي

ثم تتبعنا غرائبه واسطاره . وحللنا تراكيبه واشطاره . واقمنا بواجبه القيام الحسن . واحتفلنا به احتفال المأمون ببنت الحسن . فتساقط علينا رطباً جنياً . وهمى ودقه على الربع من افكارنا وسميا . فجاد وأروى . واجاد فيما روى . واحيى من القريحة ميتاً كان حديثاً يروى

ستكشف من سر الكتائب مثل ما   رايناك عن سر البلاغة تكشف

فوالله لقد سرت معانيه في الجسد روحاً . واشرقت في سويداء الفوائد بوحاً . وما عسى ان نقول وما هو الا لطافة نسيم . او سلافة نديم . فلذا سكر كل رقيق طع برحيقه وشكر . وآمن برسالة محمد ولو انه المتنبي وما كفر . فتلقينا منه حقيقة الحال بعد الالتباس . واخذنا وجه الخبر من نصه المغني عن القياس . فاستفدنا منه ما حصل لكم من النعم الوافية . والاستمدادات الكافية . زيادة على ما لديكم من المواهب . وتكملة لاعلا المراتب واسنى المطالب . وانكم لا زلتم مترددين بين مكة والطائف . وطيبة ذات المحاسن واللطائف . اونة في حرم الله . وأونة في حرم رسول الله

ربوع بها تتلو ملائكة العلى   افانين وحي بين ذكر وقرآن
وعرس فيهـا للنبوة موكب   هو البحر طام بين هضب لجان
مطالع آمان مثابة رحمة   معاهد املاك مظاهر اعيان

وانك طالما وردت من تلك الحياض . ومتعت ناظرك في تيك الرياض . لنفحاتها متنسما . واسكانها مقبلاً ومعظما . وانت سائح بالاحبة وبالمحبوب راض . وجدير كما قال القاضي ابو الفضل عياض . لمواطن عمرت بالفضل والتنزيل . وتردد فيها جبريل وميكائيل . وعرجت منها الملائكة والروح . وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح . واشتملت تربتها على جسد سيد البشر . وانتشر فيها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر . مدارس آيات . ومساجد وصلوات . مشاهد الفضل والخيرات . ومنبع البراهين والمعجزات . ومناسك الدين . ومشاعر المسلمين . ومواقف سيد المرسلين . ومتبوأ خاتم النبيين . ومنها انفجرت النبوة بدين فاض عبابها . ومواطن مهبط الرسالة واول ارض مس جلد المصطفى ترابها . جديرة بان تعظم عرصاتها . وتتنسم نفحاتها . وتقبل ربوعها وجدرانها

يحق علينـا ركوب البحار   وجوب القفار اليها ابتدارا
فيافوز من فاز في طيبة   بلثم المغـاني جداراً جدارا

والصق خداً على تربها واكحل حجاً بها واعتمارا
واهدى السلام لخير الانام على حين وافى عليه مزارا

مثلي اذا سارت الركاب . تعلق بالاسباب . وانشد متمثلا . وعلى النية الصادقة ان شاء الله تعالى معوّلا

يا سائرين الى المختار من مضر سرتم جسوماً وسرنا نحن ارواحا
انا اقمنا على عجز وعن قدر ومن اقام على عجز كمن راحا

والحق ان الحازم من اخذ على كل حال بقول حازم في تصدير اعجاز لامية الضليل مخرجاً لها عن ذلك السبيل

وفي طيبة فانزل ولا تغش منزلاً بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وزر روضة قد طالما طاب نشرها لما نسجتها من جنوب وشمال
واثوابك اخلع محرماً ومصدقاً لدى الستر الا لبسة المتفضل
لدى كعبة قدفاض دمعي ابعدها على النحر حتى بلّ دمعي محملي

ومثلكم من يراعي امر الله حق الرعاية . ويجري في معاملاته على ما اسس من حسن البداية . فقد انقطع والحمد لله رجاء الحاسد وسلم المعاند . وتساوى في ذلك الغائب والشاهد . واقرّ بفضل الله الجاحد

ومليحة شهدت لها ضراتها والحسن ما شهدت به الاعداء

فاني يجاري الضحضاح قاموساً . او يباري السحرة عصى موسى . فليتطاول المتطاول . وليساجل الساجل . فالكل دون تلك الغاية وقف . وشهد بالعجز عن ادراك ذلك الشأو واعترف . وبان الانفراد بالفضل وظهر . وانتشر الاختصاص بالمجد انتشار الغزالة واشتهر . وسد الحال في ذلك مسد الخبر

فالوصف اغنى وما اغنت شهادتهم لكنها زادت التبيان تبيانا

فهنيئاً لك ثالث العمرين الجامع بين فضيلتي عالم المدينة وعابد الحرمين . ذلك الشرف الصميم . والفخر العميم . والفوز العظيم . وعمل سلفك القديم . فكم مفازة في ارض الله عبروها . ومدارس بيث قواعد الدين عمروها . انساب طاهرة . وعلوم فاخرة . واياد غامرة . وسيوف الاعادي قاهرة . ووجوه ناضرة . الى ربها ناظرة

لا ينتهي نظري منهم الى رتب في المجد الا ولاحت فوقها رتب

فكم انعشوا من ارماق . وفكوا من وثاق . ودروا على الخلق من ارزاق . بهذا اقرت لهم البرية وشهدت وما قلت الا بالذي علمت فما هي والله الا طرقتهم المثلى

244

سلكت . وشمائلهم الفضلى ورثت فملكت . وقد اشار العبد الى هذا في التقديم . وسبق قوله فيه وان كان لجهله بقواعد القريض غير مستقيم

شيم يهز الراسيات سماعها ويجر في انف الزمان غوال
اوصاف والدك الامام المرتضى للدين والدنيا بحسن خلال
لك فيهم الفخر الكبير وان يكن لك في العلى نسج على منوال
كل الكمال لهم وانت مقره والفرع عين الاصل عند مآل

هذا وقد بلغنا عن السنة الوافدين من الحضرة الحجازية . والديار التهامية . انك اجتمعت في سفرك هذا بشيخ عارف اخذت منه فما كدت اصدق فيما سمعت بعد ان علمت من فضل الله الذي لديكم ما علمت . ولقوة اعتقادي فيك وحصول العلم الذي لا يقبل التشكيك . فقد جلت في مغارب الارض ومشارقها . وسبرت الرجال وكشفت عن حقائقها . وجالست بقصد الاستفادة علماءها . وجالست برسم التبرك شيوخ الطريقة وكبراءها . فلا بحر الا ورفعت شراعه . ولا بر الا وطئت كما هو في علمك ذراعه . فحصل لي من انواع الاغتراب ومشاق السفر ما لا اصفه من العناء ثم رجعت وانا بعد ذلك كله فما رأيت من ذهب بظاهره مع الشريعة ووقف بباطنه مع الحقيقة مثلك . ولا من تعرف نعرف من صدور الكراسي والمنابر . والسنة الاقلام وافواه المحابر معرفتك . فمقامك مقام عارف لا مقام مريد ومثلك من يفيد لا من يستفيد . وان كان فمن عجائب الدهر . ومن باب يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر. وسبيل المزية تكون في المفضول دون الفاضل . وشاهد ذلك كله حديث ما المسئول باعلم من السائل . اقول هذا والحق ان طريقة التسليم اسلم . ففي صنع الله ما لا ادري وفي علمه ما لا اعلم . والان سيدي لحج مبرور . وعمل مقبول وسعي مشكور

فاهنأ امير الواصلين لامة افواههم ما ان بغيرك تنطق

هذا ولا زائد بحمد الله تعالى سوى ما عندنا لكم من الصنائع التي تشام بوارق التشييع من خلالها . وتدل مخائل بدايتها على حسن مآلها . والود الذي يجل موقعه في النفوس . وتضيق على حمل بعضه هذه الطروس

فلا تنسني من اهل ودك انني اخاف الليالي ان تطول فتنساني

وقد اقتضى المقام ختم هذه الرسالة بقول ابن خاتمة . ختم الله لنا ولكم بحسن الخاتمة . ومثل ذلك مما يرتاح له اللبيب . ويستحسنه الاديب . وللارض من كاس الكرام

نصيب . مع ما في ذلك من وضع النقل في محله بلا مرا . ومطابقة الحديث لاصله كما ترى

قدمت بما سرّ النفوس اجتلاؤه فهنئت ما عم الجميع هناؤه
قدوماً بخير وافر وعناية وعز مشيد بالمعالي بناؤه
ورفعة قدر لا يداني محلها رفيع وان ضاهي السماء اعتلاؤه
عنيت بامر المسلمين فكلهم بما ترتجيه قد توالى دعاؤه
بلغت الذي املته من صلاحهم فادركت مامولاً عظيماً جزاؤه
فياواحداً اغنت عن الجمع ذاته وقام باعباء الامور غناؤه
بقيت وصنع الله يدني لك المنى ويوليك من مصنوعه ما تشاؤه

هذا ما سمحت به الفكرة التي ركضها الدهر فاضناها . واستشفها الحادث الجلل ونقصاها . والمرجو من المخدوم للخادم العفو عما هو من عثرات القلم لازم فالقلب بلواعج الشوق مشغول والفكر بترادف الاهوال مشغول والعذر عند خيار الناس امثالكم مقبول والا فلسان الشكر وان طال قصير وتحرير جميل المحامد وان حصل الاطناب فيه يسير والله لو جاز ان تسافر نفس عن انسانها او ترحل عين عن انسانها لكنت اول من سبق الكتاب بنفسه لتفوز العين بمشاهدة جمالكم المزري ببدر الافق وشمسه وماكان المملوك يختار المخاطبة بالقلم عن المشافهة بالفم لكن لاحيلة مع المقدور والله ميسر الامور ودمتم سيدي في عز وامان ما استجد الجديدان كتبه عن ود صادق وقلب بشدة الاشواق خافق تلميذكم المفتخر بالانتساب اليكم اي افتخار محكم الطيب ابن المختار اصلح الله احواله واجري على وفق الشريعة المطهرة اقواله وافعاله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

ما نمق المشتاق طرس رسالة بحديث اشواق وبث غرام

حرر في ربيع الثاني سنة احدى وثمانين ومائتين والف

ولما وصل الامير الى دمشق توالت عليه مكاتيب اهل مكة المشرفة والمدينة المنورة يتاسفون على فراقه وبعده عنهم ومن جملتهم شيخ الخطباء في طيبة السيد محمد مدني فاجابه الامير بقوله . الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه وجنده وجيران مضجعه الشريف وحده . امابعد فاني اهدي لحضرة المحب الاخ في المصافي الاصفى ذي الفضائل الجميلة والفواضل نخبة الكرام الاماثل السيد محمد مدني شيخ الخطباء . وتاج الادباء . اوفى تسليمات وازكى تحيات . وانمى بركات الطف من النسيم . واعذب على كبد المحب من التسنيم . هذا وانه بلغنا

245

عزيز كتابكم . وانتعشت الروح بلذيذ خطابكم . واشتفينا بوروده . وبرّد غليل الشوق بعذب مورودِه . واتقينا حر النوى بحواشي بروده . فانه اظهر ما لنا عندكم من رعي الذمام واعرب . واتي بالسحر الحلال واعذب

كتاب كوشي الروض خطت سطوره ... يد ابن هلال عن فم ابن هلال

وانا لهاتيك الحضرة الشريفة وجيرانها . والمعاهد المنيفة وسكانها لفي اعظم اشواق . وفيض اماق . وتمنى عود وتلاق . وما عسى يغني عنا تعليل النفس بالتلاق وكادت الروح تبلغ التراقي

بعد المزار ولوعة الاشواق ... حكما بفيض مدامع الآماق

امعللي ان التواصل في غد ... من ذا الذي لغد فديتك باقي

ولطالما اردنا ترويح النفس بتذكار ايام الوصل . واجتماع الشمل . فيشتد قلقها ويزيد ارقها

وقفنا ساعة ثم افترقنا ... وما يغني المشوق وقوف ساعه

كان الشمل لم يك ذا اجتماع ... اذا ما البين شتت بالجماعه

فالقلب عندكم مقيم . والجسم في عذاب اليم . اذ المراقبة مع المباينة . ليست كالمشاهدة والمعاينة

لئن اصبحت مرتحلاً بجسمي ... فروحي عندكم ابداً مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى ... لذا سأل المعاينة الكليم

وانكم بشرتمونا بانكم نائبون عنا في تقبيل تلك العتبات . ومعتكفون على الدعاء لنا واستجلاب الرحمات . فجزاكم الله عنا افضل الجزاء ووفر حظكم بين الحظوظ والاجزاء . وكافة الاحباب . لا زلتم محفوظين بعناية الحفيظ الوهاب

﴿ ذكر توجه الامير الى الاستانة ثم الى باريس ورجوعه الى الشام ﴾

ولما رجع الامير من الرحلة الحجازية تعلقت همته بزيارة حضرة السلطان الغازي عبد العزيز خان وفي السابع والعشرين من ذي القعدة سنة مائتين واحدى وثمانين والثاني والعشرين من نيسان سنة خمس وستين وثمانمائة توجه الى بيروت ومنها الى الاستانة فاكرمت الدولة العلية نزله واظهرت من الاحتفال به اكمله ومن الاكرام اجزله وعند وصوله تلقاه مامور التشريفات في البابور وبعد اداء ما يليق نزل به الى البر فسار في جماعته بالعربات المهيئة لركوبه الى المحل الذي اعدته

الدولة لنزوله ثم جاء الوكلاء والوزراء والاعيان وسفراء الدول للسلام عليه وكان احضر معه من الشام ثلاثة من جياد الخيل العربية فحصل تقديمهم وحازوا القبول ثم تعطفت الحضرة السلطانية فارسلت اليه تدعوه الى الحضور وكانت المقابلة على غاية ما يكون من الانس والمجاملة وظهر له من اللطف الملوكاني ما اطلق منه اللسان بالشكر له على ما اولاه من الاحسان ثم اخذ الامير في رد زيارات الوزراء وارباب الدولة وسفراء الدول وغيرهم من الاعيان وزار الخرقة الشريفة وانعم السلطان عليه بالنيشان العثماني من الرتبة الاولى جاء اليه به الصدر الاعظم فؤاد باشا ثم انعم السلطان عليَّ وعلى الاخوة برتب ونياشين وعينت له الدولة وابوراً صغيراً للتنزه في البوغاز وعربات يركبها اين اراد واحتفل الصدر الاعظم لضيافته احتفالاً ملوكيًا ودعاه الشريف عبد المطلب ثم تتابعت الضيافات والمآدب

وفي ليلة الجلوس السلطاني دعاه فؤاد باشا الى حضور الاحتفال في منزله ومن عناية السلطان به وحسن التفاته اليه ما ترك له حاجة رفعها الى اعتابه الا امر بقضائها على اكمل الوجوه وفي جملتها شفاعة في اعيان دمشق الذين حكمت الدولة عليهم بالنفي في حادثة دمشق ونفوا الى قبرص ورودس وصدرت الارادة السنية بتسريحهم ورجوعهم الى اوطانهم فقال في ذلك مفتي اللاذقية السيد عبد الرزاق افندي فتاحي الحسيني

لازمة

سلت انتكي من الاحداق هنديا ... خود حكى قدها بالميل خطيا

دور

رشيقة القد بالاعطاف تسبيني ... تسمو بطلعتها حسنًا على العين
رضابها العذب منه الرشف يحييني ... وقد دعاني بفرط الوجد مسميا

دور

يا بانة اللطف كم ذا تهجرين الصب ... مني بطيب اللقا راعي حقوق الحب
متى تجودين يا اخت المهى بالقرب ... لمغرم قد غدا بالشوق مضنيًا

دور

مالي اذا ماجفا الاحباب او بعدوا ... سوى الامير الذي وافى به الرشد
السيد الشهم عبد القادر السند ... مولى غدا مدحه في الكون عطريًا

246

دور

سليل ذي الفضل محيي الدين والحسن في نسبة منتهاها صاحب السنن
بدر الجزا من وافى على سنن غدا به عند رب العرش مرضيًّا

دور

في فتنة الشام كم وفى من الهمم حتى حكى صنعه نارًا على علم
وقد حبته ملوك الارض بالنعم وللفخار نياشينًا زهت زيا

دور

وقد اتم صنيع الخير حيث سرى لباب سلطاننا الاسمى الرفيع ذرا
يرجوه اطلاق من في النفي فاعتبرا منه المقام وبالبشرى له حيا

دور

وقد بلغنا جميعًا غاية الامل بحسن اقدام هذا السيد البطل
من فاق فينا بحسن العلم والعمل لا زال دهرًا من الاسواء محميا

ولهُ في ذلك ايضاً

بشرى فقد نلنا المنى والغم زال والعنا

دور

الله عودنا الجميل من فيض احسان جزيل
لا بد للخطب الجليل من منحة فيها الهنا

دور

كم شدة ذاب الفؤاد منها وجافانا السهاد
قد حفها لطف فعاد فيها لنا يسر دنا

دور

صبرًا اخا العقل السليم وارضى بتقدير الحكيم
فالله ذو الفضل العظيم بفضله قد عمنا

دور

بالصبر قد حزنا الفرج وبه لنا فاح الارج

والغم زال كذا الحرج مع كل كرب احزنا

دور

قد فاز عبد القادر رب الكمال الباهر
بجزيل اجر وافر لما بذا الخير اعتنى

دور

بدر الجزائر ذو العلا من فاق قدرًا في الملا
بحر لوارد حلا وفي العطا مولى الغنا

دور

ليث الوغى رب الندا سامي الذرى شمس الهدى
اهل التقى نور بدا يمحو الدياجي بالسنا

دور

في فتنة الشام الشريف قد سكن الخطب المخيف
بجزمه الوافي المنيف خف البلا عن قطرنا

دور

للوسع اضحى باذلاً وقد رقى منازلاً
وله الملوك عاجلاً اهدوا نياشين الثنا

دور

ثم انتضى العزم الوفي لرد من منا نفي
فحا حمى الليث الصفي بدر الملوك عزنا

دور

سلطاننا عبد العزيز غوث الملا الحرز الحريز
سامي الذرى الغوث المجيز من بالمراد امدنا

دور

الى حماه قد ورد قد فاز منه بالمدد
واجابه فيما قصد وعفا له عمن جنا

247

دور

وحباه نيشان افتخار واحله اوج الوقار
فسما له ذكر وسار مع ما من الخير اقتنى

دور

ندعوك رب العالمين بالمصطفى طه الامين
ايد امير المؤمنين سلطاننا غوث الدنا

دور

واحفظ له اشباله وامنحهمو اقباله
يسر له آماله وافتح له يا ربنا

وله ايضاً

لئن انكر الوغد اللئيم صنائعاً بدت بدمشق من امير الجزائر
فتلك لعمري سطرتها يد العلا على جبهة الدنيا مدى دهر داهر

(وبعد) ان اقام الامير في الاستانة شهرين توجه في الخامس من صفر والثامن والعشرين من حزيران الى فرنسا وفي الثاني عشر من صفر والخامس من تموز دخل مرسيليا فاستقبله حاكمها بالاحترام واهتزت البلد باهلها لقدومه فاذا خرج من محل نزوله تبعته زمر الاهالي ينظرون اليه احتفالاً به واحتفاء وكانت جماعات كثيرة تجتمع في ساحة الدار النازل فيها ويصرخون فليعش الامير عبد القادر وبعد ان اقام اياماً عزم على السفر الى باريس وعين اليوم الذي يسافر فيه ثم ظهر له في التاخر الى اليوم الذي يليه فاتفق ان قطار سكة الحديد في اليوم الذي عدل عن السفر فيه صادمه قطار آخر ملاقياً له فمات فيه نحو الخمسة عشر نفساً وجرح كثيرون فظهر من تاخره ما دل على عناية الله به ورعايته له وفي ثاني ذلك اليوم توجه الى مدينة ليون الشهيرة ومنها الى باريس فاستقبله اعيان الدولة وخرج اهل باريس لرؤيته وحصل في طرقاتها مع اتساعها من شدة الازدحام ما لحق به الضرر للضعفاء والاولاد وكان نزوله في المنتزه الذي اعدته الدولة له وبعد اخذ الراحة اجتمع بالامبراطور نابليون الثالث فرأى من انسه ولين جانبه ما يعجز الواصف ان يصفه واستمر جلوسه عنده نحو الساعة ثم اجتمع بوزراء الدولة وامرائها وقادة الجيوش

فمن دونهم من المامورين وكلهم فرحون مبتهجون بمشاهدته معجبون بحسن مجالسته ولذيذ محادثته وكان اذا خرج الى محل تسابق الناس الى الطريق التي يسلكها وكلما مر بجماعة يصرخون ليعش الامير عبد القادر ودعاه سائر امرآء العائلة الامبراطورية النابليونية الى منازلهم واحتفلوا لضيافته بانواع الزينة وغيرها من دواعي السرور وفي العاشر من ربيع الاول واول اغسطوس توجه الى لوندره فاستقبله وزير الخارجية في جماعة من الاعيان بالاعزاز والاعظام وكانت الملكة وولي العهد وقتئذ في اطراف الجزيرة واظهر اهل لوندره السرور بوفادة الامير الى بلادهم ولهجت به جرائدهم واطنبت في مدحه بما شاهده الاهالي من لطفه وكماله وافتخرت بزيارته بلادهم على غيرها من مدن اوربا وبعد ان اقام اربعة ايام رجع الى باريس ثم توجه الى سراية فرسالي فجال فيها وجاس خلال منازلها العظيمة ونظر الى ما فيها من الصور الحديثة والقديمة ثم دخل الى محل فيه صور الحروب التي جرت بينه وبين جنود فرنسا فتتبع بنظره تلك الصور فرأى في جميعها نصرة الجيوش الفرنسوية وغلبتها فالتفت الى الجنرال المحافظ على ذلك القصر وقال له ولمَ لم تثبتوا صوَر الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم وكانت الدبرة فيها عليهم فضحك الجنرال ومن كان حاضرًا معه من الاعيان وايدوا كلام الامير وصوبوه ثم نزل الامير الى الجنينة في ساحة السراية وصلى الظهر بمن معه من رفاقه ثم ودع الجنرال وركب العربة المعدة له وتوجه الى غابة بلونيا وصلى العصر بمرأى من جموع كثيرة اجتمعت لرؤيته . اخبرني بعض من كان حاضرًا معه ان جميع من كان موجودًا في ذلك اليوم بتلك الغابة من الفرنساويين وغيرهم وقفوا صفوفًا ينظرون الى صلاته ويمدحونه على اظهار شعائر دينه ثم قال والحق يقال ان منظر الامير منتصبًا للصلاة امام الجميع خاشعًا لحضرة الحق تعالى لمن المناظر التي تتحرك بها القلوب وتصرفها الى جانب الحق تعالى وبعد ان اتم صلاته توجه الى محل نزوله واتخذت الحكومة على محل صلاته سياجًا من حديد احترامًا له وهو موجود لهذا العهد ثم دعاه الامبراطور الى معسكر شالون ليحضر معه موسم عيده فاقام عنده يومين في اعزاز واكرام ثم رجع الى باريس وتوجه الى برست وحضر الاحتفال البحري وكانت الدوارع الفرنسوية والانكليزية راسية في مينا تلك البلدة فجرى للامير الاستقبال العجيب من الوزراء وقادة البوارج وضباطها وضربوا له المدافع واجروا الحركات الحربية ولم يتركوا شيئًا من انواع الزينة البحرية الا اجروه ثم رجع الى باريس وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور ركب سكة الحديد الى مدينة امبواز التي اقام فيها اسيرًا اربع سنين ولما وصل

محطتها وجد جميع سكانها ينتظرون وصوله فقابلوه بالفرح والسرور ومشى الاعيان والوجوه بين يديه الى محل نزوله ثم قام احد الاعيان وتلا خطبة مدح فيها الامير وفي اليوم الثاني دعاه حاكم البلد الى محله واحتفل لضيافته باسم كافة اهل البلد فكانت وليمة شائعة حافلة حضرها جميع وجوه المدينة واعيانها وتليت خطب الشكر للامير والثناء الجميل عليه حيث شرف مدينتهم وراعي ما كانوا عليه ايام اقامته عندهم من الخلوص والمودة له ثم شيعوه الى المحطة مظهرين شعائر الاسف على سفره . وايام اقامته في باريس دعي الى منازل الوزراء ورجال الدولة والقسيسين وكان اكثرهم يطلبون منه ان يكتب لهم شيئاً يتذكرونه به فكان يكتب لكل واحد ما يناسب حاله ومقامه فيكتب لهذا بيت شعر في المدح ولهذا في الموعظة وللآخر حكمة من حكم الاقدمين وهكذا فكانوا لذلك من الشاكرين له متعجبين من المناسبات التي يقفون على سرها ويصلون بافهامهم الى المراد منها وفي اثناء المحادثة كلم الامبراطور في شان الشيخ شمويل الداغستاني بقوله ان الناس لما علموا شدة اعتنائكم بشؤوني وحسن التفاتكم اليّ صاروا يتعلقون بي في مصالحهم الجسيمة وهذا الامام شمويل المحبوس عند ملك الروس قد كتب اليّ مراراً لما كنت بالشام وفي مكة المكرمة يريد مني السعي بهمتكم في خلاصه الى بلاد الاسلام والآن ارسل اليّ رسولاً مخصوصاً لهذا الامر وقال ان عمره قارب السبعين فهو يحب ان يموت عند المسلمين ولما كنت في الاستانة تذاكرت مع سفير روسيا في امره فاجابني بان شمويل طلب منذ اربع سنين من الملك ان يطلقه من حبسه الى مكة وان الملك اجابه بان يصبر الى نهاية الحرب في داغستان والحرب انتهت الآن واحوال داغستان قد انصلحت واستقامت فلا مانع من اطلاقه ولكن لا يكون ذلك الا بعد انتهاء مهاجرة الجراكسة من بلادهم الى بلاد الدولة العلية وربما يتم ذلك في مدة ستة اشهر ثم اني تكلمت مع الصدر الاعظم ووزير الخارجية في مدة اقامتي في الاستانة في هذا الامر فقالا اذا اطلق ملك الروس سراح الشيخ شمويل فالدولة العلية تقبله في ممالكها وبناء على هذا فاذا حسن عند حضرتكم فاني اذهب برسم الزيارة الى قيصر الروس وتقديم الشكر على النيشان الذي ارسله اليّ ثم اطلب منه تسريح شمويل واني لم اعتن في امره الا لكونه سلك في الطريق الذي سلكته وكل انسان يميل بالطبع الى شبيهه ولا سيما انه اسير كما كنت اسيراً مدة طويلة ولولا ان العناية الالهية استعملتكم في خلاصي واطلاق سراحي لما كنت تخلصت . ولما بلغ الامير تاسف ملكة انكلترا على عدم حضورها في لوندره حين شرف اليها كتب الى ولدها وولي عهدها ما نصه

المعروض منذ زمان اترقب فرصة احضر فيها الى عاصمتكم الملوكية واجتمع فيها بحضرة الملكة وحضرتكم ولما تهيأت الاسباب توجهت نحوكم فلم يقدر الله لنا ما نويناه من الاجتماع وبعد ان اقمنا في لوندره اربعة ايام وقام بضيافتنا فيها وزير الخارجية وغيره من اعيان الدولة رجعنا الى باريس شاكرين لهم وقد ارسلت مكتوبي هذا الى سموكم لينوب عني بما امكن في تقرير الحال لديكم حرر في رابع اغسطوس سنة خمس وستين وثمانمائة

ولما علم الامبراطور نابليون ان المرتب المرسوم للامير غير كاف لمصارفه الكثيرة امر له بزيادة خمسين الف فرنك في السنة من خزينته الخاصة ثم بلغ الامير ان زوجة الامبراطور كانت السبب في هذه الزيادة فكتب لها يشكر فعلها وشدة اعتنائها باموره بقوله اما بعد فان وزير الخارجية اخبرني بان حضرة الامبراطور وفقه الله زاد في مرتبي خمسين الف فرنك ثم اخبرني الجنرال فلوري بان حضرتك كنت السبب الاقوى في حصول هذا الخير الجسيم لنا فحملني ذلك على ان اشكر صنيعك معنا وسعيك في عمل الخير زادك الله توفيقاً الى مثل هذا المبرات التي لا شك انها تخلد لكم ذكراً حسناً في العالم وفي ايام اقامته في لوندرا قدمت الى حضرته الجمعية المؤسسة لحماية بني الوطن فيها تحريراً صورته

الى سمو الامير عبد القادر اما بعد فنحن الواضعون اسمانا في هذا التحرير عمدة جمعية حماية بني الوطن قد سررنا وابتهجنا عند ما سمعنا بوصولك الى عاصمتنا لاننا نحب شخصك ونحترمه نظراً لما نعرفه من حسن اخلاقك وصفاء طويتك لسائر عباد الله ولا يخفى ان مبادي هذه الجمعية التي نحن مرتبطون بها توجب علينا ان نحب ونحترم ابناء الشرف وتلزمنا بمراعاة مصالحهم وقد رجح ميلنا لنحوك لانك مملوء بالشفقة والرحمة على عباده تعالى وبرهان ذلك ما ابديته مع الوف من مسيحيي دمشق حين التجوأ اليك فانك آويتهم وبالغت في الاحسان اليهم مع انهم ليسوا من ابناء دينك فنحن الان بالنيابة عن نصارى هذه العاصمة نؤدي لك الشكر والثناء الجميل حيث انك جبرت المنكسرين ثم نخبرك اننا قد تمثلنا بين يدي امبراطور فرنسا واديناه له ما يليق بعظمته من الشكر على احسانه الى سكان الجزائر ونفرح الان بكوننا نخاطبك ايها السيد المحترم ونسأل الله تعالى ان يديك رحمة للمساكين زمناً طويلاً وقبيل سفره زاره رؤساء بلدية باريس وقدموا له ثلاث مادليات الواحدة مموه بالذهب والثاني مموه بالفضة والثالث نحاس في الجهة الواحده نصف صورة الامير مكتوب على دائرتها عبد القادر بن محيي الدين امير افريقيا الشمالية محامي المسيحيين المظلومين

ولد في معسكر سنة ٨٠٧ ومكتوب في الجهة الثانية جيكورتا الثاني قاوم اقوى امة في الارض ستة عشر سنة سلم سيفه في دسمبر سنة ٨٤٨ اعطاه نابليون الحرية سنة ٨٥٢ حامي مسيحيي الشام سنة ٨٦٠ فرانسا التي حاربها تحبه وتفتخر به وبعد هذه الكتابة صورة يدان يتصافحان وجيكورتا اسم رجل من افريقية حارب الرومانيين ودافعهم عن وطنه وبعد ان قضى الامير جميع مآربه في باريس ودع الامبراطور ووزراءه واعيان باريس ووجوهها وخرج منها في الثاني عشر من ربيع الثاني والثاني من سبتمبر قاصداً دمشق وحصل له في الطريق مزيد الاكرام والاحترام لا سيما في مدينة ليون الشهيرة فان حاكمها جمع عساكرها واجرى في ساحتها بين يدي الامير حركات حربية عجيبة قسم فيها العسكر الى برية وبحرية واتفق ان البرية انكسر جانب منها فامدها الجنرال مونتوبان وهو القائد الاكبر بكتيبة من البحرية وكان نهر ليون العظيم حائلاً بين الطائفتين فلما امر العسكر بالجواز الى العدوة الثانية لنجدة الفئة المنهزمة وضع كل واحد منهم دفة كانت معه على متن الماء بازاء دفة الآخر فصاروا جسراً واجازوا عليه وفي اقرب وقت كانت تلك النجدة حاضرة في الميدان دافعة للفئة الغالبة فعجب الامير من تلك الكيفية الحربية الغريبة في سرعة الحركة ولما وصل الى مرسليا استقبله حاكمها واعيانها استقبالاً بهر عقل من شاهده ومنها ركب البحر الى بيروت وتوجه الى دمشق على احسن الاحوال واكملها فدخلها على اكمل الهيئات واجملها

﴿ ذكر ما اجاب به الامير عن اسئلة ارسلها اليه الجنرال دوماس الفرنساوي ﴾

وهذا الجنرال من اكبر قواد الجنود الفرنساوية في الجزائر الذين اشتهروا بالاقدام في حروبها العظيمة ووقائعها الجسيمة مع الامير وكان تعين عنده وكيلاً بام عسكر في المعاهدة الاخيرة وتعلم اللسان العربي واطلع على اشياء من احوال اهل الوطن فكتب اسئلة تتعلق بذلك و بعثها الى الامير وطلب الجواب عنها ونحن نذكر كل سؤال منها مع جوابه فنقول

﴿ السؤال الاول ﴾

قد راينا المسلمين يتزوجون من غير ان ينظر احدهم الى من يريد ان يتزوج بها وربما عند الاجتماع يجد كل منهما الآخر منافياً لمطلوبه فيقع النفور من احدهما او منهما

معاً وهذا يؤدي الى سوء المعاشرة مدة حياتهما او الى الفراق لا محالة

الجواب

ان المسلمين لا يتزوج احدهم الا بعد النظر الى من يريدها من النساء او يرسل امرأة عاقلة عارفة بما يستحسنه الخاطب ويستقبحه من صفات النساء واحوالهن فتنظرها ثم تخبره بما رأته من صفاتها واحوالها واعلم ان شرع الاسلام لا يمنع من النظر بل يجوز للرجل اذا اراد ان يتزوج بامرأة ان ينظر الى وجهها ويديها ورجليها كما يجوز للمرأة ان تنظر الى الرجل الذي تريد ان تتزوج به وقد ورد في الحديث الشريف ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اراد احدكم ان يتزوج بامراة فلينظرها فان بذلك تدوم الالفة والمحبة بينهما ومن كلام العرب في هذا المعنى كل نكاح وقع من غير رؤية فعاقبته همّ وغم فالتزويج من غير رؤية غرر والغرر يكون في الجمال وفي الاخلاق فالغرر في الجمال يزول بنظر كل من الرجل والمراة الى الآخر والغرر في الاخلاق يزول بسؤال الجيران ومن يخالط كلا منهما ولا يصدق في الخبر عن الجمال والاخلاق الا من كان عالماً بهما صدوقاً في خبره لا يميل الى احد الطرفين فيزيد في المدح ولا يحسدهما فيقصر في الوصف دون ما هو كائن ومن كلام العرب اربعة لا تقدم عليها حتى تسأل الخبير بها عنها المرأة لا تخطبها حتى تسأل عن منصبها وخلقها وخلقها والطريق لا تسلكها حتى تعرف انها مامونة او مخوفة والبلد لا تستوطنها حتى تطلع عن سيرة سلطانها واخلاق اهلها والسوق لا تقصدها حتى تعلم نافقها من كاسدها ومن كلامهم الندامات ثلاثة ندامة يوم وندامة سنة وندامة العمر فندامة اليوم بان يخرج الرجل قبل الغذاء وندامة السنة بترك الزراعة في وقتها وندامة العمر بان يتزوج من غير نظر ولا سوال خبير

السؤال الثاني

ان المسلمين يتزوجون من غير ان ياخذوا من الزوجات مالاً وانما الزوج يدفع للمرأة الصداق وبذلك يحسبها ملكه ويجعلها بمثابة الاشياء التي تشترى

الجواب

ان المرأة اذا كان لها مال فان شرع الاسلام يلزمها ان تاتي منه معها بقدر صداقها الذي دفعه الزوج لها فان لم يكن لها مال فلا يلزمها شيء ولا يتزوج المرأة لاجل مالها الا أخساء الناس فاكثر المسلمين لا يتزوجون النساء لمالهن ويقبح على الرجل الكريم ان يخطب امرأة ويسأل عن مالها ومن كلام العرب اذا خطب الرجل المرأة وسأل

عن مالها فهو سارق لص وقالوا هذا فعل يشبه التجارة وليس من مقاصد النكاح ولا من مكارم الاخلاق فاذا كان الحامل للرجل والباعث له على تزويج المرأة مالها فقط فلا شك انها لا تدوم الالفة بينهما لان المال عرض زائل فاذا زال المال زالت الالفة وكذلك اذا منعت المراة مالها من الزوج ومن كلامهم يلزم ان يكون الرجل فوق المراءة بثلاثة اشياء المال والسن والشرف والا احتقرته ومن كلامهم اياك ان تتزوج المراءة التي تنظر لما في يديها بل تزوّج من تكون هي تنظر لما في يديك فاذا كان المال تابعاً للجمال والشرف دامت الالفة واعلم ان العرب لما كانوا يحبون النساء محبة شديدة كانوا لا يسألون عن مال المراءة ولا تجد امراءة بلغت حد التزويج وهي بلا زوج بخلاف غيرهم فانك تجد المرأة التي لا مال لها في سن الثلاثين والاربعين وهي من غير زوج لانهم لا يحبون النساء لذواتهن بل يحبونهن لدراهمهن ولو دفع الرجل العربي للمراة قناطير الذهب والفضة لا يحسبها ملكه ولا يجعلها بمثابة الشيء المشترى كما زعمتم وانما يرى ان الفضل له عليها لان الله فضل الذكر على الانثى فاول ما خلق الله الذكر ثم خلق الانثى منه فالذكر اصل والمرأة فرع والاصل اشرف من الفرع وفي العهد القديم في سفر التكوين قال الله لحواء تكونين تحت سلطان الرجل وهو يتسلط عليك فاذا خالف الرجل هذا وصار تحت قهر المراة فقد خالف حكمة الله واستحق الغضب من الله لان الله جعل الرجل متبوعاً لا تابعاً وآمراً لا مأموراً وناهياً لا منهياً وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن عند الزفاف كيف يختبرن ازواجهن فتقول الام لابنتها يا بنية اختبري زوجك قبل الاقدام والجراءة عليه فانزعي زج رمحه فان سكت فقطعي اللحم على ترسه فان سكت فكسري العظام بسيفه فان سكت فاجعلي البرذعة على ظهره واركبيه فانه حمارك

السؤال الثالث

من عادة المسلمين انهم يتزوجون اربعة من النساء ويتخذون ما يقدرون عليه من الجواري فنحن نتعجب من الحرة كيف تعيش مع الجارية وربما تكون هذه العادة سبباً في فساد العشرة ونزاع الورثة وقوة الغيرة ومباغضة الاولاد بينهم فينقلب الامر المطلوب ويفسد العيال والذي ينبغي للرجل ان لا يحب امرأة اكثر من الاخرى فكيف يعمل اذا فسدت العشرة وبماذا يصلح فسادها وما الذي عندكم في الشرع حين تقع المنازعة بين النساء اعني ما الذي يفعله الرجل في

الصلح بينهن ً

الجواب

ان الله تعالى خلق النساء لتكثير الاولاد وتفريقهم في اقطار البلاد ومن اراد تكثير الغلة يكثر المزارع ويجعلها اكثر من الحارث والله تعالى ما افترض على الرجل تزويج اربع نسوة وانما افترض عليه سلامة الدين والكف عن الزنا فمن كانت سلامته في واحدة فهو افضل ومن لم يسلم دينه بواحدة اذن له في ان يتزوج اكثر من واحدة فالله تعالى لا ياذن لعباده في فعل ما فيه ضرر فلو كان في فعل ما ذكرته ضرر ما فعله الانبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الاصحاح التاسع والعشرين ان يعقوب تزوج ليا وراحيل وفي الاصحاح السادس والعشرين ان عيصو اتخذ نساء منهن يهوديت وبسمات وفي سفر التكوين في الاصحاح الرابع فاخذ له لامك امرأتين اسم احداهما عادى واسم الاخرى صالى والجماع اعظم اللذات الجسمانية رأيت في بعض الكتب ينفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه في الصدقة ان اراد الآخرة وفي مصانعة السلطان ان اراد الدنيا وفي النساء ان اراد لذة العيش ومن كلام العرب ذهبت اللذات الا من ثلاث الخلوة بالنسوان وشم البنين وملاقات الاخوان ومن منافع الجماع انه يبسط النفس ويفرحها ويطرد الغضب ويذهب الافكار الرديئة والظنون السيئة ويُسكن عشق العاشق اذا اشتد عليه والاكثار من الجماع في امراة واحدة لا يكون لذيذاً في الغالب لان ملازمة الشيء الواحد يوقع في الملل والقرف وقد اتفق الاطباء على ان اشد ما يساعد على تنبيه الشهوة بعد اليأس منها تجديد النساء والجماع عظيم النفع لاصحاب الابدان القوية ولما كانت الشهوة تغلب على مزاج العرب كانوا اكثر الناس نساء لانهم يقدرون على كثرة الجماع واكثرهم لا تكفيه المرأة الواحدة بل تبقى نفسه مشوشة فيلزمه ان يزيد حتى تستريح نفسه ولا يتشوق للزنا ومن المعلوم ان كثيراً من نساء العرب يشتكون ازواجهن من كثرة الجماع ويدعونهم الى القاضي للمحاكمة ومن العرب من يكرر الفعل مرات عديدة في ليلة واحدة وربما تقول ان هذا شيء سمعت به لا انك رايته فيحتمل الصدق والكذب فاخبرك عن نفسي فاني اكرر الفعل في الليل والنهار ولا تمضي عليّ اربعة وعشرون ساعة من غير جماع الا في القليل النادر من الزمان وذلك لعذر كسفر ونحوه ومن كانت هذه حالته فهو محتاج لتكثير النساء فاذا كانت له امرأة واحدة وحاضت او نفست او مرضت او سافرت فلا يقدر

على الصبر واذا لم يجد محلاً حلالاً يدعوه الشيطان الى الزنا فيهلك ومن المعلوم عند الاطباء انه اذا حصل للرجل ما يوجب انزال الماء الى الاوعية كتذكار واحتلام وكان الانسان قويًا وترك الجماع وقع في الامراض العسرة البرء فاذا كان عند الرجل اكثر من واحدة لا يحصل له ضرر ولا يزني في الغالب واما غير العرب فيكفي الرجل منهم امراة واحدة وربما لا يقوم بحقها ولا يشبعها نكاحًا ومن الاسباب التي اوجبت كثرة النكاح في العرب حلق شعر العانة من الرجل والمرأة فان عدم الحلق ينقص الشهوة ويضعفها ومنها استعمال نساء العرب للروائح الطيبة كالمسك والعنبر فان الطيب من اقوى الدواعي للوطء ومنها الختان فان الغصن اذا قطع وزبر قوي واشتد وغلظ وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقًا ضعيفًا كما هو مشاهد وهذه الاشياء لا يستعملها الا العرب وقولكم ويتخذون ما يقدرون عليه من الجواري كذلك هو حلال في شرع الاسلام وفي الشرائع القديمة وفعله الانبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الاصحاح السادس عشر ان سارة امراة ابراهيم كانت لها امة مصرية اسمها هاجر فقالت لبعلها هوذا حرمني الرب الولد فادخل على امتي فدخل بها فحبلت وفي الاصحاح الثلاثين ان راحيل اعطت امتها نبها الى يعقوب وولدت له ولدين وكذلك امرأته ليا اعطته زلفا وولدت له ولدين وفي الاصحاح الثاني والعشرين ان سرية ناصور اخي ابراهيم اسمها روما ولدت له طابخ وحاجم وناخس ومعكا وكان لنبي الله داود عليه السلام عدة كثيرة من الجواري ولابنه سليمان سبعمائة امراة وثلاثمائة سرية والعرب يحبون اولاد الجواري ويقولون ليس قوم اكيس من اولاد الجواري لانهم يجمعون بين عز العرب وعلو همتهم وبين دهاء العجم وكمال عقولهم ومن كلامهم اذا كانت المرأة لا تلد واتخذ زوجها جارية فانها تلد بسبب الغيرة وقولكم ونحن نتعجب من الحرة كيف تعيش مع الجارية فاعلموا ان الجارية لا تصل في المقام والمنزلة الى مقام الحرة ومنزلتها بل دائمًا تكون في قبضتها وتحت امرها تقبل يدها ورجلها وتخدمها ولا تخرج عن طاعتها وامرها ونهيها ولا تحدثها نفسها انها تساوي سيدتها ولا يمكن ان يقر بها سيدها الا سرًا من الحرة ولذلك تسمى سرية اخذًا من السر وقولكم ينقلب الامر وتفسد العشرة الخ هو حق ولكن في حق الفقير واما اذا كان الرجل غنيًا يجعل لكل امرأة دارها وحدها ويعطيها ما تطلبه من الامور اللازمة فلا يحصل كبير ضرر وقولكم ينبغي للرجل ان لا يحب امراة اكثر من الاخرى وهل يقدر على ذلك جوابه ان التسوية بين الزوجات في المحبة ليس بلازم في الشرع لان الحب لا اختيار للانسان فيه حتى يقدر على فعله وتركه بل هو امر ضروري لا قدرة له على دفعه ولا

على الزيادة فيه ولا النقص منه بل هو على حسب ما يضعه الله في القلب وللمحبة اسباب في المحبوب اما جمال او احسان والقلوب مجبولة مقهورة على حب الحسن والاحسان ولا يقدر الانسان ان يبغض الوجه الحسن ولا من يحسن اليه قال بعض الشعراء

في وجهه شافع يمحو اساءته   من القلوب وجيه اينما شفعا
مستقبل بالذي يهوى وان كثرت   منه الذنوب ومعذور بما صنعا

ولا يقدر الرجل ان يسوى بين زوجاته في الحب ابداً ولا يعاقبه الله على ذلك ولا يلزمه التسوية بينهن في الجماع وانما تجب التسوية في المبيت فقط يبيت عند هذه ليلة بنهارها وكذلك عند الاخرى وتجب عليه التسوية ايضاً بينهن في اللباس والاكل والفرش والكلام والمباسطة وفي كل ما يرضيهن ويطيب قلوبهن واذا ظلم امراة بليلتها قضى لها ليلة اخرى واذا اراد السفر يجعل القرعة بينهن فمن خرجت قرعتها سافر بها واذا رجعت من السفر لا يحاسبها ضرائرها بايام السفر وقولكم وما الذي عندكم في الشرع حين تقع المنازعة بين النساء اعني ما الذي يفعله الرجل في الصلح بينهن اقول انه يلزمه ان يبحث عن الظالمة من نسائه فيعظها ويخوفها فان تابت فذلك وان لم تتب فانه يهجرها ويترك الكلام معها واذا نام عندها في الفراش يوليها ظهره يفعل معها ذلك ثلاث ليال الى عشر ليال والى شهر فاذا تابت وطلبت العفو حصل المراد والا فالطلاق والفراق

« السؤال الرابع »

رايت الناس يلومون العرب على ضربهم نساءهم وعلى استعمالهن في الخدمة فوق طاقتهن وعلى قلة المبالاة بهن وهم مستريحون لا يخدمون ولا يعملون شيئاً

« الجواب »

لا يضرب النساء الا او باش الناس والسفهاء الذين لا دين لهم ولا مروءة واما افاضل العرب واهل الدين منهم فانهم لا يفعلون مع النساء اذا فسد حالهن الا ما يطيب قلوبهن ويرضيهن من حسن الكلام ولين الخطاب والمداراة والتلطف حتى ان الرجل يجوز له ان يكذب على زوجته و يعدها ويمنيها اذا رأى ذلك يكون سبباً في طيب قلبها ورضاها واذا فسد حال المرأة ولم تنفع فيها المداراة ولين الجانب فانه يفعل معها ما اذن فيه الشرع من الوعظ والهجر ثم الضرب الخفيف الذي لا يغير جلداً ولا يسيل دماً وقد نهى شرع الاسلام عن ضرب النساء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا

يضرب النساء الا اشرار الرجال وكان صلى الله عليه وسلم عند موته يوصي بالنساء ويقول استوصوا بالنساء خيرًا حتى ثقل لسانه وخفي كلامه وقد جاءت الوصية بالنساء في القرآن في مواضع كثيرة فيلزم الرجل تحسين خلقه مع النساء واحتمال الاذى منهن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صبر على خلق امرأته اعطاه الله من الاجر ما اعطى ايوب على بلائه وليس حسن الخلق بالمرأة كف الاذى عنها بل احتمال الاذى منها والحلم عند غضبها واما خدمة النساء وتكليفهن فوق طاقتهن وعدم خدمة الرجال فهذا ما رايناه ولا نعرفه بل الذي رايناه وعرفناه هو ان الرجل اذا كان غنيًا فزوجته لا تخدم شيئًا وان كان ولا بد فانها تخدم الخدمة الخفيفة داخل البيت بشرط ان لا يحصل لها بها ادنى ضرر وان كان الرجل فقيرًا فهو يخدم الخدمة التي تناسب الرجال كخدمة الفلاحة والمواشي والتجارة والمراة تخدم الخدمة التي تناسب النساء كالغزل والنسيج والخياطة والطبخ في الحاضرة وسقي الماء والاحتطاب في البادية واذا كان الرجل صاحب دين ومروءة فلا يكلف زوجته بخدمة خارجة عن البيت ولو كان فقيرًا فهو يسقي الماء ويحتطب على ظهره ولا يمكن زوجته من الخروج من البيت

﴿ السؤال الخامس ﴾

بنات الاكابر من المسلمين لا همة لهن الا في زينتهن وتبرجهن بحيث انهن لا ينظرن الى غير ذلك ولا يحسن بالمرأة ان تهمل اوقاتها وتفوتها في البطالة فان ذلك ينشأ عنه شرور كثيرة

« الجواب »

ان المرأة عند المسلمين لا تترك الخدمة كما سبق سواء كانت من بنات الاكابر او بنات الاصاغر فاذا كان زوجها فقيرًا تشتغل بالخدمة دائمًا واذا كان زوجها غنيًا تشتغل بالخدمة في اوقات مخصوصة لا في سائر الاوقات وما سمعنا بامرأة معرضة عن الخدمة مقبلة على اللهو والبطالة الا اذا كانت صغيرة لا تدرك ولم تصل الى حد التكليف بشؤون الخدمة ومن اخبرك بخلاف هذا فقد اخطأ وقد كان والدي من الاشراف الاغنياء وكان في بيته نحو الستين نفسًا بين خادم وخادمة ومع ذلك فان بناته ونساءه لم يتركن الخدمة اللائقة بهن في اوقاتها المخصوصة . حكي ان امرأة من العرب كان ابوها اميرًا وزوجها اميرًا وهي تغزل الصوف فقيل لها لمَ تغزلين

وانت شريفة غنية عن الغزل فقالت انه يطرد الشيطان ويقطع حديث النفس ومن اقوال العرب خير لعب المرأة بالغزل والابرة واما اشتغال المرأة بالزينة في اوقات مخصوصة فهو مطلوب منها لان التزين من الاسباب التي تدوم بها الالفة والمحبة بين الزوجين قال بعض العرب ان المرأة تنال محبة زوجها بعد تمام حسن خلقها وكمال خلقها بان تكون مداومة على الزينة عارفة بما يزيد في حسنها من انواع الحلي واختلاف الملابس وبما يستحسنه زوجها واتفق حكماء العرب والعجم على ان اثارة الشهوة لا تكون الا بالموافقة التامة من المرأة ولا شك ان تزينها لزوجها مما تتم به الموافقة ومن كلام العرب في الامثال عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله ويلزم الرجل ان يتزين لزوجته بما هو من زينة الرجال فان المرأة تحب ذلك ولا تطمح نفسها الى غير زوجها اذا رأت رجلاً جميلاً فكما ان الرجل اذا كانت له زوجة وسخة قذرة ورأى امرأة متزينة نظيفة الثياب يشتهيها قلبه كذلك المرأة اذا رأت زوجها قذرًا وسخًا ورأت رجلاً آخر نظيفًا جميلاً تشتهيه نفسها

«السؤال السادس»

ان المسلمين نرى الرجل المسن منهم يخطب البنت الصغيرة ويأخذها وعند النصارى هذا عيب ووقاحة وقليل من يصبر على هذه الوقاحة ويأخذ بنتًا صغيرة وهو كبير هرم

«الجواب»

هذا غير مسلم بل فيه عيب كبير عند المسلمين وقليل من يفعله منهم نادر والنادر لا حكم له اذ الغالب فيه عدم الالفة والمحبة من البنت الصغيرة للشيخ غير مرجوة بل لا بد ان تكرهه وتنفر من شيبه ومن طبع النساء النفور من الشيب قال امرؤ القيس

ان تسألوني عن النساء فانني خبيرٌ باحوال النساء طبيبُ
اذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس لهُ في ودهنَّ نصيبُ

وقال بعض العرب وقد كان شيخًا شائبًا رأيت امرأة جميلة فقلت لها ايتها المرأة ان كان لك زوج بارك الله لك فيه والا فاخبرينا فقالت له فيَّ شيء لا تحبه قال قلت ما هو قالت شيب في راسي وتبسمت ضاحكة من قولي فذهبت عنها فقالت لي ارجع والله ما بلغ سني عشرين سنة وهذا راسي ولكن الشيب في راسك فاعلمتك اننا نكره منكم ما تكرهونه منا وقيل لامرأة من العرب ما تقولين في ابن عشرين سنة قالت ريحانة يشم قيل لها فابن ثلاثين قالت قوي متين قيل لها فابن اربعين قالت ابو بنات

وبنين قيل لها فابن خمسين قالت يجوز في جملة الخاطبين قيل لها فابن ستين قالت صاحب سعال وانين وعندنا اذا صبغ الرجل شيبه وتزوج المرأة واوهمها انه شاب فان الشرع يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله وكان رجل خطب امرأة وصبغ شيبه فعرفت المرأة ولامته فقال

قالت اراك خضبت الشيب قلت لها ... سترته عنك ياسمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت من تعجبها ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وكذلك المرأة العجوز اذا تزوجت شاباً صغيراً يتخذها الناس هزوءاً وسخرية

« السؤال السابع »

المرأة عند النصارى تحب على ما فيها من الخصال الجيدة التي حصنتها وافعالها الجميلة واما عند المسلمين فانها لا تحب الا على حسب جمالها في الكثير وفي القليل على حسب اصلها

« الجواب »

ان المسلمين يحبون المرأة الجميلة اذا كان مع الجمال دين وصيانة وانما يرغبون في المرأة الجميلة لان الالفة والمحبة لا يحصلان في الغالب الا مع الزوجة الجميلة والطبع لا يكتفي بالمرأة القبيحة المنظر واما الجمال الذي لا صيانة معه فهو مذموم وقلما توجد الاخلاق الجميلة والآداب الا تابعة للحسن لان الظاهر عنوان الباطن والبدن بما فيه مطابق للنفس وصفاتها فحسن الخلق والخلق لا يفترقان في الغالب ومن امثال العرب حسن الصورة اول السعادة والنظر الى الوجه الحسن يورث الفرح ويزيد في نور البصر والنظر الى الوجه القبيح يورث العبوسة ويضر البصر وللجمال سلطان على النفوس الشريفة تخضع وتذل له واما النفوس اللئيمة فلا فرق عندها بين جميل وقبيح وهي النفوس البهيمية . يحكى ان احد ملوك الفاطميين قال شعراً من جملته

نحن قوم تذيبنا الاعين النجـ ... ـل على اننا نذيب الحديدا
وترانا لدى الكريهة احرا ... راً وفي السلم للغواني عبيدا

فاتفق انه غزا الشام وحاصر مدينة بها فلما اشرف على اخذها قالت لاهلها امرأة منهم كانت مشهورة بالجمال انا ارحله عنكم فخرجت اليه متنقبة وقالت انت القائل نحن قوم تذيبنا الاعين النجل الى آخر البيتين قال نعم فازالت النقاب عن وجهها وقالت له أجمالاً ترى قال نعم والله فقالت له ان كنت صادقاً في قولك انك عبد للحسان فارحل عن هذه المدينة فرحل من يومه والجمال الذي تحبه العرب

هو ان يكون في المرأة اربعة سود واربعة بيض واربعة حمر واربعة كبار واربعة صغار واربعة واسعة واربعة ضيقة اما السود فشعر الراس وشعر الحاجبين واشفار العينين والحدقتان واما البيض فاللون وبياض العينين والثغر والظفر واما الحمر فالوجنتان والشفتان واللسان واللثة واما الكبار فالثديان والفرج والركبتان والعجيزة واما الصغار فالاذنان والفم واليدان والرجلان واما الواسعة فالجبين والعينان واصول الثديين والسرة واما الضيقة فالمنخران والاذنان والخصر والفرج وكانت العرب تحب المراة الزرقاء العينين ويتشيمون بها وقولكم وعلى حسب اصلها في القليل فاعلم ان العرب كانوا يرغبون في الجمال والاصل معًا ولما جاء الاسلام رغبوا في المرأة ذات الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين اي اخترها وقربها من بين سائر النساء وقال لا تنكحوا المرأة لما لها فلعل مالها يطغيها ولا لجمالها فلعل جمالها يرديها وانكحوا المرأة لاجل دينها فاذا كانت المرأة جميلة متدينة من بنات الاصل فهي الغاية عند العرب لانها اذا كانت اصيلة تربي اولادها مثل تربيتها ولانها تلد مثل ابيها واخيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم فان العرق نزاع وقال بعض العرب انا لا اتزوج المرأة حتى انظر الى ولدي منها فقيل له وكيف ذلك فقال انظر الى ابيها واخيها وعمها فانها تلد مثل احدهم لا محالة والحاصل ان الخصال المطلوبة في المرأة المطيبة للمعيشة التي لا بد من مراعاتها ستة الديانة وحسن الخلق والجمال والولادة والبكارة والنسب فاذا كانت دينة صانت فرجها وصانت وجه زوجها من المعرة بين الناس واذا كانت حسنة الاخلاق كان زوجها في راحة بخلاف ما اذا كانت سيئة الاخلاق جاحدة للنعمة كان الضرر منها اكثر من النفع واذا كانت حسنة الوجه كفت نظر زوجها عن النظر الى غيرها وحقنت فرجه من الزنا لان الطبع لا يكتفي بقبيحة الوجه واذا كانت ولودًا حصل منها اعظم فوائد النكاح وتعرف انها ولود بان تكون شابة صحيحة فانها تكون ولودًا في الغالب واذا كانت بكرًا فانها تحب الزوج وتالفه لان الطباع مجبولة على الانس باول مألوف لها واذا كانت بنت اصل ولها حسب كانت موءدبة مهذبة وتربي اولادها مثل تربيتها

« السوءال الثامن »

بلغنا عن العرب ان احدهم لا يحترم زوجته ولا يحسبها الا كخادمة له ولا يشاورها ولا يقربها الا عند قضاء شهوته ولا يعتد بكلامها ونحن عندنا الامر بخلاف ذلك فنشاور

المراة على كل شيء وهي رئيسة البيت وكيف بالعرب يؤخرون المرأة عن كل الامور

« الجواب »

الامر على خلاف ما سمعتم فان المرأة لها حرمة عظيمة عند العرب وذلك انهم يحبون النساء كثيراً ومن لازم المحبة الاحترام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكرم النساء الا كريم ولا اهان النساء الاّ لئيم وقال عليه الصلاة والسلام لاصحابه خيركم خيركم لامراته وانا خيركم لنسائي وقال بعض حكماء العرب يلزم الرجل ان يفعل مع امراته كل شيء يحببه اليها حتى يكون هو احب الناس اليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع امراته على يديه حتى تركب على البعير وكان امير المؤمنين معاوية يقول النساء يغلبن الكرام من الرجال و يغلبهن اللئام منهم وكان الاحنف التميمي من سادات العرب يغضب لغضبه مائة الف سيف لا يسئلون عن سبب غضبه فاذا اراد حرباً تقول العرب غضبت زبرا يعنون امراته لانه كان يمشي على رايها وكان الخليفة هرون الرشيد يقول اريد القرب من زوجتي ام جعفر واهابها واهاب الجلوس على فراشها تعظيما لها وكان ابنه المامون كذلك يروى عنه في هذا المعنى ما هو اعظم منه مع كونه سلطان اهل الارض وفي ذلك يقول

عجباً يهاب الليث حدّ سناني ... واهاب سحر فواتر الاجفان

ما لي تطاوعني البرية كلها ... واطيعهنّ وهنّ في عصيان

وكان نساء النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه في الكلام ويصبر اكراماً لهن وانا عبد الله كانت ابنة عمي تغضب عليّ وتواجهني بما يكره واصبر لها وفي حقها قلت من قصيدة

واخضع ذلة فتزيد تيهاً ... وفي هجري اراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عز ... وما انفك في ذلي انادي

ومن عجب تهاب الاسد بطشي ... ويمنعني غزال عن مرادي

وقولكم وزوجها لا يشاورها اعلم ان العرب يحبون النساء محبة عظيمة و يطلقون لهن التصرف في البيت بحيث تكون المرأة في بيتها مثل الحاكم الذي اطلق له التصرف في الرعية ولا يخاف تعقباً في حكمه ولا بد للرجل ان يشاور زوجته في امور بيته و يسلم لها شوءنها لتهتم بها وتدبرها ومن عادة العرب يجتمع العيال الكثير في البيت الواحد الى عشرين نفساً واكثر وتحكم في جميع العيال امرأة واحدة وتدبر لهم امورهم وكان

في عيال والدي رحمه الله اكثر من ستين نفساً ووالدتي هي التي تحكم فيهم وتنظر في امورهم من اكل وكسوة وغير ذلك ووالدي لا يدخل في شيء من ذلك وانما يمتثل امرها واما الامور التي هي خارجة عن البيت وهي من وظائف الرجال فالعرب يكرهون مشاورة المرأة فيها لان الغالب على النساء الجبن والبخل وهما من احسن صفاتهن ومن اقبح صفات الرجال اذ المدح والمزايا لا ينالها الرجل الا بالشجاعة والسخاء والنساء لا يشرن بشيء فيه اتلاف النفس والمال قال بعضهم

لا يبلغ المجد الا سيد فطن ... لما يشق على الايام فعال

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتال

« السؤال التاسع »

الذي يظهر ان غيرة المسلمين غيرة زائدة حتى ان نساءهم لا يخرجن الا متلحفات ولا يظهرن لاصدقاء ازواجهن ولا لاقاربهم ولا لاقاربهن كابن العم وابن الخال مثلاً ونحن عندنا النساء يخرجن باديات الوجوه وبحضورهن مع الاحباب والاقارب يتم البسط ويحصل السرور وبذلك يعشن مع ازواجهن في دعة وهناء فكيف الامر عندكم وما الافضل عادتنا ام عادتكم

« الجواب »

ان غيرة المسلمين ليست بزائدة وانما هي في ميزان الوسط والغيرة اذا كانت كذلك فهي محمودة ممدوحة وهي ان لا يتغافل الرجل عن مبادىء الامور التي يخاف عاقبتها ولا يبالغ في اساءة الظن بزوجته ويراقب حركاتها وسكناتها او يتجسس عليها فان هذا ليس من مكارم الاخلاق ومن كلام العرب قولهم لا تبالغ في الغيرة على زوجتك فيرميها الناس بالزنا من اجلك والغيرة الممدوحة لا تكون الا في اشراف الناس واعلاهم همة لان الله تعالى جعل الغيرة في الانسان سبباً لحفظ الانساب قال الحكماء كل امة كانت الغيرة في رجالها كانت الصيانة في نسائها والغيرة في القلب مثل القوة التي في البدن تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة كان الهلاك واذا ذهبت الغيرة كان الفساد راى بعض العرب امراته اكلت بعض تفاحة ورمت بباقيها الى خادمها فضربها واكثر الحيوانات غيرة حمار الوحش فانه اذا راى الولد ذكراً قطع آلته وانثييه وقولكم نساء المسلمين لا يخرجن الا متلحفات اعلم ان المراة يجوز لها في الشرع ان تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين ولو كانت شابة جميلة ويجوز للرجل ان يرى من المراة الاجنبية الوجه واليدين الا اذا

قصد برؤيتها الشهوة واللذة فيحرم عليه ولما كثر الفساد وقلت المروءة وكثرت الفاحشة صار اشراف الناس واهل الديانة يامرون نساءهم بتغطية وجوههن دائمًا وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رأى امرأة متحجبة مغطية وجهها يامرها بكشف وجهها له فان رآها جميلة قال لها غط وجهك وان رآها قبيحة قال لها اكشفي وجهك وقولكم ولا يظهرن لاصدقاء ازواجهن ولا لاقاربهم ولا لاقاربهن اعلم ان العرب كانوا في الجاهلية يتحدث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن حضر ازواجهن او اغابوا وليس عندهم في ذلك عيب ولا عار الى ان جاء الاسلام فمنع ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتبع النظرة فان مبدأ الزنا معاودة النظر وقال عيسى بن مريم اياكم والنظر فانه يزرع في القلب الشهوة واول العشق النظر واول الحريق الشرر وقال حكيم لصياد رآه يتكلم مع امرأة يا صياد الوحوش احذر ان تصيدك هذه المرأة وقال بعض الحكماء النظر الى المرأة سهم والكلام معها سم ومعلوم ان النساء لحم يشتهيه كل رجل واذا دعا الرجل المرأة الى نفسه فالغالب عليها الاجابة لا سيما اذا كان الرجل شابًا جميلاً صاحب مال فحصنهن الله بالحجاب وقطع الكلام معهن وامر بمباعدة اجسادهن عن اجساد الرجال وفي المثل ثلاثة لا تؤمن على ثلاثة شاب على امرأة وامرأة على سر وفقير على مال وقال بعض الشعراء

لا تامنن على النساء ولو اخًا ما في الرجال على النساء امين

وقولكم النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافل مع ازواجهن اعلم ان محبة العرب للنساء شيء عظيم وما اظن ان جنسًا في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهن فلا يمكن ان يرى الرجل المرأة الجميلة ويبقى قلبه مستريحًا ابدًا فاذا كان يخاف الله وصاحب مروءة فانه يبقى مع نفسه في قتال دائم ويحصل له تعب عظيم واذا كان لا يخاف الله ولا مروءة له فانه يبقى مشغول الفكر في معاودة النظر اليها والتحدث معها والقرب منها وكيف الحيلة في الوصول الى قضاء وطره منها وربما لا تمكنه معاودة النظر اليها مرة اخرى لاسباب تمنعه من ذلك فيبقى حيرانًا وتضيع مصالحه كلها وعندنا في الشرع اذا لبست المرأة الثياب الجميلة ومرت على الرجال لينظروا اليها فانها زانية آثمة لانها تشوش افكار الرجال بسبب نظرهم اليها وذلك يؤدي الى حصول المعصية من الرجال وكذلك المرأة اذا حضرت مجالس الرجال ربما يكون زوجها قبيح المنظر او شيخًا وترى شابًا جميلاً فان قلبها يتعلق به وكذلك اذا حضرت مواضع الرقص والغناء من الرجال فان ذلك يفسدها ويحرك شهوتها ومن المعلوم عند كل احد ان الحصان اذا صهل اصغت له الحجرة ورمت الماء من فرجها واذا هدر الفحل قامت الناقة

وبركت بقربه واذا غنى الرجل اصغت له المرأة وتمنت ان تكون هي التي يغنى بها قال بعض الحكماء ليس بشيء اضر على النساء من الخروج وليس شيء خيراً لهن من البيوت والغالب ان المرأة اذا خرجت الى مجمع الرجال والنساء ومحافل الزهو لا ترجع سالمة القلب واقل مفسدة في ذلك ان ترى المرأة غيرها لابسة حلياً وثياباً احسن مما عندها فتسخط على زوجها وتكره عيشتها عنده فلهذا كان المسلمون اهل الدين والمروءة يجنبون نساءهم سماع الغناء من الرجال وحضور اللعب والرقص من الرجال والنظر الى الرجال الاجانب وسماع حكاياتهم ومجالسة النساء اللواتي يعلمن ذلك لا سيما العجائز وقال بعض الحكماء الوجه الذي يغني عن الغيرة هو ان لا تخرج المرأة الى مجامع الرجال ولا يدخلون عليها ويحكى عن امرأة من الصالحات قالت كنت جالسة مع زوجي في طاق على الزقاق فمر رجل شاب جميل الصورة فكنت انظر اليه والى زوجي فصار زوجي في عيني مثل القرد او الخنزير او الكلب ثم تبت الى الله تعالى من الجلوس في الطاق من ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها اي شيء خير للمرأة فقالت هو ان لا يراها الرجال ولا تراهم فقبل ما بين عينيها استحساناً لكلامها ولكن انتم معشر الافرنج لما كنتم من حين ينشأ الرجل منكم الى ان يشيب يجتمع مع النساء ويجالسهن ليلاً ونهاراً في البيوت والاسواق ومواضع اللعب وفي الطرق والنساء كذلك ضعفت محبة الرجال للنساء والنساء للرجال وقلت الشهوة لان الشهوة انما تثور بقوة الاحساس بالنظر واللمس والاحساس انما يقوى بالامر الغريب الجديد فاما الذي دام النظر اليه مدة فانه يضعف الحي عن تمام ادراكه فلا تثور به الشهوة فانتم مع الاجتماع الدائم في راحة من العشق

« السؤال العاشر »

كيف بالعرب يزوجون بناتهم صغاراً وربما يكون ذلك قبل البلوغ والمراد من التزويج الذرية والصغيرة التي لم تبلغ لا تحصل منها ذرية فهل ذلك جائز في شرعكم ام لا وربما تلد المرأة وهي بنت اثني عشر عاماً او ثلاثة عشر فلا تقدر على ترقية الولد وتربيته وعندنا البنات لا يزوجن صغاراً بل كباراً حتى لا تفسد صحتهن ولا شبابهن وليكون اولادهن صحاح الاجسام وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيراً ولا نرى لهم كثرة اولاد ولا رعية بخلاف غيرهم فانهم يتزوجون قليلاً ومع ذلك تكثر اولادهم وبكثرتهم تكثر الرعية

«الجواب»

اعلم ان العرب لا يزوجون بناتهم صغاراً الا لفائدة وهي اما ان تكون للزوج او لوليّ البنت فاما فائدة الزوج فان البنت اذا كانت ابنة اكابر اما بالشرف او بالمال فان الرجال يرغبون في نكاحها ويتسابقون اليها فكل واحد يخاف ان يسبقه اليها غيره فيبادرون الى احرازها ومن مقاصد النكاح وفوائده عند العرب التعزز بعشيرة المرأة فان ذلك مما يحتاج اليه في دفع طوارىء الشرور وطلب السلامة ولهذا يقولون ذل من لا ناصر له ومن وجد من يدفع عنه المضار سلم حاله وفرغ قلبه من الهموم فان الذل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع لذلك واما فائدة ولي البنت فان الرجل قد يزوج ابنته صغيرة لاحد امرين احدها ان يكون له اولاد غير البنت فيخاف اذا تزوجها غريب ان يضر باولاده من جهة ان البنت تشاركهم في مال ابيهم والمشاركة في الدار والبستان ونحو ذلك يصير في الغالب منها ضرر بين الشريكين ورأي المرأة في يد زوجها فلهذا يبادر الرجل و يزوج ابنته من ابن اخيه او ابن عمه او ممن يظن فيه انه يرفق باولاده ولا يضرهم. الثاني ان بعض الناس يخاف من الطعن في ابنته وتهمتها بالقبيح فيزوجها ويستريح وتزويج الصغيرة جائز في شرعنا اذا لم تكن يتيمة اما اذا كانت يتيمة فانها لا تتزوج صغيرة الا اذا خيف عليها الفساد وتزويج الصغيرة جائز في الشرائع القديمة ففي التوراة اذا بلغت البنت اثنتي عشرة سنة فلم يزوجها ابوها فاثمت البنت اثماً فاثم ذلك عليه لانه هو السبب في تاخير تزويجها وفوائد التزويج ليست محصورة في طلب الذرية فقط بل له فوائد كثيرة منها التعزز بعشيرة المرأة كما تقدم ومنها ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة وفي ذلك كله اراحة للقلب وتقوية له على الاعمال التي تشق على النفس ومنها التحصن عن الشيطان ودفع مهلكات الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج ومنها رياضة النفس ومجاهدتها برعاية الزوجة والقيام بحقوقها والصبر على اخلاقها ومنها تفريغ القلب من تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ وتهيئة اسباب المعيشة ولوازم البيت و بنات العرب يسرع اليهن البلوغ فكثير منهن تبلغ في تسع سنين ويأتيها الحيض قال الامام الشافعي رضي الله عنه رأيت امرأة ابنة احدى وعشرين سنة وهي جدة و كذا الرجال يسرع اليهم البلوغ كان عبدالله بن عمرو بن العاص بين ولادته وولادة ابيه احدى عشر سنة ولنساء العرب خصوصيات فتحمل المرأة العربية

وهي بنت خمسين سنة وتحمل المرأة القرشية في سن الستين ولا يوجد هذا في غير نساء العرب ومن قريش الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره ولدته امه فاطمة وهي في سن الستين ومنهم موسى بن عبدالله الكامل ابن الحسن المثنى ولدته امه هند وعمرها ستون سنة وهم كثيرون لا يحصون وقولكم ربما تلد البنت في اثني عشر عاماً فاعلموا ان البنت لا تتزوج صغيرة في الغالب الا اذا كان ابوها او زوجها صاحب مال كثير واذا ولدت صغيرة لا تتعب في تربية الولد وتكون لاولادها مربيات ومرضعات وقولكم وعندنا البنات لا يتزوجن صغاراً الى آخر كلامكم هو كما قلتم ولكن المرأة اذا تأخر تزويجها الى عشرين سنة او نيف وعشرين يحصل منها الزنا غالباً لا سيما اذا كانت تخرج وترى الرجال وتجالسهم وكذلك الرجل اذا تأخر تزويجه لأن الانسان سواء كان رجلاً او امرأة اذا اجتمعت شهوته ولم يجد لوضعها محلاً حلالاً بالتزويج يطلب لها محلاً حراماً بالزنا ولا يقدر على الصبر الا القليل من الرجال والنساء وعادة العرب اذا تزوج الرجل المرأة على انها بكر ثم وجدها غير بكر يطلقها في الحال واذا استحى من اهلها يبقيها ولا قلب له فيها ولا محبة منه اليها وقولكم وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيراً ولا نرى لهم كثرة اولاد ولا رعية اعلم ان قلة الرعية ليست لقلة ولادة نسائهم وانما ذلك من عدم استعمال الاسباب التي يكون بها بقاء اولادهم ومن عدم معرفتهم بحسن تربية الاولاد ومداراتهم حتى تطول اعمارهم وهذا بارادة الله تعالى

« السؤال الحادي عشر »

ان الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون ابداً ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الاولاد ايضاً لكونهم يقعون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم

« الجواب »

الغالب خفاء بعض عيوب الزوجين من الرجل والمرأة اما في الخلقة او الطبيعة فاذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا او اطلعا على ما كان خفيا مغيبا ربما يظهر بعض العيوب لاحد الزوجين فجعل الله الطلاق راحة للذي يحب الفراق منهما وجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفه واذن الله للمرأة ان تطلب الطلاق من زوجها اذا حصل لها من جهته ضرر والطلاق مباح في الاديان القديمة في التوراة في الاصحاح الحادي والعشرين في سفر الخروج ان استقبح سيدها زواجها فليطلقها وفي سفر الاحبار في الاصحاح الثاني والعشرين ان طلقت بنت الكاهن ولم يكن لها اولاد ورجعت الى بيت والدها تأكل من القدس

فعلم من هذا ان الطلاق ليس خاصاً بالمسلمين وفي الطلاق منافع واضرار اما المنافع فكما ذكرنا واما الاضرار فكما ذكرتم وهو مباح اذا لم يحصل منه ايذاء للمرأة بالباطل وعلى كل حال فانه لا يخلو من الاذى ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش وقال تزوجوا ولا تطلقوا فان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات لان المقصود من النكاح النسل ودوام العشرة وحصول الالفة والطلاق يهدم جميع ذلك ومن منافع الطلاق من جهة ان الرجل ربما لا توافقه المراة لعيب في خلقها او طبيعتها فاذا لم يطلقها يبقى معذباً بهـا مشغولاً ظاهراً وباطناً بسببها يقول العرب في المثل اذا لم يكن وفاق ففراق ويقولون دواء ما لا تشتهيه النفس الفراق والعيش لا يطيب بين اثنين من غير اتفاق ويقولون قلع الضرس المسوس يريح ومن طلق امراة السوء يستريح فالطلاق راحة للرجل ان كانت امراته خبيثة او معيبة وراحة للمراة ان كان زوجها خبيثاً او معيباً والرجل اذا طلق امراته وكان بينهما اولاد فان الشرع اوجب على الزوج ان ينفق عليها وعلى اولادها منه حتى يبلغ الولد ان كان ذكراً وحتى تتزوج البنت ويدخل بها زوجها فلا ضرر على الاولاد اذا طلقت امهم وكان ابوهم متبعاً للشرع

﴿ السؤال الثاني عشر ﴾

ان المسلمين لا يورثون البنت مثل الذكر وكيف ذلك والكل اولاده

﴿ الجواب ﴾

ان الله تعالى هو الذي قسم الميراث ونزل به القرآن العظيم فجعل للذكر قسمتين وللانثى قسمة واحدة وبذلك فضل الله الذكور على الاناث كما فضلهم بالقوة عليهن والصبر على المشقات وفضلهم ايضاً بعظائم الامور كالسلطنة ومباشرة القتال وتولية الاعمال والمناصب الدينية والدنيوية والرجل يحارب ويدافع عن بلاده وعشيرته فهو محتاج الى زيادة القسمة ليستعين بها على ذلك ولان الرجل اذا كان في قسمته زيادة ينفق على النساء من اقاربه اذا احتجن الى ذلك بخلاف المراة فانها لا تنفع الا نفسها في الغالب واما في غير الميراث فانه يجب على الرجل ان يسوي بين اولاده في العطية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا الله واعدلوا بين اولادكم وجاءه رجل قال له اشهد عليَّ اني اعطيت لولدي فلان كذا وكذا فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم اعطيت اولادك كلهم مثله قال لا فقال انا لا نشهد الجور

السؤال الثالث عشر

ان نسائنا يدخلن المدارس ويتعلمن الكتابة ويحصلن المعارف والآداب بخلاف نساء العرب وان العربية اذا تلاقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة والموسمات من العرب ما اوقعهن في الفساد الا عدم معرفتهن وان نساء العرب هن اعرف النساء بآداب المحبة

الجواب

اعلم ان الكتابة مثل السيف من وظائف الرجال لا من لوازم النساء فالكتابة انما يحتاج اليها الرجال يجمعون العلوم ويقيدون الحكم ويضبطون الخراج ويحفظون تواريخ الامم واخبارهم فالكتابة قيد للعلوم وما يحتاج فيه الى النقل والرواية فان عقل الانسان الواحد لايقدر على استنباط العلوم الكثيرة ولا على حفظها فصار اذ استنبط مقداراً من العلوم قيده وكذلك اذا استفاد شيئاً من غيره واما النساء فلا يؤلفن كتاباً ولا يستنبطن صناعة ولا فائدة فيحتجن الى تقييدها بالكتابة لينتفع بها الناس ولا يتولى النساء قبض خراج ولا صرف مال في مصارفه ولا بشيء من الوظائف التي تحتاج الى الكتابة فلا فائدة في تعليم النساء الكتابة بل فيها ضرر كبير لان الكتابة عين العيون بها يبصر الشاهد الغائب وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان بل الكتابة ابلغ من اللسان فان الانسان يقدر على كتابة ما لا يقدر ان يخاطب به غيره ويبلغ المقصود حيث لا يمكن الكلام مشافهة فقد تكون المرأة لا تقدر على لقاء من تهواه ولا تقدر على ان تتكلم معه بحضرة الغير وكذلك الرجل قد لا يجد سبيلاً الى لقاء من يهواها والكلام معها بحضرة غيره فاذا كانت المرأة عارفة بالكتابة سهل طريق الزنا بينهما بسبب الكتابة فلهذا نهى شرع الاسلام عن تعليم النساء الكتابة وهو حق لا ينكره عاقل فتعليم الكتابة واجب على الرجال مكروه في حق النساء قال بعض حكماء العرب ليس للنساء الكتابة والخطابة بل هما وما ماثلهما للرجال

واما النساء فلهنَّ على الرجال ان لا يبيتوهن الا على جنابة وقولكم ان العربية اذا تلاقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة فاعلموا ان العربيات انما يتعلمن الادب الذي يليق بازواجهن وتصلح به العشرة بين الفريقين وتجلب قلوب الازواج اليهنَّ فكان نساء العرب يعلمن بناتهنَّ الادب مع الازواج قالت امرأة لابنتها يا بنية لو

استغنت امرأة عن زوجها لغناها لكانت اغنى النساء عن الرجال ولكن النساء خلقن للرجال كما ان الرجال خلقوا للنساء. كوني لزوجك ارضاً يكن لك سماء وكوني له وطاء يكن لك غطاء واصحبيه بالقناعة وعاشريه بالسمع والطاعة ولاتغفلي عن موضع نظره ولا موقع انفه فلا تقع عينه على قبيح منك ولا يشم منك الا ريحاً طيبة ولا تغفلي عن وقت طعامه ولا عن موضع منامه فان حرارة الجوع تلهيه وتنغص النوم ينغصه واحفظي ماله وتفقدي خدامه وعياله ولا تفرحي اذا كان حزيناً ولا تحزني اذا كان فرحاً وعلى قدر تعظيمك له يكون اكرامه لك وقدمي ما يحبه على الذي تحبينه انت وقالت امرأة اخرى لابنتها يا بنية ان الوصية لو تركت لزيادة ادب لتركت لك ولكن الوصية تذكرة للغافل ومعونة للعاقل يا بنية لا تعصي لزوجك امراً ولا تفشي له سراً وكوني اكثر الناس لزوجك اعظاماً يكن اكثر الناس لك اكراماً وكوني اكثر الناس له موافقة يكن لك احسن الناس مرافقة ولا تصلين الى رضا زوجك حتى تقدمي ما يحبه هو على الذي تحبين انت ومن قول العرب يلزم ان تكون المرأة فوق الرجل في ثلاثة اشياء والا احتقرها الادب والجمال والدبر وقالت امرأة لابنتها لا تقربي من الرجل دائماً فيملك ولا تبعدي عنه فينساك ان دنا منك فاقربي منه وان نأى عنك فابعدي عنه واحفظي سمعه وبصره فلا يسمع من كلامك الا حسناً ولا ينظر منك الا جميلاً ولا تتكلمي عند غضبه وكوني دائماً في قعر بيتك ملازمة لشغلك ولا تكثري الكلام مع جيرانك ولا تدخلي عليهم الا لحاجة واحفظي زوجك في غيبته وحضوره في نفسه وماله ولا تخرجي من البيت الا باذنه ولا تطلبي معرفة اصحابه وكوني قصيرة اللسان عن سب الاولاد والخدام ومراجعة الزوج في الكلام وقالت امرأة لابنتها لازمي الانقباض اذا غاب زوجك والعبي وانبسطي اذا حضر ولا تتكبري عليه بالجمال ولا تحتقريه لقبح وجهه واطلبي ما يفرح زوجك في جميع الاقوال والافعال ولا تجعلي همك الا في اصلاح شأنك وتدبير بيتك فهذه الآداب وامثالها هي التي تتعلمها نساء العرب واما الادب مع الرجال الاجانب فان نساء العرب لا يعرفنه وذلك لانهن لا يجتمعن بالرجال الاجانب في الملاعب ومواضع الرقص والغناء كما يفعل نساء الافرنج ولا يفعل ذلك الا الزانيات قال بعض حكماء العرب شر خصال الرجال خير خصال النساء الكبر والجبن والبخل فان المرأة اذا كانت متكبرة انفت ان تكلم كل احد من الرجال بكلام لين واذا غلب عليها الجبن خافت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واذا كانت بخيلة حفظت مالها

ومال زوجها وقولكم الموسات من العرب ما اوقعهن في الفساد الا عدم معرفتهن اعلم ان الزنا انما يقع من النساء التي ينتسبن الى العرب ولسن بعربيات اصليات فان نساء العرب في الجاهلية كن لا يعرفن الزنا راساً وانما يزني عند العرب الاماء حتى انه لما نزل قول الله تعالى في القرآن اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين قالت امرأة من الحاضرات او تزني الحرة يا رسول الله فقد استبعدت وقوع الزنا من الحرة وكان العرب في الجاهلية لهم عفة عن الزنا رجالاً ونساء فلا تخون المرأة زوجها ولا يخون الرجل زوجته فكيف بهم في الاسلام الذي جاء بتحريم الزنا وشدة العقاب لمرتكبه وقولكم ان نساء العرب هنّ اعرف النساء بآداب المحبة سالت ام البنين زوجة عبدالملك بن مروان ليلى الاخيلية عن عشق العرب فقالت لها يرى الرجل المرأة وتراه فيعشقها وتعشقه فاذا ساعدهما الوقت وتلاقيا لا يشتغلان الا بذكر ما لقيا من الحب لبعضهما بعضاً ويشكو كل منهما الشوق الى صاحبه ويتناشدان الاشعار فقالت لها ام البنين ولا يكون بينهما زنا فقالت لها النكاح شأن من يطلب الولد لا شأن المحبين واذا وقع الجماع فسد الحب وبالجملة فان نساء العرب في هذا المعنى لهم حكايات عجيبة تدل على ان محبتهن قلبية روحانية لا جسمية كما زعمتم ولولا خوف التطويل لذكرنا لكم جملة منها

السؤال الرابع عشر

نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة واما نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال

الجواب

ان شرع الاسلام ما نهى النساء عن دخول المساجد ولا منعهن عن الصلاة فيها وكانت النساء في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين معه في المسجد الشريف وكان يقول لاصحابه رضى الله عنهم لا تمنعوا اماء الله من مساجد الله فيجوز للنساء الخروج الى المساجد والصلاة فيها ليلاً ونهاراً لكن بشروط منها ان لا تكون المرأة متطيبة بطيب له رائحة يشمها الرجال ومنها ان لا تكون متزينة بشيء من انواع الزينة ومنها ان لا يكون لها خلاخل تسمع صوتها الرجال ومنها ان لا تكون مختلطة بالرجال بل تكون منفردة عنهم ومنها ان لا تكشف وجهها اذا كانت شابة جميلة يعشقها من رآها من الرجال وبهذه الشروط كانت النساء يخرجن الى المسجد ويصلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انعدم شرط واحد من هذه الشروط حرم على المرأة الخروج الى المسجد وكان عمر بن الخطاب

رضى الله عنه شديد الغيرة وكانت زوجته تخرج الى الجامع في الليل والنهار لاجل الصلاة ولم يقدر على منعها ظاهرًا لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منع النساء من الخروج الى المساجد كما قلنا فعمل الحيلة في منعها وذلك انه تعرّض لها في طريق الجامع في ليلة مظلمة وقبض يده على ثديها ولم تعرفه فكانت بعد ذلك لا تخرج فيقول لها لما لا تخرجين الى الجامع لتصلي فيه فتقول لا اخرج فقد فسد الزمان ظنا منها ان الذي تعرض لها وقبض على ثديها رجل اجنبي

« السؤال الخامس عشر »

يقال ان المسلمين يمنعون نساءهم من الدخول الى المساجد اذا كن صغيرات وجميلات ولا يمنعونهن من السفر الى الحج

« الجواب »

قد ذكرنا لكم انه لا يجوز منع النساء عن الدخول الى المساجد بالشروط التي قدمنا ذكرها واما تسريحهن الى الحج فلا تسافر المرأة الى الحج الا اذا كان معها زوجها او رجل محرم لها وهو الذي يحرم عليه ان يتزوج بها شرعًا كابنها وابيها وعمها واخيها وخالها وابن اختها وابن اخيها واما اذا لم يكن معها زوجها ولا محرم فلا تحج ولا يلزمها حج ولو كان عندها مال كثير

« السؤال السادس عشر »

بلغنا ان بعض الناس يقولون ان النساء لا يدخلن الجنة فلا بد ان توضحوا لنا هذا الاشكال

« الجواب »

ان هذا القول كذب بحت وافتراء صرف فالنساء يدخلن الجنة ويكن مع ازواجهن في منازلهم اذا كان زوجها من اهل الجنة واما ان كان زوجها من اهل النار وهي من اهل السعادة فان الله تعالى يزوجها برجل من اهل الجنة واذا تزوجت المرأة في الدنيا برجلين او ثلاثة فان كان الازواج كلهم من اهل الجنة فان الله يخيرها فالزوج الذي تختاره تكون معه وان كان بعضهم في الجنة والبعض الآخر في النار فانها تكون للذي في الجنة

« السؤال السابع عشر »

بلغنا ان المسلمة اذا ماتت لا يخرج الناس في جنازتها مثل الرجل فهل لهذا صحة ام هو محض كذب

« الجواب »

هذا كذب من قائله بل لا فرق في الخروج مع الجنازة بين جنازة الرجل وجنازة المرأة وانما الممنوع خروج النساء مع الجنازة سواء كانت جنازة رجل او امرأة لان النساء لا يحفرن قبرًا ولا يحملن تابوتًا ولا يغسلن ميتًا فلا فائدة في خروجهن بل فيه تشويش قلوب الرجال بالنظر اليهن والى محاسنهن والقبور محل موعظة يتذكر الانسان فيه كيف يفارق الاحباب وكيف يصير الى التراب وحضور النساء يشغل عن هذا

« السؤال الثامن عشر »

ان كثيرًا من المسلمين لا يأنفون من تزويج المرأة المومسة اذا تابت ولا ينقص ذلك من قدره بخلاف النصارى فان الذي يتزوج بالمومسة منهم يبتذل بين الناس ولا يبقى له اعتبار عندهم

« الجواب »

انه لا يتزوج بالمرأة المومسة عندنا الا اخس الناس وارذلهم والشرع نهى عن تزويجها قال الله تعالى الخبيثات للخبيثين اي الزانيات للزانين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن قالوا وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء معناه باعدوا المرأة الفاسدة ولا تتزوجوها شبه المرأة الجميلة الفاسدة بالخضرة التي تنبت على المزابل ومواضع القذر فان ظاهره زين وباطنه شين ومن كلام حكماء العرب لا تتزوجوا العاهر ولا المختلعة ولا المبارية ولا الناشز ولا الانانة ولا المنانة ولا الحنانة ولا الحداقة ولا البراقة ولا الشداقة اما العاهر فهي الزانية واما المختلعة فهي التي تطلب الطلاق من زوجها كل ساعة واما المبارية فهي التي تفتخر على زوجها بمالها ونسبها واما الناشز فهي التي تعلو على زوجها في الكلام واما الانانة فهي التي تكثر الانين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة واما المنانة فهي التي تمن على زوجها فتقول له فعلت لاجلك كذا وتركت كذا واما الحنانة فهي التي تحن الى زوج آخر واما الحداقة فهي التي ترمي بحدقتها الى

كل شيء وتشتهيه وتكلف زوجها شراءه واما البرّاقة فهي التي تكون طول النهار في تصقيل وجهها ليكون له بريق ولا تشتغل بمصالح بيتها واما الشداقة فهي التي تكثر الكلام والتصنع فيه واذا كانت المرأة متولدة من زنا فالشرع يمنع من التزوج بها

« السؤال التاسع عشر »

هل العرب يطلقون المرأة التي لا يربحون عليها بغير سبب آخر ام ذلك كذب

« الجواب »

ان هذا كان في العرب وقت الجاهلية ويقولون اقصاص او نواص او بعض الذراري يعنون بذلك ان الربح واليمن والخسران والنحس يكون على قصة المرأة وناصية الفرس والمولود ولما جاء الاسلام ابطله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طيرة ولا عدوى فقال رجل يارسول الله فما بال الابل تكون كانها الغزلان فاذا دخلها بعير اجرب جربت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اعدى الاول ولكن بقيت هذه العادة الجاهلية عند بعض الجهلة من المسلمين الذين دينهم ضعيف واما اهل الدين الصحيح القوي فانهم يعتقدون أن الله تعالى يفعل ما يريد بالعبد من ربح وخسران ومن خير أو شر لا مدخل للمرأة ولا للفرس ولا للولد ولا للدار ولا لشيء من المخلوقات فيه فلا ينفع ولا يضر الا الله تعالى

« السؤال الموفي للعشرين »

المرأة عند النصارى يسرها ما يسر الجنس ويحزنها ما يحزن الجنس وكلامها مع زوجها يقويه على الحرب وعلى فعل الخير مع جنسه والدفاع عن بلاده واما المسلمة فقد بلغنا انها لا تلتفت الى ذلك ولا يؤثر فيها

« الجواب »

ان هذا الذي ذكرتموه في نساء النصارى هو موجود في نساء العرب اكثر بما لا يتقارب حتى ان العربيات اذا وقع لرجالهن هزيمة او حصل فيهم قتل لا تترك الواحدة منهن زوجها يقبلها ولا يجامعها حتى يأخذ بثأره من عدوه وكان نساء العرب لا يبكين المقتول الا بعد ان يؤخذ بثأره تحريضاً للرجال على الحرب وكان الحارث بن عوف من اشراف العرب وكانت له اليد الطولى في عقد الصلح بين عبس وذبيان اولاً وآخراً والسبب في ذلك انه قال يوماً لخارجة بن سنان

اتراني اخطب الى احد فيردني قال نعم قال ومن ذلك قال اوس بن حارثة بن لام الطائي فقال الحارث لغلامه اركب فركبنا حتى لقينا اوساً في بلاده ووجدناه في فناء منزله فلما رآني الحارث بن عوف قال مرحباً بك ياحارث قال وبك قال وما حاجتك قال جئتك خاطباً قال لست هناك فانصرف ولم يكلمه ودخل اوس الى امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من الرجل الذي وقف عليك قال سيد العرب الحارث بن عوف قالت فما لك لم تستنزله قال انه استحمق قالت وكيف قال جاءني خاطباً قالت افتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال بماذا قالت بان تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط مني ما فرط اليه قالت تقول انك لقيتني وانا مغضب بامر لم يكن لي تقدم فيه قولاً فانصرف ولك عندي ما تحب فانه سيفعل فركب اوس بن حارثه في اثره قال خارجة فوالله انا لنسير اذ حانت مني التفاتة فرأيته فاقبلت على الحارث وما يكلمني غماً فقلت له هذا اوس بن حارثة فقال وما نصنع به امض فلما رآنا لا نلتفت صاح يا حارث اربع عليَّ فوقف له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغني ان اوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة لاكبر بناته فاتته فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني خاطباً وقد اردت ان ازوجك منه فما تقولين قالت لا تفعل قال لم قالت لاني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجار لك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فتكون عليَّ وصمة فقال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل ذلك او بقريب منه ثم دعا الصغيرة فقال لها كما قال لاختيها فقالت انت وذاك فقال اني عرضت ذلك على اختيك فأبتاه فقالت لكني الجميلة وجهاً الصناع يداً الحسيبة اباً فان طلقني فلا اخلف الله عليه قال بارك الله عليك ثم خرج الينا فقال قد زوجتك بهية بنت اوس قال قد قبلت ثم امر امها ان تهيأها وتصلح من شانها ثم امر ببيت فضرب له وانزله اياه فلما ادخلت اليه لبث هنية ثم خرج اليَّ فقلت أفرغت من شانك قال لا والله لما مددت يدي اليها قالت مه اعند ابي واخوتي هذا لا يكون قال فامر بالرحلة فارتحلنا بها فسرنا ما شاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت فعدل بها عن الطريق فما لبث ان لحقني فقلت افرغت قال لا والله قالت لي كما يفعل بالامة الجليبة والسبية الاخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو

العرب وتعمل ما يعمل لمثلي قلت والله لارى هيئة عقل وارجو ان تكون المرأة النجيبة ثم سرنا الى ان دخلنا بلادنا فاحضر الابل والغنم ثم دخل اليها وخرج فقلت افرغت قال لا والله قلت ولمَ ذلك قال دخلت عليها اريدها وقالت قد احضرنا من المال ما ترين قالت والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا اراه فيك قلت كيف قالت اتتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً يعني بني عبس وذبيان قلت فتقولين ماذا فقالت اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع اليَّ واني لست فائتتك قلت والله اني لارى عقلاً وهمة وقد قالت قولاً لا يرد فاخرج بنا فخرجنا حتى اتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على ان يحسبوا القتلى من الفريقين ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه فحملنا عنهم الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير وعاش الحارث الى ان ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ووفد عليه واسلم وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الانصار في جواره يدعو قومه الى الاسلام ومن شعر الحارث قوله

فان اكبر فاني في لداتي ... وعاقبة الاصاغر ان يشيبوا
وما كثرت فائدتي بعذر ... كفاني في الفوائد ما يطيب

انتهت الاسئلة والاجوبة وقد قصدنا بذكرها ازالة الاشكالات التي لم تزل افكار الافرنج المتحاملة على دين الاسلام تخوض وتوجه الاعتراضات على المسلمين في تعاطيها وتفوّق سهام الطعن عليهم للعمل بها ولقد اوضح الامير في اجوبته الصبح لذي عينين واظهر الحق لاهله من العقلاء هذا مع المناسبة للمقصود من التاريخ والمرغوب فيه

ذكر توجه الامير الى مصر لحضور محفل فتح خليج السويس

وفي رجب سنة ست وثمانين ومائتين وتشرين الثاني سنة تسع وستين وثمانمائة دعي الامير الى حضور فتح خليج السويس كما دعي الى ذلك اعيان العالم فتوجه الى بيروت ومنها الى الاسكندرية فاجتمع هناك بامبراطورة فرانسا فاعظمت لقاءه واجلت حضوره ثم توجه الى بورت سعيد في الباخرة الحربية التي اعدتها الامبراطورة لركوبه فاستقبله الاميرال الفرنساوي بالاعظام والاحترام ثم جرى الاحتفال بكمال الابهة والزينة وجلس الامير مع امبراطور النمسا وامبراطورة فرانسا وابني امبراطور المانيا وملك ايتاليا وغيرهم من الامراء واعيان العالم المشاهير تحت المظلة التي اعدت لجلوسهم ثم ان الامير سار في الخليج في باخرته الى السويس ثم عاد الى بورت سعيد واجتمع بالامبراطورة وشكر فعلها ثم ودعها

واجتمع اليه رؤساء الكومبانية يقدمهم الرئيس الاول مسيو فردينان دولسبس وفاوضوه في امر ارض بوبلح التي كانوا اهدوها له فاخبرهم بان اسماعيل باشا خديوي مصر غير موافق لهم على هذه المنحة واطلعهم على ما كتبه اليه في ذلك فصمموا على تنفيذ امرهم باي وجه كان فابان لهم انه لا يريد وقوع الشحناء بينهم وبين اسماعيل باشا بسببه ثم تبين ان اسماعيل باشا انما قصد بمنعه هذا وانكاره ان يستاثر بهذه الارض دون غيره فلما اطلع الامير على الحقيقة سمح فيها للكومبانية وسقط في يد المانع المنكر ونص كتاب اسماعيل باشا الى الامير في هذه القضية

جناب الامير المحترم والملاذ المكرم الامير عبد القادر

بعد اهداء السلام التام وكمال الاحترام اللائق بالمقام نبدي لجنابكم انه قد بلغنا تشريف حضرتكم وتوجهكم الى ترعة السويس بقصد الاستيلاء على قطعة الارض التي كنتم موعودين بها من طرف الكومبانية على ما قيل وبما انه لما كنتم مشرفين هذا الطرف وحصلت المقابلة مع جنابكم واخبرتمونا بان الكومبانية ستعطيكم قطعة ارض وانكم انتم ترغبون في التوطن هناك وفي ذلك الوقت جاوبنا حضرتكم مشافهة بان الكومبانية لا يمكنها تمليك شيء من تلك الارض حيث انها الى الان لم تثبت لها حيازتها واشرنا واومينا لجنابكم بالطف اشارة واليق عبارة اننا لا نوافق على توطنكم هناك لما في ذلك من مخالفة الافكار وبما ان عقب اخبارنا لجنابكم بما ذكرناه كنا تحدثنا ايضاً مع جناب قنصل جنرال دولة فرنسا وبعدها جنابه اخبرنا رسمياً مشافهة ان ذات حشمة الامبراطور لا يأذن في اقامتكم هنا ما دام ذلك مخالفاً لرغبتنا وضداً لافكار الاهالي والحكومة كما والحالة هذه ايضاً مضمون الحكم المحترم الامبراطوري الصادر في حق مادة هذه الترعة لم يصرح بالترخيص للكومبانية انها تملك ارضاً من هناك لاحد ما ومن حيث ان توطن جنابكم بهذا الطرف لاتساعدنا عليه افكار الاهالي والحكومة معاً كما ان حكم الامبراطور المفخم لايساعدكم على استملاك ارض في هذا الطرف فمع غاية التأسف صرت تحريراً على اخطار جنابكم عن ذلك ونؤمل عدم المؤاخذة ودمتم ثم ارسل اليه آخر ونصه

حضرة المحترم الامير المبجل المكرم بعد السلام وكمال الاحترام اللائق بالمقام قد وصلنا عزيز مكتوبكم الذي ارسلتموه على يد حضرة الباشا باش معاوننا وبه عرفتم عن حضور حضرتكم لاجل استلام الارض التي اعطتها الكومبانية لجنابكم الى غاية ما ذكر فيه صار معلوماً والحال انه قبل وصول مكتوبكم هذا لما بلغنا تشريف حضرتكم الى الاسكندرية والتعجيل بالتوجه الى جهة القنال ثاني يوم تشريفكم لنجاز المقصود

262

بوقته حررنا لحضرتكم مكاتبة واضحة عن الحقيقة وبها عرفنا جنابكم ان الكومبانية لم يكن لها اذن ولا صلاحية في ان تعطي اراضي ولا املاكا في تلك الجهة لاحد كما هو مصرح عن ذلك بالحكم الصادر من ذات فخامة الامبراطور المعظم المتعلق بمادة الاراضي الكائنة في تلك الجهة ولا يجوز لها في تمليك شيء منها لاحد ثم افهمنا حضرتكم ان مقتضيات الاحوال لا تساعد على قبول توطن حضرتكم في هذه الجهات كما ان فخامة الامبراطور ما اجاز توطنكم هنا مع عدم رضانا وقبولنا ومن تاريخ مكتوبكم يعلم ان وصول تحريرنا كان بعد تحريره ولا بد انه علم لديكم منه ما يكفي عن الاطالة في الشرح والاطناب في الاعتذار بهذا الخصوص نظرًا للمزورة ودمتم وقد ذكرناها بنصها ليعلم الواقف عليها ما كان عليه هذا الانسان من الشدة والبذخ وما ارتكبه فيها من الصلف والعسف ومع هذا لما نكب وأبعد عن اوطانه واعوانه كتب الى الامير يطلب منه ان يستأذن له من الدولة العلية في سكنى الاستانة عسى ان يتعطف عليه مولانا امير المؤمنين الخليفة الاعظم ويدنيه ويعفو عنه ويجتبيه ونص ما كتبه وهو في نابلي من بلاد اتاليا ملتثما جناب فخر السلالة الهاشمية وفرع الشجرة النبوية حضرة السيد الانجد سيدي الامير عبد القادر الحسني دامت معاليه الا وهو السيد المعوّل عليه في المهمات والمستضاء بنبراس رأيه في دياجي الملمات ابقاه الله تعالى متسنمًا غوارب المجد متنسمًا بنسائم المدح والحمد سعده مقتبل ومجده غير منتقل وما قيل ونقل في مدائح الكرام فهو بالقياس الى قدره الجليل وان كثر يقل ولا زال للخائف والضعيف مأمنا ولكل مشروف وشريف حصنًا حصينًا وموئلا

وعاش في عز وفي بهجة وصفو عيش سعده مقبل

كتبت له ابقاه الله وحرسه وثبت قدمه في مقام المحبة واسسه واكد حبه في القلب وغرسه وارغم حاسده ونحسه وحط قدره وبخسه وابقاك الله موريًا زند الامل واردًا صفو العيش نهلا وعلا لابسًا من الثناء الجميل ابهى حلل لا يسأم مادحكم ولا يمل

والناس كلهم لسان واحد يتلو الثناء عليك والدنيا فم

هذا وقد بعثت هذا الكتاب لينوب عني في الخطاب مضمون ما احتوى عليه وخلاصة ما انطوى عليه هو اني وعائلتي من مدة سنة ونصف في ضنك ونصب ننتظر من الله تعالى عزّ وجل الفرج والفرج ثم ارجو ان لا تقطعوا عنا المراسلات

والدعاء مع بذل الهمة لنا ولعائلتنا المسلمة في انقاذنا من هذه البلاد وبرجوعنا الى الاستانة العلية لنحظى بالاقامة بين ابناء جنسنا ونتمتع بالرفاهية في ظل سلطاننا ادامه الله تعالى وابقاه ووفقنا جميعًا لما يرضاه آمين بجاه طه ويس والسلام التام في المبدأ والختام حرر في شهر صفر سنة ثمان وتسعين ومائتين والف

فكتب اليه الامير في موضوع هذه القضية فراجعه بما صورته · الى مقام سيادة الامير عبد القادر المعظم نحمد الله الذي به يستكشف الكرب ويضمحل بالالتجاء اليه كل خطب وبالصلاة والسلام على اشرف خليقته وافضل بريته تنجلي عن القلوب الهموم وتنفرج الغموم فعليه صلاة الله وسلامه الدائمان وعلى آله وصحبه ما توالى الملوان اما بعدُ فقد تشرفت بخطابكم السامي ولا زلت اتشكر توجهاتكم العلية ومساعيكم السنية ثم قال · وها انا متوكل على الله ثم عليك في نجاز هذا الامر ومفوض امري الى الله ثم اليك حرر في جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين

وكان شاهين باشا كنج بعث بعض الطلبة المجاورين في الازهر الى حضرة الامير في هذا الخصوص وتكررت بينهما المراسلات والمكاتبات فيما جرى بينه وبين الامير من المذاكرات فكتب اليه في بعضها ما نصه :

والحاصل ان المهمة المطلوبة هي من حضرة السيد الامير وحده فان افندينا مستند على حضرته دون خلافه والقصد والرجاء من حضرته هو ارسال عريضة من طرفه عن عجل الى الاعتاب السلطانية لتكون مساعدة لعريضتنا التي قدمناها اليها والسلام ختام · · · ثم كتب الى الامير قوله نبتهل الى الله تعالى بالادعية الصالحة الناطق بها كل لسان وجارحة متمسكين في المحبة بوثيق العرى مواظبين على الثناء الذي لا يزل منه الكون معنبرًا لحضرة التي سمت بالفضائل ربوعها وزكا عنصرها فطابت اصولها وفروعها لا زالت كعبة للآمال فتقصد من كل فج عميق وحمى لسائر العفاة فيأتونها من كل مكان سحيق وابدلها السعد والمجد فتسعى الوفود اليها كسعي العرب الى ربى نجد هذا ومما نعرضه على المسامع الكريمة ونهز به اريحية تلك الشمائل المستقيمة هو ان الداعي قد تشرف بورود امركم الكريم السامي ولا يمكن ان اعبر عما حصل لي من الفرح والسرور وقد شكرت مولاي في الثانية والاولى وها انا قد ذكرت تفصيل ما يلزم في مكتوب محسوبكم الشيخ فلان المقيم الآن عندكم ودمتم في عز سالمين آمنين بحرمة النبي الامين حرر في صفر الخير سنة ثمان وتسعين · واني اقدم بكل احترام مزيد سلامي الى كل من

سعادة الانجال حفظهم الله وحرسهم

﴿ ذكر بعض الرسائل والاجوبة ﴾

منذ خرج الامير من بلاد فرنسا الى بلاد الاسلام كان يكاتب الملوك فمن دونهم من الوزراء والامراء لداعي تهنئة او غرض لازم عرض او تشكر على احسان حصل فتاتيه الاجوبة على حسب ما يكتبه وكذا كان الشان مع العلماء الاماثل . والادباء الافاضل ولما كان استيعاب ذلك متعذرًا • اقتصرنا على البعض منهُ ولا يخفى ان البلاغة هي الدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وكما ان للعرب في ذلك اليد الطولى فان لغيرهم منه نصيباً ومن اطلع على رسائلهم وكتاباتهم وجدها على السنن العربي عارية عن الفساد والتكلف فيكتبون المراد على حسب الواقع لاول وهلة فوافقوا العرب في ذلك غير ان العرب لتوسعهم في لغاتهم وتجردهم في الفصاحة حازوا قصب السبق في مضمار الكتابة فتجدهم يتنوعون الخطاب ويتفننون في اساليبه بما يسحر الالباب وكلا الفريقين ينزلون الالفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه فلا يخاطبون الوضيع من الناس برفيع الكلام ولا رفيعهم بوضيعه الى غير ذلك ومن المعلوم ان الامير من مشاهير العالم واعيانه والناس على اختلاف مللهم ونحلهم لهم به تعلق ومواصلة فلا يخلو يوم من كتاب واردٍ وجواب صادرٍ فمن رسائله التلغرافية الى الباب العالي في تهنئة عيدية

اسعد الله ايامكم بهذا العيد المبارك سعادة تستمر استمرار الزمان وتعم جميع الرعايا في ظل الامن والامان

ومنها في عيد الجلوس

هنأ الله مولانا وايده بعيد الوارد عليه واعاده كيف شاء اليه مقروناً بالعز والنصر والهناء وطول العمر

ومنها في التهنئة بمنصب الصدارة العظمى

هنأكم الله بالمنصب العالي وقرنه باليمن والبركة اقتران الايام بالليالي

ومن اجوبة الباب العالي التلغرافية عن التهاني بالعيد وبتوجيه الصدارة لمن وجهت اليه الى حضرة الامير عبد القادر بالشام

قد اخذت بكمال الممنونية تلغرافكم المتضمن التهنئة بالعيد السعيد ومقابلة لهذا جعلت التشكر واردًا بلسان المودة المخصوصة

ومنها في سبتمبر سنة سبع وثمانين

ان مزايا تلغرافكم العالي في التبريك بتوجيه مسند الصدارة لعهدة داعيكم اوجبت محظوظيتي

ومنها في اكتوبر سنة ثمان وثمانين

قد تشرفت بتلغرافكم الحاوي التبريك بمأموريتي الجديدة فحصل لنا غاية المحظوظية والسرور نرجو أدعيتكم الخيرية

ومنها في افريل سنة تسع وثمانين

قد اخذت تلغرافكم العالي وعليه فانني اقدم الثناء والتشكر لهممكم الجليلة القائمة بايفاء رسم التهنئة

ومنها في دسمبر سنة اثنتين وتسعين

اخذت تلغرافكم العالي فاستلزم كل الممنونية وتشكرًا لمعاليكم اكرر الدعاء بالزيادة في عمركم ودوام عافيتكم

وفي ذكر هذا القدر من اجوبة الباب العالي كفاية وعليه يقاس باقيها

ومما كتبه الامير الى حضرة شاه العجم في رسالة بعث بها اليه عندما ارسل اليه النيشان العالي من الرتبة الاولى وكان الشاه وقتئذ زار المشهد الحسيني المعظم في كربلا ثم المشهد العلوي المفخم في الكوفة وآب الى دار ملكه طهران . قد وافاني من حضرتكم السنية النيشان الاعلى من الرتبة الاولى ولولدي من الثالثة صحبة وكيلكم المحترم في دمشق فجلت حنادس الهموم كما جلت نوازعه فوارس المفاخر في محفل مشهود في يوم معلوم جمعتم فيه لنا انواع المبرة والكرامة وجعلتموه على رفعة مقامنا عندكم علامة فلا عقدن على علاكم من الثناء الجميل اكليلاً واجعلن دعائي الصالح لكم وردًا بكرة واصيلاً الى ان قال وقد حدثنا وكيلكم المشار اليه عما شاهده من احوال المحفل الاكبر الذي حشر الناس اليه حشرًا وطابت اليه الآمال عرفًا ونشرًا وشاع امره وذاع وملاء خبر محاسنه وبدائعه الاسماع فالتذت بانبائه المسامع وتعطرت بذكره الاندية والمجامع فليهنكم الاياب والزيارة التي هي اعظم غنية واربح تجارة

ومن اجوبة وزير الشاه المذكور عن تلغراف وصله من الامير . قد اطلعت على تلغرافكم العالي وقدمته لحضرة الشاه وشاهد منه ما اوجب ممنونيته ارجو ان لا تنسوني من صالح دعائكم . ولما آل امر مصر الى توفيق باشا في لوليو سنة تسع وثمانمائة وسبعين بعث اليه الامير تلغرافًا يهنئه بذلك فاجابه اني اقدم تشكراتي عما تكرمتم به من التهنئة بمناسبة ارتقائي للسلطة الخديوية . ومن رسائل الامير الى لويس

نابليون الثالث امبراطور فرنسا بعثها اليه من دمشق ..منها ولو اعطيت نفسي مناها وسوغتها هواها لاوردت على حضرتك في دور كل يوم جديد وافر الشكر وجددت لكم مع كل خاطر جميل الذكر وحسبي من ذلك ان اخبارًا تواترت وانقالاً تظاهرت باطباق سكان اليابسة على ذكر مزاياكم الباهرة وبدائعكم الزاهرة ونشر نتائج عدلكم وشكر وافر فضلكم حتى لقد صار للناس فيما اجريتموه معنا من الخوارق محافل تعقد ومشاهد تشهد ولم يزل ذلك مستمرًا الى الآن وبهذا الحال التي طاب مسمعها ولذ موقعها استفزنا فرط الارتياح وصدق الانشراح الى بعث هذه الرسالة نهنيكم بالتوفيق الذي قسمه الله لكم في شأننا والتيسير الذي اظهره الله على يدكم لتسريحنا والاحسان الينا وقد جرت عادة الامير مع الامبراطور المذكور من بعد خروجه الى بلاد الاسلام ان يهنئه بدخول كل سنة كما يهنئه بعيد جلوسه على تخت الامبراطورية في امثال اليوم الذي تهيأ له فيه ذلك ولكثرة الرسائل ووفرة الاجوبة في هذا الخصوص اقتصرنا منها على بعض اجوبة الامبراطور حيث ان مؤدى الجميع واحد فمن اجوبته عن تهنئة سنة خمس وخمسين وثمانمائة . قد وصلني تلغرافكم مسفرًا عن صادق المودة وموضحًا شدة ارتياحكم لتهنئتي بالسنة الجديدة فحصل لي بذلك سرور عظيم وبمثل هذه التهنئة اهنئكم واؤكد اني احبكم وارجو لك الخير وعن التهنئة بعيد الجلوس اطلعت على تلغرافكم وضجت الالسن فرحًا بعباراته وصادف منا غاية الارتياح والقبول وعن سنة ستين قرأت رسالتكم واهتززت سرورًا بها لكونها جاءت نائبة بما امكن عن شخصكم الكريم لدينا وعن سنة احدى وستين حين اطلاعي على رسالتكم في التبريك بالسنة الجديدة انشرح صدري وانبسط فكري وانبعث شكري وعن سنة اثنين وستين سرني تلغرافكم جدًا صحتي جيدة دائمًا اتذكر واتفكر في محاسنكم ومزاياكم وعن سنة ثلاث وستين تهنئتكم صار لها في قلبي موقع عظيم جدًا كما يقع في قلوب الاحباب بمثلها وعن سنة اربع وستين وردت علينا التهنئة من حضرتكم فتلقيناها بالقبول والسرور وهكذا في كل سنة وعيد جلوس الى ان عرض للامبراطور ما عرض في حرب المانيا من الاسر ثم الموت بعد خلاصه منه في بلاد الانكليز ولما شاع خبر موته بعث الامير الى زوجته اوجيني يعزيها فاجابته بما ملخص ترجمته : ان القادر على كل شيء قد منحني تعزيةً وصبرًا جميلاً في اثناء المصائب التي اصابتني والنوائب التي نابتني ونحن وان كان كثير من الناس تركنا فانه يوجد في العالم من يفتكر في شاننا

مثلكم ثم ان اظهار ميلكم الينا قد اثر فينا تاثيرًا حسنًا قلبيًا فالله الذي ضربنا بايدي الشر اسأل منه القوة على الخضوع لارادته واني اشكر من معروفكم باسم الامبراطور واسم ابني فكن ايها الامير واثقًا بمودتنا في كل الاحوال واستمر الامير معها على ما كان عليه في ايام زوجها من المواصلة والمراسلة ومن اجوبتها عما يصلها منه من التهاني في الاعياد ودخول السنين ما كتبه في رابع فبراير سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ان انواع التهاني التي ترد علي وعلى ولدي من لدنكم تجعلني واياه في غاية السرور لانها تبرهن لنا على انكم وان كانت الاحوال قد تغيرت علينا فان حسن عهدكم وجميل ذكركم الامبراطور لم يطرأ عليه ضعف ولا نسيان وهذا مما ينبئني ويدل على صفاء طويتكم وثبات قلبكم مع كثرة العوارض التي من شانها تغيير الاحوال بحيث انه لم يمسه ادنى انحطاط بل قاومها وانتصر عليها فاشكركم على ذلك وعلى جميع ما اشتمل عليه تحريركم. ومنها ان تجديد التهنئة لي ولولدي بحلول كل سنة لا محالة انه يجدد لنا سرورًا لا مزيد عليه لان ذلك يؤكد لنا ان الحوادث وان كانت قد غيرت احوالنا وشان حظوظنا فانها لم تؤثر في مودتكم ولا انستكم احسان الامبراطور وهذا يدل على عظم نفس وثبات قلب ومن شانكم المعروف عنكم انكم دائمًا تنتصرون على تقلبات الزمان وصروفه مع سلامة الطوية وصفائها فلذلك اشكركم واظهر عظيم اعتباري واحترامي لقدركم دائمًا ومنها في رابع افريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة ان البواعث الشريفة التي تحرك القلوب العظيمة لمعالي الانسانية فبقدر ما تكون عزيزة تكون دائمة وثابتة وهذه البواعث التي حركتكم للسؤال عنا وتقديم الدعوات لنا ولولدنا قد وقعت منا موقعًا حسنًا جدًا ولذلك اقدم لاجلها بلساني ولسان ولدي انواع التشكرات القلبية وولدي قد سافر مع الجنود الانكليزية الى الرجاء الصالح ودون وصول تحريركم اليه صعوبات شتى وبناء على ذلك ابقيته عندي لاسلمه اليه عند رجوعه. ومن اجوبة ولدها البرنس امبريال المذكور ان التهاني الواردة عليّ وعلى والدتي من حضرتكم قد اثرت فينا تاثيرًا حسنًا لكونها اظهرت لنا ما انتم عليه من حفظ الوداد لوالدي والوفاء بحسن العهد واكدت لنا صدق ميلكم الحبي الذي نعتبره امرًا عظيمًا صادرًا من رجل عظيم ظهر في العالم متصفًا بالبسالة في الحروب مستقيمًا في سلوكه عادلًا في شؤنه امينًا في حاسياته ومن الامور المؤكدة ان الباري تعالى جعل قلوب الرجال العظام مرايا تظهر فيها صور الكمال الانساني فلذلك لا تضعف عرى المودة بينهم ولا تنقسم

ثم اني اشكركم على عدم انحرافكم عن طريق تعلقكم السابق وانعطافكم لنحو والدي وارجو الباري سبحانه ان يحفظ وجودكم ثم ان هذا البرنس سافر مع عسكر الانكليز فقتل في بعض حروبهم مع الزولوس ولما اتصل خبره بالامير كتب الى والدته يعزيها فيه فاجابته ان التاسف الذي اظهرتموه لفقد ولدي العزيز الذي قتل واسلحته في يده مقاوماً لاعداء كثيرة قد وقع عندي موقعاً عظيماً واوجب عليَّ اداء التشكرات العظيمة لاشتراككم معي في هذه المصيبة التي اصابتني وفي احزاني العمومية راجية من الحق تعالى ان يحفظ وجودكم ولما اديلت الدولة الامبراطورية بالحكومة الجمهورية انتهز رجالها الفرصة في احكام عرى المواصلة مع الامير خشية ان تذهب بذهاب الامبراطور فبعث وزير خارجيتها الى قنصلها بدمشق رسالة تلغرافية ونصها من الواجب على الامير عبد القادر انه لا يشك في ميل الحكومة نحوه بل هي تعامله بالمجاملة والمكارمة على ما كان عليه الامر سابقاً وارجوكم ان تبلغوه ان المرتب يتصل عطاؤه له في اوقاته واستمرت المواصلة جارية بينهم وبين الامير على هذا يكاتبهم ويكاتبونه في المواسم وغيرها وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة كتب الماريشال مكماهون دوك ده ماجنتا رئيس الجمهورية الى الامير جواباً عن مكتوب منه اليه

ايها الامير المعظم قد اخذت تحاريركم في اوقات مختلفة باعظم السرور ولا اقدر ان اتاخر عن افادتكم عما حصل لي من الارتياح لما اشتملت عليه من انواع التهاني ولما ابديتموه من الميل لفرانسا هذا وان الصفات الحسنة التي ميزتكم عن جميع الناس نحن نعتبرها وننوه بقدرها ولذلك لا احتياج الى اقامة دليل على شدة ميلي لنحوكم وبناء عليه فثقوا بمحبتي وخلوصي القلبي لنحوكم وفي سنة ثمان وسبعين كتب ما نصه · ان مبادرتكم لتقديم التهنئة بدخول السنة الجديدة والدعاء بنجاحي فيما اسعى فيه من الخير لعباد الله تعالى قد سرني واثر فيَّ تاثيراً حسناً جداً ولهذا لا اريد ان اتاخر عن اظهار مسرتي لكم بذلك وانني اسعيد بتمكني من هذه الفرصة التي اوضحت لكم فيها ما حصل لي من الانشراح ثم اني اتمنى لكم من قلبي ان الحق تعالى يصون حياتكم ويمنحكم الحظ الحسن والسعادة ولما تولى جول كريفيه رئاسة الجمهورية خلفاً للماريشال مكماهون كتب اليه الامير يهنئه فاجابه ايها الامير المعظم ان حسن اعتقاد ابناء وطني دعاني لرئاسة الجمهورية الفرانساوية ولكونكم بادرتم بتقديم التهاني وانواع التبريك لشخصي بهذا المنصب الوطني لا اريد ان اتاخر عن تقديم التشكرات لكم على ذلك واعلم ان خلوص مودتكم قد اثر فيَّ كثيراً واوجب عليَّ ان اؤكد لكم صدق مودتي واعتباري لمقامكم السامي ولذلك اقول انني مستعد

دائماً للسعي فيما يعود بالخير العظيم على شخصكم الشريف وارجو من الله تعالى ان يحرسكم ويفيض نعمه عليكم وفي سنة اثنين وثمانين كتب اليه الامير يهنئه بالعيد الاهلي في جوليو فاجابه ايها الامير الكريم قد قابلنا التهاني التي قدمتموها لنا بالعيد الاهلي بمسرة عظيمة واهتمامكم بهذه الامور يدل على خلوصكم للمشيخة الفرانساوية ولذلك نجعل لعبارات التبريك التي تقدمونها لنا اهمية عظيمة ثم اننا نكرر لكم تاكيد اعتبارنا وصدق محبتنا وندعو لكم بدوام الصحة والسعادة وفي سنة ثمانين وثمانمائة عرض لملك ايتاليا فكتور عمانوئيل مرض شاع خبره ثم بعد مدة شاع انه عوفي منه فكتب اليه الامير يستفسر عن احواله ويهنئه بالشفاء فاجابه ان ما انا عليه من شعائر الوداد والخلوص لكم يشهد لي به ضميركم الشريف وما لنا عندكم من المودة يشهد به تحريركم المحبوب ثم ايدتموه باظهار الاشفاق من مرضنا فاستوجب هذا ممنونية فائقة وتشكرات اكيدة قلبية كما استوجب ذلك تهنئتكم لي على الفوز بالصحة التامة فالباري تعالى يحفظ عالي وجودكم ويوفر سعودكم ولم تزل المواصلة جارية بينهما الى ان توفي الملك المذكور ولما تولى مكانه ابنه ولي عهده الملك همبرت كتب اليه الامير يعزيه ويهنئه بما نص ما تمس الحاجة اليه ولا يخفى ان الاقدار الالهية من شأنها انها تختلف بين مكروه ومحبوب وتتصرف بين مسلوب وموهوب . وكثيراً ما اخذت بيد ثم ردته باخرى واحزنت بكرة ثم احدثت بالعشي سروراً وبشرى هذا وان حكم الله تعالى بموت عظيم ايتاليا وملكها والدكم وافضاء امر الملك اليكم قد جمع بين ما يوجب الاسف والتعزية وما يوجب المسرة والتهنئة ولا شك ان الله تعالى اسى بكم حادث الكلم وسد بشخصكم العظيم عظيم الثلم ورد النفوس بعد انزعاجها الى محالها والآمال الى محط رحالها فلذلك ترى النفوس الى التهنئة اميل منها الى التعزية اذ الموت امر لا بد منه وسهم لا تحيد لكل مخلوق حي عنه فالله يصلح بكم البلاد والعباد ويوفقكم الى سبيل الرشد والسداد ثم لا يخفى ان عيون العائلة الملوكية ترمقكم في هذه الحال لتسلك على سبيلكم وتأخذ بصبركم فيها وتحملكم فينبغي لكم استعمال الوسائط اللازمة في تهوين ما نزل بها حتى تتفرغوا الى القيام باعباء ما اسداه اليكم الباري تعالى من الملك العظيم ثم ارجو قبول ما اشتملت عليه هذه النميقة الودادية من التعزية والتهنئة . وكان الغراندوق بن قسطنطين شقيق الاسكندر الثاني امبراطور روسيا جاء الى الارض المقدسة ودخل دمشق واجتمع بالامير وعند سفره كان الامير منحرف الصحة فلم يتفق لهما اجتماع لاداء سنة الوداع وبعد وصوله الى بطرسبرج عاصمة ملكهم بعث تلغرافاً

للامير يخبره بوصوله فاجابه الامير تلغرافياً سرني جداً وصولكم بالسلامة لمقركم · صحتي جيدة دائماً اذكر ما انتم عليه من الاخلاق الحسنة ان تحسن عندكم قدموا اسنى تحياتي الى حضرة الامبراطور واقبلوا تهنئتي بالسنة الجديدة وهي سنة اثنين وسبعين وثمانمائة · وفي فبراير منها جاء الجواب من الغراندوق ونصه ايها الامير الماجد المعظم قد سررت كثيراً بتلاوة الرسالة التلغرافية التي اتحفتموني بها وجاءت شاهدة على دوام ذكري عندكم وكانت من احسن الوسائل لدي لتجديد انبساط قلبي بذكر اجتماعنا في دمشق وما كان من سياحتي في المشرق التي لا يتطرق اليها عندي نسيان وما كان لبعد المشقة ولا لطول المدة ان ينسياني ما رأيت في ذلك القطر الكريم من اكرام النزل وحسن اللقاء ومن جملة ما بدا لي منكم ومن جميع اهل دمشق ثم ان من محاسن نميقتكم هذه التحافي بحصولكم على كمال العافية والصحة فان لسلامتكم شأناً عظيماً لدي لما اعلمه من انبعاث الفضل والفضائل من افعالكم وآرائكم فاحياكم الله الى امد بعيد وامدكم بفضله المديد وقد اجبت سؤلكم بعرضي عنكم لدى السدة القيصرية تحية الاحترام والاخلاص فارتاح جنابه الرفيع الى ذلك بمسرة ثم تكرم بالثناء عليكم واذن لي ان ابلغكم السلام من لدن حضرته وان اعرفكم بانه يحبكم وانه لاتزال تترنح اعطافه لشدة مسرته بحسن صفاتكم وحميد سيرتكم ولذلك اهني نفسي وافرح بالفرصة التي اتيحت لي لتبليغكم هذ التعطف من لدن مقامه القيصري وحيث اني اود ان ابث اليكم واظهر لديكم ما عندي من المودة فقد ارسلت اليكم داخل هذا الرقيم رسم صورتي لتكون تذكاراً لي عندكم فاقبلوها واحفظوها علامة على بليغ ودادي وصدق ولائي ومني سلام مستمر على سموكم ولن ازال تبلى عواطفي اتمنى لكم كل خير وغبطة · كان الوزير السياسي غورتشاكوف الروسي جاء سائحاً الى هذه البلاد ولما رجع الى وطنه بعث الى الامير مكتوباً ملخصه اعدّ نفسي سعيداً حيث اني رأيت شخصكم الممجد وسمعت خطابكم اللذيذ ولم يزل فكري يجول في رياض محاسنكم الفاخرة ويستنشق نسيم كريم اخلاقكم ولا ابرح على هذا مدة حياتي وانحراف مزاجكم الشريف هو الذي منعنا من وداعكم عند السفر واوجب لنا الاسف الشديد والان نحمد الله على اعتدال مزاجكم وكمال صحتكم وقد اتصل بالامبراطور ما انتم عليه من الميل الى جانبه الرفيع وغدا بذلك ممنوناً متشكراً ارجو عدم ابراحي من الفكر الكريم · ومن اجوبته قوله ايها الامير الاكرم ان مسيو مكايف قد سلم اليّ التحرير الذي كلفتموه بحمله

اليَّ من لدنكم واني اجل ما تحسن عندكم اظهاره من المودة ولا يخفى ان تمسكي العظيم بكم واحترامي لمقامكم نظرًا لما اتصفتم به من الاخلاق الكريمة الخالصة الشرعية يقابل عظيم تلك المودة وشهادتكم له باظهار شعائر المحبة والخلوص لحضرتكم قد سرتني كثيرا وفي الحقيقة ان ما اجراه من ذلك هو مراد لعظمة الامبراطور والذي اعلمه بوجه التأكيد ان خلفه يحذو حذوه وبذلك يكون قد قام بما تقتضيه ارادة ملكنا المعظم من الميل ولانعطاف لنحوكم كما انه يكون بذلك قد تمكن من استجلاب تعطفكم لنحوه فاقبل ايها الامير الفائق الاحترام تاكيد مودتي القلبية لسموكم واعتباري الفائق لمقامكم

ومن اجوبة سفير الدولة الانكليزية في الاستانة العلية السير هنري الى مفخر الاماجد الكرام ذوي القدر والاحترام الامير عبد القادر

غب اهداء واجبات الاكرام بمزيد الاحترام نبدي انه وصلني عزيز كتابكم واطلعت على ما فيه حرفيًا وعلمنا انكم بذلتم غاية الهمة والغيرة في وقت الفتنة العظيمة في حق تبعة الدولة الانكليزية وهذا يدل على مودتكم لنا وهو امر لا بد ان يكون في حقك عظيماً معتبرًا ثم ان اقتضى لكم غرض من الاغراض في طرفنا اخبرونا به فانه يحصل على وفق مرغوبكم وكان بين الامير وبين الحكومة التونسية مراسلات ودادية ومواصلات حبية ولما انجز الوزير خير الدين باشا تاليف اقوم المسالك بعث الى الامير نسخة منه واصحبها بمكتوب فاجابه بما ملخصه وقد ورد علينا من حضرتكم كتاب سني يشتمل على خطاب لذيذ شهي فاستدعى شكري وحمدي واستخلص في صفاء المودة ما عندي عرفتمونا فيه من خبر سلامتكم ما نرجو له الدوام وندعو له بالحفظ من حوادث الايام هذا وقد اطلعنا على اقوم المسالك فرايناه فيه ما بهر العقول وادى الافكار الى الذهول من قضايا المعقول والمنقول فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الالسنة في تمثيله اما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه قد ارانا من الرجال بقايا وفي الزوايا خبايا كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الاسحار وتبسم عن ثغور النور والازهار كتاب يزري بتاج تراجم الاعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم اخبار الملوك وافاضل الزمان فاتخذته مرتع ناظري ومنتعش خاطري ولا يخفى انه لا بد لكل عصر من رجال يقومون باعبائه ويهيمون في اودية انبائه وبالجملة فقد ابنتم في هذا التاليف من كلامكم العالي المنيف ما يجب على كل عاقل ان يتخذه سميرًا ويجعله على كل كلام اميرًا فلقد ابتدرت ايها

الوزير الخطير الى احراز المعالي وسبقت وحزت قصب السبق في مضمارها وفزت فلله درك ودر ما به المعت وما قربت من فنون المعارف وبعدت ثم انك حميت ذمار الشرع المحمدي وعضدته وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته وذلك بما قررتموه من ان الشريعة المطهرة لائقة بكل زمان صالحة للحكم بها في كل اوان وذكرتم ان بعض من خالف الحكم المحمدي فتاخر نسبت جنايته اليه وما احتشم ولا تبصر ولم يعلم ذلك المخذول انه انما اتى من قبل مخالفته واصيب في عين بصيرته من جهة اساءته

والشمس ان تخفى على ذي مقلة   نصف النهار فذاك تحقيق العمى

نسأل الله العافية . ولما تكرم صاحب تونس بالنيشان العالي من الرتبة الاولى عزه وزيره الاكبر مصطفى الشهير بخزينه دار بمكتوب منه الى الامير فاجابه برسالة منها ان ما بيننا من الود متين عرى الحقائق فلا يحوله عن مركز ثبوته عائق قد ارتبطت في الله معاقده وراسست على المحبة لاجله قواعده ولقد اوليتم فاخلصتم وعرفتم حقوق الاخوة فايدتموها و باعبائها قمتم ثم تكرمتم بما يدل على ذلك دلالة الروض على الزهر والشاطئ على النهر وهو النيشان العالى الشان الذي تفضلت به الحضرة الصادقية ايدها الله على ولدي الاكبر السيد محمد ولكونه من الرتبة الاولى صار شكركم عندي من كل شكر احق واولى نسأله تعالى ان يبقي تلك الذات السنية سامية الركاب عالية القباب بمنه تعالى وكرمه ومن رسالة اخرى الى الوزير المذكور قد رفعتم للعدل الراية وبلغتم من الكمال الغاية حتى احبكم البعيد والقريب ودان بودكم المتوطن والغريب ولم تزل السن المهاجرين بطرفكم تلهج بما لكم من الخصال الحميدة والمزايا العديدة وفي هذه الايام وردت علينا رسائلهم تترى طالبين ان نحدث لكم من امرهم ذكرًا فجعلنا هذه النميقة تذكرة حسنة لتعاملوهم بمقتضى معاليكم المعاملة الحسنة على نحو ما سبق من احسانكم والفوه من افضالكم وامتنانكم ولا يخفى ان ذلك من اسنى الاعمال الصالحة وابهى المساعي الناجحة وانتم ابقاكم الله بكل فضيلة احق والى كل منقبة فاخرة أسبق فكتب اليه في الجواب . قد بلغنا كتابكم الكريم مبشرًا بنعمة عافيتكم التي هي مبتهج الامل ومنهج الرغبة ونستوهب الله تعالى على ذلك من الشكر ما يكافئ مزيد نعمائه و يوافي عظيم آلائه وماسنح لخاطركم الشريف من توكيد الوصية على من لهم تعلق بجنابكم من المهاجرين القاطنين بالمملكة التونسية فانهم لا يزالون بحمده تعالى في ظل نعم مولانا وسيدنا دام عزه وعلاه في امنه ورعايته مانوسين محروسين ثم المرجو ان تبقى صلة المودة بالمكاتبة موصولة لتزداد النفوس مسرة والعيون قرة . وفي سنة ثمان وثمانين جاء الوزير خير الدين باشا الى الاستانة في امور

تتعلق بحكومته وعندما اتصل خبره بالامير كتب اليه رسالة منها . ولما بلغ خبر مروركم الى دار السعادة قلنا لعل الاقدار الالهية تجذبكم الى هذه المواطن المباركة الطاهرة لتفوزوا بمشاهدة المشاهد النبوية الزاهرة وتتنسموا عرف انفاسها الزكية العاطرة ولتتمتع بمشاهدتكم نواظرنا وتنشرح بطيب مذاكرتكم خواطرنا ونترقى في معرفتكم من العلم الى العيان ومن مخاطبة القلم الى مشافهة اللسان وحتى تتمكن النفوس من صقالها والعقول من حل عقالها والالسن من فصل مقالها فان ساعد القدر في حصول هذه الامنية وحظينا بمشاهدة ذاتكم البهية فيا حبذا والا فلله الامر من قبل ومن بعد وله الحكم في القرب والبعد . فجاء الجواب الا انه غير مطابق من كل جهة للخطاب وهو قد اتصل بنا عزيز كتابكم المتضمن التعريف بعافيتكم وابتهاج نفسكم الشريفة التي هي قرارة كل فضيلة وبكل مكرمة كفيلة فحمدنا الله تعالى على ذلك باللسان والجنان وعلى ما انعم به ايضاً علينا وارانا اياه في وجهتنا هذه المنتظمة في سلك مراحم الخلافة العثمانية ومرضاتها في تسهيل المصلحة العمومية الاسلامية وتمهيد اسبابها وتثبيت دعائمها التي خلدت للاسلام فخراً وادامت له من مكارمها ذخراً ونستودع الله شكراً يوافي ما انعمت به السلطنة العلية خلد الله عزها من الامور المرضية الشخصية التي كانت فوق الظن ونرجو دوام صلة المودة اذ هي بين الاحبة مسئولة ولديهم مقبولة وما برحت منح الله تعالى تفاتح جنابكم وترتاح بكل مكرمة مثابكم بمنه تعالى وكرمه . وفي سنة اربع وتسعين بعث اليه الامير هدية سنية من التحف الدمشقية وذلك ايام وزارته الكبرى ومعها كتاب فاجاب بما نصه المقام الذي لمعت في الخافقين كمالاته وسطعت فيهما آياته الامام العارف انيس المعالي والمعارف جناب الامير السيد عبد القادر الحسني لا زال العلاء سميره وعين المجد به قريره اما بعد السلام الاتم ومزيد الثناء على ذلك المقام الافخم فقد تشرفت بعزيز كتابكم الوارد وكرعت منه في اصفى الموارد مشتملاً من الحسن بطراز متوشحاً من الود بالحقيقة لا المجاز وقد وقع مني ما اتحفتموني به موقعاً عظيماً حتى انه لم يبق لزيادة الاستحسان موضع ولا من طرف الاعجاب مهيع ورأيتها من اعظم المنح وان رآها جنابكم لجلالته اقل من ان تمنح ولا سيما انها من بلدة مباركة ومن جناب سابل الاكرام فكيف ان تدع لاحد معه مشاركة فاكدت تذكاري مع شقة البين وان كان نصب العين نسأله تعالى ان يجعلها وسيلة يستعان بها على قضاء الاوطار المحمودة باعثة على نهج الطرق التي هي بالتوفيق

مدعمة وبالهدى معضودة واني وان اجهدت نفسي في شكر مودتكم وعائد صلتكم فما اوفي حقها ولو اعارتني السماء مداداً وارجو من مكارمكم العديدة وشمائلكم الوحيدة وحسن الالتفات للمتسم بودكم بصالح الدعاء حتى ارى الاجابة تخرج من خلاله وارتوي من زلاله فان تعطشي لذلك مديد وشوقي اليه عتيد وكتب الامير الى رمتم باشا امير الامراء يوصيه باولاد مقرات حين التجئوا الى المملكة التونسية فاجابه بقبول وصيته والسعي في مراده وبغيته فكتب اليه الامير ما نصه

اما بعد فقد ورد علينا كتابكم الاعز وخطابكم الالذ الاوجز مشتملاً على الفاظ فائقة ومعان رقيقة رائقة ومخبراً بما انتجته العناية السنية الصادقة بالفئة الملتجئة المقرانية من عميم احسانها وفيض امتنانها وانها انزلتهم فيما تخيروه من اوطانها ورغبوا فيه من اعطانها فنسأل الله ان يديم رفعتها ويؤيد سطوتها ويبقيها للا بدين ملاذاً وللعائذين معاذاً هذا ونحن نعلم ان ما ابرزته مراحمها وجادت به مكارمها ما وقع الا باشارتكم ولا ظهر للعيان الا بواسطتكم فجزاكم الله جزاء الدال على الخير واعاذكم من كل فتنة وضير وادام توفيقه اياكم لمثل هذه الاعمال السنية والمزايا البهية انه جواد كريم برٌّ رحيم ولا نحتاج مع وفور فضلكم الى تجديد الوصية بكافة المهاجرين وتكرار التذكرة بملاحظة الاولين منهم والآخرين والله تعالى يبقيكم ومن كل سوء يقيكم فاجابه بقوله جناب الفذ العريق في الرياسة والسيادة الحقيق بارتداء ملابس الفخر والسعادة الذي اربى عزيز جنابه على سائر اقرانه واترابه وشكرت مساعيه الحسنة واتفقت على كمال وصفه الآراء والالسنة حضرة الامير الجليل الابر سيدي عبد القادر بن محيي الدين لا زال وجه الايام بسناء سعادته ساطعاً وضياء نورها بسيادته لامعاً اما بعد سلام يتمسك بذيل عرفه النسيم ورحمة يشملها سلام قولاً من رب رحيم فان كتاب جنابكم الاعلى وخطاب سيادتكم الاغلى ورد عليَّ فكان اعظم وارد واكرم وافد وانشرح صدري عند تناوله وقبلته قبول مبتهج اكراماً لمرسله وشكرت الله تعالى على تعطفكم علينا وحسن التفات سيادتكم الينا واعظم ما سرنا به عافية حضرتكم الشريفة واخبارها السارة اللطيفة فالله تعالى يسمعنا عنكم دائماً ما يتعاظم به السرور وتزدهي به الخواطر وتثلج الصدور والمرغوب من الجناب العالي الزاهر المتلالي ان تمدوني بصالح دعاكم والله سبحانه وتعالى يديم شموس سعادتكم مشرقة واغصان سيادتكم مورقة بمنه وطوله ٠ ولما تولى حسين امير الامراء التونسي رئاسة مجلس الشورى سنة اربع وتسعين

كتب الى الامير يخبره بذلك ويذكر اعتناءه بامور المهاجرين في تلك المملكة فاجابه الامير ان السنة المهاجرين لم تزل تلهج بكمالكم ونفوسهم تبتهج بحميد خصالكم فاجبناكم على السماع وتمنينا ان يحصل بيننا وبينكم اجتماع ثم لما ورد تحريركم علينا ثبتت محبتكم في قلوبنا بالوسائل الموءكدة على ما يقتضيه حديث الارواح جنود مجندة ثم انا نقدم لحضرتكم انواع التهاني بالمقام الذي ترقيتم اليه والمنصب الذي دار فلك فخركم عليه وفي الحقيقة التهنئة للمنصب حيث انه بجمالكم تجمل وبكمالكم تكمل لكن جرينا على الظاهر المعروف وسلكنا في ذلك السبيل المألوف ونساله تعالى ان يديم ترقيكم ويوفقكم لما يرقيكم آمين

وفي سنة خمس وتسعين كتب الى الامير في عناية باحد اصحابه ما نصه

ادام الله تعالى عز الكهف الهمام مجمع الكمالات المتفرقة في الانام ذي المآثر المسطرة على جبين الدهر والحائز في مضمار الشرفين غاية المجد والفخر سيدنا وملاذنا الوحيد سيدي عبد القادر لا زالت الافئدة تتظافر على وده والاندية تارج بشذا مجده اما بعد اهداء تحية يرنح قبولها الاريحية فان توفر حظ العبد من مودة السيادة يسع مقترحي وهو ان حامل الكتاب فلان عنّ له ان يزور مواطن الشام وربما يبلغ في سياحته الى بغداد دار السلام فامل من عبدكم وشيعي ودكم ان يصحبه بمكتوب الى اعتابكم السامية ليتشرف برويتكم ويكون تحت حمايتكم وعليه فالمرجو ان توصوا به سائر العرب الذين يكون مروره عليهم في طريقه حتى يكون في حلوله وارتحاله آمنًا مطمئنًا فاسعفته بمراده لسابق وداده ولا زال حماكم المحمى مراح المعاني ومطمح نظر القاصي والداني آمين

وكتب اليه ايضًا في عناية اخرى ما نصه

تستقبل هاته الصحيفة محراب جامع اشتات الكمال والشيم الشريفة جناب رئيس المهتدين وقاهر المعتدين مولاي عبد القادر ابن المولى محيي الدين حرس الله كماله وانجح بسديد رأيه آماله اما بعد اهداء تحية ترنح قبول قبولها عذبات الاريحية فالداعي الى تسطيره بعد التشرف بارتسام صور هذه الكلمات في مزايا افكاركم ان المحترم الانجب محبنا فلان حامل هذا المكتوب لسيادتكم العلية بالله قد اقام عندنا نائبًا عن قنصل ايتاليا بثغر حلق الواد من محروسة تونس مدة سنتين والان امرته دولته بالانتقال لقنصلية دمشق الشام المحروسة فلعلم السنيور المشار اليه بتشيعي بالمودة الى جنابكم رغب بان اصحبه بتحرير لسني حضرتكم حتى يتشرف بمعرفة ذاتكم الشريفة فوافقه العبد على رغبته وهو في نفس الامر من اظرف واكيس بني الجنس حتى انه لم يفارق بلادنا الا وكل من

عرفه يتمنى عوده اليها وارجو انكم حفظكم الله تجدون من نعرفه بجنابكم فوق ما وصفناه به من محاسن الشيم والله يحرس حماكم مناخ الاكياس وملاذ سراة الناس ودمتم في امن الله والسلام من شيعي ودكم وعبد كمالكم حسين

ولما تولى امير الامراء محمد المعروف بالبكوش وزارة الخارجية بتونس كتب اليه الامير يهنئه بها فاجابه بما نصه

الجناب السامي نخاره الواضح افتخاره المشرق مناره الحميد في المكارم ايراده واصداره نخبة الاعيان اهل المعرفة والشان سيدي الامير عبد القادر الحسني لا زال بكل فضيلة سني. اما بعد اداء ما يجب لعزيز جنابكم من التعظيم والتكريم فقد بلغني كتاب سيادتكم متضمناً الافادة عن نعمة عافيتكم لا زالت ضافية الاذيال بادية الاجلال ومعرفا بمسرة جنابكم بولايتنا وزارة الامور الخارجية فشكرنا مكارم اخلاقكم الجليلة التي هي محل الشكر وقرارة الفخر ونسأل الله عوناً على مرضاة حضرة سيدنا ادام الله عزه وعلاه كما اننا نسأله تعالى ان يديم حفظ ذلك الجناب على ممر الاحقاب بمنه تعالى وكرمه آمين. ومنه اليه بتاريخ سابع رجب سنة خمس وتسعين ما نصه: الجناب الذي ضربت عليه العلياء قبابها ورفعت له المسرة نقابها وامتدت به شجرة المجد اغصانا وكانت الالسنة على الثناء عليه اعواناً معجز الاقلام عن تعداد محاسنه والالسن عن عد احسانه المفرد العلم وحيد الشمائل والشيم الامير السيد عبد القادر لا زالت الاسماع لمآثره واعية واجياد الزمان بفضائله حالية والكمال من رياض معاليه يرتاد والانس بوجوده على الدوام يزداد اما بعد اهداء تحية يطير بها الشوق الى ذلك الناد وليس له الا ا يد الحب حاد. فقد بلغ السرور بكتابكم العزيز المنتهى حتى كدت اصير به مغرماً ولما جاء مبشراً بما عمتكم من النعيم الكافي والفضل الوافي ومقرراً لما عليه جلالتكم لنا من الود الفائق والاعتناء الرائق فحمدنا الله على ذلك وشكرنا فضلكم لما هنالك والمطلوب من حضرتكم اللطيفة الشمائل النجيحة الوسائل حسن الالتفات للعبد بصالح ادعيتكم التي هي للاجابة اسرع من هطل سحابة والله يمدّ سيادتكم من خزائن فضله ما انتم من اهله آمين

ولما تولى مصطفى بن اسماعيل التونسي الوزارة الكبرى كتب اليه الامير يهنئه . فاجابه بقوله

المقام الذي ما زال الهدى يؤيده والجود الالهي يسدده من حاكاه البدر في هالاته وعجزت الاقلام عن تعداد كمالاته جناب الهمام النحرير والاكسير الرباني سيدي عبدالقادر بن محي الدين الحسني لا زال للاعين قرّه وفي جبين الزمان غرّه اما بعد

اتم السلام على ذلك المقام والثناء بملء اللسان على خصائلكم الحسان فقد اتصلت يدي باعز كتاب جنابكم وتيمنت باعز خطابكم وعلمت ماعليه احتوى من التهنئة بولايتي الوزارة الكبرى والمسئول من ربنا سبحانه ان يتفضل عليّ بالاعانة في القيام باعبائها واستنتاج نتائجها حتى يكون السعي سديداً والرأى بفضله رشيداً وقد تضمن كتابكم الكريم انه كان عرض لجنابكم مرض اوجب تاخير كتاب التهنئة فنحمده تعالى على شفائكم ونضرع اليه في دوام عافيتكم وارجو من جنابكم ان اكون ممن يشمله دعاكم ولا ينساه علاكم ما برح المجد بجنابكم مصوناً واليمن بوجودكم مقروناً

(وكتب الامير) في سنة احدى وتسعين الى امير مكة وشريفها الشريف عبدالله باشا يعزيه في بعض اقاربه فاجابه برسالة نصها . غب اهداء جزيل سلام اطيب من عرف النسيم واعذب من رحيق تختوم ختامه مسك ومزاجه من تسنيم وازكى تحيات تبسم بالمحبة ثغور سطورها وترقم بصدق الاخلاص احرف منشورها الى حضرة فريد الذات والصفات حميد الخصال والسمات قدوة الافاضل والاكابر وعمدة ذوي المعالي والمفاخر الاجل الاكمل السيد عبد القادر الحسني وبعد فانا لم نزل نتطلب ورود الاخبار المسرة عنكم بما يطمئن به الخاطر عليكم وفي اشرف الساعات ورد علينا مكتوبكم الشريف المشتمل على الخطاب اللطيف المتضمن التعزية فيما جرى به القضاء المبرم والقدر المحتم بوفاة من تغمده الله بالرحمة والرضوان واسكنه فسيح الجنان ولقد احسنتم فيما بلغتم من حسن العزاء ولا زلتم موفقين لتسلية المحبين المخلصين فالله تعالى يجعلنا ممن يتلقى قضاه برضاه وافدتم انه بلغكم ما حصل لنا من التاثر فله مزيد الحمد قد تفضل المولى سبحانه باللطف فيما قدر ودمتم سالمين في حفظ الملك المعين ولما توفي الشريف عبد الله المذكور وتولى مكانه شقيقه الشريف حسين باشا كتب اليه الامير يعزيه ويهنئه فاجابه بما نصه . غب اهداء اصفى تحيات وافرة واوفى تسليمات عاطرة يفوح نشرها العبيق من سوح الكعبة الغراء والبيت العتيق الى جناب صاحب الاخلاق الحميدة ومحاسن الاوصاف الرشيدة قدوة الافاضل وعمدة ذوي الفضائل الاجل الاكرم السيد عبد القادر الحسني زيد فضله وبعد فبينما نحن في البحث عن صحة ذاتكم والسؤال عن كمال صفاتكم اذ ورد الينا كتابكم المسفر صبح مضمونه عن صدق اخلاص وموضح عن اكيد مودة ليس لزائدها انتقاص متضمناً التهنئة بما منّ الله سبحانه به علينا من اكرام السلطنة السنية بتوجيه الامارة الى

عهدتنا فلله مزيد الحمد على ما انعم وله كمال الشكر على ما تكرّم ونسأله سبحانه وتعالى التوفيق والاسعاد والهداية الى سبيل الرشاد انه سبحانه جدير بالسؤال وقدير على تبليغ الآمال وقد سرنا ذلك منكم وشكرنا صنيع همتكم لا سيما ما تضمنه من الادعية الخيرية المرجوة القبول لصدورها عن المحبة الصادقة القلبية ودمتم سالمين على الدوام والسلام

ومن رسائل الفاضل السيد عبد الرزاق مفتي اللاذقية الى الامير قوله

الحضرة التي تستجلب رضاها وتستجلي ضياها حضرة المكارم التي لاح سناها وعطر الآفاق طيب رياها والدوحة التي تستظل الانام بظليل حماها والروضة الغناء التي تنجت ازاهر رباها وجرت جداول فيضها ونداها لا زال شامخا في رتب المعالي بناها ولا برح الكون مبتهجاً بحلاها آمين يعرض الداعي الذي لا يزال في مركز انتسابه ولا يتحوّل عن خصوصيته في ابتعاده واقترابه انه قد تقدم قبلا من الداعي عريضة لم يرد عنها جواب يشفي جوى حشاشة غدت للبعاد مريضة مع ان الداعي على ما كان عليه لا يحضر بمحفل في افاضل الناس حافل ولا يجلس مع مذاكر ومساجل الا ويملأ الاسماع من جريان هاتيك المعاني المروقة في اواني المباني ويبرز من كواكب تلك المناقب ما يملأ ضوءه ما بين المشارق والمغارب ويجلي من مصابيح خلائقك الساطعة الانوار ما هو ازكى من عبير العنبر المعطار فله في كل ديوان لسان شاكر لاحسانك وفي كل لسان ديوان ذاكر لامتنانك يتلو من آيات عرفانك وبينات مجدك وفضلك ما يقرط بدرره المسامع وتاخذ فرائده من القلوب المجامع فما من ناد الا وعطره بنفحات شذى اخلاقك النديه ولا من واد الا وانعمه برشحات ندى راحتك النديه ادام الله عماد المجد قائماً بوجودك وليل هذا الدهر مشرقاً ببدر سعودك آمين

ومن رسائله ايضاً قوله

الى مقام مكارم الاخلاق والشيم والمآثر العالية القيم مقام المعارف الربانية ومورد الحقائق العرفانية مقام حل لرموز ومفتاح الكنوز والسر المطلسم المرموز والمنح التي لا يحل انكارها ولا يجوز مقام الوراثة المحمدية والمواهب الصمدية والفيوضات اللدنية والعنايات الربانية مقام علامة الآفاق ومن فضل اهل عصره وفاق كيف لا وهو ابن سيد العالمين على الاطلاق والنور الذي كسا الاكوان حلة الاشراق مقام ناصر الملة والدين وقرة عين الموحدين من قام في تأييد كلمة الاسلام بما عم ذكره وعبق في آفاق البرية نشره ببأس يطير شرره وادراك تتبلج غرره وذهن يكشف الغوامض ويسبق البارق الوامض وطعن بالصارم الفاتك والسنان الباتك حتى قهر الاكاسرة

بأساً وعزماً وحير القياصرة شأناً وحزماً مع قوة شكيمة ونفاذ عزيمة واياد حكت الديمة واخلاق مستقيمة وخصال قويمة ومشاهد رواياتها عميمة بانواع الثناء عند ملوك الدنيا موصوفة موسومة ذو الورد الاصفى والمورد الاهنى اقرَّ الله بطول بقائه عيون الامة وكفاه بفضله كل ملمة ومهمة آمين والذي يعرضه المحسوب بلسان الخجل وهو بمقتضى التصرفات الالهية في اضطراب ووجل انني من محبتكم في مكان فيه لا اشارك بعلمه الله تعالى وتبارك والمحبة هي النسب الاقوى الملحقة بالسابقين ولو مع القصور في التقوى فارجو دوام قبولي وملاحظتي بعين العناية وشمولي فانني ممن لا ينفك عن عهده ولا يخرج من دائرة حبه ووده ومثل عرفانكم لا يقدم لديه الزيف حمى الله شمائلكم من كل سوء وحيف وبلغنا من معاليكم الآمال واقر منكم العين بساداتنا الاشبال بحرمة جدك الاعظم والآل صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما لمع سراب وآل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته · ومن رسائله العجيبة الى الامير رسالة ادمج فيها اسماء السوَر القرآنية وهي قوله اوشح فاتحة عريضتي برفع البنان والضراعة لمن انزل البقرة واصطفى آل عمران بيقاء انسان عين الانسان والآية الكبرى التي زين الله بها الزمان المولى الذي جاءت به ام المعالي بدراً في سمائه وآلت ان لا تلد النساء بعده مثيلاً له في علائه والغوث الذي من حل ساحة نعائه فاز بمائدة انعام فضله وآلائه واحتسى من حياض اعراف نعمه انفال طوله وكرمه حتى لزم التوبة بانه لا يرد غير موارد بهيّ شيمه وان يشد ركاب العزم لغير رفيع حرمه وسعد من الطائفة بما يؤنس الافئدة المرتاعة وينسى خلال الاكارم من عهد هود الى قيام الساعة ورأى ان مواهب ما سواه هي ما كان لاخوة يوسف من البضاعة وان التمى لغير رفيع حماه اضاعه كيف لا ومن سماء علاه سبح رعد الجنان لكل من امه من ذوي العثرات ببلوغ الامان واحرقت صواعق بأسه شياطين الطغيان ذو المهجة التي منحت عطف ابراهيم وبأس موسى بن عمران ولاحت لها رقبة خدر المعارف من حجر العوارف فاقبلت عليها وفود الحقائق كالنحل بكل تليد وطارف وفازت مذ اسرى بها الى كهف الاسرار باشهى ما هزت مريم بجناه الجزع من اللطائف الا وهو سلالة سيد المرسلين طه سراج الانبياء الذي فرض الحج وبه افلح المؤمنون النور المنقلب في اشرف افلاك الاصلاب واطهر رياض البطون المؤيد بالفرقان الذي اعجز الشعراء عن ان ياتوا بآية من مثله وغدوا بكماً فهم لا ينطقون فاقبل الناس كافواج النمل في دين الله يدخلون حتى دهشت لقصص

آثاره افئدة ملوك الارض وغدا سلطانهم اوهن من بيت العنكبوت وامتد ملكه حتى بلغ الروم والهند والصين وثبت اي ثبوت صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المستكملين النعوت وامد الله بروحانيته المحمدية درة صدفة آله المولى عبد القادر بن محيي الدين من احيى بحكمة لقمان شريعة جده سيد المرسلين ونصر دين الله في قطر تسمى به امير المجاهدين وتلقب بناصر الدين وادت له جباه القلوب سجدة الشكر مذ تسامت باقدامه احزاب الدين هذا وان سبا بلقيس السامعة طالما تليت عليها آيات تلك الصفات التي منّ بها فاطر الارضين والسموات وما هي الا كيس في صافات رياضها وكم مشوق صاد لورد حياضها وزمر متوجهة لغافر الذنب بحفظ تلك المآثر والسجايا التي تضيق عنها اذا نقلت بطون الدفاتر مآثر من انتخبته شورى المعالي لدين الله عاداً فوهى زخرف الباطل مذ عقد الحق اسعاداً وتلاشى دخان الجهالة برياح الحق من تلقاء مدين عرفانه وندت فرق الضلال جاثيةً في احقاف التذلل آية من الزمان بخذلانه امده الله بروحانية جده سيد المرسلين المؤيد من ربه في القتال بالفتح المبين

آمين آمين لا ارضى بواحدة حتى اضم اليها الف آمينـا

ولم يزل الداعي مترقباً فرصة الانتساب ودخول حجرات المديح من الباب وهو وان يكن في قصور عن حصر تلك الاوصاف السامية شاناً على قاف فقد قيد نفسه بوظيفة مدح سيادتكم مدة المحيا الى الممات بل وتثنى اعظمه برمسها وان ذرتها الذاريات ادام الله طور عزكم الخطير يزهو بزاهر نجمه على القمر المنير مشمولين بالطاف الرحمن في كل واقعة يذوب لها الحديد تذيبون الضد في المجادلة بحشر الامتحان والتشريد ودام صنو مجدكم محفوظاً من الاضاعة بحرمة من خص بالجمعة والجماعة على انك ايها المولى حافظ من المنافقين وتغابنهم قدرك الفخيم ولا برحت نعم اعدائك عنهم في طلاق وتحريم قد فقت بالشيم الحميدة السابقين واللاحقين وفضلت بالهمم المقارنين والمعاصرين فتبارك من خصك بمزايا لا يحصرها القلم وجعلك اذا حقت الحاقة في معارج الفضائل كنار على علم فمكارمك الطامية تزري بطوفان نوح والكمالات جسم وانت لها روح وكم لك من ثناء يطرب الانس والجن نثره وكم من مزمل مدثر برفدك يبث مديحاً زكا نشره فمآثرك البهية عطرت عراق الكون وشامه وحيث ان مراسلات احسانكم شاملة للقاصدين وسحائب نوالكم عمت العفاة والواردين استمنح هذا الرقيق فك اسره من نازعات الهموم وكف اصره في زمن عبس وجهه المذموم واستجدى عناية بها تكوير الاسا وانفطار ليل كدر

جنحه عسا على ان بضاعة الادب في غير اعتابكم كيلت بمكيال المطففين فاوجب انشقاق بروج حصنها المتين طارق الجهل المكين وقد حططنا الرحال بالرحاب الاعلى مستمدين كشف غاشية الكدر بفجركم الاجلى لنحل من بلوغ المراد في البلد الامين وتزيل عنا شمس مكارمكم ليل الاسا بضحاها المبين فينشرح الصدر ويقسم بالتين والزيتون ومن صور العلق في الارحام والبطون ان نفحة رضاكم ليلة القدر تزيل بعنايتها القيمة زلزلة عاديات الاحزان والاصر وتهزم قارعة تكاثر الاوهام فيطوى عصر الاسر غم عداة همزة لمزة طغام نسأله تعالى ان يجعل كيد حاسديكم في تضليل ويديم لعشيرتك قريش ظلك الظليل ويبقى حماكم موئلاً للقاصدين ويخذل بسطوتكم من يكذب بالدين ويغدق كوثر ندامكم الذي اثرى به الصادرون والواردون ويرفع للملة بكم شاناً تذل له الكافرون والمعاندون فلا يرون نصراً وتبت ايديهم فهم خاسرون وان يكلائكم باسمه الاحد الصمد ويحفظ سيادتكم من شر حاسد اذا حسد ويقيكم شر الوسواس الخناس ويديم بكم للبرية السرور والايناس

يا رعى الله الاحبة عهدا ... حيث منت بوصلها العذب سعدى
كم ادرنا كاس الصفا فيه دهراً ... ولبسنا من المسرة بردا
عهد انس قد فاح عرف شذاه ... في رياض السرور آساً وورداً
هل الى عودة سبيل لمضنى ... كاد يقضي من الصبابة وجدا
جيرة الحي منوا بحسن التلاقي ... وامنحوني من التواصل رفدا
وارحموا مغرماً حليف سقام ... يشتكي لوعة الهم وسهدا
في هواكم عن كل عذب قراح ... طالما استعذب المدامع وردا
اي شجو عاينت بعد نواكم ... فيه ضيعت من جناني رشدا
وزماني بسهم خطب رماني ... ودعاني بعد السيادة عبدا
ودهاني بنائبات توالت ... قدحت بالاسى بقلبي زندا
ورحى الكرب حين دارت بجسمي ... طحنت بالخطوب عظما وجلدا
ليس لى من يجيرني من عنائي ... غير مولى غدا بعلياه فردا
ملجاء القاصدين من بثراه ... كحلت اعين من النوائب رمدا
هو عبد القادر من تسامى ... رتباً اوجبت لعلياه حمدا
بهجة الكون مستقر المزايا ... مظهر اللطف عز شاناً ونجدا
يلتقي الضد في الوغى بصفاح ... ويلاقي الورى بوجه تندى

272

فرع فضل من حيز اصل كريم ... قد تسامى ابا كريما وجداً
كيف لا وهو من سلالة طه ... درة زينت من المجد عقدا
بعلا باذخ ونخر صميم ... وخلال حكت عبيراً وندّا
واحاديث في المعالى حسان ... تمنح السمع نشأة حين تبدا
للذي للمجدى يروح ويغدو ... يا بروحي له رواحاً ومغدا
عاقداً صفقة العلا كل حين ... فائزا ناجحاً مراما وقصدا
ملكيّ السمات برٌّ وفيٌّ ... لم يشم ناظر لعلياه ندّا
احرز العز في الملمات سيفاً ... وحوى الحزم في المهمات عمدا
انقذ الدين في الجزائر دهراً ... بعد ان كاد فيه ان يتردّا
وغدا الحق ساطعاً بذراه ... ثابتا بالوفاء رسماً وحدّا
يا هماما ان جاد اخجل غيثاً ... وهزبر ان جال ارهب اسدا
ان حسن الاراء منك اعادت ... نار شر الطغام في الشام بردا
وسنا قدرك الرفيع بصنع ... قد حبا في الانام ذكرك خلدا
دمت للدين ملجاء وعماداً ... مبهجاً ذكركم عراقا ونجدا
ما بمدح الجناب قال محب ... يا رعى الله للاحبة عهدا

ومن رسائل صاحب الفضيلة السيد ابي الهدى الصيادي نقيب اشراف حلب رسالة بعثها الى الامير في صفر سنة ست وتسعين وهي قوله

الحمد لله رافع منار اهل البيت المحمدي على دعائم التقوى واشرف الاخلاق ومطلع كواكب سعودهم في سموات المعالى باسنى المواقع واجمل الاشراق والصلاة والسلام على على جدهم باب الله الاعظم ووسيلة الخلق على الاطلاق ورضي الله تعالى عن اصحابه نجوم الاقتداء الداخلين بقيود شريعته الى حضرة الاطلاق ورحمة الله وبركاته على ساداتنا اهل بيته وذريته المفتخرين باتباعه والمبشرين بسر الالحاق اما بعد فهذا رقيم من خويدم الفقراء محمد ابي الهدى الى السيد الجليل ذي الشرف النبيل والمجد الاثيل والحسب الاصيل عنقاء مغرب الغرب وصبح مشرق الشرق صاحب الفتوحات الباطنة ورب المنن المحمدية المواضع لله والمتمسك بسنة جده سيد انبياء الله مولاي وسيدي السيد عبد القادر الحسني متعني الله والمسلمين بدوام بقائه واعزنا الله بتاييده الخفي وحسن ارتقائه امين مولاي حياكم الله واحياكم ولا اعدمنا تجد علياكم ولا حضرنا قط في مجلس مستحسن الا ذكرناكم دائماً نستأنس بسماع مناقبكم الجليلة وبذكر مناهج سيادتكم الجميلة ولا برحنا نترقب جعل

الوسيلة والذريعة لاكتساب توجهاتكم الشريفة الرفيعة واذا بالنعمة المامولة وردت
بلا وسائل وقال لسان الحال هكذا عطف الاماجد على المساكين بغتة والرقيب غافل
وقد خفق جناح النجاح ولمع باذن الله بارق الفلاح ولاح وظهر من مطوي الودائع الغيبية
منشور عناياتكم الباطنة الحسنية وقد قيل

ان حياة الفؤاد وصال المحب على الغفلة

وتلوته اذ اخذته متعجباً من حسن توجهاتكم عليَّ بلا استحقاق مني معتقداً ان
مثالكم يرعى مثلي وزللي لا يلويكم عني

اخلصت فيك سرائري والمخلصون على خطر
وصبرت لكن صح ان الصبر عقباه الظفر

فنظركم في الداعي المسكين منعكس من مرآة قلبكم الطاهر وكذا شأن العارفين
فارجوكم ان تلاحظوني برقائق رابطتكم في خلواتكم السعيدة وان تمدوني بمددكم العالى
حالة جلواتكم في شطحات موافقكم الحميدة جعلكم الله سلماً للوصال وحجة الى بلوغ الآمال
ولا ريب انتم معادن الكمال والى الشرف جرثومة وآل

رجال اذا الدنيا دجت اشرقت بهم وان انحلت يوماً بهم ينزل القطر
وان وطئوا قفراً زهت بربيعها واخضر واديها كما اعشوشب القفر

ايد الله بثبات اقدامكم شوكة الشريعة الطاهرة وجعلكم المولى منتجاً للوصلة الخالصة
في المسالك الباطنة والظاهرة والصلاة والسلام على ملجاء الانام وباب السلام والحمد لله
مسك ختام المبدأ والختام وله اليه في عناية باحد اقار به بسم الله والحمد لله والصلاة
والسلام على العلة الغائية منشىء الفروع الكونية حبيب الله ورسوله وعلى آله اتقياء
اولياء الله واصحابه نجوم الارشاد لخلق الله اما بعد فالدعاء الوافر والغرام والشوق المتكاثر
والهدية القلبية الناشطة من الحيطة السرية تعرض وتهدي الى المولى السيد الشريف
والحسيب النسيب المبارك المنيف عمدة اعيان السادة وقدوة اماجد ارباب الشرف والفضل
والسيادة الامير الحسني الاصيل الطاهر مولانا السيد الجليل عبد القادر اعز الله بجنابه
الحقيقة بارشاده وايد عنصر الطريقة بقوة استعداده آمين اعرض ان مرسومكم الاول
الجوابي ومرسومكم الثاني الخطابي وصلا لهذا العويجز المشوق اليكم المعول في صدق
الاخلاص وحسن الرابطة المعروفة عليكم وني والله لمكتف بقول من قال فاجاد رابطة
الفائدة رابطة الفوائد

تطير بنا القلوب الى بلادٍ فتشهد ما توقع في البلادِ

وافئدة الرجال لها عيونٌ ○ وريش والعجائب في الفؤادِ

وان قلبكم الكريم يشهد بما انا عليه لسيادتكم من الشوق العظيم والدعاء الخالص ان شاء الله النقي السليم فارجو ان تمنوا عليَّ وان قصرت بدوام المراسلات اكراماً لقارئ المرسلات وان تتفضلوا عليَّ بالدعوات الخيرية والنفحات الهاشمية وان تشملوا ابن العم حاملها السيد محمد افندي الكيالي بنظركم الاكسيري العالي فهو من مشاهير السادة ولمثله على مثلكم من موائد العطف والحنان عاده اسبغ الله نعمه عليكم وواصل بنضل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مدد محمدي اليكم آمين والحمد لله رب العالمين

ومن رسائل الشيخ محمد الدرابزلي المعروف بالشيخ المنتظر قوله

الحمد لمن اخرج احرف الكلم من نور الجمع الذاتي الاقدم بالفيض الاقدس الاقوم وفتق من الرتق الاحديّ والجمع العمائي الابهم صور الاعيان المعدومة في العلم بنفسه الرحماني المقدس الاحكم فظهر انتظار صور كلمات الحقائق العلمية وصور تعينات الاسماء الالهية بحروف الاعيان الثابتة في العدم احمده حمداً يكشف لي به عن حقيقة ذاتي وعن استعدادي وعن اي اسم كنت تجلى له فاتحقق بحقيقة حقي واعرف نفسي فاعرف ربي وصلى الله على النور الاعظم المسمى بالنون والقلم سيدنا محمد من أوتي جوامع الكلم ومن هو نقطة حروف الوجود واحدى كلمات الرسل هداة الامم صلى الله عليه وعليهم وسلم اما بعد فاني اهدي سلاماً ابهى من التسنيم وارق من النسيم واضوع من عرف المسك الشميم صدر من صميم الفؤاد ممتزجاً باكيد المحبة والوداد معطراً من عطر شذا البيت الاعظم الحرام والحجر والملتزم الى حضرة مولانا الكامل منبع المجد والفضائل الحبر الذي سما فخره واشرق في سماء المعالي بدره الغني بشرف ذاته عن تسميته بالتصريح لما حازه من بدائع الثناء وكمال المديح ادام الله تعالى اجلاله ويسر بفضله وكرمه مقاصده وآماله آمين اما بعد فالباعث لتحريره والداعي الى تسطيره اولاً كثرة الاشواق الى مشاهدة الذات العلية والطلعة السنية وثانياً ان حامل هذه الاسطر الاخ في الله الشيخ فلان من اعظم مشايخ الطريقة العلية الرفاعية ومن اكبر الهائمين في حب تاج العارفين الشيخ الاكبر سيدي محيي الدين توجه من هنا قاصداً الى الشام ليتشرف بزيارة من هناك من الانبياء العظام والاولياء الكرام وقصده ايضاً ان يتشرف بتقبيل الاعتاب وبنيخ نجائب آماله بفسيح الترحاب فالمأمول من هممكم العلية ملاحظته

بالانظار الاكسيرية وشموله بالنفحات العرفانية والفيوضات العدنانية

ومن اجوبة ابن عمنا السيد الطيب ابن المختار جواب اشار فيه الى ما آل اليه امر اهل الجزائر من الجهل بفنون العلم والسياسة واسناد الاحكام الى غير اهل الرياسة وهو قوله

سيدي الذي أستند في جميع اموري بعد الله تعالى اليه ومولاي الذي اعتمد بعد الاعتماد على الله عليه رب المحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى والاحاديث التي لا تمل على كثرة ما تملى

لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
اذا انفردت وما شوركت في صفة ... فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبيينا

عبدكم الداعي الى الله سبحانه ان يذلل لخدمتكم وطاعتكم انف الاسد المصور ويبقى العز في عقبكم وعقب عقبكم الى يوم ينفخ في الصور

يسلم مشتاقاً الى ذلك الحمى ... سلاماً مسير الدائرات يسير
سلاماً على قدر الجلالة والعلا ... وانه في جنب العلي ليسير
سلاماً يفي بالمكرمات وفي النهى ... وكيف يفي والمكرمات كثير
سلام امرىء يشكو الصبابة والنوى ... ويهوى المزار والمزار عسير
يكاد يطير عند نشر كتابكم ... وانى يطير والجناح كسير
فيثني عنان العزم نحو جوابكم ... وماذا عسى والباع منه قصير
لذا صدرت من طيب يندي طيبها ... مدادها مسك والقضايا عبير
ومَوردها المختار من آل هاشم ... كما القدر سام والمقام كبير
وان تك من وصف الفصاحة قد خلت ... فبالعذر حال الارتجال يشير
على ان بسط القول بالصدق مقصدي ... لاهل البيان والامير خبير

اما بعد حمد الله الذي بحمده تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات فانا كتبنا هذا عن ود صادق وقلب خافق جواباً عما صدر من حضرتكم العلية وسمحت به نفسكم الشريفة الطاهرة الزكية مفيداً ما مولاي عليه من الصحة والعافية والنعم المتوالية الضافية وذلك اسنى مقاصدنا ومبلغ آمالنا ومعدود لدينا من صالح اعمالنا شهد الله علم الله اذ بصلاح حالك يصلح الله احوالنا ونحن بخير ما بقيت لنا وان سأل المولى عن حال عبده فاكثر عباد الله وزراً واثقلهم ظهراً واخسرهم تجراً وخصوصاً لمجالسة الجهال فجرا والحال

انه ذهب من العمر اكثره ولم يبق من الجد الا ايسره اشكو بثي وحزني الى الله وردنا فتعذر الصدر واخطأنا وما اخطأ القدر ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما نحن فيه كيف وقد اسند الشيء لغير اصله ووسد الامر لغير اهله وجرت الصفة على غير الموصوف مع فقدان الشرط فجاء الامر على غير المعروف وقد تصدى من هذا الجنس اقوام لالحاق الفرع وهيهات باصله ووضع الشيء وليت شعري في محله فعدموا التوفيق وحادوا عن سواء الطريق لتعاطيهم الرواية وما رووا ودعواهم الدراية وما دروا فرأوا اقامة الجمعة في غير الجامع وراموا القياس بقطع النظر عن الامر الجامع فكان الاخذ عنهم ضلالاً والاقتداء بهم وبالاً ومعالجة الداء بهم نفخا في غير ضرم والعدول عمن سواهم اليهم غسل دم بدم والتعزز بهم ذلة على ذلة والاستكثار بهم قلة على قلة والجناب الكريم بصير بان كل عز لم يوطن بعلم فالى ذل يصير وهكذا فلا زال ينسج على هذا المنزال ويقرر الاحوال بلسان المقال الى ان قال

ولربما ساق المحدث بعض ما   ليس النداء اليه بالمحتاج

والا فانني اعلم ان هذا النحو مما يشق على سيدي سماعه وتمجه اسماعه لكن الانين طبع المتالم والكلام صفة المتكلم وما في الانسان يظهر على فيه والاناء يرشح بما فيه ولا بد من النفث للمصدور والله عليم بذات الصدور

وجمع بعض الادباء ديوانًا مما نظمه في مدح الامير ثم ارسله اليه واصحبه بقوله احمدك يا من منحت عبادك اراضة البيان وذللت لهم ما تصعب من الفصاحة والبلاغة حتى اقبلتا وهما منقادتان باهتن عنان والصلاة والسلام على البدر التام النبي العربي المكي المدني شفيع الامة ومنير الظلمة سيد المرسلين والمبلغ ما انزل اليه من رب العالمين بلسان فصيح ودين صحيح محمد المصطفى صاحب الصدق والوفا صاحب الدين الاشهر والفضل الاظهر والوجه الاقمر والحرم الانور وعلى آله الغر الميامين وصحبه الذين شادوا دعائم الدين السالكين مناهج الحق الصادعين معارج الصدق الراضين لما يرضى به والمستمسكين بحبل جنابه ومن كانت هذه الصفات صفاتهم فهم المؤمنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون اسأل الله العظيم بحرمة نبيه الكريم والصحابة النجباء اهل الفضل والوفا ان يمدنا برقائق اسرارهم ويجعلنا من الفائزين بجوارهم والمغترفين من بحارهم والمقتبسين من انوارهم اما بعد فان اكرم الاخلاق واكمل اوصاف اهل المذاق هو التوسم بسيماء الفصحاء والدخول في سلك البلغاء وقد اجمع اهل الرتب ان ذلك هو علم الادب فكثيرًا ما يتضح به منهج

السالكين الى معرفة رب العالمين ولهذا المنهج القويم والصراط المستقيم باءان جليلان يظهر منهما لمن سلك نجمان جميلان فالكها القلوب والضمائر ومسلكهما العقول والخواطر وهما النثر الباهر والنظم الزاهر ومن المعلوم لدى اهل الحجى والاتقان ان ذلك داثر الاثر في هذا الزمان ولما اشرقت بوارق اسرار الحضرة القدسية و بزغت سواطع انوار الشموس الالهية المتجلية على هذا العالم الضعيف من الآلاء غرة الملك الشريف المغترف من بحار اسرار قطب الملكوت الاعظم الاصل الظاهر باكرم مظهر والفرع الباذخ من اطيب عنصر اظهر العارف بالله المتمسك منه باوثق عراه ذي الاصل الباهر والبرهان الظاهر المعروف من اطيب العناصر والمستعبد بجميل آلائه الاصاغر والاكابر الشهم الفاخر والنجم الزاهر السيد عبد القادر لا زالت سحائب بره مواطر وبوارق اخلاقه زواهر ملك قمع العدا وجمع البأس والندا فاستنار الظلام بنير بهاه واستضاء الكون بلوامع ضياه وقد رأيت النفس تائقة الى انشاء مدحه راغبة في الاقتباس من انوار صبحه اردت ان اخدم مجلسه السامي بزف قلائد شعري واتبعها بجواهر نثري مرتجياً من مكارم ذاته العفو عن تقصيري في حصر غرر لآلىء صفاته وان يمدني بيد اليسر وينقذني من ربقة العسر اذ لا فخر ينتمي الا اليه ولا اعتماد في هذا العصر الا عليه فهو الخلاصة المصفاة من سلالة الانبياء والحضرة المعلاة فوق معارج الاصفياء ادام الله ايامه ونكس لشانئه اعلامه فاقول وارجو القبول ثم ذكر ما نظمه في حضرته ولنختم هذا الفصل بمكتوب العلامة الحجة الفهامة الامام محمد القصبي المصري ونصه

حفظ الله وابقى واعان بمنه وارقى مقام السعادة ومعدن الجود والسيادة سلالة الاشراف ونخبة آل عبد مناف حامي حمى المسلمين حجة العلماء العاملين

سيدي الامير عبد القادر بن محيي الدين رعى الله بمنه سيادتكم ومتعنا والمسلمين بوجودكم آمين وسلام عليكم تتوالى تحياته ورضوان الله الاعم وتحياته وبعد فاننا بخير ونسأل الله ان تكونوا كذلك ولما اراد ولدنا فلان زيارة بيت المقدس وانبياء الله الكرام والتشرف بالمثول بذلك المقام ارفقته هذا الخطاب رجاء ان اظفر بدعوة شريفة من ذلك الجناب لعلي ابلغ بها المرام وتحفني بها السعادة في المبدأ والختام . وليعلم الناظر فيما نقلناه من الرسائل والاجوبة اننا قد ابقيناها بحروفها بحيث لم نتصرف فيها بتبديل ولا تحويل

275

﴿ ذكر الارجاف بموت الامير ﴾

وفي سنة ست وتسعين اشاع المرجفون وفاة الامير وانتشر هذا الخبر في سائر الممالك وابتدر اهل الجرائد والمعتنون باخبار العالم الى نقل ذلك وورد علينا رسائل الرثاء ورقاع العزاء تترى من جميع الجهات وفي الوقت نفسه طارت رسائل التلغراف بتكذيب هذه الاشاعة الى سائر الآفاق ولما اتصل هذا الخبر بالامير واطلع على ما ذكره اهل الجرائد وغيرهم من بهي كماله وسني خصاله سر بذلك وقال ان الموت لا بد منه عند نهاية الاجل والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق واول ما وصلنا من المراثي مرثية الاديب محمد اسحاق افندي الادهمي الطرابلسي ونصها

هذا المصاب الذي قد كنت اخشاه ... واني فما حيلتي فيما قضى الله
في ذمة الله احباب فجعت بهم ... يا طيب عيش بهم ما كان اهناه
ابلى النوى بعدهم جسمي فقلت له ... يا بين حسبك ما قد رحت القاه
ا بابنا ضاق رحب للفضاء على ... خطب الم بكم جرعت بلواه
ياعين جودي بسحب الدمع وابكي على ... من كان نور سنا عينيك مرآه
روحي فدا قمر رهن التراب غدا ... من بعد ما حل من قلبي سويداه
اضنى بعادك يا سمعي ويا بصري ... عبد القادر بالاحسان ترعاه
قد كان للعبد بالا بر الجميل وبال ... رضاء معتمد واليوم خاناه
ما حيلتي في قضاء الله ما عملي ... ما ثم لي حيلة ما ثم الا هو
فمن يؤمل لمعروف بعدك يا ... نعم المجير لمن خانته دنياه
قد كنت للدين والدنيا وكنت لنا ... حصناً حصيناً اذا خطباً خشيناه
فليرثك اليوم من قد كنت حيلته ... بكل مدح بديع راق معناه
ولتبكك الشام اذ قد كنت شامتها ... وليبكك الغرب اذ قد كنت مولاه
ولتبكك العاديات الموريات بميـ ... ـدان الحروب الذي قد كنت تغشاه
تنعى النعاة ابن محيي الدين من حزن ... يا خير من شكر الرحمن مسعاه
يا خير من قام في محراب طاعته ... مناجياً في دجى الاسحار مولاه
من للرياضات او من للعفاة ومن ... لابن السبيل اذا ما ام مغناه
اني لابكي على تلك المآثر وال ... خلق الحميد وما اولته كفاه

يا صاح دعني من دنيا تنغصها | لم يبق لي املا الا واقصاه
فيما التمسك بالدنيا وسيدها | قد بان عنا وما بانت سجاياه
جرى القضا بابن محيي الدين تاج بني الـ | ـزهرا فدمعي باسم الله مجراه
افديت من بعد عبد القادر الحسني | كنز اصطباري فياقلبي لك الله
العالم العامل الحبر الاصيل ومن | مديح اوصافه قد طاب مخباه
بدر بافق سما العرفان بحر ندا | اهل الحقيقة ما للترب واراه
له لواء من الذكر الجميل له ال | وصف الذي عطر الاكوان رياه
فرع لاشرف خلق الله منتسب | اصل تسامى على النسرين اعلاه
ليث العريكة في يوم الطراد ومن | يقصر الليث عنه حين يلقاه
ان غاب عنا فما غابت مآثره | عنا ولا قد نسينا طيب ذكراه
وفي بنيه الكرام الصيد سادتنا | سارت سريرته العظمى ونقواه
هم الائمة ابناء الكريم على الـ | ـله المجاهد في مرضاة مولاه
قطب الحقيقة غوث الواصلين ابو | تلك المواقف حيث الله اعطاه
ظنونه نجحت والعفو ارخها | لحسنها اكرم الرحمن مثواه
يا رب برد بعطر العفو تربته | يا رب اوليه فضلاً ما تمناه

وغب وصولها كتبت الى الاديب المذكور واخبرته بصحة الامير وانه على احسن الاحوال وشكرته على ما ابداه من دلائل المحبة الصادقة والمودة الثابتة فاجابني بما نصه : سيدي ومولاي ومالك رق ولاي ادامه الله وابقاه المعروض لناديكم من بعد لثم ايديكم هو انه وصل كتابكم الكريم وتلقيته بالتكريم والتعظيم وسرني به سلامة سيدي الامير وحمدت الله على ذلك ومن خصوص ما تفضلتم به وصل شكر الله فضلكم وايد عزكم ومن خصوص القصيدة التي كنا ادرجناها بالسلام نحن صنفنا ضدها قصيدة ثانية واردنا نشرها كذلك ولكن حيث الاولى انشدت بحضرة مولانا الشوكتلي وقيل له رجل من اهالي طرابلس صنفها وهو متخجل بسبب ذلك فقال لا ينبغي له ان يتخجل وانما اتى بما يدل على وفائه ومطلع القصيدة

وافى البشير فحيا الله مسراه | نقم على قدم الاجلال نلقاه
اليوم روض التهاني فاح مجدره | والكون قد عطر الاكوان رياه
الحمد والشكر لله العلي على | هذا السرور الذي قد طاب مجناه
بالله يا راحلاً يبغي دمشق ولي | بها ولي له من ربه جاه

عرج على حرم حل الامير به فدته انفسنا من قول اعداه
واهد السلام من الله السلام الى الـــمولى الامير عيون الله ترعاه

ومنها

المنجد المنعم المعطي المنيل حما من أم ساحته العليا وداناه
سلالة الطيبين الطاهرين بني الــزهراء حياهم المولى وحياه

وهي طويلة جدًا ولولا الشيخ ظافر والشيخ ابو الهدى افندي اشارا علينا بعدم ادراجها لمضي الوقت لكنا ادرجناها

وهذا تعريب ما ادرجته الجريدة الفرنسوية المساة لاليبرتا في عددها تاريخ ١٢ نوفمبر سنة ٧٩

توفي الامير عبد القادر في الشام وهو ذاك الامير ذو البطش والعظمة والاقتدار الذي حارب الدولة الفرنساوية مدافعًا عن بلاده الجزائر مدة تنوف عن الخمس عشرة سنة وهو فارس الامة العربية وامامها النقي العالم المهيج ضدنا افكار قبائل افريقية وغيرتهم الوطنية الذي صادم جيوشنا وثبت امامها وحده وجعلنا بوجوده لا نقتطف ثمرة افتتاحاتنا وغزواتنا فكان تمكننا في تلك البلاد كانه لم يكن ولم نحصل على السلم ولم نتوطد الراحة ولم نمتلك حقيقة تلك الاراضي المخصبة ولا تمكننا من تنظيم ادارة بلاد افتتحتها اسلحتنا الا بعد تسليمه لنا والامة العربية التي كانت تحت سلطته ما خضعت لنا خضوعًا تامًا الا بعد ان نظرت تسليم قائدها وسلطانها ولو قيل انه بعد تسليم الامير لم يخل الامر من حدوث بعض ثورات طفيفة لقلنا نعم كان ذلك لكنها لم تعكر كاس الراحة العمومية لان اهم الثورات واعظم الوقائع قد رافقت الامير الى حيث توجه والان لا بد ان نبين ما لذلك الشريف المخيف الذي كاد ان يقهقر الدولة الفرنساوية في بلاد الجزائر من الاعمال الغريبة والافعال الحميدة الذي افتخر بها تاريخ عصره وزمانه وهو انه عندما توطدت منا الافكار وتعلقت بنا الآمال بافتتاح مدينة الجزائر والاستيلاء عليها صادمنا ذاك البطل المهيب ولم يكن له وقتئذ من العمر اكثر من خمسة وعشرين سنة وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وانما قوة عقله الغريبة وتقواه الشهيرة وبغضه الشديد لتملك الاجانب على بلاده اكسبته بين عموم الامة العربية صيتًا حسنًا وذكرًا مخلدًا وسطوة فائقة ولذلك عندما نادى بالجهاد بعزم ثابت وتقوى تخالها عرب افريقية انها الهام من الله لا يوحى به الا للمرابطين اجابته كافة عربان وقبائل ولاية وهران ونهضوا مجيبين

ولم يتلفظ بكلمة واحدة تشير الى نكث عهوده نظراً لمعاملتنا له ولو شاء ذلك فما من مانع يمنعه لان كافة قبائل العرب في بلاد الجزائر كانت مستعدة للدعوة باسمه ثانيا بعزم وثبات قد الجأ الفرنساوية لعقد معاهدة اقروا فيها بسلطنة عربية ممتدة فيما بين سلطنة مراكش ومدينة الجزائر وشطوط الشلف وجعل عاصمتها مدينة معسكر وذلك في سنة اربع وثلاثين وثمانمائة لكنه لم يكتف بمملكته هذه ولم يقنع بها لانه لم يحركها لمحاربة الفرنساوية الا همته الدينية العربية وغيرته الوطنية لانقاذ كامل بلاد الجزائر من المحاولين افتتاحها وتحرير اهاليها من رق العبودية وارجاع رونق وافتخار سلاطين العرب وجعلها سلطنة تتداول اجناد عزها وفخرها الى آخر الزمان ولذلك لم يمض على تلك المعاهدة عام واحد حتى افتتح الحرب ثانياً بشدة ونشاط اكثر من المرة الاولى وهاجم الجنرال ديزميشيل وبعد موقعة دموية جرت بينهما على شطوط نهر المقطع انكسرت جيوش الجنرال وتشتت شمل من بقي منهم ودامت الحرب لحد سنة سبع وثلاثين وثمانمائة حتى ايقنت الفرنساوية ان لا سبيل لها على مقاومة الامير والتخلص من ايدي عدو نظيره لذلك عقدوا معه معاهدة اخرى تسمى بمعاهدة تافنا اقروا بها ثانياً بسلطنته وضم مقاطعات اخرى لملكه فكانت هذه المعاهدة ايضاً كالاولى لم يمض عليها الا ايام قليلة حتى دارت رحا الحرب بشدة تفوق المرتين الاولاين ودامت تسع سنوات متوالية حيث لدوك دورليان والمارشال فاله والمارشال بيجو والدوك دومال حاربوا في كل تلك المدة ذاك العدو المهول ومع كونهم فازوا بانتصارات قوية لم يتمكنوا من هدم قوته العسكرية واخذت جيوشهم تغزو القبائل وتضر بمواشيهم وحاصلاتهم وتضايق عليهم امر تعيشهم فاثر ذلك جداً في العرب واضنك التعب ومشقات الحرب رجال الامير وجيوشه وهو لا يكل ولا يتعب فتركوه جميعاً وبقي وحده الجأه الحال الى التسليم فسلم للجنرال لاموريسير بشرط ارساله مع عائلته الى الاسكندرية او الى عكا فلم توف الدولة الفرنساوية بعهودها لانها عوضاً ان ترسله الى احدى المدينتين المذكورتين وضعته مع عائلته في قلعة لاماك ثم بو ثم امبواز فبقي مقيماً فيها الى ان استقر نابليون الثالث على كرسي الامبراطورية ففكر حالاً في امر ذاك الاسير العظيم الشان وحضر بذاته لمحل اقامته واطلق حريته مكتفياً بوعد منه انه طالما وجد متمكناً مما يريده حراً ومع ذلك فانه لم يشهر سلاحاً على الدولة الفرنساوية وقد صيرنا عبرة لمن اعتبر وعلمنا كيف الوفاء بالعهود واما نحن فقد نكثنا عهودنا معه وهو لم يحنث بقسمه وعهوده معنا ولقد اتى بدليل يؤكد ذلك وهو انه من حين ما اطلقت له الحرية لآخر نسمة من حياته لم يبد ادنى عمل سيء

نداءه كرجل واحد وانتظم تحت قيادته جيوش كثيرة قد سنت لهم حكمته الشهيرة نظامات يسلكونها ومحاربات يقتحمونها واكاليل انتصارات يتتوجونها وهكذا بعد محاربة سنتين لسلطانها ومنقذها والآخذ بثارها وعلى قبوله تلك المناداة ونداءه بالجهاد يعود الحال الى ما كنا عليه لا بل اكثر شدة وصعوبة فكان منتصراً عظيماً في ساحة القتال وموقراً محترماً بعد ذلك في مدينة باريس . لقد نظرته برهة بعد اطلاق سبيله ووجدته فريد عصره واسد زمانه وكل من اقترب اليه كان يعجب ويندهش من منظر ذاك الرأس العربي الجميل المملوء من تلك الحكم العربية المبنية على علو افكار ادبية تشير اليها بالفاظ مبهجة وحديث ممتلىء من روح الديانة جامع بين الفطنة والسياسة اه

واتقارب ما ذكرته الجرائد الافرنجية مع كون المؤدى واحد اقتصرنا واكتفينا بما ذكرته هذه الجريدة ولما انتشر في العالم كذب تلك الاشاعة جاءت رسائل التهاني الى حضرة الامير من كل جهة وممن بادر بذلك من الافاضل الشيخ ابراهيم الاحدب ونص ما بعث به

زال ما كان على المجد عرض ... وعدا جوهره ذاك الغرض
واشتفى جسم الندى مما به ... وتعداه الى العادي المرض
وازدهت روح العلى وانتعشت ... فشفت ارواحنا مما اعترض
ومريد الفضل والجود غدا ... ذا انتعاش بعد ما كان دحض
وانبرت سورية تشكر من ... بعد شكوى ما عناها او ومض
ونسيم البشر بالبشرى لنا ... من مغاني شامها للمسك فض
وجنى وجنتها ابدى لنا ... زاهر الافراح والاقبال غض
حيث قد نال الشفا سامي الوفا ... سيد المجد وللعليا نهض
الامام المرتقى المولى الذي ... في حماه اسد العز ربض
والامير الشامخ القدر بما ... سن من مشروع فضل وفرض
حسني شرع الاحسان في ... مذهب الجود بما لا يعترض
وهو للقادر عبد طالما ... اقدر العبد على المجد وحض
سيد لا سعد الا من سنا ... وجهه رغما لمن كان امتعض
لاح في الشرق من الغرب بما ... اشرق الثاني الذي امسى حرض
وعليٌّ شيعة الفضل له ... لا ترى سنّةً عادٍ قد رفض
يرتجي القاضي عياض ان يرى ... عنه في نعت القضا خير عوض
موجب الشكر له سالبا لمن ... جاء بالعكس بلا علم نقض

وقضايا مدحه تركيبها   منتج للمجتدي اسمى غرض
راج سعر الشعر فيه للذي   كفه بالبسط للجدوى قبض
ونداه طالما طوقني   بعقود ما لها يوماً فضض
فلساني مبضع في مدحه   قاطع عرق عدوّ قد نبض
وقريضي بمعانيه سرى   مثلاً يضرب به من قد قرض
ويراعي قد جرى في حمده   وعلى خيل معانيه ركض
حبذا طلعته الغراء في   وجه راجيه بتعريض عرض
واياد برها في البر قد   مد بحرًا رغم من كان برض
ولهى غصت بها الدنيا كما   في اللهى ساغ بمعناها الجرض
لا يرى الوعد لهذا نفحة   مع طيب النفح للسائل نض
حجة الشكر لهُ بالغة   ببلاغات مباديها دحض
قد شكا فاشتكت الدنيا أسى   وعناها بعنا الوجد مضض
وشفاها الله والبشرى سرت   بتغاض نظم شكر منترض
وملا كل الملا نشر الصفا   ووفى الانس بما لا ينتقض
فتقدمت لهُ اهدى الهنا   رافعاً صوتاً لشانيه خفض
واجتليت الدر من شكري بما   لمعاني زبدة المدح نخض
وهو يدري ان ابراهيم في   حمده المقبول للود تمحض
رق شعري فهو فيه درة   وهو صخر هامة الاعداء رض
طالما صوبت منه حجرًا   نحو هام كان بالكبر نقض
ايها المولى الذي لان بهِ   مضجع الفضل وقد كان أمض
لا شكيت الدهر سقماً وعدا   للعدا كل عناء ومرض
فاقتبل بز الثنا من عرض من   لك مع طول بتقصير عرض
وبلا منٍّ تخذ من مدحي ما   هو يوفى حق ما كان افترض
واغفرن ما قد جناهُ غزلي   بغزال ناعم الملمس بض
من بني الترك بوصل عينه   ضيقها مع سعة للقلب مض
ثغرهُ فيه رحيق برده   دونه في مهجتي اشكو رمض
لا يري للصب فرضاً حسناً   حسنه عندي جزاء ان قرض
شمت ضوء المشتري من وجهه   لو رأى ريحي له طرف غمض

بسهام الجفن قد حاسبني   فغدا قلبي لمرماها غرض
وبسنون له اوجب ما   ندب العاني الى ما قد فرض
عشت انسى بنسيبي فيه ما   التجي عند عناء لي جهض
عالم الكون الذي في عصره   فضله للعار عنا قد رحض
مدن العلم له قد فتحت   والسوى لم يدن من ملاك الربض
غض طرفًا عند مرآه اذا   ما تجلى واطرح من فيه غض
دام من لألائه قطر الندى   للصدى ينقع ما برق ومض

ثم اتبع هذه القصيدة بقوله عريضة هذا الداعي لدى حضرة السيد السند والمولى الذي اروى امل راجيه بالعز لما اعلمه الثمد نقوم بشروع التهاني على نيل الشفاء والصحة وزوال تلك المحنة بما عاد علينا باعظم منحة حيث شفي جسم المجد بذهاب ما كان عرض وسلم جوهره مما المَّ به من ذلك العرض وانتعشت روح الفضل بما كان انتعاشًا لارواح المعالي وابتهاجًا لوجوه الايام اذا نفحت بنض الطيب من شامات الليالي حتى سرى ذلك الى النسيم فصح وهو مريض واعتدل مزاجه فقوى لتعليل من اوقعه الحب في الطويل العريض فسرى في رياض الشام ينض لدائم البشرى وينفح من رسائل التهاني بما ملأ وجوده الكائنات بشرًا فعرف بذلك خليل العرف ابراهيم وافاض عليه ما لا ينكره من طيب ذاك الشميم فاخذ يرتل سور الشكر بالتجويد وانطلق يعيد ما يبديه وهو سار على تقدم التجريد ولم يقتصره على المد المتصل من ثنائه باللسان بل جعل لذلك باظهاره اعظم ديوان واهمل الاخفاء والادغام من تلاوة تلك الآيات وترك القلقلة لمن لا يميز بالقلب بين الحسنات والسيئات ولم يسكن الى المد العارض للسكون بعد اللازم المثقل بوفاء أجر غير ممنون وان لم يستعمل المد المخفف الذي زلت به النعل فتطرب بغنة المنع لسائله بفضول القول بلا فضل ورغب عن الاحتجاج في كلامه بالاماله واتبع النقل في حديثه بالمد الطبيعي لرجائه بلا ملاله فهو ايها الامير الجليل من القراء العظام لآيات شكرك البينات بما يوجب على السامع عند تلاوتها وان لم يتكرر المجالس سجدات فلا يفوق عليه في ذلك ابو عمرو ولا ابن عامر كما لا يشعر بعصمته في الشرك باخلاص حمدك عاصم وهو شاعر فاحمد الله تعالى على ما انعم علينا من عود السراء بعد ما المَّ بنا من معاناة الضراء والشكر له على عافية غير عافية وصحة كافية لنحو آمالنا ولامراض الفضائل شافية حيث عوفي بذلك المجد والكرم وعداك الى اعدائك السقم فلا انحرف لك ايها السيد الكريم مزاج ولا نجح

في مرض شانيك الابترعلاج ولا اشتكيت جميع دهرك من مس عرض ولا كان لسهم النوائب الى جهتك اقل غرض فقد رغب الاسد ان تدوم حماه ولا يكون لها اليك سبيل والف النسيم علته حتى لا يكون لك في الكون وصف عليل كما اصبح المرض طبعاً لجفون الحسان كيلا يعتل بما يمسك لامسك الفضل والاحسان ولعمري انك في سورية انسان عين حدقتها وطيب نفح صباها اذا نفحت وجنة شامتها بمسك شامتها فكيف لا تغل بما يمسك من العلل وتنتعش بما يكون لعطف الصحة من البدل واني بصفة كوني شاعر اياديك الجليلة لا انفك انتجع حمدك والدعاء لك من وجوه جميلة واهنئ الشرف العريق بشنائك وانشئ ما يخلق الايام بما انا خليق به من جديد ثنائك فلذلك نسجت حلة هذه الابيات بعزي بك على ابدع طرز برزت به كل شاعر يذهب ما يلحمه سدى ومن عزّ بزّ وشفعتها من رياض المعاني بهذا المنثور الرائق وان شققت به على ما في الوجنات من الشقائق فاقبل ذلك ايها المولى بالاقبال حسب عوائدك التي لا تخلف ودام قيد ابراهيم في سجل معروفك الذي لا يقبل التنكير من بطيبه تعرف والله تعالى يطيل لك العمر بنعيم عيش دائم ويديم حياتك باطيب صحة حتى تدوم صحة الندا والمكارم ويبقى كعبك سامياً على كل هام ويؤيد حمدك منتجعاً لحاجات الانام ويخلد عزك ملجاء عند كل حادث فيسمو بحمايته ابناء سام وحام ويافث اللهم آمين

وقال الفاضل الشيخ عبد الرزاق افندي البيطار

نحمدك يا منعم على احسانك ونشكرك على جزيل امتنانك حمداً وافياً بوافر آلائك وشكراً مكافياً لمتكاثر نعمائك يا راحم المتضرعين ما ارأفك ويامنان على المنقطعين ما اعطفك ويا ذا الرحمة والجود ما احلمك ويا دافع النقمة بلطفك ما احكمك واعظمك قد غمرتنا بجميل المعروف واغرقتنا في بحر لطفك الموصوف واسبلت علينا سترك الجميل وادمت لنا حصنك الجليل من انقذتنا به من اودية الغواية الى فسيح الرشاد والهداية وعرفتنا به المطلوب وهديتنا بهدايته الى الصراط المرغوب وكشفت به لنا عيوباً كنا نعتقدها طاعة ودللتنا به على نهج السنة والجماعة الانجد الاوحد والعلم المفرد بحر الاكارم وحبر العوالم خطيب منبر المعارف وامام محراب العوارف المرتضع در ثدى المعالي في حجر الفضائل والمرتقع في ذرى العوالي الى عرش الفواضل العاكف في حرم الشهود والواقف على اعلا نقطة كرة السعود من عجنت شريف طينته بماء الوحي والنبوة وغرست بنعت ذاته المنيفة في ساحة المجد والفتوة

من جوهر منه النبي محمد زين العلا فخرت به الآباء

ورث المكارم والشمائل والندى   فعليه من نور الاله بهاء

يد السماحة لكل طالب وباب الدخول لكل راغب الرافع بفضائله اعلام الرايات الدينية والقامع بدلائله معاندي الشريعة الاحمدية امير الامراء وقطب مدار الفضلاء الحسيب النسيب والشريف الماجد الاريب حضرة سيدي الملاذ الاعظم والاستاذ الاسنى الانخم السيد عبد القادر الحسني ادام الله بقاه وجوده الهني وخلد طلوع شموسه في سماء الاقبال والبس جسم الدنيا به خلعة الجمال وجمل الوجود بوجوده وانار ظلمة الكون بطلعة سعوده واعلا لواء جوده المنشور وحفظه الى يوم البعث والنشور ولا زالت مخدرات النعيم بخيامه مقصوره وبانبائه سائرة وسادات الامم بانعامه مشمولة وباعدائه ساخرة ولا برحت الاكابر تخضع لعظمة شانه وتنقاد تحت سلطان واضح برهانه ما طلع النيران وتعاقب الملوان فالمنة لك يا مولانا حيث عافيته من المرض وازلت عن جنابه بعنايتك العرض وانلتنا به المنى والبستنا بصحته حلل المنا واعدت لنا ايام السرور وجددت علينا ليالي الفرح والحبور فوجب على العموم تقديم التهاني لكي يحظو ببلوغ الاماني فاقول متطفلا والقبول متاملاً يهنيك سيدي بعافية شرحت الخواطر وسكبت على الانام هامل غيث فضلها الغامر والبستك جلباب العافية والفرح واماطت عنك لباس البأس والترح ونقلت لشانيك العلل والقتهم في مخاوف الكمد والوجل ولقد صح لك قول من قال واجاد

المجد عوفي مذ عوفيت والكرم   وزال عنك الى اعدائك الالم
صحت بصحتك الآمال وابتهجت   بها المكارم وانهلت بها الديم
وما اخصك من برء تهنئه   اذا سلمت فكل الناس قد سلموا

فلقد امرضت بمرضك الوجود وشغلت بعرضك الآمال عن نيل المقصود فوحق من رفع مقامك ونشر في الخافقين ذكرك واحترامك وطوى القلوب على صادق حبك وانار بك منار خدمك وحزبك انه لمن حين انحراف مزاجك واحتجابك لعارض علاجك قد توجهت قلوبنا في محاريب الطلب الابتهال واجسامنا رفعت اكف الضراعة والسؤال وعيوننا صرفت دنانيرها ودراهمها رجاء القبول ومن لاذ بنا واطفالنا يؤمنون بقلب كسير ودمع مهمول فنحمد الله الذي قد تفضل وتمنن وتكرم على هؤلاء العبيد وتحنن وبارك عليهم الرد الجميل وردهم بك الى الاحترام والتبجيل فحيث ختم الله بالخير فلا ضرر ولا ضير وعند الله مقامات فوق الامل لا تنال بفعل ولا عمل ولا عتب على العبيد بتقديم عريضة التهاني وان كان معدوداً من الاداني لان البحر يقبل كل وارد وهو للجميع مراع ومساعد على ان المضاف يشرف المضاف اليه والخادم يعظم بمن يعوّل في خدمته عليه ولذلك قلت

متشكرًا الله ومهنئًا لسيدي ادام الله علاه

بشرى لنا حيث رد الله سيدنا منا علينا وبالالطاف اتحفنا
شكرًا جميلاً على احسانه وثنا واف بنعمائه اللائي حففن بنا
عافيت يارب قطب الكون من عرض فالحمد لله حمدًا يقتضي المننا
ان الوجود به قد صح من علل والناس قد اصبحت تبدي الهنا علنا
ابقى الاله دوامًا شمس طاعته ولا ارانا بفضل المصطفى المحنا
هذا الذي نوَّر الدنيا ببهجته هذا ابن نور الهدى المختار احمدنا
فخرًا دمشق لك العليا به ابدًا هذا الذي فضله افق العلا سكنا
ان رمت تدري صفات المصطفى العربي بادر الى ذاته ان الصفات هنا
والله لو انصف السادات انفسهم للازموه وفاتوا الاهل والوطنا
ذا سيد ماجد حبر وبحر ندا من أمه نال ما يرجو وكل منا
فداه روحي واولادي وملك يدي وكيف لا ومن الاشراك انقذنا
لا زال محفوف لطف دائمًا ابدًا ما لاح بدر على ام القرى ومنى

وقال الاديب الشيخ عبد المجيد الخاني

«مضمنًا ثلاث ابيات من نظم الامير»

عطف الحبيب عليَّ بعد الياس والعطف شأن قوامه المياس
فعرفت من الم النوى قدر اللقا خير اللقا ما كان بعد الياس
وسحرت من الحاظه وسكرت من الفاظه وصحوت بالايناس
والوصل يجمل موقعًا كالورد ان كان المتيم صبره كالآس
واشد ما يجد المحب من الاسى سهل اذا كان الحبيب الآسي
والقلب احسن ما يكون اذا جثا لغرام ريم لم يكن بالناس
والناس اما ذائق طعم الهوى او عالم او عادم الاحساس
فالاول الاولى بكل سعادة مثل الامير الفرد بين الناس
الروح في احيائه والصدر في احيائه والقلب يوم الباس
رب السمات الباسمات وحسبه شرف النبوة طيب الاغراس
علم وسلطان وحلم في تقى وولاية واقامة القسطاس
ومواقف شهدت بفضل معارف ضاءت على الاكوان كالنبراس

نعم الامير لقد تمنطق بالهدى   وغدا له العرفان خير اباس
غوث لدى محرابه غيث على   احبابه ليث على الافراس
ملك اذا اوليته ملك اذا   عاليته طود الوقار الراس
يقظ اللحاظ اذا تكون فضيلة   فكانها خلقت بغير نعاس
ولع باخلاق النبوة كلها   لا حلم احنف او ذكاء اياس
بحر المكارم لا يقول لماله   ما في وقوفك ساعة من باس
خاض المنايا غير هياب لها   وبنى رفيع المجد فوق اساس
يحنو على بيض الظبا فكانها   آرام رامة او ظباء كناس
ذو صارم ماء الحياء فرنده   وذبابه قبس من الاقباس
حذر الملوك الصيد سطوة باسه   واتى الزمان له ذليل الراس
كم غادر البطل القطوب لدى الخطو   ب بجده حلسا من الاحلاس
ولكم محى جيش الفرنج به كما   تمحو المياه كتابة القرطاس
واسئل فرنسا في الجزائر عندكم   القى كتائبها الى الارماس
والدار الاقفار والانقال لل   انفال والاطفال للنخاس
جمعت سجايا الناس فيه فقال من   باب التحدث عادة الاكياس
الحمد لله الذي قد خصني   بصفات كل الناس لا النسناس
الجود والعلم النفيس وانني   لانا الصبور لدى اشتداد الباس
وتحدثي شكرا لنعمة خالقي   فهو الذي بي جامع للناس
خطب المعارف وهو كفوء جمالها   واستخدم الايام للاعراس
ومقامه كم عفرت فيه الملو   ك جباهها ذلاً بغير شماس
في حسن سيرته التي بنيت على   تقوى سريرته اتم جناس
سارت مسير الشمس في الدنيا سيا   دته على رغم الحسود القاسي
كم الجأ العقلاء حصر صفاته   ان يضربوا الاخماس في الاسداس
ولكم تمنوا ان يفوا بديحه   ان التمني صنعة الافلاس
حتى رأوا عدد النجوم صفاته   وهل النجوم تعدُّ في القرطاس
افدي شريف وجوده فلقد شكا   من سقمه بالنفس والانفاس
عم البرية من بشائر برئه   فرح زيادته بغير قياس
والى الرحاب عقيله في جيدها   عقد تنظم من كبار الماس

تهدى التهاني للسيادة بالشفا والمدح بالانواع والاجناس
شفعت ثلاث وسائط من نظمه لقبولها بزيادة استئناس
ونقول يوم البشر في تاريخه ملك شفاه رحمة للناس

وفي آخر جمادى الثانية سنة تسع وتسعين خرج الامير من دمشق الى طبريا ونواحيها للتنزه وتبديل الهواء لامراض لازمته وكان في معيته بعض اولاده وجماعة من الاقارب والعلماء ومرّ في طريقه بعين الحامة الشهيرة في كتب الاقدمين قرب قرية نوى في ارض حوران فاغتسل فيها على قصد التبرك والتداوي ومنها توجه الى طبريا وبعد ان اقام فيها ثلاثاً دعاه المهاجرون الجزائريون الى قراهم في ارض الشقا فاجابهم الى ذلك ومن هناك توجه الى الناصرة واقام فيها يوماً عند مفتيها الشيخ الفهومي ثم انقلب راجعاً على طريق صفد ثم ديشوم ثم القنيطرة ثم دمشق وحصل له في هذه الحركة ارتياح وانشراح وبعد ان اخذ الراحة في داره خرج الى قصره بدمر على نهر يزيد وانفرد فيه للعبادة ومطالعة كتب الحقائق الالهية وتعليق مسائلها وحل مشاكلها وكان الناس يزورونه ويترددون اليه في حوائجهم على عادتهم فيبش بهم ويهش لهم كما هو دأبه وعادته مع عباد الله تعالى منذ النشأة

ذكر ما اجاب عليه من اسئلة العلماء الاعلام

فمن ذلك سؤال العلامة الشيخ سليم العطار ونصه

الحمد لوليه والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه اما بعد فاني لما قرأت كتاب الابريز في مناقب السيد عبد العزيز قدس سره جمع الفاضل الشيخ احمد المبارك رحمه الله تعالى بعد العشاء بحضور جماعة من الافاضل ووصلنا الى ما وقع في اواخره من سؤال الشيخ عن قول الامام الغزالي قدس الله روحه ليس في الامكان ابدع مما كان وجدت ابن المبارك انتقد هذه العبارة وخدش الاجوبة التي اجاب بها العلماء عما رد على ظاهر العبارة فخطر لي ان اسأل عنها حضرة الامير الجليل المعظم سيدي السيد عبد القادر الحسني متعني الله والمسلمين بحياته حيث انه في هذا العصر الامام المتقدم في العلوم سيما ما افاض الله عليه من علوم القوم وما ذاقه من مشربهم فارسلت سألته وهو في محله بقرية دمر فكتب هذا الجواب الحري ان يكتب بالذهب حيث انه رفع الاشكال واوضح المقام فجزاه الله خير الجزاء وحفظه من كل سوء وحماه آمين

281

قال حفظه الله

الحمد لله الجواب والله ملهم الصواب قال تعالى حاكياً قول موسى عليه السلام ومصدقاً له ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى فقول حجة الاسلام رضي الله عنه ليس في الامكان الى اخر مقالته اشارةً الى معنى المشيرة الى سر القدر المتحكم في المخلوقات الذي هو العلة التي لا يقال فيها لم في الاختلاف العام في الذوات والصفات والنعوت والاستعدادات اخبر الله تعالى انه اعطى كل شيء من العالم المخلوق في مرتبة وجوده الخارجي خلقه اي استعداده الكلي الذاتي الغير مجعول ولا تخارق الذي هو عليه في مرتبة ثبوته وعدمه فان كل ممكن له استعداد خاص لا يشبهه استعداد ممكن استعداد غيره و بالاستعدادات كانت الحجة البالغة لله تعالى على من اشقاه وابتلاه او أنقره ونحو هذا فان استعداده طالب لذلك ولو اعطاه غيره على سبيل الفرض لرده وما قبله لاستعداده لضده فان الاستعدادات طالبة لايجاد ما هي مستعدة له سواء كان ملائماً في الخارج او غير ملائم ولا يطلب استعداد أي استعداد كان الا ما هو كل في حقه وبالنسبة اليه فانه ترتيب حكيم عليم والحكيم هو الذي يضع كل شيء موضعه اللائق به بحيث لا يكون احكم ولا اصلح ولا ابدع ولا اكمل منه ولو فرضنا ان عيناً من اعيان العالم طلب استعداده من الحق تعالى شيئاً اعلا مما هو عليه وأحكم وأصلح ولم يعطه ذلك وادخره عنه وهو ممكن فلا يخلو اما ان يكون الحق تعالى منعه ذلك بخلاً تعالى الحق عن البخل فان البخل يناقض الجود الثابت له تعالى عقلاً وشرعاً واما ان يكون منعه ذلك عجزاً وقد فرضناه ممكناً وهو يناقض الاقتدار الثابت له تعالى عقلاً وشرعاً على كل ممكن فثبت ان الحق تعالى جواد قادر اعطى كل شيء من العالم خلقه واستعداده وما نقصه شيئاً مما طلبه استعداده وما بقي في الامكان شيء يكون ممكناً في حق عين من اعيان العالم اعلا واحكم وابدع مما هو عليه وادخره عنه وحينئذٍ صح قول حجة الاسلام ليس في الامكان الخ فحجة الاسلام بصدد الكلام على العالم الموجود وان الذي رتبه هذا الترتيب الذي هو عليه حكيم فلا يمكن ان يكون في الامكان احكم واصلح وابدع من هذا الترتيب الذي هو عليه فانه ترتيب الحكيم فلا يمكن ان يكون في الامكان احكم وابدع من هذا الترتيب المشاهد في اوضاع العالم وصفاته واحواله وادخره الحق تعالى مع طلب الاستعدادات ان يخلق لها ما هي مستعدة له ومنعها اياه والمنع في حق الحق محال

فان منع المستعد شر والشر ليس اليه تعالى وانما يكون المنع من جهة القابل حيث انه عدم الاستعداد للقبول فالامكان المنفي انما هو كون العالم واشخاصه قابلة ان تكون على ترتيب وصفات اعلا وابدع مما هي عليه وهذا محال فان الاستعدادات حاكمة فلا يقبل مستعد غير ما هو مستعد له يدل على ذلك قوله لو ان الله عز وجل خلق الخلائق كلهم على عقل اعقلهم وعلم اعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وافاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم زاد مثل جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الامور واطلعهم على اسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا على الخير والشر والنفع والضر ثم امرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبيرهم جميعاً مع التعاون والتظاهر ان يراد فيما دبر الله الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منه جناح بعوضة الخ فلا ايجاب ولا غيره مما توهم في كلام حجة الاسلام من اعتقادات الفلاسفة والمعتزلة ولكنه رضي الله عنه مزج كلام اهل الحقائق بكلام اهل النظر

(وجه اخر) اعلم ان الآثار الكونية دلت على المعاني الالهية والحقائق الربانية والمعاني الالهية دلت على وجود ذات الاله المعبود فما في العالم حقيقة كونية كلية او جزئية الا ولها حقيقة الهية كلية او جزئية تقابلها هي مستندها وتحتدها والحقيقة الكونية هي تعينها ومظهرها فالنسخة الكونية مقابلة لنسخة الالهية ولا يلزم من تقابل النسختين واستناد احداهما الى الاخرى المساواة في الحقيقة والنسبة ومن علم هذا علم صحة قول حجة الاسلام الغزالي رضى الله عنه ليس في الامكان ابدع ولا اكمل من هذا العالم اذ لو كان وادخره لكان بخلاً يناقض الجود وعجزاً يناقض القدرة مع ما تقدم وتاخر من كلامه في باب التوكل من كتابه احياء العلوم يريد رضى الله عنه انه لما كان العالم مظاهر اسمائه تعالى الكلية والجزئية لانها الطالبة لايجاد العالم واظهاره من العدم الامكاني مع طلب الحقائق الامكانية للايجاد والظهور من التعين الخارجي مع عوارض التعين الخارجي ولوازمه من الاحوال والنعوت التي لا تنحصر ولا تدخل تحت ضابط ولا قياس وقد اجاب الحق تعالى طلب الجميع فلم تبق حقيقة كلية الهية تطلب العالم الا وقد ظهرت بحقيقة كلية كونية وجزئياتها واشخاصها لاتتناهى فلم يبق شيء في الامكان من حيث الاجناس والانواع الا وقد كان فانه لو بقي في الامكان شيء بعد هذا العالم جنساً او نوعاً وادخره تعالى لكان هذا الادخار بخلاً عن الممكنات الطالبة باستعدادها للايجاد وعن الاسماء الالهية الطالبة لظهورها بظهور الممكنات التي هي آثارها وان لم يكن بخلاً تعين ان يكون

عجزاً فان عدم اسعاف الطالب بمطلوبه لا يكون الا بخلاً او عجزاً وكلاهما تعالى على الجواد المطلق القادر على كل شيء فهو الذي اعطى كل شيء خلقه واستعداده كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وبالقدر الذي ينبغي فعطاء الحق تعالى تابع للطلب الاستعدادي الكلي من الاسماء ومن الاعيان الثابتة التي هي صور الاسماء وللطلب الحالي الاضطراري لا القولي الا ان وافق الاستعدادي او الحالي فلا يجب شيء على الحق تعالى ولا يتصور في حقه تعالى منع مستعد لشيء مما هو طالبه باستعداده الكلي فان من اسمائه تعالى المعطي ولا يكون مسمى بهذا الاسم في حال دون حال ولا في وقت دون وقت وما سمي بالمانع الا من حيث عدم قبول الطالب بلسانه ما هو غير مستعد لقبوله فما انكر قوله حجة الاسلام واستعظمها واستغربها منه الا من كان متكلماً محجوباً عن الرقائق والدقائق ما شم رائحة من علم القضاء والقدر ولا عرف كيفية نشأة العالم ولا اسباب صدوره فتوهم ان هذه المقالة تعجيزاً للقدرة وتناهياً للمقدورات وايجاباً على الحق تعالى هذا جواب من حمل كلام حجة الاسلام على نفي الامكان عن ايجاد عالم آخر او عوالم ونفى فعل الابدع ومشيا على قواعد المعتزلة وهيهات هيهات وانما مراد حجة الاسلام التنبيه على ان سبب هذا الاختلاف الواقع في العالم بين اجناسه وانواعه وبين اشخاص انواع الواحد هو القضاء الازلي وسبب القضاء الازلي هو الحكمة من اسمائه تعالى الحكيم فهي المخصصة للاستعدادات والحكمة متقدمة بالمرتبة على العلم الازلي فما ظهر في هذه النسخة الشهادية الا ما طلبته الاستعدادات الازلية الغير المجعولة فكل ما ظهر في العالم فهو العدل الحق ولا يظلم ربك احداً

جواب آخر

قال تعالى ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى المطلوب من الواقف على هذا الموقف ان يعطيه ما يستحقه من التامل والانصاف فانها مسئلة تكسرت في البحث عنها اظافر كثيرين ليعلم ان الاشياء الممكنة معلومة للحق تعالى حالة عدمها بعلم تحيط اجمالي في تفصيل لا يتناهى والشيئية المذكورة في هذه الآية هي الشيئية الوجودية اعطى كل شيء اي موجود خلقه طبيعته واستعداده كما هي في قوله وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً اي موجوداً لا الشيئية الثبوتية كما هي في قوله انما قولنا لشيء الآية وهي الشيئية المعلومة المجرد عن الوجود العيني والحقائق الممكنات استعدادات كذلك معلومة له تعالى ثابتة معدومة وكما ان عدم الممكنات السابق

على وجودها غير مراد ولا مجعول فكذلك استعداداتها وطبائعها الكلية غير داخلة تحت الارادة والجعل لانها اقتضاآت اسمائية الهية التي هي حقائق اول وهذه حقائق ثوان والممكن من حيث هو ممكن بالنظر الى حقيقة الامكان لا يقتضي شيئاً لذاته فلا بد من مرجح اذ وقوع احد المتساويين بلا مرجح محال لما يلزم من التساوي وعدم التساوي والمرجح لا يرجح الا بالعلم والارادة المتقدمتين على الترجيح بالنظر الى كون علمه تعالى قديماً محيطاً لا يقبل التغير لاستحالته فالممكن المعلومة حالة عدمه لا يقبل التغيير لما يلزم من انقلاب العلم جهلاً اذ المحال كانت معنوية او عينية تعطي الحال بها احكاماً ليست له بمجرد النظر الى ذاته فلزم من هذا انه تعالى لا يعطي حقيقة وذاتاً من ذوات الممكنات حالة ايجاده من الاحوال والصفات الا ما علمه منه حالة عدمه لطلبه لذلك باستعداده وطبعه الذي هو مقتضى حقيقته اذ انقلاب الحقائق محال وصح قول حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنه ليس في الامكان اصلاً أحسن ولا أتم ولا اكمل مما كان اي مما هو عليه كل ممكن في الحال ويكون عليه في الاستقبال من الاحوال والصفات دنيا واخرى يعني انه ليس في الممكن الجائز ان يكون في حق افراد كل حقيقة وذات نسبت الى الوجود في العالم اعلاه واسفله احسن واتم واكمل مما كان اي مما اعطيت اشخاص كل حقيقة من الاحوال والصفات والاوضاع لانه تعالى نعل بها واعطاها ما تطلبه باستعدادها وتستحقه بطبعها الذي علمه منها حالة عدمها فكما انه تعالى اخبر انه لا يعطيها في النهاية الا وصفها لقوله سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم ولا يظلم ربك احداً لانه علمهم على تلك الصفات والاحوال في الدنيا فكذلك في البداية لم يعطهم من الاحوال والصفات الا ما علمهم عليه قبل وجودهم وهي استعداداتهم لانه علمهم متى وجدوا يكونوا على تلك الاحوال والصفات والهيئات والاوضاع لانها مقتضى استعداداتهم التي هي حقائقهم او لوازم حقائقهم ومن البين ان العلم ظل المعلوم وحكاية له فهو تابع له ولا احسن ولا اكمل ولا اتم ولا احكم من اعطاء كل مستعد ما هو مستعد له فانه لا يطلب غيره بل لا يقبله فانه لا يصلحه ويمشي به على حقيقته الا ترى ذلك الا ترى مثلاً الى استعداد الشمعة للانطفاء بالنفخ واستعداد قبضة الحشيش اليابس للانقاد به ولو اراد النافخ اذا كان غير عالم بالاستعداد ولا حكيم فيعطي كل شيء ما يستحقه ايقاد الشمعة بالنفخ ما قبلت ذلك لانه خارج عن استعدادها كما انه اذا اراد اطفاء قبضة الحشيش بالنفخ ما قبلت ذلك كذلك

الفعل والفاعل واحد ولكن الاستعدادات مختلفة والطبائع متباينة فالتجلي الالهي واحد وحقائق الممكنات تقبله بحسب استعداداتها وقوابلها فمن الاستعدادات ما يعم جميع اشخاص الحقيقة الواحدة كالتغذي مثلاً لحقيقة الحيوان والنبات وقد ينفرد كل نوع من انواع الجنس الواحد باستعداده طبيعة كاستعداد انواع الحيوان المصوت كل نوع الى صوت يخالف الآخر وما ذاك الا لاختلاف الاستعدادات وقد لا تحصر الاستعدادات في اشخاص النوع الواحد ولا في انواع الحقيقة والجنس الواحد والحق تعالى واسع عليم بالاستعدادات على اختلافها حكيم يضع الاشياء مواضعها التي تستحقها جواد يعطي كل مستعد ما يطلبه باستعداده وهو معنى اعطى كل شيء خلقه اي طبيعته واستعداده ثم هدى اي بين ويسّر وساق كل شيء بعد ايجاده الى ما هو مستعد له قبل ايجاده فليس له تعالى الا اعطاء الوجود للاحوال والصفات لكل مستعد حسب استعداده وطلبه لذلك بلسان حاله الذي هو الاضطرار وهو تعالى يقول أمّن يجيب المضطر اذا دعاه فكلام حجة الاسلام رضي الله عنه انما هو في بيان انه تعالى ما ظلم احداً من خلقه ولا عدل به عما علمه منه حالة عدمه ولا نقصه خردلة مما طلبه باستعداده وخلقه وطبيعته ان خيراً فخير وان شراً فشر وان نقصاً فنقص وان كمالاً فكمال وبهذا كانت له الحجة البالغة على مخلوقاته وفي بيان ان الاحوال والصفات والاوضاع المجعولة لا يمكن ان تكون اعلا مما هي عليه ولا ادون لانها مقتضى استعدادات الحقائق والذوات من غير تعرّض لشيء آخر وراء ذلك اصلاً ولو قيل لحجة الاسلام هل في الامكان العقلي ان يخلق الله تعالى حقائق احسن واتم واكمل مما خلق اعني قدر لقال هو ممكن عقلاً اذا اراد واما كشفاً فهو محال لان العالم مخلوق على الصورة الالهية وحجة الاسلام انما يتكلم مع الجمهور اصحاب العقول فهو يقرب الامر الى عقولهم ولو قيل له وهل في الامكان ان يعطي تعالى تلك الحقائق صفاتاً واحوالاً اعلا وادون مما تقتضيه استعداداتها التي علمها عليه قبل نسبة الوجود اليها لقال لا يمكن لان القدرة انما تتعلق بالممكن ووقوع خلاف العلم الالهي مستحيل يؤيد حمل كلامه رضي الله عنه على ما ذكرناه لا غير قوله الذي بنى عليه المقالة عندما تكلم فيما يثمر التوكل ما نصه باختصار بعض الكلمات هو ان تصدق يقيناً ان الله لو خلق الخلائق كلهم على عقل اعقلهم وعلم اعلمهم وافاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم كشف لهم عن عواقب الامور واطلعهم على اسرار الملكوت وامرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من العلم

والحكمة لما اقتضى تدبير جميعهم ان يزاد فيما دبر الله به الخلق في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منه جناح بعوضة ولا ان يرفع عيب او نقص او مرض او ضر عمن بلي به ولا ان يزال غنى او صحة او كمل او نفع عما انعم به عليه بل كل ما خلق الله من السموات والارض وكل ما قسم الله بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية عدل لا جور فيه وحق لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي و بالقدر الذي ينبغي وليس في الامكان اصلاً احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولو كان وادخره مع القدرة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ولو لم يكن قادراً لكان عاجزاً والعجز يناقض الالوهية يعني رضى الله عنه انه تعالى لو اعطاهم ما اعطاهم و كشف لهم عن علمه بالاشياء في العدم فعرفوا استعداداتها وطبائعها التي تقتضيها لرأوا حقائق الاشياء طالبة لصفاتها واحوالها واوضاعها التي تعرض لها بعد الايجاد العيني طلباً طبيعيا لزومياً ورأوا تلك الصفات والاحوال على اختلاف ازمنتها وامكنتها مترتبة ترتيباً اقتضائياً بحيث تكون الحالة الاولى جاذبة للتي بعدها مستلزمة لها كحلق السلسلة يجذب بعضها بعضاً جذباً طبيعياً فلو عكس هؤلاء الذين امرهم الله تعالى ان يدبروا الخلق بما افاض عليهم واعطاهم من العلم والحكمة خردلة ما انتظم العالم بل لا يمكنهم زيادة خردلة ولا نقصانها لانه قلب للحقائق وهو محال وتغيير لمعلوم العلم ازلاً وهو محال ايضاً اذ العلم لا بد له من معلوم ومتى ما ظهر ظهر طبق ما تعلق به العلم القديم لا ازيد ولا أنقص بزمانه ومكانه لا يتقدم ولا يتأخر فهو تعالى يخلق ما يشاء ويختار ولا يشاء ويختار الا ما علم من كل معلوم حال عدمه وهو ما عليه كل ممكن حالة وجوده من جميع احواله وصفاته التي لا نهاية لها في الدار الدائمة فلا يصح ان الحق تعالى يعجز عن شيء بل هو القادر المطلق ولكن يقال الحق تعالى لا يفعل الا ما اراد واختار ولا يريد ويختار الا ما علم والمعلوم لا يتغير فلو كان في الامكان خلاف الواقع بحسب ما عليه كل ممكن من الاحوال والصفات مع طلب الممكن اي ممكن كان من الممكنات باستعداده والسان حاله الاحسن والاكمل بالنسبة الى ما اعطي من الصفات والاحوال على سبيل فرض المحال اذ لا يطلب شيء غير ما هو مستعد له البتة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل والبخل والظلم محال فاللازم وهو منع المستحق ما هو مستحق له طالب له باستعداده محال والظلم وضع الاشياء في غير مواضعها التي تستحقها باستعداداتها والعلم والحكمة ولو لم يكن قادراً على ما يريد لكان عاجزاً والعجز محال فهو

تعالى عالم قادر مريد مختار ولعلمه وارادته واختياره لا يعطي شيئًا من الممكنات الا استعداده لانه مقتضى الارادة المترتبة على العلم المترتب على المعلوم فتبين من هذا ان لا اعتزال ولا فلسفة ولا جبر ولا ايجاب في قول حجة الاسلام في هذه بل هو كلام صفوة الصفوة من اهل السنة والجماعة . والحاصل ان حجة الاسلام رضي الله عنه رمز بهذه المقالة الى سرّ القدر المتحكم في الخلائق وهو الذي تنتهي اليه الاسباب والعلل وهو لا سبب له ولا علة فلا يقال فيه لم ولا كيف قال رضي الله عنه بعد ما قدمناه من كلامه وهذا الآن بحر ذاخر عظيم عميق واسع الاطراف مضطرب الامواج غرق فيه طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض ولا يعقله الا العالمون ووراء هذا البحر سرّ القدر الذي تحير فيه الاكثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون الى آخر المقالة فاعتاض هذا الرمز على الافهام من الخاص والعام وتباينت فيه الآراء من لدن عصر حجة الاسلام الى هلم جرًّا حيث كان هذا الرمز موزعًا بين طريقة المكاشفين وطريقة المتكلمين فهم بين معتقد مجيب ومنتقد غير مصيب اما العارفون بالله فقد عرفوا صحة معناها واصل مبناها غير انه ما استقام لهم تطبيق اللفظ على المعنى المراد الاستقامة الخالية عن التكلف السالمة من الاعتراض واما غير العارفين من مجيب ومعترض فهم يتخبطون بين كلام السنة والاعتزال والكل في ناحية عن مرمى حجة الاسلام واكثر من بسط الكلام في هذه المقالة من الذين وقفنا على كلامهم الشيخ احمد بن المبارك في كتاب الابريز وقال انه فعل ذلك نصيحة للمسلمين والله ينفعه بقصده وهو من القادحين في هذه المقالة والحق ضالة المؤمن ياخذها عند من وجدها عنده ومن عرف الحق بالرجال تاه في مهامه الضلال

سؤال آخر منه لحضرته

سيدنا الهمام ادام الله به النفع على الدوام ذكرت لحضرتكم مسئلة الرؤيا وانها اشكلت على هذا الحقير من جهة التفرقة بين الرؤيا الصالحة والحلم لان الوارد ان الصالحة من الله وان الحلم من الشيطان ولم يظهر للداعي هذه النسبة لان العالم في النوم لا تفاوت بينهم فان كان بالنسبة الى صلاح الرأي وعدمه فكثير من اهل الصلاح يرون في منامهم اشياء ظاهرها الحلم وان كان لغير ذلك ارجو من السيادة بيان الامر كذلك ذكرت لسيادتكم ان انكار الرؤيا الذي حكاه في الموقف عن جمهور المتكلمين بقولهما انها خيالات هل يكفرون

بذلك ام لا فارجو كشف القناع عن هذه المسئلة بما يظهر به للداعي حل مشكل هذا الامر من كلام اهل الباطن والظاهر ومما تفضل الله به عليكم من الواردات الالهية واجراه على لسانكم من ينابيع الحكمة الصمدانية وربنا يجعلكم منهلاً لكل وارد والسلام عليكم ورحمة الله

والجواب

الحمد لله وحده والعلم عنده سامحوني في التاخير فاني ما وجدت وقتاً الا هذا ليعلم ان ادراك امر الرؤيا صعب على العقل من حيث ذاته وآلاته التي يقتنص بها العلوم لا من حيث استعداده وقبوله فهو يدرك ما هو اعظم من امر الرؤيا كالتجليات الالهية مع غموضها ولطفها ولا يدرك امر الرؤيا الا من علم الخيال المطلق والخيال المقيد وعلم ذلك ركن من اركان العلم بالله تعالى فنقول على جهة الايماء والاختصار ان الخيال المقيد مرتبة من مراتب الشعور تلطف الكثيف المقيد وتكثف اللطيف المقيد والرؤيا المنامية شعبة منه والحق تعالى جعل في عين الانسان وفي سائر قواه نورين نور يدرك به المحسوسات وقد يدرك بعض المتخيلات يقظة كالانبياء وبعض الاولياء وهو من المسائل الثلاث التي يجتمع فيها النبي والولي مناماً وغيبة وفناء لغيرهم. ونور يدرك به المتخيلات اما في النوم او حالة غيبة عن المحسوسات او في حالة الفناء او في اليقظة كما للانبياء والاولياء وكلا الادراكين في العين ولا يقدر الانسان ان يفرق بينهما الا اذا كان من الكمل وقد جعل الحق تعالى برزخا بين عالم المعاني المجردة عن المواد وبين الاجسام المادية وهو المسمى بالخيال المطلق وبالبرزخ وهو حضرة ذاتية معقولة اذا تنزلت المعاني المجردة عن المواد اليه تصورت بالصور المادية كما تصور العلم باللبن والقيد بالثبات وفي هذه الحضرة الخالية لكل شيء من الاجسام والمعاني المادية صورة روحانية خيالية لا تقبل التجزي ولا الخرق ولا الالتئام مثل الصور التي في اذهاننا فاذا نام الانسان او غاب عن المحسوسات بسبب شيء مما قد مناه واراد الحق ان يريه شيئاً من امر الملك الموكل بالمرأى بافاضة ذلك وكشفه للروح الانساني في حضرة الخيال المقيد اما بواسطة الشيطان وهو القاء ما فيه تحزين واما بواسطة النفس وهي الرؤيا التي فيها حديث النفس واما بواسطة الملك وهي البشرى المنسوبة الى الله تعالى وقد وردت التفرقة بين هذه الثلاث فيما رواه الترمذي قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم اذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب واصدقهم رؤيا اصدقهم حديثاً ورؤيا المسلم جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوّة والرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا من تحزين الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه فاذا رأى احدكم ما يكره فليقم وليتفل عن يساره ثلاثا ولا يحدث به الناس الحديث فبين صلى الله عليه وسلم ان التي من الله هي الرؤيا التي فيها بشرى كأن يعمل الرائي عمل بر فيه اما يحثه على الزيادة منه وملازمته او يكون عمل سوء فيرى ما يحذره منه ويخوفه سوء عاقبة ذلك الفعل وبالجملة ان يرى كل ما ينتفع به في معاده ومعاشه والتي هي من الشيطان هي ان يرى ما يورثه هماً وحزناً وقد يكون ذلك او لا يكون ولهذا لا تضره اذا لم يحدّث بها احداً وهنا ستر تركناه وبين صلى الله عليه وسلم دواء هذا التحزين والتمريض الشيطاني وهو ان يقوم وينقل عن يساره ثلاثاً ويستعيذ بالله من شرها فانها لا تضره كما ورد في عدة احاديث وهذا كما يوسوس الشيطان للانسان في يقظته ويلقي الله اشياء توجب له غماً وحزناً وقد لا تكون ابداً لان الشيطان عدو للانسان يريد ادخال الضرر عليه يقظة ونوماً ونسبة هذا القسم الى الشيطان لكونه بواسطته والا فالكل من الله تعالى كما انقسمت الخواطر الى رباني وملكي وشيطاني ونفساني والكل من الله كما قال فالهمها فجورها وتقواها لاجل الواسطة والادب مع الحق تعالى في نسبة الخيرات اليه ونسبة الشرور الى الوسائط من المخلوقات وقولكم العالم لا تفاوت في النوم بينهم بل بينهم تفاوت عظيم كما هو في اليقظة فان النوم اخو الموت قال تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها وورد في الحديث يموت المرء على ما عاش عليه فليس نوم من غالب اوقات يقظته حضوره مع الله ومراقبته للشارع في حركاته وسكناته وكلامه وصمته كنوم من غالب اوقات يقظته غفلة عن الله تعالى ولهوا وهذياناً وانتقالاً بالخلق عن الخالق فان الاول اذا نام نام على ما كان عليه في غالب يقظته فلا تكون رؤياه غالباً الا من الله تعالى لانه اما معصوم كالنبي او محفوظ كالولي او معتنى به كخواص صلحاء المؤمنين اذ ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين في يقظتهم فكذلك في نومهم وان كانت رؤياه حديث نفس مما كان عليه في يقظته فهي ملحقة بما هي من الله فان كان في يقظته مع الله او مع احكامه فان حصل لهذا تحزين من الشيطان في رؤياه فهو نادر والنادر لا اعتداد به ولا اعتبار له ويكون ذلك ابتلاء يعود عليه بالخير كما اذا وسوس له في يقظته فانه من الذين اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون او يكون ذلك ليس تحزيناً في نفس الامر ولكن الخطأ في التعبير والثاني اذا نام نام على ما كان

عليه في يقظته ولا تكون رؤياه غالباً الا من تلاعب الشيطان او من حديث النفس مما كان عليه في يقظته فاذا حصلت له رؤيا من الله تعالى نادراً فاما ان يكون ممن سبقت له العناية الالهية وقد انتهت مدة قطيعته وتلاعب الشيطان به واما ان يكون لتلك الرؤيا تعلق بعبد من عباد الله الصالحين قال البخاري رضي الله عنه في صحيحه باب رؤيا اهل الشرك والسجون وساق ما ورد في قصة يوسف عليه السلام مع العزيز يشير الى ان اهل الشرك والفسق قد تصدق رؤياهم نادراً قال بعض سادات القوم رضوان الله عليهم لا تصدق رؤيا المشرك وما في معناه من اهل الفسق الا اذا تعلق بهاحق لمؤمن فليست رؤيا مطلق المسلم كرؤيا المسلم الصالح وقد ورد في روايات الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح فالمسلم المطلق محمول على المسلم المقيد ولا بد وقد تقدم في الحديث اصدقهم رؤيا اصدقهم حديثاً واما ما حكي عن جمهور المتكلمين من ان النوم يضاد الادراك وان الرؤيا خيالات باطلة فهذا القول مستبعد جداً صدوره من مؤمن بكتاب الله وسنة رسوله كيف مع شهادة الكتاب والسنة بصحة الرؤيا ولو كشف الله تعالى لهذا القائل عن الخيال المطلق والخيال المقيد لعلم ان ادراك الخيال اصح من ادراك الحس لان الحس له غلطات كما قيل والخيال لا غلط في ادراكه وانما الغلط في التعبير وان صح هذا القول عن احد من العقلاء فمراده ان ما يتخيله النائم ادراكاً بالبصر رؤية وكون ما يتخيله ادراكاً بالسمع سمعاً باطل فلا ينافي هذا حقيقته بمعنى كونه امارة لبعض الاشياء لذلك الشيء نفسه او ما يضاهيه ويحاكيه والا فانكار الرؤيا انكار للضروريات الطبيعية فان كل انسان من مؤمن وكافر ومطيع وعاص يجدها من نفسه وتصلكم كلمات مختصرة في الخيال فطالعوها ان شئتم ثم ردوها الي

﴿ وهذا جواب لسؤال ورد منه ايضاً ﴾

الحمد لله الذي اطلعت عليه من كلام الائمة منه ما يفيد ان كون اول السنة القمرية المحرم وآخرها ذو الحجة انما كان باتفاق الصحابة في خلافة عمر ومنه ما يفيد ان ذلك كان قديماً سابقاً اما ما يفيد بظاهره ان ذلك قديماً فقوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض الآية قال الشيخ اسماعيل في تفسيره ان الله تعالى اجرى الشمس والقمر في السموات يوم خلق السموات والارض فمبلغ عدد الشهور اثنا عشر شهراً اولها المحرم وآخرها ذو الحجة اه فهذا الكلام صريح في ان كون اول الشهور المحرم عند الله في كتابه اي اللوح المحفوظ كما في آية ان عدة الشهور

286

وروى سعيد بن منصور في سننه بسنده الى ابن عباس انه قال في قوله تعالى والفجر الفجر شهر المحرَّم وهو فجر السنة اخرجه البيهقي في الشعب وإسناده صحيح ومثل هذا لا يقوله ابن عباس بالرأي قال ابن حجر في اماليه بهذا يحصل الجواب عن الحكمة في تاخير التاريخ من الهجرة وانما كانت في ربيع الاول اه وقال شارح اللمع بين العام والسنة فرق في الوضع العربي فالعام من اول المحرم الى آخر ذي الحجة والسنة من كل يوم الى مثله من القابل اه وقال ابو البقاء السنة في عرف الشرع من كل يوم الى مثله من القابل بالشهور الهلالية والعام من اول المحرَّم الى ذي الحجة اه وقال ابن ابي خيثمة لما اختلف الصحابة في الشهر الذي يجعلونه اول السنة قام عثمان فقال المحرَّم هو اول السنة وهو شهر حرام وهو اول الشهور في العدة اه فهذا صريح في ان كون اول الشهور في العدة من قديم الزمان قبل الاسلام وانما الصحابة ارادوا ان يجعلوا اول السنة شهراً غير الذي جعله من كان قبلهم وفي الصحيح السنة اثنا عشر شهراً منها اربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب فقد اختلف السلف كما في القسطلاني في عده صلى الله عليه وسلم هذه الاشهر الحرم هل هو من سنة واحدة او من سنتين فعن اهل المدينة انها من سنتين ذو القعدة وذو الحجة من سنة والمحرم ورجب من سنة وعن اهل الكوفة انها من سنة واحدة اولها المحرم ثم رجب ثم ذو القعدة ثم ذو الحجة فلو لم يكن للسنة اول عنده عليه السلام ما ظهرت ثمرة اختلافهم لانه اذا لم يكن للشهور ترتيب تكون الشهور كدائرة لا يعرف طرفها فليس لها اول ولا آخر وهذا من ابعد ما يكون وقال القسطلاني في قوله عليه السلام ان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والارض اي عاد الزمان الى اصل الحساب والوضع الذي اختاره الله ووضعه يوم خلق السموات والارض اه فاستدارة الزمان ورجوعه الى اصله لا يكون الا بترتيب اجزائه ورجوع الاول اولاً والآخر آخراً فيكون للشهور اول وآخر واما ما يفيد ان الصحابة هم الذين جعلوا اول شهور العام العربي المحرم فنقل الدماميني ان الصحابة اختلفوا باي شهر يبتدءون التاريخ فقال بعضهم برمضان وقال آخرون بالمحرم اه ونقل القسطلاني عن الحاكم ابن البيع ان عمر قال ارخوا بالمحرَّم لانه منصرف الناس من حجهم فاتفقوا عليه اه ويبعد كل البعد عقلاً ان يكون الرسول عليه السلام ومن ارسل قبله الى العرب ومن مضى من ملوك العرب الذين ملكوا المغرب الى منتهى المعمورة والمشرق الى الصين لم يجعلوا لشهورهم اولاً ولا آخراً ولا عرفوا ابتداء عامهم ولا

نهايته مع انهم سموا العام عاماً لعوم الشمس فيه جميع الفلك وقطعها الابراج فيعلمون هذه المناسبة ويجهلون اول العام والجمع بين القولين والله اعلم ان كون اول الشهور في العدة المحرم معروف من قديم الزمان ولكن الصحابة ارادوا ان يجعلوا مبدأ للسنة باختيارهم ويخالفوا من قبلهم كما خالفوهم في التاريخ فان العرب كانت تؤرخ بعام الفيل وبحرب الفجار وبيناء الكعبة ونحو ذلك والله اعلم

وسأله حضرة العلامة السيد محمود افندي حمزه مفتي دمشق الشام

ونص سؤاله الحمد لله وحده قد ورد في ايام الدجال يوم كسنة] ويوم كشهر ويوم كجمعة وكذلك اليوم الذي مقداره خمسون الف سنة هل المراد في كل منهما طول المدد حقيقة ام لشدة الهول في كل منهما عبر عنه كذلك المعقول والمنقول في ذلك وما هو حي عن ميت او ميت عن ميت معلوم فلنضرب عنه صفحاً

فاجابه بقوله

الحمد لله اما ايام الدجال فطولها لشدتها وكثرة الغيوم حتى يلتبس الليل بالنهار لانه عليه السلام سئل عن الصلاة فقال اقدروا لها واوقات الصلاة اسباب بوجوبها ولا تجب صلاة الا بوقتها فاليوم الذي كسنة تجب فيه خمس صلوات فقط واما اليوم الذي مقداره خمسون الف سنة فاعلم ان امور الاخرة مبنية على اظهار القدرة عكس الدنيا فانها مبنية على الحكمة فطوله لشدته ويكون هذا الطول في حق بعض الناس كقدر صلاة ركعتي الفجر والقدرة تظهر الطويل قصيراً والقصير طويلاً وتظهر ما لايتناهى متناهياً فانها تجمع الاقدار وكل من قال ان قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل عقلاً فهو جاهل بالله تعالى

جواب لسؤال وارد منه ايضاً

الحمد لله وحده روى البخاري انه صلى الله عليه وسلم ما خير بين امرين الا اختار ايسرها ما لم يكن اثماً فان كان اثماً كان ابعد الناس منه ورواه الترمذي مالم اثماً بدون زيادة فان كان اثماً الخ واعلم ان التخيير له صلى الله عليه وسلم اعم من ان يكون من الله تعالى ومن الكفار والمنافقين وان الله تعالى قد يخير بين حكمين في حقه صلى الله عليه

وسلم او في حق الامة فان كان التخيير من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فيكون الكلام قد تم عند قوله ايسرهما فانه تعالى لا يخير رسوله بين ما يكون اثماً و بين غيره فانه تعالى لا يامر بالفحشاء وللعصمة الثابتة له صلى الله عليه وسلم ويكون قوله ما لم يكن اثماً بمثابة الاستثناء المنقطع وان كان التخيير من غيره تعالى فيحتاج الى زيادة ما لم يكن اثماً الخ اي ان كان التخيير من غيره تعالى فهو مقيد ما لم يكن اثماً وان كان التخيير بين ما يكون اثماً حقيقة او يؤل الى الاثم كان ابعد الناس منه صلى الله عليه وسلم

واجاب عن سؤ ل ورد اليه بقوله

اما قولك ارجو ان تتكرموا عليّ بكل ما تعلمونه بخصوص الصابئة فما اصلهم وما شريعتهم وما داعيهم لهذا المنتقد وهل هم اهل كتاب وما كتابهم الخ فاعلم اولاً ان التقسيم الضابط للملل والنحل هو ان نقول من الناس من لا يقول بمعقول ولا محسوس وهم السوفسطائية القائلون العالم كله خيال باطل لا حقيقة له لا ظاهراً ولا باطناً ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقول بالمعقول وهم الطبيعيون وعلى هذا المذهب اكثر اهل اوربا اليوم ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقول بحدود واحكام وهم الفلاسفة الدهرية القائلون لا اله للعالم انما هي ارحام تدفع وارض تبلع وما يهلكنا الا الدهر ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والاحكام ولا يقول بشرائع الانبياء ولا بالنبوّة وهم الصابئة المسؤول عنهم وسنبين مذاهبهم ومنهم من يقول بهذه كلها وبشريعة واسلام ولا يقول بشريعة محمد عليه السلام وهم اليهود والنصارى والمجوس ومنهم من يقول بهذه كلها وهم المسلمون وهؤلاء الفرق انقسموا الى من له كتاب محقق كالتوراة والانجيل والقرآن والى من له شبهة كتاب مثل المجوس والمانوية فان الصحف التي نزلت على ابراهيم الخليل عليه السلام قد رفعت لاحداث احدثوها المجوس ولهذا يجوز عقد العهد والزمام معهم ولا تجوز مناكحتهم ولا اكل ذبائحهم ومنهم من ليس له كتاب ولا شبهة كتاب وهم ما عدا من ذكر من اهل الملل والنحل فاما الصابئة المذكورون في القرآن الكريم فهم طائفة كانوا في زمن الخليل عليه السلام فكانت الفرق راجعة الى اصلين ح احدهما الصابئة الثانية الحنفاء اتباع ملة الخليل عليه السلام فالصابئة كانت تقول انا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته واوامره واحكامه الى متوسط والمتوسط يجب ان يكون روحانيا لاجسمانيا وذلك لطهارة الارواح ونزاهتها وقربها من رب الارباب والجسماني بشر مثلنا ياكل كما ناكل ويشرب كما نشرب يماثلنا في الصورة والحقيقة والحنفاء وهم اصحاب ملة ابرهيم عليه السلام يقولون نحتاج في معرفة الله وطاعته الى متوسط من جنس البشر تكون

درجته في الطهارة والعصمة والتايد والحكمة فوق الروحانيات يماثلنا من حيث البشرية ويباينا من حيث العصمة الروحانية يتلقى الوحي بطرف الروحانية ويلقى الى نوع الانسان بطرف البشرية فمدار مذهب الصابئة على التعصب للروحانيين كما ان مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين والصابئة تدعي ان مذهبها هو الاكتساب والحنفاء تدعي ان مذهبها هو الفطرة فدعوة الصابئة الى الاكتساب ودعوة الحنفاء الى الفطرة والصابئة فرقتان اصحاب الروحانيات واصحاب الهياكل وهي السيارات السبع اما اصحاب الروحانيات فمذهبهم ان للعالم صانعاً فاضلاً حكيماً مقدساً عن سمات الحدوث والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول الى جلاله وانما يتقرب بالمتوسطات المقربين اليه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالاً فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المنزهون عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية وانما ارشدنا الى هذا معلمنا الاول عاذيمون وهو شيث عليه السلام وهرمس وهو ادريس عليه السلام فنحن نتقرب اليهم ونتوكل عليهم وهم اربابنا وآلهتنا ووسائلنا وشفعاؤنا عند رب الارباب واله الآلهة فالواجب علينا ان نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية ونهذب اخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات فنسال حوائجنا منهم ونعرض احوالنا عليهم فيشفعون لنا الى خالقنا وخالقهم وهذا التهذيب لا يحصل الا باكتسابنا ورياضتنا وفطام انفسنا عن دنيات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات والاستمداد هو التضرع بالدعوات واقامة الصلوات وبذل الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح وتبخير البخورات وتعزيم العزائم فيحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة بل يكون حكمنا وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة قالوا والانبياء امثالنا في النوع واشكالنا في الصورة بشر مثلنا فمن اين لنا طاعتهم وباي مزية لهم نتابعهم واما الطائفة الاخرى من الصابئة فهم اصحاب الهياكل والاشخاص قالوا لا بد للانسان من متوسط ولا بد للمتوسط من ان يرى فيتوجه اليه ويتقرب اليه ويستفاد منه ففزعوا الى الهياكل التي هي السيارات السبع فتعرفوا اولاً بيوتها ومنازلها وثانياً مطالعها ومغاربها وثالثاً اتصالاتها على اشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ورابعاً تقسيم الايام والليالي والساعات عليها وخامساً تقدير الصور والاشخاص والاقاليم والامصار عليها فعملوا الخواتم والعزائم والدعوات وعينوا يوم السبت لزحل مثلاً وراعوا فيه ساعته الاولى وتختموا بخاتمه المعمول على صورته ولبسوا اللباس الخاص به وكان يقضي حوائجهم ويحصل في الاكثر مرامهم وكذلك الحاجة التي تختص

بالمشتري في يومه وساعته وكذلك سائر الحاجات الى الكواكب وكانوا يسمونها اربابًا آلهة والله تعالى هو رب الارباب واله الآلهة ومنهم من جعل الشمس آله الآلهة ورب الارباب وكانوا يتقربون الى الهياكل وهي السيارات السبع تقربًا الى الروحانيات ويتقربون الى الروحانيات تقربًا الى الله تعالى لاعتقادهم ان الهياكل وهي السيارات ابدال الروحانيات ونسبتها الى الروحانيات نسبة اجسادنا الى ارواحنا فهم الاحياء الناطقون بحياة الروحانيات وهي تتصرف في ابدانها تدبيرا وتصريفًا وتحريكًا كما نتصرف نحن في ابداننا ولا شك ان من تقرب الى شخص فقد تقرب الى روحه ثم استخرجوا من عجائب الحيل المترتبة على عمل الكواكب العجائب والغرائب وهذه الطلسمات والسحر والتنجيم والتعزيم ونحوها كلها من علومهم واما الطائفة الثالثة من الصابئة فقالوا اذا كان لا بد للانسان من متوسط يتوسل به وشفيع يتشفع اليه والروحانيات وان كانت هي الوسائل والوسائط لا كنا اذا لم نرها بالابصار ولم نخاطبها بالالسن لم يتحقق التقرب اليها الا بهياكلها والهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت لان لها طلوعًا وافولا وظهورًا بالليل وخفاء بالنهار فلم يصف لنا التقرب بها والتوجه اليها فلا بد لنا من صور واشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب اعيننا نعتكف عليها ونتوسل بها الى الهياكل فنتقرب بها الى الروحانيات ونتقرب بالروحانيات الى الباري تعالى فنعبدهم وهم يقربونا الى الله زلفى فاتخذوا اصنامًا اشخاصًا على مثال الهياكل السبعة كل شخص في مقابلة هيكل وراعوا في ذلك جوهر الهيكل اعني جوهره الخاص به من الحديد وغيره وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر افعاله عنه وراعوا في ذلك الوقت والساعة والدرجة والدقيقة فتقربوا اليه في يومه وساعته وتبخروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ولبسوا لباسه وتضرعوا بدعائه وعزموا بعزائمه وسألوا حاجتهم واولائك هم الذين اخبر القرآن عنهم بانهم عبدة الكواكب والاوثان فاصحاب الهياكل وهي السيارات السبع هم عبدة الكواكب لانهم قالوا بانها آلهة واصحاب الاشخاص وهم عبدة الاوثان لانهم سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية والطائفة الاولى هم عبدة الارواح والملائكة وقد ناظر الخليل عليه السلام هاتين الفرقتين كما اخبر القرآن بذلك فابتدأ بمحاجة اصحاب الاشخاص فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون وقال لعمه آزر أتتخذ اصنامًا آلهة اني اراك وقومك في ضلال مبين وقال يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا وهذه الحجة هي التي قال الله تعالى فيها وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ثم عمد الى اصحاب الهياكل

السبعة بعد ان اطلعه الله تعالى على ملكوت السموات والارض كما اخبر تعالى بقوله وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فاطلعه الله تعالى على ملكوت الكونين والعالم تشريفاً له على الرهبانية وهياكلها وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة وتقريراً ان الكمال في الرجال فاقبل على ابطال مذهب اصحاب الهياكل السيارة السماوية فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً فقال هذا ربي على وجه الالزام والا فما كان الخليل عليه السلام مشركاً ثم استدل بالافول والزوال والتغير والانتقال بانه لا يصلح ان يكون رباً الاهاً فان الاله لا يتغير فلو اعتقدتموه واسطة ووسيلة فالافول والزوال غير عز الكمال الى آخر القصة وهي مذكورة في القرآن ومن الصابئة جماعة يقال لهم الحرنانية قالوا الصانع المعبود واحد كثير فاما وحدته ففي الذات والاصل والازل واما كثرته فلانه يتكثر بالاشخاص في رأي العين وهي الدراري السبعة والاشخاص الارضية الخيرة العالمة الفاضلة فانه يظهر بها ويتشخص باشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته وهو ابدع الفلك وجميع ما فيه من الاجرام والكواكب وجعلها مدبرات هذا العالم وهم الآباء والعناصر امهات فتحصل الموالد بينهما ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها ويحصل ميزاج كامل الاستعداد فيتشخص الاله به في العالم ثم ان الطبيعة الكل يحدث على راس كل ستة وثلاثين الف سنة واربعمائة وخمس وعشرين زوجين من كل نوع من اجناس الحيوانات ذكراً وانثى من الانسان وغيره فيبقى ذلك النوع تلك المدة ثم اذا انقضى الدور انقطعت الادوار ونسلها فيبتدىء دور آخر ويحدث قرن آخر من الانسان والحيوان وهكذا ابد الابدين ودهر الداهرين وهم الذين اخبر القرآن الكريم عنهم انهم قالوا ما يهلكنا الا الدهر ومن هذه المقالة نشأ التناسخ والحلول فان التناسخ هو ان تتكرر الاكوان والادوار الى ما لا نهاية له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الاول والثواب والعقاب عند هذه الطائفة في هذه الدار لا في الدار الاخرى ومن هذا المذهب اخذ الدروز بعض مذهبهم واما ذكر الصابئة في القرآن الشريف فانه تعالى اراد بذلك ان الصابئة ومن ذكر معهم من الطوائف انهم مع جهلهم السابق وعقائدهم الفاسدة واقاويلهم الكاسدة اذا آمنوا بالله صدّقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته ونزاهته عن الشريك والمعين وصدّقوا باليوم الآخر وهو يوم القيامة وصدّقوا محمداً عليه السلام فيما جاء به من الوحي والشرائع وتركوا ما كانوا عليه من الاعتقادات في الله تعالى وعملوا صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يوم القيامة ولا يؤاخذهم بما سلف منهم من الجهالة في الاعتقادات وفي الاقوال والافعال واما قولك ثم من منهم الذين هادوا فاعلم ان اليهود هم امة موسى عليه السلام وانما سموا يهوداً لقول موسى عليه السلام اناهدنا اليك اي رجعنا اليك وكتاب هذه الامة اليهودية هو التوراة ومعنى التوراة الشريعة وهو اول كتاب نزل من السماء لان ما نزل على ابراهيم وغيره من الانبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً وانزل على موسى عليه السلام ايضاً الالواح كانها مختصر ما في التوراة منقسم على الاقسام العلمية والعملية قال تعالى في القرآن الكريم وكتبنا له اي لموسى في الالواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً واليهود تدعي ان الشريعة لا تكون الا واحدة وهي ابتدئت بموسى عليه السلام وتمت به فلم تكن قبله شريعة الا حدوداً عقلية واحكاماً مصلحية ولم يجيزوا النسخ في الشرائع فلم تكن شريعة بعد موسى عليه السلام ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة واحالتها ولمنع اليهود النسخ في الشريعة لم ينقادوا لعيسى عليه السلام وادعوا عليه انه كان مأموراً بمتابعة موسى عليه السلام وموافقته التوراة فغير وبدل وعدوا عليه تلك التغييرات منها تغيير السبت الى الاحد ومنها تغيير اكل لحم الخنزير وكان حراماً في التوراة ومنها ترك الختان والغسل من الجنابة وغير ذلك واختلفت اليهود على نيف وسبعين فرقة اشهرها العنانية نسبوا الى عنان بن داوود رئيس الجالوت يخالفون سائر اليهود في السبت والاعياد ويقتصرون على الطير والظبي والسمك ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه واشارته ويقولون انه لم يخالف التوراة بل قررها ودعا الناس اليها وهو من انبياء بني اسرائيل المقيدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام الا انهم لا يقولون بنبوته ورسالته ومن هؤلاء من يقول ان عيسى عليه السلام لم يدَّع انه نبي مرسل وانه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام بل هو من اولياء الله تعالى المخلصين العارفين باحكام التوراة والانجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحياً من الله تعالى بل هو جمع احواله من مبتدئه الى كماله وانما جمعه اربعة من اصحابه الحواريين فكيف يكون منزلاً واليهود ظلموه حيث كذبوه اولا ولم يعرفوا دعواه وقتلوه ولم يعرفوا منزلته وقد ورد في التوراة ذكر المسيح في مواضع كثيرة وذلك هو المسيح عيسى ولكن لم ترد له النبوة ولا الشريعة الناسخة . الفرقة الثانية من الفرق المشهورة العيسوية نسبوا الى ابي عيسى اسحاق ابن يعقوب الاصفهاني وقيل اسمه عويذ الوهيماي عايذ الله زعم ان الله تعالى كلمه وكلفه ان يخلص بني اسرائيل من ايدي الامم العاصين والملوك الظالمين وحرم الذبائح كلها ونهى

عن اكل كل ذي روح على الاطلاق طيرًا كان او بهيمة واوجب عشر صلوات كل يوم وخالف اليهود في كثير من احكام الشريعة المذكورة في التوراة وكان يوجب تصديق المسيح عليه السلام ٠ الفرقة الثالثة من الفرق المشهورة البوزعانية نسبوا الى بوزعان كان يحث على الزهد وتكثير الصلوات وينهى عن اللحوم والا نبذة وكان يزعم ان للتوراة ظاهرًا وباطنًا وتنزيلاً وتأويلاً خالف عامة اليهود وخالفهم في التشبيه ومال الى القدر واثبت الفعل للعبد حقيقة ورتب الثواب والعقاب عليه ٠ الفرقة الرابعة من الفرق المشهورة الموشكانية نسبوا الى مشكا كان يوجب الخروج على مخالفيه واثبت نبوة محمد عليه السلام الى العرب وسائر الناس غير اليهود لانهم اهل ملة وكتاب زعم ان الله خاطب الانبياء بواسطة ملك اختاره وقدمه على جميع الخلائق وكل ما في التوراة من وصف الله تعالى فهو وصف ذلك الملك وخبر عنه ولا يجوز ان يوصف الله بوصف وما ورد في التوراة ان الله كلم موسى انما هو ذلك الملك فلا يكلم الله بشرًا والشجرة المذكورة في التوراة هو ذلك الملك وحمل جميع ما ورد في التوراة مما نسب الى الله على ذلك الملك وقيل صاحب هذه المقالة هو بليامين اليهودي هو قرر هذا المذهب وقال الآيات المتشابهات في التوراة كلها منزلة وان الله لا يوصف باوصاف المخلوقات ٠ الفرقة الخامسة من الفرق المشهورة السامرة وهم قوم يسكنون بيت المقدس ونابلس وقرى من اعمال مصر يتنظفون في الطهارة اكثر من سائر اليهود واثبتوا نبوة موسى وهارون و يوشع وانكروا نبوة من بعدهم من الانبياء الاَّ نبياً واحدًا وقالوا التوراة ما بشرت الا بنبي واحد يأتي من بعد موسى عليه السلام يصدق التوراة ويحكم بحكمها وافترقت السامرة الى دوستانيه ومعناها الفرقة الكاذبة والى كوستانيدو معناها الجماعة الصادقة وهم يقرُّون بالآخرة واثبتوا الثواب والعقاب في الدنيا وقبلتهم جبل يقال له عزيم بين بيت المقدس ونابلس وهو الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام فحوله داوود الى ايليا و بنى البيت ثمت وخالف الامر والسامرة تتوجه الى تلك القبلة دون سائر اليهود وزعموا ان التوراة كانت بلسانهم فنقلت الى السريانية والعبرانية واما قولك من هم الذين اشركوا فاعلم ان الشرك هو اثبات شريك لله تعالى في الوهيته وفي خلقه لمخلوقاته وفي افعاله يقال اشرك بالله كفر به فهو مشرك والشرك انواع شرك استقلال وهو اثبات الهين مستقلين كشرك المجوس وشرك التبعيض وهو تركيب الاله من آلهة كشرك من يدعى انه نصراني وليس بنصراني حقيقة فان النصارى الحقيقيين موحدون وشرك التقريب وهو عبادة غير الله ليقرب الى الله

كشرك متقدم الجاهلية من العرب وشرك التقليد وهو عبادة غير الله تعالى تبعاً للغير كشرك متأخري الجاهلية من العرب قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون وشرك الاسباب وهو اسناد التأثير الى الاسباب العادية كشرك الفلاسفة والطبيعيين ومن تبعهم على ذلك وشرك الاغراض وهو العمل لغير وجه الله تعالى بل لنيل غرض من الاغراض ونتكلم على شرك الاستقلال دون غيره فاننا لو تكلمنا عليه تفصيلاً وعلى غيره من انواع الشرك ما وسعتنا مجلدات فاعلم ان شرك الاستقلال هو اثبات الهين مستقلين كشرك المجوس والمانوية وسائر الفرق المجوسية واختصت الاثنينية بالمجوس لكونهم اثبتوا الهين اثنين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ويسمون احدهم النور والثاني الظلمة وبالفارسية يزدان واهرمن ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين احداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً وهم فرق اشهرها الكيومرتيه اصحاب كيومرث اثبتوا اصلين يزدان واهرمن وقالوا يزدان قديم واهرمن محدث مخلوق قالوا ان يزدان فكر في نفسه انه لو كان له منازع كيف يكون وهذه الفكرة ردية غير مناسبة بطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة وكان اهرمن مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضر فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولاً وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ثم ان الملائكة توسطوا في الصلح على ان يكون العالم السفلي خالصاً لاهرمن سبعة الاف سنة ثم يخلي العالم ويسلمه الى النور والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح اهلكهم وابادهم وزعموا ان النور خير الناس وهم ارواح بلا اجساد بين ان يرفعهم عن مواضع اهرمن وبين ان يلبسهم اجساداً فيحاربون اهرمن فاختاروا لبس الاجساد ومحاربة اهرمن على ان تكون النصرة لهم من عند النور وعند الظفر باهرمن واهلاك جنوده تكون القيامة فذلك سبب الامتزاج وهذا سبب الخلاص ومن فرق المجوس الذروانيه قالوا ان النور ابدع اشخاصاً من نور نورانية ربانية والعظيم منها اسمه ذروان شك في شيء فحدث اهرمن الشيطان من ذلك الشك ولهم اقوال وخرافات تمجها العقول السليمة اضربنا عن ذكرها ومن فرق المجوس الزرادشتية اصحاب زرادشت قالوا النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك يزدان واهرمن وهما مبدأ وجود العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة والباري تعالى خالق النور والظلمة وهو احد لا شريك له ولا يجوز ان ينسب اليه ايجاد الظلمة لكن

الخير والشر والصلاح والفساد انما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم وهما يتقاومان ويتغالبان الى ان يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير الى عالمه والشر ينحط الى عالمه وذلك هو سبب الخلاص ومنهم صنف يقال له السيسانيه رئيسهم رجل كان زمزمياً في الاصل يعبد النيران ثم ترك ذلك ورفض عبادة النيران ووضع لهم كتاباً وامرهم بارسال الشعور وحرم الامهات والبنات والاخوات وحرم الخمر وامر باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة وحرم الميتة وذبح الحيوان حتى يهرم وهم اعداء للمجوس الزمازمة ومن فرق المجوس المشهورة الثنوية وهم اصحاب الاثنيان الازليين يزعمون ان النور والظلمة ازليان قديمان بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخير والاجناس والابدان والمكان والارواح ومن فرق المجوس المشهورة المانوية اصحاب مانئ اتخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية كان يزعم ان العالم مصنوع مركب من اصلين قديمين احدهما نور والآخر ظلمة وانهما ازليان لم يزالا ولن يزالا وانكر وجود شيء لا من اصل قديم وزعم ان النور والظلمة لم يزالا قويين حساستين سميعتين بصيرتين وهما مع ذلك متضادان في النفس والجوهر والعقل متحاذيان تحاذي الظل والشخص فجوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقي طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نافعة سالمة وفعله الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام وجوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر ونفسها شريرة سفيهة جاهلة ضارة وفعلها الشر والفساد والضر والاختلاف والى هذه الطائفة اشار المتنبي بقوله

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر ان المانوية تكذب

لان الظلام كان سبباً في وصاله بمن يهوى واحتجابه عن الرقباء واي نفع وخير اعظم من هذا ومن فرق المجوس المزدكية اصحاب مزدك قولهم كقول اكثر المانوية الا ان مزدك كان يقول ان النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل اعمى وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا من القصد والاختيار وكان مزدك ينهى عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال احل النساء واباح الاموال وجعل الناس كلهم شركة في النساء والاموال كاشتراكهم في الماء والنار والنار والكلا الى غير هذا من الهذيان فلا نطيل به ومن فرق المجوس الديصانيه اصحاب

291

ديصان كان يقول النور عالم قادر حساس دراك منه تكون الحركة ومنه تكون الحركة والحياة والظلام ميت جاهل عاجز موات لا فعل له ولا تمييز والشر يقع منه طبعاً وخرقاً وان النور جنس واحد وكذلك الظلام جنس واحد وان سمعه وبصره وسائر حواسه وادراكاته شيء واحد فسمعه هو بصره وجميع حواسه وانما قيل سميع بصير لاختلاف التراكيب لا لانها في انفسها شيئان مختلفان وزعموا ان اللون هو الطعم وهو الرائحة الى غير هذا من اباطيلهم فلا نطيل بها ومن فرق المجوس المرقونيه اثبتوا اصلين متضادي النور والظلمة واثبتوا اصلاً ثالثاً هو المعدل الجامع وهو سبب المزاج بين النور والظلمة وقالوا الجامع دون النور في الرتبة وفوق الظلمة وحصل من الامتزاج هذا العالم ومنهم من يقول ان الامتزاج انما حصل بين الظلمة والمعدل اذ هو قريب منها فبعث النور الى العالم الممتزج روحاً مسيحية وهو روح الله وابنه يحثنا على العدل السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم حتى يخلصه من حبائل الشياطين فمن اتبعه ولم يلابس النساء ولم يقرب الزهومات افلت ونجا ومن خالفه خسر وهلك قالوا وانما اثبتنا المعدل لان النور الذي هو الله تعالى لا تجوز عليه مخالطة الشيطان وايضاً فان الضدين متنافران طبعاً ويتمانعان ذاتاً ونفساً فكيف يجوز امتزاجهما فلا بد من معدل تكون منزلته دون النور وفوق الظلمة فيقع المزاج معه وكانوا يقولون المعدل هو الانسان الحساس الدراك اذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض وكانوا يرون المناكحة وكل ما فيه منفعة بدنية وروحية ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الايلام ومن فرق المجوس الكينوية والصيامية وهم اصحاب التناسخ زعموا ان الاصول ثلاثة النار والارض والماء وانما حدثت الموجودات من هذه الاصول دون الاصلين اللذين اثبتتهما الثنوية قالوا النار بطبعها خيرة نورانية والماء ضدها في الطبع فما كان من خير في هذا العالم فمن النار وما كان من شر فمن الماء والارض متوسطة وهم يتعصبون للنار من حيث انها علوية نورانية لطيفة لا وجود الا بها ولا بقاء الا بامدادها والماء يخالفها في الطبع فيخالفها في الفعل — والارض متوسطة بينهما فتركب العالم من هذه الاصول والصيامية من هذه الفرقة امسكوا عن طيبات الرزق وتجردوا لعبادة الله تعالى وتوجهوا في عبادتهم الى النيران تعظيماً لها وامسكوا عن الذبائح والنكاح ايضاً وقالوا بتناسخ الارواح في الاجساد والانتقال من شخص الى شخص وما يلقى من الراحة والتعب فمرتب على ما اسلفه قبل وهو في بدن آخر جزاء على ذلك والانسان ابداً في احد امرين اما في فعل واما في جزاء وما هو فيه فاما مكافاة على عمل قدمه واما على ان ينتظر المكافاة

عليه والجنة والنار في هذه الابدان والمجوس انما يعظمون النار لمعان منها انها جوهر شريف علوي ومنها انها ما احرقت الخليل عليه السلام ومنها ظنهم ان التعظيم لها ينجيهم في المعاد من العذاب وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة واما قولك ان منطوق الآية الشريفة في سورة الحج ان المشركين ليسوا هم النصارى الخ فاعلم ان النصارى هم اتباع المسيح عليه السلام وامته ممن كان تابعاً للمسيح قبل ظهور محمد عليه السلام فهو من افضل الخلق واعلاهم درجة وبعد ظهور محمد عليه السلام من آمن به فله اجران ويحشر مع الناجين الآمنين ومن كفر بما جاء به محمد من النصارى وغيرهم فيسمى كافراً لا مشركاً الا من قال من النصارى في المسيح عليه السلام وانه ابن الله ومن اليهود في عزير انه ابن الله فهو مشرك والنصارى الحقيقيون هم الذين يعتقدون ان المسيح عليه السلام روح الله وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول عليها السلام وانه رسول الله الى بني اسرائيل بشرع ناسخ لبعض شرع موسى عليه السلام والانجيل المنزل عليه كلام الله تعالى حقيقة لا تجازاً وفرق النصارى واعتقاداتهم المختلفة انت اعلم بها فلا نطيل الكلام بذكر مذاهبهم وفرقهم وبالجملة فالنصارى اجهل الناس بالمعقول والالهيات والكفر اما كفر انكار وهو انه يكفر بقلبه ولسانه واما كفر جحود وهو ان يعرف الحق بقلبه ولا يقر بلسانه واما كفر عناد وهو ان يعرف بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به وكفر نفاق وهو ان يقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه والجميع سواء في انه من لقي الله تعالى بواحد منهم لا يغفر له فقد بان لك ان اهل الكتاب لا يقال فيهم مشركون وانما يقال لهم كفار فان الكفر اسم لمن لا ايمان له بمحمد وبما جاء به من الشرائع والاحكام ومن اخفى الكفر واظهر الايمان فهو المنافق وان طرأ عليه الكفر بعد الايمان فهو المرتد وان كان متديناً ببعض الاديان والكتب المنسوخة فهو الكتابي وان قال بقدم الزمان والدهر ونسب الحوادث له فهو الدهري وان كان لا يثبت الباري تعالى فهو المعطل وان كان يجعل مع الله الهاً آخر فهو المشرك وشريعة محمد عليه السلام نسخت الشرائع المتقدمة كلها فلا يقبل الله تعالى ديناً اليوم من احد ولو عبد الله تعالى بعبادة الثقلين الانس والجن الا من عبد اتباعاً بمحمد عليه السلام

ذكر مرضه ووفاته وما يتعلق بهما

نشأ الامير في صحة كاملة وعافية شاملة لم يتغير عليه في ايام شبوبيته وكهولته شيء

292

من قوته ولا من احواله ثم عرضت له امراض حال شيخوخته فتلقاها بقوة القلب وحسن الصبر ولكثرة الادوية وتعاقبها مع اختلاف موادها حدثت له امراض اخرى من اشدها ما اخبرني به اثناء اقامته الاخيرة في قصر دمّر ان من جملة امراضه ورم في خصيتيه يمنعه من الاسراع في المشي وانه عازم على عرض ذلك على طبيب خبير بفن الجراحة فاحضرت له جماعة من الاطباء فاخرجوا ما فيها من الماء ثم عرض لي سفر مع والدتي الى بيروت لقضاء فصل الشتاء فيها وفي آخر المدة بعث يامرني بالرجوع فوجدته متغير الاحوال متلاشي القوى واشد ما كان عليه وقتئذٍ حصر البول فاحضرت له طبيباً من بيروت عالماً بفن الجراحة مشهوراً فعالجه وحصلت له بعض الراحة ثم رجع الامر الى ما كان عليه ولما اشتد الالم احضرت جماعة من اطباء دمشق يتناوبون معالجته صباحاً ومساء ومن تعطفه عليّ وتوجهه بالرأفة والحنان اليّ انه كان في هذه الاحوال الشديدة لا يتناول دواء الا من من يدي ولا يقبل علاجاً الا بحضوري وان قيل له في استعمال شيء او تركه يستشيرني فيه واذا كنت غائباً يؤخر الجواب عنه الى ان احضر وهكذا في شأنه كله حتى انه اذا عرض عليه تغيير قميصه لا يجيب الى ذلك الا باطلاعي وهذا من فضل الله عليّ ومنته ومع ما كان يقاسيه من شدة الالم و يعانيه في معالجته لم يظهر ضجراً ولا رأيته تاوّه قط ولا ترك الصلاة في وقت من الاوقات وفي آخر مرضه كنت ايممه وكان قليل الكلام الا فيما يخص مرضه واستمر الاطباء يترددون عليه و يعالجونه خمسة وعشرين يوماً الى ان دعاه مولاه الى سعة رحمته ونقله الى فسيح جنته في الساعة السابعة من ليلة يوم السبت التاسع عشر من رجب سنة ثلاثمائة الف والرابع والعشرين من ايار سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فلم يشعر الناس الا والصياح قد قام والعويل عم الخاص والعام فيا لها من ليلة سوداء شقت فيها الجيوب وكادت تنفطر من شدة هولها الاكباد والقلوب و يا له من مصاب اصطكت له الاسماع وارتجت به الاضلاع وفي الحال شاع خبره ونقلته الاسلاك التلغرافية الى سائر الاقطار ولما تعالى النهار حملناه الى دارنا في البلد فاهتزت دمشق بعموم اهلها كدراً وتقاطر الناس الينا زمراً زمراً وبعد تجهيزه والصلاة عليه في جامع بني امية حملت جنازته الى الصالحية يحفها سائر علماء البلد واشرافها وحكامها وخرج اهلها على اختلاف مللهم ونحلهم فلم يتخلف كبير ولا صغير عن تشيعها وصفوف العساكر السلطانية من حولها ودفن عند الشيخ الاكبر سيدي محيي الدين بن العربي داخل القبة دفن والاحشاء محترقة والاجفان بماء عيونها غرقة والمكارم تبدي شجوها لفقده والمحاسن تعثر في

استحال حدادها من بعده وفنون العلم تلطم خدودها وافانين المعارف تشق برودها

والسالكون سطت عليهم حيرة　　وغوى لهم نهج وضل سبيل

والعارفون تنكرت احوالهم　　فحجاب عين قلوبهم مسدول

فما اعظمه مفقوداً وما اكرمه موجوداً اتعب في حياته المادحين واطال بموته بكاء الباكين وبكاه الفضل والكرم وندبه السيف والقلم وركب على الاعناق بعد العتاق وعلى الاجياد بعد الجياد وعد مثابه في الاسلام ملمة وفقد منه في العالم من كان يدعى لكل ملمة فانا لله وانا اليه راجعون تسليماً لقضاء الله واذعاناً لما حكم به وامضاه وقد كتب على شاهدة الضريح تاريخ وفاته الاديب الشيخ عبد المجيد الخاني وهو .

لله افق صار مشرق دارتي　　قمرين هلاً من ديار المغرب

الشيخ محيي الدين ختم الاوليا　　قمر الفتوحات الفريد المشرب

والفرد عبد القادر الحسني الامير　　قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نال مع اعلى رفيق ارخوا　　اذكى مقامات الشهود الاقرب

وفي ثاني يوم الوفاة اجتمع الاخوة والقرابة للمذاكرة فيمن يجمع امرهم ويلم شعثهم ولاول وهلة اتفقت كلمتهم عليَّ ووجهوا الرئاسة اليَّ واعطوني صفقتهم واظهروا لي طاعتهم ثم اجتمعوا مرة اخرى ووضعوا ايديهم على المصحف الكريم وحلفوا به رافعين اصواتهم انهم لا يخالفون كلمتي ولا يتجاوزون حوزتي وكتبوا في ذلك صكاً شرعياً امضاه كل واحد منهم بخطه ثم ختمه بخنمه ونص الصك المذكور

الحمد لله الذي بيده التوفيق الى اقوم طريق والصلاة والسلام على من اختاره الله تعالى من خير فريق وآله واصحابه اولى الصدق والتصديق اما بعد فالذي وقع عليه اتفاقنا واجتمعت عليه كلمتنا بطواعية واختيار منا ونحن بالاحوال المعتبرة شرعاً اننا عموم العائلة نقول بل قلنا ونطقنا بقول واحد ونطق متحد حسب ارادة مولانا المرحوم سيدنا الامير عبد القادر قدس الله سره المتكررة شفاهاً والمدونة بخطه الشريف ان سيدنا واخانا الكبير سعادة الامير محمد باشا هو حاكمنا والمتصرف فينا ولنا بما يراه صالحاً لنا ولاولادنا وجميع من يتعلق بنا وسائر لوازمنا يتوصل به الى قضاء حوائجنا هو منوط به وراجع اليه بحيث لا نظر لنا في ذلك ولا مداخلة بنوع ما والذي يراه حسناً لنا فهو الحسن والذي يراه قبيحاً لنا فهو القبيح لدينا واقمناه في ذلك كله مقام سيدنا ومولانا قدس الله روحه العزيز وكل من شذ منا وسولت له

293

نفسه الخروج عما وقع عليه الاتفاق واجتمعت عليه الكلمة فنحن براء منه ظاهراً وباطناً وقولاً وفعلاً وبالجملة فنحن جميعاً يكون حالنا مع سعادة سيدنا المذكور كحالنا مع سيدنا ومولانا المرحوم رضي الله عنه ومن بدّل او غير او سعى في التبديل والتغيير فنحن ملزمون برده الى السواد الاعظم والى ما اجتمعت عليه كلمتنا وسطرناه في هذه الورقة واشهدنا به على انفسنا وعلاوة على ذلك اننا نساله تعالى ان ينتقم منه لمخالفته لنا في نفسه واولاده وماله وعياله وعلى هذا وقع الاتفاق وحصل الاشهاد وبالله تعالى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل لا رب غيره ولا خير الا خيره حرر وقرر في يوم الاحد الواحد والعشرين من شهر رجب سنة ثلاثمائة والف

ابراهيم بن عبد القادر الحسني الهاشمي محيي الدين بن عبد القادر الحسني محيي الدين ابن مصطفى الحسني احمد بن محيي الدين الحسني محمد مرتضى الحسني محمد بن الحسن ابو طالب الحسني عبد العزيز الحسن ابو طالب الحسني عبد القادر بن ناصر عبد الباقي بن محمد سعيد الحسني علي بن الامير عبد القادر الحسني احمد بن الامير عبد القادر الحسني عبدالله بن عبد القادر عمر بن عبد القادر عبد الرزاق بن عبد القادر عبد المالك بن عبد القادر علي بن فريحة محمد بن فريحة احمد بن فريحة

فقبلت منهم ما اتفقوا عليه وجعلت انظر فيما يصلح بهم في مستقبلهم ورفعت امرنا الى الوالي احمد حمدي باشا فاظهر من لطفه وانسه ما ملأ القلوب مسره والصدور حبوره وانهى في امرنا الى الاعتاب السلطانية وبينما انا انتظر الفرج والخروج مما وقعنا فيه من الحرج اذ انقض بعض اولئك الاخوة علي وفوقوا سهام العداوة الي واظهروا الخروج عن تبعيتهم للدولة العلية وعدلوا عنها الى الدولة الفخيمة الفرنساوية واصبحنا على غير ما امسينا عليه اعتباطاً لا لعلة بل خالف تعرف · ولما تعين لنا من احسان الدولة العلية ما تعين وجاءت البشرى به بعث الوالي الينا وبشرنا بذلك وامرنا باجتماع الكلمة والرجوع الى ما وقع عليه الاتفاق اولاً وبصحة التمسك باذيال الخلافة الاسلامية العظمى نظراً لوجوب طاعتها والاذعان لها شرعاً ولتعطفها علينا واحسانها بما احسنت الينا فما التفتوا الى ذلك بل اصرّوا على ما هم عليه من الخلوص لتلك الدولة ولما علمت صدقهم في التمسك بها والانتساب اليها عينت لهم مرتباً كافياً وتميز الفريقان وعلم كل أناس مشربهم وبلغوا مما قصدوه مأربهم وكان الوالي اخر قسمة ما رتبته الدولة العلية للعائلة منتظراً بذلك فيئة الجماعة والعدول عما هم عليه ولما يئس منهم عين لي ولمن تبعني من الاخوة والقرابة واعيان المهاجرين ذلك المرتب وبالجملة فقد اوردتنا الدولة العلية موارد كرمها

وافاضت علينا سجال انعامها ولما انتشر خبر البشرى بانعام الدولة العلية علينا انتدب اعيان ملل دمشق لكتابة عرض محضر يشتمل على اداء الشكر وصالح الدعاء لحضرة سيدنا ومولانا امير المومنين وقدموه لدولة الوالي وهو رفعه للمقام العالي فحاز القبول ثم ابتدر المهاجرون الجزائريون الى المثول بين يدي الوالي وقدموا له شعائر العبودية مع عرض محضر التشكر والدعاء على نحو ما كتب اهل دمشق فاكرم وفادتهم واحسن مواجهتهم ولما استكشف امرنا ووقف على حقيقة صدقنا شملنا بانظاره واغنانا في نجاح مقاصدنا عن غيره فتغمده الله برحمته والحقه باهل جنته وادام ايام مولانا السلطان الاعظم والخاقان الافخم امير المومنين السلطان الغازي عبد الحميد خان الى آخر الدوران امين

ذكر رسائل التعازي والمراثي

لما وقع الامير في قبضة المرض · وعرض له من شدائده ما عرض · شاع امره · وبلغ الملوك واعيان العالم خبره · فلما انتقل الى سعة عفو الله نعيته بالاسلاك التلغرافية للذين كانوا يترقبون ما يبلغهم عنه فوردت عليّ منهم اجوبة التاسف والتعزية بالتلغراف وهي وان كانت متقاربة اللفظ والمعنى اقتضى المقام اثباتها بحروفها

فنص جواب الصدر الاعظم سعيد باشا

اخذت تلغرافكم بخصوص وفاة والدكم فاوجب لدى الحكومة السنية غاية الاسف فنعزيكم ونبلغكم ان تعطفات الحكومة السنية الجليلة ستدوم في حق عائلتكم كما كانت

« ونص جواب وكيل فراشة امير المومنين في الحجرة النبوية »
السيد احمد اسعد افندي

خبر وفاة السيد والدكم موجب للاسف العظيم اعزي العائلة واتوسل الى الله تعالى ان يلهمكم الصبر

ونص جواب الاستاذ الشيخ محمد ظافر المدني

المصاب جليل والصبر احمد نعزي كافة العائلة ونرجو لكم بلوغ المامول

« ونص جواب الاستاذ شيخ السجادة القادرية ونقيب الاشراف ببغداد »

السيد سلمان افندي

صبر جميل والله المستعان على ما جرى به القضاء بوفاة السيد الوالد الامجد المبرور فانها مصيبة اربت على جميع المصائب وحلت منازل الاشراف بجموع النوائب فجرت الدموع من العيون كالعيون انا لله وانا اليه راجعون احسن الله عزاكم ورحم والدكم ورزقكم الصبر وعظم لكم الاجر واقرَّ بكم عيون المجد وجعلكم كما نؤمل فيكم خير خلف لخير سلف

« ونص جواب الاستاذ شيخ السجادة الرفاعية ونقيب الاشراف بحلب »

اليسد ابي الهدى افندي الصيادي

اخذت تلغرافكم المعلن بارتحال والدكم الاكرم الى دار النعيم فطالعته بغاية الحزن واني ابتهل الى الله تعالى ان يحسن لذاتكم الهاشمية ولجميع العائلة العالية الصبر والثبات على هذا المصاب

ونص جواب رئيس الجمهورية الفرنساوية

ان الاخبار الاخيرة التي بلغتنا عن صحة الامير والدكم جعلتنا ننتظر النهاية المكدرة التي آلت اليها واخبرتمونا انتم بها الان بتلغرافكم فنحن مشتركون معكم في الكدر الملم بكم وفي حزن سائر العائلة فينبغي ان تصدقوا بما نحن عليه من الميل اليكم والاهتمام بكم كما اننا نعتمد على اخلاصكم

ونص جواب وزير خارجية فرنسا

علمت مع الاسف الكثير وفاة والدكم الشهير وفرنسا تشترك معكم في اظهار الحزن العمومي الذي احاط بالمسلمين والمسيحيين معاً اشكركم على التعريف بالواقع واعتبر علامات التعلق التي اظهرتموها كدين باسم فرنسا

ونص جواب سفير فرنسا في الاستانة العلية

انني اشترك معكم كل الاشتراك بالكدر الذي المَّ بكم وبالاحزان التي حاقت بعائلة

الامير عبد القادر الذي طالما سلك مع فرنسا بطريق الشرف واعد نفسي سعيداً بكوني اهديكم السلام كوارث واقدم لكم الشكر على ما اظهرتموه من علامات المودة لحكومة الجمهورية التى ساعرب لها عن ذلك واما صداقتي الشخصية فمحفوظة لكم

ونص جواب وزير خارجية انكلترا

وصلني تحريركم المخبر بوفاة الامير والدكم فاؤكد لحضرتكم ان هذا الخبر قد كدرني جداً وجعلني اشترك معكم ومع عائلتكم في هذه الخسارة ولي الشرف في هذا الاشتراك

ونص جواب وزير خارجية هولاندة

ورد عليَّ تحريركم الذي تفضلتم فيه بالافادة عن وفاة والدكم الامير الشهير فلذلك بادرت باشتراكي معكم في الحزن على مصاب والدكم العزيز واطلب لكم طول العمر والنجاح وارجو قبول احترامي لكم

ثم تواردت علينا مكاتب التعزية والمراثي من سائر الاقطار اثبتنا منها هنا ما وقع عليه اختيارنا اقتصاراً واختصاراً. فمنها مكتوب الوزير الشهير خير الدين باشا الصدر الاسبق. ونصه المقام العلي النسب. المرجو من هلاله ان يكون بدراً كاملاً في سماء المجد والحسب. السيد محمد باشا اكبر انجال الامير. سيدي عبد القادر الشهير افاض الله تعالى عليه الصبر الجميل

اما بعد السلام فقد احزننا النبأ العظيم الذي لا محيص عن تلقيه بالقبول والتسليم من ارتحال المرحوم السيد والدكم فيا له من خطب كدر النفوس والله تعالى المسؤل ان يجزل ثواب آله ومحبيه على فقده ويجعل عقد بنيه على احسن انتظام من بعده ودمتم كما رمتم والسلام

ومنها مكتوب المشير جميل باشا ابن نامق باشا ونصه . حقاً اقول انه قد دهمني تأثير عظيم. لما طرق سمعي خبر وقوع الامر السماوي الذي اجرى حكمه المحتوم في بيتكم العالي وقد حل في قلبي فملكه. وربط لساني فمنعه. وتاكدوا سعادتكم انني لست بمبالغ بهذا القول ومن ثم كان سكوتي حتى الان عن ايفاء سنة التعزية خلافاً للروابط القلبية هو امر غير اختياري وهو من جهة مطابق لقول ورد في الحكم لا وسيلة لزوال الغم عن القلوب. غير التزام الصمت عند شدة الكروب

وحيث كانت درجة اشتياق عاجزكم القلبي الى سراج مجلس الوحدة كما هو معلوم لدى سعادتكم فاتمنى ان تتفضلوا وتحكموا بانني صادق الجنان وبذلك اكون اول قائم بالتعزية التي اقصى آمالي بها الحصول على تسلية من قبلكم بسنتها وان تتيقنوا ان هذه الآمال هي التي كانت شاغلة من جهة اخرى ايضاً للبال فهذه لعمرك هي بواعث السكوت فانظروا سعادتكم كيف تأثيري وما فعل بفكري ووجداني ولقد علمت الان بوجوب تلقي حكم الله تعالى هـذا بالقبول والرضاء فانتبهت وتيقظت من غفلة تلك الدهشة المظلمة وقمت متفقدا مهام مأموريتي مبادرًا لاجراء مقتضيات الاخلاص غير ناظر الى كون الاتيان بذلك البحث يزيد في غمي وكدرى واني اختم قولي بالدعاء بوقاية آل بيتكم الكريم من كافة الاكدار وهم محفوفون بالعافية والسرور ما دامت تلك الروح المقدسة الراجعة الى ربهـا آمنة مطمئنة راضية مرضية متلذذة بالنعيم المقيم متنعمة بتجلي الجمال من المولى العظيم والارادة لحضرتكم افندم

ومنها مكتوب السيد اسعد افندي وكيل فراشة امير المؤمنين ونصه

بعد ازكى التسليم واسنى التكريم قد ورد لمحبكم ما كدر خاطره من وفاة علامة الاقران ونادرة الاوان من كان كالبحر لا تكدره المسائل ولا يزحزحه عن مرتبة الفضل قول قائل والله يعلم ما عندي من الاسف ولا ينفع الا التسليم لقضائه والرضا ببلائه والصبر على هذا المصاب الذي ملاء الفؤاد ارتياعاً وتطير له القلوب انصداعاً وهذه سبيل درج عليها الاول والاخر وقضية استوى فيها الضعيف والقادر وغير خاف جناب سيادتكم ان جوار الله خير من جواره وان الدار الاخرة خير من داره ثم بعد ثاني يوم وفاة المرحوم وصل تلغراف لولي النعم بوفاته وعند العرض عليه كنت حاضرًا وقرأ ولي النعم الخبر بانتقاله فحصل له غاية الاسف وبدأ بالدعاء له وقرأ الفاتحـة واهداها الى روحه الشريفة وبدأت اصف مناقبه الشريفة وهو يتحسر على فقـده وكذلك وصفت له سيادتكم والانجال الكرام فربنا يجعلكم خلفاً باقياً فاتحين موضعه ولا يغلق لكم باباً هذا ما لزم مع تبليغ سلامنا على اخوانكم الكرام فرداً فردًا وبلغوهم مني العزاء ولا زالت اياديكم الكرام مبذولة على الدوام ودمتم في عز وسرور وانعم حبور (ومنها) مكتوب ابن عمنا العلامة السيد الطيب بن المختار بعثه من محل اقامته في القطر الجزائري ونصه

هذا هو الرزء لا الرزء الذي غبرا فليتني كنت قبل اليوم تحت ثرا

هـذا يغم جميع الخلق قاطبةً   سيان من غاب منهم عنه او حضرا
انساني فقد امير المجد فقد اخي   محمد ومصابي جلَّ بل كبرا
لم تبقَ لي رغبة في العيش بعدك يا   فخر الملوك وختم السادة الكبرا
يا عين ابكي دمًا يا قلب مت كمدًا   يا لهف نفسي عليهِ سيد الامرا
فلو رأيت بنات العم سافحة   دمع العويل على صفح الخدود جرى
اما انا فعدوُّ الدين يرحمني   فسل خلي الحجى عن حالي كيف جرى
يحق لي قتل نفسي لو وجدت لهُ   وجهًا ويرحم ربي مسلما عذرا
فلا كمثلي في الايام من احدٍ   من اجل ذاك فقدت السمع والبصرا

جل الخطب وعظم المصاب. واستحكم الامر وتعددت الاسباب. فخرس اللسان وفارق مقره الجنان. وشل الذراع. وتبدلت الطباع. فالحال غير الحال وانا غير انا اشكو بثي وحزني الى الله. وحقيق على العبد ان يفزع الى مولاه. ربنا افرغ علينا صبرًا ولا تحرمنا مثوبة واجرًا اما بعد فيا سيدي ومولاي المقصور عليه بعد والده رجائي ومناي الامير الاسعد. والامام الامجد. سيدي محمد. ويا ثاني الاميرين واصغر الشقيقين. وقرب المحبين. واحب الاقربين. سيدي ومولاي محيي الدين. ويابنت عمي وعمتي. ونحل شقيقتي. المشهورة بالحنانة والمعروفة بالديانة والصيانة التي ما قصرت عن بلوغ درجة الرجال الكاملين. ولا وقفت دون غاية امهات المومنين. في معرفة الصواب وحسن السمت سيدتنا ومولاتنا الست ويا بقية الاولاد عمومًا من غير استثنا موالينا ذوي الالقاب الرفيعة. ولكنى اني والله لا اجد وجهًا لتعزيتكم ولا مساغًا لتسليتكم اذ لم يصب احد بمصابنا فنكون به نتعزى مع اشتراك المعزى اذ ذاك في المصيبة والمعزى فلا ادري اعزي نفسي ام اعزيكم اسليها ام اسليكم وان كان ففي من وبمن فانا لله وانا اليه راجعون كلمة يعتمد عليها اهل المصيبة العارفون نعم بكل اعتبار وعلى كل حال وان تعذر سبيل التعزية وضاق المجال نعزي خلافة مولانا الامير الكبير ونائبه في مراعاة الحقوق وحسن التدبير الامير الاوحد سيدي ومولاي محمد اسعد الله ايامه واعلى مقامه ونشر في سماء السيادة الاميرية بنوده واعلامه فليتعز سيدي بسيد الوجود في ايجاد كل موجود النبي العربي القائل من عظمت عليه مصيبته فليتذكر مصيبته بي فحبذا من تلقى قوله بالقبول واطاعه وقال لامره سمعًا وطاعة اعزيه وانا هذا اعزى وان كنت لا ارى من يتعزى ولا بمن اتعزى لعدم المثل واستحالة وجود الشكل ثم ارجع واقول

انا معزوك لا انا على ثقة   من الحياة ولكن سنة الدين

فلا المعزى بباق بعد ميته　　ولا المعزي وان عاشا الى حين

وينبغي ان يختم الكلام بما يناسب ان ينتظم في هذا النظام لنسبة المقام بالمقام بيتين توأمين عزى بهما بعض العرب المتقدمين والحكماء الاولين سيدنا عبدالله بن عباس وقد جلس للناس برسم التعزية وانفرد لهم بعليّة وهما

اصبر نكن بك صابرين فانما　　صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس صبرك بعده　　والله خير منك للعباس

وكان هذا العربي هو آخر الناس في تعزية ابن عباس فرجع اليه بهما فكره وقال والله ما عزاني احد غيره فعذراً سيدي فالحال لا يخفى عليك وما انا فيه غني انت فيه عن شرحه وكان اعتقادي انه ليس في الامكان وجود مصيبة تنسيني مصيبة اخي وشقيقي وانيسي ورفيقي حتى فاجأني خبر سيدي ومولاي شهد الله علم الله لو وجدت ان افديه بنفسي لفعلت والى الان فنرجو من الله ان يرزقك عنايته وان يورثك مقامه وان تكون لنا كما كان لنا ويديم عزك وعلاك ويحرس سناءك وسناك والسلام

ومنها مكتوب الفاضل الشيخ مصطفى الامام

ونصه الى حضور سيدي وفخري وابن سيدي وسندي ومولاي وذخري صاحب الشان السامي الشامخ والشرف الرفيع الباذخ الذي ذلت له الراسيات الشوامخ وزانت بمدائحهم الآيات البينات الرواسخ التي لا يرد على بنيانها ناسخ مشيد مباني اركان المكارم والمعالي المقدم في نتائج الفضائل وغيره التالي الامام الذي اقتدى به علماء الامصار واهتدى بعلومه الحيران من الاولياء والانصار واقتبس من مشكاة نوره خواص اولى الالباب والابصار احيا الله به معالم العلوم الدارسات فملكها والملك لمحيي الاموات كان رضى الله عنه بعيد مسافة العزم رابض الجاش شديد الحزم كما قيل لو شاهدته عيون النجوم جرت في التربيع سعداً او صافحته راحة الغمام امطرت كرماً ومجداً احاديث المكارم عنه تروى فتشفى بها المروءة على شدة ظمائها وتروى

والناس كلهم لسان واحد　　يتلو الثناء عليه والدنيا فم

له قدس سره في كل شرف فخر ملي وفي كل فضل ومجد قدم علي عرف عبير عطر عرفانه عطر المعمور وشرف شذا مسك نشر شمائله في الافاق مشهور بصوت صيت صداه طار باجنحة المدح والحمد في سائر الاقطار فكم سعي حاج لكعبة عرفانه من اولى البصائر وكم سعد في حرم حمايته من القى السمع وهو شهيد حاضر الضمائر حيثما اضاء

بطلوع طلعته نور الصباح وانفجر فتفجرت عيون الحقائق وفتح الفتاح فنادى معلم علوم عرفانه حيَّ على الفلاح فقامت اكابر العرفاء خلفه صفوفا صفوفا صنوفا وظلت اعاظم العلماء والفضلاء بسدته عكوفا وبينما هم في اطيب وقت واكمل حالة يتمتعون حسنه واحسانه وجماله نادى منادي العظمة والجلالة السلام عليكم يا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة هذا هازم اللذات الفانيات ومفرق الجماعات والباقيات الصالحات فلقد فرق جمعنا وافزعنا فراقه مع انه امن من الفزعات ولقد تكدر ذلك الصفا وعظم به والله المصاب وقلنا على الدنيا العفا

عظيم مصاب مقعد ومقيم ... له كدرٌ بين الضلوع مقيم
ونازح خطب حارب الصبر والكرى ... فاصبح كلٌ وهو عنه هزيم
وحكم اذل الفضل عند اعتزازه ... واوهى لركن الدين فهو سقيم
الا انما عين المعالى غضيضة ... وان فوءاد المكرمات كليم
اقامت على قبر الرضا عاطر الثرى ... سحابٌ ورضوانٌ فليس تريم
الى ان يعود القبر انضر روضةٍ ... بها النبت شتى يانعٌ وجميم

وحينما فاقت من سكرتها بعدما خنقت بعبرتها تذكرت بعدما تنكرت ووجدت فشهدت وانشدت

ما بال ايدي النائبات تخونُ ... وتديم رصف المجد وهو رصين
يا دهر لا عتبى عليك ولا رضى ... كل المصائب بعد ذاك تهون
تعد الورى البوءسى فتسرع صدقها ... واذا وعدت بما يسر تمين
لو كان يجدي النوح ميتاً قبله ... نفعاً لناحت اعصرٌ وقرون
يا واعظاً بسكونه حركاتنا ... ولأنت بالوعظ المفيد قمين
امسي ضجيع الرمس الاَّ انه ... في قلب كل موحد مدفون
حفتك رحمة ذى الجلال وعفوه ... وسقى ثرى جدث حواك هتون
وسرت محاسن ما صنعت حواملاً ... حسن الثناء يحثها التامين

ولما احس قلب المشتاق بعظيم الم المصاب وحرقة الفراق بعد ما صحا موجداً فصاح مفصحاً ومنشداً

لم اقض من يوم الفراق شؤني ... نقضيت ان لم اجر ماء شؤني
اجود بالنفس النفيسة فيهم ... واشح في شبني بدمع عيوني
ما للفوءاد يطيعني شغفاً بهم ... وعن التصبر عنهم يعصيني

وادرت طرف العين نحو ديارهم ... فقضت عليَّ بأنة وحنيني
وتنكرت بعد التعرف واغتدت ... كمثال شك لاح بعد يقين
فالعين تنكرها لفرط عفائها ... والقلب يعرفها محل العين
وسالتها عن جيرة كانوا بها ... زمناً ثووا في ربعها المسكون
فاستعجمت واجاب عنها حالها ... ولرب حال للجواب مبين
غربت بدور منازلي من افقها ... وغدت وراء الترب ذات كمون
وتقوضت مني قباب فضائلي ... لما انتهى للحي محيي الدين
مولاي عبد القادر الحبر الذي ... احيا العلوم وفات فخر الدين
نسل التهامي المصطفى ماحي الردى ... مردي العداة بسيفه المسنون
رب المعارف والعوارف تلك لا ... باغي العلوم وتلك للمسكين
بحر تدفق بالعلوم اذا طمت ... امواجه اغرقن كل سفين
ادب كمثل الروض رف نباته ... غب الحيا من وقع كل هتون
اسفي على من فض عقد نظامه ... فنثرت من عيني در جفوني
عبثت به ايدي المنون فقطعت ... اسلاك ذاك اللؤلؤ المكنون
حتى ثوى في الترب تحت صفائح ... فعلمت حقاً انه من طين
بكرت على جدث له وسمية ... ذات ارتجاس بالحيا ودجون
تزجى ركائبها حداة جنائب ... بسياط برق مع رعود لجون
فسقى اصول مكارم تحت الثرى ... بسقت لنا زمناً فروع غصون

قال تعالى لنبيه الصادق المامون انك ميت وانهم ميتون فانا لله وانا اليه راجعون تسليماً لمن له الخلق والامر فقد والله اشتد كربنا حتى اطار قلبنا وضاعف المنا وصبرًا على هذا المصاب الذي اعقب القلب حزناً مدى الاحقاب وانتم اهل بيت يتلقى امر الله بالتسليم ويلقى الخطوب الصارعة بقلب سليم ولولا ان التعزية سنة مشروعة وطريقة متبوعة لما اوردنا هذه المقالة ولا ابتدأناكم بهذه الحالة فلله الخلق والامر وليس علينا الا الصبر والاجر ونساله تعالى ان يجعلكم خلفاء بعده في كل فضيلة ومقام بجاه جدكم اكرم الرسل العظام ونسالكم ان لا تنسونا من مكاتباتكم فانا نرجو منكم ما كنا نرجوه من حضرة سيدنا وسيدكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته اهل البيت انه حميد مجيد هذا وارجو من شيم المكارم ان يكون كتابي هذا بالخصوص اليكم وغب ما تتلونه يكون منكم كرماً

وجوداً لجميع ابناء سيدنا وولي نعمتنا تقرؤنه على كافتهم وتقون عنى ببلوغ تعزيتي هذه اليهم باجمعهم وان يكن من المعلوم ان اللائق تخصيص كل منكم بكتاب ولكن قسماً برب الارباب اني كتبته والقلب في غاية الحزن والاكتئاب ودموع العيون تجري بانصباب وقسماً به تعالى من حينما سمعت هذا الخبر اصاب عيني شيء ما عهدته والى حد تاريخه أهو رمد او غيره ما عرفته فاسأله تعالى ان يتمم بالخير و يصرف عن عيوني هذا الضير انه القدير ودمتم

﴿ ومنها مكتوب العالم الفاضل الشيخ ابراهيم الاحدب ﴾

ونصه احمد من لا يحمد على المكروه سواه ولا يلجاء عند المصيبة بغير حماه واصلي واسلم على من عظمت بمصابه الرزية وعمت بفقده الارزاء عموم البرية وعلى آله الذين اشتدت بهم النوائب وصحبه الاولى اصابت بهم الاسلام سهام المصائب اما بعد فقد راع الخطب فؤاد المعالي وقرع الكرب هام العوالي واطلق العبرات وفجاء الانفس بالحسرات بفقد الامير الجليل والسيد الذي وجه عرفه جميل حامي حمى الاسلام وسيد من سما من ابناء سام غوث الطريد وخلف القصيد ومنتجع الآمال ومحط رحال الاقبال ومفزع من راعه زمانه وعدا عليه سلطانه ونابه نوائب الدهر وانصرف عن حاجاته عمرو المولى الذي اعتز جنابه واطردت كالرئع انسابه وطوقت كل انسان اياديه وغدت نحو كل طالب غواديه وطافت صلاته بعوائد لطائفه وتكر من الفقر من تعرف بطيب عوارفه سيدي المعروف وغوث كل ملهوف وحصن الدين الحصين ونقاب عصابة المسلمين من فقد بفقده الصلاح والورع وقرع كل هام مصابه وصدع فلقد اجرى عبرات الشؤن واوجب نزع دماء القلوب من العيون وزلزلت الارض بما صدم واسودت الدنيا بما من الظلام هجم وارتاعت الامة بما ناب من الاهوال والقى عليها من الهموم الثقال فشقت القلوب فضلاً عن شق الجيوب فكم قلب مملوك للاسى وعين جارية وتنس تسيل بنار في الاحشا وارية ولسان اعتقل من فرط العويل وسمع اصم بوقع هذا الخطب الجليل وهيهات ان تقوم جوارح انسان بواجب ندبه المشروع ومحمول رزئه الذي هو على كاهل كل شريف موضوع فانا لله وانا اليه راجعون هذا قضاء ماكان بعد النبي الاعظم مثله ولا يكون قد عظم به الامر ولا بقي من هوله حصن صبر ولولا التأسي بمعاليكم من بعده لذاب كل فؤاد من الاسى على فقده فانكم تحيون رسوم

المكارم وتنيرون من شهب انواركم المعالم وتعيدون ما اندرس بالمصائب وانطمس بصدقه النوائب فيتروّح الفقيد بارواح انسكم ويستفيء بانوار شمسكم جادت ايدي الغوادي ذلك الترب الطيب وانهل عليه من سحب الرحمة والرضوان كل صيب وحفظكم الله بالطافه الخفية ولا غمزت قناتكم من عوادي الدهر رزية والقى عليكم الصبر وضاعف لكم بهذا المصاب عظيم الاجر وجعلكم في امن من الاسواء وحصن حصين من طوارق الارزاء آمين

ومنها مكتوب الاديب السيد حسن افندي بيهم

ونصه بعد تقبيل اذيالكم نعرض انه لقد دهمنا الخبر الذي لم يبق بنا اثرا بعد عين ونعى لنا البين فقد ركن الملة والدين وعماد المسلمين وحامي حماهم ملجاء الفقراء وكهف اللائذين سيادة الوالد الذي سرى الى رحمة ربه ورضوانه فكان يوم وفاته علينا يوم المحشر ومصيبة الجميع بسيادته الهول الاكبر فقدت منا الحواس وهد ركن اصطبارنا وقوانا وشقت منا القلوب واسودت الدنيا في وجوهنا وهطلت الدماء من اعيننا فايفضت من الاحزان وكيف لا نبكي من كان للدين قواماً وللملة حامياً ولاهل الفضل والصلاح اماماً وكيف لا نحزن على غياب شمس الوجود والفضائل والكرم وحسن الشمائل عين الكمال وتاج الايام وسيد الخاص والعام وركن المجد وفخر الاسلام اي فلم يستطيع على وصف ما نابنا من الاسف الشديد والكدر الذي ما عليه من مزيد اي لسان وبيان يقدر على استيفاء ما خصه الله به من الكمالات واولاه من المكرمات انا عنه لقاصرون فوا مصيبتاه واسفاه على هذا الخطب الجسيم والمصاب العظيم انا لله وانا اليه راجعون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون وهذا شأن هذه الدار الفانية افرغ الله عليكم وعلى المسلمين الصبر الجميل واولاكم به الاجر الجزيل والله يجعله من المقربين ويسكنه في غرف الصادقين انه كان من عباده الصالحين وجزاؤهم عند ربهم مغفرة واجر عظيم وحفظ وجود سعادتكم خير خلف لخير سلف واطال للمسلمين بقاكم وبعين عنايته رعاكم آمين

« ومنها مكتوب الاديب الفاضل عباس افندي الايراني »

ونصه ايها الاميران الجليلان نيرا فلك النسب الشامخ المنيع وقمرا الحسب الباذخ الرفيع ادام الله مجدكما وبارك جدكما لقد كلّ لساني وعجزت قريحتي وجناني عن بيان ما

اصاب سلالة العترة الطاهرة خصوصاً والملة الباهرة عموماً لعمرك انها مصيبة تزعزعت منها اركان هذا الشعب المجيد وارتعدت منها فرائص الذين شغف قلوبهم حب ذلك المولى الجليل الفريد و تشتت شمل اهل التوحيد ونقطعت اكباد اهل التفريد والتجريد عندما سمعت منعاة ذلك الامير الوحيد فآه آه عما جرى من مبرم القضاء فضاق به الفضاء الا تلك مصيبة اضرمت نار الجوى في هذه الافئدة والاحشاء وقد اشتدت عواصف البلا وهاجت قواصف القضاء على شان استاصلت الشجرة التي اصلها ثابت في الارض وفرعها في السماء فناحت لها ورقاء البقاء على افنان سدرة المنتهى ويندبها المخلصون بالافق الاعلى فآه آه عما حل وصب وهوى ألا ألا تلك الرزية الكبرى والمصيبة العظمى قد ارتفع الضجيج وعم الصريخ والعويل واحترقت القلوب وضجت النفوس واضطرم الفؤاد وذابت الاكباد لما سمع صوت مناد ينعي سيد السادات فآه آه من هذه النازلة التي منها سالت السيول وفاضت الدموع عن اعين اهل الوفاء قد تزلزلت ارض السكون وانفطرت سماء الفنون وانكسفت شمس العلوم واكفهرت غيوم الهموم وانهمرت مياه الغموم وانطمست نجوم الشرق فتزعزعت به الاركان ووهن العظم من اهل العرفان فآه آه من هذه البلية التي انهدم منها امتن بنيان من الاسلام يا ابني رسول الله ويا انكما ان القلوب قد تأججت فيها الجمرات وتدفقت من الاجفان سيول العبرات والافئدة من هذه النازلة العمياء لفي حسرات ليت شعري أهذه رجفة الرجعى والواقعة العظمى والطامة الكبرى ام ماتم سليل آل الرسول ومنعاة ذرية قرة عين البتول فآه آه قد احاط ظلام الاحزان على شان ناحت القبائل وحنت وانت قلوب الافاضل بما انهدم من ركن الفضائل وانطوى سجل المجد ومنشور الشرق الباهر الذي اتى بخصائل الاوائل فوا اسفا وواحزنا على هذا الفقيد المجيد والركن الشديد والطود العظيم والعلم المبين وحيانكما يا ابني رسول الله لم تكن سلوة لمحبيكم في هذا الفزع الاكبر الا انكما ايها الفرعان الاعليان ترثان فضائل ذلك الاصل الصادع البارع الفريد وتثمران بما يفوح منه روائح نوافح خصائل ذلك الشهيد السعيد ونستعوض ما اقتطفت يد ريب المنون من ايادينا في هذا الكرب الشديد ونسال الله ان يؤيدكم بتوفيقاته الصمدانية على اقتفاء اثره وآثاره لانكم ورثة مجده وافنان دوحة جده وكواكب افق سعده

«ومنها مكتوب الاديب الشيخ طاهر السمعوني الجزائري وكان وقتئذ في بيروت»

ونصه السيد الذي هو لمجد الاسلاف وارث والسند الذي يتعلم منه الصبر عند اشد

الحوادث شريف الامراء وامير الاشراف مولانا وسيدنا محمد الشيم والاوصاف غب الدعاء ببقاء ظلك الوارق الذي يستظل به القاصي والداني ودوام عزك وحصولك على اقصى الاماني يعرض الداعي الذي لم يزل اليكم منسوباً وفي عداد الصادقين في خدمتكم محسوباً انه بلغه النبأ العظيم الذي اصم الاسماع واصمى القلوب وحكى حزن الناس وصبرهم فيه حزن يعقوب وصبر ايوب فضاقت عليه الارض وهو يسير في رحبها وودّ ان لو كان في قلبها وهذا امر يشركه فيه الوف الالوف ممن شملهم احسان ذلك القطب الذي سار فضله واحسانه مسير الشمس وصار اليهم احب من المال والاهل والنفس فلم يجد غير حزن القلب ودمع العين والتسليم لمن اختاره ليدنيه في جواره اعلى الحسنيين وقد سلاه ان ذاك القطب قد خلف بك من يقوم مقامه ويحيي مآثره وينشر اعلامه

تاسى بخير الخلق يا مفرد العلا ومن فضله لا يستطاع له حد
فان يكُ مولانا وسيدنا قضى فانك ماء الورد ان ذهب الورد

ومن مكاتيب المسيحيين ما كتبه

« حضرة البطرك الانطاكي الاسكندري ونصه »

لقد انسدل على آفاق هذه الاقطار المصرية الواسعة وشاح الحداد الذي التحقت به دمشق لا بل قد انبسط ذلك الثوب الاسود على جبال وبطاح الجزائر ومصر والشام فرنسا ايضاً لدى سماعهن السنة البرق تنادي بحلول الخطب الجسيم ونظرهن وجوه الجرائد على اختلاف اجناسها ولغاتها موشاة بشارات الحداد فقد من كان للجزائر ابنا واميرا خطيرا ولمصر كعبة احترام ووقار وللشام بركة ونعمة ولفرانسا حليفاً اميناً عاقدته منذ اعوام طوال ابدى الوقار والمسالمة اما الامة الاسلامية فقد خسرت به اماماً فاضلاً طاهر الذيل ومثالاً حبياً للبسيطة الدينية والامة العربية استاذاً كبيراً طالما تيمنت ببركة انفاسه واما الامة المسيحية فقد فقدت بشخصه الكريم ملاذا قوياً ودرعاً منيعاً تكسرت على شفاره لوف من السيوف كانت على حياتهم قاضية تذكر له سنة الستين وقلوبها تفيض بالمنة والشكر الجميل والسنتها تتندى بالثناء الرطب اما نحن ايها الامير الخطير فندع تابين الامير الفقيد رهينة اقلام الجرائد اذ لا طاقة لنا على استيفاء تعداد فضائله وكمالاته ونقتصر على ابلاغ سعادتكم ما الم بنا من الاسف العظيم على هذه الخسارة المرة وبواسطة سعادتكم ننقل الى أعضاء العائلة الحسنية الشريفة الحسب والمجيدة النسب

شعائر مشاركتنا لها في التأثر الشديد من حلول هذا المصاب العظيم الذي اذوى ارومة مجدها الاثيل ونقض رهص شرفها المجيد الحسيب ولقد كانت الآمال قد خابت لو لم تتعلق حبال الرجاء ببقاء من ورث عن الامير الفقيد محبة القوم واعتبارهم وثقة الامة واخلاصها اعنى به شخص سعادتكم الكريم الذي جمع شتات الفضل والكرم والنباهة والانس فكان محط الآمال والقيت اليه مقاليد الزعامة على العائلة الكريمة فكان ابهى خلف لابهى سلف نسأل الله الذي كسر القلوب بوفاة الامير المأسوف عليه ان يجبرها بدوام بقاء وحفظ وسعادة واقبال من شخصت عيون الآمال اليه ويصون لفيف العائلة الكريمة النبعتين خلفاء العزآء والفاء الهناء وهو تعالى خير مسئول

ومنها مكتوب الوجيه خليل افندي الخوري

«مدير البولتيك والمطبوعات في سوريا»

ونصه لقد شقت المرائر لا الجيوب وانكسرت الخواطر والقلوب للمصيبة العظمى والملمة الكبرى التي جرحت اكباد العباد ورفعت لوآء الحداد في كل ناد لفقد الهمام الاشهر والامير الابر السيد السند الذي ذاعت محامده بين الملل والامم وعجزت عن بيان اوصافه والطافه السنة القلم والدكم الجليل المرحوم الذي فجعنا به القدر المحتوم انها رزيئة يعظم فيها الاسف وتعم الاحزان ومصيبة تضيق بها الصدور في كل مكان فماذا آتيكما من التعازي والخطب اعظم: وماذا اقول لكما واللسان ابكم لكن ما اشتهر عنكما من الفضل والرشاد والحزم والسداد يسلي البال ويعلق الامال بانكما لا تلقيان بذاتيكما الكريمتين الى مهاوى الحزن والكدر فلا فائدة منهما سوى فرط الحرقة والضرر والتسليم لاحكام المولى هو في كل حال بكما اولى وايُّ سلوة لسعادتكما اعظم من اليقين بان فقيدنا الخطير انما انتقل الى فسيحات الجنان تغمده الله بالرحمة والرضوان وجعل عوضنا بطول عمركما وحفظ وجودكما فخرًا وذخرًا للجميع انه المجيب السميع والتمس عدم اخراجي من دائرة الخاطر الشريف مدى الزمن وفي كل حال لكم الامر والمن

ومنها مكتوب الوجيه نقولا افندي النقاش قال فيه

اما المعروض فالمقام يقتضي ان تفاض فيه العبرات وتصعد الزفرات وتفتت الاكباد وتلبس السواد [ويندب الفضل ويرثى الشرف ويبكى الكرم ويغمد السيف ويكدم

300

القلم ويعم الاسف ويلم اللهف على مأمن النفوس ووافي الديار وغرث المستجير وغيث الفقير ومعدن المكارم والعوارف ومخزن الفوائد والمعارف كل ذلك حزنًا وأسى على ذلك السيد السند الكبير الخطير الهمام المقدام الشهير المرحوم المبرور والدكم سيدي الامير عبد القادر اذ توفاه الله والناس راجية طول بقاه فكبر الخطب وجل المصاب وكان الخلق في الكآبة عليه سواء لشمول الخسار في كل الديار وعموم البلاء في ايّ الانحاء وما احد يجد من نفسه تجلدًا ولا صبرًا ولا يرى لعين لم ينض ماؤها عذرًا فكيف اتقدم لسادتي الامراء الفخام في هذا المقام . أبالتأبين والرثاء فهو يزيد في لظى الحزن والاسى ام بالتأسية والتعزية فهو اجلّ من ان يؤديها مثلي لمثلكم وعليه فلا يجدر بي الا موالاة الدعاء الى عزة الرحمن ان يتغمد هذا الفقيد المجيد بعزيز العفو والرضوان و يقيكم كل مكروه وحدثان و يلهمكم جميل الصبر وحسن العزاء معوضًا الامة بطول بقاكم ودوام علاكم ·

ومنها مكتوب الشاعر الاديب سليمان افندي صوله ونصه

دموعي لا يكفكفها العزاء تفيض وكل ديمتها دماء
على ملك عليه الارض ناحت وسرت حين حلّ بها السماء

سبحان من هذا المصاب على مراده والصلاة والسلام على خير عباده الذين اعتصموا بسره المكنون واذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اللهمّ انا نسألك بقلب منكسر و بدمع منحدر ونتوسل اليك بانبيائك المرسلين وملائكتك المقرّبين ان تسكب سحائب الرحمة والغفران على حضرة ساكن الجنان وليك الشاكر الصابر الامير عبد القادر وتروّح روحه كل حين بارواح عليين وتلاحظ اشباله الاماجد وامهم السيدة الطاهرة بعين عنايتك القادرة وتحفظهم من سائر الاسواء وتفرغ عليهم احسن العزاء انك اكرم الاكرمين وارحم الراحمين اللهمّ بلوتنا ونحن غرباء وامتحنتنا ونحن ضعفاء فأسبغ علينا الصبر الجميل وامدد علينا ظلال الظليل ببركة ذلك الفيل وانصر انصاره البهاليل الذين سلوا الحسام على اللئام وانقذوا عبادك في حادثة الشام هب اللهمّ لهم اجرًا غير ممنون والطف بهم يوم لا ينفع مال ولا بنونّ

آمين آمين لا ارضى بواحدة حتى اضيف اليها الف آمينا

غب تقبيل اذيالكم الطاهرة والسوءال عن صحتكم اعرض بهذا اليوم العبوس المعتم بالنحوس بلغني الخبر المشؤم المصحوب بالهموم والغموم فآه ثم آه اقبلت على

طائفة الشوام تعزيتي بالملك الهمام دموعها ذارفة والوانها كاسفة تقول انتقل النقل لرحمة الواحد الازل اميرنا الامير الطاهر السيد الحسني عبد القادر فيا لها من ساعة مريعة واخبارية فظيعة تخددت بها الخدود وتشققت القلوب قبل الجيوب وقامت بها مناحة مصر على ابن يعقوب سيدي كيف اعزيك وعمن اسليك افل القمر الباهر وغاض البحر الزاخر وماد طود الاطواد وغيظ الحساد العالم العامل والمولى الكامل فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

يا بهجة العيش ما للعيش بعدك من　　طعم اليه لذيذ العيش ينتسب

بيد ان من التجأ الى الله كفاه وخفف عناه فقد اصيب الناس بخير المرسلين وخاتم النبيين والتجأت لرب العالمين فجبر الله تلك الصدعة وسكن تلك الدمعة وكان الله الخلف عليهم من بعده ومعرفتي الاكيدة بالمعيتك الفريدة تبشرني باتجائك اليه واتكالك عليه وبانه تبارك وتعالى سيكفيك ويغنيك ويجعلك خير خلف لخير سلف فحقق يا مولاي ظني بصبرك الجميل وفضلك الجزيل واقبل تعزيتي المختصرة فقد خنقتني والله العبرة واولادي ينوحون حولي نواح المقلات ويخمشون الجباه والوجنات ويقولون من خلف مثلك ما مات

فصرت اراه باقياً وهو ميت　　وكنت اراه حاضراً وهو غائب

ومثلك ياموﻻي ﻻ يحتاج الى وصية ولكن عملاً بقوله تعالى فذكر ان نفعت الذكرى واقبلني عبداً لك كما كنت عبداً امينا لسيدي ابيك المرحوم والرجا ان تنوب عني وعن عبيدكم اولادي وابنتي وعائلتي بتقديم التعازي لحضرة السيدة الطاهرة والدتكم ذات العصمة ولحضرة اسيادي اخوانكم المحترمين ومن يلوذ بالمقام الشريف وتشرفوني بخدمكم الجليلة عوضنا الله سلامتكم الغالية وجمل عزاءكم واهلك اعداءكم امين

ورثاه قدس الله سره جماعة من ادباء العصر وشعرائه

فمنهم السيد محمد بن محمد المبارك الجزائري

فانه رثاه برسالة فائقة سماها لوعة الضمائر ودمعة النواظر في رثاء الامير عبد القادر . ونصها

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من تفرد بالبقاء . وكتب على ما سواه الفناء . وانزل على امام اهل

العرفان . قوله تعالى كل من عليها فان صلى الله عليه وسلم . وعلى من فوّض امره اليه وسلم وبعد فلما قضى القادر وحكم . بوفاة عبده السيد العلم . مولانا الامير . والقطب الشهير . وواسطة عقد السياده . وعين ينبوع السعادة . سيدنا عبد القادر ابن سيدنا محيي الدين عزيت بفقده شعائر الاسلام والدين . ولبس المجد ثياب الحداد وصالت الخطوب باسنة السنة حداد . وخلعت الاكوان ملابس الانس . حزنا على من بكته الجن والانس . واكفهرّت وجوه الوجود . لافول بدر الكمال ونجم السعود والشمس يومئذ كليلة الطرف كاسفة المحيا . والعالم في ذهول كئما احتست صرف المحيا وكان يوماً اطول من ظل القناه . واحر من دمع المقلاه

فلم ار يوماً كان اشبه ساعة ... بيوم من اليوم الذي فيه ودّعا
مصيف افاض الحزن فيه جداولاً ... من الدمع حتى خلته عاد مربعا
ووالله لا تقضي العيون الذي له ... عليها ولو صارت من الدمع ادمعا

وعندما قضى نحبه . وفارق آله وصحبه . عز العزاء . وضاق رحب الفضاء . واصم الصائح بنعيه الاسماع . وزهّد في الحياة الآمال والاطماع

الا في سبيل الله مهجة ماجد ... يشاركنا في ندبه المجد والفخر
كريم افاد الدهر منه خلائقاً ... فايامه منه محجلة غرُّ
يروع جيوش الحادثات يراعه ... ويثني الاعادي قبل اسيافه الذعر

فآه ثم آه لفقد الحليم الاواه لقد انقض ركن الشرق والغرب لجل الخطب وعظم الكرب فيا لها من مصيبة بسهامها للقلوب مصيبة قد اطارت النفوس شعاعاً وارعدت الفرائص ارتياعاً

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة ... ووحدة من فيها لفرقة واحد
لان هي اهدت للاقارب لوعة ... لقد عفرت تربا خدود الاباعد
فما جابت الدنيا بسهل ولا الضحى ... بطلق ولا ماء الحياة ببارد

وليس احد الا تنجع لفقده وتكدر عليه صفو ورده الا جاهل بمقامه المحمود او حاسد وكل ذي نعمة محسود حيث كان رحمة لكل امة وهل يسمح الزمان بمثله بعد امه

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... ان الزمان بمثله لبخيل

فوا اسفاه على بدر هوى من رفيع الذرى وقد كانت تهتدي بسناه كل الورى وواحسرتاه على فقد من هو بغية الآمال . ثمال اليتامى عصمة للارامل

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حرٍّ يموت لموته خلق كثير

فاعظم به من مصاب به ترادفت الاحزان والاوصاب . جدير ان تسكب فيه العبرات وتذهب النفس عليه حسرات وكيف لا يندب الندب على هذا الكريم الندب وهو بهجة العالم وبضعة سيد ولد آدم

فتى كان كالتوريد في وجنة العلا وكالعقد حسنا في نحور المراتب

فلا انطبقت عين العلى بعد فقده ولا ابتسم الهندي في كف ضارب

وقد شيعه خلق لا يحصى عديدهم ولا ينادى وليدهم تشهد الكل من فرط الدهشة حيارى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى يموج بعضهم يومئذ في بعض كانهم فوجئوا بهول يوم العرض ولهم زجل بذكر الله ترتج منه الارض فمنهم من اوشك ان تخنقه العبرة تالياً آية ان في ذلك لعبرة ومنهم من توالت زفراته وتواصلت تلهفاته وحسراته ومنهم من كاد يتميز من الغيظ ويذوب من حرّ جوى اشد من نار القيظ ومنهم من تفطر قلبه وغاب رشده وذهل لبه ومنهم من تجرّع كاس الصبر فاحرز بذلك اعظم حسنة متمثلاً بآية لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة وهم يناجونه يا ابا الامراء يا كافل الايتام وكافي الفقراء لقد فجعنا بك الدهر وسطا علينا بصوارم القهر فصبر جميل وحسبنا الله ونعم الوكيل وهجيرهم في معاناة هاتيك الشجون انا لله وانا اليه راجعون وكلهم يتمنون فداءه بالنفوس والآباء لو كان القضاء يقبل منهم الفداء

يا بهجة العيش ما للعيش بعدك من طعم اليه لذيذ العيش ينتسب

فاليوم انفسنا للدهر آمنة اذ ليس بعدك خطب منه ترتقب

فاذهب عليك سلام الله من ملك ما بعد مفقده رعب ولا رهب

وقد احاطت بجنازته طوائف البشر احاطة الهالة بالقمر والاكمام بالثمر محفوفة بالملائكة الاخيار وارواح المقربين الابرار وهي ترفرف على الرؤس وتتبختر ولا تبختر عروس وقد لاح عليها من انوار الجلالة ما كشف عن عين المشاهد عين الاغيار وجلاله يكاد سناها يتخطف الابصار ويدهش الباب ارباب الاستبصار تتبادر حملها الخلائق لتلقي عن ظهرها اعباء الذنوب وقد شقت من شدة الاسف عليه جيوب القلوب ولا جرم انها لو وضعت عن اعناق الانام لتولت حملها الارواح العلوية والملائكة الكرام فهي التابوت المشتمل على السكينة والسر المجد وفيه بقية مما ترك آل محمد وتلك آية ملكه في الدار الآخرة دون مين فهنيئاً له بخاتمة الحسنى وسعادة الدارين

يا دهر بع رتب المعالي بعده　　بيع الكساد ربحت ام لم تربح
قدم وأخر من تشاء من الورى　　مات الذي قد كنت منه تسنحي

ودفن مع استاذه الشيخ الاكبر ففاز برحمة ورضوان من الله اكبر في روضة ذات روح وريحان يشهد الجنان انها من رياض الجنان ولا غرو ان دعاه الى حسن جواره رجب الاصب لاشارة الحديث الشريف المرء مع من احب وفيه تنبيه على انهما من طينة واحدة فلهذا كان يقتفي آثاره ويتعهد معاهده وما زال يغترف من بحر فتوحاته ويقتبس من مشكاة تجلياته ويتحقق بنصوص فصوص حكمه ويتخلق بحسن اخلاقه وشيمه حتى حكاه في القول والفعل وسار على قدمه حذو النعل بالنعل فشيد اركان الشريعة والطريقة فهو محيي الدين في الحقيقة كان قدس الله سره العزيز يعرب عن دقائق المعاني بلفظ وجيز وله في فن التصوف المقام الشامخ والباع الطويل والقدم الراسخ ومواقفه الكريمة اعدل شاهد بكمال ذوقه في تلك المواقف والمشاهد على انه احرز قصب السبق في سائر الفنون وجمع ما تفرّق في غيره من حسن الاوصاف وبديع الشؤون

وليس على الله بمستنكر　　ان يجمع العالم في واحد

زان العلم بصالح العمل وجرى صيته في الورى جري المثل وانفرد بحسن السيرة وصفاء الطوية والسريرة حتى اعترفت له اعداؤه بجميل الثناء ولا ريب ان الفضل ما شهدت به الاعداء

فتى دهره شطران فيما ينوبه　　ففي بأسه شطر وفي جوده شطرُ
فلا من بغاة الخير في عينه قذى　　ولا من زئير الحرب في اذنه وقرُ

دأبه قضاء حوائج الخلق واصلاح ذات البين وجبر الخواطر بما تقرّ به العين وهمه اقامة الصلاة وحضور الجماعة وذكر الله جلّ جلاله في كل ساعة تكاد احاديثه تندرج في حديث خير الانام وكيف لا وكلام الامير امير الكلام ولا بدع في ذلك عند كل نبيل نبيه فان الفرع يزكو بطيب الاصل والولد سر ابيه وكان في الندا والسماحة رحب الصدر والساحة يرتاح الى الوافد والوارد ارتياح الظمآن الى عذب الموارد ويسد جزيل الفضل وجميل القرى فيقول لسان حاله ٠ كل الصيد في جوف الفرا ٠ وكم استوهب الذهب فلم يهب ان يهب صلاته تعم القريب والغريب ويصيب المرء منه اوفر نصيب بيد انها كانت لوجه الله وابتغاء رضوانه ودار علاه ٠

لقد علمته غاية الزهد نفسه　　فاصبح حتى في الحياة له زهد

ولم ارَ بدرًا قبله حازه الثرى ولم ارَ بحرًا قبله ضمه لحدُ

وكان في الحماسة اسد الله ورسوله يجاهد في الله و يقاتل في سبيله وله وقائع دونها شرط الحدّاد وخرط القتاد قد سارت باحاديثها الركبان وعثر عليها كل قاص ودان وهل ينسى ما اسلفه في الجزائر حفظًا للرعايا وصونًا للحرائر من فتكاته العديدة وسطوته الشديدة

اذا شب نارًا اقعدت كل قائم وقام لها من خوفه كل قاعد

يقدم على الجيش العرمرم بنفسه فيشتت شمل انسه ويحله في رمسه و يدهش الالباب بو ثباته عند النزال وثباته في كل معركة ومجال فهو الليث الغضنفر وحسامه الموت الاحمر

كان للاعداء ذلا وبوسًا ولراجي الجود عزا ومالا

كان وبلا للعفاة هتونًا ولاحزاب العداة وبالا

كان للناس جميعًا كفيلاً فكأن الخلق كانوا عيالا

وانىّ لذوى الافهام درك غاية هذا السيد الهمام وهو وحيد دهره وفريد عصره قد منحه الله مكارم الاخلاق فعز وجوده في الامة على الاطلاق

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبًا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يجر والبحر لو عذبا

وهل تبلى ما ثره او تندرس مفاخره وقد قلد اجياد الزمان قلائد منن تفوق عقود الجمان

ينبي المواقف عنه انهُ سندٌ ويخبر الروع عنه انه بطل

يعطي فيجزل او يدعى فينزل او يوءتى لمحمل اعباء فيحتمل

اضحى لنا بدلاً منه بنوه بهِ والشبل من ليثه اما مضى بدل

على انه ما مات من بقي ذكره وظهر في اشباله كماله وسرّه فهم سادة كرام وقادة عظام تخالهم لدى الوغى اسودًا كاسرة وتحسبهم عند الندى بحورًا زاخرة

اذا حل منهم واحد في قبيلة يشار اليه انه العلم الفرد

ولا سيما واسطة ذلك العقد وصاحب الحل والعقد سعادة الامير الاعظم السيد محمد باشا الانجم من آذنت اخلاقه الشريفة بانه خير خليفة وهل ينكر ذلك لا ذو جهل او حسد أليس هذا الشبل من ذلك الاسد

بلى وابي ان الامير محمدًا لقطب الرحى مصباح تلك المشاهد

حمدت الليالي اذ حمت لي جنابه وانت لهذا الفضل منها بجاحد

جعل الله الجميع لخير خلف ووفقهم لاتباع سنة من سلف واقرّ بوجودهم عين

الوجود واجرى بهم عين الكرم والجود ما بزغت الشمس ولاح القمر وناح الحمام في السحر على افنان الشجر فقال من ارقه البين وألم موءرخاً وفاة فقيد العالم ·

سار الامير الفرد عبد القادر الا ... حسنيُّ اثر محمد والآل
اضحى نزيل الحاتمي اخي الندى ... حباهما صوب الحيا المتوالى
فرثاه حسن ثنائه بين الورى ... وغدا يوءرخ غاب بدر كمال

نفثة الوجد والغرام في تعزية آله الكرام

الصبر اجدر في الخطوب واليق ... والحزم اوفق بالنفوس وارفق
والحر يابى ان يميل مع الهوى ... وبغير تقوى الله لا يتعلق
والعيش ظل زائل في صفوه ... كدر فلا يغررك منه رونق
ما المرء في الدنيا سوى هدف غدا ... بسهام انواع الرزايا يرشق
يلهو بآمال كبرق خلّب ... وسراب قاع ماؤه يترقرق
بينا يعلل بالاماني نفسه ... اذ بات منه الشمل وهو ممزق
ما فاز بالحسنى سوى عبد له ... قلب بمولاه الكريم تعلق
ما زال مشتاقاً الى راح اللقا ... حتى ادير عليه وهو معتق
ذاك الامير الفرد قطب زمانه ... من في العلى آثاره لا تلحق
لبى نداء الحق مرتاحاً الى ... روح وريحان شذاه يعبق
قد حل عند الحاتمي اشارة ... لوراثة اضحى بها يتحقق
فهو ابن محيي الدين طاب ثراهما ... وسقاه صيب رحمة يتدفق
جمعت شمائله من الاوصاف ما ... هو بين ارباب العلى متفرق
وله مواقف كالمثاني ذكرها ... ابداً على طول المدى لا يخلق
ولحكمة العدل المبين سما به الا ... غرب المبارك واستضاء المشرق
ولطالما قد طاولت بكماله ... كل البلاد ومن عليها حلق
مذ غاب عن عيني تخلل مهجتي ... فرط الاسى والروح كادت تزهق
يا ليتني كنت الفداء له وهل ... من بعده تحلو الحياة وتعشق
صبر جميل يا فوءاد فانه ... سهمٌ على كل الانام مفوّق
هو في سبيل الله افنى نفسه ... لمشاهد منها المشاهد يعمق
او ما علمت على اليقين بانه ... في الغيب عند الله حيٌّ يرزق

هذا وان عدنا بوحشة فقده والقلب كاد من الجوى يتمزق
فالسر في اشباله ووجودهم حصنٌ لنا من كل خطب يطرق
ما مات من ابقى وخلف سادة بثنائهم جيد الزمان مطوق
عقدوا على حسن الاخوة جمعهم فغدا الحسود بناره يتحرق
برعاية الشهم الهمام محمد لهمُ بعينٍ بالعناية يرمق
مولى به ركن الامارة راسخٌ وعليه رايات المعالي تخفق
يا معشر الامراء لابرحت بكم سحب المكارم والمراحم تغدق
وبمجدكم وجلالكم لا زالت الا أحباب تفرح والاعادي تفرق

ومنهم الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي ونص مرثيته

أصمّ نداء الخطب للمجد مسمعًا وراع المعالي والعوالى بما نعى
وهدّ منار العز نفح سمومه وما صدّ عن هام العلى حين صدعا
تداعى له ركن الفخار وقد هوى بهِ كوكب العلياء هولاً بما دعا
فلا كان يوم السبت يوم مصائبٍ فقد جاء ظهرًا فيه للنجم مطلعا
وقد راع اصحاب العبا وقع حادث بفقد امام جلّ في الكون موقعا
والوى بعبد القادر الدهر عاديًا على قدر ما ساءَ الكرام وروّعا
قضى نجل محيي الدين سيد من سما فسال عليه القلب مما تفجعا
قضى من اياديه قلائد أنعم فكم عقد احسان بها قد ترصعا
قضى من يرجّى للندى والعلى ومن ترجى الاماني والمعالي به معا
قضى من له الملهوف يفزع لائذًا اذا لم يجد من حادث الدهر مفزعا
قضى من يرد الخطب صدمة بأسه ويأمن في عليائه من تدرّعا
همام قضى نحبًا وقد كان في الورى من الغيث اروى او من الليث اروعا
عليه ثناء القوم اضحى بندبه من الصبح اضوى او من الليث اضرعا
فكل فؤادٍ قد اصيب بخطبه فراح عليه بالاسا متفجعا
وضوح روض الفضل بالجدب سنة وقد كان من جدواه بالخصب امرعا
لقد زلزلت ارض المكارم والندى وبيت العلى مما المّ تزعزعا
ودوحة مجد راعها عاصف الردى وهبت بها النكبا سمومًا وزعزعا
واخرس السن القوم هول مصابه وانطق بالحزن الجماد وفجعا

كما رجب الشهر الاصم بوقعه له فتق الحزن المبرح مسمعا
اهاج عويل القوم فيه بلابلاً وطوق بالنوح الحمام المرجعا
على مثله شق القلوب من الاسى يرى فرض عين ان همت فيه مدمعا
من الغرب وافى الشرق يحيي ربوعه فاشرقه بالغرب ما فاض ادمعا
وفي الشام قداضحى نزيلاً فزاحمت به مطلع النيرين والقطب موضعا
مناقبه تعيا المناقب بعدها وان اظهرت ما كان منها مبرقعا
تاصل نيل العز في باب جاهه ومنه باقطار البلاد تفرعا
وقد كان للراجي به الانس والهنا اذا اوحش الدهر الاريب وضيعا
فاغلق باب الشعر مصرع خطبه بمدح فلم يفتح لراجيه مصرعا
واسبابه قد قطعتها يد النوى واعجب الاسباب ان تنقطعا
وكان لشعري من صلات جميله عوائد فيها كان بالجود مبدعا
فاوجب فرض الندب نظم رثائه لما كان بالاحسان فضلاً تطوعا
فها انا ارثيه واندب عهده وارعى اياديه اذا قلّ من رعا
وكنت اهني النفس صوغ الهنا به فاصبحت ابدي بالرثاء تفجعا
فوا أسفي قد سار عنا مخلفاً نوائب نابت كل قلب تمزعا
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما عنت لمعاليه العريقة خضعا
فيا ويحهم ساروا بطود فضائل به كل قلب من جواه تصدّعا
يشيعه الفضل الذي شاع صيته وعزّ علينا ان يكون مشيعا
يشيعه بالفقه مذهب مالكٍ فقد كان بالرضوان منه تمتعا
يشيعه سيفٌ صقيلٌ جلا الصدى به اذ تروى من دم النحر مكرعا
يشيعه الرمح الاصم اذا غدا بطعنه من ضلّ للحق مسمعا
يشيعه متن الجواد الذي سرى به لم يدع في السبق للقوم مطمعا
يشيعه بيت من الشعر بعده غدا بنواحٍ في النواحي تخلعا
يشيعه المجد التليد وطارف على هامة الشعرى سناه ترفعا
يشيعه العرف الذي طاب عرفه بانفاسه المسك الفتيق تضوعا
يشيعه من حادث الدهر ضارع لفقد علاه كان بالخطب أضرعا
يشيعه بالطبع انات واله بآدابه الغر الحسان تطبعا
عفاء على الدنيا بفقد جنابه فقد كان فيها سيد الكون اجمعا

فقدنا اماماً كان من شهب رأيه ... ثواقب لاحت في سما الدين طلعا
فيا راحل ابقى علينا مصابه ... رزايا لها رضوى وهى وتضعضعا
سريت الى دار البقاء من الفنا ... فكنت بجنات النعيم ممتعا
يناديك من قد ضاق ذرعاً وطالما ... مددت له كفاً من اللوح واسعا
تواضعت للراجي بنفس هنيةٍ ... وما كان صنع العرف منك تصنعا
ودست على كعب بنعلك في الندى ... فاصبح معنى الجود لفظاً مصنعا
فكيف يوفي ندب فضلك شاعرٌ ... اليك برفض المعتدين تشيعا
واني لارجو الفوز بالخلد في غدٍ ... بحبك اذ ادعو مجيباً مشفعا
بنى حسن انتم مصابيح دهرنا ... ومنكم جميع الخير فينا توزعا
محبتكم فرضٌ وعقد ولائكم ... يرى وصلة عند الاله ومرجعا
لذاك ترى ان لا غلوّ بما به ... نصوغ لكم عقد الرثاء مرصعا
فسر في جنان الخلد ريان بالتقى ... لديك جنى الاحسان بالعفو اينعا
ويا كوكبي فضل انار سناهما ... لفقد سناء البدر بالبين اربعا
بكم قد تاسينا وان عظم الاسا ... وجرع كلا خطبكم ما تجرعا
فمحمد في صنع الجميل محمداً ... ونجي بحيي الدين قلباً مروّعا
هما قمرا مجدٍ وفضل وسوءددٍ ... وعلم وجودٍ نحو طالبه سعى
فلا غمرت ايدي الخطوب قناهما ... ولا مدت الندباء للقصر اصبعا
ولا راعت الارزاء انجال سيدٍ ... يلبون داعي الخير من قبل مادعا
ويحيون للعليا معالم بعده ... وكلٌ الى المعروف تلقاه مسرعا
وبيت قصيد المجد لا اختل وزنه ... ودام لاقمار الفضائل مطلعا
وحسبي ان ادعو باخلاص نيةٍ ... لدى سيد من عبده يقبل الدعا

ومنهم الشيخ طاهر السمعوني الجزائري فانه قال

هذه مرثية فيمن شهد اهل الغرب والشرق بفضله • وعقم الزمان عن ان ياتي بمثله • الامير الجليل مولانا عبد القادر الجزائري • كان له من زلال رضوان مولاه الكريم يوم الجزا ري

خطب جسيم عم بالاكدار ... ما بعده لسواه من مقدار
لو يعتري صم الجبال لاصبحت ... دكاً تذر مثل نثر غبار
ولو اعترى نوع النبات لما نما ... ولصار مثل الترب والاحجار

ولو اعترى الشمس المنيرة اظلمت　　وغدا الانام بغير ضوء نهار
ولو اعترى زهر النجوم تقضضت　　ونحا بديع نظامها لنثار
ولو اعترى البحر المحيط تطايرت　　اجزاؤه وتحولت لبحار
ولو اعترى الفلك المدار لعطلت　　حركاته ولصار غير مدار
خطب تبدلت الدموع به دماً　　تجري كغيث هاطل مدرار
وغدت به الاكباد وهي كايمة　　حراء حامية كجذوة نار
صعقت جميع الناس فيه كأنهم　　في طورسينا اذ تجلى الباري
ويحق ذاك وكيف لا والترب قد　　وارى امام السادة الاخيار
مهديُّ هذا العصر وسطى عقده　　بحر الحقائق كاشف الاسرار
الغوث عبد القادر السامي الذرى　　شمس الهداية مظهر الانوار
مولى مناقبه تجل وتعتلي　　عن عهدها كالقطر في الامطار
واحسرتا للمعتفين فانهم　　من بعده في خيبة وخسار
ذهب الذي قد كان يجبر كسرهم　　ويثيب يمناهم اجل يسار
يعطيهم الآلاف معتذراً لهم　　طلق المحيا بادي الاسفار
واحسرتا للائذين فانهم　　من بعده في ضيعة وصغار
ذهب الذي يحميهم ويقيهم　　ويذود عنهم اعظم الاخطار
ويفلُّ عنهم عضب كل ملمةٍ　　فتراهم كالطير في الاوكار
واحسرتا للطالبين فانهم　　من بعده صاروا بغير منار
ذهب الذي يجلو الغوامض عنهم　　من بعد ما اعيت على الافكار
ويحلُّ كل دقيقة معتاصة　　بادلة يسكتن كل مماري
واحسرتا لليل من ذا بعده　　يحييه بالطاعات والاذكار
وينير طرته بابهى غرةٍ　　تربى محاسنها على الاقمار
ذهب الذي قد كان براً عابداً　　مستغفراً لله في الاسحار
لهفي على الفقراء من ذا بعده　　ينجيهم من مخلب الاعسار
ويرد ناب البوءس عنهم تائباً　　وينيل ما راموا من الاوطار
لهفي على الايتام ماذا بعده　　يلقون من ضيق ومن اقتار
ذهب الذي قد كان خير اب لهم　　يوليهم فيض الندى المدرار
لهفي على الادباء من ذا بعده　　يلقونه ببدائع الاشعار

ذهب الذي قد كان يغلي سعرها ... ويجيز بيت الشعر بالدينار
صبرًا على هذا المصاب وان يكن ... زند الاسى والحزن فيه واري
فالله قد وعد الصبور مثوبة ... وجزيل انعام بدار قرار
لو كان في الموت الفداء فداه كل ... سميذع ندب من الاحرار
لكنه امرٌ على كل الورى ... متحتمٌ في سابق الاقدار
والموت عند ذوي البصائر نعمة ... عظمى لارباب التقى الابرار
ارواحهم ترقى الى اعلى العلى ... من بعده وتحل اكرم دار
حيَّ الكريم البر روحك بالرضا ... واثابها منه بخير جوار
وادام طيب ثراك فضلاً انه ... يسمو بنفحته على الازهار
وانار قبرك مثل قلبك انه ... يوفي على الافلاك في الانوار
واقر اعيننا القريحة بالبكا ... ببقا بنيك الكمل الاخيار
لا سيما المولى الهمام ومن غدا ... في حلبة العليا بغير مباري
السيد السند الامير محمدٌ ... كنز الفضائل معدن الاسرار
وانا لهم خير الاماني انهم ... محيوا مآثر ذلك المختار

ومنهم الاديب حسن افندي بيهم البيروتي فقال

باي جناح سامنا صرفه الدهر ... ام الدهر خب من خلائقه الغدر
وعن حسد ما نابنا من خطوبه ... وما نابنا الاَّ الخديعة والمكر
هو الدهر لم يحسن لمن كان قبلنا ... ولا يرتجى خير الندى طبعه الشر
يمد لنا بالنائبات اكفه ... اليس لهذا المد عن مسنا جزر
ويبغي ولا يبغي البقاء لغيره ... ولا بد يومًا ان يذوق الردى الدهر
ويحسدنا في كل شهم سميذع ... ولا عجب اذ كان في طبعه كبر
فليس من الحزم الوثوق بعهده ... فما عهده الا الخلابة والخفر
لقد زادنا طعنًا فادمى قلوبنا ... وقابلنا بالكسر فامتنع الجبر
واورثها ريب المنون مصيبة ... لها ارتجت الافلاك وانقضت الزهر
لها الارض مادت والجبال تزلزلت ... لها صعق الاخيار قد قضى الامر
بها جاء ناعي البرق يرعد قلبنا ... فامطرت الآماق ما ضمه الصدر
عشية عين الغرب حجب نورها ... دجى الشرق حتى لا يخال له فجر

مصاب به العلياء تبكي اميرها ... وكل امرء من ذا المصاب به شطر
اجل مات عبد القادر الحسني من ... به سادت السادات وافتخر الفخر
هو الجوهر الفرد الذي فيه ضمنت ... خلاصة روح الفخر والشيم الغر
امام هدى الله الانام بهديه ... ولي ولكن ما لاسراره حصر
افاض على الارواح نوراً به سرت ... الى العالم القدسي يحملها السر
قضى العمر شغلاً لم يذق طعم راحة ... وما شغله الا التفكر والذكر
وقام بامر الله حق قيامه ... فعز به عرف وذلّ به نكر
يراقب وجه الله في كل حالة ... وما للهوى نهي عليه ولا امر
غدا في جوار الله اكرم نازل ... وبين ملوك الارض كان له الصدر
وكان اذا ما قال فالفصل قوله ... ومن شعره الشعرى ومن نثره الدر
به ملتقى البحرين للعلم والندى ... ففي صدره بحر وفي كفه بحر
وكانت اياديه ولا منّ بعدها ... مناهل جود ليس يسبقها نهر
فمن لضعاف الناس يحمى ذمارهم ... ومن لهم ذخر اذا بعده اضطروا
فباليمن يمناه تفيض كرامةً ... ويسراه عن سحب اليسارة تفتر
فغيث اذا جدب المّ وفيصل ... اذا اشتبكت حرب وحم لها جمر
فكم خاضها يروي الاوام بوردها ... بكر وللاعمار من كره فر
وان اعمل الصمصام انشد وقعه ... لنا الصدر دون العالمين او القبر
وان شق قلب الحرب يوم كريهة ... يري الموت طوعاً او يرافقه النصر
شديد مراس زانه حلم قدرة ... هو الحر لا يلوي وان مسه الضر
يلاقي عناد الدهر ثبتا جنانه ... وان ناب ضيم لا يزاح له ستر
ويلثم ثغر العز من جمرة الوغى ... مرابط ثغركم له ابتسم الثغر
سل الغرب عمن كان يحمي زمامه ... تنبيك في صحرائه انهر حمر
لقد كان فينا سيداً وابن سيد ... عميم الايادي لا يخصصها قصر
بقية فخر العرب ما بعده لهم ... ملاذ ولا ركن فانىّ لنا صبر
وعهدي يخشى الموت شدة باسه ... فيا موت ما هذا اما هالك الامر
فقدناه والآمال ترجو بقاءه ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
وساعة ساروا يحملون سريره ... لقد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحار دموعهم ... على انه هول به اقفر البرّ

سكارى وما دارت عليهم سلافة — نشاوى ولكن الاسى لهم خمر
بكاه الندى والعلم والزهد والتقى — بكته العوالي الزرق والبيض والسمر
بكت قبله الخنساء صخرا وانما — على فقده جنب الحيا وبكى الصخر
فيا ليت ما عشنا الى رجب به — راينا عجابا ما اتى مثله شهر
قضاء قضى فيه المصاب بحكمة — وليس لمن لم يقض فيه أسى عذر
وان تمنع الاقدار موتي فانني — سابكيه حتى ينقضي بالبكا العمر
لعمري ما الدنيا بدار اقامة — ولكنها الدنيا لدار البقا جسر
وتحسبها اوهامنا ذات قيمة — وما هي الا الصفر ليس له قدر
لجاهلها عذب مذاق عذابها — ولكن لدى اهل النهى حلوها مر
فيا فوز من منها تزوّد بالتقى — وكان كمولانا صنائعه البر
به افتخر الاحيا لكن بموته — تفاخرها الموتى وحق لها الفخر
لئن مت يا مولاي والموت سنة — ففضلك يحيي في الانام له ذكر
ولولا بنوه ورث المجد بعده — طوى الموت مجداً لا يعود له نشر
هم امل الراجين والسادة الاولى — على امراء الارض يسمو لهم قدر
ولا سيما الشهم الامير محمد — عليه لتخليد العلى اخذ الاصر
بساعد محيي الدين يقوى عمادها — هو العضد الاقوى يشد به الأزر
حباهم جميعاً طيب العمر ربهم — والهمهم صبراً يلازمه الاجر
وامطر مولانا الامير مراحماً — وبلت ثراه بالرضا ديمة غزر
الى دعوة الرحمن لبى مهللاً — وآخر دعواه لك الحمد والشكر

ومنهم محمود افندي الشهال الطرابلسي فقال

ما للمحاجر دمعها مستغرب — لقد استحال دماً وذلك اغرب
وشهاب افق الفضل يسرع نحو اط — باق الثرى جزلا وفيها يغرب
والشرق اظلم بعد وضح نوره — ولفقده امسى ينوح المغرب
او ما عجبت يا لقومي اذ غدت — زهر المدى عن افقها تتغرب
ذهبت بافئدة الكرام فاصبحت — تبغي التصبر وهو برق خلب
ومرائر الاحرار بعد افولها — شقت وضاق بها لعمري المذهب
والمجد قد تخذ الحداد مدارعاً — من حزنه وعليه شد المعصب

وكذاك ابناء المعارف اصبحت   تنعي العوارف في الانام وتندب
وسحائب الرحمن تمطرنا اسى   ابداً واومض برقها لا يكذب
اوّاه من غدر الزمان كانه   بخداعه بين البرية ثعلب
ما اضحك الانسان قط بنية   الا وقد ابكاه وهو مجرب
ماذا جرى يا مطلع الاحسان ما   حتى انبرى في الترب ذاك الكوكب
يا بين حسبك لا حياة لنا وبا   علماء اظفار المنيـة تنشب
موت الافاضل ثلمة في الدين قد   صح الحديث بذا وجاء المذهب
الخان يوم الساعة الموعود في   ها من اله وعده لا يكذب
فكانما يوم القيامة قد بدا   في ساعة من هولها يتعجب
يا نفس خلي عنك ما تبدينه   من ذي المسائل فالحقيقة اعجب
تالله ما يوم الحساب اشد من   يوم بـه فقد الامير الطيب
السيد المفضال عبد القادر ال   حسني ذاك اللوذعي الانجب
هو كعبة العرفان في حرم التقى   ومحط ترحال الانام المخصب
علم الهدى بحر الندى مردي العدا   بمهند بدم الوريد مخضب
العـارف الحبر الهمام المرتقي   اعلى مقام في المحبة يرغب
صنو الشريعة والحقيقـة امه   واخو الولاية والكمال له اب
لله مـا اسناه فوق منابر ال   عرفان في علم الحقيقة يخطب
علم لدنيّ حبـاه الله في   ه منة من غيره لا تطلب
وبحانة القدس العلي لقد صفا   خمر الوصال له وطاب المشرب
امسى التقى والحلم طي ردائه   شهم لغير الحق لم يكُ يغضب
اسفاً عليه من همام كان لا   اسلام ركناً بالسلامة يرغب
حزنت عليه المكرمات واصبحت   عين العلاء عليه دوماً تسكب
قد كان كهفاً للانام فكم فتى   قد بات في نعمائه يتقلب
يا نفس فاصطبري لفرقته فذا   حكم الاله واين منه المهرب
بلقائه حور الجنان تباشرت   وغدت ملائكة الرضا ترحب
حيـاه مولاه بخير تحيـة   فيها يلذ على الدوام ويطرب
وسقى ضريح علاه من سحب الرضا   والعفو والغفران غيث صيب
واطال عمر بنيه اقمار العلى   من في سنائهم يضيء الغيهب

فلنـا التاسي بعده ببقائهم ... فهم ملاذ للفؤاد ومطلب
عرب بهم ربع الفضائل آهل ... ابداً وثغر المجد فيهم اشنب
ما فيهم الا همام اروع ... سامي المراتب بالعلوم مهذب
لا سيما رب العلاء محمد ... من شكره بفم العلى مستعذب
وكذاك محيي الدين من اوصافه ... حلى الكمال هي الطراز المذهب
هذا واني بالقصور لمذعن ... واخو القصور بعجزه لا يعتب
انا لست من فرسان ذا الميدان بل ... قصدي بذاك الى الحما اتقرب
اذ ان مدح علاه اعظم قربة ... فيها الى رب الورى يتقرب
وثناه عذب في فم المداح وال ... اوصاف منه في المسامع اعذب
فرثيته باقل ما فيه من ال ... حسنى وعجزي عن قصوري معرب
هيهات يحصي المدح منه محامداً ... مهما اطال المادحون واسهبوا
حاشا وكلاً ما لذلك غاية ... اذ ان فضل علاه لا يستوعب
او لم يكن من آل بيت نبوة ... يزدان فيهم في القيام الموكب
او ليس من نسل النبي محمد ... من في القيامة يرتجيه المذنب
صلى عليه الله ما ابتهجت منى ... وزهت بنور سنا النبوة يثرب
او جاء بدء طيبا برثائه ... وختامه مسك شذاه اطيب

ومنهم محمد اسحاق افندي الادهمي الطرابلسي قال

قامت عليك قيامة العلماء ... يا سيد العلماء والامراء
وبكتك اجفان المكارم والعلى ... يوم انثوى ممزوجة بدماء
هذا مصاب ما اصيب بمثله ال ... اسلام بعد السادة الخلفاء
من لليتامى والارامل يا ترى ... بعد الامير ومن الى الفقراء
ومن الذي يولي الجميل تفضلا ... ويجود بالصفراء والبيضاء
ومن الذي يرجى لهذا الدين ان ... خفنا عليه سطوة الاعداء
من للمساجد والرياضات التي ... ارضيت فيها عالم السراء
تالله من بعد الامير المرتضى ... ما ثم الا كاشف الضراء
مات الامير السيد الحسني عبـ ... ـد القادر ابن السادة الكرماء
اسفاً على قمر بافق سما العلى ... قد كان يخلف غرة الظلماء

القانت الاوّاب من احيت موا   قفه لنا العربيُّ ذاكَ الطائي
علامة الآفاق ذاك العارف ال   رباني غوثي بضعة الزهراء
اسفي على من كان يستسقي به   صوب الغمام وصيب الانواء
اسفي على تلك الشمائل طالما   شملتني من معروفها بمشائي
قد روعتنا النائبات بخير من   يرجى ليوم كريهة ووفاء
اسد الكتيبة والذي اخباره   في الخافقين سرت مسير ذكاء
كم منة قد طوقت اعناقنا   لابن النبي وكم يد بيضاء
ملك مآثره الشريفة في الورى   كالروض عطر سائر الارجاء
ملك لقد ملك القلوب برحمة   وبرأفة وتواضع لعلاء
هو سدة الشرف الذي يا طالما   كنا لها ناوي لنيل مناء
حكم الآله على الخليقة بالفنا   ما هذه الدنيا بدار بقاء
لله در فتى توشح للقا   من اشرف التقوى اجل رداء
قد قام في محراب طاعة ربه   متبتلا في الليلة الليلاء
فكانه داود في محرابه   يثني على المولى بخير ثناء
قد ايقظ النوام صوت صلاته   وصلاته فاضت على الفقراء
وعلى يديه مصالح الدنيا وما   فيها لقد قضيت بفصل قضاء
كالسيد السند الذي في ذاته   يسمو رثائي دائماً وثنائي
لله عبدا قادر ارجو هما   في كل حادثة وكل بلاء
مولاي عبد القادر الحسني وعب   د القادر الجيلاني بالزوراء
ركن من الاسلام ما ركن النهى   من بعده يوماً الى الامناء
انسان عين الدهر من قد كانت ال   دنيا به في غبطة وهناء
ذاك الذي قد كنت معتزًّا به   من سائر الدنيا وكان رجائي
اما حديث الجود منه والندى   عن واصل يروي لنا وعطاء
لم انس اذ قد قال لي متحدثاً   في انعم جلت عن الاحصاء
لما لقد وافيت اسأله ولي   شغف بما ابدى لدى الهيجاء
وانا بارض الشام منه بدمر   في بيته السامي على الجوزاء
اني غزوت ثلاثمائة غزوة   فيها وطئت سنام كل سماء
ولطالما قد خضت بحر مواكب   من جيشهم فرجت فيه بلائي

ولقد قتلت من الاعادي ماءتي … الف كما شهدت بذا اعدائي
والله يعلم ما لقيت من العدا … في كل معترك ويوم لقاء
الله اكبر كم لنا من وقفة … فزنا بها بالرتبة القعساء
ولقد نصرت الدين لولا انها … غدرت بنا فاس بغير مراء
قطعوا يد الاسلام بثوا حيلة … باؤا باقبح خزية شنعاء
حسدوا على النصر المبين سفاهة … اخوانهم فغدوا مع الاعداء
لم يبلغوا ما املوه بظنهم … لما غدوا لهم من الحلفاء
والله يجزي كل باغ في غد … عما جنى لا شك شر جزاء
عشرا من الاعوام قد حاربتهم … مع ستة والنصر تحت لوائي
ما غزوة لي فيهم الا وقد … رمت الشهادة فيها من مولائي
هذي جرائدهم وهذي كتبهم … تنبيك عن قتلي بهم وبلائي
ومن العجائب ما بجسمي منهم … جرح ولا من طعنة شلاء
ما للجبان وعيشة قد عاشها … خل الجبان رهين ذاك الداء
خلع الرداء وقال هل من طعنة … فوجدته كالفضة البيضاء
هذا هو الشرف الذي يتنافس الـ … متنافسون به بيوم علاء
وله بانواع العلوم مكانة … قد صيرته اعلم العلماء
يا نكبة ما رحت اذكر وقعها … الا وبت بحالة الخنساء
من لي لو اني من الامير فداؤه … ولو ان اعداه تكون فدائي
هو ثالث القمرين بل هو ثالث الـ … عمرين بل هو بهجة الغبراء
ايه بني الآداب مات عياذكم … وغياثكم من هول كل بلاء
هذا الامير مضى لرحمة ربه … سبحان ربي ارحم الرحماء
فابكوا والا ان قدرتم فاصبروا … فالصبر خير ذخيرة ورجاء
والصبر اجدر بالحجا ولو انه … يجدي البكاء عليه طال بكائي
فتذكروا من قبله من بينكم … خطب له قد هان كل بلاء
اما الامير فقد غدا في جنة الـ … ماوى وجاور اكرم الكرماء
وغدا ينادي نلت ما املته … من خالقي وبلغت كل منائي
وسعادة الدارين حزت فارخوا … طيبا بحسن الظن من مولائي
والله نسأل بالنبي محمد … خير الانام وسيد الشفعاء

يبقي لنا انجاله ويقيهم — من كل ما يخشى من الاسواء
المعتلين من الفخار مراتباً — ورثت عن الاجداد والآباء
بيض الوجوه بكل مكرمة لهم — منن ارتنا الف حاتم طائي
آل الشهامة والفتوة والتقي — واولى الحجا والفضل والآراء
انحذري بعد الامير وفاتهم — دعني من التحذير والاغراء
ابناء عبد القادر الحسني ابن محـ — ـيي الدين ساداتي واهل ولائي
وعلى محمد باشا وارث سره الـ — ـسامي تلوح مخايل السعداء
كنز الحقائق تجتبى بدراية — يسمو على الاشباه والنظراء
وكذاك محيي الدين باشا من زكا — خلقا غنيت به عن الصهباء
اسد بيوم الروع الا انه — شمس لقد لاحت بغير خفاء
تسما بعيش ابيهم وبماله — عندي من المعروف والاسداء
انا لم ازل حسان مدح علاهم — وبه نخار مدائحي وثنائي
والله يسقي قبر والدهم من الـ — ـغفران صوب الديمة الوطفاء
ما ناح مشتاق لفقد احبة — باتوا فبات ينوح كالورقاء

ومنهم الشاعر الاديب محمد افندي الهلالي الحموي قال

سهام قضاء الله ليس لها ردُّ — وكاس الردى ما من اذاقته بدُّ
بلى كل شيء هالك غير وجه من — له الحكم حتماً لا شريك ولا ضد
محالٌ اذا جاء المقدر حيلة — لمستعصم من ان يلم به كد
عناء حياتي كلها بعد سيدٍ — به فجع الاسلام والعلم والمجد
واظلمت الاوطان حين بجسمه — تنورت الاكفان وابتهج اللحد
سقى وابل الرضوان اعظم مرقدٍ — حوى بحر فضل ما لتياره حد
كأن لم يكن برٌّ كأن لم يكن تقى — كأن لم يكن صدقٌ كأن لم يكن رشد
طوى الكل بعد النشر بعض من الثرى — فلم يبقَ الا الذكر والشكر والحمد
مضى الجود والاحسان والعفة انقضت — وصاحبها العرفان والعلم والزهد
مضى ابن بني الزهراء حقاً لجده — فيا حبذا الابناء والاب والجد
معز اليتامى والارامل كنزهم — اذا الضبع الشهباء ذلت بها الاسد

بروحي بروحي آه لو يفتدى بها — امير بامر الله جدبه الجد
هنيأ لجنات النعيم بقرب من — ارانا جحيم الحزن من بعده البعد
هنيأ لمحيي الدين قدس سره — بجار حماه اليمن للجار والسعد
مصابٌ اصاب الدين لو ان بعضه — على احد لاندك من هوله احد
قيامة رزء لو ترى الناس بالبكا — محاجرهم جرحي واعينهم رمد
لهم زجل بالذكر لله والدعا — وادمعهم سحب واعوالهم رعد
سكاري وما هم بالسكارى وانما — وفاة ابن محيي الدين حق بها الوعد
سرى نعشه فوق الرقاب وحوله — ملائكة الرحمن انوارهم تبدو
لقد جلَّ عن ان يدفنوه بروضة — هي الروح والريحان والمسك والند
تقيٌ نقيٌ جاور الله في البقا — واقبل بالبشرى على القادر العبد
وقورٌ غيورٌ ناسك متواضع — على انه المقدام والاسد الورد
على انه البسام يوم كريهة — اذا عبست من تحت فرسانها الجرد
فتى من رجال الله كان على العدا — حساماً صقيلاً لا يفل له حد
فتى كان لا يخشى من الخصم سطوة — وليث الشرى حاشا يروعه القرد
فتى في سبيل الله كان مجاهداً — وليس له الاَّ رضا ربه جهد
همامٌ كميٌ كم ازاح ملمةً — بسيف رقاب المعتدين له غمد
هزبر هصور في الجزائر كم له — وقائع لا يقوى على حصرها عدٌ
سراجٌ على سرج الجواد كأنما — من الرعب والارهاب يقدمه جند
نعيناه للمحراب والحرب والندى — فكل علاه الحزن والسهد والوجد
عطاءٌ ولا منٌ وعفوٌ ولا حقد — وجبرٌ ولا كسرٌ وود ولا ضد
حسان مزايا بانتقال حليفها — تعطل جيد المجد وانفصم العقد
لحا الله دارًا للزوال نعيمها — واولها مهدٌ وآخرها لحد
غرور حياة وهي غرآء حية — بانيابها سمٌ يمازجه الشهد
فتاة تراها وهي شر عجوزة — كما الدهر لم يصرم حبائلها الشد
تصيد البرايا واحدًا بعد واحد — فلم ينج منها لا كريم ولا وغد
مجربة تبًا لها من خؤونة — فلا موثق منها يدوم ولا عهد
عروس ولكن المحال حليها — لها المين مرط والخداع لها برد
لعوبٌ كما الصهبا بالباب اهلها — تروح بهم طورًا وطورًا بهم تغدو

فما اصحت الاّ وغشت وهكذا ... قياس قضاياها لنا العكس والطرد
شكونا ونرد الدهر ليس بسامع ... وهل تنفع الشكوى اذا حكم النرد
فليس لنا الاّ التوكل والرضا ... بما قد قضاه الواحد الاحد الفرد
فصبرًا جميلاً انها لمصيبة ... يذوب اسى من حرها الحجر الصلد
ولكن اذا في نار حزن ثوى الحجا ... خبت ومع التسليم اخمدها البرد
وآل رسول الله اولى من الورى ... بان يتحلوا بالوقار ويعتدوا
هم الحسنيون الاولى صوب صيتهم ... به السن الاحسان ما برحت تشدو
هم الكاظمون الغيظ والصابرون هم ... رياحين زهراء النبي اذا عدوا
وهم عهدتي في شدتي وذخيرتي ... بدنياي والاخرى هم القبل والبعد
ولا سيما الجمال من قد مضى ومن ... رحيق شراب الانس طاب له الورد
مصابيح فضل عظم الله اجرهم ... ولا ساءهم من بعد من فقدوا فقد
وابقاهم الرحمن للناس رحمة ... سحائبها يروى بها الغور والنجد
نعم كلهم نجب كرام ثوابت ... لدى الروع حتى ان اصغرهم طود
واكبرهم من دونه الدهر همة ... بغيرة ندب اوحد ما له ند
محمد السامي سماء مقامه ... على الشمس لا نكر هناك ولا جحد
امير وجيه الوجه والجاه كوكب ... منير به العلياء تم لها السعد
لاحسانه تصبو العفاة وحسنه ... تحن له ليلى وتشتاقه هند
بديع معان عن اداء بيانها ... لقد كلت الاقلام والالسن اللد
كفى بشذاه سيرة وسريرة ... فما الشيح والقيصوم والبان والرند
وما غايتي بالمدح الا تشرف ... باروع من بيت القصيد هو القصد
اليه سرت اسرار والده الذي ... بعدن مع الابرار طاب به الخلد
وسار الى المولى بتاريخه وقد ... دعاه بجنات البقاء رجب الفرد
عليه من الرب الرحيم السلام ما ... بكت مقلة وابتل من دمعها خد
وما ابن هلال راح ينشد قائلاً ... سهام قضاء الله ليس لها رد

ومنهم عمر البربير البيروتي فقال

لم اسودت الدنيا ولم يك غاسق ... واظلمت الآفاق حتى المشارق
خليلي رعاك الله قل لي ما الذي ... لقد صار في الدنيا فانك صاق

فهل آن خلي للقيامة وقتها ونفخ بصور ثم يصعق صاعق
وبعث الورى والحشر ثم وانه نقوم لرب العالمين الخلائق
ارى الكون مسوداً ارى الشمس لم تبن ارى البدر لم يسفر وما هو شارق
وان نجوم الافق غير طوالع فلم يبد مسبوق ولم يبد سابق
واين السما غير الظلام فلا يرى ولو حدّ بالتحديق والوثق وامق
ازالت والا بالظلام تحجبت فما شأنها قل لي فصدري ضائق
ومالي ارى الاطواد ليس بحالها فكم قد هوى طود وكم دك شاهق
وما لي ارى الاطيار خرسا ولم يكن عن الصدح والتغريد يسكت ناطق
ومالي اراها لا تطير وانها وان هي قد قصت جناحاً خوافق
فما الخبر الشافي خليلي به اشفني فاني بالتحديث منك لواثق
فانت ابو الاخبار يروي صحيحها اخو الثقة الثبت الصدوق المصادق
وها لم ازل فيه الى ان اجابني وادمعه من مقلتيه دوافق
بصوت خفي تد يدق سماعه اجابة باكٍ وهو بالدمع شارق
وقال نعم اودى خليفة مالك ومالك هذا العصر من لا يسابق
امام ذوي التحقيق قدم فيهم وتقديمه فيهم عليه توافقوا
وجيه اولى التدقيق وهو اميرهم له نشرت فيه عليه البيارق
هو الشمس عبد القادر السيد الذي على فضله اهل العلوم تصادقوا
فكم قد محا جنحاً من الجهل داجيا فزال ولم يظهر من الجهل غاسق
هو البحر علماً عنه حدث مبالغاً فانت على التحديث عنه موافق
هو البحر ينبوع الولاية رائقاً على سطحه ماء الصلاحة دافق
هو العلم المشهور في كل جانب فليث تفوق الغرب فيه المشارق
وخير شهود المرء بالفضل في الورى وعندهم فيه اشتهارٌ يطابق
على فضله كل الافاضل اجمعوا ومنهم بدون الخلف تم التوافق
وقد اجمعوا ان لا يجارى مسابقاً كذا ويحوز السبق حين يسابق
وقد رضيت منه سجاياه كلها وقل الذي ترضيك منه السلائق
وطاب بحسن الخلق والخلق سيرة وصيتاً كما قد طاب منه الخلائق
كجود وحلم ثم حسن تواضع وفي حسن خلق الانام يخالق
ورفع الاذى والضر والنفع شأنه وقد أمنت في الدهر منه البوائق

دعاه الى الجنات داعي المنا ضحى … فلبى مجيباً لم تعقه العوائق
وسار يجد السير وهو مشوقها … ويا قرب مقصود له سار تائق
وقد ساقه رضوان مولاه نحوها … ويا فوز من رضوان مولاه سائق
وسار الى الفردوس بالعفو والرضا … ونال خلوداً والنبي يرافق
فبشراه بالفوز العظيم وانه … يجاور مولاه وليس يفارق
ولكننا فيه ادبنا مصيبة … تجل كما قد عظمتها الخلائق
بها قصمت منا الظهور وقد وهت … كواهلنا عن حملها وعواتق
فقفا نبكه حتى القيامة ادمعاً … تسيل بها الاحداق وهي زواهق
وتبدو بها الارواح صاعدة لها … وتنزل مثل الودق والودق دافق
وحق علينا ان نشق قلوبنا … واكبادنا لا ان تشق البنائق
فيا ليته يفدى وكنا فداءه … وان يكن ممن له الموت لاحق
ولكننا بالموت ربي قد قضى … ومن كان ذا نفس فللموت ذائق
وان كان ذاق الموت والقبر حازه … فما زال حي الدهر ما بان شارق
فقد خلف الصيت الحميد وانه … لاذفر مسك مالىء الكون عابق
ومن عاش ذكراً فهو حي حقيقة … ومن لم يعش ذكراً فذلك وابق
وخلف فينا كل نجل مكرم … ولا سيما من بالمعارف غارق
سمي اجل المرسلين محمد … عليه صلاة الله ما لاح بارق
ابو العلم رب الفهم نجل مكرم … اخو الحذق يبدو لا يدانيه حاذق
تصدر للتأليف والنفع بعده … تصدر كفء وهو اهل ولائق
وان حاز فضلاً من أبيه فانه … وبشراكم سام عليه وفائق
ولا غرو فابن الليث ليث غضنفر … ولا عجب فابن البواشق باشق
فيا ايها المولى الذي قل مثله … فكالشمس لا مثل ولا فرق فارق
لئن كنت مولانا اصبت مصيبة … على هولها منا تشيب المفارق
تذكر بخير الرسل اعلى مصيبة … يقل لديك الخطب اذ انت ضايق
وصبراً فان الصبر اليق بالفتى … وعن اجره مولاي يقصر ناطق
وفيك لنا عمن اصبت اخا الحجا … به خلف منه استطيب الخلائق
واسال ربي الله حسن عزاكم … واعظامه اجراً به الفضل حائق
ويسكنه الفردوس قرب جواره … وفيه له بالدر تبنى الجواسق

ويسقي قبراً ضمه غيث رحمة ... يقلب فيه وهو في ذاك غادق
مدى الدهر ما هبت رياح لوافح ... وما امطرت غب البروق البوارق
وما عمر البربير يسال قائلاً ... لم اسودّت الدنيا ولم يكُ غاسق

ومنهم خليل افندي البربير البيروتي قال

خطب المّ بنا اجرى العيون دما ... لقد شكا الخلق من اهواله ألما
فليندب المجد في الاكوان مظهره ... اذ راع ركن العلى والعز فانهدما
يا للمصيبة من خطب سطا وغدا ... فلم نجد احداً من حزنه سلما
يا للنوائب من هول به كسفت ... شمس الهدى فكسا افاقنا ظلما
رزء تداعت به شم الجبال وقد ... الوى به زعزع اضحت به عدما
يا للرزية من رزء بوقعته ... اثار في كل قلب بالاسا ضرما
كادت به الارض من حزن تميد كما ... غدت هشيماً به من هول ما صدما
هل بعد ذا الخطب ما بين الانام يرى ... خطب به كل جفن يرسل الديما
او هل ترى بعده في الكون مزعجة ... تخفي السرور وتبدي الحزن والسقما
كلا لعمري فهذا الخطب صدمته ... قد زعزعت كل رأس قد غدا علما
اضحى به رجب يبدي لنا عجباً ... عشنا به فرأينا رزءه دهما
شهر اصمّ به في الكون قد ظهرت ... نوائب اوقرت اسماعنا صمما
يد المنون به اغتالت امير علىً ... فاغتالت المجد والمعروف والكرما
نتيجة الدهر عبد القادر العلم ال ... مولى الذي في البرايا قدره عظما
السيد السند الشهم الذي عظمت ... اخلاقه فاغتدى بين الملا علما
روح السيادة تاج المجد بهجته ... ثغر المعالي به قد كان مبتسما
انسان عين اولى العلياء سيد من ... سيب المكارم منهم سح وانسجما
امير مجد سما هام السهى شرفاً ... وكان للعز والعلياء خير حما
امير حزم حكت اراؤه شهباً ... لكل مارد خطب رائع رجما
غوث الطريد وغيث اللائذين الى ... حماه يمطرهم من جوده نعما
ناديه مصدر انواع الندى ابداً ... ما منّ يوماً بما يعطي ولا سئما
اربى على كل ذي فخر بنسبته ... لسبط خير رسول بالفخار سما
بجده سادت السادات وافتخرت ... وعقدهم بعلاه كان منتظما

اقواله درر افعاله غرر ... وجه المعالي بها قد كان مبتسما
مسدد الرأي ماضي العزم همته ... قد ادهشت بعلاه العرب والعجما
مولى يقصر عن ادراك غايته ... نجم السماء اذا ما حادث هجما
بكت عليه عيون المجد شاكية ... غبشاً المَّ بها من فقده وعما
بكت عليه عيون الفخر نادبة ... نبراسها من سناه قد جلا الظلما
بكت عليه عيون الصحف من أسف ... كما بكته عيون العلم والعلما
وكل طالب علم قد بكاه اسى ... اذ كان يكسبه من علمه حكما
بكت عليه سماء الفضل اذ فقدت ... بدراً سناه لجيش الجهل قد هزما
بكت عليه العوالي السمر حين سرى ... والبيض ريعت وامسى اسمها عدما
مولى مآثره تسمو مفاخرها ... والدهر عن مثله في المجد قد عقما
مولى لقد كان للايتام خير ابٍ ... يذود عنهم صروف الدهر والنقما
مولى به خاننا الدهر الخؤون بما ... اتاه عمداً ولم يحفظ لنا ذمما
بفقده قد فقدنا كل منقبة ... كنا نفاخر في احرازها الامما
لكن باشباله الغر الكرام لنا ... حسن العزاء وان كان الاسى عظما
اكرم بهم خلفاً دلوا على سلف ... بالخلق والخلق والعرف الذي انتظما
وانهم خير ابناء لخير ابٍ ... تمثال افضاله في الكون قد رسما
لا سيما درة العقد الفريد بهم ... امير من ساد في العليا وكان حمى
محمد الذات ممدوح الصفات وم ... دوح الخلال الذي فاق الورى شيما
وصنوه الشهم محيي الدين سيد من ... اضحى بكل كمال راسخاً قدما
داموا موالى هذا العصر يخدمهم ... سعد العلى ولحجاج المنى حرما
وجاد ترب ضريح ضم والدهم ... من الراحم غيث دام منسجما
ولا يزال من الرحمن يؤنسه ... فيه رضاه بيده كما ختما

ومنهم الاديب شبيب بك الاسعد قال

اتدري بهذا العصر من غاله الردى ... ومن مدَّ صرف الحادثات له يدا
ومن كان في عبء الرياسة قائماً ... فغادره ريب المنون موسدا
واي امام في الانام غدا له ... بافق سما العليا مقاماً ومقعدا
واي همام في البرية ذكره ... يغني اذا الحادى به في الدجى حدا

واي مقام في الحياة وبعدها غدا في السما فوق السماك ممجدا
وايٌ محيط قد احاط بفضله جميع البرايا ضمن قبر توسدا
فذلك عبد القادر الشامخ الذرى امير الورى من كان بالدهر مفردا
ثبير اذا يممت تلقاه دونه وهيهات تلقى فيه مرقى الى العدا
فما قبله فوق البسيطة شاهق بارض دمشق الشام قد صار ملحدا
هوى فهوى الدين العلي مكانه وقد ثل عرش العلم والحلم والندى
مضى فمضى من بعده الزهد والتقى بثوب خليق طالما منه جددا
قضى فقضى حفظ العهود فمن بها معاهده في الناس لم تلف معهدا
نأى فنأى طيب الكرى ولقد جرى من الجفن هتان دعاه مسهدا
وراح فراح الخير من بعدما غدا فواها لدهر خان فيما به اعتدى
وولى فولى الفخر والفضل والحجى وقد ترك العافين من بعده سدى
وقد عميت عين المعالى من البكا وناظر ام المجد اصبح ارمدا
ودك ثبير في عظيم مصيبة لقد هد ركن الرشد فيها مع الهدى
ونادى منادى العز من لي كافل فاني قد اصبحت بعدك مقعدا
ورب الولا امسى يقول ودمعه حكى هيجان البحر مذ صار مزبدا
فيا كبدى الحرا عليه تقطعي فان فؤادي ذاب مما تكبدا
لقد كان هذا الدهر ذو عزة به ومذ بان اضحى شاحب الوجه اسودا
وحل الندى وابن الندى وابو الندى برمس ثوى فيه الندى ابد المدى
وقد غاض بحر الجود والناس اصبحت حيارى فلا يلفون بعدك موردا
فمن ذا الذي لم يدر ان بنى العلى اصيبوا بخير الخلق فخرًا وسؤددا
وان علوم المصطفى ربعها عفى وبعدك شمل المجد امسى مبددا
لقد كان ياريح الحمام بجلق مليكًا به نهج النجاح ممهدا
وكان بها دفاع كل ملمة ومنجا لمن يبغي النجاة من الردى
وكان لاهل الفضل كهفًا وملجأ وكان بهم عينًا وكان لهم يدا
فبات وخلى طيب الذكر والثنا وابقى ايادى فضلها لن يعددا
فحزني له لا ينقضي ابدًا وما تقادم فيه العهد الا تجددا
ولو كنت ادري ان موت عميدنا وسيد هذا الكون في الناس يقتدى
لكنت بطيب العيش اسمح دونه وكانت لعمر المجد نفسي له الفدا

ومن عجب يا للانام لحادث   رايناه عن ادراك ذا الخلق مبعدا
لقد غربت في الشرق شمس سنية   ومشرقها من جانب الغرب قد بدا
فيا لمصاب فادح جمع الاسى   وشمل الاسى في الناس اجمع بدّدا
اذا رمت صبرًا عنه فرّ واين لي   على مثل هذا الرزء ان أتجلدا
ولما رآه الله في عالم الفنا   حباه بقاء في النعيم مخلدا
ورضوان لاقاه برضوان ربه   واكرم مثواه وبالبشر قد غدا
ونظمه الرحمن في سلك جده   فطوبى لمن في الخلد جاور احمدا
وانزله سبحانه منزلا به   ترى الملأ الاعلى ركوعًا وسجدا
رقى فوق كرسي الجلالة في الدنا   وفي جنة الفردوس صرحًا ممددا
فيا علمًا في المشرقين هو الذي   غدا بين اعلام البسيطة مفردًا
لك النسب الوضاح من خير والد   واشرف جد في العوالم اوحدا
تعالى الذي الفى سمي ابيك في   مكان له جاورت فيه ليسعدا
هو الاكبر الشيخ الاجل اجل من   به نور علم العالمين توقدا
هو العربي العارف العالم الذي   بمكنون اسرار الاله تفردا
فطبت وطاب الجار منك بطيب من   بطيبة فخر الخلق جدا له غدا
فاكرم به من مفخر لك ينتمي   على العالم العلوي قد بلغ المدى
فيا ايها السيف الذي فلل الردى   سناه وقد كان المفلل للردى
اتغمد في غمد الصعيد واننا   عهدناك قبل الآن سيفًا مجردا
وهل عهدت منك الشهامة ان يرى   مناديك لا يلقى مجيبًا سوى الصدى
لعمري ما نوديت في معضل عرى   وناب ولم تسرع لتلبية الندى
فاقسم لولا ان تغادر في الورى   بعيدك يا شمس الورى قمري هدى
محمد خير الناس بعدك والرجا   كذلك محيي الدين من فيه يقتدى
لكنا جعلنا ندب فقدك سنة   وكنا اتخذنا القرح فرضًا موءبدا
فانعم بمن خلفت فينا هم الاولى   غدا موضع الآمال فيهم مشيدا
وما قيل من كهف المعالي وكنزها   ومرجعها الا رأيت محمدا
اميرا له في المجد اسمى مكانة   وشهما جليلا في البرية اوحدا
عظيم ايادٍ به جسام عظيمة   وغير السجايا الغر لن يتعودا
وليس له من مشبه غير صنوه   عميد بني العليا الكريم المسودا

هما القمران النيران فلم تجد … بغيرهما في الشرق والغرب مهتدى
فيا سادة ما مر في سائر الملا … وليدًا لهم الا وعدُّوه سيدا
بمدحكم جادت بدائع فكرتي … ونظمي حكى درا ثمينا منضدا
اليكم بني خير الانام قصيدة … اذا انشدت تلقى لبيدا ملبدا
بكم حسنت منكم زكت فيكم ازدهت … بذكركم طالت فخارًا ومحتدا
لكم وجميع الناس اضحت عيّة … به وغدا للعالمين مؤكدا
ولاء ولي وابلي لقد اتى … سواه شبيب بن العلى بن اسعدا
فيا راحلاً لولا الذين تركتهم … بكيتك من دمعي دماء مدى المدى
عليك من الله المهيمن رحمة … يلازمها الغفران والعفو سرمدا
ولا زال من ابقيت في افق العلى … لهم منزل ما غاب نجم وما بدا
وهنئت في قصر لشانك ارخوا … باسمى مقام في النعيم تشيدا

ومنهم الاديب احمد افندي وهبي الحلبي قال

قلبٌ تغطى في أليم سقامه … وتضرمت احشاؤه بضرامه
ومحاجر جادت بفيض دموعها … ونعت رفيع القدر يوم حمامه
وجوارح فتك النوى بفؤادها … واراشه ظلمًا بحد سهامه
وجوانحٌ ذابت اسى وتلوعًا … وشكت مصاب الحتف وقت خدامه
ومصائبٌ ونوائبٌ قد حكمت … ريب المنون فجار في احكامه
يا بين ويحك قد غدرت بفاضل … فاق البرية حكمه بكلامه
الشهم عبد القادر المولى الذي … عم العوالم في جدا انعامه
هو صاحب الفخر المؤثل والحجا … بين الخليقة والوفا بذمامه
قفت المواهب والمكارم مذ قفى … هذا المكرم نحبه في عامه
ما للحماسة بعده من صاحب … يحمي الذمار برمحه وحسامه
وغدا المطهم يسرع الجريان في … ميدان حزن خانه بهمامه
نعت المعارف فقده وغدا التقى … متفاخرًا بصلاته وصيامه
رفعت ايادي المجد فوق رؤوسنا … نعشًا يسير النور من قدامه
ابت المعالي غيره لما رأت … رايات عدل في على اعلامه
يا عصبة الفضلاء فابكوا فاضلاً … خلقت مزايا الفضل من اكرامه

يا معشر العلماء فانعوا عالماً ... رشد الهداية كان من افهامه
يا زمرة الشعراء فارثوا من غدت ... امواله تعتد من اخصامه
فرضٌ على الادباء نظم رثائه ... والشهم من يرثيه في اقلامه
اسفاً على النائي مدى الاعوام ما ... يومٌ تبدل صبحه بظلامه
حيث الجنان فتحت ابوابها ... واستبشرت فرحاً على اقدامه
والحور والولدان كلٌ منهم ... في زينةٍ ليكون من خدامه
والله قد اعطاه ما يرضى به ... كرماً من الخيرات طبق مرامه
صبراً بني الحسنين لم يقض الذي ... انجاله ورثوا عظيم مقامه
هم خيرة الاقوام ما بين الملا ... في عنصر يزكو بطيب سنامه
نسل النبي المصطفى من خصهم ... رب البرية بعده بسلامه
لا سيما المولى الامير محمدٌ ... شهم جليل القدر في اقوامه
السيد المفضال من بذل الندى ... هو حاتم الطائي في ايامه
علم المعارف من زها في عصره ... بعلومه كالبدر عند تمامه
ورع بذكر الله اصبح مغرماً ... بمسيره وقعوده وقيامه
اني على علم به ناديته ... يا من مديحه نخرة بنظامه
يا هاشمي لاصل يا من مجده ... يهديك نفح الطيب نشر خزامه
فانظر لمحسوب بساحة فضلكم ... عهد القديم مخيماً بخيامه
افضال والدكم عليه تقدمت ... فكأنه قد عدّ من ارحامه
ختم القريض بمدحكم و بقوله ... ارخ له اوفى بمسك ختامه

ومنهم الاديب سليم افندي قصاب حسن الدمشقي قال

رزءٌ على آفاق جلق خيما ... فامتد حتى الكون منه اظلما
عظم المصاب فقل صبري عنده ... الله اكبر ما اقلّ واعظما
شمس الحقيقة قد توارى نورها ... في الترب والخطب العميم مخيما
شعل الاسى قلب الفخار فاصبحت ... عين العلى تجري المدامع عندما
فقد الامير امرؤٌ صاب كاسه ... واحر احشاء به تقضى ظما
اصلى القلوب بنار وجدٍ وهو في ... غرفات جنات النعيم تنعما
مولاي عبد القادر الحسني الذي ... فاق الملا علماً وحلماً وانتمى

شهم اقام الدين طول حياته   هديًا وما ضل الطريق الاقوما
يمسي بمحراب التواضع عاكفًا   يخشى ويرجو ربه مستعصما
متحقق متيقن متجرد   لله ما عبد الاله توهما
علم على ورع على زهد على   تقوى علي جود على فضل نما
افنى بقهر النفس جسماً نائلا   في طاعة الله البقاء الادوما
من بالمواقف بعده يحيي الدجى   مستمنحاً ذاك التجلي الاعظما
ما زال يقفو اثر محيي الدين حتى   حاز حسن جوار ذياك الحما
بشرى له من موءمن هجر الدنا   حتى اذا ناداه لبى محرما
قولوا لمن بالماء يبغي غسله   يكفيه من دمع المعالي ما هما
حنطه في حسن الثناء فانه   من اكرم الاطياب كان الاكرما
يا ايها المولى المولىَّ دفنه   دعه ووكل فيه املاك السما
ما كان الا بحر فضل ذاخرا   متدفقاً من كل علم قد طما
ما كان الا كعبة في شامنا   تسعى له الآمال نيلا واحتما
نبكي على هذا الفقيد وانه   لاقى مشاهد ربه متبسما
واذا اطلعت على القلوب فلا ترى   قلب امرىء الا وذاب تألما
بالروح كنا نفتديه من الردى   لكن امر الله كان محتما
كل يراقب يومه فاذا انقضت   اوقاته كان المقدر مبرما
ما الناس الا نائمون باسرهم   والموت يوقظ هوءلاء النوَّما
نفذ القضاء فليس يجمل عنده   الا الرضا والصبر احلى مغنما
ما مات من ابقى جميل الذكر في   لوح الوجود على الدوام مترجما
من كل ندب للمعارج سابق   بالمجد والاجلال ضاهى الانجما
لا سيما الشهم الامير محمد   باهى الصفات الغر اسمى من سما
دامو ا باقبال ونرجو الله في   حسن الخواتم للورى ان يختما

وقال بعضهم

نبأ اتى بتضعضع الاسلام   لبست له الايام ثوب ظلام
وعرى جميع الارض منه رجفة   وقواصف قد هدّ ركن الشام
وأرى البلاد تمور مور سفينة   من فوق امواج ببحر طام

فكأن يوم النفخ فاجأ معلناً ... يدعو الانام ألا ائذنوا لقيام

فغدوا سكارى حائرين كانهم ... مرضى بهم عبثت يد الايام

فقدوا غياث العالمين وغوثهم ... كهف الارامل كافل الايتام

رفعوه يحثون التراب فغبرت ... غبراء جللت الورى بقتام

فتراهمُ والنعش فوق رقابهم ... حملوا ثبيرًا طاشي الاقدام

حملوه والملكوت يرفدهم الى ... أسنى مقام في البسيطة سام

في جنب محيي الدين منبع فيضه ... سر الوجود ومعدن الالهام

دفنوا عميد الطالبيين الاولى ... في وصفهم تاهت اولو الافهام

كان السنان لهاشم ولسانها ... في يوم معترك و يوم خصام

كيف انتحى صرف الزمان لمانع ... منه ومن كل الحوادث حامي

هو فرع اصل في السماء غدت له ... ام الثوابت موطىء الاقدام

علم به ارتفعت يد المقدور مذ ... ابقى لنا علماً من الاعلام

ذاك الامير محمد من حاز في ... عليـاه اسمى مرتقى ومقام

وله ايـادٍ كالنجوم لوامـع ... لم تحصَ بالاعداد والارقام

واذا ترنمت الحداة بها جلا ... ومحا سناها آية الاظلام

وكذاك محيي الدين بدر لم تزل ... بسناه تشرق اوجه الايام

أبنى النبيّ لكل ذي رزءٍ اسى ... بمصيبة عظمت على الاسلام

بكيت لها عين النبي محمد ... وبنيه من شادوا بنا الاحكام

دمتم ملاذ العالمين و يستقي ... غيث الرضي جدث الاميرالشامي

ومنهم الاديب نعمان افندى ابو شعر قال

هذا تابين ورثاء لصاحب الشرف والمجد الرفيع انسان عين الدهر ونتيجة تاج الفخر مولاي الامير عبد القادر الحسني الجزائري تغمده الله برضوانه واسكنه فسيح جنانه

اجل وا اسفاه قضى الله ان قضى من كان للناس نورًا وتولى من بفقده اولى الكل ويلاً وثبورًا نعم واحسرتاه مات الحسني المحسن اللوذعي اللسن الامير عبد القادر فريسة الدهر الغادر نعم واويلاه صدع من كان جابر صدوع الرئاسة القابض على ازمة النفاسة والفراسة فها هو قد حجب عنا بسدال الممات بعد ان كان وجهه جلاء

لكلمات نعم قد غال اسد المنية اسد البرية واقتنص غراب البين بازي الدارين فياويلنا لقد هدّ ركن الوطن الاعظم وتضعضعت أسس الامة فكادت ان تنهدم وتداعت حصون العلم والشرف المؤثل المنيع وانتثرت عقود الفضل والكرم الرفيع وحيث ان قد يتمنا ياويحه الزمان افلا نقول له تشفياً كما تدين تدان فان كنت يتمتنا فقد صرت باعز ابنائك ثكلان على ان هذا التشفي لا يشفي لنا علة ولا يروي لنا غلة فلايّ آياته نندب نائحين ام ايّ حسناته نبكي آسفين اغوثه الايتام والارامل ام جوده المغدق الوابل ام تمسكه بعروة الله الوثقى ام التزامه في كل أين وآن البر والتقوى نعم ان حاولنا مآثره التعداد ينفد العدد وليس لها من نفاد فلنستعن اذن برثاه بالسيف الذي طالما دميت في يده مقلتاه الا اننا لا نشق ولو شقت عليه جيوبها الدفاتر بل نشق القلوب ونفجر المحاجر فلا غرو اذن ان لبست عليه الحداد المنابر كما لا عجب ان تصدّعت عليه افئدة الصعاد والبواتر كيف لا وقد انفطرت عليه مرارة العلم والكرم وتشطرت لفقده مهجة المروءة والشيم وصغرت مذ هوى وهو بدر كل افلاك المنابر كما تنورت بسناء ضريحه ظلمات الاجداث والمقابر فليست هذه التي ترى دموع من العين تهمر بل هي النفوس تذوب اسى فتسيل فتمطر فالعيون تعارض القلوب بعارض دمعها الهتان والقلوب تباري رماحه بصيب دمها القان والجرد تتجرد للحزن الطويل كما عولت العيال على البكاء والعويل واني لاعجب كيف طلع بعده النيران ونورهما من ضياء وجهه مكتسب وكيف لم يمت لموته الثقلان وهو قطب رحى حياتهما ان شرق وان غرب فسيبقى ذكره فخراً لنا منقوشاً على صفحات الدهر لا الذهب وان ذهب لانه رفع له ذكراً وشرح لنا صدراً اذ جمع فاظهر مناقب العرب فعلم كاليم الزاخر وكرم كالغيث الهامر بحلم دونه كل حليم وجلال يجل عن كل عظيم وشجاعة تفلق صم الصفاة بتصميمها وبهابة تقعد الاعداء وتقيمها عقدت له لواء العز والنصر ايادي المكارم والفخر كما عقدت عليه الخناصر في هذا العصر معدن جمع كل جواهر الادب فكان فردها المختار فانسلت اليه من كل حدب في جدها الافكار ترفع عن كل منزلة يشاركه فيها احد وتفرد بكل منقبة فكان جوهرها الفرد فلا سكن الله روع الشامتين الذين لم يعرفوا له قدراً والذين يودون ان يطفؤا نور ذكره والله ليس بطافيء له ذكراً فان جهل احد قيمته فما هو الا الجماد والجهالة بعينها وان جحدت فئة قدره فما هذا الا من عماء بصيرتها لا عينها فلا يغرنّ قوماً مصرعه فان الحرب سجال وما تدري نفس بايّ ارض تموت وتغتال واذا كان هذا لسان حال ابناء الوطن في هذا الزمن نظمتها عقود حسن من منثور حبات القلوب

باسلاك الاسف العميق وعلقتها على كعبة الافكار في بيت المهج العتيق لاستمطر له بها مدرار رحمات الغفار وهو امي دموع كبارنا والصغار وليطوف كل مسلم ركنها حول بيت مجد بناه وشاده فيسمع تلبية منادي المكارم من آله واحفاده فيعرف انه بهم حي لا تموت مناقبه ولذلك صح القول بانه غالب الدهر فغالبه ثم اتبعها بقوله

هل مادت الارض ام مارت رواسيها ... ام قام ينعي ابن محيي الدين ناعيها
فخر الامامة طود المجد سيد من ... فوق الثرى قد سرى او حل عاليها
فمثلما عمت الدنيا فضائله ... اقواله تملاء الدنيا معانيها
ومثلما كانت القصاد تغنى به ... كذا القصائد ترثيه فيثريها
رب المعالى فبكر الدهر ما حملت ... بمثله او دنت من ذا امانيها
احسابه مثل ماء المزن طاهرة ... احسانه مثل ماء الغيث هاميها
ان امطرت في سماء الحرب راحته ... نارًا ففي السلم ابحار الندى فيها
يا ابن الذين جلوا وجه المعالى لنا ... كسوتنا حلة الاحزان ضافيها
فان تكن بزغت شمس المحامد من ... سناء وجهك وابيضت لياليها
فطالما اتشحت ثوب الحداد عدا ... لما بديت واطراف القنا تيها
كانت تطيعك رسل الموت ترسلها ... في لجة الجيش ما فلت مواضيها
حتى غدوت له طوعًا يعاجلنا ... بفقدك انفسًا قد كنت تحييها
قد كنت لله سهمًا اين سدده ... يجلي الخطوب بعزم كان يفريها
حتى استخارك اخفاء لجنته ... قلنا لقد اعطيت قوس لباريها
يا ناعيًا عدد الاوصاف في ملك ... له المكارم شعب وهو راعيها
هي الدراري عدًّا والسماك سما ... والبحر ذخرًا فكيف الآن تحصيها
قل للعدا وقد التفت كتائبها ... كالنمل في قرية اذ شاء يبنيها
ان الحسام الذي كنا نصول به ... قد اغمدته المنايا في ذرى فيها
يا ناقل الروح هل لامطار في بطل ... قد طالما انجز العليا امانيها
تبكي العساكر تنعيه المحابر تر ... ثيه المنابر تابينًا وراقيها
تبكي الذي كان في افق العلي قمرًا ... وفي دجى المعضلات الدهم يجليها
ملأ الاهاب مهابًا والسروج دجا ... والحرب ضربًا اذا ما قام يوريها
من يقرئ الضيف كوماء ويركبه ... اخرى فانداؤه غيثًا يواليها
من بعده يؤمن اللاجي وينزله ... حصنًا ويلبسه حصنًا ويقيها

من للخيول اذا سار العجاج بها … وارتجت الارض من ضرب الظبا فيها
ام للفوارس ان ضاق المجال بها … ولم تر ملجأً في الروع يحميها
ام للعوالى او بيض الصفاح اذا … رامت و رودًا فاين الورد يرويها
ام للمكارم في العليا ينظمها … عقدًا تزينه حمد لآليها
ام لليتامى اذا اخنى الزمان بهم … ورددوا من أليم الضر تاويها
يكسى الحداد عليه العلم والشرف الـ … ـعالى وتندبه التقوى واوليها
ياهول يوم رأينا المعضلات قضت … في صبحه اذ طواه اليوم طاويها
يا خير من ابقت الدنيا لناسندًا … وسيدًا لنفوس الناس تحييها
يا عامرًا لبيوت العلم اذ درست … يا ناشر الحاتميات ومحييها
ما كنا نحسب ان الناس تحمل بحـ … ـرًا علا طود فضل من رواسيها
حتى رايناك تعلوها محدبة … يحفها الروح والرضوان يحويها
بعض الاناس التي تترى رسائلها … تنعيك ياليتنا شمناك تنعيها
قروا فضائلك الغراء واعترفوا … ياحسن ما اعترفت ما كان ينكيها
لو كان يفدى الامير بالنفيس وبالـ … ـنفس العزيزة كان الكل يمضيها
لو يقبل الموت عن هذا الجليل فدا … لكان فديته الدنيا بما فيها
مضيت والحزن مثل الذكر متصل … باق الى النشر يا ذا النشر عاليها
لولا الذين لنا ابقيت من خلف … يا خير من ظلت الرايات يوقيها
اعني بهم سادة السادات من مضر … منهم ذرى مجدها منهم دراريها
ما كنا نرتاب ان الساعة اقتربت … او شق بدر السما واغتم باهيها
لولا محمد ما باتت على ثقة … عرب المدائن واطمنت بواديها
كذاك لولا محي الدين ماحييت … منها الامال ولا عاشت امانيها
لولاكم يا بني الزهراء ما نضحب … منا العيون ولا جفت اماقيها
ولا استقرت لنا كبد على مضض … منكم لها عندنا آس. يداويها

وفي ذكر هذا القدر من المراثي والمراسلات كفاية ولو اردنا استقصاء كافة ما ورد علينا منها لاتسعت الدائرة لادراك الغاية ونسأل الله ان يفرغ علينا الصبر الجميل و يولينا بكرمه الاجر الجزيل آمين

خاتمة في ذكر نسبه الشريف

لما ان ذكرت من اخباره قدس سره ما طاب نشره وفاح في الخافقين عطره عنّ لي ان الحق ذلك بذكر عمود نسبه الشريف وحسبه العالي المنيف كما تلقاه الخلف عن السلف ودوّنه الحفاظ في كتب النسب والشرف كالحافظ الحجة سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي في جوهرة العقول في ذكر آل الرسول والشيخ احمد ابن محمد ابن ابي القاسم العشماوي ثم المكي في كتاب التحقيق في النسب الوثيق وخاتمة المحققين الشيخ محمد بن محمد بن احمد بن ابي القاسم الجوزي الراشدي المزيلي في فتح الرحمن شرح عقود الجمان والعلامة الفقيه الشيخ عبد الله الوانشريسي صاحب المعيار في فقه الامام مالك رضي الله عنه في كتاب البستان في ذكر العلماء الاعيان والفهامة المقرى التلمساني في رياض الازهار في عدد آل النبي المختار وغيرهم ممن ثبت عندهم وزينوا به صحائف كتبهم وها انا أرويه كما تلقيته من فيه رضي الله عنه فهو عبد القادر بن محيي الدين • بن مصطفى • بن محمد • بن المختار • بن عبد القادر • بن احمد المختار • بن عبد القادر • بن احمد المشهور بابن خدّه وهي مرضعته ابن محمد • بن عبد القوي • بن علي • بن احمد • بن عبد القوى • بن خالد • بن يوسف • بن احمد • بن بشار • بن محمد • بن مسعود • بن طاووس • بن يعقوب ابن عبد القوى • بن احمد • بن محمد • بن ادريس الاصغر • ابن ادريس الاكبر ابن عبدالله المحض • بن الحسن المثنى • ابن الحسن السبط • ابن علي بن ابي طالب وامه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود • محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وشرّف وكرّم وعظم

اعظم بها من نسبة نبوية ... علوية تنمى لاصل اطهر
قد شرفت بدأ باشرف مرسل ... ونهاية بالسيد الحسن السري

وقد نظم هذا النسب الشريف الحسيب النسيب المتحلي من الفضائل باوفر نصيب العلامة السيد محمود افندي الحمزاوي مفتي دمشق الشام بقوله

يا حبذا الوعد والانجاز يصحبه ... حاشا علاكم بان الخلف يعقبه
حيا فاحيا ظنونا غير نائية ... لولاه كانت قضت مما تراقبه
وافى البشير به والفكر في قلق ... والقلب في حرق هم يقلبه
والجفن في ارق والعين في غرق ... والصبر في فرق كرب يداعيه

ومذ تفوه قام الحزن مرتحلا   عنا بعسكر لؤم لست انحبه
وباشر البشر في ضرب الخيام على   قاع السرور فكم ذا كنت ارقبه
فالحمد لله حيث الفضل من ملك   مـلـل الاصل يعلو حين تنسبه
العالم العامل الغازي اخو ورع   الزاهد المتقي للخير ينتبه
السيد الفرد (عبد القادر) الحسني   من سيفه ملك الافرنج يرهبه
نجل المحقق محيي الدين سيدنا   من ضاء من علمه شرق ومغربه
ابن الامام الهمام المصطفى كرماً   من كل محمدة في الكون تداربه
ابن الممجد ركن العز اوحدهم   محمد من غدا في الحمد مذهبه
ابن الهمام هـو المختار قدوتنا   عند الثريا مقاماً كنت تحسبه
ابن السميذع عبد القادر الورع ال   مزدان بالقدر رفعاً لست تنصبه
ابن الشريف هو المختار احمد من   فعل المحامد والاحسان مترِبه
ابن الممجد عبد القادر الحسن ال   اخلاق فوق الدراري كان مطلبه
ابن التقي الذي سموه احمد من   وسائط الحمد للتوفيق تجذبه
ابن الذي مرّ في عز وفي شرف   محمد من لذيل الفخر يسحبه
ابن المسمى بعبد للقوى لما   ابداه في دين مولاه تصلبه
ابن الكريم عليّ من سما عظماً   حتى غدا في علاه البدر يرقبه
ابن الجواد العفيف السمح احمد من   اعيا اليراع لفضل فيه حاسبه
وهو ابن عبد القوي الله سدده   قواه في ضمن تقواه تقرّبه
ابن الذي خلد الفردوس خالدهم   فالحور في روضة الرضوان تخطبه
ابن السمي الى الصديق يوسف من   قميصه من عفاف قد جاذ به
ابن الهمام جليل القدر احمد من   ساد المعالي بطرق المجد يركبه
ابن المبجل بشار الكرام ومن   سمت لدى الخلق بالبشرى مراتبه
ابن المكرم فرع المجد اوحده   محمد من صفات الحمد يصحبه
ابن المهذب مسعود الطوالع من   في الشرق والغرب لا تخشى تحجبه
ابن المفاخر طاووس بنسبته   الى المعالي ولا عجب يصاحبه
ابن المسمى الى يعقوب سيدنا   من صبره لم تفق فيه مذاهبه
ابن الشديد لامر الله قدوتنا   عبد القوي فهذا يحلو تعقبه
ابن الكريم المعذيّ ذاك احمد من   ركن المعالي به تسمو جوانبه

ابن المعظم نسل الملك قسوره   محمد من سمت فينا رغائبه
ابن المتوج تاج الملك في رحم   ادريس اصغرهم تزهو كتائبه
ابن المسمى بادريس المليك فكم   خاض المفاخر فيه الدهر اشهبه
ابن المكمل عبد الله كاملهم   من حصر اوصافه يعيا تطلبه
ابن الامام المثنى فصله حسن   من جمع احسانه ما لست اكتبه
وهو ابن سبط الرسول المنتقى حسن   من كان سيده المختار ناسبه
وهو ابن فاطمة الزهراء سيدة الـ   نساء طرا كما الاخبار تعربه
وهي ابنة الخاتم الهادي محمدنا   من شرف السلك في الانساب موكبه
صلى عليه مع التسليم خالقنا   ما ضاء في العالم العلوي كوكبه
ولآل والصحب ما ارخت لي وطر   يا حبذا الوعد والانجاز يصحبه

والقد بلغ اسلافنا الادارسة في المغرب الاقصى من الشهرة مبلغًا لا يكاد ان يلحقه لاحق ولا يطمع في ادراكه سابق

كانوا شموسا تضيء الدهر طلعتهم   وفي طريق المعالي يقتدى بهم
غابت فلولا ثناهم كالبدور اضا   من بعدهم تاه اهل الفضل في الظلم

فهم اقطاب اسرار ونخر وسؤدد وارباب انوار ومجد رفيع مخلد

كواكب نجد بل بدور فضائل   فوارس بيد بل اسود عرين
اجلاء قوم بل صدور مجالس   ملاذ عفاة بل عياذ حزين

واول من انتقل من اسلافنا الى افريقية الشمالية السيد عبد القوي الاول صاحب تفرسيت انتقل منها ونزل بقلعة بني حماد قرب سطيف من اعمال قسنطينه عند اشتداد الفتن في المغرب الاقصى وتفاقم الامر بين ملوك الموحدين وبني مرين ومن شاركهم في الاندلس وعدوة المغرب ولما استقلت الفتنة بين بني ريان ملوك تلمسان وبني توجين امراء تاهرت ومغوارة امراء مليانه وكثرت الحروب بينهم انتقل منها الى تاهرت فقابله امراؤها بالاكرام والاحترام واشركوه في النقض والابرام قال الشيخ احمد العشماوي في كتاب التحقيق واما عبد القوي صاحب تفرسيت مدينة مشهورة من اعمال الريف فانه خلف اربعة اولاد محمد واحمد وعبد السلام وعبد القوي ومنهم اهل الريف فجدهم السيد عبد القوي بن علي بن احمد بن عبد القوي بن خالد واستقصى النسبة الى الحسن رضي الله عنه وقال العارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي في جوهرة العقول ومن اخيار الاشراف القطب السني السيد عبد القوي صاحب تفرسيت وهو جد الاشراف ثم انتقل الى

تاكدمت وتوفي بهـا وخلفه ولده محمد وكان على علم وصلاح ولما توفي انتقل ولده احمد المعروف بابن خدّه فسكن بوا ي العبد قرب غريس وهو اول من اشتهر من اسلافنا في ذلك الناد واضاءت بانوار عوارفه ومعارفه تلك النواحي والبلاد ذكره الجزولي في توسله ونص على ان من توسل به الى الله تعالى وضم اليه سيدي عليًا بن عومر وسيدي احمد بن يحيى قضيت حاجته وتعرض لذكره الامام الصباغ المستغاني في مناقب سيدي محمد بن يوسف صاحب مليانه والعلامة الفاسي في اثمد الابصار في آل النبي المختار والعارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي في جوهرة العقول توفي في وادي العبد ودفن في تربة السيد عبد الله بن عبد الرزاق وقبره هناك مشهور يزار وبعد وفاته انتقل ولده السيد عبد القادر الى نسمط وقطن بكاشرو الفوقاني الكبير وقصده الخلق لاخذ العلم والطريق من كل بلد سحيق وفج عميق قال خاتمة المحققين محمد بن محمد الجوزي في فتح الرحمن ومنهم الرئيس الجليل النحوي اللغوي الحيسوبي الفرضي المحدث الامام ابو محمد السيد عبد القادر بن احمد المعروف بابن خدّه هي مرضعته امام جليل القدر واسع الصدر مهاب عند الخاص والعام له تبحر في العلوم كالنحو والتوحيد والحساب والفرائض والفقه فتح الله عليه فيها حفظًا واطلاعًا ونقلاً وتوجيهًا مما لا مطمع فيه لسواه في زمانه حاز رئاسة عامة في غريس بعد موت اصحابه وشدّت له الرحال من المشرق والمغرب ما سمعه احد حالة درسه الا ظن انه افنى عمره في ذلك الفن الذي يدرس فيه لشدة اتقانه له وما تكلم معه تخص في مناظرة الا افحمه ونفع الله به في وقته عالمًا كثيرًا وله عدة تآليف مفيدة في جملة فنون اخذ العلم عن اشياخ اجلاء منهم سيدي محمد السنوسي المشهور صاحب الصغرى والكبرى في التوحيد المدفون بتلمسان وفيها اخذ عنه وكان رضي الله عنه اقام في قسنطينة وصار شيخ العلماء فيها وعنه اخذ علماؤها وتآليفه متداولة في تلك الجهات سيما حاشيته في التوحيد

وذكر العلامة الشيخ سعيد قدوره الجزائري في شرحه على الصغرى عند كلامه على الفرق بين العلم والمعرفة منها كلامًا شافيًا قال في آخره قال شيخ شيوخنا ابو محمد عبد القادر بن احمد بن خدّه في تعليقه على الصغرى وترجمه العلامة المقري التلمساني في رياض الازهار والتجاني في الجمان النفيس في اشراف غريس ولد في القرن العاشر وتوفي فيه وقد اجمع اهل الفضل في عصره على توحده في دهره كما اتفق علماء تلك الاقطار على تفرد ولده السيد احمد المختار فقد ظهرت انوار معاليه ظهور الشمس في

الاشراق وعمت آثار اياديه على عموم اهل تلك الآفاق وشدت الرحال اليه من سائر الاقطار لاخذ العلم وتلقين الاذكار وعنه اخذ الفقيه اللغوي المؤرخ المحدث ابو العباس احمد بن شعرون السلوكسي وذكره في سنده وقال الجوزي في فتح الرحمن السيد احمد المختار سكن محلة باب علي من مدينة معسكر واتخذ فيها خلوة لعبادة الله تعالى فكلفه رئيس المدينة بما كلف به اهلها فدعا عليه فلم يلبث الا قليلاً ان اخذه الله اخذ عزيز مقتدر وله منظومة مشهورة سماها عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني ذكر فيها مناقبه وكراماته واحوال المشايخ الذين اعترفوا بفضله وتقدمه على اولياء زمانه وجميع ما بلغه من احواله ومطلعها

اقول لمن اعيا الطبيب علاجه   وقد مل من شرب الدواء لعلة
الا لذ بمحيي الدين يا طالب المنى   وعوّل عليه في الامور المهمة

يقرؤها اهل القطر في الشدائد والنوائب ويستجلبون بها الرغائب والمطالب وشرحها الامام اليوسي في مجلد ضخم وخلفه ولده السيد عبد القادر فكان اعصف اهل عصره ريحاً واكثرهم في علم الحقيقة تلويحاً وتصريحاً ثم خلفه ولده السيد المختار وكان من العلماء العاملين والعباد الزاهدين يحسن لمن اساء اليه ويقابل من ظلمه بالحنان عليه ولد بوسط في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وتوفي في اوائل الثاني عشر وهو مسافر في بلاد بني عامر ودفن بها فاراد اهله نقله الى تربة اسلافه بغريس فمنعوهم من ذلك رجاء حصول بركاته في ارضهم فلما تحقق اهله الجد منهم اخرجوه من قبره الشريف ليلاً وذهبوا به ولما بلغ الخبر بني عامر فتحوا قبره فوجدوه فيه واشتهر عند العامة بابي قبرين ثم خلفه ولده السيد محمد المعروف بالمجاهد فكان اكمل اهل زمانه من غير مدافع واشهرهم بالفضل من غير منازع قد نال من السعادة الغاية وادرك من السيادة النهاية ولد في كاشرو سنة خمس وتسعين والف واستشهد سنة ثلاث وستين ومائة في حرب اسبانيا مع المسلمين وحمل من ساحة وهران الى تربة اسلافه في غريس مع بعد المسافة وترك ولده السيد مصطفى صغيراً فتولى اعمامه تربيته وقرأ على علماء غريس وغيرهم من حين ترعرع الى ان برع واشتغل بالطريقة الى ان صار كعبة الاولياء ومقتدى العلماء وسافر الى الحج مرتين وحج في كل واحدة حجتين وزار قبر المظلل بالغمام عليه افضل الصلاة واكمل السلام والمسجد الاقصى وارتحل الى دمشق ومنها الى بغداد ولقي الجم الغفير من الاولياء والعلماء واخذ عن كل فريق منهم فنه ولبس الخرقة القادرية من نقيب الاشراف ببغداد سيدي عبد الرحمن بن علي سليل الشيخ الرباني

سيدي عبد القادر الجيلاني واجازه بالواسطة امام اللغة والحديث نزيل مصر السيد مرتضى الحسيني الزبيدي شارح القاموس ولما رجع الى الوطن في الرحلة الاولى اختط قريته المعروفة بالقيطنه بوادي الحمّام وذلك سنة ست ومائتين ونشر الطريقة القادرية بعد ان طوى بساط ذكرها واحياها بعد ان درست آثار فخرها وتلمذ له الامراء فمن دونهم ومن تلامذته محمد باي حاكم معسكر وفاتح وهران من يد اسبانيا ولما وصل في الرحلة الثانية الى برقات وهو راجع الى وطنه اصابه مرض الموت وتوفي سنة اثنتي عشرة ومائتين عند ماء يعرف بعين غزالة وقبره شهير يتبرك بزيارته الكبير والصغير وخلفه سيدي الجد السيد محيي الدين فبلغ من المعارف اقصاها ومن العوارف منتهاها وشدّت اليه الرحال من الضواحي والامصار لتلقي العلوم وتلقين الاذكار وقد جبل الله النفوس على محبته والقلوب على مودته فما رمقه طرف الا واحب ان يفديه بسواده ولا نال احد دعوته الا وظهرت بركتها في نفسه وماله واولاده وقد حسده بعض معاصريه فوشى به الى حسن باي الذي انتهت به احكام الدولة العلية وقال له اني ارى هذا الرجل قد علت رتبته وبعد صيته وانه كما تراه مسموع الكلمة عند جميع الناس خصوصاً اهل هذه الولاية واخشى ان يكون على يده فساد امرك وخراب حكومتك فاثر فيه ذلك وبعث الى الجد يامره بالسكنى في وهران باهله وخاصته فامتثل وارتحل عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم اسمع واطع ولما انتقل عظم على الناس ذلك واحزنهم واشتد له كربهم وتواردت على الجد رسائل التسلي نظماً ونثراً فمن ذلك قول العلامة السيد السنوسي بن عبد القادر الحسني الراشدي

عوّل على الصبر لا تفزعك اشجان ... ولا ترعك بما فاجتك وهران
اما هي الدار لا تؤمن غوائلها ... بل هي الدار اغيار واحزان
شبت على الغدر لم تعطف على احد ... الا ومن غدرها صد وهجران
ما انت اول من ادهت وآخرهم ... ولا باوسط من خانته ازمان
انظر الى يوسف الصديق كم لبثت ... في السجن ذاته ما وافته خلان
وانظر الى ابن رسول الله ثم الى ... هلمّ جراً وما لاقاه عثمان
تلك العوائد اجراها على قدر ... مدبر الامر مهما شاء ديان
لم يثقفوك اخي الدين عن زلل ... رأوا ولكن اغوى القوم شيطان
فعن قريب ايد الصبر يخذل من ... من اجله قد عدا عليك سلطان

و يكظم الغيظ من خصم ومن حكم ... و يكشف الغيب عن افعال من خانوا
بل لا عليك وان ساءت ظنونهم ... سيهزم الجمع او ينفضّ ديوان
ان العواقب في القرآن ثابتة ... للمتقين وصدق القول قرآن
وانت ما زلت تهدينا الى سنن ... تهدي الى الحق لم يثنيك طغيان
تقري الضيوف وتسعى في حوائجهم ... وتحمل الكل لا غش ولا ران
من يستجر بك يامن ان عداه عدت ... تحمي الذمار ويرجى منك احسان
جفيت ليلك لم تألف مضاجعه ... و يومك الدهر جوعان وعطشان
تبيت جنح الدجى تتلو المفصل عن ... قلب وتصبح مثل البدر تزدان
تدرس العلم احيانًا وآونة ... تلقن الذكر فالظمآن ريان
والله اسأل ان اراك مكرمًا ... تسعى وما لك حراس واعوان
ومنه ارغب ان القاك معتدلاً ... كالحال قبل وقد امتك ركبان
ثم الصلاة على النبي وآله ... والصحب طرًا ما نما ايمان

ثم ان اهل الديوان من دائرة الباي وخاصته قد تحققوا فضل سيدي الجد وولايته وما انطوى عليه ضميره وثبت لديهم ان ما رمي به مجرد افك وبهتان وحسد وعدوان فعرّفوا بذلك سيدهم ولما تحقق صفاء طويته اطلق سراحه وكان قبل هذه الواقعة عازمًا على الحج فمنع منه ثم جدد النية واخذ الاهبة للسفر واختار لرفقته سيدي الوالد وخلف على امور دائرته ولده الاكبر السيد محمد سعيد ثم سار برًا الى تونس وبحرًا الى مصر وسافر من السويس الى جدة ثم الى مكة المكرمة فحج واعتمر ويمم الى المدينة المنورة فزار قبر النبي المختار ثم توجه الى الشام واقام بدمشق شهورًا وسمع فيها هو وسيدي الوالد على الامام المحدث الشيخ عبد الرحمن الكزبري بعضًا من صحيح البخاري بمسجد بني امية ثم توجه الى بغداد وزار ضريح القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني قدس سره واجتمع في هذه الرحلة بكثير من العلماء والاولياء واخذ عنهم واخذوا عنه واستمد منهم كما استمدوا منه ولبس الخرقة القادرية من يد الاستاذ نقيب الاشراف وخليفة سيدنا الشيخ قدس سره سليلة السيد محمود واجازه مشافهة وكتابة ثم رجع على طريقه الى المدينة المنورة ومنها الى مكة المكرمة فحج وزار وتم له بذلك ثلاث حجات ثم رجع الى الوطن وجعل طريقه على برقات لزيارة والده السيد مصطفى واستمر سائرًا برًا الى تونس ومنها الى الجزائر فتلقاه حاكمها الاكبر بالتوقير والاحترام ثم توجه الى وهران فكان خبر قدومهم عيدًا و يوم وصولهم يومًا مشهودًا

ثم اقام في منزله معتزلا عن جميع الاعمال مشتغلا بعبادة ذي الجلال عاكفاً على بث علوم الشريعة والحقيقة واشهار الاذكار والطريقة والف في التصوف كتاباً جليلاً سماه ارشاد المريدين ولعمري قد طابق اسمه مسماه ولد رضي الله عنه سنة تسعين ومائة والف وتوفي يوم الاحد سنة تسع واربعين ومائتين وخلف من الاولاد الذكور ستة اكبرهم عمي السيد محمد سعيد ويليه في السن سيدي الوالد وهو اشهرهم ذكراً وابعدهم صيتاً واجلهم قدراً ولد طاب ثراه في قرية القيطنة من اعمال وهران يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة اثنين وعشرين ومائتين والف هجرية وسبعة وثمانمائة والف مسيحية ونشاء على عفة وصيانة مرضيّ الحال محمود الاقوال والافعال اخذ الفقه عن والده وغيره من العلماء ورحل الى وهران واخذ عن علمائها وكان حافظاً لكثير من اللغة العربية والقدر الوافر من صحيح البخارى عن ظهر القلب مجازاً فيه عن والده وسمعه من الشيخ الامام المحدث بي احمد عبد الرحمن الكزبرى بدمشق الشام ايام اقامته فيها صحبة والده واخذ ايضاً عن الامام ضياء الدين مولانا الشيخ خالد النقشبندي السهروردي وكان يكثر التردد اليه وانتفع منه وبرع في فنون علوم الشريعة والحقيقة وله تآليف عديدة وحسبك منها كتاب المواقف في علم الحقيقة وهو لعقد تآليفه واسطة النظام ولمطلع نجده بيت القصيد وحسن الختام ومن امعن النظر في خطبته ادرك منها فضله واقر بعلو مرتبته ونصها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده اللهم صلّ وسلم على رحمة العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه هذه نفثات روحيه والقاآت سبوحيه بعلوم وهبيه واسرار غيبيه من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن انواع الاكتساب والنظر في كتاب قيدتها لاخواننا الذين يؤمنون بآياتنا اذا لم يصلوا الى اقتطاف اثمارها تركوها في زوايا امكانها الى ان يبلغوا اشدهم ويستخرجوا كنزهم وما قيدتها لمن يقول هذا انك قديم واساطير الاولين ويحجر على الله تعالى ويقول اهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا من علماء الرسم القانعين من العلم بالاسم فاننا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم فاذا اظهروا لنا ملاماً وخصاماً تلونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ونعيرهم اذنا صماء وعينا عمياء ونقول لهم آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون ولا نجادلهم بل نرحمهم ونستغفر لهم ونقيم لهم العذر من انفسنا في انكارهم علينا اذ جئناهم بامر يخالف لما تلقوه من مشايخهم المتقدمين وما سمعوه من آبائهم الاولين فالامر عظيم والخطب جسيم والعقل عقال والتقليد وبال

فلا عاصم الا من رحم ربي وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ولا الحكيم المعلم ولكن طريق توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الرشدين . والصحابة والتابعين . والسادات العارفين . وان لم يصدق الجمهور والعموم فعند الله تجتمع الخصوم وقد اشرت الى بعض ما ذكرت في شبه مقامة لي وهي قولي حضرت محاضرة من محاضرات الشرفاء ومسامرة من مسامرات الظرفاء في ناد من اندية العرفاء فجاؤا في سمرهم بكل طرفة غريبة ومستظرفة عجيبة وكان الحديث شجونًا والوانا وفنونًا الى ان تكلم عريف الجماعة ومقدم اهل البراعة فقال احدثكم بحديث هو اغرب من حديث عنقاء مغرب فاشرأبوا لسماعه ومدوا اعناقهم وفرغوا قلوبهم وحدقوا احداقهم فقال ان في الوجود معشوقة غير مرموقه الأهوية اليها جانحة والقلوب بحبها طافحة والابصار الى رؤيتها طامحة يطير الناس اليها كل مطار ويرتكبون الاخطار يستعذبون دونها الموت الاحمر ويركبون لطلبها المكعب الاسمر ولا يصل اليها الا الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد فاذا قدر لاحد مشارفة حماها ومقاربة مرماها القت عليه اكسيرًا لا له مادة ولا مدة ولا هو عين معتدة فيحصل انقلاب عينه وجميع الاعيان في عينه الى عين هذه المعشوقة التي هي غير مرموقة المعلومة المجهولة المغمودة المسلوله الباطنة الظاهرة المستورة الساترة الجامعة للتضاد بل ولجميع انواع المنافاة والعناد ولا يقدر يعبر عنها بعبارة ولا يشير اليها باشارة اكثر من قوله اني وصلتها وحصلتها وبعد التعب والعنا ومعاناة العنا وجدت هذه المعشوقة انا وتبين لي انني الطالب والمطلوب والعاشق والمعشوق فما كان هجري للذاتي الا في طلب ذاتي ولا كانت رحلتي الا لنحلتي ولا وصولي الا الي ولا تفتيشي الا علي ولا كان سفري الا في الي فيقال له هل رايت محياها وشممت رياها حتى قلت انا اياها فيقول رأيت وما رأيت وما رميت اذ رميت ويأتي في اوصافها بما تنبو عنه العقول ولا تتحمله ظواهر النقول ما طرق الاسماع ولا طمعت في فهمه الاطماع يرفع الضدين تارة وتارة يجمعهما ويجمع النقيضين ويضعهما فيقال له هذا الذي تقوله ثبت عندك بدليل او برهان فيقول لا دليل بعد عيان

وكيف يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

فيراجع فلا يرجع ويغلط فلا يسمع وحينئذٍ يحكم الناس عليه بالجنون والعته والسفه والبله ويجهلونه ولو كان اعلمهم ويسفهونه ولو كان احلمهم ويستبيحون منه العرض في الطول والعرض ويجعلونه مرمى غمزهم ولمزهم ونبزهم ووكزهم يهجره الحميم

العاطف ويقليه الصديق الملاطف وهو مع هذا ناعم البال بما لديه قرير العين بما حصل بين يديه ولا يلتفت الى قطعهم وهجرهم ولا يبالي بلغوهم وهجرهم فلما تمت القصة واجتليت عروسها على المنصه وما كاد ان ينقضي اعجابنا منها واستغرابنا لها قلت لهم يا قوم السنم تعلمون اني طلاع الثنايا وسباق الكتيبة الى معترك المنايا فانا آتيكم بحقيقتها ومجازها وافك لكم المعمى من الغازها او اموت فاعذر وما عليَّ ان لم اقبر فقال لي بعض المتبصرين من الحاضرين وكان ممن جرب هذا الامر وفر عن تجربته الدهر ان صدقت لهجتك وهانت عليك مهجتك واردت الوصول الى ذلك الجناب وقطع تلك الجبال والبحار والهضاب فاركب نسرًا وغراب وانه لا ينال ما قصدت الا من كان عليّ الهمه قوي العزمه

اذا هم القى بين عينيه عزمه ونكب عن طرق العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير رمحه ولم يرض الا قائم السيف صاحبا

لا يصرفه صارف ولا تحركه العواصف حلس من احلاس الخيل مـآه النهار والليل اسد في شجاعته خنزير في حملته كلب في وقاحته اذنه صماء عن العاذل وعينه عمياء عن الهاجر والواصل وطريق مطلوبك طامسه واعلامها دارسه بحرها تيار وهواؤها نار وارضها مفاوز وقفار اسدها كواسر واغوالها عن انيابها حواسر مهامه فسيح تجاهل العارف فيها جاهل والدليل الخريت بها حائر والتيه فيها هلاك حاضر فقلت له جهتها اي الجهات فقال لي هيهات هيهات لا يستفهم عنها بمتى ولا اين ولا يرشد اليها اثر ولا عين فاعتمدت على الواحد الاحد وسرت لا الوي على احد فمررت في طريقي على فرق من فريقي فرايتهم بين سادم باهت لا هو بالحاصل ولا الفائت وبين حائر واقف التبست عليه المواقف وبين غريق في لجج تلك البحار وتائه في المفاوز القفار وبين من تعبت راحلته وآخر دبرت زاملته وبين من يدبُّ دبيب النمل حافيًا بلا نعل مررت على جماعة منهم في بعض المشاهد فانشدوني قصيدة فيها نحو العشرين بيتا رجعت الى الحس ببيت واحد منها وهو

ايامن نحن في تعب الجبال وذاك يسير فيها لا يبالي

وما زلت ممتطيا صهوتي النسر والغراب محملا لنفسي كل مكروه مستعذبًا لانواع العذاب لا تطمئن بي دار ولا يستقرُّ لي قرار الى ان ظهرت لي الاعلام التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الاعلام ونادى المنادى وحدى الحادي

ابشر بوصل فهذه العلامات كم طالبين ودون الوصل قد ماتوا

والقى علي ما القى عليهم وثبت لديّ ما ثبت لديهم ولما وصلت حيث وصلوا وحصلت على ما عليه حصلوا طلبت الاباحة والجواز الى التقدم والجواز وقد عرفت الحقيقة والمجاز فقيل لى لا تخط رقاب الصديقين ارجع فما ورآء موقفك الا العدم المحض لا اثبات ولا دحض وحين رجعت الى الاصحاب قالوا ما وراءك يا عصام فقلت القول ما قالت حذام ولكن يا قوم لا تعجلوا بالعتب واللوم ارأيتم لو جاءكم عنين عديم الذوق وقال عرفوني لذة الجماع بم كنتم تفهمونه علم ذلك وتعلمونه فقالوا لا سبيل الا الذوق لما هنالك فقلت لهم وهذا من ذلك فمنهم من سلم وانصف ومنهم من لح وتعسف وربك اعلم بمن هو اهدى سبيلاً واقوم قيلاً وعندما ينجلي الغبار يتبين راكب الفرس من الحمار ولما انفتح الباب وارتفع الحجاب واجتمعت الاحباب على الشراب اللذيذ المستطاب دبت الافراح حيثما دبت الراح وبعد ان طار السكر والمحو ونزل الحضور والصحو رأيت شمسنا طالعة مشرقة ساطعة والناس في ظلمة وليل ومرج وويل فقلت ما بال الناس فقيل انهم في عمي وافلاس وما لكم ولهم انهم عالم وانتم عالم والله غالب على امره الحاكم العزيز العالم · وله رضي الله عنه نظم اذا سمعته وعيته ونثر اذا لحظته حفظته وبشر يترقرق ماؤه في غرته ويتفتق نور الشرف بين اسرته وشجاعة هي مظهر الجلالة والقهر ومصدر الحماسة في ابناء الدهر واني والحمد لله من صلبه خرجت وعلى يده تخرجت ولا اعد لنا من الفضل كثر لدينا ام قل الا منه ابتداؤه واليه انتهاؤه وكنت له والمنة لله اطوع من قلمه لكلمه ما ملت عن نهجه ولا تنحيت من حين عقلت الى يوم التحيت وكان حريصاً على فائدة يلقنها عليّ وعائدة يجرّ نفعها اليّ قرأت عليه التوحيد والنحو والحديث واستفدت منه ما يفتخر بمثله في القديم والحديث وكان رضي الله عنه معتدل القامة عظيم الهامة ممتلىء الجسم حنطي اللون اسود الشعر كث اللحية اقنى الانف اشهل العينين يخضب بالسواد متقناً للخياطة سيما الشبكة واللعب بالشطرنج توفي في الساعة السابعة من ليلة السبت التاسع عشر من رجب سنة ثلاثمائة والف ومن غريب الاتفاق انه ولد في رجب وبويع في رجب وتوفي فيه · وها هنا جواد المقال بنا قد وقف · واقر لسان اليراع بالعجز عن استقصاء مناقبه واعترف · وقصر الباع مع قلة المتاع يوجبان لهذا الفقير العذر · والم الفراق الذي لا يطاق برهان التبلد والحصر · وغاية ما اقول العذر عند خيار الناس مقبول والحمد لله في البدء والختام وعلى حبيبه الاعظم وآله واصحابه افضل الصلاة والسلام

323

﴿ بيان الخطأ والصواب الواقع في الجزء الثاني من تحفة الزائر ﴾

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٧	١٩	السياسي	السياسة
٩	١٦	وش	وبش
١٠	١٧	حاكم	وحاكم
١٠	٢١	فتحوذون	فيجوزون
١٢	١	سراية عظيمة	قصر عظيم
١٢	٥	فوصل بها	فوصل اليها
١٥	٢١	عتنائكم	اعتنائكم
١٧	١٢	الاكدر	الاكدار
١٧	١٧	لا تذمن	لا تذمنّ
١٨	٢٧	وعادا	وعاد
١٩	١٧	الاسرى	الاسر
١٩	١٧	بيسرا	بيسر
١٩	١٩	ماكتبه	ماكتبته
٢٠	٣	النقيه	النقيبة
٢٠	١٦	عذرا	عذر
٢٧	٩	ربيع واربعين الاول	ربيع الاول
٢٧	١٠	تسع وثمانمائة	تسع واربعين وثمانمائة
٢٨	٤	فن	في
٥٥	٢٦	ابى	ابا
٥٩	٣	الى	من
٥٩	١٦	التعب	العتب
٦١	٧	وشوق	وشوقه
٦٧	١٤	توالت	توانت

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٦٧	٢١	حسن	حسين
٦٩	١٩	الياقين	اليقين
٧١	١	فرا	فوا
٧٦	١١	حرابي	حذام
٧٧	٣	بجوارما	بجوارها
٨٠	١٦	لمختار	المختار
٨٢	٢٦	شاد	شاده
٨٣	٤	سداد	شاد
٨٥	١٤	يد	بدا
٨٥	٢٠	برح	برحت
١٠١	٨	التي اوروبا	التي لها اوروبا
١٠٢	١٩	في امنهم	في انهم
١٠٨	٢٤	الرصافة	الرصانة
١٠٩	٥	تشرع	شرع
١١٣	١٣	لامور يس	لامور يسر
١١٥	٢٧	فكتب	كتب
١١٩	١١	بامير	الامير
١٣٠	٩	ثبت	نبت
١٣٥	١٥	الصحيحين رضي الله عنهما	الصحيحين يشهد
١٣٦	١٣	رد	سد
١٣٦	٢٦	عنها	عنه
١٣٧	٢٥	ذو الفقار	ذا الفقار
١٤٠	١٤	الاحقاب	الاحباب
١٤٩	١٦	لجان	وغيطان
١٤٩	١٧	آمان	ايمان
١٥٠	٣	مثلي	والعاجز مثلي

324

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٥٥	٢٥	وارضي	ورضي
١٧٢	٢	يمثل	يمثل
١٨٩	١٩	بعيد	بالعيد
١٨٩	٢٣	غنية	غنيمة
١٩٣	١٣	وشان	واساءت
٢٠٤	٢٣	رقبه	ربة
٢٠٥	٢٥	مراسلات	مرسلات
٢٠٧	٥	ومفدا	ومقدا
٢٠٧	٨	عمدا	غمداً
٢٠٩	١٢	انتظار	انتظام
٢١١	٢٣	الصادعين	الصاعدين
٢١٦	١	السطر الاول والثاني من صحيفة ٢١٦ خطاء ومحلهم السطر الاول والثاني من صحيفة ٢١٧ من قوله نداء الى قوله سنتين	
٢١٦	٥	يحركها	يحركه
٢١٦	٨	اجناد	اخبار
٢١٦	٢٣	لاماك	لامالاك
٢١٧	١	السطر الاول والثاني من صحيفة ٢١٧ خطاء ومحلهم السطر الاول والثاني من صحيفة ٢١٦ من قوله ولم يتلفظ الى قوله ثانياً	
٢١٧	٩	واحد	واحداً
٢١٧	٢٥	الثاني	الشأن
٢٢٣	١٣	عند	عنه
٢٣٠	٨	ايناقض	يناقض
٢٣١	١٤	يتخبطن	يتخبطون
٢٤٣	١	متقدم	متقدمي
٢٤٣	٨	الاثنية	الاثنينية
٢٤٦	٨	وانه ابن	انه ابن
٢٤٧	٦	مثابه	مصابه

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٢٤٧	٦	ملمة	ثلمة
٢٤٧	١١	الامن من	الامن
٢٤٧	٢١	اصطكت	صمت
٢٧٠	٢٢	الليث	المسك
٢٧٤	٢١	سميقع	سميدع
٢٧٨	١	للفواد	للوفود
٢٨٥	١	آلهنا ضحى	آلهنا قلبي
٢٨٥	١١	وان يكن	وان لم يكن
٢٩٩	١٠	ولا آل	والا آل
٣٠٠	٣	بواي	بوادى
٣٠٣	٤	لم يثنيك	لا يثنيك
٣٠٧	١٨	يلقنها	يلقيها